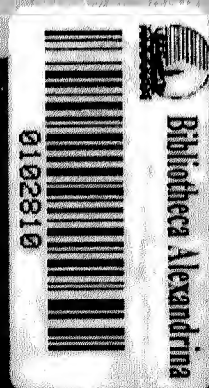
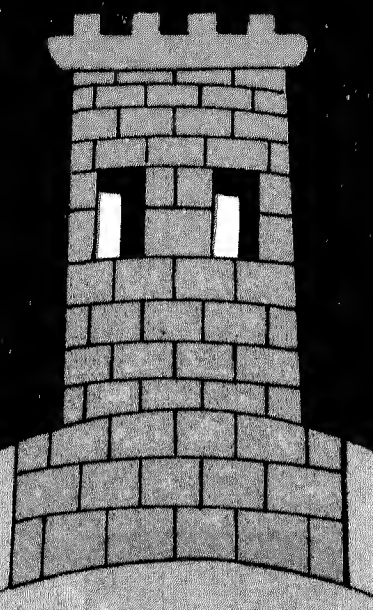


تاريخ التجارة في الشرق الأدنى في العصور الوسطى

بقلم : ف. هايد
مراجعة وتصميم : عز الدين فوده



تاريخ التجارة في الشرق الأدنى

في العصور الوسطى

الجزء الأول

الشرق الأدنى

بقلم

ف. هـ. هايد

W. HEYD

مراجعة وتقديم

د. عز الدين فوده
أستاذ كرسى المنظمات الدولية
بجامعة القاهرة

عربه عن الترجمة الفرنسية
أحمد محمد رضا

الهيئة العامة لكتبة الإسكندرية

رقم التسجيل 380.0956

رقم التسجيل ١/٢٢٧٤٢



الهيئة العامة لكتبة الإسكندرية

١٩٨٥

الاخراج الفنى

مراد نسيم

تصميم الغلاف

سعد الدين الشريف

قَدِيم

للدكتور عز الدين فودة
أستاذ كرسى المنظمات الدولية بجامعة القاهرة

يحقق ظهور هذا الكتاب ونشره فى اللغة العربية أمنية طالما ترددت فى خاطرى منذ سنوات الشباب ، حين بدأت فى جامعة القاهرة تدريس « النظم الدبلوماسية والقنصلية » كجزء متميز من أجزاء القانون الدولى العام ، وأفردت فى تدريس هذه النظم - جريا على ما يتطلبه الواجب ويقتضيه التأصيل فى البحث العلمى - فصولا فى الدبلوماسية الاسلامية ودبلوماسية البندقية ومطلع عصر النهضة الذى شاهد قيام العلاقات الدبلوماسية الدائمة والقنصليات المستقرة فى حوض البحر المتوسط وغرب أوروبا . فقد لفت نظرى وقتئذ الدكتور صلاح الدين المنجد أطال الله فى عمره الى مؤلف ف . هايد « تاريخ التجارة فى الشرق الأدنى فى العصور الوسطى » . وباطلاعى على الكتاب شد انتباهى ما حفل به من وقائع وأحداث وتفاصيل تتبع تتبعاً يقظاً العلاقات الرسمية وغير الرسمية بين دول البحر المتوسط على شاطئيه الاسلامى والمسيحى ، فى الحقبة التاريخية التى تخللتها الحروب الصليبية فى الشرق الأدنى ، ما بين القرنين التاسع والرابع عشر الميلادى ، - وبالأهم ما تأسست عليه دراسة هذه العلاقات من بحوث معمقة وموثقة لكافة جوانبها الحضارية ، حتى شملت التاريخ والجغرافية والاقتصاد والتجارة والسياسة والثقافة والاجتماع . فحققت دراسة هذه البنية التحتية الشاملة تنظيراً غير مسبوق لمؤلف العلامة ف . هايد حول طبيعة هذه العلاقات بين الشرق الاسلامى وبين بلاد المسيحية فى أوروبا وآسيا الصغرى ، بالقدر الذى يعبر تعبيرا واضحا عن حقيقة التوازن الدولى القائم حينئذ بين دول البحر المتوسط ، وبما يشهد ، على خلاف ما اعتقده هنرى

بيرين - أن هذا البحر ظل دائما أبدا صلة ومعبرا بين الحضارتين ، بالرغم مما ألم به فى فترات الحرب والحصار والمقاطعة والضعف والصراع .

ولعل أكثر ما أثار دهشتى وفضولى أنى رأيت هذا الكتاب منقولاً فى صفحات وصفحات بعدد من المؤلفات والرسائل العربية التى عزت الفضل لأصحابها دون هايد ، فقرر عزمى على ضرورة ترجمة الكتاب ونشره باعتباره أثراً من آثار المعرفة والتحقيق المنهجى الحديث للتراث الثقافى ، بجانب قيمته التاريخية والحضارية ، اثباتاً لفضل العالم الباحث المتواضع الذى عكف سنين طويلة فى خزائن المكتبة الملكية فى شتوتجارت - حيث كان يعمل رئيساً لأمنائها - ينقب ويبحث ويدرس ويتعلم اللغات الحية والقديمة كالإغريقية واللاتينية والعربية والفارسية ، ويراسل غيره من العلماء والباحثين والكتاب ، وينشر أبحاثه فى هذا الموضوع بمجلة « توبنجن » ، ثم يعيد تنقيحها وطبعها فى طبعتين مزيديتين لهذا الكتاب باللغة الألمانية ، آخرها هى طبعة سنة ١٨٧٩ المنقولة الى اللغة الفرنسية فى طبعتين ، أولاهما سنة ١٨٨٥ ، وثانيتها سنة ١٩٢٣ التى قام الأستاذ أحمد محمد رضا على نقلها بكل العناية والدقة والأمانة والوضوح الى اللغة العربية ، كى يقدم لقراءها الصورة الصادقة للعمل الفريد الذى أقدم عليه المؤلف ، وادخر له كل وقته وجهده وحياته العلمية ، - اذ لم يؤثر عنه الا هذا الكتاب وحده ، الذى كان خليقاً بأن يجعل من صاحبه مثلاً يحتذى فى صدق وأمانة الباحث العلمى الجاد ، حتى أورثه سمعة علمية ذاعت فى الآفاق .

وقد سبق هايد الى الكتابة فى نفس الموضوع العلامة الفرنسى ج. ب. ديبنج Depping عضو الجمعية الملكية الفرنسية للدراسات القديمة فى مؤلفه « تاريخ التجارة بين الشرق الأدنى وأوروبا » والمنشور بباريس سنة ١٨٣٠ ، - وهو مؤلف كما قال عنه هايد بحق فى صدر مقدمته لكتابه « جدير بكل تقدير بالنسبة الى عصر مؤلفه » . فهو لم يكن مثيلاً لمؤلف هايد فى طابعه الموسوعى ، أو فى خصائصه من حيث التنظير والالام بجوانب الموضوع ، والعناية بالحواشى والاشارة الى أوثق المصادر والمراجع الأصلية ، من خلال هذا

الحشد الزاخر من الوثائق والمحفوظات فى جنوة وبيزا وفلورنس وأمالفى ومرسيليا وبرشلونة والبندقية . الى جانب قصص الرحالة وأصاب البريد العرب . والخرائط والمؤلفات الجغرافية والتاريخية ، والمراجع والكتب التجارية والإرشادية للملاحين والتجار ، حتى ليحسب المرء أن هايد قد جمع فأوفى ، ولكن فوق كل ذى علم عليم .

كان ف . هايد يسوق كل هذا الحشد الزاخر من الكتب والمراجع والوثائق بلغاتها المختلفة فى كتابه هذا ، لا باعتباره مؤرخا فحسب ، أو متقصيا لأخبار التجارة وصنوفها ودروب أصحابها دون غير ذلك ، وإنما كان عالما موسوعيا صاحب نظرة متفحصة أعمق وأدق ، ونزعة علمية نحو الشمول والاحاطة ، تقومان على بسط الحقائق وتحليل الوثائق ونقد الكتب والمراجع ، وإصدار الحكم على الأحداث التى غدت مادته العلمية ، حتى يستطيع أن يخلص الى بعض النتائج السياسية ، أو يترك الى القارئ ومن جاءوا من بعده من الباحثين والمؤلفين أن يجددوا السعى للوقوف على ما كان مقفلا فى خزائن الأسر فى أكناف العالم - واستخلاص المزيد من هذه النتائج .

وانه ليتمكن القول ان مؤلف ف . هايد الذى نحن فى صدد التقدير له ، وشرف التعريف به ، هو فى أضعف الفروض ليس مجرد كتاب فى تاريخ التجارة ، وإنما هو عمل موسوعى موثق ومؤصل فى تاريخ الحضارة خلال حقبة من تاريخنا أصابها الغموض وألمت بها الشكوك أحيانا ، ونسجت حولها الافتراءات والأكاذيب أحيانا أخرى . بل ان أكثر ما يزيد هذا الكتاب أهمية ، ويعطيه قيمة أكبر ، هو نزاهة المؤلف وموضوعيته ، والتزامه ما أمكن الحياد المنزه عن التحيز والتملق وتزويق الباطل والبعد عن إخفاء الحقائق - الأمر الذى قد يعفيه من الوقوع فى بعض الأخطاء . فلا ننس أنه من كتاب العقود الأخيرة من القرن التاسع عشر ، حين لم تكن ثمة علاقات ثقافية وعلمية موصولة بين كتاب تلك الأمصار الأوروبية وبين كتاب أفذاذ أو أنداد لهم فى بلادنا العربية والإسلامية . فلا غرو ان يخلو لهم الجو فيما يكتبون أحيانا .

وإذا كان لى أن أذكر للفضل أهله ، فلا أنسى أننى حين فاتحت صديقى الراحل الشاعر النابه صلاح عبد الصبور -

الرئيس الأسبق للهيئة العامة للكتاب - فى ترجمة هذا الكتاب ، رأيت منه كل تشجيع وترحيب واقدام على أن تتبنى الهيئة العامة للكتبات مهمة نشره ونقله الى اللغة العربية ، وأن يضطلع الأسناذ أحمد محمد رضا بهذه الترجمة فى أربعة أجزاء متوالية . وأنه اذا كانت الترجمة مهمة شاقة ، فهى أشق عند المترجم الباحث المدقق ، بل كانت أشد مشقة فى هذا الكتاب بمصطلحاته وحواشيه ووثائقه . ولكن المترجم - أطال الله فى عمره - قد استطاع أن يكون عند حسن الظن ، كما كان العهد به فى كافة الأعمال الأدبية والعلمية العديدة التى قام على نقلها الى اللغة العربية ، والتى شاركته فى مراجعة بعض منها على مدى عشرين سنة مضت ، حتى أنسبت الى صدق ترجمته ، واطمأنت نفسى الى حسن صياغته فى اللغة العربية . والله ولى التوفيق ؟

القاهرة فى أول يناير سنة ١٩٨٥ .

دكتور عز الدين فودة
أستاذ كرسى المنظمات الدولية
بجامعة القاهرة
(كلية الاقتصاد والعلوم السياسية)

مقدمة المؤلف

منذ نشر كتاب « تاريخ التجارة بين الشرق الأدنى وأوروبا لديبينج Depping (باريس ١٨٣٠ ، جزءان) ، وهو مؤلف جدير بكل تقدير ، بالنسبة الى عصره ، فان هذا الموضوع لم يعالج معالجة خاصة . الا أنه ظهر منذ ذلك الحين مجموعة من الوثائق والمصادر التاريخية لم يكن ديبنج يعلم بوجودها ، وبخاصة في ايطاليا وفرنسا ، تشكل وفرة ثمينة من الوثائق تنتظر من يتقدم لحصادها : فلم التقاعس ؟ هل لابد من الانتظار حتى يتم نشر كل الوثائق المدفونة في خزائن دور المحفوظات ، وهو عمل ضخم يتطلب من العلماء سنين طويلة من الجهود الفردية والجماعية ؟ كلا ، بالتأكيد ، ان جيلنا المتحمس لكل ما يمس تاريخ الحضارة ، سوف يعترف بفضل الكاتب الذى يجرؤ على التقدم ، ويستخلص من مواد ترد من كل صوب وحذب دراسة شاملة للعلاقات المثمرة التى كانت قائمة فى العصور الوسطى فى مجال التجارة بين الشرق والغرب . والحروب الكبرى التى يطلق عليها بعامة اسم الحروب الصليبية . يتناولها قدر كبير من البحوث التى تزداد أهمية على الدوام ، فلم لا يكون للعلاقات السلمية التى نشأت فى معبة الحروب ، وشملت تبادل المنتجات بين العالمين ، واستمرت بعدها ، لم لا يكون لها من يتولى تحليلها ؟ واذا كان للدول الصليبية - تلك الأشباح التى لا قوام لها - مكان فى التاريخ . فلم لا يكون للمستعمرات التى أقامتها فى الشرق الأدنى كله أمم الغرب التجارية ، وازدهرت دهرًا طويلًا ، من يتولى تحليلها هى الأخرى ؟ كانت هذه المستعمرات التجارية منذ زمن بعيد موضوعا خاصا لأبحاثى ، وها قد انقضت عشرون سنة منذ أن نشرت فى « مجلة توبنجن » La Revue de Tubingue الإيطالية ، وهى أهم المستعمرات فى هذا الخصوص . وأطلع

Tuebingen Zeitschrift fuer die gesammte Staatswissenschaft.
1858-1864.

بعض العلماء الايطاليين على هذه الدراسات . وحين سألني السيد جوزيف مولر M. Joseph Mueller وكان وقتئذ أستاذا بجامعة بادوا ، ثم انتقل الى جامعة تورينو ، أن آذن له بترجمة هذه النماذج ، أذنت له بما طالب وأنا سعيد بذلك . وكان من المستحيل أن أجد انسانا أكثر منه اهتماما وتفهما كاملا لهذا النوع من الدراسات . وكانت هذه ، من ناحية أخرى فرصة لاضافة نتائج أبحاث جديدة الى الترجمة ، وتنقبح بعض الأجزاء الأخرى ، حتى صارت هي الأصل في الكتاب الذي صار عنوانه :

«Le colonie commerciali delgi Italiani in Oriente nel medio evo, dissertazioni del prof. Gugl. Heyd, recata in italiano da prof. Guis Muller. Venezia e Torino, 1866-1868.

وبناء على التوصية الكريمة التي قدمها عضو مجلس الشيوخ ، السيد فيديلي لامبريتكو Fedele Lampertico (من فيسنس Vicence) ضم الكتاب الى المجموعة القيمة المعروفة باسم Nuova collezione di opere storiche التي نشرت بتوجيه المؤرخ الفينيسي رينالدو فولن Rinaldo Fulin ، وشغل منها المجلدين السادس والثالث عشر . ولم يكن هناك حتى ذاك الحين موجز تاريخي من هذا النوع باللغة الإيطالية ، ومن ثم حظي مؤلف الكتاب أجنبي فيما وراء الألب بهذا الترحيب الرائع . فقد نلت بسبب هذا النشر شرف القبول عضوا في جمعيتين علميتين : qn-a'lexe.anéKig-sn.rutl.IITiuosâj بجنوة و la Deputazione veneta di storia partia « بفنيسيا تشكل مطبوعاتهما في الوقت الحاضر ، كما تبشر بأن تغدو مستقبلا ، كنوزا من المعلومات ذات قيمة عظيمة لتاريخ التجارة ووجدت في الجمعيتين أصدقاء ومعاونين من طبيعتهم مثل الرجوع الى المصادر التاريخية الأصلية الحالية من أي تحريف ، والعمل بحماسة مدهشة على اثراء الوثائق المنشورة . فكان هذا من حسن طالعي ، ولكنه لم يكن كل شيء : فقد علمت بعد هنيهة ، وفي هذه الظروف ، أن كتابي وجد له قراء في الشرق الأدنى نفسه ، في اليونان والقسطنطينية . كما انتقل من اليونان الى جنوب روسيا ، حيث أوحى للسيد الأستاذ برون

M. Bruun من أوديسا بفكرة إجراء أبحاث جديدة عن
مستعمرات بنطس (★)

وفى أعقاب هذا النجاح ، فكرت ان أعرض عملي هذا
فى ثوب جديد على العلماء الألمان . وقلبت هذا المشروع فى
قريبى حتى ، حتى قر عزمى على الخروج من الحدود التى
فرضتها فى البداية على نفسى ، بأن أكتب ، لا تاريخا
للمستعمرات التجارية الإيطالية ، ولكن تاريخا للعلاقات
التجارية بين العالم الرومانى الجرمانى ، وبين الشرق الأدنى
فى العصور الوسطى . ومع ذلك بقى للإيطاليين ثمة موضع
فى الصدارة ، ذلك لأنهم لعبوا فى كل زمان الدور الفائق فى
الشرق الأدنى ، وان ظهرت الى جانبهم أمة تجارية أخرى .
وكان من المستحيل أيضا تضيق النطاق المخصص لتاريخ
المستعمرات ، إذ كان لها الفضل فى تغذية التجارة ورعايتها ،
كما كان ازدهارها وافولها ، يتمشىان دوما مع ازدهار التجارة
وكسادها . وكان من الضروري فوق ذلك دراسة طرق
المواصلات ، وتنظيم الملاحة ، وشبكة الطرق التجارية القارية ،
ونظم الجمارك والضرائب ، الخ . ولما كانت معلوماتنا عن
السلع التجارية فى العصور الوسطى محدودة للغاية ، كان
من الضروري أن أتوسع فى دراسة التوابل ، والعصور ، ومواد
الصباغة ، والأعشاب الطبية فى الشرق ، والكيفية التى كانت
تنتشر بها فى الغرب ، وكذا المواد الأولية التى كان الغرب
يستخلصها من الشرق ، والمنتجات الصناعية الشرقية باعتبارها
سلعا للتصدير ، مقتصرنا بطبيعة الحال على المواد الأكثر
انتشارا فى تجارة ذلك العصر .

وعلى ذلك فالعمل الذى أقدمه اليوم للنشر هو بنوع
ما الطبعة الثالثة للدراسات التى ظهرت فى « مجلة
توبنجن » . ولما كان من الضروري أن أقوم بتنقيح الخطة
بأكملها ، وأجرى بها المزيد من الإضافات والتصحيحات ،
لذلك لم يبق بالاجمال شئ من النص الأصلى . ومع ذلك
تم اختصار جزء واحد فقط ، فلم أضف شمال أفريقيا الى
دائرة دراستى ، اللهم الا فيما يختص بمرور منتجات

(★) البحر الاسود ، ويكتب أيضا بنطس ، كما يسميه بعض الجغرفيين
العرب نيطس ونيطش - أنظر المسالك والممالك لابن خرداذبة (المراجع) .

الشرق ، بينما كنت في البداية قد خصصت ملحقا للجزء
الكائن بين طرابلس والمغرب .

ويجد القارئ ، إما في الملاحظات الأولية أو في
الحواشي بيانا عن المصادر التي رجعت إليها . وثمة صديق
قديم وكان دائما يشجعني في أعمالي ، هو السيد الأستاذ
ج. م. مونتاس G. M. Thomas من ميونخ . فقد زودني
بالعديد من الوثائق التي لم تنشر من قبل ، والمستخلصة
من دار الوثائق بالبندقية .

ووضع السيد سيزار جواستي Cesare Guasti
مدير عام دار وثائق تسكانيا بفلورنسا ، تحت تصرفي مجلدا
لم ينشر بعد ، حافلا بالوثائق البيزية والفورنسية .
ولم ينقطع صديقاي وزميلاي في جمعية C. Desimoni ،
la Societ à ligure السيدان ديزيموني de Gènes
و ل. ت. بيلجرانو L. T. Belgrano عن أن يكشفوا لي عن
كنوز علمهما الواسع ، ومجموعتهما من الوثائق .
كما فاجأني السيد م. ج. بيرشييه M. G. Berchet مفاجأة
سارة حين أرسل لي ملفا بتقارير عظيمة الأهمية عن التجارة ،
حررها ايطاليون من البرتغال ، وكان في حوزته نسخ منها .
وكان للصلات التي بيني وبين الأستاذين برون Phil Bruun
من أوديسا ، وفلوكنجر Fr. Flueckinger من ستراسبورج
فائدة في عملي هذا ، فقد كانا لي بمثابة الحافز والمشيجع .
وأخيرا ، فقد تفضل السادة أمناء مكتبات برلين وميونخ
فوضعوا تحت تصرفي كتباً نادرة : فإلى هؤلاء جميعا أقدم في
ختام كلمتي هذه أصدق آيات الشكر .

شتوتجارت ، نوفمبر ١٨٧٨

ف . هايد

الحقبة الأولى

البدايات منذ الفتوحات الكبرى
حتى الحروب الصليبية

1. The first part of the paper discusses the importance of the study of the history of the United States.

2. The second part of the paper discusses the importance of the study of the history of the United States.

3. The third part of the paper discusses the importance of the study of the history of the United States.

4. The fourth part of the paper discusses the importance of the study of the history of the United States.

5. The fifth part of the paper discusses the importance of the study of the history of the United States.

عصر جوستينيان وخلفائه

جلب طوفان الشعوب المتبريرة التي اجتاحت الامبراطورية الرومانية في أواخر عصرها بذور حياة جديدة : وبسقوط روما بدأت هذه البذور تنمو في كل أنحاء أوربا ، وأصبحت سلالات قوية فنية ، ولكنها شبه همجية ، أصبحت فجأة ذات أهمية كبيرة : ذلك لأنها اختلطت بشعوب كانت حتى ذلك الحين خاضعة لروما . وأسفر هذا الاختلاط عن قوميات جديدة ، أدى الى تحول عام في الدولة والمجتمع والأخلاق . ومع ذلك لم يؤثر هذا الانقلاب بدرجة واحدة في كل أحوال الشعوب . ففي مجال الحياة الاجتماعية التي هي موضوع دراستنا هذه ، لا نجد في مستهل العصور الوسطى أى حدث يدانى فى أهميته واقعة اكتشاف الطريق البحرى المؤدى الى الهند الشرقية ، واكتشاف أمريكا ، وهما حدثان تما فى بداية العصر الحديث ، وفتحا للتجارة فجأة سبلا جديدة كل الجدة . فالانتقال من العصور القديمة الى العصور الوسطى لم يتم فجأة على هذا النحو ، حيث بقيت الطرق والأماكن التجارية بصفة عامة على ما كانت عليه .

فمنذ أن أتاحت فتوحات الاسكندر الأكبر للشعوب الغربية المتحضرة أن تتصل بأعماق الشرق ، اتجهت جهود التجارة هذه الوجهة ، لأن الشرق كان مصدر انتاج السلع التي أصبحت ضرورية لسادة العالم الجشعين : كان هؤلاء يستوردون من الهند التوابل التي يضعها الاغريق والرومان فى مأكولاتهم لتحسين مذاقها ، والروائح التي يريقونها على أبدانهم ، وينشرونها فى مساكنهم ، والعاج الذى يصنعون منه أثاثهم الفاخر . وكانت الصين تنتج الحرير الذى كانت النسوة ، ومن بعدهن مع ازدياد الرفاهية - رجال العصر الامبراطورى ، يحبون أن يكتسبوا به . أما الجواهر ، فكانت جبال فارس والهند مصدر أحجارها الكريمة ، كما كان المحيط الهندى مصدرا للآلئ . وشيئا فشيئا اتسعت التجارة ، حتى كانت الامبراطورية الرومانية فى عصر « بلين » pline (بليتيوس) تدفع فى آسيا كل عام ثمنا للسلع التي تأخذها منها مائة مليون سسترس sesterces (١).

(١) عملة رومانية قديمة (المترجم) .

أى حوالى ٢٠ مليون فرنك - كانت الهند تحصل وحدها على نصفها (١) .

وفى العصور الوسطى كان الشرق الأدنى لم يزل المقصد الرئيسى للتاجر الغربى . أما السلع التى كانت تستورد فيما بعد من المستعمرات فى أمريكا ، مثل السكر والقطن ، فإنها كانت تستورد وقتئذ من سوريا ، وآسيا الصغرى ، وقبرص ، كما تستورد العطور من الهند . وكانت التوابل ، وبالأخص الفلفل ، تعتبر من أهم السلع الغذائية فى ذلك العصر . ونحن اذا بحثنا عن مصدر الأقمشة الرفيعة أو الطنافس التى كانت فى العصور الوسطى تزين مساكن النبلاء ، والأثرياء من الطبقة البورجوازية ، فلا بد أن ننتهى دائما الى الشرق ، فمنه تأتى بوجه عام المادة الأولية ، وفى الكثير من الأحيان النسيج والمطرزات ، وأنواع الأقمشة . واذا كانت التجارة تتبع دائما الاتجاه نفسه الذى كانت تتبعه فى العصور القديمة ، فقد بقيت أيضا الطرق التجارية الكبرى هى نفسها التى كانت موجودة فى العصور القديمة .

ولما كانت السفن التجارية لا تعرف طريق رأس الرجاء الصالح لاضرار منتجات الشرق الأدنى ، فإنها كانت تكتفى بعبور البحر المتوسط ، أو تمضى على أكثر تقدير فى المياه التى تتصل مباشرة بالبحر المتوسط ، حيث نجد يقينا على طول السواحل أسواقا معروفة منذ قديم الزمان ، كالاسكندرية ، وصور ، وبيروت ، وأنطاكية ، بيزنطة ، وطرابزون . وكان نشوء سوق جديدة حدثا نادرا غير عادى . وكانت البضائع تصل من قلب الشرق حتى تغور البحر المتوسط ، أو بنطس فى الطرق المستخدمة منذ العصور القديمة ، البحر الأحمر أو الخليج الفارسى ، أما البضائع الواردة من وسط آسيا عن طريق البر فإنها تسلك الطرق التى نجدها مذكورة فى مؤلفات الجغرافيين الاغريق والرومان حسبما ورد فى أخبار التجار .

ولعل العنصر الوحيد الذى تغير فى هذه التجارة هو عنصر الوسطاء ، حيث حل الايطاليون ، والبروفانسيون ، والقطالونيون محل الاغريق والرومان . ومع ذلك ينبغى ألا ننسى فى هذا الصدد أن الانتقال من العصر القديم الى العصر الوسيط لم يتم دفعة واحدة . فالواقع أنه حين انقسمت الامبراطورية قسمين ورثت الامبراطورية البيزنطية بطبيعة الحال وبتأثير موقعها الجغرافى تجارة الشرق . ذلك أنها حين نجت من الغزوات ، أدت دور الوسيط فى العلاقات التجارية بين الشرق والغرب الى اليوم الذى أصبحت فيه الطبقة البورجوازية بالمدن البحرية بايطاليا وفرنسا وأسبانيا قوية بدرجة استطاعت معها أن تستغنى عن هذه الوساطة .

وفي وسعنا الآن أن نطرق صميم دراستنا ، وسوف تكون نقطة البداية في هذه الدراسة ولاية الامبراطور جوستينيان Justinien (٥٢٧ - ٥٦٥ م) : والواقع أن لدينا عن هذا العصر وثائق كثيرة تكفي لوضع قائمة كاملة توضح موقف الشرق في هذا العصر من الناحية التجارية . كان أقصى بلد يتبادل معه اغريق بيزنطة تجارة متصلة هو البلد نفسه الذي ينتج أئمن الحاصلات التي يشتد الطلب عليها . فمنذ عدة قرون كانت صناعة الحرير (التي نريد التحدث عنها) مزدهرة في الصين ، غير أن سر هذه الصناعة كان مكتوما بحرص شديد ، حتى لم يستطع الأجانب بالمرّة أن يتعلموا أساليبها . وأخيرا حلت اللحظة التي استطاع فيها بلد آخر أن يستغل هذا الفرع الهام من الصناعة : فقد كان هذا الحظ السعيد من نصيب مملكة صغيرة في وسط آسيا ، مملكة « خوتان » Khotan (بالصينية هو - تيان ، بمقاطعة سنكيانج) اثر زواج ملكها بأميرة صينية ؛ قيل انها خانت وطنها واستطاعت أن تفلت من رقابة رجال الجمارك . فحملت معها الى وطنها الجديد دود القز وبيضه وبذور التوت (١) .

وليس في مقدورنا أن نؤكد أن نتاج الحرير قد زاد من حركته المتجهة من الشرق الى الغرب ، وأنه عبر حدود خوتان في القرن السادس ، ولكن يمكن التسليم بأن الجزء الأكبر من المنسوجات الحريرية التي كان تجار الغرب يتلقونها في ذاك الأوان كانت تصل اليهم من الصين . وكان الصينيون يصدرون منتجاتهم بأنفسهم ، الا أن سفنهم لم تكن وقتئذ تحمل هذه المنتجات الى أبعد من سيلان ، باستثناء حالات قليلة (٢) . ولم تكن تتخطى حدود تركستان ، ومن هناك تتكفل شعوب أخرى بنقل هذه السلع الثمينة الى الغرب . الا أنه من الصعب التمييز بين هذه الشعوب : فكتاب العضر القديم ؛ ومن بعدهم كتاب العصر البيزنطي (٣) ، كانوا يطلقون اسم « سيرس » Sères على كل من

(١) Abel Rémusat, Histoire de Khoten p. 34 et s.,

53 et s. Hiouenstang, 11^e mémoires sur les contrées occidentales, trad p. Stanislas Julien II p. 238 et s.

(٢) استعرضنا هذه المعلومة الخاصة بالعلاقات البحرية بين الصين وسيلان من Cosmas

Montfaucon, collectio - nova patrum II, 337 : Indicopheutes

وأيد هذه المعلومة أيضا الحاج الصيني فاهين (فاهيان) الذي كان يرتحل في مستهل القرن الخامس ، بادئا من سيلان وعائدا الى وطنه ، وقام بهذه الرحلة البحرية على متن سفينتين تجاريتين كبيرتين ، أوصلته احدهما الى جاوة ، والثانية الى الصين . انظر Foe - Koueki

ترجمة وشرح ايبيل ريموزان Abel Rémusat ، باريس ١٨٣٦ ، صفحة ٣٥٩ وما بعدها . انظر ايضا Richthofen ، الصين ١ ، ٥٢٠ .

(٣) انظر : Ritter, Erdk VIII, 692 et ss. et Richtofen, China 1, 474 :

منتجى التحرير ومختلف الشعوب التى تتولى توزيعه . ونذكر من بين الأقوام التى كان تمارس تجارة التحرير بنوع خاص سكان الصغد فى سهوب بخارى ، الذين اشتهروا فى العصور القديمة كلها بمهاراتهم وقدرتهم فى مجال التجارة (١) . وكان التحرير يأتىهم من الصين مع القوافل ، فينقلونها بالتالى ، الى أسواق شمال ايران وجنوب بحر قزوين .

حقا ، ان المصادر المختلفة لا تذكر ذلك صراحة : تيوفان البيزنطى Théophan يذكر أن الأسواق والثغور التى يتردد عليها تجار الحرارى (٢) وقد تغير أصحابها فى وقت قصير . فبعد أن كان يمتلكها الفرس ، انتزعها منهم الهون « الأفتاليت » (اليو - تسى فى الصين) حتى احتلها منهم الترك . وفى رأى أن الأقوام التى ذكرت فى هذه الفترة تحت اسم «سيرس» هى التى كادت تقطن بلاد الصغد ، يؤيد ذلك بقية تاريخ تجارة التحرير . ولكن أين كانت ثغورهم ؟ لم تكن قطعاً عند مصاب نهر الاندوس ، ولو أن هذه المصاب كانت تتصل بالصين بطريق تجارى يمر بآسيا الوسطى ومعابر سلسلة جبال الهندكوش . وإذا كان الفرس والهون الأفتاليت قد بسطوا سيطرتهم بالتناوب حقبة من الزمن على هذا الجزء من الهند (٣) ، فان سلطان الترك لم يمتد أبداً الى هذا الحد ، ينبغى إذن البحث عن بحر آخر . ويرى تيوفان أن ضياع هذه الأسواق من الفرس كان نتيجة مباشرة لهزيمة ملكهم أبرويز Perozès أمام خان الأفتاليت سنة ٤٥٧ م (٤) ، وجرت المعركة الحاسمة بالقرب من الحدود التى تفصل فى الشمال إمبراطورية الساسانيين عن الأقاليم التى يحتلها الأفتاليت سادة سهول نهر أوجزوس (٥) ونهر ياجزارت ، بالقرب من مدينة جورجو الفارسية Gorgo (٦) التى أطلق عليها العرب فيما بعد اسم جرجان ، وتقع على الطرف الجنوبى

(١) Sxmatien; trad. p. Brosset, dans le Nouveau journ. asiat II, 425.

Saint Martin Mém. sur l'Arménie II, 374.

Abel Rémusat Nouveau mélangé asiat I, 229.

Excerpta e Theophanis historia, ed. Bonn p. 848 et s.

(٢) نهر السند حالياً (المترجم) .

Cosmas 338 et s.

(٣) فى خصوص الهون أنظر :

Agathias, ed. Bonn. p. 266; Procop. de bello pers. 1,3,4; Theophan. (٤)
I, 188-190.

(٥) الاسم القديم لنهر أمدار ياوهو بالعربية جيحون - المراجع .

(٦) الاسم القديم لنهر سرداريا ، وبالعربية ميمحون - المراجع .

Excerpta ex Prisco, éd. Bonn. p. 221 : أنظر أيضا Procop 1, c.

من بحر قزوين (١) . أليس من الأوفق اذن البحث على شاطئ بحر قزوين عن ثغور « السيرس » التي فقدتها الفرس بعد موقعةهم مع الهون ؟ ونذكر في هذه المناسبة انه كان يوجد في العصور القديمة طريق تسلكه عادة بضائع الشرق الأدنى من بلاد الأوجزوس الى بحر قزوين حيث تشحن في السفن ، وتعبّر البحر ، ثم تتقدم في نهر أراكس Araxe ، وتهبط نهر فاز Phase ، حتى تعبر أخيرا البحر الأسود (٢) .

وفي أعقاب الأحداث التي ذكرناها، أعيد استخدام هذا الطريق (أو لعله لم يبطل استخدامه بالمرّة ؟) ؛ غير أنه امتد من ذلك الحين صعودا في نهر اراكس حتى يصل الى آسيا الصغرى عن طريق نهر ارتاجزات . ثم ان طريق القوافل كان يتبع دائما الحد الشمالي لایران . وسواء كان الحرير ينقل عن هذا الطريق أم عن ذاك ، فان الفرس كانوا هم الذين يتلقونه دائما قبل غيرهم ، ويحرصون كل الحرص على ألا يصل الى الرومان الشرقيين بطريق آخر غير الذي يحتاج بلادهم ، وبأيد أخرى خلاف أيديهم (٣) . واتفقت بيزنطة مع فارس على تحديد بعض الأماكن التي يتعين فيها بيع البضائع الآتية من فارس الى البيزنطيين . كذلك كان من المستحيل التملص من الأمر الذي يقضى بأن يكون كل من هذه الأماكن مقرا لمكتب جمركي (٤) . وكانت أقصى نقطة في الشمال هي ارتاجزات التي ذكرناها آنفا (٥) ، ومن بعدها ، في وسط بلاد ما بين النهرين (أو أرض

(١) لا تخلط بينها وبين اورجند Ourgendj عاصمة خوارزم التي سنتحدث عنها فيما بعد
Nivien de Saint - Martin Sur les Huns blanc ou Epthalites انظر
dans les Nouv. annal des voy. 1849. III p. 9 et s. not. Spiegel, Eran p. 123
125.

Plin, Hist nat. VI, 17. (٢)

Abel Rémusat, Remarques sur l'extension de l'empire chinois du (٣)
Côté de l'Occident, dans les Mém. de l'Acad. des Inscr. VIII (1927) p. 125.

(٤) مرسوم عام ٤١٠ في قوانين جستنيان .
Excerpta e Petri Patrici hist. éd Bonn. 135.
Excerpta e Menandri hist éd Bonn p. 361 ; Zachariae, Eine Verordnung justinians ueber den Seidehandel, dans les Mém de l'Acad. de St. Petersb. Série VII. T. IX no. 6 (1865) p. 5.

(٥) يعرفنا بريكون (De bello pers. II, 25, 30) Précope بموضع آخر في المنطقة نفسها حيث كان يجري تبادل البضائع الهندية والفارسية : ذلك هو سهل دوبوس Doubios في أرمينيا الفارسية على مسيرة ثمانية أيام من تيودوسيويوليس (ارغروب) . على أن مرسوم عام ٤١٠ يذكر مدينة ارتجرات على أنها المكان الوحيد للتجارة المتجهة الى القسم الشمالي من حدود الامبراطورية من ناحية الفرس ؛ ويبدو مما سبق ذكره أن هذا المرسوم لم يعد ساري المفعول في عهد جستنيان ؛ ولكن كون جستنيان قد اثبت في قانونه شيئا أنه لم يزل ساري المفعول ، وتزول المشكلة اذا سلمنا بفكرة زكريا Zachariae المعقولة (في المرجع السابق ذكره ، ص ٥ وما بعدها) ؛ فهو اذ يعتمد على موقع المكانين ، يرى أن أسواق سهل دوبوس كانت هي وسوق ارتجرات سوقا واحدة .

الرافدين) تأتي نصيبين Nisibe (١) ، وأخيرا تأتي في الجنوب الرقة Rakka على الفرات (٢) . وقد رأينا قبلا كيف كان الحرير يصل الى أولى هذه المدن . وكانت مدينة نصيبين تتلقى الحرير من ناحية في قوافل تنطلق من بلاد الصغد وتجتاز فارس متجهة صوب الجنوب الغربي ؛ ومن ناحية أخرى كان قربها من نهر دجلة يجعلها على صلة بالخليج الفارسي ، وجعل في ميسورها أن تزود بالحرير عن طريق البحر .

أما بخصوص الرقة فان موقعها على نهر الفرات يبعث على الاعتقاد بأن القسم الأكبر من الحرائر ، التي تصل أو حتى كلها ، كانت تجتاز الخليج الفارسي ، وتبعد نهر الفرات . ويذكرنا هذا بأن الحرير كان يحتمل أن يتبع طريقا آخر غير الذي ذكرناه ؛ فقد كان جزء منه يصدر من الصين الى سيلان عن طريق البحر ، ومن ثم ينقل الى سفن أخرى تبحر الى الخليج الفارسي محاذية الساحل الغربي للهند ، والساحل الجنوبي لكرمان Caramanie . ومن البديهي أنه حين كانت البضائع الصينية تتبع طريق البحر ، كان يمكن أن تفلت من أيدي الفرس لأنه كان في مقدورها أن تتجه بعد سيلان صوب جنوب جزيرة العرب ، وأثيوبيا (٣) .

وكان في احتكار تجارة الحرير خطر استطاع الأمباطور جستنيان أن يستغله . فالواقع أن ذلك الأمر كان بالنسبة الى البيزنطيين المضطرين الى الحصول على هذه المادة عبئا ثقيلا . اذ لم يكن في هذه التجارة وسطاء سوى الفرس ، ولم تكن ثمة أمة كأمة الفرس تكثر الحروب بينها وبينهم : ترى ألم يكن يهمهم أن يروا تجارهم يحملون الى أعدائهم المبالغ الضخمة المخصصة لشراء المنسوجات الحريرية ؟ وهل كان عليهم أن يقبلوا بهدوء انقطاع هذه التجارة بسبب حالة الحرب ؟ وعلاجا لهذه الأحوال السيئة حاول الامباطور جوستننيان في عام ٥٣٢ م أن يفتح طريقا لتجارة الحرير يمر بأثيوبيا : فقد رأى في الامكان أن يشتري الأثيوبيون الحرير من الهنود ، ثم يبعونه بدورهم الى البيزنطيين . غير أنه حين وصل وكلاؤه الى الموانئ التي رست عندها السفن الهندية (٤) وجدوا

(١) لا شك في أن نصيبين كانت ترسل بضائع الهند والصين الى أسواق باتنيه Batné الواقعة شرقا في سهل سارودج Saroudj بين بير Bir (على الفرات) واورفا Orfa (أردسا قديما) . انظر الفقرة الغربية لأميين مارسيل Ammien Marcell (XIV,3) ومع ذلك فان رخاء باتنيه لم يدم زمنا طويلا ، فمنذ القرن السادس ضعف شأنها حتى صارت ضيعة مجهولة Procop., De bello persico II, 12)

(٢) Oppidum commerciandi opimitate «gratissimum» Ann. Marcel XXIII, 3.

(٣) Cosmas المرجع المشار اليه آنفا ص ٣٣٧ .

(٤) كانت هذه الثغور واقعة دون شك على مصب نهر الاندوس (الهند) .

عندها الفرس مسيطرين على الأسواق لأنهم جيران وعملاء سابقون ، ومن ثم عادوا صفر اليدين ؛ وبقي الفرس دون نزاع ، وحتى يظهر أمر جديد ، محتكرين هذه التجارة (١) .

وكانت المنتجات التي تصدرها الهند الى غرب آسيا وأوروبا تمر كلها أيضا ، وعلى وجه التقريب بأيدي الفرس ، على الأقل حين كانت القوافل التي تنقلها تسلك الطريق القويم الذي خطته الطبيعة عبر البنجاب ومعاير جبال الهندكوش . ومن الصعب اثبات وجود هذه التجارة عن طريق البر بين الهند وفارس في فترة الانتقال من العصور القديمة الى العصور الوسطى .

وثمة مسافر في مستهل القرن السابع ، وهو الحاج هيونتسانج Hiouentsang وجد في اقليم بميان Bamian (الذي يسيطر على الممر الرئيسي في الطريق المؤدى من الهند الى بكتريان Bactriane) قوما يزاولون التجارة . وذكر بنوع خاص مدينتي كابيسا Kapiça (غير البعيدة عن كابول) واوتاكندا Outakanda (اوهند Ohind القريبة من بشاور) ، باعتبارهما سوقين ترد اليهما بكميات كبيرة أكثر البضائع ندرة وأهمية (٢) . ولكنه لسوء الحظ لا يذكر شيئا عن اتجاه الحركة التجارية هذه . ولم يكن هناك شك في أن بضائع الهند كانت تتجمع في تنقلها صوب الغرب في موضع ما عند مشارف آسيا الوسطى ، ثم تنتهي في اقليم بيزنطة عند ارتاجزات أو نصيبين (٣) .

غير أن القسم الأكبر من المنتجات التي كانت الهند تصدرها الى فارس كانت تنقل بحرا بمحاذاة السواحل ، فلا تنزل الى البر الا بعد أن تصل اما الى أقصى الخليج الفارسي أو الى أحد المرافئ على نهري دجلة والفرات ، حيث يكون المجرى السفلي لهما صالحا للملاحة .

وكان أول مرفأ لاعادة التصدير تقابله في هذه الرقعة السفن القادمة من الهند هو ابولوجوس Apologos الذي سمي فيما ابولاه Obollah ، والذي ورد ذكره قبلا في « رحلة البحر الأحمر » باعتباره أحد المواقع الرئيسية لرسو السفن المحملة ببضائع الشرق الأوسط ولم يفقد هذا الموقع شيئا من أهميته في عهد الساسانيين (٤) . فحين تتجاوز السفن هذا الميناء وتصعد نهر

Procop, De bello persico I, 20.

(١)

Hiouentsang, Mém. I, 37, 40, 125.

(٢)

(٣) يتحدث Procop. (De bello pers. II 25) عن بضائع هندية تصل الى سوق

سهل دوبيوس ، أنظر بعاليه .

(٤) راجع : Geogr. groeci min, éd. Muller I, 285 et Reinaud, Mémoire sur le royaume de la mésie et de la Kharacène, dans les mém. de l'Acad. des insir., XXIV, II, pp. 189, 212, 213. Gildemeister, Script. arab, de reb. ind. loci., p. 37 et s.

دجلة ، لا تقطع مسافة طويلة حتى تصل الى حاضرة ملوك الفرس العظيمة «مدائن كسرى» (طيشفون عند الرومان) . فاذا صعدت السفن نهر الفرات تستطيع أن تتقدم حتى الحيرة Hira (بالقرب من مدينة مشهد على الحالية) دون أن تخرج من حدود الامبراطورية الساسانية .

لقد انقضى زمن طويل على العهد الذي كانت فيه سيادة الرومان السياسية والتجارية ملموسة حتى الفرات الأدنى وشواطئ الخليج الفارسي ؛ وكانت مملكة الحيرة الصغيرة المزدهرة في أيدي أمراء من العرب يعترفون بسلطان ملوك الفرس (من منتصف القرن الثالث حتى مستهل السابع) . وكانت سفن السند والهند (١) ، وكذلك سفن الصين ، تسير الى ديارهم التي يمكن اعتبارها الى حد ما ضمن مدن فارس . ومن هناك تتسلم القوافل حمولتها الثمينة وتسير بها في جميع الاتجاهات ، وبخاصة في عصر الأسواق الكبرى التي كانت تعقد في الحيرة مرة في كل عام (٢) .

حقيقة أنه من الصعب تحديد جنسية السفن التي كانت في القرن السادس تنقل حاصلات الهند الى بلاد ما بين النهرين . وقد أبدى اثنان من أكبر المستشرقين الفرنسيين ، رينو Renaud ، وكاترمير Quatremère في هذا الخصوص رأيين مختلفين . فقد زعم الأول أن الفرس كانوا في عهد السيادة الساسانية يملكون أسطولا بحريا كبيرا ، في حين لم يكن الهنود يظهرون على شاطئ الخليج الفارسي الا ليمارسوا أعمال القرصنة (٣) . ومن ثم يتعين الاجابة على السؤال الذي طرحناه آنفا بأن القسم الأكبر من السفن كانت فارسية الجنسية . أما كاترمير (٤) فيؤكد أن الفرس لم يكونوا أبدا أمة بحرية . فاذا أخذنا برأيه هذا ، تعين التسليم بأن الهنود هم الذين كانوا يتولون بأنفسهم نقل حاصلات بلادهم الى فارس .

والراجح أن الحقيقة تقع بين هذين الرأيين . ونعتقد من جانبنا أن كلا الشعبين قام بنصيب فعال في هذه التجارة البحرية . فقيما يختص بالهنود ، نعلم أنه الى جانب قبائل القرصان المتوحشين الذين يمارسون كثيرا أعمال النهب والتخريب على الشاطئ الفارسي ، كان يوجد منذ زمن بعيد على الساحل

(١) تبعا لتقليد قديم ذكره المسعودي في « مروج الذهب » نشره وترجمه ب . باربييه

دومنيار ، وباقيه دو كورتبي Barbier de Meynard et Pavet de Cortelle,

(I, p. 216, 219. (ed. Gathualdt, p. 80). راجع حمزة اسباهانيس Hamza Ispahanensis

Caussin de Perceval, Hist. des Arabes II, 616 et ss. (٢)

Renaud, Relations des voyages faits par les Arabes et les Persans, I. (٣)

(٤) في دراسته للكتاب المذكور بعاليه Journal des Savants 1846, Nov. p. 681 et s.

الغربي للهند ، وبخاصة في ملبار ، وشبه جزيرة جوجارات Goudjerate شعب متمدن يعتمد في معيشته على البحر ، ويمضى بحثا عن السلع في بلاد نائية (١) .

فضلا عن ذلك أثبت بروكوبيوس Procope بصورة قاطعة ، وهو يروى محاولة جوستينيان انتزاع احتكار تجارة الحرير من أيدي الفرس أن سفن الهند هي بوجه عام التي كانت تجلب الى الفرس حرير الصين . وينبئنا أخيرا كوزماس Cosmas أن جزيرة سيلان كانت ترسل في عصره سفنا الى فارس . غير أن الفرس لم يكونوا من ناحية أخرى يجهلون فن الملاحة كما يزعم كاترمير . فقد كان في كاليانا (كالياني) Kalliana (Kaljani) بالقرب من بمباي على ساحل ملبار ، وفي جزيرة سيلان في القرن السادس ، مستعمرات مسيحية فارسية الأصل ، قدم قساوستها من ذلك البلد ، وتجار خيول فارسية ، ومبعوثون من الملوك الساسانيين في زيارة لجزيرة سيلان .

غير أن هذه الحقائق لا تكفي بالتأكيد لاثبات وجود أسطول بحري فارسي . ولكن من غير المحتمل أن يضطر كل هؤلاء المسافرين والمهاجرين الفرس أن يركبوا سفنا أجنبية ليذهبوا الى الهند . يقول كوزماس ، وهندي حجة قاطعة ، انه كان يصل الى سيلان عدد كبير من السفن القادمة من فارس . نخلص من ذلك بالقول بأن الهنود كانوا يحملون الى فارس منتجات بلادهم على سفنهم الخاصة ، وأن الفرس (وربما أيضا عرب الحيرة التابعين لهم ، كانوا يرسلون سفنا الى الهند (٢) . وكانت نهاية هؤلاء بالتحديد هي سيلان التي كانت كل الأمم البحرية في المحيط الهندي ترسل اليها آثذ سفنها لمبادلة بضائعها .

ووجد تجار الغرب هناك ، الى جانب منتجات البلد ، حرير الصين ؛ والقرنفل ، وخشب الصبر أو الصندل (وهو من حاصلات الهند الصينية) التي تستورد كالحرير على سفن صينية (٣) تسير عند عودتها بمحاذاة ساحل

Hieuntsang, Mém. II, 121, 162, 165.

(١)

(٢) يدعم هذا الرأي ما رواه Theophylactus Simocatta ، اذ يقول ان يهودى الفرس قد اكتسبوا في عهد الساسانيين ثروات كبيرة بارسالهم سفنا تجارية في بحر اركتيريا (ed. Bonn, p. 218) ، اما الترجمة اللاتينية فانها تحرف المعنى في المؤلف الاصلى .

(٣) يوضح رشتيوفن (China I, 520 et s.) Richt-hofen ان الصينيين كانوا يمشون بعيدا أحيانا ، وأقل بعدا أحيانا أخرى صوب الغرب ، ولكن حملاتهم بسيلان ، تلك التي ترجع الى عهد تسن ، ملوك الشرق (٣١٧ - ٤١٩) كانت قوية ونشطة ، ويتبدى ذلك أيضا في الحوليات الصينية . ومع ذلك يبدو من المشكوك فيه أن يكون الصينيون ، بعد أن بلغوا أقصى موقع معتاد لرسو سفنهم ، قد مضوا قدما بسفنهم حتى مدينة الحيرة على نهر الفرات . وكان الذين ذكروا هذه الواقعة يعيشون بعد هذه الآونة بعدة قرون . أما رشتيوفن فانه يؤيدها بسهولة .

ملبار ، ويمكنها أن تزود في طريقها بالفلل ، أو تشحن عند مصب نهر السند
(الاندوس) بمسك التبت وغيره (١) .

واذ كان الفرس يسيطرون على تجارة الهند ، فليس معنى ذلك أنه لم يكن
لهم ثمة منافس : فقد كانت مملكة أثيوبيا المسيحية ترسل أيضا من ميناء أدوليس
(عدولى) Adulis سفنا تقصد الهند لتبيع منتجات أفريقييا كالبخور ،
والسنامكى ، والعاج المتوفر فيها ، وتأخذ منتجات هندية كأجر للعودة (٢) .

كان هذا اذن طريقا آخر مفتوحا للتجارة بين الغرب والشرق . وخلقت
المصالح الدينية والسياسية المشتركة بين أثيوبيا وبيزنطة مجموعة من نقاط
الاتصال . كما كانت المصالح المشتركة لازمة ضرورية لهذه المصالح . فقد سيطر
الأثيوبيون فى الجنوب على مخرج البحر الأحمر الذى تمتلكه الإمبراطورية
البيزنطية القسم الشمالى منه . بل كان الاغريق يفضلون أن يتسلموا بضائع
الشرق الأوسط من أيدي أصدقائهم الأثيوبيين المسيحيين على أن يتسلموها من
أيدي أعدائهم الفرس عبدة النار . لذلك كان عدد كبير من تجار الأقاليم البيزنطية
يذهبون الى أثيوبيا ، اما عن طريق ايلة والعقبة والخبيج الذى يحمل هذا
الاسم واما عن طريق الاسكندرية طلبا لمنتجات أفريقيا ، والهند ، بل ان بعضهم
كان يركب هناك سفنا أثيوبية تبحر بهم الى الهند (٣) .

وكان الأثيوبيون بطبيعة الحال يحصلون على ربح من بيعهم بضائع الهند
للاغريق . ومن ثم كان اهتمامهم الكبير بالمحافظة على هذه التجارة الرسيطة .
لذلك ففي اليوم الذى قتل فيه ملك اليمن اليهودى « ذو نواس » Dhou Nawas
التجار الاغريق الذين كانوا يمرون ببلاده ذاهبين الى أثيوبيا ، استاء ملك أثيوبيا
كل الاستياء من هذا الفعل ، وأعلن عليه الحرب (حوالى ٥٢٥ م) (٤) .

(١) توجد الاخبار المستعارة من كوزماس Cosmas الى هذا الحد فى الصفحات من ٣٣٧
الى ٣٣٩ ، و ١٧٨ . راجع جيرمان
(Die Kirche der Thomaschristen : German p. 134-139).

(٢) فى المرجع نفسه ص ١٣٩ ، ٣٣٩ . وفى : Palladius, De gentibus Indioe
et Bragmanibus, ed. Bissoeus, p. 59. يذكر امبروزيوس Ambrosius بنوع خاص موزيريس

Muziris (Mangalore) على ساحل ملبار ، باعتبارها غاية السفن التجارية الأثيوبية .
(٣) Cosmas, p. 139, 338; Joh. Malalas, ed. Bonn, p. 433.

(٤) (المرجع السابق)
Assemani, Bibbiotheca orientalis, T. I, p. 359; John Malalas
Gratz, Geschichte der Juden, V. p. 449 et s. انظر :

ينكر جراتز أن يكون ملك أثيوبيا هو الذى قام بالهجوم ، ولكن مالالاس يسميه ملك أكسوم ،
وكانت أكسوم قلب أثيوبيا .

وكان للاغريق من أباطرة بيزنطة ؟ مع ذلك وسائل أخرى لجلب بضائع الهند عن طريق البحر الأحمر ، خلاف السفن الأثيوبية . فقد كانوا يملكون في شمال هذا البحر ثغرا محصنا يسمى كليسم Clisma (١) القلزم Kolzoum ، بالقرب من السويس الحالية) ؛ ولم تكن حركة التجارة في هذا الميناء قاصرة على استقبال السفن والتجار الأجانب القادمين من الهند . بل كان يخرج منها سفن ، كما كان الامبراطور اليوناني يعين بالميناء موظفا يسمى « لوجوثيت » Logothète . يسافر إليها مرة كل سنة لجلب منها البضائع (٢) . ويؤكد الكاتب الذي أخذنا عنه هذه المعلومة أن القلزم كانت الميناء الوحيد الواقع في اقليم يوناني ، وترسو عنده السفن العائدة من الهند . غير أن أحد الحجاج المسيحيين في القرن السادس (٣) رأى في القلزم ، وكذا في أيلة على الخليج المسمى باسمها سفنا قادمة من الهند ، وبها منتجات هذا البلد . وكان من الروايات الثابتة الماثورة عن العرب في العهود السابقة على الاسلام أن أيلة كانت مدينة تجارية ، ومحطة جمارك ، ترسو عندها السفن القادمة من اليمن والهند والصين وغيرها من البلاد (٤) ؛ ومنها تنقل القوافل شحنات السفن الى فلسطين أو سوريا .

وكان لليونانيين بالقرب من جزيرة جوتاب Jotabe (تيران Tirân الحالية) محطة جمارك تتوقف عندها السفن المتجهة الى القلزم لتسدد الرسوم المفروضة على المنتجات الهندية (٥) . ومن القلزم تنقل البضائع الى البحر المتوسط على ظهور الجمال ، أو بطريق الماء ، لأن القناة المحفورة منذ أقدم العصور لربط البحر الأحمر بنهر النيل (٦) ، والتي تم حفرها في عهد البطالمة ، وترميمها

(١) يجب كتابة الاسم على هذا النحو Clisma y Clyisma كما يكتب بوجه عام ،
انظر : Vivien de Saint - Martin, Le Nord de l'Arique, Paris, 1863 : p. 245.

(٢) انظر في :
Petrus Diaconus. De locis sanctis (dd. Tosti, Storia della badia di Monte Cassino, II) p. 135 et s.

نبذة ممتعة عن كليسم في عهد السيادة البيزنطية .

(٣) Itinerarium Antonini Placentini, ed. Tobler, St. Gall, 1963 p. 42, (٣)
44, ou dans Tobler et Molinier, Itinera hierosolymitana bellis sacris anteriora I, 113, 115, 378 et s.

Ritter, Erdk, XIV, p. 51 et ss. (٤)

(٥)
Theophanes, éd. Bonn I, 218 ; of Excerpta e Malohi historia p. 232 et s. :
Procop. De bello pers I, 19; Id. Anecdota, éd. Isambert, p. 564; Ritter, op. cit XIII, 221 XIV, 19.

Letronne Recherches sur le livre De mensura orbis terre par Dicuil, (٦)
Prolégomènes p. 9 et ss. ; Humboldt, Krit. Unters. Über die hist. Entw. der geogr. Kenntnisse von der neuen Welt, I, 416 et s.

في عهد تراجان Trajan ، لم نزل قائمة (حتى بداية القرن السادس على الأقل) ؛ ثم امتلأت بعد ذلك بالرمال . غير أن العرب أعادوا اصلاحها ، وعملوا على صيانتها بعض الزمن .

وكان هناك أيضا ، خلاف القلزم وأيلة ميناء رأس بناس Bérénice (١) المشهور الذي ظل يعمل حتى القرن الرابع . فكانت بضائع الهند التي تفرغ في هذا الميناء تتخذ طريق البر الى طيبة ، ومنها تنحدر على نهر النيل . وعلى ذلك كان البيزنطيون يتسلمون بطرق متنوعة منتجات شرف آسيا وجنوبها .

بقي لنا أن نشير الى طريق تجارى آخر ، ذلك الذي يبدأ من وسط آسيا ، ويمضى محاذيا الساحل الشمالى لبحر قزوين ، وينتهى اما الى بحر آزوف أو الى القرم ، فى المواقع التى شيد فيها اغريق بيزنطة مدينتى بسفور Bosparous وخرسون Cherson باعتبارهما مخفرين أماميين . وأنا لنتساءل عما اذا كان هذا الطريق صالحا للاستعمال فى عهد جوستينيان ؟ وكانت هاتان المدينتان تدينان برخائهما الاكيد - مثلما كان الحال فى مدينتى تانا Tane وكافا Caffa الى تلك الظروف التى جعلت المنتجات الآسيوية الداخلية تنتهى عندهما قبل أن توزع على الغرب . ولكن لا أظن ذلك . أولا فيما يختص بالبسفور (وهى اليوم كيرتش kertch) ، تذكر لنا المصادر بأنها كانت على صلة بجيرانها « الهون » (٢) . ولكن الهون لم يكونوا فى هذه المنطقة يزاولون التجارة ببضائع الشرق الأوسط . فهم لم يستوردوا الى هذه السوق سوى جلود الشمال وقرائه (٣) . أما بخصوص خرسون ، فالأمر يختلف على ما يبدو . يقول جوردانيس Jordanès (٤) فى سياق حديثه عن هذه السوق ، من ان التجار الجشعين كانوا يجلبون اليها كنوز آسيا .

وكانت أهمية خرسون بنوع خاص هى أنها كانت تصدر الى الاغريق منتجات بلاد الشمال ، وتزود برابرة الشمال بالبضائع التى ترد على الامبراطورية اليونانية . وكانت بضائع الشرق هى أكثر ما يطلبه البرابرة

(١) Epiphanius, Adv. hoereses, cap. 66. 1. (Opp. ed. Dindorf, III, 1

p. 17); Palladius Ep. Hist. Lausiaca dans la Bibl. vet. patr. graec. lat (éd. Ducoeus, Par. 1624, II, p. 997); Acta, Arethoe dans Boissonade, Anecdota graeca, V, 45.

وفىها ذكر لبناس باعتبارها نفرا بحريا الى جانب ايلة (ايلات)

Johannes Malalas, éd Bonn, p. 432.

(٢) وكليس ، وجوتابى

(٣)

Jordanes Getic e. 5. (ed. Mommsen) Mon. Germ. Antiq. V. 1, p. 63.

Jordanes Getic.

(٤) المرجع السابق

ويقدرّون قيمته . لذلك كان التجار الاغريق بـكولشيـد Colchide وآسيا الصغرى وبيزنطة يحملون بهمة الى هذه السوق التوابل وأقمشة الشرق الأدنى الرقيقة . وعن طريق أهالي خرسون بنوع خاص كان برابرة هذه المناطق الواقعة شمالي بنطس من القوط مثالا (وهم مواطنو جوردانيـس) يشـسـتـرون هذه السلع الثمينة . ولا أظننى مخطئا فى تفسيرى هذا لحديث جوردانيـس .

وفى رأى أنه ليس هناك ما يثبت أن بضائع الشرق الأدنى كانت تتبع طريقا يمر بجنوب روسيا الحالية . ومن المحتمل أنه بعد عصر جوستنـيـان ، حين توترت العلاقات السياسية بين بلاد الصغد وفارس ، اتخذ جزء من بضائع الشرق الأدنى مؤقتا هذا الطريق الى الامبراطورية اليونانية . وسوف نتاح لنا الفرصة للعودة الى هذه النقطة عندما نتتبع تاريخ تجارة الحرير .

ومن المعلوم أن جوستنـيـان قد عمل قبل كل شىء على تخليص القارة من التبعية للفرس ، وعلى القضاء على احتكارهم أثمن سلعة ، الا وهى حرير الصين . واذ تبين أن الأثيوبيين ليسوا قادرين على تحقيق هذا الغرض ، بدت المشكلة غير قابلة للحل . ولحسن الحظ نجح الامبراطور فى الحصول على بيض دود القز . أتى له بها بعض الرهبان القائمين بالتبشير ، وكانوا قد توغلوا داخل البلاد المنتجة للحرير ، وعلى الأرجح فى « خوتان » (فى حوالى عام ٥٥٢) (١) .

وهكذا نشأت صناعة الحرير فى الامبراطورية اليونانية .

وفى عام ٥٦٨ استطاع خليفته جوستن الثاني أن يعرض هذه الصناعة بكامل طاقتها على سفير تركى كان حاضرا فى بلاطه (٢) . ومع ذلك انقضت عدة سنوات قبل أن يتيسر للصناعة الوطنية أن تنتج قدرا من الحرير الخام يكفى لسد المطالب كلها . وكان لزاما عليها ، لزم طويل أن تستورد من الصين الجزء الأكبر من المادة الأولية ، وأحسن أصناف الحرير ، وأن تتحمل الشروط القاسية التى يفرضها الفرس ، الوسطاء الحثميون لهذه التجارة . وكانت السفارة التركية فى عام ٥٦٨ فرصة مواتية بنوع خاص للوصول عن طريق آخر الى الغاية المنشودة ، وان ارتبطت هذه المسألة ارتباطا وثيقا بتغيرات طرأت على الحالة السياسية فى آسيا الوسطى ، يتعين التحدث عنها لفهم ما أعقب ذلك من أحداث .

(١) Procop. De bello gothico IV, 17, Excerpta e Theophanis historia, éd. Bonn, p. 484.

يبدو من الوصف الذى قدمه ريشتهوفن (China I 450 et s.) أنه من الراجح أن سرندا

Serinda بروكوبيوس ليست سوى خكتان Khetan

(٢) تيوفان Theophan ، المرجع السابق .

كان جوستينيان لم يزل متربعا على العرش في العصر الذي بلغت فيه قبيلة تركية أطلق عليها الصينيون اسم « طوكيو » Toukiou في وسط آسيا درجة كبيرة من القوة والسلطان . فمن ناحية بسطت هذه القبيلة سيادتها من سهوب بحيرة بلخاش Balkhach (حيث مقر خانها الأكبر (١)) في وسط آسيا) حتى الحدود الغربية والشمالية للصين ، وأمست تهددها تهديدا خطيرا ؛ ومن ناحية أخرى انتشرت القبيلة على طول نهر أوجزوس (جيحون) ، فأخضعت تركستان وتوخارستان Tokharestan وبخارى ، وكل البقاع التي تليها حتى بحر قزوين ، وقضت على امبراطورية الهون الافتتاليت (٢) . وفي الجنوب الشرقي وقفت سلسلة جبال الهندكوش أول عقبة في طريق تقدمها (٣) . وعلى ذلك كانت الامبراطورية التركية الجديدة بمثابة ركن غائر بين الصين وفارس ، حتى كان على البضائع المرسلة من الصين صوب الغرب أن تمر حتما عبر اقليمها ، لمدة طويلة من الزمان بنوع ما . ولدينا في هذا الخصوص معلومات تفصيلية دقيقة واردة في التقرير الذي قدمه بيكيو Peikiou حاكم الحدود الصينية عن حالة « الطرق التجارية بوسط آسيا في مستهل القرن السابع (٤) » .

وكانت هناك ثلاثة طرق تربطها بعضها ببعض ، طرق قرعية بحيث كان

(١) في الامكان أن نحدد على وجه التقريب موقع هذا المقر بدلالات ثلاث : أولا ، وصف طريق الشمال التجاري كما ورد في « اخبار بيكيو Relation de Peikiou (أنظر فيما بعد) ، ثم رواية زيماركوس بيزنطيني Zemarchos Byzantin بشأن سفارته ، ونجدنا في ، Exc. e Menandri hist p. 381 et ss. وأخيرا في « سيرة الحاج الصيني هيونتسانج بقلم هويلي Hoeili وينتسونج Yenthsong ، الناشر ستانيسلاس جوليان ص ٥٥ وما بعدها .

(٢) Exc. e Menandri hist p. 354; Theophan p. 485. Theophyl. Simoe. p. 283.

(٣) من امبراطورية طوكيو وامتدادها أنظر Supplément de la bibliothèque orientale نسخة ٤٠ وما بعدها ، كذلك :

— Klaproth, Tableaux historiques de l'Asie, p. 115 et ss.;
— Stanish, Julien, Documents historiques sur les Toukiou, dans le Journ. asiat, Série VI, t. III.

ولم يتيسر معرفة مدى اتساع هذه الامبراطورية غربا وجنوبا الا منذ ظهور اخبار رحالة هيونتسانج : (Mém. I p. 16, 17 et s., 23; II p. 190-195, 478 et s.

راجع سيرته بقلم هويلي وينتسونج ص ٦١ .

(٤) Neumann, Asiatische Studien, I. p. 187 et ss; Ritter, Asien, V. p. 563 et s.

ولن نلتفت الى الطرق التجارية الثلاثة التي وصفها ، حسب مصادر أكثر قدما ، ابل ريموزات : Abel Rémusat, Remarques sur l'extension de l'empire chinois I. I. p. 121 et s.

من السهل المرور من طريق لآخر . وبدأ الطريق كلها من الحدود الصينية حتى
تجتاز صحراء جوبي . وأول نقطة مسكونة يصل إليها طريق الشمال هي واحة
« خاميل » أو « هامى » Hiam Kkamil (وكانت تسمى في ذلك الحين
ايجو Igou (١) . ومن هناك يمتد الطريق الى الشمال ، ويقطع الجبال
المجاورة لبحيرة برقول Barkoul (وكانت تسمى وقتئذ بولوى
Pouloui (٢) ، ويجتاز نهر دزونجارى Dzoungari الحالى ، ويمس
بنواحي بحيرة بلخاش ديار قبيلة « الاوجوريك - تاي لو » ouigourique des
Thie-le (٣) ، ثم مقر الخان الأكبر لقبيلة طوكيو ، ثم يمتد غربا فيصل
الى مدينة تلاس Talas الواقعة على النهر الذى يحمل هذا الاسم ؛ وهو يمر
مشهور فى العصر الوسيط كله ، حيث وجد هيوونتسانج Hiouentsang حوالى
عام ٦٣٥) تجارا من بلاد مختلفة مقيمين بها (٤) - وهذه حقيقة ثابتة ، ولو أنها
لم تذكر فى التقرير . ويجتاز الطريق بعد ذلك نهرا يسير صوب الشمال ،
لابد أنه نهر سرداريا Syrdaria (باجزارت Iaxarte) أو سيحون
وبعد هذا لا يذكر التقرير سوى المواضع النهائية لبيزنطة ، وبحر « الغرب » .
وهذا الأخير مصطلح له عند الصينيين عدة معان .

وفى حين يجتاز طريق الشمال أقل أقاليم الأباطورية التركية خصوبة،
كان طريق الوسط يجتاز أكثر الأقاليم ثراء وخصبا ، فيمتد جنوبا بمحاذاة
جبال سيان شان Thian-Chan ويمر بسورفان ، وكاراشان ، وكوتشن ، وهي
مقاطعات وجد بها هيوونتسانج أيضا حركة تجارية ومناجم غنية يجرى
استغلالها (٥) ويجتاز خانق تريك Terek الجبلى غربى الكاشغار Kaschgar
ثم يتجه الى اقليمى فرغانة Feghâ وأوسروشنال Osrouchnal

Vivien de Saint-Martin, notes à Hiouentsang, Mémoires, II, 263; (١)
Ritter, Asien, I, p. 357.

Ritter, Asien, vol. I, p. 379. Stanisl. Julien dans le Journ. asiat, (٢)
Série IV, VIII p. 239.

يبدو لي من الجراء بعض الشيء أن تعتبر بحيرة بولوى Pouloui هي نفسها بحيرة لوب
Lop ، كما يدعى نيومان (المرجع السابق ص ١٩٣) ، وريشتهوفن (China I, 530)

(٣) ي خصوص مواطن هذه القبيلة أنظر : Ritter ، المرجع السابق ص ٣٤٥ ، ٤٤١
و. كلابروث : Klaproth, Tabl. hist de l'Asie, p. 127.

Mem. I, p. 14. (٤)

Bretschneider (Notices of the medical geography p. 38. يثبت كل من :
Richthofen (China I, 542 et s.) و :

أن تلاس القديمة لا بد أن تكون موجودة اما فى موقع حصن أولى - آتا

الحالى أو بجواره .

Mém. I, p. 2-4. Hist de la vie de Hiouentsang p. 47, t. s. (٥)

مارا بأسواق بلاد الصغد القديمة (سمرقند ، وبخارى) . ومن هناك ينحرف صوب الجنوب الغربى ، ويجتاز ميرف Merv حتى يصل الى امبراطورية الساسانيين (١) .

أما الطريق الثالث فانه يجتاز القسم الجنوبى من الامبراطورية التركية . وكان على المسافر الذى يسلك هذا الطريق أن يقطع أولا مسافة طويلة عبر الصحراء جنوب غربى بحيرة لوب Lop حتى مملكتى خوتان ويرقند Yarkand اللتين كانتا فى ذلك العصر على درجة كبيرة من الحضارة وبعد أن يجتاز هاتين المملكتين ، يجتاز غالبا هضاب البامير Pamir المرتفعة ، وإقليمى باداقشان Badakschan وتوخارستان Tokharestan ويصل أخيرا الى الهند عبر ممر باميان Bamian ومدينة غزنة Gazna (بأفغانستان) (٢) .

وهكذا ، فهما كان الاتجاه المتخذ للوصول الى الغرب ، كان الحرير وسائر منتجات الصين وبلاد شرقى آسيا بعامة ، تمر عبر الامبراطورية التركية العظمى . ولسنا نعرف كيف كان الترك أنفسهم ، وهم شعب من الرعاة والمقاتلين الذين لم يزالوا من البدو المتنقلين ، يعملون عمل الوسطاء فى التجارة . غير أنه كان فى الاقليم الذى يحكمونه قبائل مستقرة ، تزاوّل التجارة هنا وهناك . وقد اجتاز هيونتسانج اقليما تقطنه إحدى هذه القبائل ، فابتعد عن الطريق الأوسط بعد أن اجتاز فى شمالى مدينة أكسو Aksou الحالية جبل مز - تاج Muz-tag وسار بمحاذاة بحيرة اسيكول Issikoul ، متجها الى تلاس .

وكانت القبيلة والاقليم يعرفان باسم سولى Souli والمدينة الرئيسية سوشيه Souché (حاليا تكماك Tokmak) ، كما كان هناك تجار من مختلف الممالك ، ونصف السكان يمارسون التجارة (٣) . وكان فى فرغانة أيضا أهل يمارسون التجارة ، الا أن سكان مدن الصغد كانوا قبل غيرهم يشتهرون بأنهم تجار أكفاء ، وصناع بارعون . واذا كانت سمرقند تجمع فى سوقها

(١) فى خصوص هذا الطريق ، انظر أخبار رحلة هيونتسانج ، وآبل ريموزات : Nouv. mélang asiat., I, p. 200 et ss.

(٢) اتخذ هيونتسانج عند عودته الى الصين نفس الطريق . ويتبع أخباره ، والاستعانة بالشرح الممتاز الذى قدمه فيفيان دو سان مارتان ، نجد كل محطات هذا الطريق الجنوبى على وجه التقريب . راجع : ريشتهوفن ، المؤلف السابق ذكره .

(٣) هيونتسانج (Mém. I, p. 12 et s.)

- فسر ريشتهوفن (China, I, 441 et ss) هذه الفقرة بأحسن مما فسرهما فيفيان دو سان مارتان الذى لم يتسن له - فى العصر الذى كتب فيه - أن يستخدم الأبحاث التى تجرى فى روسيا فى الوقت الحاضر .

كميات هائلة من أئمن بضائع البلاد الأجنبية ، فانها تدين بذلك بالأخص لذكاء سكانها ونشاطهم (١) .

وكانت القوافل التي تحمل حرير الصين تتجه صوب بلاد الصغد بنوع خاص ، ومنها نتجه الى فارس . غير أنه منذ أن خضعت هذه البلاد للترك ، لم يعد المروز بهذا الطريق ميسورا كما كان من قبل . وكان الملوك الساسانيون يخافون على سلطانهم من جوار هذا الشعب الغازي : اذ كان في مقدور جيش تركي غازي أن يتوغل بسهولة في الاقليم الفارسي خلف القوافل الصغدية . وعلى ذلك حظر هؤلاء الملوك على رعاياهم أن يشتروا الحرير من أهل الصغد . وبناء على طلب هؤلاء الآخرين ، أوفد أحد نواب الملك التركي (ويدعى تيثويولي Titheupoli عند الصينيين ، وديزابولوس Dizaboulos أو سيلزبولوس Silzaboulos عند اليونانيين (٢)) وكان حاكما للقسم الغربي من الامبراطورية التركية ، أوفد بعثة الى فارس لوضع حد لهذا التوقف في التجارة . ولم يأت هذا المسعى بنتيجة ، اذ لم يسمح ملك فارس بدخول أى حرير آت من الامبراطورية التركية .

وكان المبعوثون قد أتوا إليه معهم ببعض الحرير ، فدفع لهم ثمنه ، ولكنه أحرق الحرير أمام أنظارهم . وجاءت بعثة ثانية لقيت هي الأخرى استقبالا أسوأ - وعلى ذلك اضطر أهل الصغد الى البحث عن سوق أخرى لتصريف حريرهم ، وأقنع زعيمهم مانياك Maniach خان الترك أن يوثق علاقات الصداقة بالبيزنطيين بقصد أن يبيع لهم الحرير مباشرة ، اذ كانت الأمة البيزنطية تستهلك الحرير أكثر من أية أمة أخرى . وسافرت البعثة الى بيزنطة عن طريق القوقاز ، وسافر معها مانياك نفسه ليفتح الطريق التجارى الجديد . وأحسن الامبراطور جوستين الثاني وفادة المبعوثين ، وبعث بدوره «الزيمار le Zimarque ليؤكد صداقة الترك والبيزنطيين . حدث هذا فى سنتي ٥٦٨ ، ٥٦٩ (٣) .

ومن المفيد معرفة الطريق الذى كان يسلكه تجار الحرير الصغديون فى هذا الوقت لكي يسلموا بضائعهم للبيزنطيين مباشرة ، دون أن تطأ اقدامهم الاقليم الفارسي . فقد كان الساحل الجنوبى الغربى لبحر قزوين خاضعا

(١) المرجع السابق صفحة ١٨ وما بعدها ، كذلك :

— Abel Rémusat, *Nouv. méi* I, p. 202, 228 et s.

— *Géographie de Moÿs de Charène dans Saint - Martin, Mém. sur l'Arménie, II, p. 375.*

(٢) لا يجوز الخلط بينه وبين موشان Mouchan ، خان الترك الأكبر فى هذا العصر ،

Neumann, *Die Völker des südlichen Russlands*, p. 113.

راجع :

Excerpta ex Menander, p. 295 et ss.; 380-385; ex Theophan. (٣)

p. 484 et s.

لسلطان الفرس ، وكان على التجار من أهل الصغد دون شك أن يدوروا حول هذا البحر من ناحية الشمال ليصلوا الى الاقليم البيزنطي ، اما عند مخرج بحر أزوف ، واما على الساحل عند مشارف القوقاز . غير ان المصادر لم تذكر بالمرّة شيئا عن هذا الموضوع . وفي البداية نشطت العلاقات بين الجانبين : فقد سافر مبعوث تلو مبعوث من القسطنطينية الى الامبراطورية التركية ، وعاد كل منهم ومعه قوافل تركية كاملة ، بحيث ارتفع عدد الأتراك الذين استقروا في القسطنطينية بحجة مزاولة التجارة الى بضع مئات في زمن وجيز (١) . وكان العدد الأكبر من هؤلاء بطبيعة الحال من أهالي بلاد الصغد ، أى من الذين اعتبروا أتراكا ، الا أن علاقة المودة بين خان الترك وبين الامبراطور البيزنطي لم تستمر وقتا طويلا : فقد استقبل السفير فالتين الذي بعثه الامبراطور تيريوس عام ٥٧٩ باللوم والعتاب بسبب سياسة الخداع التي اتبعها البيزنطيون . وردا على طلباته الملحة للاستمرار في روابط الصداقة ، قام الترك بمحاصرة مدينة البسفور (كيرتش) (٢) .

وفي النصف الأول من القرن السابع انهارت الامبراطورية التركية . وكان خانات الترك في عهد قوتهم قد أغاروا مرارا على الصين ، ولكنهم صاروا بعد ذلك تابعين لها (٣) . وابتهجت القبائل التي تمارس التجارة في أقاليم نهري أوجزس وياجزارت لهذا التغيير : فقد أصبح في مقدورها أن تصل اليها قادمة من الصين دون أن تصادف أية عوائق (٤) . ومن ذلك الحين أيضا ، لم يعد الساسانيون يخشون أى شيء من جانب الترك . ومن ثم كفوا عن الاعتراض على مرور القوافل عبر اقليمهم ، واستمرت الحركة التجارية طريقها القديم . كذلك لم يستمتع البيزنطيون بخلاصهم من سيطرة الفرس الا سنوات قليلة : وهم وان لم يستفيدوا كثيرا من علاقاتهم المباشرة مع الترك ، لكنهم اكتسبوا مع ذلك معلومات صحيحة عن شعوب الشرق الأقصى ، وحضارتها ، وطبائعها ، وصناعاتها ، وتجارقتها (٥) .

Exc. ex Menandr p. 397 et ss.

(١)

Menandr. I. C.

(٢)

Klaproth, Tabl. hist. p. 118-120; Richthofen, China I, 530.

(٣)

Abel Rémusat, Nouveaux mélanges asiat. I, p. 231.

(٤)

(٥) كان المؤرخ تيوفيلاكس سيموكاتا يملك كل ما يلزم لاعطاء معلومات تفصيلية دقيقة عن حالة شرق آسيا وبخاصة عن انتاج الحرير في هذه المناطق (éd. Bonn, p. 283, 286-288) ولم تكن بلد التوجا Taugas التي وصفها سوى الصين ، ومدينة شبدان Chubdan (خمدان Khumdan) الواقعة في هذا البلد هي مدينة هسي - نجان - فهو الحالية. Hei-ngan-fou وهي تشانج - نجان في ذلك العصر : ولم يعد ثمة شك في صحة هذا منذ أبحاث كلاودوت (Klaproth, Mémoires relatifs à l'Asie, III, p. 261-264). (Cathay and The Way : Yule) (China I, 551 et s.) ورِيثتوفن (Thither T. I. p. XLIX - L111.)

الى الآن لم نعتبر الشعب الفارسي الا كوسيط بين آسيا وبيزنطة . ولا بد أيضا من البحث عن كميات بضائع الشرق الأدنى التي يمكن استهلاكها داخل فارس نفسها . فالواقع انه اذا كان الفرس يصرون على أن يمر حرير الصين ببلادهم ، فذلك ليضمنوا لصناعتهم الوطنية ما تحتاج اليه من مواد أولية . وينوه هيونتسانج الذى سار بمحاذاة حدود فارس الشرقية فى مستهل القرن السابع بمهارة صناع هذا البلد فى نسج الأقمشة الحريرية والصوفية والسجاد . كما نوه بتقدير الممالك المجاورة لمنتجاتهم (١) . وكان يتولى تدريب هؤلاء الصناع عمال أجنب قادمون الى فارس طوعا أو كرها من البلاد الآسيوية الخاضعة لبيزنطة .

واذ اتبع جوستنيان نظاما احتكاريا غير سليم، يضر بنساجى الحرير بمملكته ضررا بليغا ، فقد هاجر عدد كبير منهم الى فارس (٢) واستقدم الملك شاهبور الثانى بالقوة عددا اخر من هؤلاء النساجين مع الغنائم التى عاد بها من حملته المظفرة فى بلاد ما بين النهرين وسوريا . وبعد انقضاء بضعة أجيال ، لم يزل هناك تقليد راسخ ينسب الى هذه المستوطنات البيزنطية الأصل صناعة الحرير فى توستر Toust و سوسة Sous ومدن أخرى فى فارس (٣) . وكان لابد من توفير كميات كبيرة من الأقمشة الثمينة لاشباع بذخ البلاط الساسانى . وحين هزم جيش الروم البيزنطيين بقيادة الامبراطور هرقل الفرس فى عام ٦٢٧ واستولى على قصر يزدجرد Oastagerd الملكى وجد به الكثير من الحرير الخام وأكداسا من الثياب الحريرية الكاملة ، وسجاجيد مزركشة ، وأشياء أخرى من هذا القبيل . ولنا أن نفترض أنها من منتجات الصناعة المحلية .

وكانت الثمنية التى ظفر بها جيش الروم البيزنطى فى تلك المناسبة تتضمن أشياء أخرى تهمنا كثيرا ، منها كميات كبيرة من التوابل ، مصدرها الهند بلا شك ، من فلفل ، وزنجبيل ، وصبر ، وخشب الصبار . وقد ألفت هذه الأشياء كلها فى النار ، مع غيرها من الأشياء ، إذ لم يكن فى المستطاع

Mémoires II, 179. Vie de Hiouentsang p. 208. (١)

Procop. Anec. p. 142. (٢)

(٣) المسعودى « مروج الذهب » الجزء الثانى صفحة ١٨٥ وما يليها .

ياقوت : معجم فارس الجغرافى ، الناشر باربييه دو مينار ، ص ٢١٧ وما بعدها

لم يكن للصين تأثير فى هذا النطاق ، فى حين كان لها تأثير فى (ما وراء نهر اوكسيان)

Trans-oxiane. حيث ترجع صناعة الحرير فى نجارى الى ما قبل الفتح العربى لهذه البلاد .

يبد أنها لم تبلغ ذروة ازدهارها الا فى عهد سيادة السامانيين (فى حوالى عام ٩٠٠) .

Vambéry, Skizzen aux Mittelasien p. 182 et s. 208. أنظر :

Geschichte Bochara's oder Transoxaniens I, 78. وكذا :

حملها كلها (١) يضيف الى هذا أنه عندما استولى العرب على المدائن (طيشفون) عاصمة مملكة الفرس الساسانيين عام ٦٣٦ - ٧٣٦ وجدوا بها كميات كبيرة من المسك والعنبر وخشب الصندل ، وكمية من الكافور تكفى لشحن سفينة بأكملها : والمادة الأخيرة تنتج فقط من الجزر الواقعة فيما وراء الهند ، ولم يكن العرب قد رأوها من قبل فظنوا أنها ملح ، وخلطوها بخبزهم ليعطيها مزيدا من المذاق (٢) . كل هذا يثبت لنا أن ترف بلاط الساسانيين كان من الأسباب التي جذبت الى فارس حركة التجارة في الشرق الأدنى .

وبعد أن يحتجز الفرس مؤونتهم من البضائع المارة ببلادهم ، يبقى من هذه البضائع كميات هائلة تنقل مباشرة الى الامبراطورية البيزنطية . ولم يشأ بلاط القسطنطينية أن يكون متخلفا عن البلاط الساساني في روعته وترفه . فقد كان يلذ للأباطرة أن يحيطوا أشخاصهم في حفلاتهم الفاخرة بجمع من الحاشية الذين يرتدون أثوابا من الحرير والنسيج الأرجواني . وفي أعيادهم الرسمية كان المدعوون الى الولائم يجلسون في قاعات يشيع في جوها عير خشب الصبر ، ويتلقون هدايا من ثياب حريرية فاخرة (٣) . ولهذا الغرض وحده كان من الضروري توفير كميات كبيرة من التوابل والأقمشة الشرقية الثمينة . غير أنه كان هناك سبب آخر يدعو البلاط الروماني لاستهلاك كميات كبيرة من منتجات الشرق ، وهو سبب سياسي : فقد كان البلاط حريصا على أن يعرض على أنظار برابرة الشمال صلاته التجارية بالبلدين العجبيين ، الهند والصين . وكلما ضعفت إمكانية الإيهام باستعراض مظاهر القوة والجبروت ، زادت الحاجة الى استخدام مثل هذه الوسائل لتأكيد تفوق الامبراطورية الرومانية .

ومهما كانت روابط الصداقة بين أمير بربرى وبين بيزنطة ضعيفة فان هذه كانت تهدي اليه او الى مبعوثية أقمشة حريرية وأحجارا كريمة، وفلفلًا، ومنتجات شرقية أخرى (٤) . كذلك كانت كميات كبيرة من الحرائر تذهب الى الغرب ، يهديها الامبراطور الى كنائس أو الى رؤساء الكنائس ليصنعوا منها ثيابا وحليا ، أو الى بعض الأمراء اعلاء لهيبة بلاطهم .

Theophan. I, 494; Cedrenus I, 732.

(١)

Ritter, Asien, VII, Sect 1, p. 173; Weil, Geschichte der Chalifen, p. 75. Justi, article sur l'édition de Tabari par Zotenberg, dans l'Ausland, 1875 no. 16, p. 309.

Constantin Porphyrog. De cerimonis Aulæ Abvantine. passim : Theophanes continuatus p. 437.

(٢)

Excerpta ex Prisci historia, p. 171, 185; ex menandr p. 203;

(٣)

Theophanes, I, p. 429; Theophylact. Simoc, p. 294; Theophanes Continuatus, p. 343.

(٤)

ولما كان أباطرة بيزنطة يريدون أن يكون في حوزتهم دائما قدر كاف من الأقمشة لسد حاجاتهم ، وليمنحوها هدايا فاخرة ، فانهم كانوا يبذلون كل جهدهم لتشجيع تجارة الشرق الأدنى . ولم تكن المصالح التجارية مهمة في المفاوضات التي تجرى مع أمراء فارس أو أثيوبيا ، بل كانت في الغالب هي الموضوع الرئيسي (١) . غير أن الأباطرة كانوا يفعلون أكثر من ذلك ، كانوا يهتمون اهتماما مباشرا بالتجارة والصناعة . وكانت المبادلات التجارية بين رعاياهم وبين الفرس لا بد أن تتم ، طبقا للمراسيم في بعض المدن الواقعة على الحدود ، وفي هذه المدن مندوبون عن الأمباطور يطلق عليهم في عهد جوستينيان اسم *commerciarue* وقبل هذا العهد اسم *comites commerciorum* ولم تكن وظائفهم قاصرة على واجبات محصلي الرسوم الجمركية ، ولكنهم كانوا أيضا بمثابة وكلاء في عمليات شراء الحرير الخام (٢) . وكانت مشترياتهم في أغلبها تخص دور الحريم بالقسطنطينية ، وتخضع لرقابة أمين خزانة الأمباطورية *comes largitionum* . ويتولى بعض العبيد المالحقين بخدمة البلاط تصنيع الحرير الخام ، فينسجونه ، ويصبغونه ، ويصنعون منه كل الأقمشة التي يحتاج إليها البلاط . وكان من المحظور على أى شخص خلاف هؤلاء العبيد أن يصنع أى نوع من الأقمشة الثمينة (٣) . وكانت هذه الورش في دور الحريم الأمباطورية تنافس الصناعة الخاصة منافسة شديدة ، ومع ذلك عاشت الصناعة الخاصة ، المحدودة في إنتاجها ، والتي تجد مشقة في تصريف هذه المنتجات . ولم يكن موظفو الجمارك يسلمون البلاط كل ما يشترونه من حرير خام ، فقد كانوا ملزمين بأن يبيعوا جزءا منه بثمان التكلفة الى الأفراد الذين يتاجرون به أو يصنعونه . وكان هذا الاجراء يتيح في الغالب لتجار الحرير أو صناعه أن يشتروا الحرير بثمان أقل كثيرا من الثمن الذي يشترونه به عندما يتعاملون مع الفرس ، فمن شأن المنافسة أن ترفع الأسعار (٤) . ثم انه كان من أثر موقف الفرس العدائي ، وكثرة انقطاع العلاقات بسبب اندلاع الحروب أن بقي الحرير مادة مرتفعة الثمن .

كانت المراكز الرئيسية لصناعة الحرير في الدولة البيزنطية ، بخلاف دور الحرير في القسطنطينية ، موجودة في سوريا ، وبخاصة في صور

(١) قارن ببعض الأمثلة المطاة قبلا : Les Excerpta e Menandri hist. p. 361; Theophanes I, 377.

(٢) Zachariae Eine Verardnung Justinians, 1. c. p. 8 et ss.

(٣) يعرض باريزيه (Pariset, Histoire de la soie, 1, 161 et s.)

مجموعة المراسيم الخاصة بقصورات الحريم
(٤) Zacharine, 1 c. p. 9 et ss.

وبيريت Béryste (١) . وكانت سوريا من أكثر أقاليم الإمبراطورية ازدهارا . ويقول بروكو بيوس (٢) في معرض حديثه عن أنطاكية عاصمة هذا البلد أنها أولى المدن الرومانية الشرقية بشرائها ، واتساعها ، وسكانها ، وجمالها ، وآثارها ، ويبدى انطونين مارتير S. Antonin Martyr دهشته من مظاهر البذخ السائدة في أنطاكية ، وكذا فخامة أباميا Apamée وبيريت وغزة (٣) . غير أن هذه الروعة ما لبثت أن خبت قليلا حين حدد الإمبراطور جوستينيان ثمنا أعلى للأقمشة الحريرية . ومن ثم لم يستطع التجار والصناع أن يواصلوا نشاطهم ، وحل الخراب بالمصانع التي فرضت عليها رسوم باهظة ، وعانت من احتكار شاذ ، واضطر عدد كبير من العمال الى الهجرة (٤) . بيد أن هذه الحالة لم تكن سوى حالة عرضية . فبعد فترة وجيزة دخلت تربية دود القز في البلد ، ولم تعد الصناعة في حاجة الى شراء المادة الأولية من الخارج بأسعار مرتفعة ، وأصبحت قادرة على انتاج الحرير في البلد بنفقات قليلة ، ومن ثم ازدهرت .

وفي تصورنا أن الصناع السوريين لم يفهم أن يملأوا البلد بمزارع أشجار التوت ، وكان ريشتر Richter محقا حين أرجع بداية زراعة هذه الأشجار في ضواحي بيروت الى القرن الأخير من عهد السيادة البيزنطية في سوريا (٥) .

ولم يكتف السوريون بصنع الحرير ، ولكنهم كانوا أيضا تجارا نشيطين يصدرون الى جهات نائية مع الحرير أنواعا أخرى من منتجات الشرق الأدنى (٦) . ويتحدث عنهم س. جيروم S. Jérôme قائلا انهم تجار جشعون ، يجوبون بقاع العالم كله ، ومعهم بضائعهم ، متحدين البؤس والموت ، وغارات البرابرة ، باحثين عن الثروة حتى في إمبراطورية الغرب (٧) . وحين قويت سيادة الألمان على اقليم الإمبراطورية ، زادت تجولات التجار

(١) Procop. Aneed. cop. 25 (éd. Dindorf, III, p. 140).

Antoninus Martyr trouve à Tyr, vers 570 «gynoecea publica et olosericum et diversa genera telarum». (De locis sanctis, éd. Tobler, cap. 2, p. 5. et Tabler et Molinier, Itinera hiero-solymitana, I, p. 92).

De bello persico II, 8.

Ed. Tobler et Molinier p. 92, 109, 118.

Procop. Aneed 1. c. p. 140-142.

Erdk XVII, 1, p. 496.

Procop. Aneed, p. 140.

Hieron Ep. ad Demetriadem, ed. Maurin, IV, 2, p. 788. Id., In Ezech. (٧)

27, 16 ib, 111 p. 885.

السوريين في البلاد الرومانية ، واستقر بها عدد كبير منهم . وهكذا نجد في عصر الميروفنجيين بعض السوريين ، وقد استقر بهم المقام ليس فقط في المدن التجارية جنوبى فرنسا ، مثل ناربون ، وبوردو ، ولكن أيضا في وسط فرنسا ، في أورليانز ، وتور ، حيث اختلطوا اختلاطا شديدا بباقي السكان حتى لم يعد في الامكان اعتبارهم من الأجانب ، ففي أورليانز كانوا يشتركون في الأعياد الدينية ، وفي باريس تربع واحد منهم السدة الأسقفية (١) . وفي عصر جريجوريوس أسقف تور ، لم يكن نبذ غزاة بالشئ النادر في بلاد الفرنجة ، بل أصبح يرد الى هذه البلاد أكياسا جلدية من فينيقيا (٢) . ولا شك ان التجار السوريين هم الذين كانوا يستوردون هذه الأشياء . وعندما ازداد الترف في بلاط الميروفنجيين ، واعتاد الرجال والنساء هناك أن يلبسوا ثيابا حريرية فاخرة (٣) ، واستقر في الكنائس عادة تغطية المذابح بالحرير ، ولف الآثار القيمة به ، واستخدامه في صنع ثياب القساوسة ، من كان اذن يستورد هذه الأقمشة الى فرنسا غير التجار السوريين ؟

كان اقليم سوريا ، حسب الظواهر كلها يفوق سائر الأقاليم بنشاطه الصناعي والتجارى . ومع ذلك كانت مصر سوقا واسعة لواردات الشرق ، وكان جزء من هذه الواردات يأخذ طريقه الى الغرب عبر البحر المتوسط . وكانت مصر نفسها تنتج عددا من السلع للتصدير . وفي عهد جريجوريوس أسقف تور ، كان البردى يصل بالتاكيد الى مرسليليا عن طريق البحر (٤) ، غير أنه لا يوجد ما يشير صراحة بأن الروم في مصر كانوا ينقلون بضائعهم بأنفسهم الى فرنسا أو إيطاليا ، أو أنهم أقاموا منشآت تجارية في ثغور هذين البلدين . ومن جهة أخرى ، ليس من الغريب الا نجد في مؤلفات جريجوريوس أسقف تور أو في الوثائق الرسمية في العصر الميروفنجي أسماء لتجار روم من القسطنطينية أو غيرها من الاقاليم الأوروبية التابعة للإمبراطورية

Acta concil. Narbon. a 589, can. 4 dans Monsi, Coll. conc. IX, (١)

1015; Grég. de Tours Hist. Franc. VII, 31, V111, 1, X, 26.

Id De glor. mart cap. 95; Vita Columbani, dans Mabillon, Acta ss. ord. Bened. saec II, p. 19.

انظر أيضا بونامي Bonamy عن فقرة خاصة بجريجوار دو تور

Grégoire de Tours, (Hist de l'Acad. des Inscr), XXI, Paris, p. 96 et ss.

Deguignes, Mém. sur l'état du commerce des Français dans le Levant avant les croisades, (Mém de l'Acad. des Inscr). XXXVII, p. 472 et s.

Greg. de Tours, Hist. Franc. VII, 29, De gloria confess. cap. 65; (٢)

De gloria martyr. cap. 112.

V. Audoeni Vita S. Eligu passim; Vita S. Clodoaldi, dans Mabillon, (٣)

Acta ss. ord. Bened. soec. I, p. 136.

Grég. de Tours, Hist. Franc. V, ٤. (٤)

الشرقية (١) ، ذلك رغم كثرة المبعوثين الموفدين بين بلاط انشرق والملوك الميروفنجيين .

نستطيع اذن على أية حال أن نؤكد بأن الروم الحقيقيين لم يكن لهم نصيب فعال في العلاقات التجارية بين الشرق والغرب مثلما كان للسوريين ؟ وإذا كانوا قد لعبوا دورا هاما في هذا المجال ، فربما كان ذلك في ايطاليا (٢) ، لأن هذا البلد لا يفصله عن أقاليم الأمبراطورية الشرقية سوى البحر الأدرياتي ، وكان تابعا لهم بعض الشيء من الوجهة السياسية .

وفي أسبانيا حيث مارست الدولة البيزنطية سيادتها زمنا طويلا (حتى عام ٦٢٥) على السواحل الشرقية والجنوبية الشرقية ، يمكن أن نفترض أن الروم هم الذين حملوا إليها جزءا من منتجات الشرق التي كانت منتشرة في تلك الاصقاع (٣) . والواقع يذكر « الشماس الانجيلي » بول مريدا Paul de Mérida أن التجار الروم القادمين من الشرق كانوا يصلون (على الراجح عن طريق نهر جواديانا) الى بلدته الواقعة بعيدا في داخل البلاد (في قشتالة الجديدة) حيث يهدون بضائعهم لأسقف المنطقة (٤) . وكانت قوانين القوط الغربيين (٥) تحتوي على تعليمات متعلقة بالتجار الذين يعبرون البحار transmarini negotiatores . ولا ريب أن هذه التسمية كانت تطلق أولا على تجار شمال أفريقيا . ومع ذلك يحتمل أنها تنصرف أيضا الى الروم ، حيث لا يمكن التثبت من مصدر تلك البضائع بطبيعتها (٦) . وفي البلاد الجرمانية الأصلية ، أو الجرمانية الرومانية ، لم يبد على الأهالي استعداد كاف لمزاولة التجارة ، وبخاصة التجارة البحرية التي تتطلب مزيدا من الجهد والوقت والمال أكثر مما تتطلبه التجارة الداخلية . وكان للجرمان بنوع خاص عادات بدائية بسيطة ، ولم يكن بهم حاجة الى استيراد

(١) في فقرة من قرارات مجمع ناربون Marbonne الديني لعام ٥٨٩ (ماني Mansi المرجع السابق ذكره) في شأن الراحة الأسبوعية ذكر اليونانيون باعتبارهم يشكلون قسما من السكان ، متميزين عن القوط والرومان واليهود والسوريين . بقي أن نعرف ما اذا كان هؤلاء اليونانيون ينتمون الى طبقة التجار .

(٢) نجد مع ذلك هاما أيضا سوريين ، في بعض الجهات . يذكر بروكوبيوس في (De bello goth. 1, 8) واحدا منهم ، يدعى انتيوخس Antiochus كان يقطن في نابولي .

(٣) Romey, Hist. d'Espagne, II, 357.

(٤) Paul, disc. Emerit, De vita patr. Emerit dans Florez Espana sagr.

XIII, 348. cmfh drétrmtf

(٥) Lex Visigoth. lib XI, tit. 3, 1, 2.

(٦) Dahn, Ueber Handel und Handelsrecht der Westgothen. انظر بداية

التوابل والعطور والأقمشة الثمينة من الشرق . وكان كل ما يطمحون اليه هو حيازة الأرض ، فهذه الحيازة وحدها تكفل لهم نصيبا في أهم الحقوق الأساسية في الدولة والمجتمع ، كما تزودهم الزراعة وتربية الماشية بكل مطالب الحياة . وفي تلك العصور المضطربة ، كان الدفاع عن الملكيات ضد الغارات المسلحة ، والالتزام بالخدمة العسكرية المرتبطة ارتباطا وثيقا بملكية الأرض ، أمورا تستنفذ قوة كل انسان ووقته .

وأخيرا لم يكن « الجرمان » يملكون نقودا كافية . والنقود هي أولى الضرورات اللازمة للمشروعات التجارية الكبيرة . وكان الأمر بخلاف ذلك عند « الرومان » الذين أخضعهم « الجرمان » ، اذ كانوا مولعين بالكماليات التي تجلبها تجارة الشرق الأدنى الى الغرب ، فكان ذلك عندهم عادة متأصلة . الا أنهم ، وقد أعيتهم مطالب محصلي الضرائب الرومانية ، ثم افقدتهم الغزوات أموالهم ، لم يعد لدى أغلبهم من الموارد ما يكفي لشراء هذه السلع ، أو من المال ما يكفي للمغامرة في مشروعات تجارية كبيرة . ومن الراجح في هذه الظروف أن اقبال التجار السوريين على الغرب لم يكن يقابله سوى تيار ضعيف جدا من القادمين من الغرب الى الشرق .

وثمة أفواج من الحجاج تأتي الى الشرق لزيارة الأماكن المقدسة ، طلبا للتنوير ، أو الاستشفاء ، أو المخلقات الثمينة (١) . غير أن أحدا من هؤلاء المسافرين لم يذكر شيئا عن أى تاجر ، اللهم الا في القليل النادر (٢) . وكان المثال الذي يذكر عادة لاثبات أن الفرنجة كانوا يذهبون في عصر الميروفنجيين الى سوريا للتجارة ، ينطبق بالأصح على رحلات التجار السوريين الى فرنسا . والواقع أننا نطالع في حياة القديسة جنيفيف (٣) أن القديس سيميون ستيليت S. Siméon Stylite المعروف الذي كان مقيما في أنطاكية كان يبدى اجلالا كبيرا لتلك القديسة الفرنجية ، ويكلف التجار الذين يسافرون الى بلاد الغال أو يعودون اليها ، أى مواطنيه الذين يسافرون الى فرنسا أو يعودون اليها أن يقدموا للقديسة تحياته أو يتحرون أخبارها .

ومن العسير أن نذكر أسماء موانئ بحرية في الغرب تمارس في ذلك العصر نشاطا تجاريا خاصا . ومع ذلك فمن المحتمل كثيرا أن تكون مرسيليا

(١) نجد هذه الحقيقة يشهد بها بالنسبة الى فرنسا جريجوار دو توار : Grég. de Tours, Hist. Franc. 1, 10 : id. De gloria martyrum, cap. 1, 5 6, 19, 21.

Antoninus Martyr

Fidelis, dans Dicuit, De mensura arbis

كما يشهد بها بالنسبة الى ايطاليا انطونيوس مارتيز وبالنسبة الى انجلترا فيديليس Grég. de Tours De gloria martyrum, cap. 78. نجد مثالا لذلك في جريجوار دونوار

Acta ss. Jan. I, pag. 140.

(٣)

استثناء من هذه القاعدة (١) ، اذ لم يفقدها الغزو الفرنجي كثيرا من أهميتها القديمة . ولما كنا ندين بهذه المعلومات الى أحد المؤرخين الروم (٢) ، فان لنا أن نمضى شوطا بعيدا ، ونستنتج أن مرسيليا كانت تقيم علاقات وثيقة مع الأباطورية البيزنطية . وكانت مرسيليا الموقع الذى يبحر منه ويعود اليه الفرنجة الذين يسافرون الى القسطنطينية (بصفتهم سفراء أو بأية صفة أخرى) (٣) . ويبدو من جهة أخرى أن المرسيليين كانوا يرسلون سفنا الى مصر لتأتيهم منها بورق البردى (٤) . وفى عهد جريجوار دو توار Grégoire de Tours كان ثمة ناسك يقيم فى ضواحي نيس يعيش فى أيام الصيام ، متشبها بنساك مصر على جذور نباتات هذا البلد (أى مصر) ، يأتيه بها بعض التجار ، من مواطنيه ، أى من أهالى مرسيليا ، لا من الأجانب بالتأكيد .

ومن الايطاليين ، اشتهر سكان الجزر (٥) المنتشرة على البحيرات الساحلية شمالى البحر الأدرياتي بجراتهم فى القيام برحلات طويلة (٦) . وليس فى مقدورنا لسوء الحظ أن نعرف الغرض من هذه الرحلات . حقا ان أخبار « الطينو » Altino التى كتبت فى القرن التاسع عشر (٧) تضع على لسان « لونجن » Longin البيزنطى حديثا يفهم منه أن سفن البندقية التجارية كانت تعبر بحار الأباطورية البيزنطية كلها ، وتمضى حتى انطاكية . غير أن هذا الحديث ليس فى الواقع سوى أثرية من المؤلف لا تثبت أى شئ .

كان البيزنطيون يحتفظون اذن فى البحر المتوسط بسيادة لم يفكر الغربيون أن ينازعوهم فيها . كانوا سادة السواحل التى تنتهى اليها الطرق التجارية الآسيوية ، ويملكون مصر حيث يجلب لهم البحر الاحمر سلع الشرق الأدنى ، وسوريا التى تفرغ فيها حمولة القوافل القادمة من الخليج العربى ، (أو الفارسي) ، أو وسط آسيا ، وأخيرا المواقع الثانوية على البحر الأسود ،

(١) شوهد فى سوق سان دنيس فى عهد الملك الميروفنجى بروفنسين الى جانب لومباردين وامبانيين (Pardessus Dipl. II, p. 5.)

Agathias, 1, 2. éd. Bonn. p. 17. (٢)

Grég. de Tours VI, 2, VI 24 VII, 36. (٣)

(٤) المرجع السابق

Grég. de Tours VI, 6. (٥)

Cassiod., lib. 12, e p. 24. (٦)

Arch. stor. it VIII, p. 210; Mon. Germ. hist SS. XIV, p. 48. (٧)

التي تهتم بتجارة الشرق الأدنى ، غير أن العرب انتزعوا منهم في القرن السابع
أهم ولاياتهم الشرقية من حيث التجارة . ثم أن ظهور هذا الشعب على مسرح
العالم كان حدثا من تلك الأحداث التي تؤثر بعمق في كل الاتجاهات . فقد
أجرى في الحياة التجارية بالشرق انقلابات شديدة ، ومن ثم ينبغي لنا دراسته
بدقة قبل أن نواصل دراسة العلاقات التجارية لدى البيزنطيين والغربيين .

ظهور محمد (صلعم) وبداية الحروب الصليبية

١ - العرب والطرق التجارية فى اقليمهم

من المعروف أنه فى الوقت الذى دعا فيه محمد (صلعم) العرب الى عقيدة جديدة ، كان يبت فى نفوسهم كرها شديدا للكفار دفعهم الى الانطلاق خارج بلدتهم الذى لم يكن معروفا حتى ذلك الحين . وسرعان ما فتحوا سوريا وبلاد ما بين النهرين وفارس من جهة ، ومصر من جهة أخرى (٦٣٥ - ٦٤٤) . ولم ير أصحاب العقول البسيطة فى هؤلاء العرب أول الأمر سوى مدمرين لكل حضارة وصناعة وتجارة . ولكن سرعان ما تبين للجميع خلال الحروب التى شنّها العرب اهتمام هؤلاء بالحقول المزروعة ، والسكان المسلمين المقيمين بالأرض ، والفطنة التى كانوا يتميزون بها فى تنظيم سلطانهم فى البلاد المفتوحة .

وكان لابد من التسليم بأن هذه الأمة الجديدة التى برزت بين الأمم العظيمة قد بلغت بالفعل درجة مرتفعة من المدنية ، وأنها قادرة على مزيد من التقدم . غير أنه اذا كان العرب قد تلقوا شيئا من الثقافة قبل عهد محمد ، فان التجارة لم تكن أقل عناصر هذه الثقافة شأنًا . وقد اتاحت لنا من قبل فرصة دراسة الدور التجارى الذى لعبته احدى قبائلهم فى الشمال بالخيرة Hira ونجد أيضا عند عرب البحرين ، قبل عهد محمد آثارا لصلات تجارية مع الهند (١) . وفى الجنوب لم تفقد سوق عدن أهميتها بالمرّة (٢) . وكانت القوافل تربط القبائل العربية من الفرات الى اليمن بعضها ببعض . وكانت مكة قبل محمد مركزا من مراكز العالم العربى الدينية ، يقطنها

(١) انظر فى Ritter, Erdk. XII, p. 90. الفقرة المقتبسة من قصيدة سابقة على الاسلام .

(٢) يؤكد فيلوستورج Philostorge مؤلف كتاب فى تاريخ الكنيسة Histoire de l'Eglise هذه الحقيقة بالنسبة الى القرن الرابع ، المرجع السابق ، ٦٥ .

تجار نشيطون أثرياء ، وترسل بانتظام قوافل الى الخارج ، كما تستقبل قوافل أخرى عائدة (١) . ومحمد نفسه ، ونحن نعرف أنه قام مرارا برحلات لأغراض تجارية ، لم يضع أية عراقيل أمام هذه الأوضاع . بل أنه لم ير أى خير فى أن يرتب المؤمنون أمورهم بحيث يجمعون بين أعمالهم التجارية وبين حجهم الى مكة ، كما أمرهم بذلك دينهم (٢) . وهكذا أصبحت قوافل مكة أداة قوية لمضاعفة المبادلات التجارية . وكلما انتشر الاسلام اتسعت دائرة البلاد التى كان سكانها يزورون الأماكن المقدسة حاملين معهم الى أسواق مكة منتجاتهم الطبيعية أو المصنوعة . وكل ما فعله الخلفاء ووزراؤهم لتسهيل الحج ، وبناء الطرق ، وحفر الينابيع الموزعة على طول الطريق ، وتأمين حياة المسافرين وراحتهم ، كل ذلك أفاد التجارة . وبمرور الزمن ازداد عدد الأماكن التى يحج اليها المسلمون ، واقتربت برغبة العربى فى أداء عباداته فصول غريزى ، وروح المغامرة ، مما يدفعه الى السفر لزيارة بلاد ومدن لا يعرفها . وكان المسافرون العاديون ، شأنهم شأن الحجاج يجدون فى المدن فنادق ينفق عليها من المال العام ، وحتى يحصلوا على الطعام والمؤن التى يحتاجون اليها ، كانوا يبيعون على الطريق ما أحضروه معهم من سلع .

ولا ننكر رغم كل شيء أن ازدهار التجارة قد صادف فى صدر الاسلام عقبات ، لأسباب وظروف عديدة . فطالما كانت الحرب المقدسة ضد الكفار تتطلب حشد القوى ، فان عمليات نقل البضائع ، وبالأحرى التجارة توقفت من نفسها . ولم يكن المؤمنون الحقيقيون الذين يحملون فى صدورهم ضغينة ضد معتنقى الأديان الأخرى على استعداد لأن يوثقوا مع هؤلاء علاقات سلمية . ولكن حين رفع الخلفاء أعلامهم فى ثلاثة أركان العالم ، عمت السكينة شيئا فشيئا . واذ عاش الكثير من الكفار فى سلام تحت سلطان الأمراء العرب ، خفت حدة الكراهية التى كانوا هدفوا لها . ولم يعد المؤمنون الحقيقيون يخشون أن يضر بايمانهم صلتهم بالكفار . بل ان الأفكار والعادات الأجنبية كان لها تأثير متزايد على المسلمين .

يضاف أخيرا الى هذه الأسباب كلها ، زوال عقبة كانت تعترض بدايات الحياة التجارية عند العرب . فمن المعروف أن محمدا قد فرض على المؤمنين به أكبر قدر من البساطة فى الملبس والمأكل (٣) . ولكنهم حين استولوا على أقاليم مزدهرة ، وأصبحوا أثرياء ، وبخاصة حين اتحدوا تحت صولجان واحد مع

(١) Caussin de Perceval, Hist, des Arabes, I, 256, 270, 319, 342 et ss.,

III, 36; Wüstengfeld, Chroniken der Stadt Mekka, IV, 35, 39.

Coran, trad. p. Rasimirsky, chap. 2, v. 194 et note.

Pariset, Hist de la soie II p. 150 et ss.

(٢)

(٣)

الفرس الذين اعتادوا الوفرة والرخاء في العيش ، نما في نفوسهم حب البذخ والرفاهية ، ونمت معه الحاجة الى المنتجات الأجنبية .

واجتمعت كل هذه الظروف والأحوال التي تشجع ازدهار التجارة في العصر الذي ارتقى فيه العباسيون الأوائل عرش الخلافة . فأعطوا التجارة حافزا قويا ، اما بطريق غير مباشر ، بحياة الترف التي كانوا يعيشونها في بلاطهم ، واما بطريق مباشر ، ببناء الطرق ، وتشبيدهم مدينة في قلب دولتهم ، أُمست مهياة بحكم موقعها المختار الملازم كل الملازمة لأن تكون سوقا في الدرجة الأولى من الأهمية .

كانت دمشق بالتأكيد ، المقر القديم للخلفاء ، ملائمة كل الملازمة للتجارة ، واتصال القوافل الخارجة من آسيا الصغرى ، ومن بلاد نهر الفرات ، والمتجهة الى بلاد العرب ومصر ، وبالعكس . غير أن الشريانيين الرئيسيين للتجارة العامة الشاملة داخل دولة الخلفاء كانا على الدوام النهرين الكبيرين ، دجلة والفرات . وثمة عالم عربي جغرافي من علماء القرن العاشر أطلق على الخليج الفارسي الذي يصنب فيه هذان النهران اسم بحر الصين (١) . ذلك لان الخليج الفارسي كان نقطة انطلاق الملاحة الى الشرق الأقصى .

وبعد أن أحرز العرب انتصاراتهم الأولى على الفرس (٦٣٥ - ٦٣٦) ، وأرادوا أن يمنعوا أعداءهم من الابحار على طول شاطئ الخليج الفارسي وارسال سفنهم الى عمان والهند ، شيدوا على ضفة الفرات مدينة البصرة (٢) التي أصبحت بالتالي نقطة انطلاق سفن العرب الى الشرق . وبنى العباسيون مدينتهم بغداد على ضفتي الدجلة . وثمة قناة صالحة للملاحة تبدأ من الفرات . وتجتاز اقليم ما بين النهرين وتنتهي عند بغداد ، تربط العاصمة الجديدة بآسيا الصغرى وسوريا وبلاد العرب ومصر ، في حين كانت قوافل وسط آسيا تأتي عبر بخارى وفارس .

ولنبحث في البداية موضوع المواصلات البحرية عن طريق الخليج الفارسي . نذكر أولا حقيقة هامة : فنحن نعرف رحلات « السندباد البحري »

(١) المقدسي ، في سبيلنا : Sprenger, Abhandlungen der deutschen.

Morgenlandischen Gesellschaft, T. III, chap. 3, p. 66.

(٢) « مجمل التواريخ » ، أورده سان مارتان : Saint - Martin, Recherches sur

l'histoire et la géographie de la mésène et de la characène, Paris,

1838 p. 54 et s.

يعتبر هذا الكاتب حجة في المسائل المتعلقة بالملاحة

وبالتجارة البحرية لدى الفرس .

المشهوره ، وتتضمنها حكايات ألف ليلة وليلة (١) . حسن ! كانت نقطة انطلاق ذلك المغامر البحري الجريء هي دائما بغداد ، منسوبة الى عهد الخليفة العباسي هارون الرشيد (٧٨٥ - ٨٠٩) . ولا بد أن ازدهار مدينة بغداد ، وما كان فيه ملوكها من بذخ وترف قد أضفيا على التجارة البحرية نهضة لم تكن معروفة حتى ذلك الأوان . وحتى يملأ كبار تجار بغداد حوانيتهم بتوابل الهند وعطورها ، وحرائر الصين ، كان لزاما عليهم أن يشجعوا تلك الرحلات البعيدة التي عرفنا شيئا منها من مصادر أخرى غير الحكايات . ثم أننا اذا نحينا التفاصيل الخيالية ، تجد في هذه الحكايات أصول الأشياء الواقعية التي كان الملاحون العرب يتحدثون عنها عند عودتهم ، كما كانوا يذكرون صراحة أسماء البلاد التي يقصدونها في رحلاتهم ، أو يشيرون اليها فقط عند ذكرهم سكانها أو منتجاتها ، وبذلك نتعرف عليها : ويكفي في ذلك الرجوع الى الحكايات أو الأخبار الموثوق بها التي يرويها الملاحون العرب الذين زاروا هذه البلاد بالفعل . وكانت أقصى نقطة بلغها السندباد شرقا تسمى كالج Kalah في شبه جزيرة ملقا (أنظر فيما بعد) ، وليس ثمة ما يدعو الى أن نرى في ذلك مفارقة تاريخية ، لأن التجار العرب واصلوا رحلاتهم منذ ذاك الحين الى تلك الأنحاء على الأقل ، بل يحتمل كثيرا أنهم وصلوا في القرن الثامن بالفعل الى الصين ، وكانوا ضمن الجاليات الأجنبية التي فتحت لها عام ٧٠٠ ميثاء كانتون وسوقها (٢) . ويبدو أن بعض الاضطرابات التي وقعت بتلك المدينة في عام ٧٥٨ تؤكد وجود هؤلاء العرب بها . وقد ذكر بفقرة في « حوليات أسرة تانج » (٣) أن بعض رعايا الخلفاء اشتبكوا في هذه الأحداث مع بعض الجنود المرتزقة من الفرس الذين استخدمهم امبراطور الصين لمقاتلة الشوار (٤) ، فنهبوا السكان ، وأشعلوا النيران في بعض المنازل ثم فروا عن طريق البحر (٥) ولعل المقصود بعبارة « رعايا الخلفاء » التجار العرب ، أو بحارة السفن

(١) يعتبر لانجلي Langlès أنها تشكل بذاتها دورة كاملة ، ومن ثم نشرها بالنص العربي

مع ترجمة فرنسية بعنوان « رحلات السندباد البحري » باريس ١٨١٤ ، وقدم فالكنز Wolkensker تفسيراً لكل ما له علاقة بالجغرافيا في « الجوليات الجديدة للرحلات » ١٨٣٢ .

Richthofen, China 1, 569.

(٢)

(٣) يقدم جوبل Gaubil مقتطفات في مذكراته :

Mémoires concernant les chinois par les missionnaires de Pékin, XVI, p. 84.

(٤) المرجع السابق ص ٢٦٧ ، ٧١ ، ٧٣ .

(٥) أنظر في شرح هذه الفقرة :

Reinand, Relations des voyages faits par les Arabes et les Persans, prolég ; Bretschneider : On the Knowledge possessed by the ancient Chinese of the Arabs and the arabian colonies (London 1871) p. 10 et s.; Richthofen, China I, 570.

العربية • ولا يبدو أن هذا الحادث قد قطع علاقات كانتون بالأجانب • وعلى كل حال فإنها لم تفعل ذلك لوقت طويل ، اذ دامت حتى عام ٧٩٥ ، وعندئذ قرعزم الأجانب الذين لاحقتهم الجمارك بمطالبتها الباهظة أن يهجروا المكان وينقلوا متاجرهم الى كوشنشن (١) Cochinchine

وهكذا فبينما كانت جزيرة سيلان تعتبر في القرن السادس أقصى حد يمكن أن تصل إليه السفن الفارسية والأثيوبية ، فإن العرب في العصر العباسي تخطوا هذا الحد كثيرا وبجراً ، وفي الوقت نفسه أبدى الصينيون تحت حكم أباطرة أسرة تانج الأكفاء (٦٢٠ - ٩٠٧) نشاطاً عظيماً على متن البحار • وتتحدث حوليات هذه الأسرة عن بعثات بحرية على طول شواطئ ملبار (ويسمى الصينيون « مولى ») حتى مصب الاندوس (السند) الذي كانوا يعرفونه باسمي « سيتيو » (سندو) وميلان (بالعربية مهران) ، ومن هناك الى الخليج الفارسي حتى سيراف ، وأحياناً حتى مصب الفرات (٢) ، وكان أزهى عصر لتلك التجارة البحرية هو القرن الأول من حكم أسرة تانج (٦٢٠ - ٧٢٠) ، وبعد ذلك حين قام العرب بمزيد من الرحلات الى الصين ، قل بالتدريج عدد الصينيين الوافدين الى الخليج الفارسي • وكانت سفنهم ترسو عادة (٣) في ميناء سيراف التابعة لفارسستان Farsistan ، وتقع على الساحل الشرقي للخليج الفارسي • وقد اكتشفت حديثاً مخلفات هذه المدينة على مسافة غير بعيدة عن مدينة بندر - كنكن Bender-Konkoum وبالقرب من قرية تارييه Tharié ، في حين بحث عنها الرحالة القدامى وعلماء الجغرافيا خطأً عند سفح جبل تشاراك Teharak قبالة جزيرة كيش Keich ، في موضع لا أثر فيه لأية أطلال (٤) • وهناك كانت السفن الصينية تشحن عند عودتها ببضائع آتية من البصرة وعمان وجهات أخرى ، ثم تمضي محاذية الساحل العربي حتى مسقط ، وبعدها تمخر عباب البحار حوالى أربعة أسابيع ، ترسو بعدها عند كولام Coulam على ساحل ملبار • ومن هناك تواصل طريقهما ، تاركة على

(١) ريشتهوفن ، المرجع السابق •

(٢) Extraits des Annales de la dynastie des Tang, communication faite par Mr. Deguignes, dans les Mém. de l'Acad. des Inscr. xxxii p. 367 ; Klaproth ; Lettres sur l'invention de la boussole, p. 95 ; Yule, Cathay, I.

(٣) لم يتوغلوا في داخل الخليج الا بصفة استثنائية ، ولم يجدوا هناك سوى أعماق قليلة ، كما كانت المياه شديدة الاضطراب ، فكانت تلقيهم على الشاطئ ، فضلاً عن كثرة ما يتردد عليها من قراصنة : انظر : Relat. des voy. I c. p. 12; Prolég. p. IX et s.

ويحكى أبو الفرج كيف أن سكان البحرين نهبوا عام ٨٢٥ سفناً فارسية وهندية وصينية • Ritter, Erdk VIII, 773 et s., XI, 386; Ibn Batouta, éd. Sanguinetti (٤) et Defrémery, II, 456 not; Annales des voyages, 1848, II, p. 50 not 2.

الأرجح سيلان الى يسارها ، وتقطع خليج البنغال في خط مستقيم ، وتمر أخيرا عبر مضيق ملقا عائدا الى وطنها . ولا مجال هنا لذكر المزيد من التفاصيل عن تلك الرحلة البحرية ، وانما نجدتها في أخبار « سليمان » (١) ، وهو تاجر عربي عاش في النصف الأول من القرن التاسع ، وقام مرارا بالرحلة من الهند الى الصين مستغلا السفن الصينية العائدة الى وطنها (٢) ، وكان ذلك في الوقت الذي قل فيه ظهور هذه السفن في سيراف . وكان الطريق الذي أشرنا اليه ترتاده السفن العربية أكثر من السفن الصينية ، وكانت سيراف الموقع الذي تبحر منه . وفي القرن التاسع دون صاحب البريد العظيم أبو القاسم بن خرداذبة - بمساعدة بعض خبراء الملاحة - دليلا للمسافرين، وصف فيه ضمن أشياء أخرى الطريق البحري من مصب الدجلة الى الهند والصين ، وذكر كموقع لبحار السفن ميناء أوبولاه Obollah في قلب الخليج الفارسي . وكان من أثر انشاء مستودعات كبيرة خلف هذا الميناء ، في البصرة وبغداد انتعاش حياة جديد ، فكانت تبحر من ثمة الى الصين أساطيل تجارية عربية كاملة (٣) . ولم يمنع موانئ أخرى في الخليج نفسه من توثيق علاقات مع الصين . ومن هذه الموانئ نذكر سيراف ، ميناء فارس Fars الكبير بسكانه من التجار النشيطين ، والملاحين الجسورين (٤) . يقول ابن خرداذبة أن السفن العربية كانت تسير عادة بمحاذاة الساحل الفارسي ، ثم ساحل الهند حتى ملبار ، وكانت تتبع هذا الطريق لأنه كان عليها أن تشحن البضائع وتفرغها في مختلف موانئ الساحل ، لا لأنها تخشى مواجهة أعالي البحار . فالواقع أنها كانت ، ابتداء من ساحل كروماندل Coromandel تعبر خليج البنغال في خط مستقيم ، كما يفعل الصينيون ، وكان الطريق الذي ذكره ابن خرداذبة هو الطريق نفسه الذي ذكره

(١) هذه الأخبار التي دونت عام ٨٥١ تملأ الصفحات الستين الأولى من كتاب رينو : Reinand, Rel. des voy. faits par les Arabes et les Perssians dans l'Inde et à la Chine, Paris 1845, II.

وبعد هذه الأخبار (٦١ - ١٥٤) يعطى الناشر مذكرات عن الانثوجرافيا ، والتاريخ الطبيعي والتاريخ السياسي للهند والصين ، ألفها أيضا في مستهل القرن العاشر أبو سيد حسن من واقع أخبار الرحالة .

(٢) هذا ما يبدو على الأقل أنه مستخلص من بداية أخباره ص ١٣ - ١٥ .

(٣) ابن حمدون : أوردها كريم : Kremer : Culturgesch. des Orients, II, 276.

(٤) المسعودي : مروج الذهب : النص والترجمة : باربييه دومينار ، وبافيه دو كورتبي (٣٠٨ ، ٣٠٣) .

— Isstachri, Das Buch der Länder, trad. par Mordtmann p. 19, 69, 71, 74.

— Rel. des voy. éd. Reinaud p. 79.

— Les tableaux du monde indien de Kaziuni لوحات العالم الهندي للقزويني

تضم الكثير من الحكايات الخرافية ، وهي مقتبسة بعض الشيء من حكايات بحارة سيراف ، أنظر : Gildemeister, Op. Cit., p. 195, 197.

سليمان بالنسبة الى السفن الصينية . ويذكر ابن خرداذبة عدة موانئ صينية (١) . ولم تكن كانتون (ويسمىها خاكو) فى عصره الموقع الوحيد لرسو السفن ونزول الأجانب منها ، ولم يكن موقعها البعيد عن مركز الحياة الصينية يتيح لها أن تطمح فى هذا الامتياز ومنذ بداية القرن التاسع ، كان أهم تغر هو خان - فو Knan-fou الذى نجده فيما بعد فيما كتبه ماركو بولو تحت اسم جاميو Gampou الذى سوف نتكلم عنه بمزيد من التفصيل . ولما كان هذا الثغر واقعا فى الخليج جنوبى ميناء شنجهاى الحالى ، فانه كان على بعد بضعة أميال من كنج - سى عاصمة اسرة مونج ، وهو الآن مدينة هانجتشو - فو Hang-tchou-fou ، وكان بين المدينتين حركة مواصلات لا تنقطع . وفى خان - فو كانت السفن الصينية العائدة من رحلاتها الى الغرب تحبى بسرور أرض الوطن ، كما كانت السفن التجارية القادمة من جاوة والهند وفارس وبلاد العرب تصل الى نهاية رحلاتها المحقوفة بالمخاطر . وكان العرب يجدون فى العاصمة الكثير من مواطنهم المستقرين فى مراكز ثابتة ، وكان عندهم هناك ، بفضل كرم وسماحة امبراطور الصين قاض يصدر أحكامه طبقا لأحكام القرآن ، ويقيم الصلوات تبعا لشعائر الاسلام (٢) . وكانت كنج - سى تمنح تسهيلات خاصة لبيع بضائع العرب : بل كان الامبراطور نفسه يأمر بشراء بعضها لحسابه الخاص (٣) ، وكانت حوانيت مواطنى العرب، وحوانيت كبار التجار الصينيين تزود التجار العرب بوفرة من منتجات البلد ومصنوعات الحرفيين البارعين لشحن سفنهم عند عودتها . وكان فى مقدورهم التغلغل فى داخل البلد وممارسة التجارة فيه بكامل حريتهم بشرط أن يتزودوا ببطاقات سفر معتمدة من السلطات الصينية (٤) . ولقى العرب هناك لزمن طويل ترحيبا كبيرا ، وكان القضاء يعاملونهم مثلما يعاملون المواطنين . غير أنه حدث فى حوالى عام ٨٧٥ أن اندلعت ثورة فى شمال شرقى الصين (٥) ، استمرت تسع سنوات واستتبعته تحولا

(١) يذكر فضلا عن المائتين المذكورين فى النص Al-Wakin وفيها حديد ممتاز ،

ويورسلين ، ووزر الصين ، ويقع هذا الميناء غالبا فى توتكين عند مصب نهر سونكوى Songkoï ثم كانتو أو كياو - تشو Kiaou-tshou ، على الساحل الجنوبى لسانتوچ Richthofen, China I, 575 et s., II, 177, 262 et ss.

ويرى أن هذا الميناء اوسع واحسن موانئ شمال الصين ، وقد غمره الرمل فأصبح دخوله عسيرا ، ومن ذاك الحين فضل البحارة عليه ميناء تسي - فو Thsi-fou

Relat. p. 13. (٢)

(٣) المرجع السابق ، ص ٧٦ ، ١٠٦ .

(٤) المرجع السابق ، ص ١٢ ، ٤١ وما بعدها ، ص ٧٩ .

Mémoires concernant les Chinois, XVI, : انظر : Richthofen, China I, 572. p. 261 et ss.

كاملا ، ليس فقط فى الوضع الداخلى للبلد ، ولكن أيضا فى العلاقات مع الأجانب . وملا الثوار البلد بالخرائب : وفى فترة التدمير التى جاشت بصدورهم ، لم يسلم من أيديهم شئ ، حتى أشجار التوت ، فتوقف تصدير الحرير لعدة سنوات ، وأراقوا سيلا من الدماء ، وعانى المستوطنون العرب من ذلك معاناة شديدة ، وربما حل بهم الخراب الشامل . واستطاع الامبراطور ، بمساعدة بعض الفرق الأجنبية أن يقضى على الثورة ، ولكن سلطته ضعفت ضعفا شديدا . وفى الأقاليم راح نوابه يهزأون بسلطته ، ويتصرفون كما يخلو لهم ، وعانى ربانة السفن والتجار العرب من ناحيتهم من أعمال العنف ، ومن الامتناع عن النظر فى شكاواهم ، ومن أعمال السرقة والاعتصاب . وفى هذه الأحوال قر عزيمهم على قطع صلاتهم بالصين وإقامة مرفأهم الرئيسى بـ *Kalah* فى شبه جزيرة ملقا (١) ، وهى مدينة لم تكن حتى ذاك الحين سوى محطة وسطى (٢) على طريق الصين . ونتيجة لذلك اضطر التجار الصينيون أن يذهبوا الى هناك لى يظلوا على صلة بعمالهم العرب . وحظيت كلخ وقتئذ ، فى مجال تجارة الشرق بالأهمية التى كانت لسيلان فى القرن السادس ، وأصبحت ملتقى السفن التجارية الآسيوية ، الغربية منها والشرقية ، وكان وضعها ممتازا من جميع الوجوه ، بصرف النظر عن موقعها المتوسط بين الصين وبلاد العرب (٣) . وانفتحت سوق جديدة وكبيرة للتجار العرب ، سوق لمنتجات الهند الصينية .

(١) اعتقد أنه من الثابت أن كلخ (أو كلاه) كانت موجودة فى شبه جزيرة ملقا ، ويشاركنى فى هذا رأى كاتمرير :

— Guatremère, Journ. des Savants, 1846, Déc, p. 734.

— Walckenaer, Nouv. annal des voy, 1832, I, p. 19. وكذا فالكر :

وسيرنجر :

— Sprenger, Abband. der Deutsch, morgenl. Ges III, no. 3, p. 88.

— Peschel, Gesch. der Erdk. p. 107. ويسشل :

وآخرون . ثم انه من الصعب تحديد الموقع : فمورى Maury يفترض أنها كانت

Kadah (Quedda) وفى هذا الفرض قدز كبير من الصحة ، أنظر كذلك

Yule, Cathay, I, p. civ., exei. بول :

Relations, p. 17, 93 et ss.; Maçoudi, I, 308. (٢)

فى هذا الآوان ، كان لا بد للتجار العرب الراغبين فى الذهاب الى الصين ، أن يستقلوا من كلخ سفنا صينية ، أنظر : المسعودى ، المربخ السابق . ولا يبدو أن الصلات البحرية قد انقطعت بين الهند والصين ، على الأقل ذهب هنود الى الصين فى حوالى ٩٧٠ ، ٩٩٦ على سفن تجارية (هندية أو صينية ؟)

— Stanislas Julien, dans le Journ. asiat., Sér. IV, T. X (1847) p. 113, 120.

(٣) فى كتاب أبو الفدا (Geogr. II p. 131) أن كلخ هى « ميناء لكل المناطق

الواقعة بين عمان والصين »

كالكاפור ، والقرنفل ، وخشب الألو (أو الغلوة) ، والصندل ، والبقم ؛ وجوز الهند ، وجوز الطيب ، بالإضافة الى القصدير الذى كان شديد الرواج فى نواحى كلخ (١) ونمت هذه التجارة لدرجة كان معها تجار سيراف فى القرن العاشر يعتبرون الرحلة الى شبه جزيرة ملقا أمرا بسيطا للغاية ، كما زادت فى الوقت نفسه معرفتهم بجزيرة جاوة ، ووجدوا فيها تجارا صينيين كان عدد كبير منهم قد هاجر اليها فى أعقاب الاضطرابات التى جرت فى وطنهم (٢) .

وإذا كان العرب قد زاروا كثيرا بلادا نائية كالهند الصينية والصين ، كما يبدو أن البعض منهم وصلوا الى كوريا وأقاموا بها بعض المنشآت (٣) ، قلنا أن نتصور أن تكون « الهند الشرقية » هى غاية الكثير من الرحلات . وكان الساحل الغربى لشبه الجزيرة والغنى بالحاصلات من جميع الأنواع فى مواجهة الساحل الشرقى لبلاد العرب ، ويمكن الوصول اليه فى شهرين أو ثلاثة شهور ، بل أحيانا فى شهر واحد إذا كانت الريح مواتية (٤) . وكان هناك تجار عرب يقيمون فى سيلان قبل عام ٧٠٠ ، ذلك لأنه حدث فى حوالى عام ٧٠٠ أن نساء وبنات بعض التجار وقد أصبحن أرامل ويتامى ، كن عائدات الى وطنهن ، فاخططنهن قراصنة هنود (٥) . وقد روى الرحالة العرب فى القرنين التاسع

(١) Relations, p. 93 : Ibn - Khordadbeh, éd. Barbier de Meynard (١) p. 288, 294; Voyages de Sindbad, éd. Langlès, p. 73; Abou - Dolef, Iter asiat, éd. Schlaezer, p. 18 et s.

(٢) المسعودى ، الجزء الثانى ٥٢ ، أبو الفدا : (Géogr. introd, p. Reinaud, I). وبهذه الواقعة تتعلق الفقرة المعروفة للادريسي ، ومضمونها أنه « يقال انه حين تضطرب شئون الصين بسبب تمرد السكان ، وحين يستفحل الفوضى والاستبداد فى الهند ، ينقل الصينيون تجارتهم الى زانج Zanedj والجزر الأخرى التابعة لها . والحقيقة أن الادريسي يتحدث فى هذا الفصل عن الجزر الواقعة قبالة ساحل زنجبار ، ولكنه يخلط بينها وبين الأرخيبيل الهندى ، والفقرة المذكورة بعاليه تنطبق فى الواقع على جاوة » .

(٣) المسعودى ، الجزء الأول ٣٤٦ ، ابن خرداذية ، ص ٢٩٤ ، ٥٢٢ . ولا يرجع أول هذه المنشآت الا الى القرن العاشر ، وفى القرن التاسع لم يكن أى عربى قد شق طريقه الى هناك : Relations, p. 60 et proleg.

وكان المعتقد فيما مضى أن سيل Sila فى الفقرات المذكورة هى اليابان ، ولكن رشتوفن يرى بحق أنها كوريا (China I, 576) وكذا كونج : Goeje, Arabische Berichten over Jafon Amst. 1880, p. 3,4 :

(٤) Relations, p. 15; Scherzy, dans Sprenger, op. cit., p. 87. وكذا المسعودى ، الجزء الأول ، ٣٢٢ .

(٥) أنظر موجز بيلادورى فى ايليوت. Beladori, dans Elliot., Hist of India I, 118.

وكذا : — Reinaud, Mém. géogr. hist et scientif. sur l'Inde, dans les Mém. de l'Acad. des Inscr. XVIII, 2 (1849), p. 79 et ss.

Gildemeister, Scriptum arab de ref. ind. loci, p. 52 et s. انظر أيضا :

والعاشر ، أن الكثير من الملوك في القارة الهندية كانوا يراعون مصالح العرب (١) . واعتنق الاسلام زامورن كيرومان برمال Zamorin ueroman Permal وبعض أمراء ملبار ، وأذنوا للعرب بإقامة منشآت وبناء مساجد على مدى الرقعة التي يملكونها (٢) . وعندما زار المسعودي الهند في عام ٩١٦ التقى بجالية كبيرة من هذا النوع في مقاطعة سيمور Saimour بالقرب من مدينة نبوبي الحالية (٣) ، وكان فيها قرابة عشرة آلاف مسلم ، ولم يكن هؤلاء قوما أتوا من سيراف أو عمان أو البصرة أو بغداد أو من غيرها من أسواق دولة الخلفاء فحسب ، ولكن كان منهم من ولدوا في البلد من آباء عرب ، ومن بين هؤلاء المستوطنين تجار كبار ، وقد عهد الملك الى واحد منهم بتولى السلطة القضائية في المستوطنة كلها (٤) . وكان المرء عندما يرحل من سيمور ويتجه شمالا ، يصادف مجموعة من المدن التجارية ، منها مدينتان معروفتان من قديم الزمان وهما : سوبارا Soupara ، وباريجازا Barygaza ، وهما اليوم سفارا Safara (أو سفالا Soufala) (٥) ، وباروتش Barotch ، ثم كامبي Cambaye على الخليج الذي يحمل هذا الاسم . ومن المحتمل بالنسبة الى كل هذه الأماكن ، والثابت بالنسبة الى المكان الأخير أنه كان يقطنها ، أو على الأقل يتردد عليها مسلمون (٦) . وفي حين أنشأ العرب مستوطنات سلمية على شاطئ الهند وفي مدينتها (٧) ، اجتازت جيوشهم حدود فارس في مستهل القرن الثامن واستولت على منطقة نهر الاندوس (السند) الأدنى . وكان في إحدى مدن هذا القطر واسمها ملتون Moulton معبد يحج اليه الهندوس قادمين من أقصى البلاد . ومن حسن سياسة العرب أن أبقوا على هذا الموضع فاكتسبوا بذلك ود الأهالي ، وكان قدوم الحجاج مفيدا للبلد وللمدينة ، وكان

(١) Relation, p. 26, 27; Maçoudi, I, 382 et s. Isstachri, p. 82 et s.

(٢) Lassen, Indische, Alterthumskunde, IV, 255, 953, Ritter, Erdk V, 581 et ss. ; Gildemeister, I.C. p. 51.

(٣) Isstachri, p. 85 : Edrisi, I, 172 ; Reinaud, Mém sur l'Inde, p. 220 : Aboulf éd. Reinaud; Lassen, op. cit III, 183; Sprenger, op. cit., p. 80; Yule, Cathay, I.

(٤) المسعودي ، الجزء الثاني ، ٨٥ وما بعدها ، أنظر أيضا ابن حوقل في كتاب جيلديمايستر ، المرجع السابق ص ١٦٥ ، كذلك رينو : Reinaud, Mém. sur l'Inde, p. 242.

أنظر أيضا القزويني في كتاب جيلديمايستر ص ٢٠٨ .

(٥) Yule, Cathay, I, 227 et s. ; Lassen, op. cit., J, 107, IV, 957 : Indian antiquary 1, 321.

(٦) Reinaud, Mém. sur l'Inde, p. 220 et ss.; Isstachri, p. 82.

(٧) ذكرت في الكتابات الهندية في ذاك العصر باسم بافانا Yavana أو كالابافانا Kalayavana (بافانا السوداء) . أنظر في ذلك :

— Weber, Die Verhindungen Indiens mit den Ländern des Western ; l'Allg. Monatschrift, sept, 1953, 2 art. p. 733.

هؤلاء الحجاج يحضرون معهم بمثابة قربان لألهتهم ، أو جزية للأمير العربي منتجات ثمينة من صنع بلادهم ، تباع للتجار بربح وفير (١) . وثمة سوق أكبر أهمية ، سوق ديبال Daybal ، وهي مدينة على الساحل غربى مصب السند (٢) ، كانت السفن الفارسية والعربية المتجهة الى الهند أو الصين ترسو عندها عادة ، عند ذهابها ، وعند عودتها ، فكان هناك دائما فى هذا الموقع بضائع من كل البلاد ، يوزعها تجار المدينة الأثرياء فى داخل البلاد ، ويصدرون عن طريق البحر منتجات المنطقة والبلاد الواقعة بعدها (٣) . وفى أوائل القرن العاشر ، وتحت ضغط سلاطين الأسرة الغزنوية ، مد العرب فتوحاتهم فى شمال غربى الهند ، وبذلك تمهد للتجار العرب الطريق الى المناطق الداخلية بالهند ، وكانت مغلقة دونهم تقريبا حتى ذلك الحين (٤) . غير أن التعصب الدينى الذى اتصف به الغزنويون جعل الأهالى يخشون بأسهم ، واشتد نفور الهندوس الطبيعى من كل تجارة مع الأجانب ، ذلك النفور الذى بقى فى داخل القطر أقوى منه على السواحل .

ولنعد الى نقط انطلاق البحرية التجارية العربية . لم تكن سيراف ، حتى فى أزهى عصورها هى المستودع الوحيد لمنتجات الهند وفارس . يقول الاصطخرى Istachri بوجه عام : « ترحل البضائع الى ما وراء البحار من سيراف (٥) . غير أنه لا يجوز أن يغيب عن البال أن هذا الكاتب كان يقيم فى جنوب فارس ، فى منطقة لا تستورد من سيراف سوى مؤنثتها من التوابل . أما المسعودى الذى كانت معلوماته أوسع فانه يكمل هذه البيانات : فبالنسبة الى سفن سيراف التجارية ، يذكر أيضا ، وبصورة عادية منطقة عمان الساحلية ومن المؤكد أن المدن الساحلية فى عمان ، وبخاصة صحار ومسقط كانت تجهز فى أحيان كثيرة بعثات بحرية الى الهند الشرقية ، والهند الصينية ، والصين ،

(١) Reinaud, Mém. sur l'Inde, p. 184 et s., 213, 248 et s.;
Ibn-Hooukal, Oriental geography, transl. by Ouseley, p. 148 et s. ;
Maqoudi, I, 373; Relations, p. 135 et s.

(٢) « فى الشرق » قراءة خاطئة لنص ابن حوقل ، وبفحص مخطوط أصح والخريطة المرفقة به ، نجد أنه يجب أن تقرأ « فى الغرب » ، أنظر :
Elliot, Hist of India, muhammadian period, I, 37, 377.

(٣) بخصوص حالة هذه المدينة وأهميتها التجارية أنظر : ابن خرداذبة فى كتاب سبرنجر ، المرجع السابق ص ٨٠ ، والاصطخرى ص ٢٠ ، والمسعودى ، الجزء الأول ، ٢٠٧ ، ٢٣٩ ، ٣٧٨ ، وابن حوقل فى كتاب جيلدمايستر ص ١٧٠ ، والقزوينى ، المرجع السابق ص ٢٠٥ ، والادريسي ، الجزء الأول ١٦١ .

— يرى رينو أن هذه هى مدينة كراتشى الحالية (Mém. sur l'Inde, p. 170, not 6)
(Elliot, op. cit., p. 374 et ss.). ويؤيد ايليوت هذا رأى

Reinraud, Relatiins, introd. (٤)

Trad. Mordtmann, p. 74. (٥)

وتستقبل سفن هذه البلاد (١) . وهناك حقيقة أخرى تتيح لنا أن نتقدم في معلوماتنا عن الموضوع الذي يشغلنا : ذلك أن سوقطرة Sokotora كانت وكرا للقراصنة الهنود الذين يقلعون من هناك ويغيرون على السفن العربية وهي تمر على مرأى من الجزيرة متجهة الى الهند أو الصين (٢) . ويدل موقع سوقطرة على أن هذه السفن لا يمكن أن تأتي الا من جنوب الجزيرة العربية أو من باب المنذب ، وهذا ما يحدونا الى التحدث عن مجموعة من البلاد مثل اليمن والحجاز وأثيوبيا ومصر ، كان لها علاقات بشرقي آسيا : مثالا لذلك : كان خشب الساج (أو الدلب) مستعملا في بناء السفن في مصر وبلاد العرب (٣) . ولم تكن هذه البلاد مجردة من المنتجات التي تصدرها الى الهند والصين . من ذلك أن أحجار الزمرد في الساحل الشرقي للهند كانت تصدر الى الغرب عن طريق عدن ومكة ، في حين كان أمراء الشرق الأقصى يستوردون زمردات مصر العليا ، وأنياب الفيل البرى المتوفرة في الحبشة ، ويصنع منها أشياء كثيرة في الهند والصين (٤) . وكانت عدن ، في بلاد العرب « السعيدة » من أهم أسواق هذه السلع ، وكان مرفأها ملتقى السفن القادمة من كل أنحاء آسيا ، ومن ساحل شرق أفريقيا (٥) . ونظرة سريعة الى قائمة البلاد التي تنتمي اليها هذه السفن تدل على أن البحر الأحمر كان يستقبل مباشرة وعلى الأقل جزءا من منتجات الهند والصين ، ولا ينفي هذا قدوم سفن من سيراف ، لأن بحارة هذا الميناء كانوا يبحرون على طول الساحل الشرقي والجنوبي لبلاد العرب ، بل كانوا كذلك يتجاوزون عدن ، ويصلون أحيانا الى جدة حيث ينقلون شحناتهم الى سفن أخرى أقدر على مواجهة أخطار الملاحة في القسم الشمالي من الخليج (٦) . أما جدة التي شيدها بعض التجار الفرس في أواسط القرن السابع ، وخصصها الخليفة العثماني لتكون ثغرا لمكة فانها استفادت كثيرا من رواج التجارة بهذه المدينة ، ولكنها حافظت دائما على أهمية خاصة بها اذ كانت مرسى للملاحة في البحر الأحمر (٧) وأما « الجار » El-Djar التي كانت آنئذ ثغرا للمدينة

(١) Relations, p. 93 ; Maçoudi, I, 303, 308; II, F2; Edrisi, I, 152, (١)

Almohallaby, dans Azyzy (du Xe siècle), cité par Aboulf., trad. Reinaud, II, 137; Isstachri, p. 14, 71.

(٢) المسعودي ، الجزء الثالث ، ٣٧ .

(٣) المسعودي ، الجزء الثالث ، ١٢ ، سبرنجر ، المرجع السابق ، ١٥٧ .

(٤) المسعودي ، الجزء الثالث ، ٧ وما بعدها ، ٤٣ - ٤٨ ، Relations, p. 153.

(٥) ابن خرداذبة : Ibn Khordadbeh; éd. Barbier de Meynard, p. 282; Isstachri, (٥)

p. 13; Azyzy, dans Aboulf. trad. Reinaud, II, 127; Géographie de Moïse de Khorène dans Saint - Martin; Mém. sur l'Arménie, II, p. 371.

Relations, I, 142 et s. (٦)

Isstachri, p. 9; Sprenger, op. cit., p. 124 not. 1; Wüstenfeld, (٧)
Chroniken der Stadt Mekka, IV, 122.

فكانت تزورها سفن الصين والهند والحبشة (١) . وأخيرا ، فى الشمال الغربى من الخليج ، كانت قلزم القديمة Kolsoum, Clisma ولم تزل تتمتع بشئ من الرخاء ، لأنها كانت ميناء مشتركا لسوريا ومصر (٢) . ولن نتابع أبعد من هذا سير منتجات الشرق الأدنى ، فقد وصلتنا الى أقصى ما يمكن أن تنتهى اليه عن طريق البحر .

كان الانتقال بالطرق البرية قليلا بالنسبة الى حركة الملاحة الكبرى بين البلاد العربية والهند والصين (٣) . ومن وقت لآخر ، حين كان سكان سمرقند وخراسان يريدون الذهاب الى الصين ، كانوا يركبون السفن فى الخليج الفارسى مفضلين طريق البحر ، عن طريق البر ، رغم طول المسافة (٤) . ومع ذلك استمرت القوافل تنقل البضائع - وفى العصر الذى كان فيه العرب يسيطرون على مصب نهر السند ، كان هناك طريق تجارى يمتد من تلك المنطقة الى داخل بلاد الفرس عن طريق اقليم سجستان (سفستان) (٥) ، والى الشمال كانت قوافل بنجاب تحمل كميات كبيرة من البضائع عبر هضاب أفغانستان الشاهقة ، وتأتى بها الى كابول وغزنة اللذين أصبحا بذلك مركزين كبيرين لتبادل البضائع (٦) . ومن هناك تتجه القوافل من ناحية الى الغرب صوب خراسان ، ومن ناحية أخرى الى الشمال صوب بخارى ، وبهذه الكيفية ، ورغم بعد البحر بعدا كبيرا ، كانت توابل الهند تنتشر فى هذه البقاع ، وفى بخارى كانت هذه التوابل موجودة مع البضائع المجلوبة من الصين عن طريق

(١) فى هذه النقطة غير المعروفة ، أنظر : Sprenger : Die alte Géographie : Arabiens, p. 38; Bremer, Culturgeschichte des Orients, II, 278.

ويذكر كريم فقره من « ياقوت » خاصة بملاقات هذه المدينة مع بلاد مختلفة .

Isstachri, p. 18.

(٢)

(٣) ذكر ابن حوقل أنه فى حوالى عام ٩٧٥ كانت التجارة كلها وتجهيزات السفن البحرية الى الهند والصين وزنجبار فى يدى تاجر واحد واسع الثراء اسمه أبو بكر أحمد بن عمر السيرافى ، وكانت مخازنه ممتلئة بالأحجار الكريمة والعطور .

— أنظر فى « الصحيفة الأسبوعية » Journ. asiat ١٨٧٣ ص ٥٧٤ ومابعدها مقالا عن الطبعة الجديدة للنص العربى لهذا الرحالة ، نشرها جريج Goeje .

(٤) نجد أمثلة لذلك فى المسعودى ، الجزء الأول ٣٠٧ وما بعده ، و :

Relations, p. 106 et ss.

(٥) Maçoudi, I, 349 ; Reinaud, Mém. sur l'Inde, p. 216 ; Isstachri, p. 111. Elliot, Hist of India, 1, 54-468.

(٦) Isstachri, trad. Mordtmann, p. 120; et les passages d'Ibn Haaukal, cités par Reinaud, Mém. sur l'Inde, p. 243-245.

وفى عصر هذا الرحالة كانت كميات النيلة المستوردة الى سوق كابول تصل قيمتها الى مليونى دينار وأكثر سنويا . أنظر أيضا : Eddiot, i.c.

آسيا الوسطى . والواقع أن أهالى بخارى التجار استمروا على علاقات وثيقة ونشيطة مع الصين ، وأنا لنجد برهانا على ذلك حدثا صغيرا فى تاريخ فتح العرب لهذا القطر فى مستهل القرن الثامن : فالى جانب سمرقند بخارى كانت هناك « مدينة للتجار » مزدهرة اسمها بيكوند (Peikound) (Beykend) (١) واقتحم العرب هذه المدينة ، وكان من بين كبار سكانها رجل أراد أن ينقذ حياته ، فعرض - دون جدوى - أن يسلم خمسة آلاف قطعة من الحرير الصينى (٢) . وبعد الاستيلاء على بخارى لم تتعد الفتوحات العربية أقاليم فرغانة ونهر ياجزات . ومن ثم لم تنشب بين هذه الأقاليم وبين الصين (٣) حروب الا فى القليل النادر . وعلى ذلك يبدو من الثابت أن التاجر الذى يريد الذهاب من دولة الخلفاء الى الصين ، دون أن يعانى المتاعب وضروب الحرمان ، والأحوال التى تلازم كل رحلة فى الصحراء ، لم يكن يصادف فى طريقه أية عقبة من قبل السلطات الرسمية . فبعد أن يعبر نهر ياجزات ، يجد شرقى هذا النهر مساكن « الخارلوك » Kharloks ، ثم يجتاز اقليم قبيلة من أقوى القبائل التركية فى ذلك الحين ، وهى قبيلة « تجازجاز » Tagazgaz - (Hwei-hou) ويمتد هذا الاقليم مسافة كبيرة على سفحى جبال تيان - شان (٤) . وكان هناك فى زمن السعودى طريقان مستعملان بنوع خاص : أحدهما طويل ، ويستغرق اجتيازه أربعة أسابيع أى ٢٨ يوما ، ويلأثم مسير دواب النقل ، والثانى أقصر منه ، ولا يستغرق اجتيازه ٢٠ يوما (٥) غير أن هذا الرحالة لم يذكر اتجاههما بالضبط (٦) . وأخيرا كان هناك طريق عبر التبت، ولكنه محفوف بالصعوبات

- (١) هذا هو الاسم الذى أطلقه عليها ابن خرداذبة ، فى كتاب سبرنجر (المرجع السابق ص ٢٠٥) ، والطبرى فى فايل 2. p. 499 et ss. Weil, Gesch. d. Chalif. I. — انظر أيضا : Vambery, Gesch. Bochara's oder Transoxaniens I, 27. (٢) الطبرى ، فى فايل (المرجع السابق ، ٥٠٠) . كذلك : l'Histoire de Bokhara, de Marchache. التى كتبت عام ٩٤٣ أو ٩٤٨ ، وتحدث أيضا عن علاقات تجار هذه المدينة بالصين . — Vambery, Gesch. von Bochara, I, 10. انظر فامبرى : (٣) Yule, Cathay. I. (٤) Issatche, p. 3; Reinaud, trad. d'Aboulféda, prolégum; Richthofen, China, I, 563-565. (٥) يحسب أبو سعيد Abou-Saïd سفر شهرين سيرا على الأقدام من بلاد الصفد (صفديانه) الى الصين ، انظر : Relations, p. 114. (٦) السعودى ، الجزء الأول ص ٣٤٧ - ٣٤٩ : يقول انه باتخاذ أقصر الطرق ، يعبر المسافر جبالا بها رواسب من ملح النشادر . ويعتقد رينو ، وريشتهوفن أن القصود هو جبل من سلسلة جبال تيان شو ، يقع على بعد مائتى ميل صينى شمال كوتش Koutch حيث يستخرج ملح النشادر ، ولكن هناك مناجم من هذا النوع فى صفديانه ، وبالقرب من اورومتسى Ouroumtsi (بيتسبالك Bichbalik) انظر أيضا : — Tomaschek, Centralasiatische Studien, I, Sitz. Ber der Wiener Akad, phil. hist (1877) et. LXXXVII, p. 87-89.

الشديدة ، فلم يكن مطروقا الا فى القليل النادر ، فيستخدمه مثلا تجار سمرقند الذين يحملون الى الصين مسك التبت (١) .

ويمكن التسليم بأن القوافل المرسلة الى الصين فى العصر الذى نتحدث عنه كانت أكثر ندرة ، لأن من أغراضها الرئيسية تجارة الحرير ، وكان الحرير وقتئذ ينتج أيضا فى شمال فارس . واستخدمت صناعة الحرير طريق بخارى التجارى القديم فى بلاد الفرس ، ومن ثم تركزت فى زمن مبكر فى مرو ، والى هذه المدينة أقبل سكان الأقاليم الأخرى فى القرن العاشر طلبا لبيض دود القز ، ومن هناك انتشرت هذه الصناعة وامتدت على طول الحدود الشمالية لایران الى أقاليم طبرستان (وحاضرتها أمول Amôl) وجرجان . وكان جو الاقليم الواقع فى الرقعة التى تنخفض أرضها بالتدرج من الهضاب العليا حتى بحر قزوين مناسبا بنوع خاص لنمو دود القز . ويقول الاصطخرى وابن حوقل ان هذه البقاع كانت على عهدهما مركزا لانتاج الحرير ، واحتفظت بهذه الميزة الى يومنا هذا (٢) .

ويتتبع صناعة الحرير حتى فارس خلال القرون الأولى من دولة الخلفاء ، وصلنا دون أن ندرك ذلك الى حقل جديد فى هذه الدراسة . والواقع أنه اذا كان الناس يصنعون فى داخل دولة الخلفاء نفسها منتجات شبيهة بما ينتجه الشرق الأقصى ، فانهم كانوا يستثمرون منتجات أخرى مطلوبة بالمثل . ولم يكن ثمة حاجة للذهاب الى المالديف Maldives, Laquedives أو سواحل الهند للحصول على العنبر الرمادى ، لأن أمواج البحر تلقى بهذا العطر على الشاطئ الجنوبى لشبه الجزيرة العربية (٣) . ولم تكن سيلان الوحيدة التى تملك لآلئ وحجارة كريمة ، اذ كان هناك مصايد لآلئ ذات غلة وافرة فى الخليج الفارسى ، وجزر البحرين ، وكيس Keich ، والمعروفة الآن باسم خرج Kharek (٤) . ومن جبال فارس كان يستخرج أحجار كريمة ، وبخاصة الفيروز واللازورد ، وينمو قصب السكر فى أغواط مكران Makran وكوزستان Kousistan (٥) ، وكانت سهول سوريا وبلاد ما بين النهرين مغطاة بشجيرات

Relations, p. 114 et s.

(١)

Isstachri, p. 100, 117; Ibn Haoukal, éd. Ouseley p. 21 et s.;

(٢)

Ibn Haoukal, transl. by Anderson, Journ. of The Bengal Society, XX (1853), p. 157; Ritter, Erdk. VIII, p. 232, 529, 702.

Relations, p. 4, 30; Maçoudi, I, 433 et s., 367.

(٣)

(٤) ابن خرداذبة ، الناشر باربييه دو مينار ، ص ٢٨٣ ، المسعودى ، الجزء الأول ، ٢٣٩ ،

٣٢٨ والصفحات التالية .

Journ. of the Bengal Society, XX, : ترجمة اندرسن ،

(٥) ابن حوقل ، p. 154, 165, XXI, p. 55; Isstachri, p. 58.

القطن ، وبلاد العرب القاحلة تنتج على الأقل المر (الصبر) والبخور (١) . وكان هناك علاوة على الغلات الطبيعية ، منتجات صناعية : فلم يكن العرب يحتقرون العمل اليدوى ، والقرآن يحث عليه لأنه مقبول عند الله ، ولكنه كان حقيقا أن يظل محصورا فى حدود متواضعة لم يحتفظ العرب زمنا طويلا ببساطة العادات والطبائع التى أمر بها محمد (صلعم) . نرى من كان يتوقع أياما مجيدة للصناعة العربية ، حين أمر الخليفة عمر بقسمة أبداع غنيمة استولى عليها العرب من فارس وهى بساط فاخر عليه صورة الفردوس ، لتصير ألف قطعة ، وحين حظر على قواد جيشه أن يشيدوا قصرا مثل قصور الملوك الساسانيين (٢) ؟ ولكن هل كان فى الامكان إقناع الفرس المهزومين أن من الواجب عليهم بعد اعتناقهم الاسلام أن يتخلوا عن الذوق الفنى الذى كان يخدم ترفهم ، ويغلقوا المصانع التى كانت تخرج منها منسوجاتهم الرفيعة ومطرزاتهم الرائعة ؟ هل كان من المستطاع إجبار أهالى سوريا أن يتركوا صناعة الحرير التى كانوا يزاولونها من زمن بعيد لمجرد أنهم انتقلوا من السيادة البيزنطية الى السيادة العربية ؟ وبمرور الزمن نسى الفاتحون أنفسهم أن المتع المادية الرقيقة لا يجوز أن تكون من نصيب المؤمنين الا بعد الموت ، واستسلم الأقوياء والأثرياء للملذات الدنيوية دون أى حرج ، واختاروا لثيابهم أغلى الأقمشة ، واستعملوا فى تزيين دورهم ترفا شرقيا حقيقيا . ورأينا كم استفادت التجارة من ذلك ، ولم تتخلف عن الصناعة الأهلية ، وأكسبها تقدم وسائل الرفاهية حافزا قويا . وحينما تبددت الخشية فى قلوب المسلمين من لبس الأثواب الحريرية (٣) وجد النساجون الفرس عملاءهم يزدادون عددا فى كل أنحاء البلاد التى فتحها الاسلام . وطورت مدينتا مرو ونيسابور (٤) بنجاح كبير هذا الفرع من الصناعة الذى استمر يزاول بنشاط فى الجنوب (٥) فى اقليم كوزستان . وفارسستان ، ونعلم أن صناعة الحرير كانت مزدهرة فى عهد الملوك الساسانيين . وكانت مدينة « سوس » تنتج أقمشة من القطيفة الثقيلة الفريدة فى نوعها ، ولكن رخاءها لم يدم طويلا . واشتهر هناك أيضا تبستر (شستر) بأطلسها الذى ينافس أجمل المنتجات اليونانية ، وطنافسها التى تكسى بها حوائط الكعبة بمكة . ولما كان الخلفاء حريصين على توطيئ هذه الصناعة فى عاصمتهم الجديدة فانهم استقدموا الى بغداد جماعة من النساجين

Relations, p. 141.

(١)

Weil, Gesch. der Chalif, I, p. 74-76.

(٢)

(٣) فى عام ٦٦٥ حين ارتقى يزيد الاول عرش الخلفاء ، اعتبره الكثير من رعاياه غير جدير بالعرش لأنه كان فى شبابه يعيش حياة ماجنة ويلبس الحرير .

Aboulf., Annal. musulm. I, p. 367.

- أبو الفدا :

Pariset, Histoire de la soie, II, p. 150 et ss.

Isstachri, p. 121; Ibn Haoukal, dans Anderson, op. cit., XX, (٤)

p. 153 et s.

Isstachri, p. 59, 73.

(٥)

من تستر ، ومع ذلك احتفظت المنسوجات الحريرية فى هذه المدينة بشهرتها حتى أواسط القرن الرابع عشر (١) . وفى دمشق وبعض مدن الوجه البحرى بمصر ، وبخاصة تنيس ، كانت تنسج وتطرز أقمشة ثمينة لصنع الملابس والبسط ، ويستائر الخيام ، وغير ذلك (٢) . وكان الأمراء العرب يحبون الأثاث المصنوع من المعادن الثمينة (من ذهب وفضة) ومن الخشب الذكى الرائحة المزين بالأحجار الكريمة . ويكفى الاطلاع على قائمة الجواهر التى تملأ كنوز العباسيين فى بغداد أو الفاطميين فى القاهرة (٣) لتكوين فكرة صحيحة عن مهارة الصناع المشتغلين بالذهب والفضة ، والأثاث والأبنوس والجواهر ، وصانعى الأسلحة .

رأينا أنه ما أن تصل السلع المستوردة من الشرق وكذا المنتجات الوطنية الى داخل دولة الخلفاء حتى تنتقل من يد الى أخرى ، ومن اقليم الى آخر . ويعزز هذه الحركة عاملان :

أولاً : طبيعة العرب التى تنزع الى كثرة التحرك ، ثم بنوع خاص نظام الحج . على أن التجارة الداخلية للشعوب الاسلامية فيما بينها لا تدخل فى نطاق دراستنا هذه ، فلا يهمنا الطرق التى كان يتبعها التجار الا من حيث استخدامها لنقل البضائع الى الثغور التى لها صلة بالغرب . ولنبحث أولاً فى كيفية نقل البضائع عبر البحر الأحمر حتى تصل الى البحر المتوسط .

ففى أعقاب الفتوحات العربية مباشرة ، أعيد فتح القناة التى كانت تربط فى العصور القديمة أقصى موقع فى شمال البحر الأحمر (قلزم) بعاصمة مصر (٦٤٣) لا لصالح التجارة فحسب ، وانما بالأولى لتتيح للفتح أن يصدر بطريقة اسهل وبسرعة قمح مصر الى البلاد العربية القاحلة . وكانت القناة قد بدأت فى أوائل القرن الثامن تمتلئ بالرمال ، الى أن سدها تماماً حكام مصر (٧٦١ أو ٧٦٢) لمنع ارسال المؤمن الى المدينة (المنورة) التى أصبحت بؤرة للثورات (٤) . والثابت أنه طالما كانت القناة صالحة للملاحة ، كان التجار

(١) Isstachri, p. 59. 73; Edrisi, I, 383; Quatrmère, Mémoires sur l'Egypte,

11, 377, 380 ; Karabacek, op. cit., p. 19 et ss.

(٢) Quatremère, loc cit., p. 308 et s., 335 et s. 339 et s., 375-382;

Isstachri, p. 31.

cmfhy mfhypréu

(٣) Aboulf. Annal muslim. II, p. 107, 333; Quatremère, op. cit., (٣) p. 366-383.

(٤) بخصوص تاريخ هذه القناة فى عهد سيادة العرب ، انظر :

Weil, Gesch der Chalifen, I, 119 et ss.

وكذا مقتبسات من وصف مصر للمقريزى .

يستخدمونها لنقل بضائعهم الى القاهرة ، ومنها يعيدون تصديرها الى البحر المتوسط عن طريق النيل (١) .

ولا شك أن شق قناة تربط البحرين عبر برزخ السويس كان خليقا بأن يعزز العلاقات التجارية بين الشرق والغرب . ويقال ان الخليفة هارون الرشيد فكر في ذلك ، ولكنه عدل عن تنفيذ فكرته حين اعترض البعض بأن اليونانيين سوف يجدون في هذه القناة طريقا مفتوحا لهم للوصول الى البحر الأحمر ، يستغلونه لارسال حملات الى الأماكن المقدسة في مكة والمدينة ، ومنع الحج (٢) . ومن ثم لم يكن بد ، لنقل البضائع التي تأتي عن طريق البحر الأحمر الى الغرب من اجتياز الصحراء ، اما بارسالها الى النيل على ظهور الجمال ، ثم نقلها على النهر ، واما بنقلها عبر صحراء برزخ السويس فقط . وكان أول هذين الطريقين يصل مباشرة الى الاسكندرية . وثمة رحالة هو أركلف Arculf اجتاز مصر بعد الفتح العربي بحوالى عشر سنوات (حوالى عام ٦٧٠) ، تحدث عن الاسكندرية فقال انها ملتقى التجارة العالمية اذ يأتي اليها للتزود «شعوب لا حصر لها» (٣) . واذا كانت شهرة هذه المدينة قد خبت قليلا بعد ذلك أمام شهرة بغداد الباهرة ، فان الرخاء الذي عرفته مصر تحت حكم الطولونيين (٨٧١ - ٩٠٤) (٤) قد انعكس على هذه المدينة . وكان جزء من البضائع الآتية من البحر الأحمر يرسل عن طريق برزخ السويس الى مدينة الفرما (بيلوز القديمة Péluse التي احتفظ ثغرها بأهميته و ثرائه . ومما زاد في أهمية هذا الطريق على سائر الطرق هو أنه يختصر مدة السفر برا الى أربعة أو خمسة أيام (٥) . أما بخصوص سلع الشرق الأدنى التي تفرغ في جدة لتباع للعدد الكبير من الحجاج الذين يهرعون كل عام الى مكة ، فانها يمكن أن تصل الى الغرب ، ولكن بطريق غير مباشر ، اذا اشتراها تجار مصريون يعودون بالتالى الى وطنهم عن طريق البر في

(١) نعرف أيضا أمثلة لحجاج مسيحيين استنادوا من ذلك تجنباً لجزء من الرحلة عن الصحراء .

من ذلك الالنديون الذين سجل قصتهم القصيرة الأخ خيريلس :

— Fidelis, dans Dicuil, De mensura Orbis, ed. Letronne, p. 23 et ss.

(٢) المسعودى ، الجزء الرابع ، ص ٩٨ وما بعدها .

وذكر ابن سيد (المتوفى عام ١٢٧٤) في كتاب أبو الفدا ، ترجمة رينو ، الجزء الثانى ص

١٤٦ أن عمرو ، فاتح مصر كان قد اعتزم شق هذه القناة ، ولكن الخليفة عمر رفض تنفيذ المشروع

للباعث الذى ذكرناه .

Itinera hierosolymitana, éd. Tobler et Molinier, I., p. 188. (٣)

Weil, Gesch, der Chalif, II, 426 et ss, p. 435. (٤)

(٥) ابن خرداذبة ، الناشر باربييه دو مينار ، ص ٥١٣ ، الاصطخرى ص ٣ ، ٣٢ ، أبو الفدا ،

ترجمة رينو ، الجزء الثانى ، ١٤٦ .

وكثيرا ما ذكرت الفرما Faramiah على أنها محطة في الطريق الساحلى بين مصر وفلسطين .

أنظر فى ذلك :

— Bernardi monachi franci Itinirarium, dans Tobler et Molinier, op. cit., p. 313; Sprenger, op. cit., p. 95, etc.

صحبة حجاج من أهل بلدهم ، وذلك بالالتفاف حول طرفي البحر الأحمر ، أو تجار سوريون يحملونها الى دمشق . والحق أن طريق قوافل الحجاج السوريين الكبير كان بعيدا عن البحر لأنه يمر شرقي الأردن ، خارج فلسطين ، إلا أن المسلمين كانوا يعتبرون زيارة مسجد القدس وقبر ابراهيم في حبرون (الآن الخليل) عملا من الأعمال الصالحة ، وكان الكثير من الحجاج يختمون حجهم في القدس بعد أدائه في مكة (١)، وفي القدس يقابلون الحجاج المسيحيين الغربيين ففتح الفرصة للمبادلات التجارية . وفي يوم ١٥ سبتمبر من كل عام تقام في القدس سوق كبيرة يتردد عليها عدد كبير من التجار من مختلف الأمم (٢) غير أن هذا الطريق لم يكن الا طريقا ثانويا ، ولنعد الى طريق القوافل الرئيسي . كان أغلبية الحجاج يتجهون الى دمشق مباشرة ، وكانت هذه المدينة ملتقى العديد من الطرق الهامة ، فكان الحجاج القادمون من الشمال يتواعدون عندها باللقاء ليمضوا معا الى مكة ، وبعد عودتهم يفترقون عندها أيضا . وكانت هذه الحركة المستمرة تجلب بطبيعة الحال كمية كبيرة من البضائع الى دمشق . ولما كانت مدن طرابلس ، وبيروت ، وصور ، وعكا الساحلية على مسافة أيام قلائل سيرا على الأقدام ، فمن المحتمل أنها كانت منذ بداية العصور الوسطى تتزود بمؤناتها من دمشق . وكان هناك بنوع خاص طريق هام آخر ينتهي الى سوريا ، ذلك هو مجرى نهر الفرات الصالح للملاحة من الخليج الفارسي حتى مسافة صغيرة من البحر المتوسط . وابتداء من مدينتي البصرة وبغداد (وكانت بغداد متصلة بنهر الفرات بواسطة قناة) كان ثمة حركة متصلة لنقل البضائع ، تصعد النهر ، أو تتبع طريقا للقوافل بمحاذاة ضفاف النهر . ويذكر قدامى الجغرافيين العرب على هذا الطريق موقعين هاميين : الرقة Rakka ، وبليس Balis وقد أتيح لنا التحدث عن المدينة الأولى حين كان اسمها كاللينيكوم Callinicum وهي من الأماكن التي كان الرومان يشترون عندها الحرير من الفرس ، واستمرت هذه المدينة مزدهرة تحت السيادة العربية ، وبخاصة في العصر العباسي (٣)، بفضل العديد من العلاقات التي كانت تربطها ، ليس فقط على طول نهر الفرات ، ولكن أيضا في الشمال الشرقي مع نصيبين Misibe والموصل ، وفي الجنوب الغربي مع دمشق (٤) . أما بلدة بليس فانها كانت على بعد يومين سيرا على الأقدام من الرقة ، ويصفها الجغرافي العربي الاصطخري بأنها « ميناء السوريين » ، وهذا

(١) وجد المقدسي ، المعروف بالبشاري في أسواق اورشليم (المقدس) وفرة كبيرة من فواكه الجنوب ، وكانت السوق خاضعة لنظام دقيق ، وضرائب باهظة .

(٢) وجد الصليبيون بمدينة قيصرية كمية هائلة من الفلفل تأتيها من القدس :

— Arculf, I., c. p. 144; Ann. Jan. éd. Pertz, SS. XVIII, p. 14.

Isslachi, p. 47 ; Weil, Gesch der Chalif, II, 145, note ; Ritter, Erdk. (٣)

X, 1143 et ss.

Sprenger, op. cit., p. 92 et s., 105-108.

(٤)

دليل كاف على أن التجار السوريين كانوا يأتون إليها ، عند حدود بلدهم ، فيركبون السفن ومعهم بضائعهم في طريقهم الى الشرق ، وينزلون بها عند دعوتهم (١) . وعلى بعد يومين ، ناحية الغرب (٢) ، نجد حلب ، وهي مركز تجارى في شمال سوريا ، مثلما كانت دمشق في وسطها . ويواصل قسم كبير من البضائع الواردة على هذا الموقع طريقه الى أنطاكية ويصل الى البحر على مسافة ليست ببعيدة عن هذه المدينة . وإذا أردنا أن نعرف مدى نشاط حركة التجارة بين حلب وأنطاكية ، حتى قبل الحروب الصليبية ، فلدينا مثال لذلك : فمن المعروف أن الروم نجحوا من ٩٦٦ الى ٩٦٨ في انتزاع مدينة أنطاكية من العرب ، وكذا جزءا من الاقليم المجاور لها ، واحتفظوا بها حتى عام ١٠٨٤ . وما كادوا يسيطرون سيادتهم على أنطاكية حتى اتاحت لهم فرصة للتدخل في شئون حلب التي كان أميرها الشرعى الشاب سعد الدولة الحمداني (٣) قد خلعه من العرش اثنان من كبار أتباعه : كارجوجا Kargoujah (أو Korouba) ، وطلب كما يقول Weil) ، وباكجور (Bekdjour) Bakgour ، وطلب المغتصبان مساعدة الروم ، وأقرا بسيادة الأمبراطور . ويذكر كمال الدين ، مؤرخ حلب (٤) المواد الرئيسية لمعاهدة عقدها مع حاكم أنطاكية في شهر صفر عام ٣٥٩ هـ . ومن بين هذه المواد فقرات خاصة بالتجارة ، وهي وحدها التي تهتم في هذا البحث . تقول هذه الفقرات ، على سبيل المثال ، انه لا يجوز اعاقة الروم الداهبين الى حلب في تجارتهم ، وأن يصحب القوافل اليونانية حراسة كافية لضمان أمنها حتى تصل الى المدينة ، ويتبع ذلك قواعد تحدد العشور (الرسوم) التي تفرض على البضائع : وفي قائمة هذه البضائع ، الذهب والفضة ، والمنسوجات الحريرية اليونانية ، والحرير الخام ، والأحجار الكريمة ، واللؤلؤ ، والدباغ ، والأقمشة للملابس الشعبية ، والمنسوجات الكتانية ، والماشية ، الخ . وعلى ذلك ينبئنا كمال الدين أن القوافل في ذاك العصر كانت تقوم برحلات ذهاب وعودة بين حلب وأنطاكية . ترى هل يمكن التسليم بأن هذه الحالة لم تدم الا للفترة التي كانت فيها حلب تابعة من الوجهة السياسية لأنطاكية . وبينظة ؟ كلا بالتأكيد . لأن المعاهدة المشار اليها لم تكن منشئة لهذه العلاقات

(١) الاصطخرى ، ص ٣٨ .

ويقول ابن خرداذبة ان اليهود الذين يحكى رحلتهم - وسوف نتكلم عنهم فيما بعد ، اجتازوا ايضا في ثلاثة أيام المسافة من أنطاكية الى الفرات (éd. Barbier de Meynard p. 514)

(٢) الاصطخرى ، ص ٤١ ، وكذا : المقدسى ، في « سيرنجر » ، المرجع السابق ص ٩٨ ، Benjamin Tudel, éd. Asher, I, 88. وكذا :

(٣) هو شريف بن علي بن عبد الله بن حمدان ، أبو المال ، سعد الدولة الحمداني ، ابن سيف الدولة صاحب وحمص وما بينهما ، والمتوفى سنة ٣٨١ هـ - ٩٩١م (المراجع) .

(٤) كان فريتاغ Freytag أول من نشر النص العربى لهذا الجزء من تاريخه مع ترجمة ألمانية ، وأعاد نشرها لاسن Lassen باللاتينية ، وأخيرا ضمنها فريتاغ تاريخه .

— Weil, Gesch, d. Calif., III, 38 et ss.

أنظر أيضا :

الخاصة بسير القوافل ، ولكنها تثبت حالة موجودة من قبل . وعلى ذلك فعندما تستقبل أنطاكية البضائع الآتية من الفرات عن طريق حلب ، وتعيد تصديرها الى البحر ، فان هذا المكان كان لزمن طويل قبل الحروب الصليبية مستودعا هاما للبضائع وسوف نقدم فيما بعد براهين أخرى .

وعلىنا الآن أن نبحث عن الموانئ الأخرى التى يمكن أن تخرج منها بضائع الشرق لتصل الى الغرب . فثمة جغرافيان عربيان من القرن العاشر ، المسعودى والاصطخرى ، يوجهان أنظارنا الى مستودع كبير لمنتجات الشرق الأدنى ، مستودع « تريبيزونند » (طربزون) Tribizonde . يقول المسعودى انه كان يقام بهذه المدينة كل سنة عدة أسواق يتردد عليها الشراكسة وعدد كبير من التجار المسلمين والبيزنطيين والأرمن وغيرهم (١) . وكتب الاصطخرى « طربزون مدينة حدود رومية يذهب اليها تجارنا كلهم ، ويمر بطربزون كل الأقمشة الاغريقية الصنع ، وكل الديباج المستورد الى الأراضي الاسلامية » (٢) . ومن الواضح أن التجار المسلمين ، وكذا الأرمن كانوا يجلبون بضائعهم الى هذا السوق ، رغم أن هذين المؤلفين لا يقران ذلك ، ولكن من أية أجزاء دولة الخلفاء كان يأتى هؤلاء التجار المسلمون ؟ كانت آسيا الصغرى فى ذاك العصر تحت سيادة الروم ، ومن المؤكد أنه حين كان مسلمو سوريا يريدون عقد صفقات تجارية مع الروم لم يكونوا بحاجة الى اتباع طرق غير مباشرة ، وعلى ذلك فلا بد أن هؤلاء التجار كانوا من أهالى منطقة الدجلة أو فارس وبخارى ، ولسنا نملك عن هذه العصور القديمة أى دليل يتيح لنا أن نتتبع الطرق التى كانوا يسلكونها . ومع ذلك يمكننا على الأقل أن نحدد نقطة مرحلية : فقد كان فى أرمينيا الكبرى مدينة قديمة اسمها جارين Garin ، جعل منها البيزنطيون حصنا منيعا ، وأطلقوا عليها اسم تيودوسيو بوليس Theodosiopolis ولما وجد السكان مشقة فى مزاولة حرفهم بسبب تحصينات المدينة ، فضلوا اقامة منشأة جديدة لا تبعد كثيرا عن المدينة ، فى موقع أكثر ملاءمة للتجارة ، ولكنه مكشوف تماما . وعلى هذا النحو نشأت المدينة المزدهرة أرز Arze أو ارزن Arzen (٣) ، وأثرى فيها عدد كبير من الأهالى والتجار ، من سوريين وغيرهم بتلقيهم أنواعا مختلفة من البضائع من فارس والهند وسائر أنحاء آسيا ، وبيعهم هذه البضائع . وفى عام ١٠٤٩ غزا السلاجقة المظفرون البلد ، واستولوا على ارزن ، وجمعوا بها غنائم هائلة من معادن ثمينة وسلع غالية ، وأحرقوا المدينة وذبحوا السكان ، ومن استطاع الفرار التجأ الى مدينة

11, p. 3.

(١)

(٢) التزمت هنا بالترجمة الأصح التى أجراها دفريمرى :

Defrémery, le Journ.-asiat. IV's, XIV, p. 462.

Porphyr., De adm. imp. cap. 44, p. 192 et ss.

(٣)

Mich. Attal, p. 148.

ثيودوسيوبوليس القديمة التي هجرت منذ زمن بعيد ، وأطلق السكان الجدد على المدينة اسم البلدة التي دمرت ، أى « أرزن » وأضافوا صفة « الرومانية » بسبب تحصيناتها ، ومن ثم صار اسمها أرزنروم ، أو أرزروم (أرضروم) ، وعندما تحسنت الأحوال ، استعاد السكان نشاطهم التجارى (١) . والمعروف أن الأهمية التجارية لأرضروم الحديثة ترجع الى أنها كانت دائما مركزا من المراكز الرئيسية القائمة على الطريق الكبير المؤدى من داخل آسيا الى طربزون : ولم يكن لرخاء أرزن القديمة سبب آخر ، اذ أنه من الراجح أن التجار المسلمين والأرمن كانوا يتبعون للذهاب الى طربزون نفس الطريق الذى يتبعه أحفادهم فى العصر الحاضر . ومع ذلك يتحدث قسطنطين بورفيروجينيت Constantin Porphyrógénète عن مدينة أخرى يستطيع عن طريقها تجار وسط آسيا الوصول الى طربزون . ففى جروزى Grousie (جورجيا) ، على مسافة ليست ببعيدة عن مجرى نهر تشوروخ Tchorokh نجد ضيعة باسم ارتانوج Artanoudj (٢) كانت لها فيما مضى أهمية الموقع الحصين ، والسوق التجارية ، وكان يأتى اليها فى القرن العاشر تجار من أرمينيا وسوريا من جهة ومن ايبيريا (جورجيا) ، وإبازيا Abazie وطربزون من جهة أخرى . ومما هو معروف عن الرسوم الباهظة التى كانت هذه البلدة تحصلها يمكن الاستنتاج بأن الحركة التجارية بها كانت نشيطة (٣) . فضلا عن ذلك فان هذه البلدة ، كانت بحكم موقعها مقصدا لسكان منطقة كولشيد Colchide ، يزورونها أكثر مما يزورها اغريق طربزون .

ولا بد أيضا ، وتكملة لهذا العرض لطرق المواصلات بين الشرق والغرب ، من دراسة الحدود الشمالية للمسلمين . فمن بحر قزوين الذى كان المسلمون يملكون نصفه الجنوبي ، كانت هذه الحدود تمتد شرقا حتى بحر أرال حيث تسود حركة تجارية كبيرة . كانت هذه التجارة ، فضلا عن قربها من الأسواق الكبيرة بسمرقند وبخارى ، وعلاقات هاتين المدينتين الواسعة (٤) وقربها من

(١) Mathieu d'Edesse, traduit par Dulaurier, dans sa Bibliothèque arménienne, p. 83 et s. et notes p. 409; Cedrenus, II, p. 577 et s.; Michel Attal, p. 148; Saint-Martin, Mém. sur l'Ormenie(I, p. 68, II, p. 446 et s.; Ritter, Erdk, X, p. 271.

(٢) Wakhoucht, Description géographique de la Géorgie, éd. Brosset, p. 117; Koch, Wanderungen in Orient, II, p. 189 et ss.

(٣) Constant. Porphyrog., de adm. imp. p. 207 et s.

(٤) رأى الرحالة أبو دلف مسعر (٩٤١) تجارا لهم حملات بالهند والصين ، وكذا بالترك مكان السهوب المحيطة شمالا ببحر أراك . وكان لمدينة الحدود الاسلامية جورجانش الواقعة فى الجنوب صلات عديدة بهؤلاء التجار (الاصطخرى ، ص ١٢٧ ، ١٢٩)

— d'Ohson, Des peuples du Caucase, p. 146, 148.

— Kurd V. Schlozer, p. 11.

انظر أخبار رحلته التى نشرها :

عاصمة الري (Ragoe) Raï القديمة (١) ، تنغذى بالصناعة المزدهرة في شمال فارس . وكانت الثغور العديدة المتناثرة على ساحل بحر قزوين ، من أبسكون Abeskoun ، وأستراباد Asterabad في الجنوب الشرقي حتى دربند Derbent في الغرب تغذى حركة ملاحية نشيطة . كانت استراباد تصدر ملابس حريرية ، وأغطية للرأس ، وطاقيات ، وتعرض أسواق دربند مجموعة من السلع والمنتجات من كل أجزاء الساحل (٢) بقي أن نعرف ما اذا كانت السلع التي تجمع في منطقة بحر قزوين تصدر الى البحر الأسود فيما وراء برزخ القوقاز ، اما بطريق الماء ، على طول مجرى نهر كورا Kour وفاز Phase واما بطريق البر ، بعبور القوقاز ابتداء من دربند ، ويبدو لنا هذا قليل الاحتمال . ذلك أنه كان يوجد بين القسم المسيحي من سكان البرزخ ، الملحق دينيا وسياسيا بالامبراطورية الرومية من جهة ، وبين المسلمين سادة الجزء الجنوبي الغربي ، والجزء الغربي من بحر قزوين من جهة أخرى نفور لا يشجع على عقد الصلات التجارية . ومن جهة أخرى فان الغارات العديدة التي كانت جورجيا المسيحية هدفا لها من جانب العرب أولا ثم الترك السلاجقة فيما بعد جعلت الطرق غير مأمونة ، ثم أن القوقاز الأصلية بطرقها الوعرة وسكانها ذوي السلالات واللغات المختلفة لم تكن ملائمة لشق طريق تجاري كبير (٣) . وكان القاشاق Kaschaks سكان هذه البقاع يقيمون علاقات تجارية نشيطة مع سكان شواطئ بحر قزوين المسلمين من جهة ومع الروم في طربزون من جهة أخرى . ولكنهم كانوا يكتفون بحمل منتجاتهم الخاصة الى السوق وشراء المنتجات التي يحتاجون اليها (٤) ، ولم يفكروا في مزاولة الوساطة لكي يزودوا الروم بمنتجات الشرق .

وفي هذه الظروف لم يكن بمقدور سكان منطقة بحر قزوين أن ينموا كثيرا تجارتهم مع الغرب ، ولكن كان عندهم ثغر مفتوح عن سعة صوب الشمال : ذلك هو مجرى نهر الفولجا . وكانت الحضارة البدائية عند أقوام هذه المناطق وتنقلاتهم المستمرة عقبه في سبيل اقامة علاقات دائمة . غير أن ملوك الخزر ،

(١) عن موقع هذه المدن (على بعد ساعتين تقريبا من مدينة طهران الحالية) انظر :

Ritter, Asien, VI, I, p. 595 et ss.

ولدينا كتاب لجغرافي مجهول في القرن العاشر ، ذكرت فيه رأى على انها مركز تجارى

لأرمينيا ، وأذربيجان ، وخراسان ، والخزر ، وبورجان . انظر في ذلك :

— Sprenger, Some original passagers on the early commerce of the Arabs; Journal of the Asiat. Soc. of Bengal, XIV, 2 (1844) p. 526.

— انظر ايضا الاصطخرى ، ص ٩٥ ، ٩٨

— d'Ohsson, loc. cit., p. 6, 7.

(٢) الاصطخرى ، ص ١٦١ ، وكذا ،

(٣) Rasmussen, De orientis commercium Russia et Scandinavia, medio oeo Haven., 1825, p. 3.

(٤) المسعودى ، الجزء الثاني ، ٣ ، ٤٥ - ٤٧ .

سكان المناطق التي يخترقها مجرى نهر الفولجا السفلى نجحوا أخيرا في تهيئة وضع منتظم ، وأذنوا لليهود والمسيحيين والمسلمين بالاقامة في بلادهم بكامل حريتهم ، ومنحهم حرية ممارسة شعائر أديانهم ، وسمحوا لهم بأن يكون قضاتهم من اخوانهم في الدين (١) . ومن ذلك الحين (ويشهد بذلك العديد من الرحالة والجغرافيين في القرن العاشر) (٢) استطاع التجار العرب أن يوثقوا علاقات منتظمة مع مناطق شمال بحر قزوين . وشهدت اتييل (Atei) Itil عاصمة الخزر الواقعة على مصب نهر الفولجا وصول سفنهم وقوافلهم . وكانت نقطة الرحيل الرئيسية ، ثغر استراباد . أما بالنسبة الى القوافل فكانت نقطة الرحيل مدينة الحدود جورجانية Djodjanich (٣) على بحر أرال . وسوف نرى أن العرب لم يقفوا بالوصول الى اتييل ، وأنهم استطاعوا أن يصعدوا نهر الفولجا حتى قلب روسيا طلبا للجلود والفراء . ومن المفيد أن نعرف ما اذا لم يكن هناك في ذاك العصر ، الى جانب الشريان الكبير المكون من نهر الفولجا ، تلك الطرق المتشعبة المعهودة في العصور الوسطى ، والممتدة من الفولجا السفلى الى نهر الدن ، ومن هناك الى البحر الأسود أو بحر أزوف . وكان الخزر قد توسعوا حتى غربي نهر الدن وبحر أزوف . ولما كانوا يتلقون الكثير من البضائع بواسطة العرب ، كان بمقدورهم أن ينقلوها مباشرة عن هذا الطريق الى القسطنطينية .

والواقع أنه كان لهم مع الاغريق صلات متواترة (٤) ، ولدينا من الآثار ما يثبت علاقاتهم التجارية .

وفي القرن العاشر روى بعض السفراء البيزنطيين في بلاط الخليفة بقرطبة ان ثمة سفنا قادمة من بلاد الخزر الى القسطنطينية تجلب اليها من وقت لآخر

-
- (١) انظر الفصل الخاص بالخزر في كتاب المسعودي ، الجزء الثاني ، ص ٧ وما بعدها .
 — Froehn, De Chazaris, dans les Mém. de l'Acad. de St. Pétersbourg VIII, (1822) p. 590, 594; Vivien de Saint martin, Sur les Khazares, art. 1 dans les nouv. annal. des voy. 1851, Mai, p. 157 et s.
 — يقول أيضا كاتب عربي من القرن العاشر ، اسمه ابن رسته انه كان هناك مسلمون مقيمون في مدن الخزر ، وأنهم كانوا يمارسون ديانتهم بمطلق حريتهم .
 (٢) الاصطخرى وابن حوقل . وقد جمع روسلر Rössler ودوسون d'hoson وشرحا كل ما كتبه الرحالة عن جنوب روسيا ، الأول منهما في كتاب عنوانه :
 — Ibn Fossilans und anderer Araber Reiseberichte (Petersb. 1823).
 وفي دراسات أكاديمية عديدة ، والثاني في كتابه :
 — Des peuples du Caucase, Paris 1828.
 — Dorn, Geographico, Caucasia, dans les Mém de l'Acad. de St. Petersburg, Série VI. Polit-hist.-philol., VII, p. 454 et ss.
 (٣) الاصطخرى ، ص ١٠١ ، ١٢٧ .
 (٤) D'Ohsson (des peuples du Caucase, p. 194 et ss.

سمكا وجلودا وفراء ٠٠ الخ (١) ، وتشحن عند عودتها أقمشة بطبيعة الحال ، كما يحكى ابن حوقل أن الخزر كانوا يتناعون من البيزنطيين بعضا من الأقمشة التى يصنعون منها ثيابهم (٢) ٠ ولا يبدو أن هذه الحركة التجارية قد تجاوزت حدود التجارة المحلية ، وكانت الرحلات القادمة من الشمال الى القسطنطينية قاصرة بالأرجح على تجارة الجلود والفراء ٠ كل ذلك اذن لا يقوم دليلا على وجود حركة لنقل البضائع من آسيا الى الغرب ٠

بقى أن نعرف أيضا ما اذا كان من المحتمل أن تمر بضائع الشرق الأدنى من الخزر الى جيرانهم البتشيئج Petchénègues المقيمين فى منطقة نهر الدن الأسفل (٣) ، وما اذا كان هؤلاء ينقلونها بطريق البر الى خرسون Cherson وهى أقرب سوق رومية الى بلدهم ، والأمر هنا مثار للشك ٠ وليست حضارة البتشيئج المتخلفة هى التى تثير شكوكنا ٠ اذ يروى قسطنطين بورفيروجينيت أن البتشيئج كانوا يقدمون كل أنواع الخدمات لسكان خرسون ، ويقومون لهم بالوساطة (السياسية أو التجارية) فى الأعمال التى كان هؤلاء يعقدونها مع الأقوام البعيدين ، وينالون أجرهم عينا عن خدماتهم ٠ ويذكر هذا المؤلف بين ما يذكره من البضائع المستعملة كأجر للخدمات ، بعض منتجات الشرق الأدنى ، كالفلفل وفرو الفهد (٤) ٠ ويدل هذا البيان دلالة كافية على أن سكان خرسون لم يكونوا يتلقون بضائع الشرق الأدنى من جيرانهم البرابرة ، وأنهم هم الذين كانوا يزودونهم بهذه البضائع بعد أن يستخلصوها من أجزاء أخرى من الأمبراطورية البيزنطية (طربزون ، والقسطنطينية ، الخ) ٠

كان قصدنا ، باستعراض كل البلاد الخاضعة للسيادة العربية ، من مصر الى بنطس Pont والى بحر قزوين وبحر أزال ، البحث عن الطرق التجارية ، والمواقع التى تأتى منها بضائع الشرق متجهة الى الغرب ٠ الا أن العرب كانوا قد أسسوا ممالك غربى مصر على طول الساحل الشمالى لأفريقيا حتى أسبانيا وصقلية ، وكان موقع هذه الممالك ملائما كل الملائمة للوساطة فى التجارة بين الشرق والغرب ٠ وكانت بلاطات القيروان وقرطبة وبالرمو تقدر المنتجات الآسيوية حق قدرها ، وأتاح الرخاء الذى شاع بصفة عامة فى هذه البلاد لعدد كبير من الأفراد أن يستمتعوا بهذه المنتجات ٠ وخلق هذا الأمر بعض المطالب ،

(١) انظر رسالة اليهودى الاسبانى حسداى الى ملك الخزر ، باللغة الفرنسية :

— Carmoly, Itinéraires de la terre sainte (Brux. 1947), p. 38.

— la Russ. Revue, VI, 74.

وباللاتية فى :

(٢) Froehn, Veteres memoriae Chasarorum, dans les Mém. de l'Acad. de St. Petersbourg, VIII, (1822) p. 605.

(٣) Constantin Porphyrog., De administ. imp. p. 177; ef. p. 181. en haut.

(٤) المرجع السابق ، ص ٧١ وما بعدها :

وأسهمت القوافل في اشباع هذه المطالب ، ولكن جزءا كبيرا من بضائع الشرق كان يجلب عن طريق البحر من سوريا ومصر الى ثغور شمال أفريقيا وأسبانيا . وكانت برقة هي أول ميناء لرسو السفن بعد أن تغادر ميناء الاسكندرية : ففي القرن العاشر وجد ابن حوقل هذا الميناء مزودا بوفرة من بضائع الغرب والشرق (يذكر من بينها الفلفل) ، ورأى هناك حركة كبيرة للتجار المشتغلين بهذه التجارة (١) . وبعد طرابلس ، تستمر سلسلة من الموانئ حتى المغرب (٢) . ومن بين هذه الموانئ كانت المهديّة أكثرها رخاء لقربها من مدينة القيروان . ولا ينسى الرحالة « البكري » الذي كتب في حوالي عام ١٠٦٠ ، أن يذكر السفن الآتية من مصر ومن سوريا (٣) . ومن هناك تدخل في بلاد البربر منتجات آسيا كأخشاب الهند الثمينة (٤) . وكانت اسبانيا العربية أيضا على صلات تجارية بمصر . كتب شيسداي Chasdai ، وهو يهودي في خدمة عبد الرحمن الثالث (٩١٢ - ٩٦١) في خطاب معروف موجه الى ملك الخزر ، يصف البلد الذي يحكمه سيده قائلا : « نشهد وصول الكثير من التجار في بلدنا (أسبانيا) قادمين من بلاد أجنبية ، ومن الجزر ، وبخاصة من مصر ، ومن بلاد أبعد منها ، يجلبون العطور والأحجار الكريمة ، وسلعا أخرى ثمينة يستعملها الأمراء والعظماء ، وبعمامة كل منتجات مصر التي نحتاج اليها في بلدنا (٥) . وفي هذا يبدو خسران على حق ، لأنه كان هناك ، كما يقول أبو الفدا ، سفن تذهب من أسبانيا الى مصر حاملة البضائع ، وهناك تأخذ بضائع غيره اعوضا عنها (٦) .

وأخيرا ، كان عرب صقلية يرسلون في كثير من الأحيان سفنهم الى المهديّة وسوسة (٧) ، وربما أيضا الى مصر ، وكان من الميسور لهم التزود بالمنتجات

Description de l'Afrique, trad. par Slane dans le Journ. asiat., (١)
Série 3, T. XIII (1842) p. 161.

(٢) جمعت كل المعلومات التي أعطاها عن هذه النقطة قدامى الرحالة العرب في كتاب أماري
Amari, I diplomati arabi del r. archivio Fiorentino :

وفي دراستي عن « المستعمرات التجارية الإيطالية في شمال أفريقيا في العصر الوسيط » .
(٣) البكري ، ترجمة سلين Slane ، المجلة الآسيوية ، المجموعة الخامسة ، الز ١٢ ،
ص ٤٨٥ .

(٤) أماري Amari

(٥) Carmoly, Itinéraires de la terre sainte, p. 36 et s.; Harkavy, dans la
Russ. Pevue, VI, 73.

(٦) أسرت إحدى السفن الأسبانية في عام ٩٥٥ سفينة مصرية ، وكان هذا العمل مضدرا
لنزاع بين الخليفة الفاطمي المعز والخليفة العباسي عبد الرحمن الثالث .

— Ann. musulm., éd. Reiska, II, p. 463.

— أبو الفدا :

Amari, Storia dei Musulmani di Sicilia, II, 449.

(٧)

الأسبوية . غير أن امكانية الحصول على هذا الوجه بطريق التجارة على أشياء كثيرة مصنوعة في الشرق لم تكن كافية للعرب المقيمين في الغرب ، فقد كانوا على دراية بفن زراعة نباتات في أوروبا ، لم تكن تزرع حتى ذلك الحين الا في آسيا وأفريقيا . ولم ينجح بالمرّة توطين النباتات التي تنتج التوابل الحقيقية ، غير أن شجيرات القطن ، وقصب السكر ، ونخيل البلح ازدهرت في بعض أنحاء أسبانيا وصقلية .

وفى هذين البلدين نمت صناعة الحرير نموا كبيرا ، وكان البلدان ينتجان جزءا على الأقل من المادة الأولية لهذه الصناعة . وهكذا فمع الجنسية العربية ، رسخت في الغرب رفاهية الشرق وحضارته وصناعته .

ونحن اذا تساءلنا عما اذا كان العرب قد عملوا بهمة على أن يستوردوا للبلاد المسيحية السلع التي يستخلصونها من أعماق الشرق ، وكذا منتجاتهم الخاصة ، هذا الشعب (العربي) الذي كان يرسل سفنه عبر المحيط الهندي الى نهاية العالم ، وكذا عبر البحر المتوسط الى السواحل المجاورة في اليونان وايطاليا وفرنسا حاملة كنوز الشرق ، فاننا نؤكد أنهم لم يفعلوا ذلك ، على الأقل في القرون الأولى . ذلك أن ما كانوا يصرحون به من سيادتهم على العالم باسم الاسلام ، قد وضعهم بازاء المسيحية في موضع العداوة التي لم يخمد أوارها الا بعد حروب طويلة . وكان لا بد أن يتعلموا بأنفسهم أن يحترموا الحدود التي واجهت محاولاتهم ، بفضل المقاومة العنيدة التي أبدوها حيالهم مسيحيو الأمبراطورية الشرقية ، وبأس الأجناس الرومانية الجرمانية الفتية ، وبذلك اشتدت ضراوتهم في القتال . وحين كانت سفنهم ترسو على سواحل اليونان وايطاليا وفرنسا ، لم يكن النازلون منها تجارا مسالمين ، ولكن شرادهم من جند وقراصنة يحرقون ويدمرون كل شيء . ولسنين طويلة كان ظهور سفن المسلمين مثيرا للربح في قلوب المسيحيين من سكان شاطئ البحر المتوسط . ولم تكن السفن التي تحمل الركاب والبضائع تبحر الا بين أسبانيا وصقلية وأفريقيا ، ولا تخدم الا تجارة العرب فيما بينهم .

ومع ذلك أدرك العرب شيئا فشيئا أنه يوجد شمال البحر المتوسط حشد هائل من المسيحيين الذين لا يمكن تحويلهم الى الاسلام ، لا بالقوة ولا بالاقناع ، ومن ثم هذا تعصبهم الحربي بالتدريج ، ولم يعودوا في القرن الحادى عشر ينفرون من زيارة أوروبا كسياح فضولين أو تجار ينشدون الثراء . وفى هذه الآونة قام العربى الاسبانى أبو بكر محمد الطرطوشى (من طرطوشة) برحلته فى قسم من أوروبا المسيحية (١) . ويبدى دونتزو Donizo الورع فى كتابة

(١) انظر كاتمرير فى « المجلة الأسبوية » المجموعة الخامسة ، الجزء ١٧ ، ص ١٤٧

وما بعدها .

Froehn, dans les Mém. de l'Acad. de St. Petersb., Série VI, Sciences politiques, T. II (1834), p. 87 et ss.

« حياة الكونتيسة الكبيرة ماتيلدا الرشانية » سخطه من وجود عدد كبير من الكفار الترك والليبيين والبارثيين والسود الكلدانيين الذين يجوبون شوارع بيزا (١) . ولنا أن نسلم بأن هؤلاء المسلمين الأسويين والأفريقيين لم ينتظروا حتى بداية القرن الثاني عشر (كتب دونتزو ماكتبه في عام ١١١٤) ليزوروا بيزا . ومن المحتمل أنه في الفترات الأولى من الحروب الصليبية جاءت فترة توقف فيها تدفق المسلمين . ولا شك أن دونتزو قد صور في شعره حالة سابقة على الحروب الصليبية . وفي عصر أكثر قدما كانت المدن التجارية في جنوب إيطاليا تستقبل داخل جدرانها مسلمين من شمال أفريقيا ، بل ومن مصر وسوريا وسوف نرى فيما بعد أن هذه المدن كانت في القرن التاسع ملاذا للقراصنة الأفريقيين ، وكانت تعقد معهم أحلافا ، وتشترك معهم في بعض الحملات . وإذا كان القراصنة الأفريقيون يحظون بترحيب طيب في سالرنو وأمالفي وناپولي وجائيتا ، ألم يجد التجار المسلمون ، من باب أولى ترحيبا أفضل ؟ ومع ذلك فانا لم نجد في أى مكان برهانا أكيدا يشهد ذلك ، ولا حتى فيما ذكره الأفريقي المشهور أران Arrane (حراني Harrani) الذي أراد أن يظهر امتنانه للأمير سالرنو Waifre فحذره من أن المسلمين يدبرون هجوما على تلك المدينة (٢) .

ويجب البحث في القسطنطينية عن آثار أكثر وضوحا لهجرة المسلمين الى الأراضى المسيحية . وان وجود مسجد في هذه المدينة لدليل يثبت هذه الهجرة : فقد شيد العرب بها مسجدا في عام ٧١٧ عند خصارها في عهد الإمبراطور ليو الايسورى Léon l'Isaurien ، ولكن المسجد تهدم (٣) . وفي عام ١٠٤٩ أو ١٠٥٠ شيد الإمبراطور قسطنطين مونوماك مسجدا جديدا وزوده على حسابه الخاص بجميع لوازم العقيدة الاسلامية . حقا كان الباعث على هذا الكرم الرغبة فى اكتساب وذ الأمير السلجوقي القوى طغرل بك (٤) . ولكن اذا كان الإمبراطور قد بنى مسجدا ، فذلك لأنه كان هناك مسلمون يترددون عليه ، وهذا ما يشهد به أبو الفرج (٥) وهو يروى قصة ثورة اندلعت منذ بضع سنوات مضت (١٠٤٤) اشترك فيها أرمن ويهود وعرب . ولا شك أن الأخيرين كانوا قد قدموا الى عاصمة الإمبراطورية اليونانية من أجل مصالحهم التجارية . ثم أن ظهور تجار

(١) Pertz, SS. XII. 379.

(٢) Chron. Salern. dans Pertz, ss. 111, p. 528; Amari, Storia dei Musulm., di Sicilla, I, 383 et ss.

(٣) Constant. Porphyrog., De administr. imp., éd. Bonn, III, 101.

(٤) Aboulf., Ann. musul. III, 131 ; Barhebroeus, Chron. syr. éd. Bruns et Kirsh, p. 248.

(٥) Barhebroeus, loc. cit., p. 245.

عرب فى الاقليم المسيحى كان ولم يزل ظاهرة فردية ، حتى ان دورهم فى حركة استيراد منتجات الشرق الى الغرب لم يكن سوى دور متواضع للغاية .

٢ - الروم

ظل الشعب الذى كان معظم طرق آسيا تمر بأراضيه أو تنتهى اليها غريبا عن الحركة التجارية ، ويبدو أنه لم يكن له مصلحة فى أن يصدر الى الغرب البضائع الواردة من وسط آسيا ، بل لم يهتم بأن يقدم للاوروبين منتجاته الزراعية أو الصناعية . لا بد اذن من التسليم بأن هناك أمما أخرى كانت تقوم بدور الوساطة بين الشرق والغرب ، وينبغى البحث عن هذه الأمم . ومن الطبيعى فى هذا البحث التفكير أولا فى اليونانيين . ولما كان هؤلاء يقيمون بين أتباع الاسلام ، وبين أمم المجموعة الرومانية الجرمانية ، كان دور الوسيط يناسبهم كل المناسبة . حقا انهم مسيحيون ، اشتركوا بدور فعال فى النضال بين الديانتين ، غير أنه منذ كانت لهم السيادة على سوريا ومصر ، ومن ثم على الأراضى التى تنتهى عندها الطرق الآسيوية ، أصبح استعمال منتجات الشرق عادة عندهم ، وكان من العسير أن يحرموا منها . ولما كانوا مولعين بترف المائدة والملبس ، فانهم لم يستطيعوا الاستغناء عن الفلفل والحريير والنسيج الأرجوانى ، وكان لابد لولائهم من عطر خشب الهند (خشب الصندل) (١) . وحين أحاط أطباء الروم علما بأدب اللغة العربية ، واكتسبوا بذلك معرفة أكثر صحة وكمالا بالطبيعة وتأثير العقاقير التى يستعملها أطباء الشرق (٢) ، كان عليهم بدورهم أن يستخدموا هذه العقاقير فى مهنتهم ، وكان لا بد لهم لاستيرادها أن يستعينوا بالتجارة . ولهذه الأسباب كلها ، كان لا بد من أن يزول نفور اليونانيين من العرب ، دينيا وسياسيا لحاجتهم الى الاتجار معهم .

وفى بداية الفتوحات العربية كانت السفن البيزنطية متباعدة عن ثغور مصر وسوريا ، الا أن هذا التباعد لم يدم طويلا . ومع ذلك لا يرجع أول أثر أكيد لعودة الصلات الا الى مطلع القرن التاسع . وفى هذا العصر ، حين اعتدى المسلمون على الأراضى المقدسة ، حظر ليو (لاؤون) الخامس الأرمنى رعاياه من

Theophan, contin, p. 457.

(١)

Siméon Seth.

(٢) فى هذا الخصوص كتاب مشهور ، لسيميون سيت

مهدي الى الامبراطور ميخائيل السابع روكاس (١٠٧١ - ١٠٧٨) بعنوان :

De alimentorum facultatibus.

يعالج فيه عن خبرة تأثيرات الزنجبيل والقرفة والقرنفل وجوز الطيب والكاפור ، وخشب الصبر ، والفلفل : (éd. Langkavel, p. 40 et s., 55, 56, 58-66 et s. 74 et s.

الذهاب الى مصر وسوريا(١) ، ولا بد أن الأمبراطور أراد بقطعه العلاقات المفيدة للعرب أن يجعلهم يشعرون بوطأة غضبه . غير أن مرسومه هذا يدل على شيء واحد : ذلك أن الروم كانوا في ذلك العهد لا يتورعون عن مصادقة العرب فيما يتعلق بالتجارة . ويروى المؤرخ Cedrenus (٢) بخصوص هذا الأمبراطور أن من بين الهدايا التي منحها لراهب من أصدقائه نباتات عطرية ، يقول عنها انها « مثل تلك التي تأتي من الهند » وتدل هذه الحكاية الصغيرة على استدامة التيار الذي كان يجلب منتجات الشرق الى القسطنطينية ، غير أنها لا تبيننا عن كان يأتي بها ، التجار الروم أم الأجانب ، وعلى أية حال فإن تجارة الروم مع العرب نمت نموا هائلا في القرن العاشر . وتبع لما سجله الكتاب العرب الذين ذكرناهم قبلا ، كانت أنطاكية وطربزون السوقين الرئيسيين اللذين تنم فيهما المبادلات التجارية ، ونضيف اليهما دون تردد الاسكندرية التي كان يتردد عليها تجار كثيرون من جنسيات مختلفة . وكان الجزء الأكبر من البضائع التي يستخلصها الروم من هذه الموانئ يتجه الى القسطنطينية ، اما عن طريق البحر المتوسط أو البحر الأسود ، واما عن طريق البر ، عبر آسيا الصغرى . غير أن تقدم السلاجقة لم يلبث أن جعل هذا الطريق غير صالح للسفر . كذلك كانت تسالونيك(٣) ، وخرسون(٤) تتلقيان نصيبها من بضائع الشرق .

وقد يخطر على البال أن تقدم الصناعة في بلاد الروم يترتب عليه الغاء استيراد المنتجات المصنوعة في الشرق . ولكن هذا ليس بصحيح : ذلك أن انتاج الحرير لم يكن متقدما بالدولة البيزنطية وكميات المنسوجات الحريرية التي تنتجها مشاغل الحرير في البلاط الامبراطوري بالقسطنطينية لم تكن كافية لسد مطالب البلاط والدولة . وفي القرن التاسع ، وحتى في القرن العاشر ، كان الأباطرة يشترون من أجل تزيين قصورهم ، وتوزيع الهبات على حاشيتهم أقمشة مستوردة من مصر ومعروضة في أسواق القسطنطينية (٥) ، وكذا وبوجه عام سلعا مصنوعة في الشرق ، وتدل أسماؤها بوضوح - وهي مستعارة من اللغة العربية - على مصدرها (٦) . ولم تكن الصناعة الخاصة ، شأنها شأن مشاغل حرير القصر الامبراطوري بقادرة على انتاج كميات المنسوجات الحريرية التي تتطلبها التجارة : أولا لأنها كانت تعاني من علتين أساسيتين :

Dandolo, p. 167.

(١)

Ed. Bonn, II, 54.

(٢)

(٣) يذكر كامينياتا Joh. Cameniata من بين السلع التي تباع في هذا السوق أحجارا كريمة واردة من الشرق ، وهذا أمر لا شك فيه ، أما الأقمشة الحريرية التي يذكرها فليست آتية حتما من الشرق .

Constant Porphyrog. De adm. imp. p. 72 et s.

(٤)

Constant, Porphyrog. De cerim, p. 373, 595, et les notes de Reiske,

p. 563, 700.

(٥)

Ibid, p. 468, 706 et les notes de Reiske p. 529, 712, 716.

(٦)

منافسة مصانع الدولة المتمتعة بالامتيازات ، وعبء الضرائب الفادح . وثانياً أنه ما أن أتى القرن العاشر حتى كان من أثر فتح العرب سوريا (١) أن انتزع منها أحسن أسواقها ، وكان لابد من مضى بعض الوقت لكي يسد البيع في أقاليم الامبراطورية هذا العجز .

وادعى بعض المؤرخين أن انتاج الحرير وصناعته كانا مزدهرين قبلا في المورة ، وذكروا اثباتا لذلك الأقمشة الفاخرة التي أحضرتها سيده ثرية اسمها دانيليس Danilis من بتراس Patras الى القسطنطينية لاهدائها الى الامبراطور باسيل الأول (٨٦٧ - ٨٨٨) . غير أنه بدراسة أصل النص الذي أخذت منه هذه القصة دراسة دقيقة (٢) يتبين لنا أنه لم يرد به ذكر لأقمشة حريرية . وانما ذكرت به أقمشة من القطن والكتان . وحتى اذا ثبت أن هذه الأقمشة صنعت في البيلوبونيز لا في الخارج ، فان هذه الحقيقة في ذاتها تثبت شيئا واحدا ، ذلك هو براءة صناع البلد في نسج القطن والكتان . ونجد أيضا ضمن الأشياء المذكورة بساطا كبيرا أمرت دانيليس بصفة على نفقتها الخاصة في البيلوبونيز من أجل كنيسة جديدة في القسطنطينية ، ومن ثم لا يمكن الاستناد الى هذا النص للتسليم بازدهار - صناعة الحرير (٣) . ثم ان البيلوبونيز لم تكن معروفة خلال القرون التسالية بانتاج الحرير بنوع خاص : ولم يكن ذلك الا افتراضا نبع من تشابه كلمة المورة Morée بكلمة Morus ومعناها شجرة التوت ، وقد تبين الخطأ في أصل الكلمة منذ زمن بعيد . وكان انتاج الحرير أكثر تقدما في هيلاس نفسها (اليونان القديمة) ، وفي جزر الأرخبيل . ومع ذلك لم يبلغ ازدهار هذه الصناعة ذروته الا خلال الفترة التي أعقبت الفترة التي تهمنا في هذا البحث .

كان التاجر الذي يذهب الى القسطنطينية ، يسره كل السرور أن يجد فيها تشكيلة كبيرة من المنسوجات الحريرية ، الوطنية أو الأجنبية ، لذلك اشتهرت عاصمة الامبراطورية اليونانية بأنها أحسن سوق مزودة بمختلف أصناف هذه السلعة ، وكان الناس يطلبون فيها بنوع خاص الأقمشة الأرجوانية وكانت مشاغل الحرير بالقصر الامبراطوري تصنع هذه الأقمشة باتقان شديد غير أن الروم كانوا يحبون ارتداء أفخم هذه الأقمشة ، ولم تكن الحكومة تحظر رسميا تصديرها ، ولكنها مع ذلك تقيم كل أنواع العراقيل في سبيل هذا التصدير .

(١) عوض عن هذه الخسارة تعويضا جزئيا حين عاد اليونانيون فاحتلوا أنطاكية ومجاوراتها .
وحين ارتقى الكسبوس كومنينوس العرش ، كان أخوه اسحق حاكما على المدينة ، ولكي يحافظ على ود الكسبوس ، أرسل الى البلاط مرارا أقمشة حريرية :
— Nicèph. Bryennius, éd. Bonn. p. 156.

Theophan, contin p: 318.

(٢)

Finlay, Hist of the byzantine and greed empires from 716 to 1453 ; (٣)
I, p. 302; Pariset, Hist. de la soie, II, p. 25 et ss.

وسوف نرى فيما بعد القيود المفروضة على التجار الروس المصدرين للمنسوجات الحريرية ، ونكتفى الآن بحكاية ما حدث لـ *Luitprand* أسقف كريمونة فى ختام سفارته الثانية بالقسطنطينية : فقد كان فى حقايبه منسوجات حريرية ، كان قد اشترى بعضها ، وأهدى اليه البعض الآخر . وحين أراد اجتياز الحدود احتجز موظفو الجمارك خمسا من أجمل القطع بدعوى أن تصديرها ممنوع . وعبثا حاول الأسقف اقناعهم بأن هذه الأقمشة تخص كنيسته ، وأن الامبراطور صرح له بأن يشتري للكنيسة أوشحة (من طيلسان) دون أن يحدد ثمنها لها ، وتوسل اليهم - دون جدوى - أن يتركوا له على الأقل القطع المهداة اليه ، فقد أصر رجال الجمارك دون رحمة على مصادرة الأقمشة . ولابد من القول بأن هذه المعاملة القاسية كانت امتدادا لما عاناه لويتبراند خلال سفارته من اهانات من جانب رجال الحاشية وموظفى الامبراطورية ، كما كانت هذه المعاملة متمشية تماما مع طبيعة الامبراطور نيقفور الذى كان يتولى مقاليد الحكم وقتئذ ، وكان من عادته أن يعامل الأجانب بغطرسة ملؤها الخشونة . وكان لويتبراند ابان سفارته الأولى عام ٩٤٩ (١) يتعامل مع الامبراطور قسطنطين السابع الذى كان يحسن معاملة الأجانب ، وكان لويتبراند قد حمل فى عهده أقمشة ثمينة ، ولم يمنعه أى موظف بالجمارك من الخروج بها ، ولم يفتشه أى واحد منهم (٢) . وبديى أن الأمور كانت تجرى على هذا النحو بالنسبة الى التجار . فحينما كانت الرقابة تنفذ بصرامة ، وحينما كانت مترخية . وكان بعض موظفى الجمارك يقبلون الرشوة ، وبعض المصدرين يستخدمون طرقا احتيالية للتخلص من تفتيش الجمارك . والواقع أن البضائع الثمينة التى كان تصديرها ممنوعا ، وكانت تصل مع ذلك الى ايطاليا ، اما عن طريق البندقية أو أمالفي (٣) ، لم تكن بقليلة .

ويوجه عام لم يكن الروم يبذلون جهدا كبيرا لتوزيع المنتجات الوطنية والأسبوية المقدسة فى المخازن فى البلاد المجاورة . بل كان الأباطرة يبذلون جهدهم لابهار الأمراء الأجانب بكرمهم ، وهداياهم من التحف الأجنبية ، ويحبون عرض البضائع الثمينة التى ترد الى القسطنطينية ، ولكنهم لم يدركوا فائدة انتهاج سياسة تجارية واسعة النطاق (٤) ، تتيح للأمم الأخرى أن تحصل على

(١) لتحديد هذا التاريخ انظر Kapke, De vita et scriptis Liudprandi, p. 11.

(٢) Liudprandi, relatio de legatione Constantinopolitana, dans Pertz, ss. III, p. 359 et s.

Liudprandi, loc cit.,

(٣)

(٤) كان الرسم الذى يجبى على التصدير يبلغ بعامه ١٠٪ من قيمة البضاعة ، انظر ابن خرداذبة ص ٥١ ، وكذا :

Cinnamus, lib. 6, cap. 10 ; Joh. Cantacuz, lib 4, 12 ; Zacharioe van Lingenthal, les Mém. de l'Acad. de St. Pétersberg VII, série, T. IX, no 6, p. 6.

هذه التحف الرائعة . أما بخصوص رعاياهم ، فإن كل جهودهم كانت قاصرة على الحصول على الأشياء اللازمة لرفاهيتهم ، وتركوا للأجانب المشاق والمخاطر اللازمة لرحلات العمل الطويلة . وكان يحلو لهم ، ويرضى كبرياءهم أن يشاهدوا السفن التجارية التابعة لمختلف البلاد الأوروبية وهي تدخل ميناء القسطنطينية ، وأن تصير « ملكة المدائن » مركزا لتجارة الغرب ، ولا يهتمهم كثيرا بعد ذلك أن يفقدوا باهمالهم أجمل الفرص لانماء ثروتهم . وكان من السهل عليهم أن يلقوا كميات هائلة من بضائع الشرق الأدنى في أسواق جنوب إيطاليا حيث بقيت مدن باري ونابولي وأمالقي وغيرها قرونا طويلة تحت سيادة قياصرة الروم ، ويستثمرون ذلك في سائر أنحاء إيطاليا : ولكنهم كانوا يفضلون دعوة سكان هذه المدن الى الحضور الى القسطنطينية ، وكان هؤلاء السكان قد احتفظوا حتى في عهد السيادة البيزنطية بروح المغامرة التي اتصفت بها العبقريّة الإيطالية . وبمرور الزمن أصبح أهالي البندقية وبيزا وجنوا هم الموردون الرئيسيين لمنتجات الشرق الأدنى في الغرب كله ، وتنازل لهم عن هذه المكانة التجار الروم الذين استسلموا للكسل والبطالة واكتفوا بالتذمر . وإذا كان نشاط التجار الروم في الغرب ضعيفا للغاية ، فإنهم مع ذلك أبدوا نشاطا أكثر بقليل في الشمال ، في البلاد التي يرويها نهر الدانوب ، وفي روسيا ؛ وثبت أنهم كانوا يزورون بلد البلغار الذين يقيمون على ضفاف الدانوب (١) : وذهب البعض منهم الى روسيا (٢) ، وكانت نقطة انطلاقهم خرسون . ومن المحتمل أن يكون قسطنطين بويرفروجنتوس قد استقى معلوماته التفصيلية عن الملاحه في الدينبر السفلى ، مما كان يحكيه تجار خرسون ؛ ويعين هذا الأمبراطور العالم بالجغرافيا بالقرب من المخاضة المسماة كراريك Krarique الموضع الذي يعبر عنده أهالي خرسون النهر عند عودتهم من روسيا (٣) .

ومع ذلك فإن اليونانيين قد تفوق عليهم في هذه الناحية ، وكذا في الغرب « برابرة » الشمال الأكثر منهم نشاطا . وسوف نرى فيما بعد كيف أثار نجاح التجار البلغار المقيمين بالقسطنطينية غيرة اليونانيين ، وأن الروس كانوا يفدون الى هناك في جموع كبيرة لممارسة التجارة .

Theophanes, I, 775.

(١)

Cedren, II, 551.

(٢)

هذا ما تثبته المعاهدات التي عقدها بعض غراندوقات روسيا مع أباطرة بيزنطة .

De adm. imp., p. 77.

(٣)

كانت المخاضة المذكورة موجودة أعلى بقليل من مدينة الكسندروفسك الحالية .

٣ - روسيا واسكندناوة

(أ) التجارة مع العرب

مما يثير الدهشة تلك الكمية الهائلة من النقود الفضية شرقية الأصل التي تظهر في الحفريات التي تجرى شمال أوروبا ؛ ولابد أن أصحابها قد دفنوها بالأرض عند انصرافهم ، اما في رحلة عمل طويلة ، أو للاشتراك في حرب ، أو لعلهم دفنوها ثمة حتى لا يستولى عليها غاز من الغزاة ، ثم منعهم فيما بعد من استرداد كنوزهم موت أو هجرة أو أسباب أخرى ؛ وهكذا يكتشفها في الوقت الحاضر بعض المزارعين أو الحطابين ، ويظهر معها أحيانا كميات كبيرة من النقود تشكل مبالغ ضخمة . وقد نشر ليدبور Medebur عام ١٨٤٠ دراسة مصحوبة بخريطة طوبوجرافية ، تعطي فكرة واضحة للغاية عن توزيع هذه المكتشفات في منطقة بحر البلطيق ؛ ولم يعد هذا البيان يمثل بالضبط حقيقة معلوماتنا بهذا الخصوص في الوقت الحاضر ، اذ لا تمر سنة دون أن يتم اكتشاف جديد ، ومع ذلك فلم تزل هذه الدراسة بوجه عام ذات قيمة وبالنسبة الى روسيا يجب الرجوع الى خريطة بول ساولييف Paul Savelieff (١) ، أو الموجز الطوبوجرافي للنقود العربية القديمة في روسيا (٢) الذي ندين به للمستشرق فريهن Froehn . وما نعرفه عن الاكتشافات التي جرت في شمال شرقي روسيا على نهر بتشورا غير أكيد ، فلسنا ملزمين بأن نأخذها في اعتبارنا ، ومن ثم فان حكومة قازان شرقي أوروبا هي المنطقة القصوى التي عثر فيها على مكتشفات مؤكدة من هذا النوع (٣) . وإلى الغرب ، وبغض النظر عن بعض المكتشفات القليلة الأهمية التي تمت في آيسلندا وانجلترا ، فان أقصى موقع عثر فيه على مثل هذه التحف هو اجرسند Egersund باقليم كرستيانسند Christiansund بالنرويج . أما بخصوص روسيا فان الحد الشمالي للمكتشفات يتمثل في خط مستقيم يمتد من قازان الى بحيرة لادوجا ومنها الى فنلندا ؛ أما المنطقة الجنوبية القصوى فانها عند خرسونيز القديمة Chersonèse (القرم) ، وهنا أيضا لم يتم سوى اكتشاف واحد . وبوجه عام فان البلاد التي كشفت فيها الحفريات عن أكبر كميات من النقود الفضية العربية هي الأقاليم الواقعة في قلب روسيا ، على المجرى الأعلى والأسفل لنهر الفولجا ، وروافده

(١) لم أستطع مع الأسف الحصول على هذه الخريطة ، ولا على كتاب « المسكوكات الاسلامية » للمؤلف نفسه (سان بطرسبرج ١٨٤٧) وفيه يبحث بنوع خاص موضوع الحفريات التي أجريت في روسيا ونتائجها بالنسبة الى تاريخ هذا البلد .

(٢) Bullet, de l'Acad. de St. Pétersbourg, 1, IX (1842) no. 20, 21.

(٣) Frahn, dans le Bulletin, ib. no. 19, p. 295-297.

الجنوبية ، والأقاليم الواقعة على المجرى العلوى لنهر الدينبر ، وأخيرا الأقاليم المجاورة لبحر البلطيق وخليج فنلندا (١) . ومن فنلندا الى السويد يمر الانسان بجزر أولاند Aland حيث استخرجت نقود فضية قديمة غريبة الشكل ، لعلها شرقية الأصل . وإلى الجنوب تشكل جزيرتا جوتلاند وأولاند شبه قنطرة بين أقاليم البلطيق الروسية وبين اسكندناوة . وقد عثر في أقاليم البلطيق على كميات كبيرة من النقود العربية . ويحكى هايد لبراندر Hilderbrand أن الحفريات المعروفة هناك أسفرت عن أكثر من ١٣٠٠٠ قطعة (٢) . واسهمت جزيرة أولاند الصغيرة بقدر كبير في هذا الخصوص ، فقد عثر في حفرة واحدة على ١١٢٢ قطعة نقد عربية نادرة المثال . وفي السويد نصادف كثيرا نقودا عربية على طول الساحل الشرقي ، وهذه النقود أكثر ندرة في داخل القطر وفي قسمة الغربي (٣) . وفي النرويج لا توجد نقود عربية الا في السواحل الجنوبية (٤) . وبخصوص الدانمرك ، وجد أكبر قدر من هذه النقود في جزيرة بورنولم Bornholm ، وعثر على بعض منها في جزر مون Moen ، وفالستر Falster ، ولانجلاند langeland ، وأجيرسو Aggersoe ، وفالستر (في بلت Belt الكبرى) ، كما عثر في أنحاء متفرقة من جتلاندر وشلزويج على قطع فضية عليها حروف كوفية (٥) .

ومن السهل تحديد العصر الذي تنتمي اليه النقود الفضية العربية (الدراهم) التي يعثر عليها في أقاليم البحر البلطي بروسيا ، لأنها كلها تحمل تاريخ صنعها . ووفقا لقربهن ، يرجع أقدم هذه النقود الى أواخر القرن السابع ، وأحدثها الى مستهل القرن الحادى عشر . وينطبق هذا الرأى تماما على الملحوظة التي أبداهما تورنبرج Tornberg وفحواها أن مجموعة الدراهم التي وجدت في السويد تبدأ بقطعة من عام ٦٩٨ في عصر الأمويين ، وتنتهى بقطعة من عام ١٠١٠ في عصر البويهيين . يقول تورنبرج ان القرن الأول من هذا العصر لا ينتمى اليه الا القليل جدا من هذه النقود ، فدراهم السنوات ٧٩٥ - ٨١٦ كثيرة ، ولكن الأكثر عددا هي نقود أواخر القرن التاسع حتى وسط القرن العاشر ؛ وتقدم السنوات ٩٠٩ - ٩١٤ أكبر حصة من هذه النقود . وابتداء من

(١) أنظر Frahn وفيما يختص بأقاليم بحر البلطيق بنوع خاص ، انظر :

Kruse, Necrolivonica, Suppl. D. p. 6 et ss.

(٢) Hildebrand Das heidnische Zeitalter in Schweden, trad. Mestorf. (Hambourg. 1873) p. 184.

(٣) Mumi, cufiei regü numophylaci Holmiensis (Ups, 1848) ; Ledebur, p. 8-30; Minutoli, op. cit., p. 7 et ss.

(٤) Tornberg, loc. cit., note Ledebur, op. cit., p. 5-7; Minutoli, p. 5 et s.

(٥) Worsgøe Däenemarks Vorzeit, trad. allem. par Bertelsen (Copenhag 1844), p. 53 et s.; Ledebur, op. cit., p. 71-76; Minutoli, p. 19-22.

عام ٩٥٥ تقل بالتدريج ؛ وبعد العقد الأول من القرن الحادى عشر ينعدم وجودها (١) .

وبدراسة ماهو مكتوب على قطع النقود ، نتعرف على أسماء الأمراء الذين ضربت النقود فى عهدهم ، وأسماء الأماكن أو البلاد التى أتت منها . ومن ذلك يتبين أن أكبر عدد من النقود (أكثر من ثلثيها) آتية من الدولة السامانية التى حكمت فيما وراء النهر ، وخراسان منذ الربع الأخير من القرن التاسع حتى نهاية القرن العاشر ، والأسماء التى ترد غالبا فى الشروح المنقوشة على قطع النقود التى اكتشفت فى روسيا والسويد هى سمرقند ، وبخارى ، وشاش (طشقند) ؛ وبلخ ، وأندراب ، ونيسابور وغيرها وبعد هذه الممالك تأتى البلاد الواقعة الى الغرب منها ؛ على طول الساحل الجنوبى لبحر قزوين : جرجان ، وطبرستان ، والديلم . وتعرفنا النقود بأسماء بعض صغار الأمراء الذين حكموا هناك . ومع ذلك تتمثل أرمينيا أكثر من غيرها فى هذه النقود ، وبخاصة فى نقود « بيردا » Berdaa باقليم « أران » Arran فى الجنوب الشرقى من بحر قزوين . وتقدم بغداد ، مقر الخلفاء العباسيين نصيبا كبيرا من النقود ، فى حين لا تظهر دمشق ، مقر أسلافهم الأمويين الا قليلا على النقود . وبوجه عام تنتمى النقود التى عثر عليها الى ما وراء نهر أوجزوس شمالى فارس ، أى البلاد التى تروىها أنهار كورا والدجلة والفرات . أما النقود الآتية من جنوب فارس وبلاد العرب وسوريا ومصر وأفريقيا والمغرب وأسبانيا فأنها أكثر ندرة (٢) .

ويهمنا الآن البحث فى الكيفية التى وصلت بها هذه النقود العربية فى عصر موغل فى القدم الى أقصى المناطق الشمالية فى روسيا . وثمة علماء قدامى قدموا فى هذا الخصوص افتراضات قد تكون على شىء من الصحة ؛ ولسنا نريد أن نتوقف عندها ، لذلك نبدأ بتقديم تصريح نرجو أن يلمس القراء أهميته ، الثانوية على الأقل . اننا نعرف الغزوات التى كان يشنها الفايكنج الاسكندناويون ؛ كذلك ظهرت السفن الروسية - والروس قبائل من أصل اسكندناوى - ظهرت على بحر قزوين ، وأغار القرصان الذين خرجوا من صفوفهم مرتين خلال القرن العاشر (٩١٣ ، ٩٤٣) على البلاد الواقعة جنوبى وجنوب شرقى هذا البحر ونهبوها . كذلك تلقى عرب أسبانيا وشمال غربى أفريقيا عدة مرات فى القرن التاسع زيارة هؤلاء القرصان النورمان (٣) . ولابد أن هذه الغارات قد أتاحت للمغربين فرصا لكى يحملوا معهم الى الشمال نقودا عربية ، وهذا أمر لا جدال فيه ، غير أنه مهما تصورنا جسامه الغنائم التى جلبها

Froehn, op. cit., p. 304; Tornberg, loc. cit.,

(١)

Froehn, op. cit., p. 303; et s., Tornberg, loc. cit.,

(٢)

Froehn, op. cit., p. 305 et s., 310 et s.

(٣)

هؤلاء القرصان ؛ فلا يمكن أن ننسب الى هذا السبب وحده الا جزاء ضئيلا من النقود التي اكتشفت (١)، فهناك من هذه النقود كميات هائلة ، وآلاف النماذج، ومن المستحيل أن تكون قد أتت كلها من هذه الغزوات التي كانت بالاجمال قليلة العدد نسبيا . وثمة ملحوظة أخرى : ذلك أن عددا كبيرا من هذه النقود وجدت مكسورة ، والملاحظ أن عملية كسر النقود هذه كانت شائعة في أسواق الشرق ، في سمرقند مثلا في عهد السامانيين (٢) ، ومن البديهي أن مقاتلى الشمال ليسوا هم الذين كانوا يتسسلون ، اذ جاء للوقت بكسر النقود التي كانت في غنائمهم ؛ ذلك لأن تجار الشمال هم الذين تلقوا النقود بهذه الصورة سدادا (لمبيعاتهم) . وكان العرف السائد وقتئذ يقتضى وزن الفضة المعطاة سدادا للبيع ، فكان الى جانب قطع النقود السليمة ، أجزاء مكسورة لاكمال الوزن ، ويحدث هذا أيضا حين لا يساوى الشيء (المبيع) الا نصف درهم أو ربه (٣) . وعلى ذلك فالتجارة هي السبب الأول لهذه الظاهرة . واذا لم تكن هذه الأسباب كافية ، فانه يكفينا أن نبدي ملاحظة واقعية : ذلك أن أهم النقود المكتشفة وأكثرها عددا قد عثر عليها في جوار المناطق التي تشير اليها المصادر على أنها المراكز التجارية في ذلك العصر ، وهذا هو ما أثبتته ليدبور . حقا ، لا يسعنا أن نثبت أن التجار العرب قد غامروا بالذهاب الى اسكندناوة ، وهذا لا يمنع من أن الجغرافيين العرب كان عندهم معلومات صحيحة عن هذه المناطق . وعلى أية حال فان القسم الأكبر من روسيا بقى بعيدا عن طريق هؤلاء التجار ؛ ولكن الثابت أنهم صعدوا نهر الفولجا بسفنهم حتى بلاد البلغار . والمعروف أن بعض قبائل البلغار تقدموا صوب نهر الدانوب في حين بقيت قبائل أخرى في روسيا واستقرت عند منتصف مجرى نهر الفولجا ، وكانت « بلغار » Boulgar عاصمتهم واقعة بين قازان وسيمبرسك Simbirsk أسفل ملتقى نهري كاما والفولجا (٤) . ولما كانت « بلغار » نقطة تجمع منتجات الشمال فانها جذبت اليها التجار العرب بقوة ، وكان هؤلاء التجار واثقين من أن يجدوا بها ترحيبا طيبا لأن الملك والأهالي كانوا قد اعتنقوا الاسلام (٥) . وكان ما يسعى التجار العرب للحصول عليه في تلك الأصقاع هو الفراء الذى كان مولعا باقتنائه عظماء

(١) انظر أيضا تردد تورنبرج فى شأن النقود الأفريقية والاسبانية .

Oriental geography by Ibn Haoukal, éd. Ouseley, p. 258. (٢)

Froehn, op. cit., p. 304; Bohlen, op. cit., p. 20; Weinhold, Altnor- (٣)
disches Leben, p. 118.

F. H. Mueller, Der ugrische Volksstann, 1e partie, chap. 2, p. 414 (٤)
et ss.

Froehn, les Mém. de l'Acad. de St. Pétersb., Série VI, Sciences (٥)
politiques, T. I. p. 183-199.

الشرق (١) . والواقع ان التجار البلغار والروس وغيرهم من سكان الشمال كانوا من قبل يسافرون حاملين الجلود والفراء الى اتيلا عاصمة الخزر عند مصب نهر الفولجا حيث يملكون المستودعات (٢) غير أن التجار العرب لم يرهبوا مواجهة شهرين من الملاحه (٣) أو شهرا من السفر برا (٤) حتى يقتربوا بقدر المستطاع من مصدر أجل أنواع الفراء ؛ ومع ذلك فانهم لم يجرؤوا على المضى الحر أبعد من بلغار (٥) ، ولم يكونوا في حاجة الى ذلك ، لأنهم كانوا يجدون ثمة منتجات الشمال بفضل نشاط البلغار (٦) . فالى الغرب من تلك المدينة شعب تهبط سفنه نهر الفولجا طلبا لبضائعه ، هؤلاء هم الروس . هذا الاسم الذى أطلقوه على أنفسهم ، وأجسامهم القوية ، وقوامهم الفارع ، وعاداتهم الغريبة التى يصفها ابن فضلان الذى رآهم بنفسه فى عام ٩٢٠ (٧) ، كل ذلك يدل دلالة كافية على أن هؤلاء الناس لم يكونوا من القبائل السلافية التى لم يطلق عليها اسم الروس الا فيما بعد ، ولكنهم قبائل اسكندناوية . ومنذ أربعين سنة مضت بالكاد قبل الزمن الذى أرسل فيه الخليفة المقتدر هذا الكاتب (ابن فضلان) الذى ندين اليه بالمعلومات الهامة عن بلغار الفولجا وجيرانهم ، بعثة فى مهمة الى مدينة بلغار ، كان روريك واخوته قد غادروا وطنهم السويد ، وقدموا الى ضواحي بحيرتى لادوجا والمن ، أى فى مجاورات منابع الفولجا ، وأقبل فى أثرهم الكثير من مواطنيهم . وعلى هذه الرقعة الجديدة أطلقوا العنان لجراتهم ونشاطهم فى كل ميادين الحرب والسلام . وهكذا فانهم حين هبطوا بمراكبهم نهر الفولجا ، نجحوا فى توثيق العلاقات مع البلغار الذين كانوا - كما رأينا - يتاجرون بالفعل مع العرب فيما وراء بحر قزوين . ودخل

- (١) من بين السلع الأقل أهمية التى كانت متداولة فى هذه التجارة ، نذكر قرون الماموث ، وكان عمال خوارزم يصنعون منها أشياء متنوعة ، مثل عنبر الاقاليم البلطية .
- (٢) Froehn, De Chazaris, loc cit., p. 591, 601 et s. ; Frahn, Ibn-Fossian, p. 147; Mağoudi, II, p. 9, 11.
- (٣) كانت سفنهم التجارية تدفع للملك رسما (عشرا) عند دخولها منطقة البلغار .
- (٤) ابن حوقل
- (٥) Froehn, Ibn-Fossian, p. 168, 258, 266.
- (٦) Saweljew, op. cit., p. 91 et ss.; Froehn, Ibn-Fossian, p. 226 et s.; Ibn-Dasta, op. cit.
- ومما يدل على طبيعتهم المغامرة ارسالهم قوافل الى جورجانية (خوارزم) : المسعودى ، الجزء الثانى ص ١٥ وما بعدها ، أبو حامد الأندلسى فى : Saweljew, op. cit., p. 97.
- (٧) انظر الفصل الذى كتبه فى شأن الروس فى : — Froehn, Ibn-Fossian, p. 1-23.
- انظر أيضا Ibn-Dasta ، المرجع السابق .

الروس الاسكندناويون لدى البلغار في المجال الذي كانت فيه النقود العربية سارية المفعول . والواقع اننا نعلم من مذكرة كتبها ابن رسته (١) أن بلغار الفولجا كانوا يقبلون من المسلمين سدادا لقيمة بضائعهم دراهم بيضاء مستديرة ؟ أما فيما بينهم - كما يقول ابن رسته - فكانت جلود السمور تحل محل النقود الرنانة . ومع ذلك فمن الثابت أنه كان عندهم في بلغار أوصوار Souwar ورش يضربون فيها نقودهم ، ويزيفون الدراهم السامانية (٢) ، ويستفيدون من ذلك فائدة كبيرة في تجارتهم مع بلاد ما وراء النهر وخراسان . وعلى ذلك كان الروس يحضرون الى السوق البلغارية بضائعهم التي يبدو أنها تشمل بنوع خاص جلودا وفراء وعبيدا ، ويبيعونها للبلغار أو العرب ، ويحصلون في مقابلها اما على نقود اسيوية كانت ثمة متوفرة ، أو نقود بلغارية تشابه النقود اسيوية حتى ليصعب التمييز بينها . ثم انهم لم يتوقفوا دائما هناك ، فقد كان من السهل الملاحه في النهر مع التيار حتى ايتل عاصمة الخزر ، وهذا ما فعلوه وانشأوا هناك مستودعات (٣) . ونحن نعرف من ابن خرداذبة أن سفنهم شوهدت في بحر قزوين ، وأن بضائعهم كانت تنقل على ظهور الجمال من جورجان الى بغداد (٤) . ولما كانوا يتقدمون بسفنهم حتى الشاطئ الغربي لبحر قزوين ، وتصل بضائعهم الى المركز السياسي للعالم الاسلامي ، فانه كان من الطبيعي أن يأتي الى روسيا نقود مصدرها ليس فقط الأقاليم الواقعة جنوبى بحر قزوين ، ولكن أيضا كل أجزاء العالم الاسلامي ، وتنتشر في الشمال كله .

كان الاسكندناويون في المناطق الواقعة وراء بحر البلطيق يعرفون منذ أقدم العصور « طريق الشرق » . وعندما أتى مواطنوهم الى روسيا ، واستقروا بها ، وفرضوا سادتهم عليها (٥) ، كثرت رحلاتهم في تلك النواحي ،

Roesler, op. cit., p. 362.

(١)

(٢) اثبت فريهن وجود هدين المصنعين ، على قطعتين وجدت في روسيا :
Mém. de l'Acad. de St. Pétersberg ; Série VI, T. I, p. 171 et s.
T. IV, p. 243, note; Bulletin, loc cit., p. 305, 316, 320, 323;

- أشار تورنبرج أيضا الى الواقعة نفسها بالنسبة الى قطع وجدت في السويد .

(٣) انظر المعلومات التي أعطاها ياقوت وابن حوقل في :
Froehn, De Chazaris, Mém. de l'Acad. de St. Petersh. T. VIII
(1822), p. 591, 601 et ss.

- كذلك المسعودي في « مروج الذهب » الجزء الثاني ، صفحتا ٩ ، ١١ .
Journ. Asiat Série VI, T. V, p. 514.

(٤)

(٥) بخصوص العلاقات الودية بين السويد وروسيا في القرنين الأولين من تاريخ روسيا ،
انظر : — Kunik, Die Berfung der schwedischen Rodsen II, 131 et ss.

وكانوا أغلبية بين العديد من التجار الذين تقاطروا من كل الأنحاء على أسواق نوفجورود ، وجلبوا اليها الفراء ، والصوف ، اذ شاعت تربية الأغنام في الشمال ، والريش ، وشوارب الحوت - وزيت السمك، الخ(١)، ويتلقون نظير بيعها قطعاً من نقود فضية عربية سارية المفعول لدى مواطنيهم الروس ، ذلك لأنهم لم يكونوا قد بدأوا في سك نقود لحسابهم الا في زمن متأخر (٢) . والثابت أن من بين اسكندنافيا السويد كلهم ، كان سكان الساحل الشرقي هم الذين أقاموا علاقات متواترة مع روسيا ، يشهد بذلك النقود العربية التي اكتشفت على هذا الساحل . والأمر ثابت كذلك لأن هذه النقود تكدرت بنوع خاص في الاقليم الذي ازدهرت فيه في العصور القديمة مدينة « بيركا » Birka السويدية التجارية المشهورة(٣) . وكانت الدانمرك (وبخاصة مدينة شلزويج)(٤) هي أيضاً ، منذ زمن قديم نقطة انطلاق لتجارة بحرية نشيطة مع روسيا (٥) . وكانت السفن المبحرة ترسو أحيانا في جومنيه Jumne وهي مدينة تجارية مشهورة في بوميرانيا Poméranie ، وأحيانا في جزيرة بورنهولم Bornholm (٦) ، وكشفت الحفريات التي أجريت في هذه البقاع عن كثير من النقود العربية (٧) . الا أن كل السفن التجارية المتجهة الى روسيا ، سواء كانت آتية من السويد ، أو من مواقع بعيدة على الساحل البلطي ، أو أبعد من ذلك كانت كلها ترسو عند جزيرة جتلاند . وفي عصور الوثنية ، قبل ازدهار مدينة فسبي Visby بزمن بعيد - ، استغل سكان الجزيرة موقعهم الجغرافي الممتاز ؛ ولابد من التسليم بنمو علاقاتهم مع الغرب والشرق عند رؤية كتل النقود الأنجلو سكسونية والألمانية والعربية التي تكشف عنها الحفريات التي تجرى في الجزيرة (٨) .

(١) فاينهولد هو الذي أشار الى هذه السلع التصديرية :

— Weinhold, Altnordisches Lefen, p. 103.

(٢) كان سوينون تيفسكيج Suénon Tyfoeskeg أول ملك دانمركي سك النقود في حوالى عام ١٠٠٠ ، وكان أولاف شوسكونيغ Alaf Schosskonig (توفي عام ١٠٢٤) أول من سك النقود في السويد . ولم يكن للنرويج نقود خاصة بها الا في النصف الأول من القرن العاشر . انظر :

Ledébur, op. cit., p. 24 et s.

(٣)

Adam Brem, dans Pertz., SS. VII, 312, 368.

(٤)

Adam Brem, loc. cit 372.

(٥)

Adam Brem p. 312, 373.

(٦)

Ledebur, op. cit., p. 54 et ss., 78 et s.

(٧)

Bonnel, Russisch-livländische Chronologie, Commentar, p. 24;

(٨)

Worsae, Danemarks Vorzeit, trad. allem, p. Bertelesen, p. 54 :

Hilderbrand, Das heidnische Zeitalter in Schweden, trad. allem, n.

Mestorf, p. 181 et ss.

يتبين مما سبق ذكره بصورة لا تقبل الشك أن الشمال الاسكندناوى وروسيا قد وثقا لزمان طويل علاقات مباشرة وغير مباشرة مع البقاع الآسيوية الخاضعة لسيادة العرب . بقى أن نعرف ما اذا كانت منتجات الشرق قد دخلت أوروبا عن هذا الطريق ؛ ولا يمكن الرد على هذا السؤال بالإيجاب دون ابداء تحفظات صريحة . ان الكميات المدهشة من النقود العربية التي بقيت فى روسيا وفى الأقاليم البلطية ، والتي خرجت بذلك من أيدي العرب ولم تعد اليهم تثبت بوجه عام أن شعوب الشمال كانت تشتري من العرب أقل مما تباع لهم (١) . وكان العرب الذين يصعدون نهر الفولجا يقومون برحلاتهم هذه للحصول على فراء الشمال الذى يقدرونه حق قدره ، وكذا عنبر البلطيق . ترى هل كانوا يحضرون معهم فى مقابل ذلك الكثير من منتجات بلادهم الطبيعية أو المصنوعة ؟ هذا هو السؤال المطلوب .

فى هذا العصر كانت عادات المعيشة فى شمال أوروبا بسيطة ، فلم يتيسر للعرب بيع السلعة الرئيسية فى تجارتهم ، وهى التوابل . أما فيما يختص بالثياب ، فان الروس الاسكندناوين الذين عرفهم ابن فضلان عند البلغار لم يكونوا يطلبون الحلى الا لنسائهم ، ويدفعون عن طيب خاطر درهما واحدا ثمنا لخززة من الزجاج الأخضر ، ويتبين مما يرويه ابن فضلان أن هنذى هى السلعة الوحيدة التى كانوا يشترونها (٢) . أما السلاسل الذهبية أو الفضية التى كانت النساء الروسيات يحملنها حول أعناقهن بأعداد كثيرة أو قليلة تبعا لنزواتهن فانها كانت صناعة محلية كما يؤكد ابن فضلان . وكان « البروكار » (نسيج مقصب بخيوط الحرير والذهب - المترجم) التى رآها الروس وبلغار الفولجا يرد من الامبراطورية اليونانية ، وسوف نتكلم عن هذا البلد من ناحية السلع الكمالية التى كانت شعوب الشمال تستوردها من هناك بالفعل . وعلى هذا لا يبدو ، حسبما يقول ابن فضلان أن الروس قد اشتروا الكثير من البضائع العربية ، لا لأنفسهم ، ولا لحملها الى بنى جنسهم الاسكندناوين . ومع ذلك يهمنى أن نعرف ما اذا كانت الحفائر التى أجريت وما زالت تجرى كل يوم ، فى الشمال سوف تؤدى الى نتيجة أخرى . هناك أيضا حقيقة : فقد وجدت الى جانب النقود العربية خواتم ، ومشابك ، وسلاسل ، و « بروشات » مدفونة فى الأرض ، ومن الطبيعى أن ينسب الى هذه الحلى نفس المصدر الذى تنسب اليه النقود . فاذا كان عليها نقوش عربية ، فان هذا الافتراض يغدو حقيقة ثابتة ؛ ولكن ليس

Froehn, Ibn-Fosslan, p. 80 et s.; Saweljew, dans les Ermans Archiv. (١)

VI p. 101 et autres.

Froehn, Ibn-Fosslan, p. 5.

عليها أية نقوش : ولا نعرف من ذلك الا مثلا واحدا ، ذلك هو حلية لطقم فرس ، مملوكة بالفضة ، وجدت في ولاية باروسلاو Jaroslaw وكانت تنتمي بالتأكيد الى أحد بلغاري الفولجا ، قرأ عليها فريهن كلمتين عربيتين (١) . ومع عدم وجود مثل هذه النقوش ؛ أكد البعض على البراعة الفائقة التي تتجلى في هذه الحلي ، وقيل ان الصناعة الشرقية هي الوحيدة المتقدمة بدرجة تستطيع معها انتاج مثل هذه التحف الفنية الممتازة ؛ ولم تكن الصناعة في الشمال بقادرة على ذلك . وفي رأينا أن هذا غير صحيح ، اذ لا يجوز الحط على هذا النحو من قيمة فن صناع الذهب والفضة القدامى بالبلاد الشمالية ، هذا الفن الذي يرتبط بتقاليد الرجال والنساء الخاصة بارتداء الأطواق حول العنق والذراع ، والخواتم في الأصابع (٢) . وفي متاحف الشمال أشياء تحمل حروفا رونية (أقدم الحروف الجرمانية والاسكندنافية - المترجم) ، ومن ثم فان أصلها معروف لا شك فيه ، وهي دليل على معارف تقنية متقدمة . ويميل الخبراء الحديثون الى أن ينسبوا الى صناع الشمال عددا كبيرا من الأشياء التي كان الهواة في الماضي يعتبرونها شرقية المصدر (٣) . ثم ان الأشياء التي يدل طرازها على أنها من الواردات الأجنبية ليست كلها عربية الأصل ، فمنها في الكثير من الأحيان ما هو من أصل أفرنجي أو بيزنطي ، وبخاصة الحلي الذهبية (٤) . وجدير بالذكر أن الحلي التي يقال انها شرقية ، توجد كثيرا في الحفريات مختلطة بنقود عربية وانجلو سكسونية وألمانية واغريقية ، ومن ثم لا يوجد دليل كاف على نسبة هذه الأشياء الى أصل شرقي . وبفرض العثور على حلي مع نقود عربية أصيلة ، فان ذلك لا يثبت حتما اشتراك هذه الأشياء في أصل واحد ، لأن الاسكندناوى يمكن أن يملك نقودا عربية وحليا وطنية في آن واحد ، ويدفنهما معا في الأرض . ومع ذلك فهناك حقيقة غريبة تستحق الذكر ، ولا يمكن أن تفسر بأنها مجرد صدفة ؛ ذلك أنه حين يعثر ، بوجه عام على بعض الحلي (حلقات من صفائر فضية) مع نقود عربية حقيقية ، فانها تكون من معدن واحد ؛ أى مثلها من فضة . والنتيجة التي نستخلصها من هذه الملاحظة الثابتة هي أن الحركة التجارية كانت تعجل أحيانا من الشرق (٥) مع النقود الفضية ، حليا من فضة ، أما بمشابة سلع ، أو انها وسيلة من وسائل دفع الثمن ، وفي هذا الفرض الأخير شيء من

Bulletin de l'Acad. de St. Pétersb. T., IX (1842) p. 319. (١)

Weinhold, Altnordisches Leben, p. 184 et s. (٢)

Worsaoe, op. cit., p. 57; Munch, Die nordisch-germanischen Völker, trad. Claussen, p. 255 et s. (٣)

Worsaoe, p. 55 et s. (٤)

Worsaoe, op. cit., p. 55 et s.; Hildebrand, op. cit., p. 127. (٥)

الصحة لأن هذه الحلى كثيرا ما توجد مجزأة قطعاً ، شأنها شأن النقود : ففي التحركات التجارية ، ذهاباً وعودة ، كثيرا ما تكون السلعة الكاملة ذات قيمة أكبر من حاجة الناس إليها ؛ وبتقسيمها الى أجزاء ، تنشأ أجزاء من النقود . وباختصار ، فانه مع التسليم بأن هذه الحلى الفضية كانت سلعة تجارية ، فالتأيت أن سكان شمال أوروبا لم يكونوا يشترون الا عددا قليلا من السلع العربية المصدر .

رأينا كيف كانت طبيعة التجارة بين أهالى الشمال والعرب ؛ وفي استطاعتنا أن نحدد مدتها ؛ وتنبتنا النقود التى وجدت فى الحفريات بقدر كاف من المعلومات فى هذا الخصوص . وحتى الآن لم نبحث الا فى الفترة الأكثر ازدهارا فى هذه التجارة التى بدأت فى حوالى عام ٩٠٠ ، والتى عرفنا بها معرفة يقينية اثنان من الشهود ، عاشا فى عصر واحد تقريبا ، ابن فضلان والمسعودى . وثمة عنصران أسهما فى هذا الازدهار: فمن جهة كان العرب يستمتعون بفتوحاتهم فى هدوء وسلام ، وبخاصة فى القسم الشمالى من دولتهم العريضة ، على ضفاف بحر قزوين ، وفى كل رقعة بسطت عليها اسرة السامانيين سيادتها : ومن هناك انطلقوا صوب الشمال ، لا بصفتهم غزاة ، ولكن بصفتهم تجارا ، فصعدوا مجرى نهر الفولجا ، ووجدوا من يرحب بهم فى كل مكان ؛ عند الخزر ، وهم أمة مهذبة متسامحة تعيش عند مصب النهر ؛ وكذلك عند البلغار ، وهم أقوام من التجار اعتنقوا الاسلام واستوطنوا القسم الأوسط من النهر . ومن جهة أخرى وجد الاسكندناويون الذين استقروا حديثا فى روسيا ، وجدوا فى النهر نفسه أداة صالحة لمزاجهم الحربى والتجارى ، فاندحدروا فى مجراه ، وزاروا البلغار ، وانشأوا لغرض التجارة مستودعات عند الخزر كما رأينا قبلا وفضلا عن ذلك بذل أمراء الخزر كل ما فى وسعهم لمنعهم من الاتجار فى هدوء مع العرب سادة المناطق الواقعة وراء القوقاز وبحر قزوين (١) .

ومع ذلك لايجوز الظن بأن الشرق لم يكن أبدا حتى ذلك الحين على اتصال بشمال أوروبا ؛ فالقطع الذهبية العربية التى تنتمى الى القرنين الثامن والتاسع ، والتى يعثر عليها مدفونة فى روسيا ومناطق البلطيق دليل هام على قدم هذه العلاقات ؛ فالواقع أن النقود لم يكن لها قيمة عند العرب الا فى حياة الأمير الحاكم ، ثم يأتى خليفته فيبطل سريانها ويسك نقودا جديدة . مثال ذلك أنه لم يكن فى الامكان فى القرن العاشر اصدار أو تداول عملات مسكوكة باسم خليفة أو سلطان القرن التاسع ، وبالأولى من القرن الثامن . وعلى ذلك ، فقبل أن يؤسس روك مملكته بزمان طويل ، حين كانت القبائل السلافية تعيش فى

(١) انظر رسالة يوسف ملك الخزر فى :

Vambéry, Ursprung der Magyaren, p. 71.

عزلة واستقلال على الأرض الروسية ، فان هذه القبائل كانت تصدر البضائع الى آسيا ، وتنسلم في مقابلها نقودا عربية ، ان لم تكن بغزارة كما حدث فما بعد ، ولكن على اقل بكميات كبيرة ، وفي ذلك الحين أيضا انتشرت تلك النقود فيما وراء بحر البلطيق . وعندما خضع السلاف للغازي الأجنبي ، استمروا مع ذلك يسهمون في تجارة الشرق الأدنى . وفي مستهل القرن العاشر كان للروس الاسكندناويين ، كما كان للسلاف مستوطنة تجارية عند مصب الفولجا ، في مدينة ايتل عاصمة الخزر (١) . لذلك يعثر على نقود عربية ، قديمة وحديثة في كل أنحاء روسيا ، ليس فقط في الجهات التي ركز فيها الاسكندناويون منشئاتهم الكبرى في مجاورات نوفجورود مثلا ، ولكن أيضا في داخل البلاد ، في الأقاليم التي احتفظ فيها السلاف بقوميتهم دون أن يختلطوا بغيرهم من الأجناس . فاذا اتخذنا النقود التي عثر عليها أساسا لاستدلالنا ، وأرجعنا بذلك الى القرن الثامن بدايات العلاقات بين روسيا والشرق ، فلنا أن نعتبر أن أكثر الفترات ازدهارا بالتجارة هي الفترة الممتدة من أواخر القرن التاسع الى منتصف القرن العاشر ، ونستنتج من ندرة هذه النقود في روسيا واسكندناوة في النصف الثاني من القرن العاشر ازدياد ضعف التجارة بالتدريج . ومن السهل معرفة أسباب هذا الانحلال لدى الطرفين . ففي هذا العصر كانت روسيا في حالة انحلال ، مجهزة الى عدة امارات صغيرة ممزقة الأوصال بحروب أهلية ، ولم يكن عند الأمة المنقسمة على نفسها أية رغبة أو قدرة على مزاوله التجارة مع الأجانب . ومن جهة أخرى فان الروس ، باخضاعهم البلغار المسلمين ، وتحويلهم بالقوة الى الديانة المسيحية ، قضوا بأيديهم على الوسيط الذي كان يربطهم بالشرق بما يعود عليهم بالخير الجزيل . ومن جانب الشرق قضى اليك خان التركماني على أسرة السامانيين المستنيرة التي صنعت الكثير في سبيل النهضة بالتجارة ، وكانت بداية فترة من حروب بين الأمراء الأتراك الذين خربوا بلاد ما وراء النهر . ومن تلك الآونة أصابت الأقدار السيئة ذلك الطريق التجاري الذي يصل الشرق ببحر البلطيق عن طريق بحر قزوين ، فظل غير صالح للاستعمال طوال العصور الوسطى ، وسوف نتكلم فيما بعد عن أسباب ذلك .

(ب) التجارة مع بيزنطة

ننتقل الى طريق آخر للمواصلات بين بيزنطة والشمال . نتحدث أقدم الأخبار التاريخية الروسية (٢) عن « طريق من القسطنطينية الى بحر البلطيق » ؟

(١) المسعودي « مروج الذهب » ، الجزء الثاني ، ٩ ، ١١ .

(٢) Nestor, Russische Annalen, trad. allen p. Schlözer, 2e part, p. 88 ;
of Krug, Zur Münzkunde, Russlands, p. 32.
et s. ; Bonnell, Russische-livlandische Chronologie, Commentaire p. 3 et s.

ويبدأ هذا الطريق بصعود مجرى نهر الدينير ، ثم يبتعد عنه حتى يصل الى نهر لوفات Luvat الذى يتقدم عليه المسافر هبوطا حتى بحيرة المن Imen ومن هناك يتبع مجرى نهر فلشوف Vorchov حتى يصل الى بحيرة لادوجا Ladoga ، وأخيرا يصل الى بحر البلطيق عن طريق نهر نيفا Neva . وهكذا يمر معظم هذا الطريق بقنوات مائية صالحة للملاحة ، ونضيف أنه يمر أيضا بأكبر مدينتين فى روسيا فى ذلك الزمان : كييف ونوفجورود . ولا تذكر الأخبار التاريخية العصر الذى بدأ فيه ازدياد هذا الطريق ، ولكن من المؤكد أنه كان مستعملا قبل عصر رورك (حوالى ٨٦٠) . من غير المعروف أيضا البلاد التى ينتمى إليها التجار الذين استخدموه . ولا بد من التسليم لأول وهلة أنهم كانوا من الاغريق ، ذلك أن وصف هذا الطريق يبدأ دائما من الجنوب الى الشمال : غير أنه من المشكوك فيه كثيرا أن يكون الاغريق قد توغلوا الى أبعد من كييف ، وعلى أية حال فإن ما نعرفه عنهم من الحوليات الروسية القديمة يسمح لنا بأن نؤكد أنهم لم يصعدوا حتى خليج فنلندة . وبدراسة النصوص ، نصل الى ملاحظة عجيبة : ذلك أن وصف الطريق مزدوج ، فهو يبدأ أولا من بلاد الفاريغ Varègues أى اسكندناوة ، ويعود اليها فى النهاية . بيد أن طريق الذهاب (عبر البحار ؟) ملخص فى بضع كلمات فى حين يوصف طريق العودة بالمزيد من التفاصيل . ولكن من الواضح أن المؤلف يتحدث عن مسافرين اسكندناويين ، وليسوا من السلاف . ولم يكن أهالى الشمال يعرفون الاستقرار فى بلادهم ، بل كانوا يجذبون بصورة عجيبة نحو الجنوب . ولما كانت روح المغامرة فى طبيعتهم ، كانوا يرحلون عن طيب خاطر طلبا للمجد والثروة فى خدمة الامبراطور فى المدينة الكبيرة (مكلاجارد Miklagard) أى القسطنطينية (١) . وفى حملاتهم فى بحار الشمال ، كانت الحرب والتجارة غالبا متلازمتين ، وكان الفرد الواحد قرصانا وتاجرا مرة بعد أخرى (٢) ؟ كذلك فال جانب المحارب الذى يملك الطريق الذى وصفته الوقائع الرسمية القديمة ليحظى بالخدمة فى القسطنطينية ، كان هناك التاجر الذى يذهب الى هناك طلبا للمنتجات الأجنبية . أما الاسكندناويون الأوائل الذين استقروا على ضفاف بحيرتى لادوجا وألن ، ثم وصلوا الى المجرى المتوسط لنهر الدينير وانتهى بهم الأمر الى فرض سيادتهم على هذه البقاع ، فإنهم مع ذلك لم يكفوا عن مشاركة أفراد جنسهم فى ميولهم . وتمثل الحافز الذى دفعهم صوب الجنوب أولا بغارات مسلحة على القسطنطينية . ولم يكن معاونا روريك : أسكولد Ascold . ودر Dir يسيطران على كييف .

(١) ترجع هذه العادة الى زمن سابق ، ليس ببعيد ، فى عصر روديك . انظر :

Kunik, Die Berufung der schwedischen Rodsen, II, 329.

Antiquités russes (par Rafn) I, 285, 431, II, 235.

(٢) انظر مثلا :

حتى راحا في عام ٨٦٦ يشنان حملة سلب ونهب على الامبراطورية البيزنطية ، وتجددت هذه الغارات بكثرة حتى عام ١٠٤٣ (١) . غير ان اقدم المعاهدات المعروفة بين الاغريق والروس (سنتي ٩١١ ، ٩٤٤) تثبتان ان الامور تغيرت وأن عددا كبيرا من التجار الروس كانوا يقيمون علاقات سلمية مع الاغريق ، و يقيمون فترات طويلة في القسطنطينية . وكانت الحكومة اليونانية تترتاب في هؤلاء « الضيوف » ، وجبهم تقريبا من أصل اسكندناوى (٢) ، أى من جنس معروف بولعة بالمغامرات والسلب والنهب ، ومن ثم كانت تشترط أن يتزود كل فرد منهم بجواز سفر موقع عليه من عاهل بلده (٣) ، وأى فرد يتقدم دون أن يكون معه هذه الوثيقة يفترض فيه سوء النية ويقبض عليه . وقد خصص لهؤلاء التجار حى يقع خارج أسوار المدينة بالقرب من دير القديس ناماس St. Namas (٤) ووضعت كل تحركاتهم تحت الرقابة الدقيقة لمنعهم من اقتراف أى عمل ضار ، ولم يكن فى وسعهم الدخول الى المدينة الا من باب واحد ، ويجب عند دخولهم ثمة أن يكونوا مجردين من السلاح ، ويصحبهم شرطى يونانى ، ولا يجوز أن يجتمع أكثر من خمسين شخصا منهم ، وتيتم الحكومة بالأا يقيموا وقتا أكثر مما ينبغى ، ولم يكن يصرح لهم بقضاء الشتاء فى القسطنطينية ، أو عند مصب الدينبر ، بل يجب عليهم العودة الى بلادهم قبل حلول فصل الشتاء . ومع ذلك فلا بد من القول بأن الاغريق كانوا يمنحون الروس الحائزين على ثقتهم بعض الامتيازات ، وكذلك الروس المقيمين فى القسطنطينية من أجل أعمالهم ، وتزودهم الدولة شهريا بكمية من المواد الغذائية ، وتضع تحت تصرفهم عندما يرحلون كل ما يلزمهم من مؤن أنثساء رحلتهم ، والأشياء الضرورية لتجهيز سفنهم . وكفلت لهم معاهدة السلام الأولى دخول منتجاتهم بلا رسوم ، ولم

(١) Wilken, Die Verhaeltnisse der Russen zum byzant, Reich in 9-12 Jahrh, dans les Abh. der Berl. Acad. 1829, Hist. philol. Cl. p. 75 et ss

(٢) هذا الغرض له ما يبرره ، أولا بأسماء كبار الذين كانوا يرافقون سفير الغراندوق ايجور وعقدوا معه معاهدة ٩٤٤ ، انظر Kunik ، المرجع السابق ص ١٧٨ ، وثانيا بالتضحيات الرسمية التى كان يؤديها فى جزيرة Chortiey على نهد الدينبر أصحاب السفن المتجهة الى القسطنطينية ، وهى تضحيات تذكر تماما بالمعادات الاسكتنافية ، وأخيرا كانت لقناطر النهر أسماء أخرى بلغة الشمال ، زيادة على الأسماء التى أطلقها عليها سكان البلد القدامى . انظر ، المرجع السابق ص ٤٢٢ وما بعدها ، وكذا :

— V. Thomsen, The relations between ancient Russia and Scandinavia and the origin of Russian state, Oxf. and Lond. 1877.

(٣) Théopbane, I, 775. فرض الشرط نفسه على البلغار بموجب معاهدة ، انظر :

Ducange, Cpol. christ, lib IV, p. 185. (٤)

كان هذا الحى فى Stenon وكان بالقرب منه ميناء صغير ، انظر أيضا :

— V. Unger, Guellen der byzantinischen Kunstgeschichte, le partie p. 79, 258 et s.

يرد في المعاهدة الثانية أى ذكر لهذا الامتياز ، فلم يتجدد ، ولم يسحب (١) . ويبدو أن الروس كانوا قبل معاهدة عام ٩١١ يدفعون عند دخولهم الامبراطورية اليونانية رسما قدره ١٠٪ ، ولكن ليس فى وسعنا أن نؤكد أن هذا الرسم كان مفروضا على البضائع المرسلة الى بيزنطة أو التي تعبر البسفور لكى تصل الى البلاد المشرفة على البحر المتوسط . ولا يتحدث ابن خرداذبة الذى استقيناه منه هذه المعلومات الا عن البضائع الأخيرة (أى التي تعبر البسفور) ، غير أن شهادته لها قيمتها لأنها تتوافق مع فقرة من كتابات قسطنطين بورفيريوجنيت تقول ان « السفن الروسية تذهب حتى سوريا » (٢) . وعلى ذلك ففي القرنين التاسع والعاشر كانت سفن هذا الشعب الجرىء تتجاوز القسطنطينية وتعبر البحر المتوسط . ولعله من المناسب أن نذكر فى هذا الصدد ملاحظة للمسعودى (٣) اذ يقول ان قبيلة « الروس » الكثيرة العدد كانت تقيم علاقات تجارية مع أسانيا وروما والقسطنطينية وبلد الخزر ، ويطلق على هذه القبيلة اسم « لودانيه » Loudaanèh . ويبدو لى أنه من الصعب التسليم مع الناشرين بأن هذا الاسم ينصرف الى اللتوانيين ، وأعتقد أنه يشير الى احدى القبائل السلافية الخاضعة لسيادة الروس الاسكندناويين ، قبيلة اللوتشان Loutchanes أو اللوزياتان Louzaniens الذين يجعل لولويل Lelewel مقامهم فى لوتسك Loutsk (على نهر ستيير Styr) فى فولهينا Volhynie ، بينما يجعل شافاريك Schafarik مقامهم ناحية الشمال فى : فليكييا لوكي Vélikia-Louky (gouv de Pleskow) (٤) ويتحدث قسطنطين بورفيريوجنيت (٥) المعاصر للمسعودى عن هؤلاء اللوتشان ، ولكنه يقول فقط انهم يبنون سفنا يبيعونها للروس ، ويبدو أنه ليس من المستحيل أن يحذو هؤلاء حذو الاسكندناويين ،

(١) ذكرت المعاهدتان اللتان أبرم أولاهما الامير اوليج Oleg فى عام ٩١١ ، وثانيتها الامير ايجور Igor فى عام ٩٤٤ (من حيث التواريخ انظر كروج : Strahl (Krug, Forschungen II, 348) فى نستور Nestor ، واثبتهما سترامل

بالكامل ، ويعطى ايورز Ewers عنهما تفسيراً قانونياً ممتازاً ، كذلك اسهم كروج كثيرا فى ايضاح كل ذلك .

(٢) ابن خرداذبة فى : éd. Barbier de Meynard, dans le Journ. Asiat. VI S. T. V. p. 514.

— Constant, Porphyrog., De adm. imp. p. 180; éd. Bonn. : انظر كذلك .

توضح هذه الفقرات أيضا الطريق الذى كانت تسلكه نقود الاقاليم الجنوبية فى العالم الاسلامى وهى تتوغل احيانا فى شمال اوربا .

(٣) مروج الذهب ، الجزء الثانى ، ١٨ .

(٤) Lelewel Géogr. du moyen age III p. 48 Schafarik Slawischew

Althenthümer, trad allem p. Mosig von Aehrenfeld II, 113.

Constant. Porphyrog. de Adm. imp. p. 75.

١٥١

فيقومون بدورهم برحلات طويلة ، وهذا شيء ميسور لهم لأن بلدهم يتصل بالبحر الأسود بطريق مائي . ويعتقد فريهن (١) أن الاسم الصحيح لودانيه ، ويشير بذلك الى الأهالي المقيمين على ضفاف بحيرة لادوجا (التي قامت بجوارها مدينتا لادوجا القديمة ، ونوفجورود) : فهل توجد رواية أخرى صحيحة بدرجة كافية تسمح بهذا الفرض ؟ لست أجرؤ على أن أؤكد ذلك .

حسبنا هذا الاستطراد ، ولنعد الى العلاقات التجارية بين الروس والاغريق . يبدو أنه من الثابت أن الروس في عصر قسطنطين بورفيروجنيت (حوالي ٩٥٠) كانوا يسيطرون كل عام مجرى نهر الدينبر ويصلون الى القسطنطينية بمحاذاة الساحل الغربى للبحر الأسود ، ولم يكن يشنهم عن رحلتهم هذه شيء ، لامشاق الا بحار على نهر الدينبر الذى يعترضه على سبع نقاط مختلفة سدود صخرية ، ولا غاراب القراصنة البتشنج Petchénègues على النهر الأدنى (٢) . ومن جهة أخرى كان الاغريق يفهمون دائما المزايا التى توفرها لهم هذه التجارة مع الروس . وفى المعاهدة التى عقدها الامبراطور يوحنا تزييميسيس Jean Zimiscès عام ٩٧١ مع الأمير سفيتوسلاف Svoctoslav أقر الأول بالمزايا القديمة التى كانت ممنوحة للتجار الروس فى امبراطوريته (٣) . ويدل النزاع المسلح الأخير الذى نشب بين الاغريق والروس فى عام ١٠٤٣ بنوع خاص على أن عددا كبيرا من الروس قد استفاد من هذه الاعفاءات وزاول العمل فى القسطنطينية : فقد حدث أن احدى الشخصيات الروسية الكبيرة لقيت مصرعها فى احدى هذه المعارك الكثيرة التى كانت تحدث فى القسطنطينية بين الروس والاغريق ، ومن ثم اندلعت الحرب ، ومن أول الاحتياطات التى اتخذها الامبراطور أن وزع على الأقالييم التجار الروس المقيمين فى القسطنطينية ووضعهم بذلك تحت رقابة شديدة (٤) .

وفى وسعنا أيضا أن نحدد على وجه التقريب السلع التى كانت موضوع التجارة بين الروس والاغريق . كان الروس يجلبون الى القسطنطينية فراءهم ، والعسل والشمع اللذين ينتجهما نجلهم ، ثم ما عندهم من أسرى الحرب ، وكانوا يبيعونهم بيع الرقيق (٥) . والمسألة الأكثر أهمية بالنسبة لنا هى معرفة ما كانوا يحملونه معهم ، وتزودنا معاهدة ايجور Igor بجزء من الاجابة ، اذ تتضمن حظرا فرضه الاغريق على الأقمشة الثمينة : فقد نص فيها على أنه لا يجوز للروس

(١) ابن فضلان ، ص ٧١ ، ١٧٤ .

(٢) Constant. Porphyrog. I. c. p. 74 et ss., 69 et s.

(٣) Leo Diac. éd. Bonn. p. 156.

(٤) Cedren., II, 551.

(٥) Nestor, ed. Schloezler, IV, 100; V, 140; Const. Porphyrog. I. c.

p. 77.

أن يشتروا أقمشة حريرية (١) يزيد ثمنها على خمسين «صولا» ذهبيا Sols (٢) ، فإذا حدث استثناء من هذه القاعدة كان على موظف الجمارك الذي صرح بذلك (٣) أن يدمغ الأقمشة بطابعه . وكانت هذه الأقمشة الثمينة مطلوبة كثيرا في بلاد الشمال ، وكان الخزر ، والترك ، والروس وسائر البرابرة يطلبونها سدادا لخدماتهم بالحاح شديد كان يعتبره قسطنطين بورفروجيت غير مقبول لأن هذه الأقمشة الثمينة كانت مخصصة لحفلات البلاط الامبراطوري ، والأعياد الرسمية بكنيسة القديسة صوفيا . (٤) . وإذا صرح في بعض الحالات الاستثنائية للتجار الروس بالخروج ببعض هذه الأقمشة الحريرية الثمينة ، فذلك لأنهم كانوا عادة يشترون كميات كبيرة من أنواع أخرى شائعة .

والواقع أننا نجد في الوقائع الروسية القديمة ، في كل أوان إشارة الى حرائر القسطنطينية . وتذكر الوقائع أيضا مع هذه الأقمشة ، من الأشياء المستوردة عادة من القسطنطينية الذهب والفضة (٥) . ويلاحظ ابن فضلان أن الروس كانوا يشترون « بروكار » من صنع الاغريق . ونضيف الى هذه السلع التجارية أصنافا أخرى نجدها مذكورة في عبارات يضعها Nestor على لسان الغرنوق سفيتوسلاف Svoetoslav : « أرسل إلينا الاغريق حرائر وذهبا ونبينا وفاكية من كل نوع . » (٦) وبالتأكيد كانت القسطنطينية ، وخرسون تصدران أيضا الى بلاد الروس توابل آسيا ، وبخاصة الفلفل (٧) . وتذكر المصادر أيضا الأسواق الرئيسية في روسيا ، والتي تنتهي اليها المنتجات الواردة من اليونان . ويقول قسطنطين بورفروجيت ان أولئك الذين كانوا يمارسون الملاحة التجارية على نهر الدينير والبحر الأسود كانوا يأتون من مناطق واقعة خارج اماره كييف التي يعتبرها روسيا الحقيقية ، من نوفجورود ، وسمولنسك ، ولويتش ، وتشير ينجوف ، وفيشيجراد ، الا أن كييف كانت مركز تجمع السفن . ومن جهة أخرى ، نرى في معاهدة ايجور أن التجار الروس المجتمعين تحت أسوار القسطنطينية ، كانوا منقسمين الى مجموعات تبعا للأقاليم والغرض من هذا الانقسام تيسير توزيع المؤن شهريا ، وتذكر الوثيقة المشار

(١) بالروسية بافولوكى Pavoloki ، ويناقد كرج طويلا

(٢) هذى هى القيمة التى يذكرها كروج

Schloezer, Nestor IV, 67.

Constant, Porphyrog. De adm. p. 88.

(٥) أنظر مثلا Nestor الجزء الرابع ، ٤٤ .

Schloezer, V. 140.

Porphyrog. p. 72.

اليها أولا أهالى كييف ، ثم أهالى تشيرينينجوف ، وأخيرا أهالى بيريجاسلاف Perejaslave ، ولم يذكر اسم أية مدينة أخرى . وهكذا يذكر الكاتب الاغريقى أولا سكان نوفجورود ، بينما تذكر المعاهدة سكان كييف . ترى ما سبب هذا الاختلاف ؟ هذان المركزان السياسيان كانا فى الوقت نفسه مركزين تجاريين : فبعد أن نشأت كييف نشأة متواضعة ، أصبحت فى عام ٨٨٢ عاصمة المملكة ، ونهضت سريعا حتى بدت وكأنها تريد أن تنافس القسطنطينية ، وكانت البضائع ترد اليها بوفرة هائلة ، اقتضى الأمر انشاء أسواق فى ثمانية مواقع مختلفة بالمدينة (١) . أما نوفجورود التى كانت قوية قبل وصول روريك ، وأهله بعدد كبير من السكان الذين يمارسون التجارة فانها صمدت بعزيمة فى مجال المنافسة ، ودام رخاؤها القوائم على أسس متينة الى ما بعد ازدهار كييف العابر ، وكانت المدينتان واقعتين على الطريق الكبير الممتد من الشمال الى الجنوب والذى وصفنا مساره فيها قبل تبعا للوقائع الروسية القديمة . وكان لكييف ميزة استقبال البضائع اليونانية من مصدرها مباشرة ، ولكن نوفجورود كانت تتلقى أيضا بضائع يونانية ، وعلاوة على ذلك كانت متصلة بالطرق النهرية لنهر الفولجا ودفينا Dvina ، وكانت التجارة تسلك هذه الطرق منذ العصور التاريخية القديمة ، كما يشهد بذلك نسطور (٢) ، ثم ان موقعها كان قريبا من خليج فنلندا مما يجعلها اسهل منالا من كييف بالنسبة الى التجار القادمين من الغرب طلبا لمنتجات روسيا وبيزنطة . وكما قيل بعاليه كان الاسكندناويون يذهبون كثيرا الى نوفجورود للتجارة : فاذا أراد ملك من ملوك الشمال أن يحصل على أقمشة حريرية أو قرمزية أو منسوجات مطرزة بالذهب ، أو أدوات للمائدة مشغولة بمهارة فنية ، فانه يبعث بتجارة الى جارداريك (روسيا) ، الى سوق هولجارد (نوفجورود) الحافلة دوما بكل أنواع السلع (٣) . ومنذ أن أنشئ بهذه المدينة مستودع لمنتجات الصناعة اليونانية ، أصبح فى مقدور تجار البلاد الاسكندناوية أن يوفروا نفقات السفر الى بيزنطة . حقا ، لقد تحدث آدم دو بريم Adam de Brème عن أهالى شلزوويج الذين كانوا يتنافرون « حتى اليونان » ، ويذكر بورنهولم انها مرسى متوسط للسفن المتجهة « صوب بلاد الأغريق » (٤) ، ولكن من الخطأ أن نظن أن بيزنطة كانت بالفعل المكان الذى يتجه اليه العديد من تجار البحر البلطى . كان لآدم دو بريم فكرة غامضة عن امكانية الذهاب من اسكندناوة الى

(١) Adam Brem. dans Pertz, ss. p. 7, 313; Ditm, Merseburg, ibid, III, 871.

(٢) Schlözer, II, 90-92.

(٣) Rafn, Antiquités russes, I, 295, 432. II, 119; cf. I, 317, 426.

من المشكوك فيه أن تكون الجداول الذهبية التى توجد أحيانا فى بلاد الشمال بجوار النقود

البيزنطية واردة من الاقليم نفسه . انظر Worsaeoe ، المرجع السابق ، ص ٥٥ .

(٤) Adam, Brem, Op. Cit., p. 368, 378.

القسطنطينية بالطرق المائية كل الوقت ، والشئ الذى كان يجهله هو انه لابد
لذلك من صعود الانهار وهبوطها وعبور بحيرات . وكان ينصور انه يمكن
الوصول الى اليونان بالملاحة على بحر البلطيق . ومع ذلك يقول فى فقرات
أخرى ، وهذا صحيح ان روسيا تشكل حد البحر البلطيق ، وان غاية ملاحي
شلزويج هى روسيا لا اليونان (١) والشئ الذى أوقعه فى الخطأ هو أن الروس
قد تحولوا الى ديانة اليونان ، ومن ثم خلط بين روسيا واليونان ، بل وصل
به الأمر الى ان يصف كييف بأنها أجمل جوهرة فى اليونان (٢) وكان الكتاب
يخلطون بين كلمة جارداريك Gardarike التى تطلق على روسيا فى لغتهم ،
وكلمة جريكلانـد Grikland أو جيركلاند Girkland وهى اسم اليونان
la Grèce ، ويخلطون أكثر من ذلك بين النعتين جيروسكر Gerskr (روسى) ،
وجريسكر grisks أو جيسكر giskr (يونانى) (٣) . وفى الواقع كان التجار
الاسكندناويون الذين يذهبون فعلا الى اليونان منذ العصر الذى تحدثنا عنه
استثناء من الحقيقة الواقعة . وليس فى الامكان أن أذكر سوى مثل واحد ، ذلك
هو شخص يدعى جريس سومنجسن Gris Soemingsson كان يعيش فى حوالى
عام ١٠٠٠ ويذهب الى القسطنطينية لانجاز أعماله . (٤)

وفيما يختص بالروس ، كانت علاقتهم مع الأغريق عن طريق نهر الدنيبر
أكثر دواما من علاقتهم مع العرب عن طريق نهر الفولجا . وكان لوحدة الدين
أثر كبير فى ذلك ، فقد كانت القسطنطينية هى التى حولت الروس الى المسيحية
وكان القساوسة يتلقون منها سلطاتهم ، كما كانت الكنائس تأخذ منها
لوازمها وحلياتها . غير أنه كلما تماثل سكان روسيا مع الأغريق من الوجهة
الدينية ، وتفوق العنصر السلافى الأكثر عددا على العنصر الاسكندناوى ،
تراخت الصلات التى كانت ، تربط الروس بالاسكندناويين فى عهد الوثنية .
وتلقى الاسكندناويون المسيحية بدورهم ، ولكنها جاءتهم من ألمانيا ، فى صورة
كاثوليكية رومانية ، ومن ذلك الحين ازداد انجذابهم لألمانيا التى تسكنها أمة
متقدمة ، من جنسهم نفسه .

Adam, Brem, Op. cit., p. 373, 312.

(١)

Ibid, p. 313.

(٢)

Kunik, op. cit., p. 145 et s.; Rafn, op. cit., I, 295 not. a.

(٣)

Voyez la Saga d'Alaf Tryggveson dans les Antiq. russ. II, 113.

(٤)

اكتشفت أيضا نقود عربية في حفريات أجريت على طول الشواطئ الجنوبية للبحر البنطى ، ولكن لا يبدو أنها كانت متقاربة ووفرة في أية جهة مثلما كانت في الشمال وفي الشرق . وقد وجدت كميات كبيرة نسبيا من هذه النقود في مكلنبورج ، ويومرانيا ، وبروسيا الغربية . ومن الأقاليم التي تستحق الذكر في هذا الخصوص ، تلك المجاورة لمصب نهري الأودر والفستولا ، وكذا السواحل الممتدة بين هذين النهرين . وقد تمت الاكتشافات بنوع خاص على طول الأنهار ، وامتدت أحيانا بعمق في داخل الأراضي : مثال ذلك ، بصعود مجرى نهر الفستولا تم اكتشاف كبير في مونستر فالده بالقرب من مارينفردر ، وعلى نهر الأودر ، عثر على نقود حتى مجاورات فرنكفورت التي تعتبر ، خطأ ، أقصى موقع في الجنوب جرت فيه مثل هذه الاكتشافات (١) . وهنا أيضا حقيقة ايجابية تدل على الصلة الوثيقة بين هذه الاكتشافات وبين المواصلات التجارية : فالمكتشفات أكثر عددا في المواقع الميسرة للملاحة البحرية والنهرية منها في الداخل . ففي يومرانيا وجدت أكثر المكتشفات وفرة في جومنيه Jumne ، الميناء الكبير على البحر البلطى ، وفي مجاوراته (٢) . وفي العصر الذي دفنت فيه هذه الكنوز ، لم يكن الألمان قد توغلوا في هذا المناطق التي كان يسكنها وقتئذ سلافيون (صقالبة) في الغالب ، وأقلية من البروسيين ، ولم يكن لأى منهم صلات مباشرة بالعرب ؛ ولم يكن نندهم ما يقدمونه للشرقيين سوى سلحتين : الفراء والكهرمان ، وكان الكهرمان مطلوبا في الشرق منذ قديم الزمان (٣) . وتبين أن البلاد التي يكتشف فيها أقل قدر من النقود العربية هي بالذات ساملاند Samland التي يكثر فيها الكهرمان بنوع خاص ، وبروسيا الشرقية بنوع عام . ولا بد أن جزءا صغيرا جدا من النقود المكتشفة قد استعمل في سداد ثمن البضائع التي صدرت بالفعل الى الشرق ، ويدل وجود هذه النقود فقط على أن السلاف والبروسيين كانوا يبيعون منتجاتهم للشعوب التي تستخدم النقود العربية ، ولذلك لم يكن عليهم الا أن يذهبوا الى السويد أو روسيا ، ولا شك أن تجارهم كانوا يزورون هذين البلدين . ولندكر فقط اسم التاجر الساملاندى فيدجوت Vidgaut الذي قام برحلات كبيرة في روسيا في بداية القرن الثاني عشر (٤) ، وكذلك السفن

Ledebur, op. cit., p. 44-70; Minutoli, n. 2^o-40.

(١)

(٢) انظر القائمة الممتازة للنقود التي عثر عليها (ومعها خريطة) في يومرانيا كوهن :

Kühne, les Baltiche Stuien, 27, 203 et ss.

Sawelljew, dans Erman's Archiv, VI, p. 98.

(٣)

Rafn, Antiquités russes II, 134 et s.

(٤)

السلافية والساملاندية التي كانت تأتي في زمن آدم دو بريم تلقى مراسيها عند بيركا Birkka ، وهي من أغني مواني السويد (١) : ونحن نسلم بأن هذين المثالين مقتبسان من عصر لاحق لم يعد فيه النقد العربي ساري المفعول على شواطئ البحر البلطي ، ولكن ينبغي لنا ، بالنظر الى عدم وجود مصادر قديمة بشأن موضوعنا هنا أن نبحث عن الأدلة في وثائق أكثر حداثة . ومن جهة أخرى ، كانت السفن التجارية الدانمركية المبحرة من شلزويج تضي لتزور البلاد السلافية التي تشرف على البحر البلطي ، وكذا ساملان البروسية (٢) . ومن شلزويج نفسها انطلق الرحالة المشهور فولفستان Wulfstan في أواخر القرن التاسع تاركا الى يمينه بلاد الوند Wendes ، فبلغ مجاورات مصب الفستولا ، وكانت غايته تروسو Truso وهي ميناء بروسيا القديمة ، اكتشفت أطلاله حديثا بروسكمارك Preuschmark (أى سوق البروسيين) أو بالأصح بروسنماركت Prussenmarkt على مسافة ليست ببعيدة عن الضفة الشرقية لبحيرة دراوسن Drausen بالقرب من « البنج » Elbing (٣) . وفي كثير من الأحيان كان الدانمركيون أو غيرهم من الاسكندناويين الغربيين المسافرين الى روسيا يرسون فقط في البلاد السلافية أو البروسية ، ولعلم اذا وجدوا هناك بضائع يشحنونها ليبيعوها في روسيا ، فانهم يدفعون ثمن هذه البضائع بنقود عربية ان لم توجد نقود أهلية . وعلى ذلك فان منتجات السواحل الجنوبية للبحر البلطي يمكن أن يحملها الى روسيا اما السلاف أو البروسيون أنفسهم ، واما الدانمركيون ، ومن ثم تنتقل عند الضرورة الى الشرق . والثابت أن السفن التي تحمل هذه المنتجات تعود بالتالي وهي تحمل سلعا روسية ، وربما أيضا أشياء شرقية . ومن المحتمل إذن أن يكون عدد من الحلى التي اكتشفت بجانب النقود العربية شرقية المصدر ، ويبدو لي أنه لكي يمكن التيقن من أن شيئا ما « شرقى بالتأكيد » - الأمر الذي يفعله « لودفيور » بسخاء - يتعين البدء بإجراء دراسات مقارنة تؤدي الى تحديد السمات المميزة للحلى العربية أو البيزنطية أو الشمالية في أقدم فترة من العصر الوسيط .

وبخلاف هذا الطريق البلطي الذي يربط السلاف بروسيا ، ومنها الى الشرق بوساطة الروس وبلغار الفولجا ، يمكن أن نقتبع الى داخل روسيا ولتوانيا وبولندا خطا يتكون من ودائع النقود الشرقية ، ويبدو أن هذا الخط يدل على طريق يرى عبر البلاد السلافية . وقد رأينا في الواقع أن ابن خرداذبة يؤكد

Ed. Pertz ss, VII, 305.

(١)

Adam. Brem. loc. cit., p. 312, 368.

(٢)

(٣) هذى هي الخلاصة التي انتهى اليها نيومان Neumann بعد بحوث متعمقة أجراها في Elbing البنج

أن المسافر الذى يرحل فى أيامه من غرب أوروبا (من أسبانيا أو فرنسا) يستطيع دائما أن يصل برا عبر ألمانيا والبلاد السلافية الى عاصمة الخزر (اتيل) ، ومن هناك الى ما وراء نهر الاجزوس (بلخ) عن طريق بحر قزوين ، ويواصل رحلته حتى الصين عن طريق بلاد التاجازجاز Tagazagaz فى آسيا الوسطى (١) . ومن الواضح أن هذا ليس مجرد احتمال فى ذهن الكاتب العربى ، ولكنه يقصد بوصفه هذا الطريق بالخطوط العريضة التعريف بطريق برى كان كبار التجار اليهود الذين كان دورهم كوسطاء بين الشرق والغرب شديد أهمية فى ذاك الأوان يستخدمونه الى جانب طرق بحرية فى القسم الأكبر من رحلتهم . فإذا كان هذا الطريق الذى يخترق البلاد السلافية مفتوحا لليهود ، فلا بد أن يكون من باب أولى مفتوحا للسلاف ، والثابت أنهم كان يتفجعون به ، على الأقل حتى مشارف العالم العربى ، وهذا هو ما يدل عليه المنشئات التى أقاموها فى عاصمة الخزر ، والتى تحدثنا عنها من قبل .

بيد أن السلاف الغربيين لم يكونوا على صلة بالعالم الشرقى وحده ، إذ كانوا يستطيعون الاتصال بالعالم الإغريقى ، أو على الأقل بمنتجاته ، ولذلك كان لديهم طريقان ، أحدهما عبر البحر البلطى وينتهى عند نوفجورود ، والثانى طريق برى أقصر ينتهى فى كييف ، والراجح أنه كان مطروقا أكثر من الأول (٢) . وفى النصف الثانى من القرن التاسع ومستهل القرن العاشر نشأت على مصب نهر الأودر مدينة سلافية كانت آنئذ مزدهرة : مدينة جومنيه Jumne (٣) وهى سوق كبيرة الأهمية . ولا شك أنه رغم الحكايات الخرافية التى يرويها ستورشر Storch ، فإن منتجات الهند وشرق آسيا لا بد أن تكون نادرة الوجود بهذه المدينة ، أما منتجات بيزنطة فلم تكن كذلك ، وليس معنى هذا أن الإغريق كانوا يأتون هناك ومعهم منتجاتهم ، إذ لا يجوز أن نفسر تفسيراً حرفياً ما يقوله آدم دو بريم : فهو يذكر الإغريق حين يحصى الأمم التى تتردد على هذا المكان (٤) ، ولكن الواقع أنه يطلق هذه التسمية (أى الإغريق) على كل من يعتنق الديانة اليونانية ، ومنهم قبل كل شيء الروس ، وبأيدى هؤلاء كانت تمر البضائع اليونانية .

وما دامت منتجات الامبراطورية اليونانية ، وربما منتجات آسيا تصلى الى سكان الساحل الجنوبى للبحر البلطى ، فليس ثمة ما يمنع من أن تتولى

Ed. Barbier de Meynard, p. 515.

(١)

Lelewel, Tableau historique du commerce des slavons, dans sa

(٢)

Munismatique du Moyen - Age, 3e part, p. 98 et s.

Historisch - statistisches Gemaelde des russischen Reichs, IV, 45 .

(٣)

Pertz, ss. 312

(٤)

التجارة توزيعها على الألمان . وفى عهد شارلمان كان نهر الب وسال Saale يكونان بوجه عام الحد الفاصل بين الشعوب الألمانية والشعوب السلافية ، وقد عين شارلمان غربى هذين النهرين بعض المدن التى يجب أن تجرى فيها المبادلات بين الأمتين : باردويك ، شيزلا (١) ، مجدبورج ، وارفرت (٢) . ولسنا نعرف أنواع السلع التى كان السلاف يستوردونها من هناك ، فالمصادر صامتة فى هذا الخصوص . وفى القرون التالية عبرت جموع الألمان حاجز نهر الالب اما محاربين أو مبشرين أو مستعمرين ، ولم يتخلف عنهم التجار . وثمة ساكسون ترددوا على جومنيه Jumne واستقر بها بعضهم ، رغم أن هذه المدينة كانت وثنية ، وكانت ممارسة الطقوس المسيحية علانية محظورة ، وكان هؤلاء يأتون بالأرجح من مجدبورج ، أو باردويك ، أو هامبورج . ويقول آدم دو بريم ان المسافة من هامبورج أو من نهر الب الى جومنيه تبلغ ثمانية أيام (٣) ترى ما هى البضائع التى كان الألمان يأتون بها من المستودع السلافى الكبير ؟ هل كانت من منتجات الشمال فقط ، وهل كان معها سلع بيزنطية أو أسيوية ؟ لا تبثنا المصادر بشيء من ذلك .

ولننتقل الى وسط ألمانيا ، فنجد هناك منذ زمن مبكر طريقا تجاريا يمتد من ثرنجيا Tharinge الى ماينانس Mayence (أو ماينتس) يستخدمه السلاف (٤) . هل لنا أن نعتبر هذا الطريق امتدادا غربيا لطريق مستخدم للتجارة العالمية ، يجتاز البلاد السلافية من طرف الى آخر ؟ هل استخدم هذا الطريق لنقل منتجات الشرق الى ضفاف الراين ؟ أو كان سكان ثرنجيا (الذين قد يوجد بينهم الكثير من السلاف) هم بالأحرى الذين استخدموه للذهاب الى ماينانس ، المركز التجارى العام للمنطقة ، طلبا للأشياء التى يحتاجون إليها ؟ هذه حقيقة يبدو أنها تثبت وحوود علاقات تجارية بين ماينانس والشرق الأقصى لقد زار العربى الاسباني أبو بكر محمد (المولود عام ١٠٥٩ فى طرطوسا ، ومن ثم لقب بالطرطوشى ، وعرف بهذا اللقب) زار ذات يوم ماينانس ، غالبا فى احدى رحلاته الكبيرة التى قام بها فى شبابه عبر البلاد المسيحية ، ورأى فيها نقودا فضية من سمرقند ، سككت فى الأعوام من ٩١٣ الى ٩١٥ باسم الأمير السامانى نصر الثانى ، ابن أحمد . ومن الصعب التسليم بأن هذه النقود التى ضربت فى بداية القرن العاشر لم تزل سارية المفعول فى ماينانس فى أواخر القرن الحادى عشر ، لذلك فمن المحتمل أن الطرطوشى لم يجدها فى السوق كعملة متداولة ، وانما عرضها

(١) انظر فى خصوص هذا المكان :

Les Mecklin - Burgische Jahrbuecher XXXVI, 1871, p. 107 et ss.

Capitulare, Dec. 805, dans Pertz, Leges, I, 38.

Adam, Brem, dans Pertz, ss, VII, 312.

Vita Starmi, éd. Pertz, ss, 11, 369.

(٢)

(٣)

(٤)

عليه بعضهم باعتبارها تحفة بالنسبة الى طابعها العربى . ومع ذلك فان هذه الواقعة قد تحمل على الظن بأن ما يانس اشتركت ، على الأقل من بعيد ، وفى زمن قديم فى تجارة البلاد البلطية مع روسيا والشرق ، وهى تجارة جلبت الى أوروبا كميات كبيرة من النقود السامانية . نضيف الى ذلك أن هذه الواقعة فريدة فى نوعها ، ذلك لأنه لم يعثر فيما وراء نهر الب على أثر نقود عربية ، ومن ثم ينبغى مراعاة الحذر فى هذا الخصوص . وفى الامكان اعطاء تفسير آخر : ذلك أنه ربما يكون بعض الروس القادمين الى ألمانيا لأسباب غير التجارة قد أحضروا معهم هذه النقود وتركوها هناك . وتذكر الوقائع الألمانية الكثير من البعثات الروسية الرسمية التى وفدت على البلاط الألمانى فى غضون القرنين العاشر والحادى عشر (٩٥٩ ، ٩٧٣ ، ١٠٤٠ ، ١٠٤٢) . ومع أنها لا تذكر ما اذا كانت هذه البعثات قد مرت بمدينة ما يانس ، فإنا نعلم أن الغرندوق ايسيسلاف Isoeslav قد أتى من كيف الى ما يانس نفسها فى عام ١٠٧٥ . يلتبس معونة الملك هنرى الرابع ، وأنه أتى معه بكمية من الأشياء الثمينة . حدث هذا بالضبط فى الوقت الذى كان فيه الطرطوشى يتجول فى أوروبا ذلك ، لأنه ابتداء من عام ١٠٨٣ استقر فى مصر وبقي فيها الى آخر عمره . أليس من المحتمل أن تكون الدراهم التى رآها فى ما يانس قد تركها هناك الغرندوق الروسى ؟ ليس هناك ما يمنع من ترجيح التفسير الثانى على الأول ، ومع ذلك فليس ثمة خطأ فى الافتراض بأن ما يانس كانت على صلة بالشرق ويقدم المصدر العربى الذى زودنا به رواية الطرطوشى الدليل على صحة هذه الصلة لأنه يضيف قائلا : « من العجيب أن توجد فى هذه المدينة الواقعة فى أقصى الغرب وفرة من التوابل التى لا تصادف الا فى الشرق الأقصى ، كالفلفل ، والزنجبيل ، والقرنفل ، والحولجان ، وكلها حاصلات صادرة من الهند » . ولو كان الجغرافى القزوينى (الذى استعربنا منه هذا البيان) قد علم من بعض معاصريه أن هذه التوابل كانت موجودة فى ما يانس لكان لدينا البرهان على أنه فى العصر الذى كانت فيه التجارة مع الشرق أكثر نشاطا ، كان بعض هذه التوابل يجلب الى هذه المدينة ، الأمر الذى يثير الدهشة لأن القزوينى حرر كتابه فى عام ١٢٦٣ ، وأعاد كتابته فى عام ١٢٧٦ (١) ، ولكن يغلب أن يكون قد استعار معلوماته بخصوص التوابل من الطرطوشى ، وهذا يثبتنا بشئ أكثر أهمية ، لذلك أن ما يانس كانت قبل الحروب الصليبية تتلقى من الهند توابل من كل صنف . غير أن هذه التوابل لا يمكن أن تصل الى هناك بالطريق نفسه الذى تصل به النقود السامانية ، ويمكن أن نؤكد أنها كانت تأتي عبر البحر المتوسط

على سفن فينيسية (١) . ومع ذلك لا يصح أن نتصور أن دور أهالي ماينانس في هذه التجارة كان سلبيا محضا . ويرى Gfroerer (٢) بحق أن بعض كبار تجار ماينانس في عصر الملوك «الأوتونيين» Othons الألمان كانوا يذهبون الى القسطنطينية لقضاء بعض الأعمال التجارية ، وهذى هى الطريقة الوحيدة لتفسير التصرف الذى أجراه الملك أوتو الأول فى عام ٩٤٩ - وهو تصرف يبدو غير عادى فى أية ظروف - بأن عين سفيرا فى بلاط بيزنطة تاجرا ثريا من تجار ماينانس اسمه ليوتفريد Liutfrid (٣) : ومم ليوتفريد هذا بالبندقية فى طريقه من ماينانس الى القسطنطينية ، لذلك يمكن التسليم بأن منتجات الشرق كانت تتبع نفس الطريق فى ذهابها من القسطنطينية الى ماينانس . ولا يسعنا أن ندخل فى مزيد من التفاصيل فى هذا الموضوع . وفى العصر الوسيط كان على المسافرين الذى يريد الذهاب من ايطاليا الى ألمانيا أن يتبع بوجه عام الطريق الرومانى القديم المحاذى لبحيرة « كوم » (كونو) Côme (٤) ويقطع خط الجمارك عند كيافيننا Chiavenna (٥) ، ويجتاز نهر بريجاليا Bregaglia ، وممر سبتيمر Septimer (٦) ويمر بكوار Coire وينتهى عند بحيرة كونستانس Constance وهناك تطور نشاط تجارى منذ زمن مبكر فى موقعين : رورشاخ Rorschach فى الجنوب الغربى ، وكونستانس فى الطرف العلوى من البحيرة (٧) ، وكانت مدن بحيرة كونستانس طوال العصر الوسيط كله تغذى علاقات نشيطة مع مدن الراين العلوى والأوسط .

بقى علينا أن نلقى نظرة خاطفة على جنوب شرقى ألمانيا ، ونبحث عما اذا لم يكن هناك قبل الحروب الصليبية تيار تجارى بين الشرق الأدنى والدانوب . والمعروف أن شارلمان بدأ فى شق قناة بين التموهل Altmuehl وردنيتز Rednitz وهو مشروع لم يتم ، ونسب اليه البعض رغبته فى تسهيل المواصلات بين الشرق والغرب . وفى العصر الذى بدأت فيه الأعمال ، كان يعد العدة لحملة جديدة ضد « الأبر » (الأفار Avars) ، وكان قد انتصر عليهم منذ قليل فى حملة أول ،

(١) Froehn... dans les Mém. de l'Acad de St. Pétersb., Série VI; Sciences politiques II (1834) p. 87-99.

(٢) Gregor VII, p. 212.

(٣) Liutprandi antapodosis, dans Pertz, SS. III, 338.

(٤) Annal. Fuld., dans Pertz, ss. I, 412.

(٥) Mohr, Cod. dipl. I, 97 et s.

(٦) Mohr, ibid, I, 58 et s., 155, 396 et s.

(٧) Neugart, Cod. dipl. Alamann, no. 729, 820.

ليس من شك فى أن رهبان سان جال St. Gall كانوا يستوردون من بحيرة كونستانس التوابل ويخلطونها بنبذهم ، والفلفل الذى يتبلون به الاسماك والصلصة .

ولكنه كان نصرا قصير الأمد لا يسمح له بالقضاء على هؤلاء الأعداء المرهوبين .
والثابت أن الامبراطور ربط النهرين بقناة صناعية بقصد ضمان سرعة تركيز
جيشه وسهولة نقل مؤنه . ومن المحتمل أن يكون قد فكر في تشجيع التجارة الى
جانب غرضه المباشر ، غير أنه من المبالغة أن ننسب الى هذا المشروع المدى البعيد
الذي أشرنا اليه قبلا (١) . كان شارلمان بالتأكيد واسع الأفق - وسوف نرى
ذلك فيما بعد - يدرك قيمة طريق يضع امبراطوريته على صلة بالشرق ، ولكنه
يدرك أيضا حقيقة الوضع السياسي للبلاد الواقعة على مجرى الدانوب الأدنى ،
ويعلم أنه لن يكون في الامكان لزمن طويل اعداد خدمة منتظمة للبضائع على
هذا الطريق . وفي شمال الامبراطورية اليونانية كان بلغار الدانوب يحتلون
القطر كله ، ولا يمكن القول بأنهم كانوا على درجة متأخرة من المدنية لا تتيح
لهم الاشتغال بالتجارة بل انهم على العكس من ذلك كانوا كاخوانهم على حوض
الفرلجا يحبون التجارة ، وقد أقاموا مع الاغريق منذ زمن موغل في القدم علاقات
تنظمها معاهدات (٢) ، وكان في القسطنطينية تجار من بنى جنسهم مستقرين
في قواعد ثابتة ، وكانت أعمالهم مزدهرة لدرجة أثارت غيرة التجار الاغريق .
وفي أعقاب مجموعة من المؤامرات ، أجبروا على نقل متاجرهم الى سوق
ثانوية في سالونيك ، وأدى هذا العمل الى اندلاع الحرب بين الملك البلغارى
سيميون والامبراطور لأون السادس (٣) . وكان يحتمل مع ذلك أن تسير الأمور
على هذا المنوال رغم الحروب الكثيرة التى كانت من وقت لآخر تقيم العراقييل
فى سبيل التجارة . غير أنه بصعود مجرى الدانوب ، يصل المرء الى سهول بانونيا
Pannonie التى كان يحتلها الأفار (الأبر) ، وهم شعب من الفرسان الرحل
احتفظوا حتى النهاية بطباعهم الغليظة (٤) ، وكدسوا كنوزا هائلة فى قصرهم
الدائرى الحصين ، ولم تكن التجارة هى التى زودتهم بهذه الكنوز ، ولكنها كانت
ثمرة ما كانوا يقتطفونه من قطع الطرق وفرض الجزى على جيرانهم الضعاف .

(١) فى طبعة حديثة ، أيد السيد ايناما سترنج بقوة هذا الفرض :
Mr. V. Inama Sternegg, (Deutsche Wissenschaftsgesch. I 435 et s.)

وفى رأى السيد سيمسون أن الامبراطور لم يكن يتغيا سوى تسهيل العمليات العسكرية :
— Simon (Jahrbücher des deutschen Reichs unter Karl d. Gr. II, 55).

ويسلم كل من Riezler, Waitz ان القناة كانت ، الى جانب الغرض العسكرى منها ، تستخدم

لنقل البضائع بوجه عام .

Théophanes, éd. Bonn, 1, 775.

(٢)

كان وسطاؤهم التجار اليونانيون فى المدن الساحلية بينطس Pont التى انتزعها
الملوك البلغار من الأباطرة البيزنطيين ، مثل : Anchiales, Mesembria

Théophanes contin. p. 357; Leo Grammaticus, p. 266 et s.; (٣)

Georgèus Hamartolus, éd. Muralt, p. 771; Théodosius Melitenus, éd.

Tufel (Monum. saecul. acad. Monac. 1859) p. 186; Cedren II, 254.

Bûdinger, Oesterr. Geschichte I, p. 61 et ss. 131.

(٤)

وتضطرنا المعلومات التي تزودنا بها المصادر الجديرة بالثقة الى أن نعتبر هؤلاء القوم غير قادرين على مزاولة التجارة . وثمة رواية نقلها البلغار الى الاغريق ، وسجلها سويداس Suidas (١) ، وهي ذات سمة أسطورية ، تنسب ضياع هؤلاء القوم الى عدة أسباب منها أنهم أصبحوا جميعا تجارا . ويلاحظ المؤلف أن أخلاقهم فسدت ، وجعلوا يغشون بعضهم بعضا مما يدل بوضوح على أن الأمر هنا لم يكن تجارة دولية لبضائع الشرق فيها مكانتها ، ولكنه مجرد تجارة بين أفراد الآفار ، موضوعها الغنائم . وفي عام ٧٩٦ غزا جيش الفرنجة بلادهم وأعمل فيها الخراب والدمار ، وجنى منها غنائم هائلة ، من ذهب وفضة وحلى ، غير أنه ليس ثمة شيء من هذه الأشياء يدل حتما وتبعاً لمصدره على وجود علاقات تجارية مع الشرق . فالمعاطف الحريرية التي أشار اليها المؤلف كانت على الأرجح جزءاً من الجزية التي يدفعها لهم الأباطرة البيزنطيون (٢) . وبعد هذه الكارثة انهار الآفار سريعاً . وفي مطلع القرن التاسع ، ارتاد بعض التجار الألمان من راتسبون Ratisbonne ، ولورخ Lorch بلادهم (٣) ، ومن المشكوك فيه أن يكونوا قد وجدوا فيها شيئاً من منتجات الشرق . ولم يتحسن الحال من الوجهة التجارية حين استقر المجر في أواخر القرن نفسه في سهول بانوينا ، اذا كان لنا أن نتحدث عن الاستقرار بالنسبة الى شعب اجتاح كعاصفة هوجاء نصف أوروبا ، وغطاها بالخرائب وجثث القتلى . كان المجر لا يعرفون أية مدنية ، ويجهلون كل شيء حتى الزراعة ، مرهوبين عن بعد ، وكأنهم آفة مخيفة ، ولم يكن عندهم ذكاء تجارى (٤) أو أى ميل للتجارة ، أو أية فكرة للعمل وسطاء في التجارة بين الشرق والغرب . ولم يتسن للتجارة العالمية أن تشق لها طريقاً عبر البلاد التي يرونها الدانوب والتايس الا حين انجز الملك القديس اسطفان St. Etienne (توفى عام ١٠٣٨) العمل الحضارى العظيم الذى خلد اسمه : فكان لترحيبه بقدوم الأجانب من كل أمة وطبقة ليستعين بهم فى نشر الحضارة فى شعبه ، الصرامة التي استخدمها فى قمع اللصوصية ، والسهرة على أمن الطرق أثره فى تشجيع الحجاج على المرور بهنغاريا فى طريقهم الى القدس ، ومن ذلك الحين كان الحجاج القادمون من فرنسا

Ed. Bernhardt, I, p. 1017.

(١)

Sinson, op. cit. 11, 104, 106 et s. 123 et s.

(٢)

Capitulaire Caroli Magni, in Theodori villa promulgatum, Dec. 805 dans Pertz, Leges, I, 133.

(٣)

(٤) زعم البعض أنه فى عهد الملك الميروفانجى داجوبر Dagobert رأى بعض المجر

فى أسواق دنيس بالقرب من باريس ، ولكن هذا خطأ ترتب على قراءة غير صحيحة .

— Pardessus, Diplomata, Chartoe, etc. II, 4.

انظر أيضا :

وايطاليا يفضلون هذا الطريق لأنه يجنبهم السفر عن طريق البحر (١) . وليس هناك ما يمنع من الاعتقاد بأن هذه البواعث نفسها كانت تحلل التجار الاجانب على الاكثار من زيارة البلد . وثمة فقرة في قانون بتاريخ ١٠٩٢ (٢) تثبت انه كان في هنغاريا في تلك الآونة مسلمون مقيمون بها اقامة دائمة ، وينعشون من تجارتهم . ومن جهة أخرى استفاد التجار المجريون من العلاقات التي وثقها الملك القديس اسطفان مع مختلف البلاد الأوروبية . ويبدو أنه قد نشأ في القسطنطينية في ذلك العصر مستعمرة هنغارية ، لأن الكنيسة الفخمة التي شيدها هناك الملك القديس اسطفان لم تكن بالتأكيد مجرد صرح رائع يشهد بالبذخ (٣) . وقد يخطر على البال أن نوعا من الزهو لم يكن بعيدا عن الشعور الذي ألهم الملك القديس فكرة اشهار اسمه بتشييد منشآت مقدسة في المراكز المسيحية الرئيسية ، ولا يمكن انكار أن بناء كنيسة القسطنطينية كان تكملة عملية للمنشآت المماثلة التي أقيمت في روما والقدس : لقد أراد أن يكفل للهنغاريين الذين يؤدون الحج في موطن المسيحية أو في الأماكن المقدسة وسائل للتنوير ومأوى مضيافا في آن واحد ، ومن ثم كان تشييد كنيسة رسمية في روما ، وديرا في القدس . ولكن القسطنطينية لم تكن مكانا يقصده الهنغاريون للحج ، بل كانت على الأكثر مرحلة في الطريق الى القدس . فلاى غرض اذن كان بناء كنيسة في تلك المدينة ، ان لم يكن للوفاء بالمطالب الدينية لدى التجار المقيمين بها ؟ لسوء الحظ ، ساءت الأحوال بعد وفاة القديس اسطفان ، وأدت المنافسات بين الطامعين في خلافته ، والحروب المتواترة ضد الألمان الى عوده المملكة الى حالة الفوضى والوثنية القديمة بعض الوقت (٤) . وكان على الملك أندريه André (١٠٤٥ - ١٠٦٠) والملك لادسلاس Ladislas (١٠٧٧ - ١٠٩٥) أن يعيدا الأمن الداخلى والنظام الى نصابهما وثمة واقعة تعطينا فكرة عن اهتمام

(١) Glaber, Rodulfus hist., éd. Pertz ss, VII, 62; Guillaume, comte d'Angoulême 1026-1027, d'après la relation d'Adhémar, dans Pertz SS, IV, 145 et s.; enfin, en 1059-1059, le fameux annaliste Lambert von Hersfeld ; voy. ses Annales dans Pertz, ss, V, 159, 160.

(٢) Ladsalai regis decretum I, cap. 9, dans Endlicher, Monumenta Arpadiana, p. 327.

(٣) Vita major Stephani regis, cap. 12, dans Pertz ss, XI, 235.

(٤) لدينا اثبات لا يمكن انكاره للعلاقات القائمة بين هنغاريا والقسطنطينية ، وبينها وبين العالم العربى ، ذلك هو حلة القداس (ثوب بلا كمين) التي منحتها في عام ١٠٣١ الملكة جيزيل زوجة القديس اسطفان لكنيسة سانت مارى ستالفسنبرج Stahlwissenbourg والتي ما زالت محفوظة فى أوفن Ofen بمثابة معطف للتويج ، وهى من حرير أرجوانى ، بيزنطية التصميم ، موشاة بخيوط ذهبية بيد جيزيل نفسها ، ثم الحرير البنفسجى الضارب الى الحمرة المبطن للياقة ، وعليه رسوم لحيوانات غريبة ، ورسوم الهلال والنجوم ذات الرؤوس السبعة ، وكل ذلك يشهد باصلها العربى .

المسافرين قبل هذين الملكين بتجنب اقليم هنغاريا ، وذلك أن الملك أندريه نفسه قد نازعه التسك في نويا جماعة من الحجاج عبروا مملكته في عام ١٠٥٤ بقيادة ليتبرت *Lietbert* أسقف كامبرى ، وذلك كما يقول كاتب سيرة ليتبرت لانه « لم يكن أحد تقريبا يسلك هذا الطريق » (١) . ولكي نوجز في بضع كلمات تاريخ الهنغارين قبل الحروب الصليبية ، نقول اننا نعلم الان أنه في غضون القرن الأول الذي أعقب استقرارهم على ضفاف الدانوب ، لم يكن هناك فترة طويلة واحدة من الهدوء تسمح للتجار الأجانب بالقيام برحلات متتابعة عبر البلد ومعهم منتجات بيزنطية أو شرقية ، كذلك لم تكن طباعهم ترضخ لمقتضيات هذه التجارة العابرة ، ولا يمكن أن تقوم لهذه التجارة قائمة الا في ظل نظام مستتب ، ولم يستقر النظام الا في القرن الحادى عشر . وفي حوالى منتصف هذا القرن اضطربت البلاد من جديد بمجموعة من القلاقل الداخلية والخارجية تضر حتما بنمو التجارة . وليس من النادر أن نجد بعض الكتاب يستبشرون لأنفسهم ، في مجال تاريخ التجارة أن يؤكدوا أن العلاقات بين ألمانيا وإيطاليا كانت قبل الحروب الصليبية غير نشيطة ، وأن ألمانيا كانت تتلقى منتجات الشرق عن طريق الدانوب . هذا الرأى لا يصمد أمام المناقشة . وعلى أية حال فاني لا أستطيع أن أجد في هذا العصر مجموعة من السنوات ، مهما كانت قليلة . سمحت فيها الحالة الداخلية لهنغاريا بتعزيز هذه التجارة العابرة . ولست أنكر أنه قد تبدت هنا وهناك لحظات كان من المحتمل أن تجرى فيها بعض المحاولات في هذا الاتجاه ، ولكنى أؤكد أن تجارة الشرق الأدنى لم تسلك أبدا هذا الطريق بصورة مستمرة في العصر الذي نتحدث عنه .

ومع ذلك كان هناك طرق أخرى من الشمال الى نهر الدانوب عبر البلاد السلافية ، تنتهى الى الاقليم الألماني دون أن تمر بالاقليم الهنغارى ، ولدينا وثيقة كتبت في رافلستتن *Raffelstetten* بين عام ٩٠٣ و ٩٠٧ تعرفنا بالنظام الجمركى في القسم من الدانوب الواقع بين باسان *Passan* وموترن *Mautern* (٢) ونرى في هذه الوثيقة أن الألمان كانوا يترددون على أسواق جيرانهم سلاف موراقيا ، وأن التجار السلافيين القادمين من روسيا وبوهيميا كانوا يمرون بمكاتب الجمارك المتناثرة على طول نهر الدانوب . يقول النص :

Sclavi qui de Rugis vel de Boemanis mercandi causa exeunt

ويتطلب هذا النص بعض الايضاح . فال *Rugi* هم في رأى دوملر *Duemmler* ودودك *Dudik* مورافيون ، وهم في رأى بودنجر *Buedinger* روجيون *Rugiens* من البحر الباطى ، وهم روس في رأى فيتز *Wäitz* وكيميل *Koemmel* ، وريلز *Riezler* . ويبدو لى أنه من غير المقبول أن يذكر

Vita Lietberti, Acta SS. Boll. 5 Juin. p. 507.

(١)

Pertz, Legg. III, 480 et ss.; Urkundenbuch des Landes ob der

(٢)

Enns, II, 54.

المورافيون في وثيقة واحدة تارة باسم « مورافيون » (Moravi, Marahi) وتارة باسم آخر (روجيون Rugiens) ولا أظن أيضا أن أحدا في مستهل القرن العاشر وعلى ضفاف الدانوب كان يحتفظ بذكرى ظهور الروجيين ظهورا عابرا في عصر الغزوات الكبرى ، كما لا أظن أن أحدا أطلق على المورافيين اسم هذه العشيرة القديمة التي ربما صاروا خلفاءها على الحوض المتوسط لنهر الدانوب وسواحل البحر البلطى بعيدة جدا بحيث لا يتيح المجال هنا للحديث عن الروجيين الذين أطلقوا اسمهم على جزيرة Ruegen . غير أنه لا يبدو لي مستحيلا أن يكون الروس قد ظهوروا كثيرا على ضفاف الدانوب ، وفي تكملة رجينو Regino (إضافة في ٩٦٠ - ٩٦٢) ، ذكروا بالذات باسم روجي Rugi . فهل كان هؤلاء التجار السلاف القادمين من روسيا يحضرون معهم منتجات الشرق ؟ الإجابة على هذا بالنفي ، على الأقل تصديقا لما ورد بهذه الوثيقة ، لأن المؤلف لا يذكر سوى الخيل والعبيد والشمع الذي هو من أكثر المنتجات وفرة عند السلاف وهم من كبار مربى النحل .

وعلى هذا لم تكن الأقسام الألمانية من حوض الدانوب تتلقى أيا من منتجات الشرق عن طريق البلاد السلافية ، وتتلقى القليل جدا منها عن طريق هنغاريا ، وكان الجزء الأكبر من هذه المنتجات يصل من الجنوب عن طريق إيطاليا . ولم تزل الطرق القديمة التي شقها الرومان عبر جبال الألب موجودة من ناحية التيرول وكارنثيا ، وكذا من ناحية سويسرا ، لحسن الحظ لم يستقر على هذا الطريق الطويل أى من العشائر الهمجية الرحالة التي يمكن أن تعرقل التجارة أو تقضى عليها تماما . وبالحق بعض المؤرخين في هذا الأمر إلى حد ادعائهم بأن الانقراض التي تخلفت عن جماعة من قدامى التجار الرومانيين ظلت محفوظة في راتسبون Ratisbonne حتى منتصف العصر الوسيط (١) ، ولكن بامعان النظر ، يتبين أن هذه الجماعة ليست سوى فرد واحد من أصل روماني ، يحمل اسما ألمانيا ، ويعيش في القرن التاسع ، ونصادف أمثاله من الأصل نفسه هنا وهناك ، في جنوب ألمانيا ، ولكن بين سكان الريف أكثر من سكان المدن (٢) . ونجد في بعض وثائق القرون التالية شارعا من شوارع راتسبون مذكورا باسم inter Latinos وبالألمانية Walhenggasse (Gasse der Woelschen) ، والجدير بالملاحظة أن هذا الشارع موجود في المدينة الجديدة وأن كلمة Vilchov لا تشير إلى نواة من الرومان القدامى مندمجة بالطبقة البورجوازية ، ولكن إلى عدد من أسر التجار الذين يتكلمون باللغة الرومانية أو الإيطالية أو الفرنسية ، آية ذلك أن تسمية inter Latinos قد استبدل بها في إحدى هذه الوثائق عبارة

Gemeiner, Ursprung der Stadt Regensburg, p. 22, 47, 54. (١)

Watz, Deutsche Verfassungsgeschichte, II; 177 et s. (٢)

inter Gallicos (١) . نضيف الى ذلك انه اذا ثبت أن الذين كانوا يزاولون التجارة بين إيطاليا وراتسبون لم يكونوا تجارا من أصل روماني ، فإن هذه التجارة كانت مع ذلك حقيقة لا مرأى فيها . فتنبعا لاحدى الماثورات الثابتة ، كان أهالى راتسبون هم أول من تردد على فينيسيا (البندقية) من الألمان لأعمال تجارية : ولا بد أن هذه الماثورة قد نبعت من بعض الحقائق . ويبدو كذلك أنه منذ بداية القرن العاشر ، كانت مدينة أوجزبرج تقيم علاقات تجارية مع إيطاليا وتتلقى منها منتجات شرقية . ترى من أى طريق جاءت أقمشة « صور » الأرجوانية التى أهدها ادالبيريون Adalbéron أسقف أوجزبرج عام ٩٠٨ الى دير سنت جال St. Gall (٢) ، ان لم يكن عن طريق إيطاليا أو بالراجح فينيسيا ؟ وكان من المعروف لدى الكافة فى هذا العصر أن الألمان يأخذون من إيطاليا منسوجاتهم الحريرية وتوابلهم .

٥ - بريطانيا العظمى

لم تكن بريطانيا فى الفترة التى سبقت الحروب الصليبية منقطعة الصلة بالشرق كل الانقطاع ، وكان الاسكندناويون من جهة والألمان من جهة أخرى وسطاءها « فى التجارة » . وبحفر الأرض ، هنا وهناك ، فى انجلترا وايرلندا تكتشف نقود شرقية ، أحيانا مع عقود أو حل فضية أخرى ، دليلا على أن تجارة الشرق الأدنى كانت تسلك طريق الشمال لتمد نشاطها الى هناك . والواقع أن هذه النقود لا يمكن أن تصل هناك الا بعد أن تجتاز اسكندناوة فى السفن الاسكندناوية التى ترنأد سواحل بحر الشمال بنفس السهولة التى تعبر بها السفن البحر البلطى ، والتى تجذب الى بريطانيا العظمى المنشئات الضخمة التى كان يبنونها النورمانديون . وكان للبحرية الاسكندناوية التفوق فى بحر الشمال ، وبخاصة فى عصر حملات الفيكنج حتى لم يبق للانجليز السكسونيين أى مجال للاسهام فى التجارة اسهاما نشيطا . وقد عثر فى الحفائر التى أجريت بالبلاد الاسكندناوية على كميات ضخمة من النقود الانجلوسكسونية ، دلالة على وجود تجارة نشيطة جدا كان للاسكندناويين حرية التصدير فيها . ولما كانت النقود موجودة غالبا فى السويد ، وبنوع خاص فى جزيرتى أولاند وجتلاند (٣) ، فانا نستنتج من هذه الظاهرة أن الاسكندناويين الشرقيين هم

Gemeiner, op. cit., p. 22.

الفضل فى ايضاح أوجه الخطأ فى هذه الاخبار القديمة .

Trudp Neugart, Cod dipl. Alamann. no. 667.

Hilderbrand, Das heidnische Zeitalter in Schweden, p. 184.

(١)

Hegl كان لهيجل

(٢)

(٣)

بالأخص الذين كانوا يزاولون التجارة مع الانجليز السكسونيين ، وهم الذين كانوا على صلة بروسيا ، وعن طريقها بالشرق .

ومن جهة أخرى كان سكان الضفاف الأنهار التي تصب في القسم الجنوبي من بحر الشمال بحكم موقعهم هذا يميلون بطبيعة الحال الى توثيق العلاقات مع انجلترا . وأقدم وثيقة تثبت وجود تجار المان في انجلترا هي قانون من لندن يرجع الى عهد الملك ايتلرد Ethelred (٩٧٨ - ١٠١٦) (١) ففي نظير الامتياز الممنوح لهؤلاء الألمان التجار بمزاولة أعمالهم في سوق لندن ، كان عليهم أن يدفعوا مرتين في السنة ، في عيد الميلاد وعيد القيامة قطعتين من جوخ رمادى ، وقطعة من جوخ بنى ، وأربعة أرطال من الفلفل ، وخمسة أزواج من القفازات ، وبرميلين صغيرين من الخل . وكثيرا ما نجد في العصر الوسيط كمية معينة من الفلفل مفروضة كأتاوة عينية على التجار أو سواهم من الأفراد . ومما يسترعى الاهتمام التسليم في عصر مبكر كهذا العصر بأنه من المعتاد أن يكون لدى التجار الألمان فلفل في مخازنهم . وليس في وسعنا أن نفترض أنهم لم يكونوا يستوردون الى انجلترا الا الكمية الضرورية من الفلفل لأداء الضريبة ، ومن ثم فليس ثمة خطورة في التسليم بأنهم اعتادوا أن يستوردوا الى لندن الفلفل والتوابل بوجه عام . ولسنا نملك بخصوص المدن التي كان يأتي منها هؤلاء التجار الألمان سوى بعض التخمينات، وأكبر احتمال أنهم أتوا من تيبيل Thiel على نهر الوال Waal ، ودفنتر على نهر ايسل Deventer sur l'Ussel ، وليبيج على ميز Liège sur la Meuse وكولوني على الراين ، وبريمن على الفيزر Weser (٢) وقد رأينا أن ما ينس كانت من قبل ، وفي هذا العصر مستودعا كبيرا للتوابل . هناك اذن ما يبرر الاعتقاد بأن توابل الشرق كانت تشحن في السفن من نهر الراين في طريقها الى انجلترا .

وفي غير ذلك ، كان ملوك انجلترا وكبار رجال الكنيسة الانجليزية ، حين يذهبون الى روما ، يحضرون معهم عند عودتهم أقمشة بيزنطية الأصل اشتروها (٤) ، أو تلقوها كهدايا .

(١) Worsae. Dis Dänen und Nordmänner in England, Schottland, (١)

und Irland, trad. allem, p. Meissner (Leipzig, 1852) p. 67-71.

(٢) Ancient laws and institutes of England, ed. Thorpe, p. 127.

Hansisches Urkundenb., I, no. 2.

(٣) Lappenberg, Urkundl. Geschichte des hansischen Stahlhofs in

London, p. 5 ; Hirsch, Kaiser Heinrich II, p. 346 et s.

(٤) Inguphus, dans Fell, Hist angl. script., I, 60; Bede, Hist., abbat

Wiremith, dans son Hist. eccl., éd. Smith (Cantabr. 1722), p. 297.

٦ - فرنسا

رأينا أنه قد توطد بين فرنسا الميروفنجية ومسيحيي مصر وسوريا تجارة نشيطة جدا . وكان سكان شواطئ البحر المتوسط قد اعتادوا هذه الصلات ، ولم تبطلها الفتوحات العربية . ومع ذلك فمن المحتمل أنهم كفوا منذ الفترات الأولى من العصر الميروفنجي عن تلقي خمور غزة وصربتا Sarepta (صيدا) (١) وكان هناك لذلك باعث آخر ؟ فالعرب كانوا في حميتهم الدينية الأولى قد حرموا زراعة الكروم في الأرض السورية ، ولكن بعد ذلك تلقت فرنسا ، كما كانت تتلقى من قبل المنتجات الصادرة من البلاد العربية أو التي تمر بها . وتبعاً لوثيقة رسمية من الملك الميروفنجي شلدريك الثاني Childéric II عام ٧١٦ (٢) ، كان دير كوربي Corbie يحصل من إيرادات جمارك فوس Fos دخلاً سنوياً يشمل ، ضمن أشياء أخرى فللاً ، وقرنفل ، وقرفة ، وناردين وتمرًا وورقاً Carta tomi (٣) . وكانت قناة فوس القديمة تيسر بنوع خاص اتصالات المدن الواقعة على المجرى السفلي لنهر الرون بالبحر المتوسط (٤) يمكن إذن أن نستنتج مما قلناه آنفاً أن منتجات آسيا وأفريقيا في مستهل القرن الثامن كانت تصل إلى دولتي الرون في سفن كانت ترسل على الأرجح من مدن جنوب فرنسا . وفي هذا العصر لم تكن التوابل نادرة الوجود في فرنسا ، ويتضح ذلك من مرسوم صادر من الملوك الميروفنجيين على أن لموظفي المملكة المسافرين في مهام خاصة بوظائفهم الحق ، في كل أنحاء البلد ، في التمتع بكل رعاية ، وفضلاً عن ذلك في الحصول على كمية من السلع الكمالية لتتبيل مأكولاتهم ومشروباتهم (٥) . من هذا نرى أن كبار رجال المملكة كانت لديهم هذه العادة ، وكان في الامكان تزويدهم بالتوابل من جهات غير المدن الكبرى .

(١) Sidon. Apoll. Carm., XVII, 15; Grég. de Tours, VII, 29.

(٢) Pardessus, Diplomata, Chartae etc., 11, 309.

(٣) هذه ورقة بردي مصرية ، يسميها العرب « قرطاس » ، وبعد الفتح بقيت صناعة ورق البردي في أيدي عمال مسيحيين ، ودهش الغربيون الذين استعملوا هذا الورق حين اكتشفوا وهم يفحصون النقوش هذه الكلمات : « الأب ، الابن ، وروح القدس » ، ولم تختف هذه الكتابة إلا في بداية القرن الثامن ، واستبدل بها شعار إسلامي .

انظر — Sauvaire, Matériaux pour servir à l'hist de la numism et de la métrol musulm. Journ. asiat. Série VII, T. XIV (1879), p. 458 et ss.
Desjardius, Géogr. de la Caule romaine, I, 199 et ss.

(٤) كذلك فإن موقع فوس Fos (les Martigues) مبين على الخريطة .

(٥) Formulæ Marculfi, lib. I, cap. 11 dans les Mon. Germ. hist. legum, sectio V, p. 49 : Pardessus, dipl. 1. c.

وانا لنجد التوابل في العصر الكاروفنجي مستصلحة بقدر أكبر اما لتبيل الأطعمة (١) أو لتطبيب النبيذ ، أو كعناصر في تركيب الأدوية (٢) . ومع أن هذه التوابل كانت مرتفعة الثمن للغاية (٣) . فان الكثير من الناس ، وبخاصة رجال الكنيسة كانوا يستمتعون بها ، ولم يكن الأطباء يترددون في ادخالها في عقاقيرهم حتى تزيد فعاليتها .

وفي عهد شارلمان تضاعفت العلاقات بين فرنسا والشرق . وكان اتساع امبراطوريته ، والشدة التي استخدمها لحفظ الأمن والنظام في جميع أنحائها ، واهتمامه بنمو الرفاهية العامة من العوامل المشجعة للتجارة . واذا كان هو نفسه قد أعرض عن صنوف الترف في الطعام والشراب والكساء (٤) ، فانه كان يقدر الأشياء الجميلة التي يمكن أن توفرها التجارة . يحكى أنه كان يتحدث ذات يوم مع سفير الامبراطورية الشرقية فأبدى له أسفه الشديد من أن الامبراطوريتين يفصلهما البحر ، الأمر الذي يحول بينه وبين الاشتراك مع الاغريق في ثروات الشرق (٥) . واذا كان هذا هو فكره ، فمن الطبيعي أن يجذب اقامة العلاقات مع الشرق الأدنى . والمعروف أنه أول من بعث السفراء الى الخليفة هارون الرشيد ، وأن الخليفة أجابه مرحبا بصادقته (٦) . وتوثقت بين الأميرين علاقات ودية قائمة على تقدير متبادل ، هذا في الوقت الذي كان فيه شارلمان يحارب عرب أسبانيا . غير أن هذا الموقف لم يضع العراقيل في الصلات القائمة بين الأميرين ، بل انه كان في صالحها ، لأن قادة عرب أسبانيا لم يكونوا سوى متمردين في نظر خليفة بغداد . وكان الغرض من المفاوضات التي كلف باجرائها مبعوثو شارلمان في بلاط الخليفة هو بالتأكيد الأماكن المقدسة في بيت المقدس ، وحماية الحجاج . ومنذ أن توج شارلمان امبراطورا اعتبر نفسه زعيم المسيحية ، ومن واجبه بهذه الصفة أن يهتم بمصير

(١) Cibi pigmentati. «Theodulf, episc. Aurelian ad. Carolum regem, V, (١)

198, éd. Dümmler, p. 4 et ss.

Alcuin, Epp. éd. Jaffé, dans la Biblioth. rer. german., VI, 593; (٢)

Constitutio Ansegisi, abb., dans Pertz, ss., II, 300.

«Indica pigmentorum genera magno emenda pretio» Alcuin, ib. (٣)
628 et s.

Einhardi vita Caroli cap. 23, 24, dans Pertz ss. II, 455 et s; Monach. S. Gall., ib. 761. (٤)

Monach. S. Gall. I. c. p. 743. (٥)

« لا يفكر شارلمان بالمرّة في تجارة برية بين بلاد نائية »

(٦) كانت هدايا الخليفة الى الامبراطور تشمل حيوانات نادرة (فيلة وقرودا) ، وقطعا ميكانيكية ، وآلات موسيقية ، ونجف ، وأقمشة حريرية ، وخيمة يستأثرها ، وأدوية ، وتوابل ، وعطورا (بلسما ، وناردين) .

مسيحيي الشرق ، وبأولئك الذين يسافرون الى هناك للحج (١) . وفي عام ٧٩٩ أقر بطريرك القدس آراءه بأن اعترف له علنا بحق الرعاية على المدينة والاماكن المقدسة ، وبعد قليل أقره الخليفة بنوع ما عاهلا على البلد ، بقى أن نوضح كيف استطاع شارلمان ، بلا أسطول خاص أن يعزز مطالبه في بلد بعيد الى هذا الحد ، ولكن المسلمين كانت لديهم فكرة عالية عن قدرته ويعلمون علاقاته الودية بالخلفاء ، وكان هذا كافيا لايقافهم عند حدهم : وتمتع كل من الحجاج والتجار بالأمن والسلام ، وجمع الكثير من المسافرين في أشخاصهم صفة الحاج والتاجر ، وأقام لهم شارلمان مستشفى في القدس ، وكان هذا عملا عظيما من أعمال البر ، وقبالة هذا المستشفى سوق مباح لكل انسان أن يعرض فيها سلعة في مقابل أجر قدره قطعتان من الذهب في السنة (٢) . فضلا عن ذلك لم تكن المصالح التجارية في نظر الامبراطورية الا في المرتبة الثانية بين كل ما أداه في الشرق ، ومن المشكوك فيه أن يكون لهذه المصالح أى تأثير في اختيار الهدايا التي كان يرسلها الى الخليفة . ويذكر راهب القديس جال St. Gall أنه كان من بين هذه الهدايا أقمشة صوفية من فريزية Frise من أصناف وألوان متنوعة ، وأن الامبراطور يعلم أنها نادرة وقيمة في الشرق (٣) . حقا ، لا يضيف المؤرخ هذه الملاحظة الا ليثبت أنه في الامكان القول بأن قيمة هذه الأقمشة الصوفية تمثل هدية تسر الخليفة ، ورلها يتهمنا البعض بأننا نبالغ في القراءة بين السطور حين نسبنا الى الامبراطور الرغبة في تشجيع تصريف أقمشة « فريزية » الصوفية في الشرق بأن يجعلها أولا مقبولة في بلاط الخليفة (٤) . وعلى أية حال فان ملاحظة المؤرخ تعرفنا بأنه كان في الامكان في ذلك العصر القديم تصدير بعض المنتجات المصنوعة في الغرب الى الشرق ، وأن تحظى هناك بالتقدير . ومن المعروف أن التجار الفريزيين كانوا يجوبون ألمانيا وفرنسا وانجلترا ، ولكن لا ينبغي لنا بالمرّة أن نتساءل عما اذا كانوا

(١) يكفي اثباتا لذلك أن نذكر المعونة التي أرسلها الى المسيحيين الفقراء في القدس ، والاسكندرية ، والقروان . انظر — Einhardi, vita Caroli, cap. 27; ibid. p. 457. — Annales Laurissenses majores, ad an. 800, dans Pertz, ss. I, 186.

(٢) Bernardus monachus francus, dans Tobler et Molinier, Itinera hierosolymitana, I, p. 314.

أخذ صاحب القصيدة البطولية الفرنسية القديمة بشأن رحلة شارلمان الى القدس والقسطنطينية أوصافه للقدس من « أخبار الحجاج » في القرن الحادى عشر ، ويتحدث عن هذه السوق التي يتردد عليها تجار يتكلمون لغات عديدة ، ويستوردون أقمشة حريرية وصوفية ثمينة ، وقرنة ، فلفلا ، وتوابل ، ونباتات طبية . واذا كان لنا أن نسترشد بشهادة شاعر ، فان هذه الفقرة تثبت أن القدس كانت على علاقة بالبلاد النائية جدا بآسيا ، انظر :

(٣) المرجع السابق ، ص ٧٥٢

— L'éd. de ce poème par Koschwitz, 1883, p. 13, V. 209-212.

Gfrörer, Gregor VII, vol. VII, p. 200 ; Sugenheim, Geschichte des deutschen Volks, I, 124. (٤)

يحملون بأنفسهم الى الشرق أقمشتهم الصوفية اذا كانت مرسيليا أو البندقية
تقوم لهم بدور الوساطة ، فهذه أسئلة لا قبل لنا بالاجابة عليها .

وليس من شك في أن التفاهم السلمى والودى الذى استقر بين شارلمان
والعاهل الشرقى كان حقيقا بأن يعزز تقدم البحرية التجارية فى الغرب (١) ،
غير أنه لا يصح لنا أن نتصور أنه قد أعد فى ذلك العصر خدمات بحرية منتظمة
بين ثغور جنوب فرنسا وبين الشرق الأدنى وثمة كاتب من الدرجة الثانية
ادعى فى قصة محلية (٢) أن البرجوازيين فى مدينة ليون كانوا يجتمعون منذ
عام ٨١٣ مع برجوازيى مرسيليا وأفينيون ، ويسافرون معهم الى الاسكندرية
مرتين كل سنة ويعودون منها ومعهم توابل الهند وعطور بلاد العرب ، وتنتشر
هذه السلع بالتالى فى فرنسا وألمانيا عن طريق نهر الرون وسائر الطرق
المائية ، وهذا زعم باطل ، لم يقبله دوجيني Deguignes (٣) الا بتحفظ ،
ورفضه هيرين Heeren بحق فى مجال الحكاية الخرافية ، ولم أكن أعتقد انه
من الواجب التنويه به لولا أن عالما معروفا ذكره أخيرا من جديد (٤) . ولم
تنتظم مثل هذه الخدمات الا فى عصر الحروب الصليبية . علاوة على ذلك فان
من بين المدن الثلاث المذكورة بعاليه ، مرسيليا وليون وأفينيون ، كانت
الأولى هى أكثرهن التى تكفل خدمة بحرية منتظمة مع الاسكندرية ، ولم يكن
ذلك فى العصر الكارلوفنجى ، وانما فقط بعد عدة قرون .

وفى عهد خلفاء شارلمان انفتح لفرنسا عصر مليء بالكوارث . ففى حين
راح النورمان ينهبون ويدمرون السواحل الشمالية ، وتوغلوا فى الأنهار التى
تروى هذه المناطق ، ظهر قراصنة عرب على سواحل بروفانس واستولوا على
حصن فراكسينتوم Fraxinetum (la Garde Frainet) ومن هذا الموقع الحصين
تقدموا فى داخل البلاد ينهبون ويخربون قرابة قرن من الزمان . وكان كل
حاج يجتاز جبال الألب ذاهبا الى روما عرضة للوقوع فى أيديهم ، وكل سفينة

(١) يبدو أن مدينة آرل Arles كان لها مزية توثيق العلاقات بالعرب ، وقد وجد بها الاسقف
تيودلف دورليانز Théodulphe d'Orléans فى عام ٨١٢ نقودا عربية بكميات كبيرة ، ولآلى من
الشرق ، وأصوافا مختلفة الألوان ، عربية الصنع . والمطلوب معرفة ما اذا كانت هذه النقود
والسلع تأتي من عرب الشرق أو من عرب اسبانيا ، الأمر الذى يبدو لى أكثر احتمالا . وعلى أية
حال كان يأتي من اسبانيا جلود قرطبة التى ذكرت مع سائر الأشياء . انظر فى ذلك :

— Theodulfi Episc. Aurel. versus contra judices, V. 171-174, 211 et s.
éd. Dümmber, l. c, p. 498 et s.

Pollin de Lumina, Abrégé chronologique de l'histoire de Lyon : (٢)
Lyon 1767, p. 31.

Mém. de l'Acad. des Inscriptions, XXXVII, 475. (٣)

Peschel, Das Zeitalter der Entdeckungen, p. 8 ; en Saivator, Hist.
des échelles, du Levant, Paris 1857, p. 28. (٤)

تجرؤ على الخروج من أحد الثغور في الجنوب الشرقي والابحار الى الشرق الأدنى تقع في قبضتهم حتى قبل أن تصل الى أعلى البحر ، ذلك لأنهم كانوا يسيطرون على الجزر كلها تقريبا ، وأنشأوا أوكارا للقرصنة . ولم يكن من الصعب أن نعتقد في هذه الظروف أن التجارة البحرية بين فرنسا والشرق الأدنى توقفت تماما ، لذلك كان الحجاج الفرنسيون الذين يريدون الذهاب الى القدس يفضلون الذهاب الى إيطاليا ، وركوب السفن من أحد موانئها ، وينجون بذلك من عرب الغرب .

ولا يبدو مع ذلك حتى في هذه الفترة أن فرنسا قد انقطعت عنها تماما منتجات الشرق . فبقالو كامبريا Cambria مثلا كانوا يتزودون بوفرة من هذه المنتجات ، اذا كان صحيحا أن دير كوري Corie استطاع أن يحصل منهم على كل التوابل المبينة في مذكرة مكتوبة على ما يبدو بين عام ٨٢٢ و ٩٨٦ .

والغالب أن تجارا ايطاليين هم الذين زودوا فرنسا بمنتجات الشرق ، أما باجتيازهم . هم أنفسهم البلد (١) ، واما بتسليمها الى باعة بالتجزئة ، من الفرنسيين . وقد ادعى البعض أنه كان في ليموج في بداية القرن الحادى عشر مستعمرة حقيقية للتجار البنادقة ، ولكن هذه الواقعة مشكوك في صحتها ، ولا يعتمد أولئك الذين يرددونها الا على صحة كتاب لم يطبع ولم يعرف صاحبه ، يرجع الى عام ١٦٣٨ (٢) ، ويبحث في « آثار ليموج »

٧ - إيطاليا

ليس هناك بلد في أوروبا استورد منتجات الشرق بكميات ضخمة وأشكال شديدة التنوع مثلما فعلت إيطاليا ، ولذلك بواعث كثيرة : فهي أولا ، وبسبب موقعها الجغرافى كان لها صلات كثيرة مع الشرق ، وخاصة مع الامبراطورية البيزنطية ، وثانيا لأن الامبراطورية اليونانية كانت تملك إيطاليا السفلى ، ورافينا ، والبندقية ، وكان لهذا الجوار تأثير كبير في العلاقات المتبادلة ، كما كانت هناك حركة ذهاب واياب مستمرة بين روما والقسطنطينية ودامت هذه العلاقات الودية حتى القرون الأولى من العصر الوسيط ، لم يعكرها شيء الا فيما بعد ، في أعقاب المنازعات العقيدية ، والمنافسات الطبقية . وأخيرا راح البذخ في الطقوس الدينية ينمو باطراد في العاصمة الغنية ، عاصمة المسيحية الغربية . وكان لابد لاشباع هذا البذخ من أقمشة متألقة وكميات

Pardessus, Diplom., Chart. etc. II, p. 5.

(١)

Verneilh, L'architecture byzantine en France, p. 130 et s.

(٢)

كبيرة من العطور . الا أن الصناعة كانت متأخرة في العالم الجرمانى الرومانى ،
والتربة الأوروبية فقيرة لا تكفى لاشباع هذه المطالب .

لنتوقف قليلا عند هذه النقطة . ففي مستهل العصر الوسيط ، كانت
روما هى التى تتلقى وتستهلك القسم الأكبر من منتجات الشرق . ولا تشتمل
سير البابوات ، وبخاصة بابوات القرنين الثامن والتاسع (١) الا على القليل
من الأحداث التاريخية ، ولكنها على العكس من ذلك تزخر بمعلومات شديدة
الأهمية عن الموضوع الذى نبخته . والشئ الذى يحتل أكبر حيز فى هذه
السير هو كشف الهبات التى كان البابوات يمنحونها لمختلف الكنائس فى
روما ، من حليات ثمينة للقساوسة ، وأقمشة فاخرة ، وبسط ، وطنافس
لكسوة الحوائط والهيكل والعمد . وبالبحث فى هذه الكشوف عن مصادر
الأقمشة نجد بها أحيانا أقمشة صنعت فى روما أو جاءت من أسبانيا
العربية (٢) ، الا أن العدد الأكبر منها خرج من أيدي صناع الاسكندرية
أو بيزنطة . ولما كانت الاسكندرية ، ومصر بوجه عام خاضعة لسيادة العرب ،
فانه من الراجح أن الكثير من النساجين أو المطرزين العرب كانوا يعملون من
أجل أبهة العقيدة المسيحية ، دون أن يدركوا ذلك . كانت هذه الأقمشة
والبسط بوجه عام مغطاة برسوم الاسود والفيلة والنسور والدجاج والطاووس
والحيات الأسطورية ، والعنقاء (حيوان خرافى نصفه نسر ونصفه أسد) (٣) ،
والقارن (حيوان اسطورى بجسم حصان ، وله قرن وسط الجبين) (٤) الخ ،
منسوجة أو مطرزة ، ولكن لا جدوى من أن نحاول أن نجد فى كل ذلك رمزا
للمسيحية ، فلكل هذه الزخارف طابع شرقى غالب عند كل من العرب
والاغريق .

والأمر على خلاف ذلك تماما فى الأقمشة التى عليها صور الأشخاص ،
والتي تمثل أحداثا من التاريخ المقدس أو الأساطير أو الصلبان ، وفى هذه نجد
بداية أعمالا يونانية . ومن بين هذه الزخارف الكنسية نجد أمثلة من الأقمشة
القرمزية ، وليست الأسماء اليونانية المدونة على بعض المنسوجات نادرة
الوجود ، وهى من السمات الدالة على الأصل الشرقى . ولنتصور أيضا كميات
اللآلى والأحجار الثمينة التى تغطى الأشياء المكرسة للعبادة ، من صلبان
وغيرها ، وكمية البخور والعطور التى تحرق أثناء القداس . وفى الامكان أن

Anastasius Bibliothecarius, dans Vignoli T. II et III. (١)

Ibid II, 231, 243-245, 248; Stragulum hispanicum de fundatum et
stauracin, dans la Vie de St. Ansegius, abbé de Fontenelle, par Mabillon,
Acta ss. Bened. saec IV, pars I, p. 634.

(٣) المترجم

(٤) المترجم

نتصور مقدار ما تستهلكه مدينة روما وحدها من منتجات الشرق ، وكان الغرب كله يحذو حذو روما فيما يختص بالطقوس الدينية ، كما أن الكثير من الكنائس كان يطلب منها الأقمشة التي تحتاج إليها ، وكان الكثير من الأساقفة ورؤساء الأديرة يستغلون أداءهم الحج في روما ليشتروا بها أشياء يستعملونها في تجميل كنائسهم وأديرتهم . من ذلك أن بنوا Benoit رئيس دير ويرموث Wearmouth بانجلترا أحضر من روما قطعتين من قماش لا نظير لهما في جمال الصنع ، ولو أنهما استعملتا بعد ذلك لغرض خلاف الغرض الديني ، لأنه أعطاهما للملك اجفرايد Egfried نظير حصوله على قطعة كبيرة من الأرض (١) . كذلك كانت بعض الأشياء المكرسة للعبادة تنتشر في الكثير من الأحيان في الغرب على شكل هبات . من ذلك أن القديس بونيفاس St. Boniface قديس الألمان كان يتلقى من رجال الدين الرومان هدايا من عطور نادرة لتستعمل كبخور (٢) . وكان يخلط بالبخور أحيانا اصطرك ، وفلفل ، وزنجبيل مما يدل على أن روما كانت مزودة بوفرة من التوابل التي تستعمل لتتبيل الطعام أو بمثابة أدوية . ولكن برجوازي روما لم يتميزوا البتة بمزاولة نشاط تجاري كبير ، فكيف اذن حصلوا على تلك التوابل والأقمشة الثمينة ، اليونانية أو العربية الصنع ؟ أولا ، كان أباطرة روما الجديدة يرسلون في الكثير من الأحيان الى البابوات هدايا من أقمشة حريرية ثمينة خارجة من المصانع اليونانية ، ونجد برهانا لذلك في سير البابوات . غير أن هذا التفسير ليس بكاف ، لأن الأغلبية العظمى من هذه الأشياء كانت بالطبع مستوردة عن طريق التجارة ، وكانت إيطاليا غنية بالبحارة المتحسين ، والتجار الكفاء النشيطين ، وكان هؤلاء في كل الأزمان على اتصال باليونانيين ، ولكنهم لم يكونوا يترددون في عقد الصلات مع العرب ، بل أنهم زادوا في تألفهم مع العرب أكثر مما كان البابوات يسمحون بذلك ، اذ سرعان ما تبين أن بعض التجار المسيحيين لم يكونوا يتورعون ، لفرط ولعهم بحياة الترف ، أن يبيعوا اخوتهم في الدين بيع الرقيق لعرب أسبانيا أو أفريقية أو سوريا . واتخذ شارلمان ، ومن بعده البابوان زخاري Zacharie وأدريان الأول Adrien I إجراءات صارمة للقضاء على هذه التجارة الشنيعة (٣) . ألم تصل جرأة البنادقة الى درجة أن يشتروا في روما نفسها عبيدا من الجنسنيين ؟ (٤) غير أن تجارة سائر التجار كانت

(١) Beda, Vita S. Benedicti abbot. Wiremuth, primi lib. I, no. 9.

(٢) Jaffé, Bibliotheca rerum germanicarum, III, 156, 157, 199, 218, 231

(٣) Cenni, Monumenta dominationis pontificiae, I, 369 et ss.

(٤) Liber Pontificalis, vita Zacharioe papae éd. Vignoli, II, 79.

— كان هناك أيضا يونانيون ، من تجار الرقيق الذين يجولون بحرا على طول سواحل تسكانيا ، ومعهم لومبارديون يدفعهم الفقر الى الاستسلام لهم ، أو كان هؤلاء التجار يشترونهم .

تتمشى مع تجارة الرقيق الشنيعة . ومن المفيد البحث عما اذا كان التجار البنادقة هم أنفسهم الذى يحصلون على منتجات الشرق فى مقابل عبيدهم ، أو أنهم كانوا يشترون فقط هذه المنتجات ويذهبون بها الى روما . ومع ذلك لا ننسى الأماليين الذين ربما ينبغي ذكرهم قبل البنادقة عند البحث عن الأشخاص الذين كانت روما تتلقى منهم منتجات الشرق . ومدينة أمالفي أكثر قربا من روما منها الى البندقية ، وكان سكانها يزورون الشرق أسوة بالبنادقة . وسوف نرى ذلك بعد قليل .

نبحث الآن عن المدن الإيطالية التى كانت تمارس التجارة مع الشرق بهمة ونشاط فى الفترة التى نتحدث عنها ، ونبدأ بجنوب إيطاليا . كانت هناك طريقة لاختصار الرحلة الى الشرق الأدنى ، وذلك بركوب السفن من أحد ثغور ابوليا Pouille ، ومن ثم كان هذا الثغر ملتقى الججاج البراغيين فى الذهاب الى القدس مع قضاء أقل وقت ممكن فى بحر لجى خطر . وقد يكون أمرا غريبا لو أن التجارة لم تستغل هذا الظرف ، غير أن الحروب ، والتغيرات الكثيرة التى تطرأ على الحكام منعت مناطق السواحل زمنا طويلا من الاستمتاع بالهدوء اللازم لرحلتها . فمن جهة توغل اللمبارديون فى داخل إيطاليا ، ومن جهة أخرى نازع عرب صقلية سادتها القدامى ، الأباطرة البيزنطيين . وأخيرا نجح هؤلاء فى أواخر القرن العاشر فى بسط سيادتهم بصورة دائمة : وأصبحت بارى Bari مقرا لواليهم (الكاتابان Katapane) واستغل سكان المدينة ، وهم خليط من عناصر يونانية (١) هذا الوضع فى تنمية تجارتها مع وطنهم الأصلي . ولدينا فى هذا الخصوص دليل ، سلبى على الأقل ، فى مرسوم للأباطرة باسيل وقسطنطين ، بتاريخ ٩٩٢ ، يحظر على ربان سفن البندقية الابحار الى القسطنطينية وفى سفنهم تجار من بارى ومعهم بضائعهم مما ييسر لهؤلاء التجار التمتع بالمزايا الممنوحة للبنادقة اضرارا بخزانة الامبراطورية (٢) . والواضح أن الوثيقة لم تكن لتذكر أهالى بارى صراحة لو لم يكن لهؤلاء أية صلة بالقسطنطينية ، ولكنهم لم يقصروا رحلاتهم على العاصمة : ففى عام ١٠٨٦ ذهبت سفنهم وهى تحمل فاكهة وبضائع أخرى الى انطاكية . وكان من المحتمل أن تغدو هذه الرحلة نسيا منسيا ، كغيرها من الرحلات لو لم تقتصر بها تحفة تذكارية ثمينة أتى بها أهالى بارى وأصبحت موضع فخرهم . حدث ذلك أثناء عودتهم ، حين القوا مراسيهم عند ميرا Myra وهى مدينة فى ليكية Lycie كان المسلمون قد استولوا عليها ودمروها ، وانتهم أهالى بارى فرصة الفوضى التى سادت المدينة ، واختلسوا عظام القديس نقولا دو مير الشهير

Petroni, Storia di Bari, I, 35 et s., 103.

(١)

Taf. et Thom. I, 38.

(٢)

St. Nicolas de Myre وعادوا بها الى بارى (١) حيث نزلوا ثمة في شهر مايو ١٠٨٧ (٢) . وفي زمن هذه الحملة كانت انطاكية في أيدي المسلمين ، ثم أن سوريا العربية المسلمة كانت بلدا مألوفاً لدى بحارة بارى : فعند عودة بعثة الحج المشهورة التي أعطت الحافز النهائي للحركة التي أدت الى قيام الحرب الصليبية الأولى ، وجد بطرس الناسك على ساحل سوريا سفناً تجارية من بارى استقلها عائدا الى بلده (٣) . وربما كان أصل هذه العلاقات التجارية بين سكان بارى وعرب الشرق يرجع الى الفترة القصيرة التي كانت فيها مدينة بارى خاضعة لسيادة أحد السلاطين (٨٤٢ - ٨٧١) ، غير أنه من الصعب اثبات ذلك بصورة ايجابية . ومع ذلك فانا نطالع في التواريخ القديمة أن هذا السلطان نفسه منح ذات يوم حاجا فرنسيا ، هو ناسك اسمه برنار Bernard بناء على طلبه نوعا من جواز السفر (وبه وصفه) يضمه لدى حكام الاسكندرية والقاهرة . وتزود برنار بجواز السفر هذا وركب سفينة عربية في تارانتو (٤) Tarente قاصدا الاسكندرية . ويبدو لنا بهذه المناسبة أنه اذا كان حاج فرنسي قد جرؤ على ابداء هذا الطلب للسلطان ، فلا بد أن بحارة بارى وتجارها كانوا أقل منه تخوفا من حيث تقديم مثل هذا الطلب للسلطان ، ولابد أن السلطان من جانبه كان يعطيهم عن طيب خاطر مثل هذا الجواز ، لأن هذا الجواز بالنسبة اليه مصدر للإيراد . ويحتمل أن تكون مدن تراني ، وبرنديزي ، وتارانتو كذلك قد أرسلت من قبل الى الشرقا قبل الحروب الصليبية سفناً تجارية ، غير أنها لم تكتسب أهمية في هذا الشأن الا فيما بعد . ولسنا نستثنى من ذلك مدينة تراني رغم ما يقوله البعض في ذلك . وقد تكلم البعض كثيرا عن القانون البحري الذي كان ساري المفعول هناك ، والمؤرخ عام ١٠٦٣ ، ولكن هذا القانون لا يحوى أى حكم خاص بملاحة الشرق الأدنى (٥) ومن جهة البحر التيراني (يترهينيا) ، نجد مجموعة من المدن الساحلية التي تميزت

- (١) هناك روايتان عن هذا النقل ، كتب احدهما رئيس الشمامسة جان دوبارى Jean de Duri بامر رئيس الاساقفة أورسو Urso (١٠٧٨ - ١٠٨٩) ، والثانية الفها الراهب نيقفور Nicéphore الأولى نجدهما فى سورديوس : Surus, De probatis ss. historis, VII, 397 et ss. والثانية فى فالكونيوس : Falconius, S. Nicolai acta primigenia, Neap. 1751, p. 131 et ss.
- (٢) نجد هذه الواقعة مذكورة ببضعة سطور فى : — Lup. Protosp., Pertz ss. V, 62, Cf. Petroni, Storia di Bari, I, 197 et s. Alb. Aq. I, 2, Guill de Tyr, I, 12.
- (٣) Bernard, monach, franc. dans Tobler et Molinier, I. c. p. 310.
- (٤) Alianelli : Delle antiche consuetudini e leggi marittime delle provincie Napolitane, Nap. 1871 ; et dans le Blackbook of Admiralty, éd. Twiss, Lond. 1876.

عن غيرها بما فى سكانها من روح الاقدام والمغامرة : سالرنو ، وأمالفى ، ونابولى ، وجائيتو . كانت سالرنو تابعة للأمراء اللومبارديين ، أما المدن الأخرى فكانت خاضعة خضوعا اسميا لسيادة الأباطرة اليونانيين ، ولكنها فى الواقع كانت تنتخب بنفسها رجال السلطة من بين أفراد الأسر النبيلة فى المدينة ، على اختلاف ألقابهم Profecturi, comites, hypati, duces وغيرهم . ولم تنكر القسطنطينية سلطتهم ، حتى حين أدعى أصحاب هذه السلطة حقهم فى توارثها .

وكان فى مقدور أصحاب السلطة هؤلاء ، وهم يملكون حرية التصرف أن يرضوا بمطلق الحرية طموحهم وحبهم للكسب . لذلك فانهم ، على غرار جيرانهم الأمراء اللومبارديين ، لم يترددوا فى التحالف مع المسلمين حين أقبل هؤلاء ووطئوا بأقدامهم أرض القارة الأوروبية . وفى البداية ، كانت الضرورة هى التى تبرر هذه التحالفات ، وكانت هذى هى الطريقة الوحيدة ليتجنبوا غاراتهم . ولكن فيما بعد وصل الأمر بهذه المدن الى الاستعانة بالعرب جهارا ، أما للقيام بمساعدتهم بشن حملات لم تكن فى الواقع سوى غارات للسلب والنهب ، وأما للدفاع ضد بعض الجيران الأقوياء . ويتبين من وثائق هذا العصر (١) أن الامبراطور لويس الثانى ، حين اتهم نابولى بأنها أصبحت بمثابة « بالرمو » أخرى ، أى تابعة لأفريقية ، كان على حق ، لأنها (أى نابولى) كانت توفر للقراصنة العرب مأوى آمينا ، ونقطة انطلاق مريحة لرحلاتهم البحرية ، وتزودهم بالأسلحة والمؤن ، وتقسم معهم الأسلاب (٢) . وفى عام ٨٧٥ عقد أمراء سالرنو ونابولى وجائيتو وأمالفى تحالفا مع العرب ، ونهبوا معهم الاقليم الرومانى . وبذل البابا يوحنا الثامن كل ما فى وسعه من وعد ووعد للقضاء على هذا التحالف ، ولكنه لم ينجح الا فى اخراج ويفرى Waifre أمير سالرنو من الحلف ، أما بالنسبة للآخرين ، فان حرمان الكنيسة الموقع عليهم لم يكن الا سلاحا كليل (٣) . وأدرك البابا بدهاء أنه بالنسبة الى أهالى أمالفى لم تكن التهديدات بالحرمان الكنسى كافية ، لذلك أضاف بالنسبة اليهم خاصة أنهم اذا لم يتنازلوا عن هذا التحالف فانه سوف يخلق فى وجه سفنهم التجارية كل الموانئ التى اعتادوا الدخول فيها (٤) . وأخيرا تمكن فى عام ٩١٦ من حشد جيش من اليونانيين والايطاليين طهر أرض ايطاليا من هؤلاء الغزاة المرعبين ، وفى

Chron., Salern., dans Pertz, ss. III, 521, 527.

(١)

Chon., Salern., dans Pertz, ss. III, 526.

(٢)

Mansi, Coll. concil., XVII, p. 34-38, 41, 44, 45, 58, 62, 157 et s., 167, 169, 177, 196 et s., 215, 243; Chron., Salern. p. 531;

(٣)

Erchemperti, Hist. Longob., dans Pertz, ss. III, 253-258, 261.

Mansi, Loc. Cit. p. 178.

(٤)

اللحظة الحاسمة انقلب دوقات نابولي وجائيتو وأمالفي أنفسهم في صفوف المسيحيين ولكن المؤرخ لم يفقه وهو يذكر أسماءهم أن يضيف أنهم كانوا قبل ذلك أعوانا للعرب (١) . هذا اللاحاح من جانب سكان نابولي وجائيتو وأمالفي على المحافظة على تحالفهم مع العرب يجد له تفسيراً صحيحاً في علاقاتهم التجارية، وعندنا في هذا الخصوص دلالات ثابتة بالنسبة إلى أهالي نابولي : ففي عام ٨٣٦ عقد سيكارد Sicard أمير بنيغتو Bénévent معاهدة سلام مع نابولي ، ولكنه اشترط أن يمتنع أهالي نابولي عن شراء رعايا لومباردين ثم بيعهم في الجانب الآخر من البحر ، وهذا برهان جديد على أن النابوليين كانوا يتاجرون في الرقيق مع البلاد الإسلامية ، ويستوردون في مقابل ذلك منتجات تلك البلاد (٣) . نرى بالمثل في حوالي عام ٨٧٠ أهالي أمالفي يزاولون التجارة بنشاط مع العرب ويشهد بذلك أنه في عام ٨٧١ حين بعث الأمير الأغلبى محمد بن أحمد مولاه عبد الله ليغزو سالرنو ، كان ثمة أفريقي يقر بجميل اسداه إليه أمير سالرنو ، فحذر الأمير عن طريق أحد أهالي أمالفي ويدعى فلورس Florus (من الغزو) .

وكان فلورس هذا موجوداً وقتئذ في أفريقيا مع بعض مواطنيه في شئون تجارية ، وشهد كل تجهيزات الحملة دون أن يعتريه شك في الغرض منها (٤) . وكان الأسطول يتجمع غالباً في « المهدية » ميناء القيروان الأهلة بالسكان ، مقر الأمراء الأغالبة . وكان الساحل الأفريقي الشمالى يجذب إليه الأمالفيين بطبيعة الحال ، حيث كانت العلاقات التى أقامها هؤلاء مع العرب تمهيداً ممتازاً للعلاقات التى وثقوها فيما بعد مع العرب في مصر وسوريا . وثمة عقد تجارى أبرم عام ٩٧٣ بين عدد من الأمالفيين في سالرنو ، أى بعد انقضاء أكثر من مائة عام على الحدث الذى ذكرناه آنفاً ، هذا العقد هو أقدم برهان لدينا على « رحلات إلى مصر لأعمال تجارية » قام بها هؤلاء الجماعة من البحارة ، ونرى في العقد أن مفعوله لا يسرى إلا عند عودة أحد المتعاقدين ، وكان موجوداً في تلك الآونة في بابلون ، أى في القاهرة (٥) .

وهكذا فمنذ القرن العاشر ، ربما قبله ، كان لتجارة أمالفي فروع تصل

(١) Lec Marsicanus, Chronic. monast. Casin, dans Pertz, ss. VII, 616 et s.

(٢) Capitulare Sicardi, dans Pertz, Legg. IV, 218.

(٣) من ناحيه أخرى ، رأى فيليبالد Willibald اسقف ايشتات Eichstaedf الذى

اشتهر بحجه الى القدس ، رأى عام ٧٢٢ في ميناء نابولي سفينة قادمة من مصر .

(٤) Chron. Salern., loc. cit., p. 528, et Amari, Storia dei Musulmani di Sicilia, I, 383 et ss.

(٥) De Blasio, Séries principum Longob. Salern.

الى الاسكندرية ، والى القاهرة ، وفي الوقت نفسه كان فى مقدور كل تاجر أمالفي أن يرتاد كل أنحاء الامبراطورية اليونانية دون أن يصادف أى عائق : فمع أن هذه المدينة لم يكن بداخل أسوارها حاكم معين من قبل بيزنطة ، وكانت تنتخب حكامها (الذين نالوا فى النهاية لقب دوج) من بين الأسر القديمة فى المدينة ، فانها كانت تقرر للامبراطور اليونانى بالسيادة ، ودام هذا الوضع حتى عام ١٠٧٣ (١) . حقا ، ان نفوذ الامبراطور كان قاصرا على منح الشخصيات الرئيسية فى المدينة الألقاب اليونانية ، وهى ألقاب فخريه فحسب ، ورغم ضعف تبعية المدينة سياسيا للامبراطور اليونانى ، فان المدينة كانت مع ذلك تسمح لعدد كبير من الأمالفيين بالخدمة فى الجيش الامبراطورى (٢) ، كما استقر الكثير منهم فى القسطنطينية بصفتهم تجارا ، وكان لهم فيها حوانيت ، ويشكلون طائفة دينية مستقلة كما سوف نرى . وكان الأمالفيون يستوردون الى الغرب المنتجات اليونانية ، ويتنافسون فى ذلك مع البنادقة ، ويحصلون على الأقمشة القرمزية التى كان خروجها (من اليونان) محظورا بنوع خاص ، ويتاجرون فيها .

وفى غضون الأربعين سنة التى سبقت الحروب الصليبية ، يتجمع كل ما نعرفه عن علاقات أمالفي بالقسطنطينية ، وكذا بسوريا ومصر حول تاريخ اسرة واحدة كانت من أغنى وأنبل الأسر فى المدينة (٤) ، ويرجع أصلها الى الكونت مورو Mauro . وهناك من وجهة بحثنا هذا عضوان فى هذه الأسرة لعبا دورا هاما : موريوس Maurus وابنه الأكبر بانتاليون Pantaléon وكان للاثنيين مكانة كبيرة فى القسطنطينية ، ويملكان بها منزلا مجهزا بأثاث فاخر (٥) ويقرن المؤرخون والسجلات دائما باسم بانتاليون لقبى بطريق وقنصل (هيباتوس) (٦) اللذين منحهما اياه الأباطرة . كذلك فانه وضع نفوذه فى خدمتهم ، وعمل على تكوين تحالف للقضاء على سيادة النورمان فى ايطاليا . وفى عامى ١٠٦٢ ، ١٠٦٨ ضاعف جهوده ، اما بالرسائل أو بشخصه ليجذب

(١) فى أواسط القرن الحادى عشر ، نشبت ثورة أمالفي ، طرد اثنائها أحد دوجات المدينة ، فلجأ الدوج الى الامبراطور قسطنطين الثانى مونوماكس ، وبمساعده استعاد منصبه ، أنظر : Camera, Mémoire di Amalfi, I, 243, 250 et s.

Liutpr. Legat. Cpol dans Pertz SS. III, 357. (٢)

Liutpr. ibid, p. 359. (٣)

(٤) سبق أن نشرت دراسة عن هذه الأسرة وأهميتها ، وبخاصة من الوجهة التاريخية والفنية فى : — Deutsche Kunstblatt, IX (1858) p. 233 et s.

كذلك تحدث ستيريك Strehlke فى هذا الخصوص بكثير من التفصيل .

Aimé, l'ystoire de li Normant, publ. p. Champollion - Figeac, (٥) p. 231.

Schulz, Denmäler, II, 248. (٦)

البابا المزيف هونوريوس الثاني (كادالوس) ، ويحمل بوساطته البلاط الألماني (أوصياء الملك هنري الرابع) على التعاون ضد النورمان (١) مع الامبراطور اليوناني قسطنطين العاشر دوكاس . وعندئذ جمع الامبراطور فرقا عسكرية في la Pouille « بوليا » لايقاف غزوات النورمان (٢) ، وعمل موريوس لنفس الغاية التي عمل لها ابنه ، وساعد بنصائحه جيزولف Gisulf دوق سالرنو ، وعندما مر هذا الأمير بالقسطنطينية بحجة أداء الحج بالقدس ، ولكي يحمل الامبراطور اليوناني على اعلان الحرب على النورمان ، كان موريوس أيضا هو الذي استضافه في منزل ابنه بانتاليون (٣) . وفشلت محاولات الاثارة هذه ، واستمرت السيطرة النورماندية تتسع وتتوطد ، بل وأسهمت أمالفي كثيرا في ذلك ، أولا بخضوعها عن طيب خاطر لروبرت جيسكار Robert Guiscard (١٠٧٦) (٤) . غير أن بانتاليون ترك عن نفسه ذكريات طيبة أكثر دواما في مجال آخر ، بعيدا عن السياسة . ذلك أنه تحت تأثير مشاعر دينية سامية راح يمنح الكنائس والأديرة في جنوب إيطاليا هبات فاخرة . وكانت هبته المفضلة تتمثل في أبواب برونزية فخمة من صنع مسابك القسطنطينية ، وهب منها أولا لكاتدرائية المدينة التي ولد فيها (قبل ١٠٦٦) ، ثم لكنيسة القديس بولس المشهورة خارج أسوار روما (١٠٧٠) ، وأخيرا لكنيسة سنت ميشيل التي يحج إليها الناس على جبل جرجانو بالقرب من ما نفيرونيا Monfredonia (١٠٧٦) . ولابد أن هذه الروائع من ابداع الفنانين البيزنطيين ، المنقولة الى إيطاليا والمعروضة في أماكن يرتادها خلق كثيرون كان لها أثر كبير في تقدم الفن (٥) . فما أن ثبتت أبواب كاتدرائية أمالفي في مكانها حتى صور

(١) Benzo, Panegyricus, dans Pertz, ss. XI, 615, 622, 623, 626 et ss.
Giesebrecht : Annal Altah, p. 216, not. 2; De Blasiis, La insurrezione Pugliese e la conquista Normanna, II (Napl. 1864), p. 88 et s.

De Blasius, op. cit., p. 64 et s., 82 et s.

(٢)

Aimé, op. cit. p. 129 et ss. 231.

(٣)

- يبدو أن هذه الرحلة جرت بين سنتي ١٠٦٢ ، ١٠٦٦

(٤) بخصوص تحديد هذه التواريخ انظر :

— Weinreich, De conditione Italioe inferioris Gregorio VII pontifice (Regimont 1864), p. 34 et ss., 89 et ss.

(٥) انظر شولز Schulz ومقال اونجر Unger في الفن اليوناني في العصر

— l'Encyclopédie générale de Ersch et Gruber, sect. I, Vol. LXXXIV, p. 438 et s.

- لعل هذه الأبواب وأشبابها ، التي صنعت لكنائس ايطالية مختلفة على نمط أبواب بانتاليون قد ركبت في إيطاليا ، واستعمل في تركيبها صفائح من البرونز ، لعلها يونانية الصنع ، استوردتها تجار أمالفيون .

دزیدريوس Désidérius رئيس ديرمون كاسان نسخة منها وطلب أن تصنع أبواب مثلها في القسطنطينية (١) ، وأرسل مقاسات أبواب مصلى ديريه ! وتكفل موريوس ، أبوبانتاليون بكل النفقات (٢) . وفي هذه الآونة كانت مباني الدير البدائية مازالت قائمة . وإذا كان القس دزیدريوس قد رأى أنه لتجميل الدير يجب الاستعانة بفنانين أجانب ، فانه يمكن تصور ما كان يدور بخلفه في هذا الخصوص حين شرع في إعادة بناء الدير بأحجام كبيرة ، ولابد أن العمل غير المتقن الذي كان يؤديه الصناع الأمالفيون واللومبارديون كان يبدو له غير كاف في هذا الشأن ، لذلك استقدم من القسطنطينية والاسكندرية فنانين من اليونانيين والعرب ، وبخاصة في أشغال الموزايك (الفسيفساء) التي يتفوق فيها هؤلاء بكثير على الايطاليين (٣) . ومن المرجح أنه حين يقتضى الأمر استخدام عمال من بلاد بعيدة على هذا النحو ، فان التجار الأمالفيين كانوا هم الذين يتكفلون باحضارهم . وحين أراد دزیدريوس الحصول على أشياء لازمة لأثاث الكنيسة بعث الى القسطنطينية بأحد رهبان ديريه ومعه مبلغ من المال وخطاب توصية للامبراطور لكي يتولى السباكون والصاغة والرسامون اليونانيون صنع الأشياء التي تتطلب دقة كبيرة ليس في قدرة الصناع الوطنيين ، والمتعهدين العاديين لشئون الدير أن يصلوا اليها (٤) .

ولنعد الى بانتاليون . ان الألقاب التي تنسب اليه تثبت أنه كان يشغل مركزا كبيرا ، ومع ذلك لا يحتمل أن يكون على رأس حكومة أمالفي ، فلدينا القائمة الكاملة لدوجات هذه المدينة (٥) ، وليس بها هذا الاسم . ويمكن على العكس من ذلك أن نفترض أنه كان على رأس «الجالية الأمالفية في القسطنطينية» لفترة معينة على الأقل (٦) . وكانت هذه الجالية موجودة بالفعل ، وها هي معلومة تاريخية تثبت ذلك : فحين سافر جيزولف دوق سالرنو لأداء الحج ، كما رأينا من قبل ، كان في صحبته الفانس *Alfanus* اسقف سالرنو ، وبرنارد ،

(١) *Leo Ostiens. Chron. Casin, dans Pertz, ss. VII, 711.*

(٢) تبين هذه الواقعة من الكتابة التي تذكر موريوس *Maurus* باعتباره الراهب .

— *Schulz, Denkmäler, II, 116 et s.* أنظر :

(٣) *Aimé, p. 105. Leo Ostiens, op. cit., p. 717-718.*

(٤) *Leo Ostiens, Chron. op. cit., p. 722 et s.*

(٥) *Camera, Istoria della città e costiero di Amalfi (Napoli 1836), p. 149.*

et s.; *Memorie di Amalfi (Salerno 1876) p. 251 et s.*

(٦) *Caravita, I, codici e le arti a Monte Cassino, I, 194.*

يظن كارفيتا أيضا أن بانتاليون كان أحد القناصل البحريين لحدى المستعمرات التجارية في الشرق

أسقف بالرمو الذى توفى بالقسطنطينية ودفن بها فى الدير الأمالى (١)، وهو اما دير القديس سوفير St. Sauveur المذكور فى قائمة قديمة برؤساء أساقفة أمالفي وأما دير القديسة ماريا دى لاتينا Santa Maria de Latina الذى أعطى البابا الكسندر الرابع بخصوصه فى عام ١٢٥٦ خطابات توصية لم تزل موجودة الى الآن (٢) . واذا كان للأمالفيين أديرة خاصة بهم فى القسطنطينية (٣) ، فذلك بالتأكيد لأنه كان بها جالية من أصل أمالفي . ويحكى أنه (٤) فى حوالى عام ١٠٨٤ دخل دير مون كاسان نبيل أمالفي فأهدى للدير قطعة من الصليب الحقيقي الذى كان ضمن نصيبه من الغنيمة التى حصل عليها فى القسطنطينية، ولا يمكن أن يكون الشخص الذى ينسب اليه هذا الخبر أحد الأفراد المغامرين .

وسوف نحاول أن نتتبع خطوة خطوة آثار هذه الأسرة الأمالية النبيلة . نجد أولا أن آثار أعمال البر المسيحية التى ألهمت موريوس قد امتدت الى أنطاكية حيث أسس بها مستشفى تعهدا بالرعاية من ماله الخاص (٥) . وبترتيب المعلومات المتناثرة فى تاريخ أماتوس Amatus الذى نستقى منه هذه المعلومة ، نرى أن تأسيس هذا المستشفى كان لصالح الحجاج الغربيين : الا أن انطاكية لم تكن مكانا للحج بالنسبة الى الغربيين ، ومن جهة أخرى لم تكن بالنسبة الى المسافرين الذين يقصدون القدس تحولا بعيدا عن الطريق المباشر ، حتى ان القليل من هؤلاء المسافرين كانوا يمرون بها . من الراجح اذن أن موريوس أراد ببناء هذا المستشفى استقبال واستضافة مواطنيه الذين تجذبهم التجارة الى هذه السوق السورية الكبيرة (٦) . ويزودنا جويوم (وليم) Guillaume (من صور) برأى يعزز هذا الافتراض : فقد تبين له أن الأمالفيين كان لهم قبل الحروب الصليبية فنادق فى موانئ سوريا ، وهذا ما لا شك فى أنه أوحى اليهم الرغبة فى أن يكون لهم ملجأ ومكان للاجتماع شبيه ببيت المقدس . والواقع أنهم كثيرا ما كانوا يذهبون الى هناك اما لأعمالهم أو لزيارة الأماكن المقدسة ، أو للغرضين

Aimé, p. 129 et s.

(١)

كذلك الكتابة الصغيرة التى ألفها الناس Alfamus ونقشها على قبر رفاقه فى الرحلة : النظر : — Giesebrecht, De litter. stud. ap. Ital. p. 37 et s.

Ughelli, op. cit., p. 222 et s.

(٢)

(٣) كان يوجد أيضا فى جبل أتوس Athos دير أمالفي شيد فى القرن العاشر . حظى بامتيازات من البابا الكسيس ، ويوحنا كومنينوس .

Petr. diac. Chron. monast. Casin. dans Pertz, SS. VII, 742.

(٤)

Aimé, p. 231.

(٥)

(٦) فى القرن التاسع ، نجد خلفاء لشخص يدعى Maurus Vicarius Antiochenus أو Antiochia يحملون لقب كونت على رأس حكومة أمالفي ، ومن ثم يبدو أن العلاقات بين أمالفي وانطاكية ترجع الى عهد بعيد .

كليهما . ولكن كان من الضروري لاقامة منشأة من هذا النوع في بيت المقدس . الحصول على تصريح من الخليفة في مصر ، وكان الأمالفيون في أحسن وضع يتيح لهم الحصول على مثل هذا التصريح ، لأن علاقاتهم التجارية بمصر ترجع الى زمن بعيد ، وكانوا يجدون في مصر كل ترحيب لأنهم يجلبون اليها من الغرب أشياء يطلبها المصريون والسوريون . لذلك فما أن علم الأمير الفاطمي الحاكم وقتئذ برغبتهم هذه حتى خصص لهم مساحة كبيرة في الحي المسيحي بالقدس . وللحال شرعوا في العمل ، وسرعان ما ارتفعت مباني دير سنتا ماريا دي لاتينا (١) التي كانت تستضيف أيضا الأمالفيين عند وصولهم . وكان هذا الدير خاصا بالرجال ، فالحق به فيما بعد ، كما يروى جويوم الصوري دير للنساء يستخدم كذلك ملجأ لنساء أمالفي . وشيد أخيرا بناء خاص للحجاج الغربيين الفقراء والمرضى دون تمييز بينهم من حيث الموطن . وكانت هذه المنشآت كلها قبل أن تقع المدينة في أيدي الصليبيين تعتمد في انفاقها على حصيلة الصدقات التي كان الأثرياء الأمالفيون يرسلونها الى القدس أو يتركونها هناك في نهاية اقامتهم بها . ويبدو أن رواية جيوم الصوري (٢) التي استقينا منها هذه المعلومات جديرة بالثقة ، ومع ذلك فهناك نقطة ليست صحيحة كل الصحة : ذلك أن الأمالفيين لم يكونوا مؤسسي كنيسة القديسة ماريا دي لاتينا ، بل انهم هم الذين رموها . ففي وثيقة لعام ٩٩٣ (٣) نجد اشارة الى كنيسة بهذا الاسم في بيت المقدس ، تملك أموالا مختلفة في ايطاليا ، ويرجع أنها هي التي شيدها شارلمان . ولما كان موقعها بجوار كنيسة القديس سيبولكر St. Sépulkre فانها هدمت حين هدمت هذه الأخيرة بناء على أمر أصدره في لحظة تعصب ديني الخليفة الحاكم بأمر الله (١٠١٠) . وعلى أية حال فانها اذا كانت قد تهدمت فان الأمالفيين أعادوا بناءها في نفس الموقع . ولم يحدد جويوم الصوري العصر الذي تم فيه البناء ، ويجعله الكونت دو فوجيه de Vogüé (٤) بين ١٠١٤ ، ١٠٢٣ ، وهذا خطأ بين لأن المساحة المخصصة للأمالفيين ليقيموا عليها المباني الجديدة واقعة في الحي المسيحي . ولكن حتى عام ١٠٦٣ كان مسيحيو بيت المقدس يعيشون متفرقين في المدينة ، وفي تلك السنة فقط نشر الخليفة المستنصر بالله المرسوم الذي يجبرهم على الاقامة في حي محدد (٥) . وعلى ذلك

Sanuto, Secr. fidel cruc., p. 178.

(١)

Lib. XVIII, cap. 4, 5.

(٢)

Martène, Coll. vet. monum., I, 347:

(٣)

هذه نسخة رديئة ، مأخوذة من نص يعتبره السيد ريو Riout أنه النص الأصلي :

Mém. de l'Acad. des inscr XXXI, 2 (1884) p. 151. et ss.

— Les Eglises de la terre sainte, p. 249.

(٤)

Guill. de Tyre; lib. IX, cap. 18.

(٥)

لا يمكننا أن نسلم بأن بناء هذه الأديرة والفنادق كان سابقا على عام ١٠٦٣ ، كذلك لا يمكن أن يكون لاحقا على عام ١٠٧٠ (١) ، لأن في هذه السنة طرد الأتراك الخليفة من بيت المقدس . حقا ، انه في هذه المرة لم يلبث أن عاد الى المدينة ، ولكنها انتزعت منه نهائيا في عام ١٠٧٨ ، وبالتأكيد لم يعمل الأتراك حسابا لامتيياز منحة العاهل المصري للأمالفيين . وعلى أية حال فان المباني كانت موجودة في عام ١٠٨٠ : ذلك لأن يوحنا أسقف أمالفي حين زار القدس في تلك الآونة رأى هناك ملجأين للرجال والنساء ، شيدهما مواطنوه منذ بضع سنين (٢) ، والثابت أن هذين الملجأين لا يمكن أن يكونا غير النزليين الملحقيين بالديرين . ومن جهة أخرى ، فان المنشأة الأخيرة ، أى الملجأ المخصص للحجاج الغربيين الفقراء والمرضى دون تمييز بسبب الجنسية لا يمكن أن تكون قد شيدت بعد عام ١٠٨٠ ، فالواقع أنها كانت منذ أعوام ١٠٨٣ - ١٠٨٥ معروفة تماما في الغرب ، حتى لقد وهب لها عدة أراضى واقعة في الألبيجوا l'Albigois (في جنوب فرنسا) ، بل ان شخصا يدعى انسيلينوس Ancelinus كان مكلفا هناك بتسليم هذه الهبات وتبدير شئونها (magister domus hospitalis) (٣) .

وسرعان ما اتسع نطاق هذه المنشأة بتأثير غايتها العامة ، وأصبحت مهدا لرهبة القديس يوحنا الغنية القوية ، في حين أن الأديرة التي نشأت منها ولا تستقبل سوى الأمالفيين ، أو بالأكثر الايطاليين لم تلبث أن انحط شأنها . وعلى ذلك كان التجار الأمالفيون يتولون الانفاق على منشآت خاصة في القدس العربية ، لا لاستعمالهم الخاص أو لاستعمال مواطنيهم ، وانما أيضا لصالح الحجاج الغربيين كلهم ، ويجد هؤلاء في هذه المنشآت معونات دينية ومادية أكيدة ، وعلاجا في حالة المرض ، واحسانا في حالة العوز . ويقول جويوم الصورى ان كل التجار الأمالفيين الذين يذهبون الى القدس يسهمون بتقديم صدقات كبيرة ، اما لتأسيس هذه المنشآت أو للانفاق عليها . الا أن فقرة من سانوتو Sanuto (٤) تنبئنا بأن واحدا منهم شيد على نفقته الخاصة دير القديسة ماريا لاتينا . ويمضى أماتوس Amatus الى أبعد من ذلك ، فيذكر اسم ذلك التاجر الكريم : فهو موروس أبو بانتاليون . ويقول هذا المؤرخ ان موروس شيد مستشفى في القدس ، وخصص إيرادات كبيرة للانفاق عليها ، ولعل أماتوس كان يقصد بذلك النزل الملحق بدير القديسة ماريا لاتينا أو المنشأة التي أصبحت مهدا

(١) حدد الكونت ريان Riant بحق هذا التاريخ باعتباره انه الحد الأقصى : Arch. de l'or. lat., I, 28.

(٢) la Petite chronique d'Amalfi, dans Ughelli, Ital. sacra VII, 198.

(٣) Actes des Archives de Toulouse, communiqués par Saige, dans

la Bibliothèque de l'Ecole des chartes, Série V, T. V p, 552 et ss.

Secr. fidel cruc. dans Bongars. II, 178.

(٤)

لرهبنة القديس يوحنا (١) . وعلى أية حال فسواء أكان موريوس هو الذى أسس أقدم هذه المنشآت أو أحدثها ، فإنه يكفينا أن نعرف النصيب الذى اضطلع به فى إقامتها لكى نضع حدودا زمنية للبحث الذى نجره حاليا ، ذلك لأننا نعلم أن موريوس ، بعد أن انسحب من العديد من الاعمال التى اشترك فيها ، تهرب فى عام ١٠٧١ فى أحد الاديرة تأهبا للقاء ربه (٢) .

أوضحنا أن تجارة الأمالفيين كان لها فروع فى قسم كبير من البلاد المشرفة على البحر المتوسط . هذه التجارة أثرت أمالفي ، وكدس تجارها فى مخازنهم أندر السلع وأثمنها ، وكان التحرير بها متوفرا بنوع خاص (٣) . وذات يوم كان دزيديوس رئيس دير مونت كاسان ينتظر زيارة الملك هنرى الرابع ، فاشترى من أمالفي ، اكراما للملك عشرين قطعة من التحرير المسمى *triblattia* (أرجوانى ثلاثى الألوان) ، ويشير هذا الاسم اليونانى الى البلد الذى صنع فيه هذا التحرير (٤) . ويحملنا هذا الخبر على الاعتقاد بأن دير مونت كاسان كان يأخذ عادة من أمالفي سلع الشرق الأدنى التى هو فى حاجة اليها ، ويمكن أن نفترض أن تجار أمالفي هم الذين استوردوا قماش أغطية المذبح الحريرية من بيزنطة وأفريقيا ، وشموع القاهرة (بابلون) التى وهبها القس تيوبالد Théobald فى بداية القرن الحادى عشر الى دير القديس ليبراتورى St. Liberatore بالقرب من كيتيى Chieti ، الفرع التابع لمونت كاسان (٥) . وسبق أن أوضحنا أن روما كانت على الأرجح تستورد من أمالفي الكميات الكبيرة التى تحتاج اليها من سلع الشرق .

ولسوء حظ الأمالفيين ، لم يستند الوضع السياسى الذى كان أقوى عوامل رخائهم التجارى . ويتلخص هذا الوضع فى كلمتين : فى الداخل استقلال فى ادارة شئونهم ، وفى الخارج تبعية اسمية تقريبا للامبراطورية اليونانية . ولما

(١) Strehle, dans la Zeitschrift für christliche Archölogie und Kunst, de Quast et Otto, II, (1858), p. 118-120.

- وينسب الى بانثاليون انشاء مستشفيات انطاكية والقدس ، ولكن يبدو لى أن المؤرخ لم يصل الى هذه النتيجة الا بتحريف معنى النص .

(٢) Aimé, p. 232.

(٣) Guill. Ap. I.C.V. 478.

- يصف آماوس ، ص ٣٨ أمالفي بأنها « مدينة زاخرة بالذهب والتحرير »

(٤) Leo Ostiens, I. c. p. 711.

- كان دير مونت كاسان يشتري أقمشة صوفية من بيزا ، بفضل امتياز كان للكونتس ماتيلدا

التسكانية : Tosti, Storia della badia di Monte Cassino, II, 426 et s.

(٥) Murat. Antiq. it. IV, 767 et ss.

كانوا ضعفاء لا قبل لهم بمقاومة جيرانهم الأقوياء ، فان هؤلاء الجيران ما لبثوا أن سحقوهم . ففي عام ١٠٣٩ استولى جوايمار الرابع Guaymar IV أمير المبارد قبل الاخير على أمالفي . وفي عام ١٠٥٢ ثار القسم الأكثر استقلالاً في الطبقة البورجوازية ، وظن أنه تخلص من السيطرة التي كان خاضعاً لها بقتله جوايمار، ولكن محاولته فشلت إذ بسط جيزولف Gisulf ابن جوايمارسياد على المدينة بمزيد من القسوة . ولما كانت أمالفي عاجزة عن استرداد حريتها بمفردها ، فانها التمسست معونة روبرت جيسكار الدوق النورماندي (١٠٧٣) . وسقطت سالرنو ، وأبعد جيزولف عن عرشه ، وفي (١٠٧٦ - ١٠٧٧) ، ولكن أمالفي فقدت استقلالها إلى الأبد، وعاشت الجمهورية ، واندمجت في المملكة النورماندية (١) . وقضى هذا التغير السياسي قضاء تاماً على تجارة أمالفي مع الشرق الأدنى .

والمعروف أن النورمان كانوا أعداء اليونانيين الألداء ، فلم يكتفوا بطردهم من إيطاليا ، ولم يلبثوا أن هاجموهم في عقر ديارهم . وعلى ذلك فمنذ أن لم يعد الأمالفيون من رعايا الامبراطورية البيزنطية ، فانهم أصبحوا من رعايا أعدائهم : ومن ذلك الحين فقدوا عطف الامبراطور الذي حول كل رعايته لأهالي البندقية ، ووقع بهم الذل والهوان يوم أن أصدر الامبراطور الكسيت كوميننوس في عام ١٠٨٢ مرسوماً بأن على كل أمالفي يملك حانوتاً في القسطنطينية أو في أية مدينة أخرى بالامبراطورية أن يدفع لكنيسة سان مارك بالبندقية ضريبة سنوية مقدارها ثلاثة « هيببر » hyperpres (٢) . وحتى ذلك الحين كان الأمالفيون والبنادقة يتنافسون على قدم المساواة التامة . وابتداءً من صدور هذا المرسوم هبط مستوى الأمالفيين بالنسبة إلى البنادقة ، وأقروا بأفول نجمهم في حين أن نجم البنادقة كان يزداد تألقاً يوماً بعد يوم .

ويبدو أن جائيتي Gaëte قد أسهمت بعض الشيء في تجارة اليونان . ففي عام ١٠٦٤ توفي في القسطنطينية شخص يدعى يوحنا الجائيتي بعد أن أجرى عدة تصرفات وصائية ، ومن الراجح أنه أقام في القسطنطينية لمزاولة التجارة .

Chron. Amalph. dans Murat. Antig. it I, 211; Annal Cav. dans Pertz, ss. III, 190; Aimé, p. 229 et s. 235 et ss., 247 et ss, Leo Ostisus.

I. c. p. 672, 658, 735. — وبالنسبة إلى التسلسل التاريخي للأحداث انظر :

— Weinreich, De conditione Italioe infer, p. 32, 34-37, 89-91 ; Koepke, dans les Archiv, der Ges für deutsche Gesch. IX, 170 et s. ; Hirsch, art. sur Amatus, dans les forschungen zur Deutschen Gesch VIII, 317. et ss.

Taf et Thom, I, 52 : Anne Comm, I 286, éd. Bonn.

(٢).

غير أنه ليس في وسعنا أن نثريث لنناقش هذه الفروض ؛ ولننتقل الآن الى شمال ايطاليا . فهناك ، في كل ما يتعلق بشئون التجارة ، كان الدور الأول يتولاه البنادقة الذين قال عنهم كاسيدور Cassidore ان سفنهم تجوب البحار وتقطع مسافات كبيرة . وكان أجدادهم قد لاذوا بالفرار من شراذم البرابرة ، ولجأوا بكل ما يملكون الى جزر فينيتو Vénétie ولم تكن فينيتو الجزائرية هذه منفصلة عن رضى القارة الا بذراع ضيقة من البحر ، ولكنه كان كافيا لحماية سكانها من البحارة من الانقلابات التي تعصف بسائر شعوب ايطاليا ، وبفضل هذا الوضع استطاعت أن تخلق لنفسها حياة اجتماعية وسياسية خاصة بها . وقد بذل حكام شمال ايطاليا أكثر من محاولة للسيطرة على هذه الجزر ، بل تكون بها أكثر من مرة حزب موال لهؤلاء الحكام ، الا أن باقى الطبقة البورجوازية المخلصة لسادتها الوراثنين ، أباطرة بيزنطة ؛ كانت تستطيع دوما أن تقاومهم . على أن سيطرة بيزنطة لم تكن ثقيلة الوطأة على سكان الجزر ، وذلك لسببين : أولا ، بعد الشقة ، ثم الظروف التي تجبر الأباطرة على مراضاتهم حتى لايقعوا فى أيدي حكام ايطاليا العليا . وكان الأدواج الذين حكموا الدولة منذ عام ٧٠٠ ينتخبهم منذ البداية مواطنوهم انتخابا حرا ، الا أن هذا الانتخاب كان يخضع لموافقة الأباطرة ، ولم يكن الأباطرة يتدخلون كثيرا فى تصريف الشئون الداخلية للمجتمع ؛ ولكنهم كانوا ، فيما يختص بالعلاقات الخارجية يصدرون الى الأدواج تعليماتهم التي كانت بمثابة أوامر . وفى حالة الحرب كان الأباطرة يستدعون قوات البندقية للخدمة فى جيوشهم ، ولما كانت المنازعات كثيرة فى ايطاليا السفلى بين اليونانيين والعرب ، كان هذا الاستدعاء يتكرر كثيرا . وهكذا فان الدولة الفينيسية (البندقية) الصغيرة الكائنة بين قونين عظميين ، لم تعد احدهما تسيطر عليها الا بوشائج تضعف يوما بعد يوم ، فى حين تحاول الأخرى عبثا أن تضمها اليها . وراحت هذه الدولة الفينيسية الصغيرة تخطو كل عام خطوة جديدة نحو استقلالها ، وكان لها فى ذلك أسبقية كبيرة على سائر المدن الايطالية . وكانت هذه الأحوال ملائمة للتجارة كل الملاءمة ، فاستفاد منها أفراد الطبقة البورجوازية الفينيسية فائدة كبيرة . وكان موقع فينيسيا (البندقية) الجغرافى وتاريخها كله يؤهلها للاضطلاع بدور الوسيط بين الشعوب الجرمانية الرومانية وبين الشرق . ويمكن القول بأن كلا من الحزبين اللذين كانا يتنازعا السلطة ، الحزب الايطالى ، والحزب البيزنطى ؛ كان يحل جانبا من جانبى المشكلة ؛ وله مبرراته ، ليس فقط فى النطاق السياسى ، ولكن أيضا فى النطاق التجارى . كان الحزب البيزنطى يعمل على ابقاء الوضع بالنسبة الى الامبراطورية اليونانية ، ويريد أن تبقى البندقية خاضعة لدولة أجنبية ، وكانت هذه السياسة ملائمة لأقصى درجة لاتساع نطاق تجارتها ، وفتحت أمام سفنها العديد من الثغور فى الشرق ، وكفلت لها أسواقا فسيحة لتصريف بضائعها ؛ كما ضمننت لها ما هو أهم من ذلك ، وهو دخول

أسواق مزودة بوفرة من منتجات الشرق الأدنى . أما الحزب الايطالى فانه بذل كل ما فى وسعه للاتحاد مع حكام القارة المجاورة ، وبهذا كان يمثل مصلحة من مصالح البندقية الحيوية ، اذ كان من مصلحتها بالفعل أن تعقد مع هؤلاء الأمراء معاهدات صلح وصداقة حتى تحتفظ لنفسها بحرية استخدام الطرق والمجارى المائية التى تصل بوساطتها الى البندقية بضائع القارة لتنقل منها الى الشرق ، وتوزع عن طريقها بضائع الشرق الأدنى المستوردة فى أنحاء القارة . وكانت نتيجة هذا الازدواج من جهة نمو ثروات الأفراد ، وارتفاع شأن المجتمع الفينيسى ، ومن جهة أخرى زيادة عدد البنادقة الذين تعتمل فى نفوسهم مشاعر وطنية صادقة ، ويدركون أهمية عدم خضوعهم لأى من القوتين العظميين المتنافستين ، ويريدون أن يجعلوا من البندقية مدينة مستقلة ، ومنطقة محايدة ، وسوقا حرة مفتوحة لمنتجات الشرق والغرب .

وفى عهد الكارولنجيين ، كانت تجارة البندقية قد بلغت درجة كبيرة من التقدم . فبغض النظر عن المتاجر التى فتحوها بجوارهم فى اقليم رافنا (١) ، وسوق روما التى كانوا دوماً يترددون عليها ، وكان بها من البواعث ما يجذبهم اليها ؛ خلاف ابتياع العبيد ، فانا نكتفى بأن نذكر أن سفنهم كانت تقوم برحلات ذهاب وعودة بين أفريقيا وصقلية ، حاملة الركاب (٢) والبضائع ، وأنها كانت من قبل تزور سوريا ومصر . وحين حظر الأمبراطور لأوون الخامس الأرمنى (٨١٤ - ٨٢٠) على تجار أمبراطوريته ، لبواعث أوضحنها من قبل كل اتصال بهذين البلدين ، اتخذ الدوج الحاكم وقتئذ فى البندقية الاجراء نفسه مع مواطنيه (٣) . ولم يكن لهذا المرسوم أى معنى لو لم تكن هناك علاقات تجارية بين البندقية وبين سوريا ومصر . وبعد انقضاء بضع سنين (٨٢٧ أو ٨٢٨) (٤) كان فى الاسكندرية تجار بنادقة ، اما لأن الحظر قد رفع عنهم ، واما لأنه لم ينفذ بدقة ؛ (٥) بل استطاع هؤلاء التجار أن يسرقوا ثمة رفات القديس مرقس (سان مارك) الذى غدا شفيع مدينتهم (البندقية) ، والذى كان حتى ذلك الحين ، وفقا للسيرة التى تتعلق بنقل رفاة (٦) ، موضوعا

Cenni, I. C. I, 459 et s.

(١)

Cenni, I. C. 11, 79 ; Jaffé, Monum, Carol. p. 327 ; cf.

(٢)

Amari, Storia dei Musulmani di Sicilia, I, 225 et ss.

Dandolo, p. 167.

(٣)

— Zon et Cicogna, à la Chronique de Canale, dans l'Archiv. Stor. ital. T, VIII, p. 710.

(٤)

(٥) الواقع أنه لا أحد يصدق أن العاصفة القت بهم رغما عنهم فى ميناء الاسكندرية .

(Dandolo, p. 170).

Acta ss. Boll., Avril, III, 353 et ss.

(٦)

وبالنسبة الى تعيين المنتجات الغربية التي كان البنادقة يزودون بها اليونانيين والعرب ، فليس عندنا بشأنها سوى بعض الفروض : كانت على الراجح أصوفا ، وخشب البناء ، وأسلحة ؛ و ٠٠٠ عبيدا . ولكننا نعرف معرفة أفضل ما كانوا يستوردونه من الشرق ؛ ويزودنا التاريخ المشهور الذي سجله راهب الفديس جال St. Gall في هذا الخصوص بمعلومات قيمة ، اذ يحكي أن عددا من رفاقه كانوا يلبسون ذات يوم في رحلة قام بها شارلمان في ايطاليا ثيابا فخمة تتعارض مع بساطة الأمباطور وتتشبهه ، وكانوا قد اشتروها في مدينة بافيا Pavia حيث أقيمت وقتئذ سوق كبيرة ، وكان هناك تجار بنادقة يبيعون سلعا قيمة من الشرق الأدنى ، ولا يذكر لنا المؤرخ مصدر هذه الثياب ، ولكن بالنسبة لبراء القاقم ، فان كل ما ذكر عنها يشير الى بيزنطة بسبب علاقتها بروسيا ، كما يشير الى سوريا ما ذكره عن ثياب مدينة صور الأرجوانية (١) . أما الأقمشة المتعددة الألوان المنسوجة أو المطرزة بصور الطيور (٢) . فلعلها يونانية أو عربية فارسية ، لأن ذوق هذا النوع من الزخارف كان مشتركا عند الجنسين . هذه الفترة تجعلنا نتتبع الاتجاه الذي كانت تتخذه البضائع التي يستوردها البنادقة وقد عقد شارلمان مع أمباطور الشرق عدة معاهدات تحالف ، ومن الراجح أن الأمباطور تكفل بهذه المناسبة برعاية مصالح البنادقة ، وأن شارلمان منحهم الحرية التامة في مزاولة التجارة في ولاياته . حقا ان الوثيقة الخاصة بهذا الامتياز لم يعد لها أثر ، غير أنه يمكن إعادة انشاء مضمونها على وجه التقريب ، أما بوساطة خطابات التعزيز التي أعطها خلفاؤه من الأباطرة والملوك ، والتي يشار فيها الى وثيقة شارلمان الرسمية أو بوساطة « تاريخ الطينو » Chronique d'Altino (٣) .

والشيء الذي يمكن تأكيده بصورة ايجابية تقريبا هو أن شارلمان منح البنادقة حرية التجارة في أمباطوريته بشرط أن يدفعوا الضرائب المعتادة في أماكن رسو السفن ؛ وعند ممرات الأنهار . وكانت ايطاليا العليا من بين أقاليم هذه الأمباطورية الشاسعة أقربها الى البندقية ، وثمة طريقان ، نهر البو Po

(١) يبدو اذن أن مصنع النسيج الأرجواني في صور استمر قائما تحت سيادة العرب . ولكنه لم يعد يعمل لحساب بلاط القسطنطينية ، ففي هذا البلاط كانت هذه الصناعة تجرى على نفقة بيت المال ، وفي دار الامباطور نفسه ، وهذا ما انتهى اليه ، و ١٠ شعيت W. A. Schmidt من كثرة ذكر عبارة : blatta byzantea في Anastasius Bibliothecarius

(٢) يبدو أن المؤرخ كان يعتقد أنها طيور حقيقية ذات ريش مختلف الألوان يلصقها أفراد الحاشية على ثيابهم .

(٣) بخصوص خطابات التعزيز انظر : Romanin, Storia di Venezia, I, 359, 364, 366, 384.

وبخصوص الحاشية انظر : دراسة : Kohlshütter, Venedig unter dem Herzog Peter II. Orseolo (Gött, 1868), p. 75 et ss.

ونهر أديجة adige مصباحهما بعيدان قليلا عن المدينة ، وتشكل تعرجاتهما شريانين تجاريين كبيرين ، يتيحان لسفنهما المرور حتى داخل البلاد وعن طريق نهر بو تصعد السفن حتى مدينة بافيا Pavia ، وكانت هذه المدينة القائمة عند ملتقى ممرات الألب الكبرى متصلة بفرنسا وسويسرا وألمانيا عن طريق مجرى سانت برنارد ؛ وسبلوجن sprugen (١) . وكانت بافيا وقتئذ مدينة كبيرة ؛ يحمل إليها البنادقة على ما يبدو منتجات الشرق الأدنى بنوع خاص . ولانستطيع القول عما اذا كانت مدينة فيرونا على نهر أديجة ، وعلى مسافة منها التيروك تستفيدان بعض الشيء من تجارة البنادقة مع الشرق الأدنى .

وبعد العصر الكارولنجي ازدادت تجارة البندقية مع اليونانيين البيزنطيين نشاطا يوما بعد يوم ، وأسهم في ذلك بقدر كبير العلاقات المتصلة التي كان الأدواج يوثقونها مع الأباطرة (٢) . وكان لويتبراند Luitprand أسقف كريمونة قد أقام بالقسطنطينية بصفة سفير مرتين ، الأولى في ٩٤٩ - ٩٥٠ والثانية في ٩٦٨ فوجد فيها عددا من البنادقة في الجيش اليوناني ، كما رأى في الميناء سفنا تجارية فينيسية ، ولاحظ أن موظفي الجمارك اليونانيين يفتشون السفن ، ويفحصون المنسوجات الحريرية المشحونة بها ، ويدمغون بعض القطع المصرح في ذلك الحين بنقلها ، ويصادرون قطعاً أخرى يحظر القانون تصديرها . وتحديث الأسقف بنفسه مع موظفي الجمارك وشرح لهم أن اجراءات الحظر التي يقومون بها غير مجدية ، وأن الأمالفيين والبنادقة يعرضون في أسواق الغرب أجمل الحرائر البيزنطية ، وهي ذات الحرائر الممنوع تصديرها ، وأنه من السهل اذن التهرب من نتائج التفتيش الرسمي (٣) . ولابد أن رحلات السفن التجارية الفينيسية الى اليونان كانت متواترة ، ان لم تكن منتظمة ، والدليل على ذلك أن البنادقة كانوا يتولون مهمة نقل الرسائل بين ايطاليا العليا وألمانيا والأمبراطورية اليونانية . وتسبب هذا الامر ذات يوم في مشاكل مؤلمة : ففي عام ٩٦٠ وصل بهذا الطريق الى البلاط خطابات سببت به كربا شديدا ، وأوقع الأمبراطور سخطة على الذين أحضروا له هذه الخطابات : لذلك كانت الرسائل التي يلتمس بها أصحاب السلطة في البندقية ومرؤوسوهم عطف الأمبراطور تقابل بأسوأ ما تكون المقابلة . وبلغ هذا الأمر مسامع الدوق بيترو كانديانو الرابع Pietro Candiano IV ، وللفور منع متعاً باتا أداء هذه الخدمة الخاصة

(١) انظر ملاحظات كولشوتر ، المرجع السابق ص ١٨

(٢) من وجهة النظر هذه يحسن الاطلاع على مجموعة :

— Armingaud, Venise et le Bas-empire, dans les Archives des missions scientifiques, Série II, T. IV, p. 328 et ss.

Luitpr. I.C. p. 350, 357, 359.

(٣)

بنقل الرسائل ، حتى لا يترتب على ارسال خطاب مكدر ، يسلم الى صاحب الشأن بشئ من الطيش ، أن يفقد التجار البنادقة عطف الامبراطور ، وهم في حاجة شديدة الى عطفه ، وأمست رسائل الدوق من ذلك الحين هي وحدها المستثناة من هذا الاجراء (١) ، وكانت علاقات البنادقة بالعرب عرضة لأن تثير مشاكل أكثر خطورة . ذلك أن من بين الأشياء التي كانت تحملها السفن الفينيسية أسلحة ، وخشب من المستعمل في بناء السفن ، وهو وارد من غابات دلاشيا Dalmatie ، أما الأسلحة فربما كانت خارجة من مسابك سيتريا Sterie و كارنشيا Carinthie (٢) . ولابد أن الأباطرة الحربيين من الأسرة الباسيلية كانوا غاضبين من رؤيتهم ربانة السفن الفينيسية وهم يزودون بالعتاد الحربي المسلمين الذين كانوا يشنون عليهم حربا ضروسا في آسيا الصغرى وسوريا وكريت . وفي عام ٩٧١ بعث الامبراطور يوحنا تزيمنسيس Jean Zimiscès يشكواهم الى الدوق عن طريق السفراء ، وهدد بحرق السفن المستخدمة في هذه التجارة ، أينما وجدت . وللحال حظر الدوق بيع الأسلحة الى المسلمين أو تزويدهم في بلادهم بخشب يمكن استعماله اما لبناء السفن أو تسليحها ، ويستثنى من ذلك ألواح خشب الدردار أو الجوز التي طولها خمسة أقدام ، والأدوات المنزلية الخشبية (القصعات والجففات) ، ويعاقب كل مخالف بغرامة جسيمة ، أو يعدم اذا كان معسرا . وطبق هذا الاجراء في الحال على ثلاث سفن كانت على أهبة الابحار ، اثنتين منها متجهتين الى المهدية (ميناء القيروان) والثالثة الى طرابلس (بأفريقيا) (٣) . ولا يجوز أن نستنتج من هذه الواقعة أن شمال أفريقيا كان السوق الرئيسية للخشب والأسلحة ، فلم يكن الامبراطور اليوناني ليهتم كثيرا بالقضاء على هذه التجارة لو لم تكن البندقية تزود بها أيضا المسلمين في مصر وسويا . ولعل الوسيلة الأقوى فعالية هي حمل سلطات البندقية على إلغاء كل صلة تجارية بالمسلمين إلغاء مطلقا ؛ ولكن الامبراطور اليوناني كان يعلم تمام العلم أنه سوف يصطدم بذلك بمقاومة شديدة ، ولم يجرؤ

(١) كانت هذه الرسائل من بافاريا ، وسكس ، ولومبارديا ذات صلة بالسياسة بطبيعة الحال . وفي هذا الوقت كان امبراطور المانيا أوتو الأول ، والمركيز بيرنجر (من افريقيا) يتنازعان سلطة الملك في ايطاليا ، وكان بلاط بيننطة على علاقة ودية بالامبراطور أوتو الأول ، ولم يكن الامبراطور اليوناني رومانوس الثاني الذي تولى الحكم عام ٩٦٠ يتوقع خيرا كثيرا من الأمير الثاني . والواقع أن بيرنجر كان هو الذي طرد من ايطاليا الملك هوج ، ملك بروفانس ، حما رومانوس ، وابن هوج لوتير الذي تشفع من أجله الامبراطور لدى بيرنجر ، انظر :

— Luitpr. dans Pertz, ss. III, 337.

ومات مسموما بيد بيرنجر — هذا على الأقل ما أكدته الشائعات . يمكن إذن أن نفترض أن كاتبى الرسائل المشار اليها كانوا أعداء لأوتو الأول .

Gfrörer, Gregor VII, 215 et ss.

(٢)

Taf. et Thom. I, 25-30.

(٣)

على اقتضاء هذا الأمر . الواقع أن البنادقة كانوا قد اعتادوا هذه التجارة حتى أصبحت لهم ضرورة حيوية ، ولم يتقبلوا الحظر الذى فرض عليهم الا لانهم شعروا أن مساندة ولو غير مباشرة تبذل للمسلمين ليحاربوا المسيحيين تكون بمثابة اعتداء على الآداب العامة . وبالأجمال كانت جهودهم تميل دائما الى تعزيز علاقاتهم أكثر فأكثر بالعالم الاسلامى . وقد أقام الدوق بيتيرو الثانى أورسيولو مجده على انماء مدينته ومسقط رأسه ، جمالا

Pietro II Orseolo

وثرأ (١) ؛ وجمع الى هذا الشعور الوطنى عقلا راجحا وأفقا واسعا مجردا من كل تعصب ، ومن ثم بعث بالسفراء الى « كل » الأمراء المسلمين واستطاع أن يكسب مودتهم (٢) . ويبدو لنا أن فى هذا شيئا من المبالغة ، وأنه ينبغي إبداء بعض التحفظات . من ذلك أن كولشوتتر Kohlschütter (٣) يستثنى بحق بلاط الأمويين فى قرطبة . وأرى أنه يمكن أيضا استثناء بغداد التى كان موقعها النائى بداخل القارة يجعل الوصول اليها عسيرا على المسافرين المسيحيين . كان هؤلاء المبعوثون يقومون على الأرجح بزيارة بلاطات حلب ودمشق والقاهرة والقيروان وبالرمو (٤) ، ويعودون ومعهم بلا شك امتيازات تضمن من جديد لتجار البندقية حسن استقبال مسلمى سوريا وشمال أفريقيا وصقلية . وفى الوقت نفسه بعث أورسيولو سفراء الى القسطنطينية حيث كان يتولى الحكم وقتئذ الامبراطور باسيل الثانى بالاشتراك مع أخيه قسطنطين ، وكلفهم أن يطلبوا خفض الضرائب على السفن التجارية الفينيسية فى الامبراطورية اليونانية . والواقع أنه فى كل زمان كان على كل سفينة يستأجرها تجار بنادقة ، قادمة من البندقية أو من أى ميناء آخر أن تدفع عند مدخل مضيق أبيدوس Abydos أى الدردنيل رسما لايتجاوز « صوليديين » Solidi . غير أنه جد فى الأمر بالتدريج مطالب أكثر من ذلك بحجة أو بأخرى ، وأثبت تحقيق أجبرى على ما يحتمل بناء على طلب سفير البندقية أنهم كثيرا ما اقتضوا وحصلوا بالفعل على أكثر من ٣٠ صوليدى ؛ وأن الامبراطور قد فرض رسما للدخول من صوليديين؛ ولكن رسم الخروج يمكن أن يكون أكبر من ذلك ، دون ضرر ، لأن البنادقة يصدرون من الامبراطورية اليونانية منتجات أثمن وأغلى بكثير من المنتجات التى يستوردونها اليها ، وقد تحدد رسم الخروج بمبلغ ١٥ صوليديا فقط ، فكان على السفن الفينيسية اعتبارا من تلك اللحظة أن تدفع بالأجمال ١٧ صوليديا . ولما كان فى هذا امتياز خاص ، فانه حظر على البنادقة - والا حرموا من هذا

Johannis Diaconi Chron. Venet., dans Pertz, ss. VII, 29.

(١)

Johannis Diaconi I. c. ; Dandolo, dans Murat XII, 223.

(٢)

Venedig unter Peter II. Orseolo, p. 18.

(٣)

Kohlschütter, Op. cit., p. 16-17 : Gfrörer, Byzantische Geschichten, I, 375.

(٤)

الامتياز - أن يشحنوا سفنهم ببضائع تنتمي الى أمالفيين أو يهود أو باريين (سكان باري) (١) ، الخ والادعاء بأنها بضائعهم . ومن جهة أخرى ، ولازالة كل شكوى من جانب البنادقة من المغالاة في المكوس ، سحب من صغار موظفي الجمارك ومراقبي الموانئ مهمة تفتيش السفن الفينيسية وسلطتهم القضائية بشأن بحارة هذه السفن ، وكلف بهذه المهمة - كما كان في الماضي - موظفا كبيرا من موظفي المالية ؛ كما نص على أن السفن التي تريد الابحار لايحوز احتجازها دون مبرر جدي أكثر من ثلاثة أيام . وكان على البنادقة من ناحيتهم أن يتعهدوا بوضع سفن تحت تصرف الحكومة اليونانية في كل وقت لنقل جيوشها الى إيطاليا ؛ وصدر هذا المرسوم الهام في شهر مارس عام ٩٩٢ (٢) ولكننا لا نملك النص اليوناني الأصلي للمرسوم ، وليس معنا سوى ترجمة لاتينية أعجمية ، فضلا عن أنها غير كاملة (٣) .

وبعد أن تم اعطاء دفعة جديدة لتنمية تجارة البندقية مع الشرق بالطرق الدبلوماسية ، بقيت عقبة لايمكن ازالتها الا باستخدام القوة وحدها ، وتمثل هذه العقبة في قراصنة كرواتيا ، وهذا ما فعله بيترو أورسيولو في عام ١٠٠٠ ، اذ أعطى هؤلاء القراصنة درسا قاسيا ، وفرض عليهم الجزية (٤) ، وبعد هذه الضربة الشديدة تم له اخضاع الدالماسيين في رومانيا حتى راجوزة Raguse (دبروفنك حاليا - المترجم) ، ومن هذا الحين أصبحت البندقية سيدة البحر الادرياتي بلا منازع .

كل هذه الجهود لم تمنع الدوق من الاهتمام بأن يكفل لشعبه حرية التجول على طرق إيطاليا وأنهارها ، فجدد مرارا مع صديقه الإمبراطور أوتو الثالث المعاهدات القديمة (٥) ، وكانت هذه المعاهدات قد أقرها منذ عهد شارلمان عدد من ملوك إيطاليا العليا ، ثم أوتو الأول ، وأوتو الثاني ؛ وفي كل مرة كان ينص في المعاهدات على أن يتولى الأمير حماية التجار البنادقة الذين يرتحلون بهذا البلد . وفي عهد حكومة أوتو أورسيولو ، ابن بيترو الثاني وخليفته

Longombardos de civitale Bari.

(١)

Kohlschütter, p. 65 et s.

(٢)

Taf. et Thom, I. 35-39 ; Cf. la discussion de Kohlschütter, op. cit.,

(٣)

p. 11-14, 65 et s. : Gfrörer., Op. cit., p. 359 et ss. ;

غير أن هذا الكاتب يدعى كثيرا أنه يقرأ بين السطور ، في هذه النقطة وفي غيرها بوجه عام .

Hirsch, Heinrich II., I. 168, not. 3 : Kohlschütter, op. cit., p. 39.

(٤)

Romanin, I, 383 et ss.

(٥) بخصوص معاهدة ٩٩٢ انظر :

وبخصوص معاهدة ٩٩٦ انظر :

Joh. ioc. Chronis-venet I.C. p. 30.

(١٠٠٩ - ١٠٢٦) صدر مرسوم للامبراطور هنرى الثانى على الأرجح (١) يحظر على البنادقة عرض حرائرهم للبيع فى أى مكان خلاف بافيا Pavia ، وسوقين آخرين يصعب تحديد موقعهما (Mercatum S. Martini et Olivum) (٢) ؛ غير أن هذا الحظر لم يكن سوى حظر مؤقت . وبوجه عام لم يكن مما يتعارض مع مصالح الألمان أن ينشر البنادقة منتجات الشرق الى مدى بعيد ، لأنهم كانوا على غرار اللمباردين مضطرين الى الاتصال بالبندقية للحصول على المنتجات التى يحتاجون اليها ، كما تتكفل البندقية فى مقابل ذلك بتصريف منتجاتهم فى الشرق . لذلك كان الناس ، حتى فى وسط ألمانيا ؛ يتابعون باهتمام رحلات البنادقة . وفى عام ١٠١٧ غرقت أربع سفن ضخمة محملة بالتوابل ، فذاع خبر هذه الكارثة حتى وصل الى مرزبورج Mersebourg التى اهتم أسقفها تييتمار Thietmar بتدوين هذا الخبر فى سجله التاريخي (٣) .

ونذكر أيضا ، كدلالة على خطوة جديدة فى تقدم تجارة البندقية ، المزايا التى منحها لهذه المدينة الامبراطور الكسيوس الأول كوينيوس اعترافا بالمعونات التى تلقاها منها فى فترة حرجية : اذ ما أن اعتلى العرش (فى ابريل ١٠٨١) حتى تعرضت امبراطوريته لغزو خطر ، فقد حشد أمير بارع فى فنون الحرب كلها ، وهو الدوق النورماندى روبرت جيسكار فى ميناءى برنديزى واوترانت Otrante جيشا قليل العدد ، ولكنه ممتاز ، تاهب به للاستيلاء على بعض أقاليم الامبراطورية اليونانية . وكان فى مقدور الامبراطور أن يواجه النورمان بجيوش كثيرة العدد ومدربة على القتال ، لايقلص أفرادها الشجاعة والاقدام ، ومع ذلك رأى من الضروري البحث عن حلفاء . واستطاع القوى فى مثل هذا الوقت عون له قيمته ، وفى مقدوره أن يقيم فى وجه العدو مصاعب خطيرة ، اما فى عرض البحر ؛ أو وقت نزول الجند من السفن ؛ بل فى امكانها اذا واثاها الحظ أن تقضى على الحملة برمتها . غير أن الامبراطور لم يكن يثق كثيرا فى أسطوله ، ومن ثم ولى وجهه شطر جمهورية فينيسيا ، فبعث اليها بالهدايا ؛ ووعدا بهدايا أخرى ، حتى ولو لم ينجح ؛ واستجاب لكل مطالب الشخصيات التى أرسلها البنادقة الى القسطنطينية للتحالف معه (٤) . ولم يكن ثمة داع لكل ذلك اذ لم يكن بوسع الجمهورية أن تنظر بلا مبالاة الى نابولى وبيزنطة أو حتى السواحل

Gfrörer op. cit., p. 435.

(١)

ثم أن هذا الإمبراطور صدق فى عام ١٠٠٢ على معاهدات المذكرات مع البندقية ، انظر :

— Hirsch, Heinrich II, I, 285.

Codex urbinas de la chronique de Johannes.

(٢) تذييل يضاف فى نهاية :

Diaconas, dans Pertz I, c. p. 38.

Pertz, ss. III, 860.

(٣)

Anne Comnène, Alexias, éd. Bonn. I, 191 et s.

(٤)

اليونانية والايطالية للبحر الأدرياتي تحت سيطرة قوة جربية فتيّة كقوة النورمان . وكانت تلك مسألة حياة أو موت بالنسبة الى تجارتها البحرية . وحتى بفرض أن النورمان لم ينجحوا الا في الاستيلاء على سواحل البحر الادرياتي الشرقية أو سواحل الجزر الأيونية ، فان البندقية لن تكون بمأمن من هجماتهم . ألم يحاول روبرت جيسكار في عام ١٠٧٥ الاستيلاء على جزء من الاقليم الفينيقي بأن أغار على سواحل دالماشيا ؟ غير أن النورمان اختبروا آتخذ تفوق البحرية الفينيقيّة ، فقد طردهم الدوق دومينيك سلفو Dominique Selvo من دالماشيا ، وأجبرت مقاطعات سبالاتو ؛ وترو ، وزارا ، وبلغراد على التعهد بألا يستنجد أى من مواطنيها بالنورمان أو بأى عدو آخر من عداء البندقية (١) . ولعل هذه المعلومة تثبت أن بعضا من سكان دالماشيا كانوا يتحيزون للنورمان ويفكرون في أن يزعموا بمعونتهم تفوق البندقية . ونعود الى عام ١٠٨١ حين هاجم روبرت جيسكار الامبراطورية اليونانية ، فارسلت مدينة راجوزة الحرة لمساعداته أسطولا حارب الى جانب السفن النورماندية (٢) .

ومن الواضح أن البنادقة في هذه الأحوال لم يصبروا طويلا على دعوات الكسيوس : ففي شهر يولية عام ١٠٨١ ، قبل التاريخ الذي حدده الامبراطور بثلاثة أيام ، ظهر أسطولهم في مياه دورازو Durazzo مجهزا بكل سرعة وبعدد كبير من البحارة تحت قيادة الدوج دومينيك سلفو نفسه ، وكان هذا الموقع هو مفتاح الامبراطورية اليونانية من ناحية الغرب (٣) ، وهذا هو الباعث الذي دفع النورمان الى أن يوجهوا اليها جهدهم الرئيسي ، فحاصروها برا وبحرا منذ ٧ من يونية (٤) ، وتصادم الأسطولان بشدة ، وتقاتلا ثلاثة أيام (٥) ، وفي اليوم الثاني اقتحم البنادقة مدخل الميناء ، وأجبروا العدو على رفع الحصار من ناحية البحر (٦) ، وفي اليوم الثالث تمت هزيمة

(١) Dandolo, p. 248; Taf. et Thom. I, 41, 43; Lucius, De regno Dalmat. lib. II, p. 88.

(٢) Guill. Apulus ; lib. IV, v. 134, 302.

(٣) هذا هو الوصف الذي أجراه بصدق لهذه المدينة كارل شوارتز في دراسته الرائعة للحملات التي شنها روبرت جيسكار على الامبراطورية البيزنطية : Fuldaer Gymnasial - programm, 1854, p. 11.

(٤) هذا هو التاريخ الذي ذكرته أناكومينا :

— Anne Comnène, Op. Cit., éd. Bonn. I, 187.

— l'Anon. Barenis, dans Murat, III, 173.

— Lupus Protosphotharius, dans Pertz ss. V, 60.

فانه يؤخر الحدث الى شهر يولية ، ولكن هذا غير صحيح .

— Schwartz, p. 14-18.

(٥) بخصوص التفاصيل ، انظر

Lupus Protosp., ibid, p. 60 et s.; Dand p. 248 et s.

(٦)

الأسطول النورماندى . وفى هذه الأثناء تقدم الكسيوس برا صوب دورازو ، وشن على مرأى من المدينة معركة حاسمة ، ولكنه خسرهما ، واضطر الى الفرار ، ولم يتوان فى أن يعهد بالدفاع عن القلعة الى فرقة من صفوة مختارة من الجند ، من بينهم بنادقة من سكان دورازو ، وسلم امرة المدينة الى شخص يدعى كوميسكورينز Comiscortès (١) . وتسجل أنا كومينا Anne Comnène أن البنادقة والأمالفيين وهم الغالبية من سكان دورازو ، وقد أوهن عزمهم هزيمة الامبراطور ، وخشوا تجدد الحصار فى الخريف القادم ، عقدوا العزم بالاجماع على فتح أبواب المدينة للدوق النورماندى (٢) وتحكى السجلات التاريخية النورماندية بكثير من التفاصيل - وهى أكثر دراية بهذه المسألة . . كيف سقطت المدينة بخيانة رجل فينيسى واحد رغم دفاعها العنيف (٣) . وعلى أية حال لم يلق الامبراطور على البندقية مسئولية الخطأ الذى ارتكبه أفراد جاليتها فى دورازو ، أو بالأحرى خطأ واحد منهم . فبعد الانتصار البحرى الذى تحدثنا عنه آنفا ، بعث بهدايا فاخرة الى الدوج ومعاونيه (٤) .

وفى شهر مايو عام ١٠٨٢ أوفى بوعده ، ومكافأة للمساعدة التى تلقاها من الجمهورية ، منحها بمرسوم مجموعة من الامتيازات . وتعطينا أنا كومينا لمحة من ذلك ، ولكنها تخطئ فى تحديد التاريخ . ذلك لأنها تربط هذه الامتيازات بأحداث عام ١٠٨٤ : ففي هذه المرة ، أراد أسطول فينيسى أن يصد محاولة أخيرة قام بها روبرت جيسكار ، فعمل الأسطول مرة أخرى فى البحر الأدرياتي ، ولكنه لم يوفق كلها ينبغى (٥) . ويبدو أن النص الأصيل لهذا المرسوم قد فقد ، ولكنه نقل حرفيا فى وثيقتين لاحقتين أصبدرهما الامبراطوران عمانويل Manuel واسحق Isaac (٦) . وسوف أضرب صفحا عن الهدايا الفاخرة التى وزعت بهذه المناسبة على كنائس البندقية ، والألقاب الرنانة التى منحت للدوج والبطريك ، لهما ولخلفائهما ، وأكتفى بأن أذكر أن التجار الأمالفيين المقيمين بالامبراطورية اليونانية أصبحوا فى هذه الآونة تابعين لكنيسة القديس مرقس . وكانت النقطة الأساسية فى المرسوم هى الامتياز الممنوح للتجار البنادقة بأن يزاولوا البيع والشراء فى كل ربوع الامبراطورية اليونانية دون أن يتعرض لهم موظفو الجمارك أو المالية أو الموانئ ، وحظر على الآخرين القيام بتفتيش بضائعهم أو مطالبتهم باسم

Anne Comnène 1, c. éd. Bonn, 1, 221.

(١)

Anne Comnène, ed. Bonn, I, 223.

(٢)

Gaufr. malat, p. 584 et s.; Guill. Apulus, lib. IV, v. 449 et ss.

(٣)

Anne Comnène, éd. Bnn, J. 194.

(٤)

Ibid, éd. Bonn, I, 286 et s.

(٥)

Tof et Thom. I, 51-54, 116 123, 182-186.

(٦)

الدولة بأداء ضريبة لذلك . وقد جعل هذا الاجراء البنادقة فجأة في وضع متميز عن كل منافسيهم ، وفتح لهم مجموعة لا حصر لها من الموانئ دون أن يلتزموا بدفع أى شيء ، سواء لرسو سفنهم ، أو لشحن أو تفريغ بضائعهم ، وأصبح فى مقدورهم أن يجوبوا أقاليم شاسعة دون أن يلتزموا بدفع أية ضرائب عن الاستيراد أو التصدير أو البيع أو الشراء . ولا بد أن منح البنادقة هذه الامتيازات غير العادية كان فرصة لنمو جديد فى نشاطهم التجارى فى الامبراطورية اليونانية . ثم ان المرسوم الذى نحن بصدده يدعوهم الى ذلك ، فهو يذكر عددا كبيرا من المدن الواقعة على شواطئ البحر ، أو التى يمكن أن تصل اليها بسهولة البضائع الآتية عن طريق البحر ، يذكرها على أنها أماكن تجارية مفتوحة للبنادقة ، دون أن يتضمن هذا التعداد أى قيد (بالنسبة الى التجارة) على المدن الأخرى . وتبدأ هذه القائمة بشمال سوريا ، وبها أسماء اللاذقية ، وأنطاكية (١) ، ومن هناك يتتبع الساحل الجنوبى لآسيا الصغرى ، فيذكر مدن مامسترا Mamistra (mopsueste) وأطنة ، وطرسوس ، وقلقية ، وأطليا Attalia (Satalia) فى بامفيليا Pamphylie ثم يصعد شمالا ، ويتبع خطا يمر باستروبيولوس Strobilos فى كاريا Carie وينتهى الى كيو Chio (٢) وفوكيا Phocée (Foglia) ويشب فجأة الى أوروبا ، ويفتح مجموعة ثانية تبدأ بأسماء مدن واقعة فى الجزء من الاقليم اليونانى الذى يواجه إيطاليا ، ونجد ثمة أسماء دورازو ، وأفلونا Avlona ، ويوندتزا Bonditza وجزيرة كورفو ، ومودون Modon وكورون Coron ونوبليسا Napulie وكورنثيا Corinthe فى اليبلوبونيز ، وأثينا ، وطيبة فى اليونان الوسطى تم نجر بونت (ايوبويا حاليا ، - المترجم) (Eurippos) وديمترياس Démétrias فى خليج فواوس Volo ، وتسالونيك Thessalonique وكريزوبوليس Chrysopolis أعلا مصب نهر ستريمن Strymon وأخيرا مدن تراقيا Thrace ، وبيريثيوريون Perithéorion وأبيدوس Abydos واندريونيل (حاليا درنة) Andrimople وأيروسوس Apros واراكليون Héraclée وسلمبيريا Selymbria على بحر مرمره ، وفى النهاية القسطنطينية ، وقد ذكرت هنا كما ذكرت فى وثائق أخرى باسم Megalopolis (٣) (أى المدينة

(١) فى حوزتنا دلائل مختلفة تثبت أن البنادقة كانوا يزورون هذه المدينة قبل الحروب الصليبية . فذات يوم ، على سبيل المثال ، قام بعض البحارة البنادقة بتخليص ابن ملك حربى اسمه قسطنطين بودينوس Constantin Bodinus كان ثمة أسيرا فى أيدي اليونانيين (فى سواى عام ١٠٧٠) . وفى مرة أخرى كان أمالى بارى الذين سرقوا المخطفات الأثرية فى مير Myre (١٠٨٦ - ١٠٨٧) قد قابلوا بأنطاكية بنادقة يدبرون مؤامرة مماثلة : أنظر :

— Joh. Curopal, éd. Bonn. p. 718.

(٢) سوف أتحدث فيما بعد عن اسم نيولوجوس Théologos الذى أطلق هنا على أفسس

(٣) Nicet, p. 205, 522 ; Eustathius, Opp. p. 234, 271, 273 et s. ;

Documenti sulle relazioni, toscane, coll'Oriente, p. 42.

(الكبيرة) ، وهو حقا اسم على مسمى . ومن الطبيعي أن يتردد البنادقة منذ تلك اللحظة ، وأكثر من قبل على موانئ وأسواق الامبراطورية اليونانية ، وأن يعرفوا كيف يستغلون الوضع المتميز الذي جعلهم امة الأكثر رعاية . وكان لابد من انقضاء زمن طويل قبل أن تظهر أمة أخرى تنازعهم مكان هذه الصدارة . وفي هذه الآونة لم يكن أهالي جنوا وبيزا مزاحمو البنادقة في المستقبل قد ظهروا بعد في اقليم الامبراطورية . وكان البنادقة والأمافيون في كل العهود مرتبطين بروما الشرقية بوشائج سياسية .

أما بخصوص جنوا وبيزا ، فلم يكن لهذه التبعة وجود ، لأن هاتين المدينتين كانتا واقعيتين في القسم من ايطاليا الذي استقر فيه وساده القوط والمبارديون ولفرنجة على التوالي . وبتأثير النفوذ الجرمانى على هذه المناطق كان نمو استقلال المدن بها أبطأ من نموه في سائر المدن . وفي البداية كانت السلطة الملكية المثلثة في الكونتات والدوقات هي المسيطرة بقوة على السلطات المحلية ، وفيما بعد أصبح السادة الاقطاعيون الأقوياء هم المتحكمون في هذه المدن . وفي القرن الحادى عشر مارس مركزات توسكى Tuscie (تسكانيا Toscanie) سلطتهم القضائية بصفتهم كونتات في مدينة بيزا (١) ، أما بأشخاصهم ، لأنهم كثيرا ما كانوا يعقدون بها محكمتهم ، واما بوساطة الفيكونتات (٢) ، وفي الوقت نفسه كان لمركزات بيت أوبرتى Oberti بمحكمتهم الخاصة داخل أسوار مدينة جنوا (٣) . فقط ، قبل الحروب الصليبية الأولى بقليل ، كما سوف نرى فيما بعد ، ضم بورجوازيو المدينتين بجهودهم ، ونجحوا في الحصول على استقلالهم المحلى . وطالما كانت المدينتان اللتان قدر لهما أن تلعبا دورا عظيما وبحريتهما مضطرتين للكفاح خطوة بعد خطوة ضد سادة اقليمين قوين لدعم حريتهما السياسية فانهما صادفتا عقبة بعد أخرى في طريق تقدمهما .

والمعروف أن جنوب ايطاليا لم يكن هو وحده الذى قاسى من غارات المسلمين فقد تلقت سواحل تسكانيا وليجوريا زيارات هؤلاء الضيوف المرعبين الذين استولوا على جنوا ونهبوها في عام ٩٣٥ (٤) ، وتحملت بيزا في عامى ١٠٠٤ ،

Murat, Antig. ital III, 1091.

(١)

Chron. S. Hubert. Andag., dans Pertz ss. VIII, 583; Florentini, Vita della Grancontessa Matilda, 2e éd. II, 130.

(٢)

Monum. hist. patr. Chartoe, I, 527-529.

(٣)

Amari, Storia dei Musulmani di Sicilia II, 181 et s.

(٤)

- يحكى أمارى عن هذا الحدث رواية مختلفة ، وفقا لما ذكره الكتاب العرب . وقد اتخذ

هذا الحدث من الوقائع الغربية في زمن مبكر صورة أسطورية ، وبقي تحديد العصر مجهولا .
— Liutpr. Antapod., dans Pertz, ss. III, 316; Dandolo, dans : *Ann. Ital.* Murat XII, 201 ; Jac. de Voragine, ibid IX, 10 et s. ; Cf. Pallavicino dans les Mem. dell'Acad. di Tornio, 2e série, T. II, 120 et ss.

١٠١١ نفس المصير (١) . على أن كل هذا لم يكن لحسن الحظ سوى أحداث عارضة سرعان ما زالت آثارها ، ومع ذلك كان من المستحيل على المدينتين أن تتوسعا طالما بقي القراصنة العرب مسيطرين على القسم الغربي من البحر المتوسط. يهددون أمن السفن التجارية المسيحية، وقد كانوا من قبل مسيطرين على جزر صقلية والبليار . وكان الموقف خطيرا : اذ لو أنهم استقروا بصفة دائمة في سردينيا ، الأمر الذي كان يخشى منه نتيجة لغاراتهم المتكررة لكان في ذلك قضاء على بحرية ليجوريا وتسكانيا المحاصرتين والمهددتين من جميع الجهات . ودرءا لهذا الخطر بذل أهالي بيزا جهودا شديدة ، وساعدهم أهالي جنوا في ذلك بشجاعة . وفي مرتين ، عامي ١٠١٥ ، ١٠١٦ سيروا أساطيلهم الحربية إلى سردينيا حيث استقر بها منذ قليل قائد من عرب اسبانيا ، هو مجاهد بن عبد الله الأميري (٢) ، ونجحوا في طرده منها (٣) . واذ قويت شكيمتهم بهذا النجاح ، فإنهم مضوا للقضاء على عرب أفريقيا في عقر ديارهم . وفي عام ١٠٣٤ استولوا على بونة Bône (٤) (حاليا عنابة ، بالجزائر - المترجم) . وتميز عام ١٠٨٧ بحملة هامة : ففي تلك الفترة كان يحكم المهدية الأمير تميم (١٠٦٢ - ١١٠٧) من أسرة بني زيري ، وهو قورصان ذائع الصيت أشبعت حملاته البحرية العرب في أنحاء بعيدة من البحر المتوسط ، واستعبد الكثير من الأسرى المسيحيين ، وعامل بقسوة تجار بيزا . وكان لابد من الانتقام من هذه الاهانات وكان البابا فيكتور الثالث هو الذي أعطى إشارة البدء في الثورة المسلحة (٥) ، وعين على رأس الحملة قائدا من رجال الدين يدعى Praesul Benedictus (القائد بندكتس) ، واشترك في الحملة جنود من الرومان تحت امرة بانثاليون

(١) Marang. Annal Pis., dans Pertz ss. XIX, 238 .

— ذكر « مارنج » العامين ١٠٠٥ ، ١٠١٢ ، ربما لأنه اعتمد على التاريخ البيزي .
— Dove, De Sardinia insula, p. 65 et s. أنظر أيضا :

(٢) Dove, I.C. p. 50, 63 et ss.

— لم يشت أن العرب امتلكوا سردينيا زمنا طويلا ، أنظر :
— Dove, p. 51 Amari, I.c. III, 1e p. 5 et ss. 12; Biblioth. Arabo-sicul trad. I., 436 et ss.

(٣) Marang. loc cit.; Dove, p. 65-67. Amari, I. c. p. 8, 9.

— ذكرت هذه الواقعة كتابة منقوشة على حوائط كاتدرائية بيزا ، بلا تاريخ .
— Morrona, Pis illustr. I, 155; Marang., I. c. p. 238;
Amari, I. c. p. 13.

— يفترض أماري أن سفن جنوا وبروفانس قد اشتركت في هذه الحملة .
(٤) Petr. Diac. Chron. Cassin, dans Pertz ss. VII, 751.

(٥) أنظر مقال ستريلك :
Strehlke, dans les Denkmäler de Schulz : II, 244 : Guiglielmotti,
Storia della marina pontifica nel medio evo, I, 218 et s.

يعرض هنا الأخير الواقعة بصورة أخرى ،
فيقول ان بانثاليون كان تحت امرته الأماثلين ، وعلى رأس الرومانيين شخص يدعى بييترو Pietro

الأمالفي (١) . إلا أن معظم الجيش الذي تقدر المصادر العربية تعداده بحوالى ٣٠٠٠ رجل على ظهر ٣٠٠ الى ٤٠٠ سفينة (٢) كان مكونا من جنود بيزا وجنوا . استولت الحملة أولا على بلدة زويلة Zuila وهي ضاحية تجارية على مشارف مدينة المهديّة ، ثم استولت على المدينة نفسها . واذ انتهى الأمر بتميم الى الاعتصام بداخل قلعته ، فانه لم يتوصل الى انسحاب المسيحيين الا بعد أن بذل تضحيات كبيرة من مال وأسرى ؛ واضطر فوق ذلك أن يأخذ على نفسه تعهدات ثقيلة ؛ أهمها - بالنسبة الى المدن التجارية ، السماح لتجارها بدخول اقليمه دون أن يؤدوا أية ضريبة (٣) ؛ وهكذا عاقب أهالى جنوا وبيزا عرب أفريقيا ، وفتحوا الطريق لتجارهم البحرية .

كان من المقدر لامة أخرى أن تطرد العرب من صقلية ، إلا أن البيزنين لم يكتفوا من هذه الناحية بدور المتفرجين . فمنذ زمن بعيد ؛ ورغم وجود المسلمين ، كان تجارهم يزورون هذه الجزيرة ؛ ولما كانوا يقاسون المعاملة السيئة من جانب سادة البلد ، فانهم راحوا يتابعون باهتمام انتصارات الدوق النورماندى روجر ، والتي كانت تبشر ببسط سيادة مسيحية في المستقبل في صقلية . ومع ذلك كان تقدم الدوق بطيئا جدا في نظرهم ، فقد كانوا يودون لو أنه وجه جهوده أولا الى بالرمو ، عاصمة الجزيرة ومركز الحياة التجارية ، ولكنه تردد في الهجوم على المدينة لأن جيشه كان قليل العدد ؛ وكان قسم من قواته مشغولا في ناحية أخرى . وتوسل اليه البيزيون دون جدوى أن يتعاون معهم في حصار المدينة . وازاء رفضه ، قرعهم في عام ١٠٦٢ على أن يغامروا وحدهم بتنفيذ هذا المشروع ، وقام أسطولهم ذات يوم بمهاجمة الميناء ، ودمروا السلسلة التي تغلق مدخلها ؛ واقتحموها ؛ واستولوا على بضغ سفن عربية مشحونة ببضائع ثمينة ، وأنزلوا فرقا شنت هجوما موقفا تحت أسوار المدينة ؛ غير أن نجاحهم توقف عند هذا الحد ، فلم يستطيعوا الاستيلاء على المدينة نفسها (٤) .

Amari, I, c. p. 102.

(١)

(٢)

Marango, I, c. p. 239; Gaufr. Malaterra, dans Murat. SS. V. 590 (٣) 590 et s.

Abou-S. Salt Omeia, dont El Tidjani a reproduit la relation dans ses voyages (Journ. asiat., série V.I.I. p. 375 et s) ;

Amari (Stor. dei mus. III, 171, note); Cf. Biblioth. Arabo-Sic., trad. T. I, p. 440 et s., II, 32 et s., 62 et ss. 153 et s., 213.

(٤) في كاتدرائية بيزا كتابا تحتوى على قصة هذه الحملة ، وتحدد تاريخها (عام ١٠٦٣ حسب

— Publ. par Morrona, Pisa illustr. I, 157, 2e éd. التقويم البيزى :

— Marang. I, c. p. 238 et s.

أما مارانج فانه يحدد اليوم :

— Gaufr. Malat. p. 569; art. de Hirsch sur Amatus, dans les Forschungen. Zur deutschen Gesch. p. 304; Amari, III, 102; Giesebrecht, Gesch. d. deutsch Kaiserzeit III, 3, p. 1082.

وانصرم أيضا قرابة عشر سنين قبل أن يستطيع النورمان السيطرة على بالرمو (١) ، ثم بالتدريج على الجزيرة بأكملها . وكان لاستيلاء المسيحيين على صقلية أعظم النتائج لصالح الأمم البحرية في أوروبا ، إذ فتح لهم أبواب بلد لم يزل يباهى بشهرته القديمة بالخصوبة ، ووضع في متناولهم كمية كبيرة من الحاصلات الطبيعية والمنتجات الصناعية ، أتيج للعرب الوقت الكافي لاقامتها أثناء احتلالهم الطويل للجزيرة ، من سكر ، وبلح ، وقطن ؛ ومنسوجات حريرية . ولم يلبث أهالي أمالفيا (٢) ، والبندقية (٣) ، وجنوا (٤) أن حصلوا من الملوك النورمان على الحق في دخول الجزيرة والتصريح لهم باقامة متاجر فيها ؛ واستطاعوا تزويد حوانيتهم ومخازنهم بهذه المنتجات ، واستيرادها في سفنهم . واجتذب هذا الحدث الأنظار الى موضوعات أخرى ، ذلك أن كل السفن المبحرة من أسبانيا ، أو فرنسا ، أو الساحل الغربي لاطاليا صوب الشرق الأدنى أو شمال أفريقيا كان لابد لها أن تمر على مرأى من صقلية الكائنة وسط طريقها . لم يعد أمام هذه السفن من تلك اللحظة أية مشكلة ! فقد أصبح في إمكان السفن التي تمضي بمحاذاة الساحل الغربي للجزيرة أن ترسو بأمان عند تراباني Trapani (٥) ، وكانت السفن تجتاز دون خوف مضيق مسينا الذي كان شاطئاه خاضعين لسلطة أمراء أصدقاء ، ولم يعد الرسو في موانئ مسينا ، وكاتانيا ، وسيراقوسة (٦) التي نما رخاؤها سريعا بتأثير الحروب الصليبية يمثل مشكلة بالنسبة اليهم منذ أن كفلت لهم الامتيازات التي منحها

(١) أشك في أن البيزيين أنفسهم نجحوا في الاستيلاء عليها ، ذلك لأن الواقعة لم تذكر في تواريخ لاحقة ، ولا يعتقد كثيرا بروايتها ، انظر :

— Le Breviarium hist Pis. dans Murat. ss. VI, 168; Ranieri Sardo, dans les Archiv. stor. VI, 2, p. 77.

Hugo Falcandus dans Del Re, Cronisti, p. 283; Gregorio, Considerazioni sopra la storia di Sicilia, T. II, prove, p. 23, lig. 5, 6.

Mortillaro, Opere I, 379 et s.; 388 et s.; Taf et Thom. I, 135 et s., 171 et ss.; Romuald Salern; dans Pertz ss. XIX, 450 et s., Pöche., Heinrich VI, p. 630.

(٤) لا يرجع استيطانهم مسينا الا الى مطلع القرن الثاني عشر ، كما سنرى فيما بعد : Annal Jan., dans Pertz SS. XVIII, 108.

(٥) بخصوص أهمية هذه المدينة ، انظر ابن جبير : Ibn-Giofair, trad. P. Amari dans les Arch. stor. if App. 4, p. 41-43

— Amari, Bibl. Arabo-sic trad. I, 165 et s. انظر كذلك :

Gregorio, Discorsi intorno alla Sicilia, I, 135 et ss.

(٦) الادريسي ، الجزء الثاني ٨١ - ٨٣ ، أثبت ازدهار هذه المدن الثلاث في عهد السيادة النورماندية .

— Amari, Bibl. Arabo-sic, trad. I, 67-73. انظر أيضا :

وبخصوص مسينا ، انظر ابن جبير ، المرجع السابق ص ٣٣ ، و « أماري » : —Amari, Bibl. cit I, 144 et s.

أيامهم الملوك النورمان استقبالا وديا ، ووثقوا من الحصول بالجزيرة على مساعدة قناصل دولهم ، أو على الأقل مواطنيهم المقيمين بها من أجل أعمالهم . هذه الملاحظات تعود بنا الى الموضوع الخاص بدراستنا هذه ، أى تاريخ تجارة الشرق الأدنى .

لم يترث ربانة السفن التجارية التابعة لجنوا حتى يضمن لهم غزو صقلية الأمن فى طريقهم الى الشرق : فنحن حين نقرأ أن جيزولف Gisulf أمير سالرنو (١٠٥٢ - ١٠٧٧) (١) كان بدافع من جشع شديد يستولى فى كثير من الأحيان على سفن بيزا أو جنوا التى كانت لسوء حظها تمر أمام سالرنو ، فانا نتساءل للفرور عن الجهة التى تقصدها هذه السفن ، فتأتينا الاجابة للتو : لابد أنها مبحرة الى سوريا أو مصر عن طريق مضيق مسينا . ولكننا نعتمد فى ذلك على مجرد افتراضات . أما بخصوص أهالى جنوا ، فانا نعلم بشهادة حاج انجليزى أنهم كانوا فى هذا العصر على علاقة تجارية بفلسطين . فالواقع أن انجلف Ingulf قس كرويلاند Croyland ، بعد أن أدى الحج فى القدس فى ربيع عام ١٠٦٣ ركب البحر ثانية فى يافا فى سفينة من أسطول جنوا التجارى (٢) . ويقال ان جودفروى دو بويون ، فى رحلة الحج التى قام بها الى قبر السيد المسيح (بالقدس) مع كونت الفلاندر وأشراف آخرين ، أبحر أيضا الى الاسكندرية على سفينة من جنوا تسمى لابوميللا la Pomella ، وركب السفينة نفسها عند عودته (٣) .

غير أن جنوا وبيزا لم تبتداء فى الاسهام بنصيب فعال فى تجارة الشرق الأدنى الا منذ الحروب الصليبية ؛ وحتى ذلك الحين كانت هذه التجارة فى أيدي الأمازيغ والبنادقة وحدهم ، وتدين ايطاليا لهؤلاء بنوع خاص بتزويدها بمنتجات الشرق التى كانت تحصل عليها بوفرة والتى أسهمت بقدر كبير فى تهذيب الطبايع (٤) ، كما ندين لهم بشهرتها فى أنها أحسن مصدر لهذه السلع الثمينة ، والميزة فى أنها بمثابة مستودع لهذه السلع بالنسبة الى العالم الرومانى الجرمانى .

Gaufr. Malat. I. c. p. 569, 590.

(١)

Ingulphi Abb. Croyland, Chronic., dans Fell, Rer. anglic script. I, 74.

(٢)

Cagaro, De liber civit, orient, dans Pertz ss. XVIII, 40.

(٣)

لم يرد ذكر هذا الحج فى أى مصدر آخر ثم انه كان موضع شك النقد التاريخى .

(٤) قبل الحروب الصليبية ، نعى بعض الرقباء المتشددى على رجال الدين الايطالى أنهم

يكسبون على مواعدهم توايل هندية ، ويسئون استعمالها لاستثارة الأحاسيس المخجلة :

— Ratherius de Vérone, dans son ouvrage, De contenu canonum, écrit en 963 (dans Dachery, Spicil. II, 188), et Petrus Damiani, vers 1070 (Opusc. 31, cap. 6).

٣ - اليهود

بقى علينا ، قبل أن تنتقل الى فترة الحروب الصليبية أن نبحث عما اذا لم يكن اليهود الذين يعيشون متفرقين وسط شعوب الشرق والغرب قد أسهموا بنصيب فعال في تجارة الشرق الأدنى . لقد لعبوا منذ زمن مبكر دورا هاما في التجارة . ففي الغرب لم تكن الغزوات الكبرى عنصرا قليل الشأن من عناصر ثروتهم . ذلك أنهم اذ كانوا محتقرين من كل الأمم التي عاشوا في كنفها ، فأنهم لم يشاركوا ايا منها في شئونه . لذلك فبينما كانت الشعوب تتقاتل فيما بينها ، استطاعوا هم أن يتجولوا ويربحوا أرباحا طائلة ، دون أن يشعروا ريبة فيهم ، ودون أن يتعرضوا لأية أخطار ، واتخذهم ملوك القبائل الجرمانية التي استقرت في الاقاليم الغربية للإمبراطورية الرومانية موردين لهم ، وفي الممالك الجديدة لم يتردد الكثير من أعيان الكنيسة في أن يشتروا منهم أشياء ثمينة (١) ولما كان اليهود يعيشون في التجارة فقط ، فأنهم كانوا يقيمون في المدن وحدها تقريبا ، شأنهم في ذلك شأن السوريين الذين كثيرا مانجدهم مذكورين معهم ، وكانت مدن ناربون Narbonne (٢) ، ومرسيليا (٣) ، وآرل Arles (٤) ، وجنوا (٥) ، ونابولي (٦) ، وبالرمو (٧) ، الخ مراكزهم المفضلة . بقي أن نعلم ما اذا كان نشاط هؤلاء اليهود الغربيين في التجارة قد امتد الى الشرق : هذا هو السؤال الذي سنتولى بحثه . ومن الضروري الايام قليلا بعادات جريجوري دوتور Grégoire de Tours اللغوية لكي نسلم بأن لفظة Species التي يشير بها الى بضائع اليهود ، تعني ببساطة épices (توابل) ، وتشمل بوجه عام كل أنواع الأشياء الثمينة . ومن جهة أخرى نطالع في أخبار الكاتب نفسه أن شخصا يهوديا كان يملك سفينة تبخر من نيس الى مرسيليا (٨)؛ غير أننا لا نجرؤ أن نستنتج من ذلك أن اليهود كانوا في ذاك الاوان يمتلكون سفنا تذرع البحر المتوسط كله . ومع ذلك نصادف هنا وهناك اشارة الى بعض التجار اليهود الآتين من بلاد الفرنجة لزيارة فلسطين . وكانت تجارة الرقيق

(١) Grégoire de Tours, Hist. franc. IV, 12, 35; VI, 5; VII, 23.

(٢) Gregor. M, Epist lib VII, no 24 ; Concil Narbonn, op. Mausl, 1 c.

(٣) Grégoire de Tours, l. c. V, 11; VI, 17; Greg. M. Epist. I, 45.

(٤) Greg. M. l. c. ; Vita Coesari, dans les Acta ss. Boll. Août, T.

VI, p. 69.

(٥) Cassiod, Var. 1. IV, ép. 33.

(٦) Procop; De bello goth. 1, 8, 16.

(٧) Greg. II. Epist. IX, 55.

(٨) De gloria martyrum, cap. 97.

التي يؤثرون مزاولتها (١) تجعلهم بالضرورة على صلة بالمسلمين . وكان كثير من الأطباء اليهود يدرسون كتب العرب ، فاذا اقتضى الأمر أن يطبقوا المعلومات التي اكتسبوها على هذا النحو ، لجأوا الى عقاير شرقية لا يتسنى الحصول عليها الا عن طريق وسطاء التجارة . وكان اليهود في ذاك العصر يجوبون بصفاتهم تجار جملة كل أنحاء العالم المعروف ، ولدينا في هذا الخصوص دليل ايجابي في فقرة ممتعة لابن خردادبة (٢) . كان هناك دواما في زمن هذا الكاتب ، أي في أواسط القرن التاسع تجار يهود يؤدون برا وبحرا الرحلة الطويلة من بلاد الفرنجة الى الصين : فيبعد أن يغادروا بلاد الفرنجة بحرا ، ينزلون عند الفرما بمصر ، ويجتازون برزخ السويس في خمسة أيام ، ثم يركبون البحر ثانية عند القلزم ، ويمرون أمام محطتي الجار Et-Djar (نهر المدينة) ، وجدة (نغمكة) ويدخلون في المحيط الهندي . وفي أحيان أخرى ، يترقون قارة آسيا عند مصب نهر اورونت Oronte (نهر العاصي) ويمرون بأنطاكية (وحلب) ويصلون الى نهر الفرات ، ويتتبعون مجراه حتى مدينة بغداد ، ومن هناك يواصلون مسيرتهم حتى المحيط الهندي عن طريق نهر الدجلة والخليج الفارسي . ولكن مهما كان الطريق الذي يتخيرونه . فان غايتهم هي الوصول الى مصب نهر الاندوس (السند) ، ثم الهند ، وأخيرا الصين ، والعودة بالطرق نفسها ؛ غير أنهم لا يعودون كلهم الى بلاد الفرنجة ، اذ يتوقف عدد منهم في القسطنطينية ومعهم بضائعهم . ويتم القسم الاكبر من هذه الرحلة بطريق البحر ، غير أن هناك أيضا طريقين آخرين يستخدمهما الكثيرون ، فيهما المسافات البرية أطول من البحرية ؛ والمسافر اما يبدأ رحلته من فرنسا واسبانيا فيمر من مضيق جبل طارق ويجتاز أفريقيًا كلها ، ثم سوريا ، بابل وأقاليم فارس الجنوبية ، وفارستان ، وكرمان ، وينتهي على هذا النحو الى الهند أو الصين ، واما يجتاز ألمانيا (٣) وبلاد الصقالبة حتى مدينة الخزر (اتيل Itil ، أعلى مصب الفولجا) ، ويعبر بحر قزوين ، ثم يعود الى الطريق البري فيمر ببلخ ، ومنها يتجه الى الصين عبر نهر أوجزوس (الموداريا ، وبالغربية جيمون) . وكان ابن خردادبة « صاحب البريد » على علم واف بأمور مهنته ، ومن ثم لا ندهش حين

(١) Agobardi, Opp, éd. Baluyze, p. 62, 65 ; Rosière, Recueil général des formules, no. 27, 28, 29 : Greg M. Epist IX, 36.

A. Sprenger (Same passages on the early commerce of the Arabs, (٢) dans le Journal of the Asiatic society of Bengal, vol. XIV, 2e part., 2, 1844, p. 519 et ss.

كان سبرنجر أول من نشر هذه الفقرة . وبعده آدمجها رينو Renaud في مقدمته المشهورة لجغرافية أبو الفدا . وأخيرا نشرها باريبيو دو مينار مع كتاب المسالك والممالك لابن خردادبة : Journ. asiat., série 6, T. V.p. 512 et ss. — Richthofen, China, I, 558 et s. انظر أيضا :

(٣) يذكر النص الاسم العربي لازمينيا ، غير أن تغييرا خفيفا في الاسم يجعله « ألمانيا » ، الأمر الذي يتماشى مع الأفكار .

تتصفح اللوحات التي رسمها ، فنرى أنه كان هناك ما لا يقل عن أربعة طرق يرتادها التجار ذهابا وعودة بين غرب أوروبا وشرق آسيا ؛ هذا في زمن كانت فيه المصادر الأوروبية فقيرة جدا في المعلومات حتى لنميل الى التسليم بأن العلاقات بين هذين القسمين من العالم كانت نادرة للغاية . ويعرفنا ابن خرداذبة أيضا بالأشياء التي كان التجار اليهود يحملونها عبر هذه الطرق : فهي تشمل في الرحلة من الغرب الى الشرق خصيا ، وعبيدا من الجنسين ، وحريرا (لا يمكن أن يرد الا من الأمبراطورية البيزنطية) ، وفراء ، وسيوفا ، ومن الشرق الى الغرب ، مسكا ، وصبرا ، وكافورا ، وقرفة ، وغير ذلك من المنتجات المماثلة .

ولسوء الحظ مازلنا نجهل موطن اليهود القادرين على زيارة هذا العدد الكبير من البلاد ، وفهم مختلف اللغات ، ويضفى ابن خرداذبة على هؤلاء اليهود نعتا يعبر عنه باربييه دومينار Barbier de Meynard في ترجمته الفرنسية بكلمة Rodanites التي يرى أنها تشير الى أصلهم ؛ ولكنها في الواقع وببساطة مرادفة لعبارة « جوابو البلاد ، رحالة » (١) ومن ثم لا يتيح هذا النعت معرفة ما اذا كان هؤلاء اليهود من أهل الشرق أو الغرب . ويمكن تأييدا للافتراض الأول (أى أنهم من الشرق) القول بأنه يتعين لقيام أى انسان بمثل هذه الرحلات أن يكون عنده معلومات جغرافية لا وجود لها الا في العالم العربى ، وبخاصة في وسطه ، أى في بغداد . غير أنه من جهة أخرى ، كان هناك من اسبانيا الى الصين مجموعة من اليهود متصلة بعضها ببعض بحيث يستطيع الاسرائيليون في كل البلاد أن يحصلوا على معلومات غزيرة عن مختلف الأماكن التجارية والطرق والفرص المتاحة . وبفضل هذه المساعدة يستطيع يهود الغرب أيضا القيام بأطول الرحلات . وعلى هذا يمكن التسليم بأنهم كانوا ينظمون رحلات كبيرة لبالح تجارتهم ، ذلك لأن العصر الكارولنجى ، وهو نفس العصر الذى كتب فيه ابن خرداذبة ما كتب كان بالنسبة اليهم فترة رخاء غير عادى (٢) . ويبدو أن المؤلف العربى يقصد بقوله ان تجار الحملة الذين يتحدث عنهم كانوا غربيين ، لأنه في وصفه ، يرسم الطريق بادئا من أوروبا الى آسيا ، ثم من آسيا الى أوروبا .

Goeje, Bibl. géogr. arab., gloss., p. 251.

(١)

Groetz, Gesch. der Juden, V, 216 et ss., 245 et ss.

(٢)

— لم يكن من النادر في ذلك الوقت وجود سفن يهودية . وذات يوم ظهرت سفن على مرأى من موانئ غالة الناربونية ، فراح الناس يتشاورون لمعرفة الأمة التى تنتمى اليها ، فرأى البعض أنها تنتمى الى تجار يهود ، غير أن شارلمان عرف بنظره الثاقب أنها من سفن القراصنة النورمان . — Monach, S. Gall., dans Pertz, ss. II, 737, 757.

الحقبة الثانية

انشاء مستوطنات تجارية على سواحل الليفانت
(شرقى البحر المتوسط)

(عصر الحروب الصليبية)

1. The first part of the paper discusses the importance of the study of the history of the United States.

2. The second part of the paper discusses the importance of the study of the history of the United States.

3. The third part of the paper discusses the importance of the study of the history of the United States.

١ - الدول الصليبية في سوريا في القرن الأول من وجودها

(١) المستوطنات التجارية في الدول الصليبية

لم تكن حملات جنوا وبيزا ضد مسلمي الغرب ، وغزو النورمان صقلية ، وهجوم روبرت جيسكار على الامبراطورية البيزنطية الا تمهيدا لمشروعات أكبر نطاقا ، تستهدف الشرق ، أسهم فيها كل شعوب الغرب : تلك هي الحروب الصليبية . وأثارت هذه الحملات حماسة شاملة في بلاط الأمراء ، وقصور الاقطاع ، وفي المدن والأرياف . وكان الشعور الديني والروحي بالتأكيد هو الباعث الأول والرئيسي الذي دفع كل طبقات المجتمع الى الاشتراك في هذه الحركة . ولكن الى جانب هذا كانت كل طبقة تتبع مبدأ ماديا مختلفا : كان هذا المبدأ عند الأمراء والفرسان هو حب القتال والمغامرة ، وعند الطبقات الدنيا الرغبة في التخلص من وضعها الذي لا يحتمل ، الوضع الذي خلقت له الحالة الاجتماعية ، وعند بروجوازية المدن ، التعطش الى الربح . وفي الحملات الصليبية الكبرى التي قادها أمراء من طبقات متفاوتة المرتبة ، بقي بروجوازيو المدن مختلطين بعامة الشعب . من ذلك أن الصليبيين من مواطني ناربون Narbonne (مدينة بجنوبي فرنسا ، المترجم) كانوا يعملون تحت امرة ريمون ، كونت تولوز (١)

غير أنه بجانب الجيوش الكبيرة التي زحفت برا ، كان هناك أيضا أساطيل كبيرة وصغيرة تتجه الى سوريا . وكانت هذه الأساطيل تجهز وتشحن في الموانئ الإيطالية حاملة الى الجيوش الصليبية فرقا مكونة من بروجوازيين من سكان المدن ، تعمل لحسابها الخاص ، تحت امرة قادتها ، وتأتي بقوات ومعدات مفيدة للغاية ، ان لم تكن ضرورية لا غنى عنها . ولم تكن الجيوش البرية بقادرة وحدها على أن تستولى على الموانئ المحصنة التي كانت في أيدي المسلمين في سوريا ، ولهم يكن في وسع الشجاعة والفنون العسكرية عند الفرسان أن تفعل شيئا في هذا المجال ، فقد كان من الضروري تدخل الأساطيل لاتمام الحصار ، والبحارة الذين يقاتلون بحرا لمساعدة الجنود الذين يقاتلون برا . وبهذه الصورة أسهم البروجوازيون في الأحداث العسكرية ، وبذلك اكتسبوا حق الحصول على أرباح تتناسب مع الخدمات التي يقدمونها . وهكذا مثلت مدن ثلاث وبالأخص جمهويات ثلاث : فينيسيا ، وجنوا ، وبيزا العنصر البروجوازي في الحروب الصليبية .

Raoul de Caen dans les Hist des crois, hist decid. III, 676, Cf.
Raim, d'Aiguilhe, ibid. 266.

والى ذلك الحين ، مارست جنوا وبيزا بنوع خاص نشاطهما التجارى فى القسم الغربى من البحر المتوسط ، أما فينيسيا (البندقية) فانها كانت تتراد بالاولى البحر الادرياتي والبحار التى تحف بالامبراطورية اليونانية . ولاول مرة تتلاقى الدول الثلاث على اقليم مشترك ، هو سوريا . والى جانب البنادقة الذين كانوا منذ سنين طويلة يتمتعون بالحرية وبتفوق لا جدال فيه فى مجال البحار ، فى ظل الجمهورية ، ظهر أهالى جنوا وبيزا كأنهم وصوليون ، محدثو نعمة . ومع ذلك ، فمنذ عدة سنين كانت أساطيلهم تحارب المسلمين ، وفازوا بأكثر من نصر مجيد . ومن جهة أخرى تطورت الحياة السياسية فى الجمهوريتين تطورا سريعا ، وعندما بدأ عصر الحروب الصليبية كانتا منذ قليل تمتلكان كامل حريتهما القومية ، فلم يكن بوسع أية سلطة أجنبية أن تقيم العوائق فى طريق نشاطهما الخارجى . وفى أواخر القرن الحادى عشر كان بوجوانيو جنوا الأحرار قد شكلوا رابطة سياسية (Compagna) على رأسها قناصل ينتخبونهم انتخابا حرا ، يتولون مقائيد (على رأسها قناصل ينتخبونهم انتخابا حرا ، يتولون مقائيد الحكم بالمدينة رغم معارضة الامراء والأحزاب . ويبدو أن هذه الثورة قد قامت بإيحاء من كبار الأساقفة ، غير أنه ليس فى امكاننا اليوم أن نتتبع تاريخها . ولا نذكر حوليات جنوا التى بدأت عام ١١٠٠ انشاء حكومة القناصل ، وانما تذكر عودتها الى السلطة . والواقع أنها ألغيت سنة ونصف سنة فى أعقاب خلافات داخلية . وينبغى ارجاع نشأة حكومة القناصل الى تاريخ سابق ، وعلى الأقل الى سنة ١٠٩٨ ، وربما الى قبل ذلك (١) . وكان للجمهورية فى بيزا نشأة مماثلة . فبعد أن عارض مركيزات تسكانيا زمنا طويلا تحرر هذه المدينة (أى بيزا) وجدوا أن نفوذهم يزداد ضعفا فى غضون القرن الحادى عشر ، وانحاز ممثلوهم ، الفيكونتات الى « القومون » . ومن ناحية أخرى أدى طموح بعض أسر النبلاء الذين يريدون أن يحلوا سلطتهم بالقوة محل سلطة المركيزات الى إثارة مازعات داخلية انتهت بهزيمتهم . وفى عام ١٠٨٥ وصل الأسقف ديبيرت Daibert الى فرض وساطته ، واعترف الكافة بسلطة قومون البوجوازيين (Commune colloquium civitatis) ، بموجب ميثاق للسلام (٢) . ويبدو أن هذا الميثاق يحدد نقطة البداية للسلطة الفعلية للقومون . حقيقة ، لا مجال للبحث فى موضوع انشاء وظائف القناصل ، ومع ذلك فانا نجد منذ عام ١٠٨٧ حكاما يحملون هذا اللقب (٣) على رأس البيزيين فى الحملة

(١) Ann. Jan., dans Pertz SS. XVIII, p. 11, et Caffaro, De liberatione civitatum Orientis, ibid, p. 45.

Bonaini, Statuti Pisani, 1, 16.

(٣) انظر الأبيات ١٦١ وما بعدها من القصيدة اللاتينية المؤلفة عن هذه الحملة .

التي وجهت الى مدينة « المهديّة » وكذا في المواثيق الصادرة في السنوات ١٠٩٤ ، ١١٠٠ ، الخ (١) .

وعلى هذا ففي اللحظة التي اشتركت فيها البندقية وجنوا وبيزا في العمليات العسكرية التي جرت على سواحل سوريا ، لم تكن هذه المدن مجرد قوات بحرية من الطراز الأول ، ولكنها كانت قد أصبحت بالفعل جمهوريات منظمة . وكانت السفن الأولى التي غادرت موانئها متخذة هذا الاتجاه قد أبحرت فرادى تحمل مؤنًا وأسلحة وآلات حصار لجيش الصليبيين الذي كان يزحف من ناحيته برا ، أو تحمل أفرادا من الجنود قاصدين الانضمام الى هذا الجيش (٢) . غير أن عددا كبيرا من بورجوازي جنوا ، من أبرزهم وأقدرهم على حمل السلاح أعلنوا الجهاد الصليبي في شهر مايو ١٠٩٧ ، ورحلوا على متن اثنتي عشرة سفينة حربية ، وحين وصلوا الى ميناء سان سيميون

على بعد بضعة أميال من أنطاكية ، كان جيش الصليبيين قد بدأ حصار هذه المدينة . ومع ذلك لم يستطع هؤلاء الذين وصلوا أخيرا أن يعززوا اتصالاتهم بقلب الجيش القائم بالحصار الا بعد معارك ضارية ، وانضم أكبر عدد من جنود جنوا الى سائر الصليبيين ، واقتسموا معهم متاعب الحصار وقسوته . ومع ذلك لم يبق أولئك الذين لم يبرحوا السفن عاطلين ، وانما انهمكوا في توثيق الاتصال بالبحر ، وتموين الجيش ، وهي مهمة شاقة ، كبيرة الأهمية (٣) ، وأقاموا حامية في ميناء سان سيميون ، ومارسوا فيها وحدهم حقوق السيادة (٤) ، وظلوا مستولين عليها حتى ضمت الى امارة أنطاكية الجديدة . وبعد أن استولى بوهيموند Bohémond الأمير الجديد على أنطاكية ، وهب لمواطني جنوا ثلاثين منزلا داخل المدينة ، وكنيسة القديس يوحنا ، وسوقا ، ونافورة (٥) ، وفي نظير ذلك ، تعهدوا بتقديم المساعدة للأمير ضد كل من يحاول

Pawinski, op. cit., p. 28-40.

(١)

Raim. d'Aig., dans le Rec. des hist. des crois. 1. c. p. 276, 290 (٢)
(dans Bong., I, 164, 173) Baldricus, dans Bong., I, 89. Orderic Vital, hist. eccl., éd. Le Prévost, III, 479 ; Guill. de Tyr, Y, 4, VII, 21.

Caffar. De liberat civ. Orient, dans Pertz SS. XXIII, 41-44. Cf. (٣)
Raim d'Aig. dans le Recueil, I, c. p. 242-290 (dans Bong. p. 143, 173).
Guill. de Tyr, V, 4.

(٤) تقول وثيقة لخصت فيها أعمال الجنوين في سوريا من ١٠٩٧ الى ١١٠٥ :
« Solinum per se ceperunt » : Lib jur. I, 17.
وسوف نعود الى هذه الوثيقة والى اسم Solinum الذي أطلق على ميناء سان سيميون وفي عام ١١٠١ ، بعد الاستيلاء على أرسوف وقيصرية انسحب الجنويون الى هناك (أى الى سولنيوم) (Ann. Jan p. 14).
ليقتاسموا في هذه غنيمتهم الكبيرة :

ومع ذلك لم يدم الاحتلال أكثر من بضع سنوات .

Charte du 14 Juillet 1098, dans Ughelli. It sacr IV, 846 et s. (٥)

الاستلاء على المدينة . وفي هذا التعهد بند خاص يتعلق بالكونت ريموند دو سان جيل Raimond de St. Gilles الذي كان يحتل بضعة مواقع محصنة رفض التخلي عنها (١) . وكان بوهيمند يريد أن يتكفل جنود جنوا بمهاجمة هذا الأمير اذا نازعه ملكية المدينة ، غير أن جنود جنوا كانوا مرتبطين برابطة صداقة مع البروفانسيين ، وكانت لهم صلات عمل مع سان جيل (٢) ، ومن ثم رفضوا ما يطلبه بوهيمند . وعلى ذلك اكتفى في المعاهدة بالنص على أنه في حالة ما اذا باشر ريموند أعمالا عدوانية ضد بوهيمند ، يعرض مواطنو جنوا وساطتهم ، فاذا ما فشلت هذه الوساطة فعليهم أن يراعوا الحياد . وبالفعل لم يقدم ريموند على اخلاء أجزاء المدينة التي كان قد استولى عليها الا على مضض ، وكان من الضروري اجلاء رجاله منها بالقوة .

كان بين الصليبيين الذين اشتركوا في أول عمل بطولي في الحرب الصليبية الأولى ، وهو الاستيلاء على بيت المقدس ، جنود من جنوا ، قليلو العدد؛ لأن الجمهورية كانت في ذلك الوقت في صميم حرب أهلية : فقد ألغى نظام القناصل ، ولم يعد للجمهورية حكام ، وكان على الأفراد أن يتولوا بأنفسهم تجهيز السفن لرحلات طويلة (٣) . وهكذا وصل الى يافا على متن سفينتين حربيين بضعة أفراد من جنوا على رأسهم جوبوم امبرياكو Guillaume Embriaco وأخوه بريموس Primus ، ولحق بهم هناك سفن أخرى جهزها بعض الصليبيين (٣) . ولما كانوا يريدون البقاء في هذا الميناء ، فانهم طلبوا مساعدة الأمراء الذين كانوا وقتئذ معسكرين تحت أسوار القدس ، وحصلوا على المساعدة المطلوبة . غير أن أسطولا للمسلمين أقبل ذات ليلة من عسقلون Ascalon وانقض على الأسطول الراسي بالميناء : وكانت المقاومة مستحيلة ، ومن ثم لم يكن لمواطني جنوا من بديل سوى أن يهجروا سفنهم ومعهم كل ما يمكن استعماله في بناء الآلات الحربية ، ومضوا فلحقوا بالصليبيين القائمين أمام القدس ، وانضموا الى فرق ريموند كونت تولوز ، وقدموا لها ، كمهندسين أثناء الحصار خدمات جليلة (٤) .

Sybel, Gesch. der ersten Kreuzzüge, p. 446, 450. (١)

Canale, Nuova istoria della repubblica di Genova, I, 352, II, 493 et ss. (٢)

Pawinski, op. cit., p. 43 et ss. (٣)

(٤) يتراوح العدد الإجمالي بين ستة وتسعة :
les msc. de Raim. d'Aig, Recueil, 1, c. p. 294 :

— De liber or. p. 44. ومن الغريب أن « كافرو » يحدده باثنين فقط :

Caff. 1. c. et Raim d'Aig, p. 294, 298. (٥)

يقول جوبوم دي تير (الصوري) VIII, 9, 10. انه كان في عزم الجنوبيين منذ البداية أن ينضموا الى الجيش ، ولم يطلبوا هذا التعزيز الا لمراقبة الجيش ، ولكن يبدو أنهم لم ينضموا الى الجيش الا غصبا .

أما بيزا فانها ركزت كل قواها فى تلك الآونة فى اعداد حملة صليبية كبيرة . وفى صيف عام ١٠٩٩ أبحر البورجوازيون القادرون على حمل السلاح على متن ١٢٠ سفينة اتجهت الى سوريا تحت قيادة الأسقف ديبرت Daibert ، ووصل معظمها قبالة اللاذقية (١) . وفى ١٥ من يولية كان بيت المقدس فى أيدي الصليبيين : واستطاع يوهمند أمير أنطاكية أن يقنعهم بمحاصرة ميناء اللاذقية الذى كان خاضعا لليونانيين ، وذلك لحسابه ، الا أن المحاصرين قاوموا بشجاعة . أما سائر القادة الصليبيين فانهم لم يوافقوا على مشروعات يوهمند ، وتوسطوا فى الموضوع ، ورفع الحصار عن الميناء . واذ ترك البيزيون وشأنهم ، فانهم ساروا الى بيت المقدس ، وكان جودفرى دو بويون ، ومن اعتزموا البقاء معه منهمكين بتنظيم شئون الدولة والكنيسة ؛ فلم يكن ثمة مجال وقتئذ لاجراء عمليات عسكرية ، واضطر البيزيون أن يقنعوا بالمساهمة فى الأعمال المتعلقة بتحسين بيت المقدس ويافا (٢) ، وبقي زعيمهم ديبرت الذى عين بطريركا لبيت المقدس ، بقى فى الأرض المقدسة ، وحذا حذوه بلا شك الكثير من رفاقه بأمل أن يحظوا بحمايته ، والمرجح أن يافا أصبحت مركزهم الرئيسى ، لأن جودفرى دو بويون كان قد خصص حيا بأكمله من أحياء المدينة اقطاعية للبطريرك (٢ من فبراير ١١٠٠) (٣) ؛ وبدا أن للمدينة مستقبلا زاهرا باعتبارها نفرا للقدس . وسوف نرى فيما بعد كيف نشأت بها جالية كبيرة من البيزيين .

وإذا كانت جماعات التجار الايطاليين قد أسهت بنصيب كبير فى انشاء دول الصليبيين ، فان دورها كان أهم أيضا فى تنظيم هذه الدول . ويمكن أن تؤكد أنه من غير معونة الأسباطيل الايطالية ، لم يكن بمقدور اللاتينيين أن يحافظوا على فتوحاتهم . ومن البديهي أن امتلاك الثغور على ساحل سوريا كان مسألة حياة أو موت بالنسبة الى الدول الصليبية ، فكان امتلاكها وحده يضمن لهذه الدول اتصالاتها بالغرب حتى يصلها منه المعونات البشرية والمالية الضرورية لبقائها . ثم ان ملوك هذه الدول لم ينكروا البتة أهمية الخدمات التى أدتها لهم الأسباطيل الايطالية ، وبرهنوا على عرفانهم بهذا الجميل بتقديم الكثير من المنح والامتيازات . كذلك كانت القوات البحرية الايطالية من ناحيتها مقتنعة بحاجة هؤلاء الأمراء الى مساعدتهم ، ومن ثم كانت تهتم قبل الاستيلاء على أى مكان أن تشتترط ، ثمنا لمساعدتها ، التنازل لها عن بعض الممتلكات والحقوق داخل المدينة وفى ضواحيها . وعلى هذا النحو نشأ عدد كبير من المستوطنات التى تتكون من

(١) فى شهر سبتمبر غالبا ، انظر :

— Hagenmeyer, Ekkehardi Hierosolymita (Tubing. 1877) p. 183.

Gesta triumphal, per pisanos facta, dans Murat. ss. VI, 100. Chron. (٢)
Pis., dans Ughelli, It. sacr. X, 121.

Guill de Tyr, IX, 16.

(٣)

بورجوازيين ايطاليين ، والتي أصبحت مراكز هامة بنوع ما لتجارة الشرق الأدنى .

وكانت القوات التابعة لجودفري دو بويون قليلة جدا ، فلا يستطيع أن يستولى بها على مدن فلسطين الساحلية ، وكان بعض هذه المدن قويا لدرجة لا يمكن معها أن يفكر في غزوها ان لم يصله مدد لا يتوقعه . ففي صيف عام ١١٠٠ (١) قدم اسطول قوامه حوالى مائتى سفينة جهرها البنادق ، وألقت مراسيها عند يافا (٢) . وتعهد هؤلاء القادمون أن يخدموا تحت امرة جودفري من عيد القديس يوحنا المعمدان (٢٤ يونية) حتى عيد صعود العذراء (١٥ أغسطس) ، وطلبوا في مقابل ذلك أن يتعهد بالتنازل لهم عن كنيسة وموقع ملائم لاقامة سوق ، وذلك في كل مدينة استولى عليها الصليبيون أو يستولون عليها مستقبلا ، سواء في ذلك الثغور والمدن الداخلية ، واشترطوا كذلك أن يتنازل لهم في كل موقع يستولى عليه في الحملة القادمة عن ثلث المدينة ، فاذا نجح في الاستيلاء على طرابلس ، فانهم يمتلكونها كلها نظير ادائهم جزية سنوية صغيرة . وأخيرا ، يجب اعفاء البنادق من الضرائب في مدن مملكة القدس كلها ، ويحظر على أى من اتباع الملك أن يحجز على بضائع سفن البندقية التي تخرج على الساحل (٣) . ويبدو أن هذه الحملة كان يتوقع لها نتائج عظيمة ، والواقع أنها ضربت الحصار على عكا (٤) ، وهى من أهم ثغور سوريا ، ولكن الحصار لم يأت بنتيجة (٥) ، وكان لابد من الاكتفاء بالاستيلاء على مدينة كايفا Caiffa الصغيرة (حاليا حيفا) عند سفح جبل كرمل (٦)

ولم يكن حصار هذه المدينة قد انتهى (٧) حين توفي جودفري دو بويون (١٨ من يولية ١١٠٠) ولم يتخذ أى اجراء لتعيين خليفة له ؛ وكان بوهمند أمير أنطاكية قد وقع في هذه الفترة في أيدي المسلمين ، لذلك كانت الامارات

(١) بخصوص تحديد هذا التاريخ ، انظر :

Kugler, Boemund und Tancred, p. 63.

(٢) Dandolo, p. 258. Historia translationis S. Nicolai, dans Flaminio

Corner, Ecol. Venet, IX, p. 19.

(٣) تلك هى الشروط المذكورة فى وثيقة معاصرة :

— l'Historia transl. Si Nic. p. 19, 20.

وداندولو قد أوجز فى هذه النقطة ، اذ كتب فى صفحة ٢٥٨ :

«immunitatis obtento privi egio»

(٤) المصدر الوحيد الذى ذكرت به هذه الواقعة :

Hist-transl S. Nic. p. 22-25.

(٥) داندولو (فى المرجع السابق) يناقش التاريخ وهو يتحدث عن الاستيلاء على عكا .

(٦) Cf. aussi Alb. Aq. dans Bong, pag. 299-301 ;

— Ibn-Khaldoun, dans les Nov. act. Acad. Upsal XII, 57.

(٧) هذا هو الرأى الذى يؤيده هاجنماير :

Hagenmeyer, Ekkehardi Hierosolymita, p. 202.

الصليبية تجتاز أزمة شديدة . وفي خريف السنة نفسها نزل جيش جنوى في ميناء اللاذقية ، وكان وصوله مناسبا في أوانه ، وتكفل قاداته بحل المشاكل القائمة ، وبدأوا بأن بذلوا كل مافي وسعهم لاقامة بلدوين (بغدوين) Baudouin كونت أدسا Edessa (حاليا أورفا) على عرش القدس ، وتعيين تانكرد Tancrede وصيا على عرش أنطاكية ، واشترط بلدوين أن يقاتل الجنويون تحت امرته حتى يفتح مدينتين . وقبل الجنويون عن طيب خاطر هذه المهمة وساعدوه في ربيع عام ١١٠١ في الاستيلاء على أرسوف Arsouf وقيصرية Césarée . (١) وكانت الغنائم هائلة وبخاصة في قيصرية (٢) حيث نال الجندي العادي من النقود ٤٨ فلسا ، ورطلين من الفلفل (٣) ؛ وكان أئمن مافي الغنائم « الوعاء المقدس » Sacro Catino المشهور ، وكان من نصيب كاتدرائية جنوا (٤) . وقد أسهمت هذه النتائج الباهرة في تقوية روح المغامرة لدى أهالي جنوا واجتذابهم الى سوريا ومدهنها الثرية . أما بالنسبة الى أولئك الذين ينظرون الى الأمور نظرة بعيدة ، فان الغنبة لم تكن في اعتبارهم سوى أمر ثانوي ، وأدركوا مصدر الثروة العظيمة الذي سوف يتيح للغربيين نمو الحياة التجارية على سواحل سوريا . وفي عيد الصعود (٢٦ مايو) عام ١١٠٤ فتحت عكا أخيرا أبوابها للملك بلدوين (٥) ؛ وفي هذه المرة أيضا قدم أسطول جنوا مساعدة كبيرة أسهمت في نجاح العملية . ترى من الذي ربح أكثر من غيره في هذه الغزوة ؟ الأمم التجارية الايطالية التي فتحت لها هذا النصر ميناء من أكثر موانئ الساحل أمنا ورواجا ، أو الملك بلدوين الذي ضم الى مملكته موقعا من أمنع المواقع في سوريا ؟ واعترافا بأهمية الخدمات التي أسداها أهالي جنوا ، منحهم بلدوين في كل من المدن الثلاث التي فتحتها ثلث المدينة ، بالإضافة الى مساحة مماثلة من الأراضي المجاورة ، كما منحهم ثلث إيرادات جمارك ميناء عكا ، ولابد أنها كانت تشكل دخلا كبيرا ، وأعفاهم من

(١) التواريخ هي : بالنسبة للأولى ٩ مايو ، وللثانية ٣١ مايو ، وذلك حسب تقدير هاجنماير : Hagenmeyer, Ekkeh. Hierosol. p. 220 et s.

(٢) كانت قيصرية أكثر أهمية قبل أن يستولى عليها الصليبيون ، انظر :

— de Vogué, Les églises de la terre sainte, p. 430.

(٣) Gaffar, Ann. Jan. p. 11-14 ; De liber civ. or p. 45-47 ; Lib-jur. 1, 17.

(٤) يقال ان هذه هي الكأس التي شرب منها السيد المسيح في العشاء الأخير ، وكان المعتقد زمننا طويلا أنها مصنوعة من زمردة واحدة لا نظير لها في قوامها وجمالها ، ولكن بفحصها جيدا تبين أنها من زجاج :

— Guill de Tyr, X, 16; Jac. de Vorag., Chron. Jan. dans Murat, ss. IX, 32 : La Revue archéologique . . ann. 1845, p. 149-157 (une courte notice sur le catino).

Foucher de Chartres, dans le Recueil, 1. c. p. 407 et s.; Abb. Aq. (٥) dans Bong, p. 335; Guill de Tyr, X, 28; Caffar. Ann p. 14; De liberat. p. 47; Lib. jur. I, 17.

الضرائب فى جميع أنحاء المملكة . ثم انه وهبهم بأثر رجعى حيا من أحياء كل من مدينتى القدس ويافا ، وتعهد بأن يمنحهم فى المستقبل حيا فى كل مدينة يستولى عليها بمساعدتهم (١) . وحرص الجنويون حرصا شديدا على أن يضمنوا لأنفسهم الى الأبد هذه الأملاك الشاسعة ، لذلك طالبوا بلدوين وحصلوا منه على تصريح بأن يضعوا فى صدر كنيسة القبر المقدس خلف المذبح الرئيسى لوحة نقش عليها بحروف ذهبية قائمة بالمنح التى نالوها ، وكلفتهم هذه اللوحة الفى دينار ذهبى بيزنطى (٢) . وليس من شك فى أن نص هذه الوثيقة موجود فى الـ *Liber iurium reipublice Genuensis* بعد ميثاق التنازل الذى قلنا بضع كلمات عنه (٣) ، وهذا النص منقوش بحروف أكبر مما قبله ، وجزء منه بالحبر الأحمر ، ويشمل بأسلوب موجز للغاية تعدادا للخدمات التى أداها الجنويون للامارات الصليبية المعاصرة للحملة الصليبية الأولى ، وأهم الامتيازات التى منحها اياهم بلدوين (٤) . ولا يقتصر الجزء الأول على سرد الأحداث التى وقعت فى مملكة بيت المقدس نفسها ، اذ نجد فيه أسماء أنطاكية وثرغها سان سيميون ، واللاذقية؛ وطرطوس *Tortose* ، وجبلت *Gibetet* ، ذكرت باعتبارها مسرحا لمختلف العمليات الحربية التى أسهم فيها الجنويون .

وتذكرنا الأسماء التى أشرنا اليها ، بأنه بقى علينا أن نتحدث عن الدور الذى أداه الجنويون فى القسم الأوسط من سوريا ، حيث أسهموا اسهاما قويا فى انشاء « كونتية طرابلس » ، تلك الدولة التى استولى عليها الكونت ريموند التولوزى وخلفاؤه قطعة قطعة .

وفى خريف عام ١١٠١ غادر ميناء جنوا (٥) اسطول صغير ، وحين وصل الى سوريا ، انضم رجال الأسطول الى الكونت ريموند وساعدوه فى الاغارة على مدينة طرطوس ، وتم الاستيلاء على المدينة بعد حصار دام بضعة أيام ، وكان ذلك

(١) Fouch. de Chartr. Recueil, p. 387 et s.; Guill. de Tyr. X, 14, 28; Caffar. De liberat p. 48; Lib. jur I, 16 et s.

(٢) Caff. De liber p. 48, 49.

(٣) Le sénateur Federici, dans sa «Lettera a Gasp. Scioppio sulle cose di Genova»; Ansaldo (Atti della Soc. Lig. I, 1, p. 71).

Langer (Polit Gesch. Genua's und Pisa's im XII. Jahrh - Leipz. 1882-p. 156).

(٤) Lib. jur. I, 17.

(٥) قابل هذا الأسطول الصغير فى كورفو الأسطول الذى أحضر الى جنوا الغنيمة التى أخذت من قيصرية ، من يولية الى أكتوبر ، انظر : Caffar, p. 14, 47.

فى أواخر عام ١١٠١ أو أوائل عام ١١٠٢ (١) . وكان هذا الفتح نواة لكونتية طرابلس . وفى عام ١١٠٤ استولى ريموند على مدينة ثانية هى جبلة Gibelet الواقعة بين بيروت وطرابلس ، وتم ذلك بمساعدة جيش جنوى آخر ، وهو نفس الجيش الذى استولى من قبل على عكا (٢) . غير أن أهم موقع فى هذه المنطقة ، وهو طرابلس ، أبدى مقاومة أشد ، ودافع به المسلمون دفاعا عنيفا ، واستطال الحصار عدة سنوات ؛ ولم يكن قد انتهى عندما توفى ريموند عام ١١٠٥ . وطالب بوراثه أملاكه فى سوريا ، وإدارة المشروعات التى بدأها فى حياته اثنان من أقربائه : جو يوم Guillaume كونت سيرداني Cerdagne ابن أخيه ، وبرترام Bertram ابنه الطبيعى ؛ واتصل الاثنان بجنوا طالبين المعونة اللازمة لانهاء حصار طرابلس ، فبعث أحدهما بعض السفراء ، وسافر الآخر الى هناك بنفسه . وفاز براترام بمطلبه . وفى مستهل عام ١١٠٩ عاد من جنوا الى سوريا ومعه أسطول يضم ستين سفينة . واذاً أتاح له وفاة مزاحمه أن يضع يده على كل ما حصلت عليه أسرته فى سوريا من أملاك ، فانه تنازل بموجب وثيقة محررة بتاريخ ٢٦ يونية من السنة نفسها (٣) لصالح خلفائه عن ملكية جبلة التى كان ريموند قد احتفظ بها لنفسه ، ومن ثم آل لجنوا ملكية هذه المدينة بالكامل ، وفضلا عن ذلك وهب برترام لجمهورية جنوا قصر القائد روجر Roger (٥) ، وثالث مدينة طرابلس من جهة البحر ، مع الميناء والجزر الواقعة قبالة . حقا لم تكن طرابلس قد وقعت فى قبضته ، ولكن كان من المؤكد قرب وقوعها ، وبالفعل استسلمت المدينة بعد بضعة أسابيع ؛ فى حوالى منتصف شهر يولية (٥) . وبعد هذا الانتصار الحربى ، عقد قادة الأسطول الجنوى معاهدة تحالف مع تانكرد أمير أنطاكية وساعده فى إقامة الحصار حول جبيلوم Gibellaum التى

- (١) Fouch de Chart, i.c. p. 399Alb, aq. dans Bong. 326.
Guill de Tyr, X, 13, 19 ; Caff. Deliber. p. 47 ; annal jan, p. 15.
- كل المؤرخين العرب : أبو الفدا ابن الأثير ، ابن خلدون يجعلون الاستيلاء على هذه المدينة فى عام ٤٩٥ هـ : الذى يبدأ فى ٢٥ من أكتوبر عام ١١٠١ م . ويرجع « كافارو » هذا الحدث الى عام ١١٠١ م وكذلك يفعل « فوس » على الأرجح .
- (٢) Lib. jur. I, 18, D. Vaissette, Hist de Languedoc, IV, 348 et s.
- (٣) يظهر اسم القائد العام روجر Roger كثيرا فى موائيق النصف الاول من القرن الثانى عشر ، والخاصة بشمال سوريا .
- (٤) Ritter (Erdk, XVII, 1. p. 606, 619 et s., 625).
- فى عصر الحروب الصليبية ، أهديت احدى الجزر الصغيرة الى القديس نيقولا :
St. Nicolas : Wilken, Gesch. d. Kreuzz. VII, 705.
- (٥) Foucher de Chartr. p. 420; Caffar Annal p. 15; De liberat. p. 48;
Hist. regni hieros. p. 49; Guill de Tyr, XI, 10. Kugler, op. cit. p. 74.
Hagenmeyer, Ekkeh. p. 328.
يحدد هاجنماير مع فوش يوم ١٣ من يولية تاريخ الاستيلاء على المدينة .

استسلمت في ٢٣ من يولية (١) ، وأتم الاستيلاء على هذه المدينة ربط الجزء من سواحل سوريا الذي يملكه البروفانسيون بالاقليم الشمالى الذى يحتله النورمانديون ، وكانت هذه خطوة عظيمة فى سبيل الحفاظ على الدول الصليبية بوجه عام . ومع ذلك لم يزل باقيا بين مملكة القدس وكونتية طرابلس ثغرة شديدة الخطورة : فقد كانت عكا الواقعة فى أقصى الشمال من المملكة ، وجبله فى أقصى الجنوب من الكونتية مفصولتين بشريط عريض من اقليم لم يفتح بعد : وفى هذا الاقليم تقع مدن صور Tyre ، وسيدون (صيدا حاليا) Sidon ، وبيروت (بيريت) Beryte ، ومن هذا الحين أصبح الاهتمام الرئيسى عند ملوك بيت المقدس أن ينتزعوا هذه المدن من أيدي المسلمين ، ويضموها الى مملكتهم . وفى غضون عام ١١١٠ نجح الملك بلدوين فى فتح اثنتين من هذه المدن : بيروت ، وصيدا ، الأولى فى ١٧ من مايو بمساعدة اسطول جنوى (٢) ، والثانية فى ١١ من ديسمبر بمساعدة صليبيى الشمال بقيادة سيجورد جورسالا فارى Sigurd jorsalfari (٣) وأسطول فينيسى بقيادة الدوج اوردلافو فالبيرو Ordelafo Falier نفسه . ولا تذكر وقائع الحروب الصليبية شيئا عن تعاون البنادقة فى هذه الظروف ، غير أن هذا التعاون أكد فيما بعد داندولو Dandolo فى أخباره (٤) ، وعزز قوله هذا بموثيق (٥) أثبت فيها أنه فى مناسبة الاستيلاء على صيدا ، تنازل الملك بلدوين لكنيسة القديس مرقس بالبندقية وللدوج اوردلافو فالبيرو عن أملاك وحقوق عديدة فى عكا . وقد فقد النص الأصيل للميثاق المشار اليه ، ومن ثم لانعرف عنه سوى ما ذكرناه آنفا ، ولكن من المرجح كثيرا أنه كان يتضمن أيضا تنازلات عن بعض الأملاك لصالح البنادقة .

وانقضت فترة تزيد على عشر سنوات قبل أن يظهر ثانية أسطول ايطالى على سواحل سوريا ؛ وفى هذه الفترة كان البيزيون يحاربون المسلمين فى جزيرة ماجورقا Majorque (مالوركا بالاسبانية - المترجم) التى استولى عليها المسيحيون فى وقت ما (١١١٤) ، ولكنها ما لبثت أن ضاعت منهم . وكانت جمهوريتنا جنوا وبيزا تتصارعان علنا ، صراعا طال أمده ، كان العقبة الرئيسية

Ann. Jan. p. 15.

١٠٠
- تبعاً لابن الأثير (ص ٢٧٤) وابن خلدون (ص ٧١) ، كان تانكرد هو الذى استولى فى الواقع على المدينة ، وألحقها بامارة أنطاكية ، ومنح الجنويين فى الداخل رقعة من الأرض يقيمون عليها مبانيهم

Ann. Jan. p. 15; Fouch. de Chartr. p. 420 et s.; Alb. Aq. p. 362; (٢)

Guill de Tyr. XI, 13.

Riant, Expéditions et Pélérinages des Scandinaves en Terre Sainte, p. 190 et ss. (٣)

Murat. SS. XII, 264. (٤)

Taf et Thom, I, 86, 91, 145. (٥)

التي حالت بينهما وبين متابعة مشروعاتهما في الشرق . وفي عهد بلدوين الثاني أدى هذا التوقف من جانب الغربيين الى وقوع المسيحيين في سوريا في ضيق شديد : فقد جعل المسلمون يناوشونهم من الشمال والجنوب في وقت واحد . وعندما كان وجود الملك في الجنوب ضروريا للغاية ، كان مضطرا في الوقت نفسه للدفاع في الشمال عن امارة أنطاكية التي كان أميرها آنثذ في قبضة المسلمين ، ومن ثم أرسل بلدوين الى البندقية طلبا للنجدة ، في اسلوب شديد الالاحاح ، ضمنه وعودا خلاصة (١) . ولما كان البابا يؤيده بكل ما يملك من سلطة ، فان ندائه قوبل بالترحيب من جانب أهالي البندقية ودوجها دومنيكو ميشيل Domenic Michiel . ومن البندقية أفلح في عام ١١٢٢ (٢) أسطول قوامه مائتا سفينة شراعية (٣) بقيادة الدوج نفسه . ولكن طال انتظار وصول الأسطول الى سوريا لأن البنادقة توقفوا في الطريق لفض نزاع بينهم وبين الأمباطور اليوناني ، وضربوا الحصار قبالة كورفو Corfou ، وفي هذه الأثناء ازدادت الحالة سوءا في فلسطين ، ووقع الملك بلدوين أسيرا في أيدي المسلمين (أبريل ١١٢٣) ؛ وكان العدو القادم من مصر يتأهب لغزو البلد برا وبحرا ، وأرسل الأهالي الى البنادقة رسالة بعد أخرى يستعجلون وصولهم . وأخيرا وقر عزم البنادقة على الابتعاد عن كورفو ، واقترب وصولهم الى سوريا بانتصار بحري عظيم على المصريين قبالة عسقلون ، وهزم فرسانهم الجيش المصري قبل ذلك ببضعة أيام (٤) . وقد كشف هذان النصران عن شجاعة ضباط الملك الأسير ، وقر عزم هؤلاء الضباط على أن يحاصروا بمساعدة البنادقة موقعا من الموقعين البحرينيين اللذين لم يزالا في قبضة الأعداء ، وهما عسقلان وصور : وعلى ذلك عقدت معاهدة (٥) في أواخر عام ١١٢٣ غالبا ، في مدينة عكا حيث كان الأسطول

(١) Historia-ducum Veneticorum, éd. Simonsfeld, Mon. Germ. hist.

SS. XIV, 73; Dandolo, p. 269 et s. et Sanuto qui s'inspire du précédent, dans Bongars, p. 158; cf. Taf et Thom, I, 85.

(٢) بين ابحار الأسطول من البندقية ووصوله الى سوريا عام ١١٢٣ فترة فصل الشتاء ، قضاهما الأسطول أمام كورفو .

(٣) هذا هو الرقم الذي ذكره المؤرخون البنادقة : ويذكر أرقاما أخرى كل من :

— Fouch. de Chartr. p. 449. et Guill de Tyr., XII, 22.

(٤) بخصوص هذا النصر البحري ، أنظر :

— le Pactum Warmundi, dans Taf, et Thom, I, 84; Guill. de Tyr, I, c. L'hist. duc Venet., I, c. p. 73 et s., et Dandolo, p. 270

وحسبما ذكر هؤلاء ، جرت المعركة على رأي من Joppé . حقا ، كان أسطول العدو

قد رساومة قبل ذلك بعدة أيام ، ولكن بعد هزيمة الجيش البري انسحب الأسطول الى عسقلان .

(٥) في حوزتنا النسخة الاصلية من هذه المعاهدة ، ونسخ أخرى قديمة ولكنها سليمة ،

نشرها : Guill de Tyr Tafiet Thom, I, 79 et ss.

بأكملها في كتابه (XII, 25) ، وعرض داندولو ، ص ٢٧٠ نبذة منها .

الفينيسى قد ألقى مراسيه ، وذلك بين نواب بودوان (بلدوين) ، والبطريرك ويرمند Waremund ، والقائد العام جويوم دو بور Guillaume de Bures (مجتمعين مع سائر الأشراف ، من مدنيين واكليروس فى المملكة) من جهة ، والبنادقة من جهة أخرى ، وعززت هذه المعاهدة الوعود التى أعطاها فيما مضى الملك بلدوين ، وأضافت إليها وعودا جديدة . ونص فى المعاهدة على أنه اذا أسهم البنادقة اسهاما رئيسيا فى الاستيلاء على المدينتين ، يصير ثلث كل منهما ملكا خالصا لهم ، ويبقى الثلثان الآخران للملك ، ويقسم الاقليم وفقا لهذا المبدأ . فضلا عن ذلك ؛ يجب فى كل مدينة تنتمى الى الملك أو الى أحد باروناته ، أن يوضع فى أيدى البنادقة شارع ، وميدان ، وكنيسة ، وحمام ، وفرن - دون أن يدفعوا أى تعويض - وتكون مجردة من أى حق ارتفاق ، ويخصص لهم فى القدس حتى تساوى مساحته مساحة حى الملك (١) . واحتفظ البنادقة بالحق فى أن يكون لهم فى عكا مخبز ، وطاحونة ، وحمام - رغم أية مطالبة من قبل السكان - وكانوا معافين من جميع الضرائب على المشتروات والمبيعات ؛ ومن رسوم الدخول الى الأراضى التابعة للملك وأتباعه والخروج منها .

وبعد تمام التوقيع على المعاهدة أجريت القرعة لتحديد أى من المدينتين تحاصر أولا . وخرج اسم مدينة صور (٢) فى القرعة ، وكان موقعها منيعا بطبيعتها ؛ ومحاطا بحصون قوية . وبدأ الحصار فى ١٥ من فبراير ١١٢٤ . وارتأى للبنادقة أن المدينة لا يمكن غزوها من ناحية البحر ، لذلك سحجوا سفنهم الحربية كلها الى البر ، فيما عدا واحدة تتجول أمام الميناء ؛ وصنعوا آلات للحصار ، وقتلوا بشجاعة الى جانب الفرنجة (٣) . ولما كان الفرنجة يعوزهم المال ، فانهم أعانوهم وقدموا لهم مائة ألف دينار ذهبى بينظى (٤) . وفى ٧ من يولية استسلمت المدينة (٥) ، ونفذت المعاهدة فى الحال ، فاحتل البنادقة ثلث المدينة ، ملكا خالصا لهم (٦) ؛ ويدعى البعض أنهم منحوا نصف المدينة أو ثلثها عرفانا لهم

(١) بخصوص نصوص المعاهدة ، انظر ترجمة جويوم دو تير (Taf. et Thom, I, 85) بالفرنسية القديمة .

(٢) لم يتم الاستيلاء على عسقلان الا فيما بعد ، استولى عليها الملك بلدوين الثالث دون الاستعانة بأسطول ايطالى . ويجعل ويلكن Wilken بحق هذا الحدث فى عام ١١٥٣ ، وتايد هذا الراى فيما بعد ، أولا بكتابة وجدت فى بارليتا Barletta ونشرها شولز فى : (Denkmaeler Unteritaliens I, 138) ، ثم بمصادر عربية ، انظر :

— Wüstenfeld, Gesch. der Fatimiden Chalifen, Goett. Abh. XXVII, 1881, sect. 3, p. 92.

Guill de Tyr, XIII, 1-14; Fouch. de Chartr. p. 479 et ss; Hist. duc Venet. 1.c.p. 74; Dandolo, p. 271. (٣)

Hist duc. Venet. 1. c. (٤) هذا المبلغ قرابة ١٣٠.٠٠٠ فرنك

Fouch. de Chartr. p. 465. (٥)

Guill de Tyr, XIII, 14; Dand 1 c. (٦)

بما أدوه من خدمات جليلة ، غير أن الدوج رفض ذلك (١) . وحين استعاد الملك بلدوين حريته بعد هذه الواقعة بقليل ، لم يفته أن يصدق على ما وعد به نوابه (٢) ، ولكنه أضاف أن على البنادقة أن يحشدوا للدفاع عن صور جيشا يتناسب قوامه مع دخل الثلث الذى يملكونه . أما فى المحرر الأصيل للمعاهدة ، فكان ثمة التزام بعدم دفع الرسوم الجمركية التى تحصل فى المملكة من الأمم التى تمارس التجارة مع البنادقة . وبالتأكيد لم يكن هناك حذف أو اضافة ، بالصدفة أو عن خطأ ، ولكن الحقيقة أن الملك لم يكن يريد أن يتقيد بشئ فى موضوع الجمارك (٣) .

وباختصار ، يتبين من كل ما سبق ذكره أن أمراء الدول الصليبية لم يستولوا على أية مدينة من مدن سوريا الساحلية دون معاونة الأساطيل الإيطالية . وقد أسهم الجنويون فى غزو العدد الأكبر من هذه المدن ، أما نصيب البنادقة فى الغزو فكان أقل من نصيبهم ، ولكنهم ساعدوا فى الاستيلاء على صور ، أهم هذه المدن .

أما البيزيون بعد الحملة الطموح التى قادها ديبرت Daibert رئيس الأساقفة ، والتى لم تأت بنتائج ذات شأن ، فاننا لانراهم بعد ذلك سوى مرة واحدة ، فى عام ١١٠٨ بصفتهم حلفاء للصليبيين ؛ وكان الأمر ، بالصدفة الغربية يتعلق مرة أخرى بالاستيلاء على « اللاذقية » Laodicée ، ولم يكن الأعداء الذين يحاربونهم هم المسلمون ، ولكنهم كانوا اليونانيين . وانتهت المنافسة التى اشتدت شمالى سوريا بين النورمان وبين اليونانيين الى صراع فاصل للاستيلاء على اللاذقية . وحارب الطرفان بضراوة . ولم يكده الأمير تانكرد يصير سييدا على المدينة (١١٠٣) بعد حصار دام سنة ونصف سنة (٤) حتى وصل جيش يونانى جديد للنجدة واسترد المدينة والميناء . الا أن القلعة ، التى دافع عنها حامية نورماندية ، كانت هى وحدها التى صمدت طويلا ضد عدو يفوقها كثيرا فى القوة (٥) ؛ ومع ذلك فانها استسلمت فى النهاية على ما يبدو ، لأن تانكرد لم يستطع أن يرسل

Chron. Altin. 1. c.

(١)

يذكر هذا المصدر أنه كان ثمة مشروع باقامة الدوج على العرش بدلا من بلدوين الذى وقع فى الأسر ، هذه المعلومة غير صحيحة بالتأكيد .

(٢) لم تكن وثيقة التصديق ، فى نقاطها الرئيسية سوى نسخة من المعاهدة ، ويعطى مورات عنها (Murat. Ad. calc. Dandul. p. 274 et s.) نصا غير صحيح ، وتاريخا كاذبا . أما : (Taf. et Thom. I, 90 et ss.) فيعطيان عنها معلومات أصح ، ويحددان التاريخ الحقيقى ، عكا ، مايو ١١٢٥) .

Wilken, Gesch. d. Kreuzz. p. 501.

(٣) قيل هذا عكس ما زعمه ويلكن :

Raoul de Caen, p. 708 ; Ann Comn. II, 107 ; cf. Fouch, de Chartr. p. 407. (٤)

Tudebod, contin., dans le Recueil des hist des crois p. 228 ; Anne (٥)

Comn., II, 123-126; Raoul de Caen, p. 712, 715 et s.

اليها أية نجدة لانشغاله في جهة أخرى . غير أنه ما أن استعاد قدرته على التحرك حتى ظهر ثانية تحت جدران الحصن بجيش ييزى ساعده في الاستلاء عليه وضمه الى امارة أنطاكية (١١٠٨) (١) ؛ وكان قد وعد البيزيين ، قبل استسلام اللاذقية أن يعطيهم ، في حالة نجاحهم ؛ حيا في كل من اللاذقية وانطاكية يمارسون به تجارتهم ، كما وعدهم بممارسة التجارة بكامل حريتهم ، واعفائهم من الضرائب في موانيه وأقاليمه بصفة عامة . وبعد الاستيلاء على المدينة ، عزز وعوده بميثاق قائم على نصوص مماثلة (٢) . وقد قيل انه كان هناك أسطول ييزى الى جانب الأسطول الجنوى في حصار أرسوف وقيصرية عام ١١٠١ ، وعكا عام ١١٠٤ ، وطرابلس عام ١١٠٩ ، ولكننا نشك في صحة هذه الزمالة في السلاح اذ نعلم ما كانت عليه العلاقات بين الجنوبيين والبيزيين . ونحن اذا فكرنا ، فضلا عن ذلك ، بصدد هذه الحملات الثلاث ، في أن مؤرخا واحدا ؛ « البير من ايكس » Albert d'Aix هو الذي جمع بين البيزيين والجنوبيين (٣) ، في حين أن المصادر الأخرى كلها لاتذكر الا الأخيرين (أى الجنوبيين) ، فانه من العسير التسليم بأن البيزيين كانوا حاضرين في هذه الحصارات . ومع ذلك فمن الثابت بشهادة شاهد موثوق بصدقه ، أوردها فوشيه دوشارتر Foucher de Chartre أنه كان في صفوف جيش جنوا في حصار أرسوف وقيصرية ايطاليون من قوميات أخرى (٤) . كذلك من المحتمل أن نبيلا ييزيا يدعى جاندولنس Gandolfus كان يحارب الى جوار الجنوبيين ومعه عدد من أقربائه ، اما في هذه المناسبة ، واما في حصار عكا ، وبرز في القتال بنوع خاص ، ذلك لأن الملك بلدوين الأول شمل أفراد أسرته بالاعفاء من رسوم الجمارك ، أسوة بالجنوبيين (٥) .

(١) في الوقت الذي تم فيه الصلح بين الأمباطور الكسوس وبوهيمند (سبتمبر ١١٠٨) في دورازو Durazzo لم تعد اللاذقية بالتأكيد تنتمي الى اليونانيين ، ولكن من العسير تحديد التاريخ الذي انفصلت فيه عن الأمباطورية . ويحدد كرجلر لذلك عام ١١٠٦ (Kugler, op. cit., p. 71) أما ويلكن فيحدد له عام ١١٠٨ (Wilken, op. cit., II, 276 et s.)
وأما الوثيقة البيزية الأصل ، والتي سوف نتحدث عنها بعد قليل ، فانها تؤيد التاريخ الأخير .

(٢) الميثاقان بتاريخ ١١٠٨. Documenti sulle Dal Borgo, Dipl. Pis, p. 85 et s.; relaz. tox. coll'Oriente, p. 3.

— كانت اللاذقية متصلة بالبحر بوساطة شارع ذي أعمدة ، وهذى خاصية تتميز بها المدن السورية . وكانت هذه الطرق ذات العمدة ، مع كنيسة القديس نيقولا المبنية عند المدخل تشكل القسم الخاص بالبيزيين . وأضاف الأمير رينو ، بصفة مؤقتة ، ساحة أخرى للبناء واقعة عند الميناء ، أنظر :

— Dal Borgo, p. 86 et s., 94; Doc. sulle relaz. p. 6, 15 et s.

Ed. Bong. p. 310, 335 et s.

(٣)

Recueil, p. 385.

(٤)

Lib. jur. reip Jan. I. 16.

(٥)

وبعد أن ذكرنا المدن البحرية الإيطالية الثلاث التي أسهمت اسهاما فعالا في تأسيس الدول الصليبية وتوسيعها ، لا بد لنا من التنويه بمدينة في جنوب فرنسا ، هي مونتيلي ، والقضاء المزيد من الضوء على الدور الذي أداه المرسيليون في هذا العمل . ويبدو أنهم قد برزوا قبلا أثناء الحملة الصليبية الأولى : ذلك لأن بلدوين الأول ، اعترافا منه بالخدمات التي أسدوها لسلفه جودفري دويون أصدر لصالحهم في عام ١١١٧ (١) مرسوما يبيح لهم تخطيط حدود حيهم في مدينة القدس بحيث لا يسمح لأى أجنبي بالاقامة في هذا الحي ، وأن يكون لهم به فرن خاص .

وأضاف المرسيليون إلى الخدمات التي أدوها في الأصل ، خدمات أخرى ، وكانوا نافعين ليس فقط للمملكة القدس ، ولكن لكونتية طرابلس ، اما بعمل مباشر أثناء المعارك ، واما بتقديم أموال ، واما بإسداء نصائح مفيدة . هذى هي الحقائق التي أثبتتها مديحا لهم كل من الملك فولك دانجو Foulques d'Anjou في عام ١١٣٦ ، والملك بلدوين الثالث في عام ١١٥٢ . وكانت مكافأة الجالية المرسيلية نظير خدماتها هذه الاعفاء من الرسوم الجمركية ، والقريبة على الانتاج ، والحق في امتلاك شوارع وكنيسة وفرن في القدس وعكا وكل المدن الساحلية في المملكة (٢) .

ومن الطبيعي أن تكون لكل الأمم التجارية التي قدمت تضحيات في الأرواح والمال للمساعدة في انشاء الدول الصليبية الحق في امتيازات خاصة يمنحها إياها ملوك هذه الدول . وهناك على العكس من ذلك أمم لم يثأت لها أن تقدم مثل هذه الخدمات ، ومن ثم تخلفت في هذا المضمار ، مثال ذلك الأماليون الذين كانت لهم علاقات قديمة بسوريا كانت خليفة بأن تكفل لهم في هذه الظروف بعض المزايا . وكان في أنطاكية قبل اندلاع الحروب الصليبية حتى أماليا (٣) ، بقى على ما كان عليه ، وبنى إلى جواره حي جنوى ، الا أن الأمراء الجدد لم يضيفوا إلى أملاك الأمانيين الا شيئا قليلا جدا ، واقتصرت أملاكهم في مجموعها على

(١) يعطى M. Deguignes. ملخصا لهذا الميثاق في :

les Mém. de l'Acad. des Inscr., XXXVII, 515.

ولكنه ينسبه خطأ إلى بلدوين الثاني ، في حين أن

بلدوين الأول (المتوفى عام ١١١٩) كان ولم يزل يتولى الحكم في عام ١١١٧ .

(٢) Papon, Hist de Provence II, Preuves, no XVIII ; Méry et Guindon,

Histoire des actes de la municipalité de Marseille, I, 183 et s.

— Papon, l. c. no XIV ; Méry et Guindon, I, 182.

— لما ورد في مرسوم بلدوين ذكر لمبالغ قدمها المرسيليون ، فإن هذا المعلومة تتيح لنا أن نفترض ان المرسوم لم يكن تاريخه في الواقع عام ١١٥٢ ، ولكنه مؤرخ بعام ١١٥٣ ، لان التاريخ الأخير ، هو تاريخ حصار عسقلان والاستيلاء عليها .

Ughelli, it. sacr. IV, 847; Paoli, Cod. dipl. I, 27, 38.

(٣)

ثلاثة حوانيت فى ميناء اللاذقية منحها لهم الأمير بوهمند الثالث (١) . وفى مدينة طرابلس حصلوا فى عهد سيادة الصليبيين على بضعة منازل (٢) ، ذكر منها منزل انيكونت ، وسوق احتفظوا بها الى أن استعاد العرب المدينة ، وكان الملاك الحقيقيون هم أساقفة أمالفي ، وقد تركوا ريع هذه العقارات لبعض المواطنين الذين تكفلوا بصيانتها على حسابهم الخاص (٣) . وختاما لهذه النقطة نضيف أن عكا هى المدينة الوحيدة بين كل مدن مملكة القدس التى ثبت وجود جالية أمالفية فيها ، لهم بها بعض الأملاك الى جوار الحى البيزى (٤) . كذلك كان فى جبانة القديس نيقولا قسم لموتاهم ، ومستودع لعظام الموتى بناء نبيل أمالفي يدعى مانسو (٥) . ولم أصادف فى أية وثيقة اسم فيكونت أو قنصل أمالفي فى سوريا .

ما أعظم الفرق بين الهبات الزهيدة التى كانت تعطى للأمالفيين ، وبين المنح الضخمة والتنازلات الكبيرة عن الأراضى للبنادقة والجنويين والبيزيين ! ولكننا نقول ، حتى نكون صادقين ، ان المزاياء الموعودة بها لم تكن تنفذ كلها دائما ، وأن البعض منها قد سحب فيما بعد . مثال ذلك أن معاهدة عام ١١٢٣ التى كانت فى الواقع تجديدا وتوسيعا للوعود المبرمة فى عام ١١٠٠ ، والتى أقرت للبنادقة الحق فى ملكية حى كامل (أى بما فيه موضع للسوق وكنيسة وحمام وفرن) فى كل مدينة بمملكة القدس ، هذه المعاهدة لم تنفذ أبدا تنفيذا دقيقا . والحقيقة أن البنادقة أنفسهم لم يتمسكوا بهذه المعاهدة ، دون شك ، على الأقل بالنسبة الى المدن الداخلية ، فيما عدا القدس ، ولكنهم لم يحصلوا بهذه المعاهدة على حقوقهم ، حتى فى المدن الساحلية كلها ، وفى عسقلان التى ضمن لهم فيها الثلث بنوع خاص (٦) ، والمرجح أن الأمر كان كذلك بالنسبة الى المرسلين الذين كان لهم أيضا الحق فى ملكية حى فى كل مدينة ساحلية .

(١) Ughelli, it sacr. VII, 203 ; Pansa, Istoria dell'antica repubblica di Amalfi, I, 94 ; Camera, Istoria d'Amalfi, p. 204 ; Memorie di Amalfi, p. 202. وأصدق نص فى هذا الخصوص هو نص كاميرا

(٢) صودرت بعض هذه المنازل ، ولكنها أعيدت الى ملكية أصحابها بحكم أصدره الكونت ريموند الثالث (١٥ من يونية ١٩٦٣) انظر Camera, Memorie di Amalfi II, 202 et s.

(٣) أنظر وثيقة ١٩ من نوفمبر ١١٨٦ فى Pansa, op. cit., I, 97; dans Camera, Storia, p. 205; Memorie, p. 203 et s.; Ughelli, op. cit. p. 204

— Pansa, II, 53 et s., 137 et s. : فى ١٢٦٧ ، ١٢٨٦

(٤) ملخص لوثيقة فى عام ١٢٦٧ فى : Pansa, II, 53 et s., 137 et s.

(٥) Pansa, I, 91; Ughelli, VII 203; Camera, Storia di Amalfi, p. 206! (٥) id. Memorie di Amalfi, p. 200.

(٦) أنظر الشكوى التى حررها عام ١٢٤٤ البابل (الحاكم) البندقى مارسيلوس جوجيوس

فى : Taf et Thom. II, 398. ويطلب فيها بتنفيذ نصوص معاهدات سابقة .

وكثيرا ما رأى الجنويون بمرور الزمن امتيازاتهم وقد انتهكت وأملاكهم وقد نقصت غصبا ، وقدموا لذلك العديد من الشكاوى (١) . بل ان الملك أموري (١١٦٢ - ١١٧٣) ، بالتواطؤ مع كهنة كنيسة قبر السيد المسيح مضى في هذا السلوك الى حد محو الكتابة المنقوشة احياء لذكرى الخدمات التي أداها الجنويون للملكة ، وتعدادا للمزايا التي حصلوا عليها مكافأة لهم على هذه الخدمات (٢) . وأثار هذا العمل مخاوف الجنويين من أن تضيق شيئا فشيئا حقوقهم في الأملاك التي يتمتعون بها ، لذلك سعوا مرة بعد أخرى لدى البابوات الذين أظهروا لهم العطف ، حتى يستطيعوا بفضل تدخلهم أن يعيدوا نقش هذه الكتابات (٢) . ولم تنجح هذه المساعي ، وتصرف معهم بلدوين الرابع ابن أموري بقصد سيء ، ونازعهم أملاكهم ، وأنكر حقوقهم . وأصابتهم خيبة أمل مماثلة في كونتية طرابلس : فما أن تسلموا هذه المدينة حتى طردهم منها الأمير برترام Bertram نقضا لما سبق أن وعدهم به (٤) . وليس من الثابت أن الجمهورية أبتفعت بعد ذلك بالثلث الذي كانت تملكه ، كما نازعها هذا الثلث الكونت ريموند الثالث ، وأرسل اليه البابا أوربان الثالث Urbain III انذارا في هذا الشأن (٥) ، ولم يثبت بالمرّة أن كان لهذا الانذار أى أثر .

وظهر في توزيع الأموال التي تمتلكها الأمم الثلاث الأكثر رعاية في اقليم سوريا تفاوتات كبيرة ، وكان هذا التوزيع يمثل بوجه عام نصيب كل من هذه الأمم عند غزو أية منطقة . مثال ذلك أن البنادقة لم يقدموا أية وحدة عسكرية في القسم الشمالى من سوريا ، لذلك فإنهم لم يمتلكوا بها الا النزر اليسير ، وكان كل ما يملكونه في اماره انطاكية ، وفي كونتية طرابلس محصورا

Annal., Jan, p, 24, 31.

(١)

Annual, Jan, p. 51 ; Mr. de Vogüé (Les églises de la terre sainte, p. 221).

(٢)

يعتقد السيد فوجويه أن الكتابة محيت بسبب بعض التغييرات التي أجريت داخل الكنيسة ، وأنه ليس هناك ما يثبت سوء نية الملك تجاه الجنوبيين . ولنسلم بأن هذه التغييرات قد أدت الى هدم كل ما بداخل الكنيسة ، ولكن ذلك لا يمنع من الاحتفاظ بالكتابة ، ونقلها الى جهة أخرى اذا توفر حسن النية ، كما أنه قد وصل الى علمنا تصرفات أخرى عدائية من جانب الملك نحو الجنوبيين ، فمن المعروف أنه لجأ الى البيزيين ، أعداء الجنوبيين الالاء ، ملتصبا مساعدتهم له في حملة يوجهها الى مصر .

Lib. jur. 1, 228 et s., 309, 331 et ss.; Ughelli, 1. c. IV, 874 et S. ; (٣)

Langer, op. cit., p. 156.

وقد أذن كونراد دو مونفيريا ، أمير صور في عام ١١٩٢ بترميم الكتابة ، غير أن الجنوبيين لم يستفيدوا من ذلك لأن القدس وقعت منذ عام ١١٨٧ في أيدي المسلمين .

Calff, p. 48, 49.

(٤)

Lib. jur. I, 338 et s.

(٥)

داخل أسوار العاصمة . أما الجنويون فانهم نالوا من الهبات ، عقب الاستيلاء على أنطاكية un fondaco (مستودع) ، وكنيسة القديس يوحنا ، وثلاثين بيتا (١) . وفيما بعد ، منحهم تانكرد موقعا للبناء في ميناء هذه المدينة ، وعقارا (فيللا) خارج المدينة ، كما منحهم في اللاذقية حيا في الميناء ، وقصر ابلية Elie وكنيسة (٣) ، مكافأة لهم دون شك على المساعدة التي قدموها له لكي يستولى على جيبيل Gibel (يولية ١١٠٩) . وفي هذا الحين تلقى البيزيون ملكا خالصا لهم ، حيا في أنطاكية ، وشارعا ذا عمد ، وكنيسة القديس نيقولا في اللاذقية (٤) ، في حين قنع البنادقة بكنيسة ، و (مستودع) fondaco . وبضعة منازل في أنطاكية (٥) . وجرت الأمور على هذا المنوال في كونتية طرابلس . ولم يصل إلينا طوال القرن الأول من تاريخ هذه الكونتية سوى صك امتياز واحد ، أصدره عام ١١١٧ لصالح البنادقة أحد كونتات طرابلس ، كما أن الهبة التي قدمها الكونت بونس Ponce لكنيسة القديس مرقس كانت قاصرة على بيت في الميناء (٦) . أما البيزيون فكانوا على العكس من ذلك يمتلكون في المدينة الكثير من المنازل التي ازداد عددها بهبات أو بالشراء (٧) . أما بخصوص الجنويين ، فإن سوء نية الأمير برترام منهم من الحصول على ثلث مدينة طرابلس ، وهو الثالث الذي كان لهم حق امتلاكه ، ولكنهم حصلوا عوضا عن ذلك على مدينة باكملها ، مدينة جبلة Gibelet ، وضيعة « جبل القائد العسام » Puy du Connetable فكانوا بذلك الأمة الأكثر رعاية .

وكان الأمر على خلاف ذلك تماما في مملكة القدس ، إذ بقي البيزيون هناك متخلفين على الأمتين الآخرين ، أولا لم يكونوا يملكون بها سوى خمسة منازل في صور ، وهبها لهم الملك بلدوين الثاني (٨) . وفي غضون القرن الثاني عشر اضافوا الى هذه العقارات ، بالشراء أو بهبات جديدة عدة منازل وأراضي

Ughelli, It sacr, IV, 846 et s. (١)

Cf. sur ce chateau Raoul de Caen, cap. 151. (٢)

Ughelli, It sacra, IV, 847 et s. (٣)

Dal Borgo, Dipl Pis, p. 85 ; doc. sulle relazioni tox. coll' Oriente, (٤)
p. 3.

، تلقوا أيضا فيما بعد منزلا في أنطاكية ، وموقعا للبناء في اللاذقية ، انظر :

— Dal Borgo, p. 86, 93; Doc. p. 6, 15 et s.

Taf et Thom. I, 102 et s.; 134, 149, 176. (٥)

Taf el Thom. I, 76; cf. I, 146. (٦)

Dal Borgo, p. 95, 84, 84 103; Doc. sulle relaz tox. p. 17, 24, 25. (٧)

Doc. sulle relaz tox, au bas de la p. 7. (٨) (بأسفل الصفحة ٧)

للبناء ، وسوقا ، وكنيسة ، وحدائق ، وطواحين في الضواحي (١) ، شكلت في النهاية مستعمرة كبيرة وغنية .

وفي عكا تنازل لهم الملكان أموري (١١٦٨) وبلدوين الرابع (١١٨٢) عن أراض لبناء كنيسة ودور عامة وخاصة (٢) . وفي عام ١١٤ أعطاهم الكونت أموري العسقلاني بلا مقابل في يافا موقعا ملائما لاقامة سوق وكنيسة وبيوتا سكنية كثيرة (٣) . ونعلم أن الجالية البيزية كان لها أملاك في القدس وقيصرية ، ووجدنا البرهان على ذلك في وثيقة بها فقرة تتعلق بمنازعات بين البيزيين وبين بطريك القدس ودير سانتا ماريا دي لاتينا *Saneta Maria de Latina* بالقدس ، واكليروس قيصرية (٤) .

وإذا أردنا المقابلة بين الجنوبيين ووضع البيزيين ، فإن معنا قائمة بالتنازلات التي منحت للأولين في عام ١١٠٤ بموجب وثيقة رسمية للملك بلدوين الأول (٥) ، هذه التنازلات تشمل : حيا في كل من مدينتي القدس ويافا ، وثلثا من كل من مدن أرسوف ، وقيصرية ، وعكا وضواحيها ، وكذا من كل مدينة يشترك في حصارها في المستقبل فرقة من خمسين جنويا على الأقل ، وحدث هذا الاشتراك بعد ست سنين في حصار بيروت .

وأخيرا ، كان للبنادقة امتياز وحيد في نوعه ، اذ كان لهم الحق في حصنة في كل مدينة من مدن المملكة ، حتى ولو تم الاستيلاء عليها بدون مشاركتهم . وقد رأينا أنهم لم يتوصلوا الى تنفيذ هذا الحق في كل الجهات ، ولكن هذا كان استثناء من القاعدة ، ونحن على ثقة من أن الاتفاقية قد طبقت في حيفا (اسمها القديم *Caiffa* وفي صيدا ، وهذا ثابت في صك امتياز صادر في عام ١١٦٥ بالنسبة الى حيفا (٦) . وبالنسبة الى صيدا ، فقد أسهم البنادقة في الاستيلاء عليها ، لذلك منحهم الملك بلدوين الأول صك امتياز . ضاع لسوء الحظ . وأنا لنجد ذكرا لهذه المسألة في صكوك لاحقة (٧) تتعلق بشوارع في عكا منحوه في هذه الفترة . ونمت أملاك البنادقة بهبة جديدة في عام ١١٢٣ ، وفي الوقت نفسه منحهم الملك في القدس رقعة من الأرض مماثلة في مساحتها

(١) انظر براءات اعوام ١١٥٦ ، ١١٦٥ ، ١١٨٧ في : Doc. sulle relaz tox, p. 6 et s. ; (Dal Borgo, Dipl. p. 87 et ss., 90, 100 et ss.) ; Taf et Thom II, 385.

(٢) Doc. sulle relaz. tox, p. 14, 23, (Dal Borgo, p. 91 et s., 96).

(٣) Doc. sulle relaz. tax, p. 8 (Dal Borgo, p. 89).

(٤) Doc sull relaz. tox, p. 8 (Dal Borgo, p. 88).

(٥) Lib. jur. I, 16 et s;

(٦) Taf. et Thom. I, 146.

(٧) Taf. et Thom I. 88, 91, 145.

الرقعة التى يملكها هو نفسه . الا أن أهم أملاكهم كانت فى صور (١) ، وقد تسلموا ثلثها بالكامل ، بما فيه الأراضى والحقول التابعة لها ، المستأجرة بطريق المزارعة (٢) . نرى مما سبق أن الامتيازات الممنوحة فى المدن للجاليات المبعوثة من قبل الجمهوريات التجارية الغربية تتكون من أراض تقام عليها المباني ، أو من عدد من المنازل ، أو من شارع كامل ، أو من قسم من المدينة . وكان مجموع المباني التى تصبح ملكا لأمة تجارية ، يطلق عليه اسم *ruga* أو *vicus* لهذه الأمة (٣) ، وتتضمن المباني الخاصة بالسلطات والمنشآت العامة التى يستخدمها أفراد الجالية ، وبيوت الأفراد . ونذكر فى مقدمة المباني من النوع الأول *Bailliage* ، مقر الإدارة والمحكمة ، ويقوم به رئيس الجالية ، ويجتمع به مع المحلفين الذين تتشكل منهم المحكمة ، كما يجتمع بمجلسه (٤) . وفى الجاليات الصغيرة كانت دار واحدة تضم أحيانا الإدارة والمحكمة والمخازن ، مثال ذلك فى أنطاكية حيث طلب البنادقة من الأمير رينو التصريح لهم بتصريف شئونهم القضائية فى المبنى الخاص بمخازنهم (٥) . ومع ذلك كان هذان المبنىان منفصلين بوجه عام ، كما فى أحياء صور وعكا (٦) : ففى هذين المركزين التجاريين الكبيرين ، كانت الحاجة تتطلب مستودعا فسيحا صالحا لأن يكون مخزنا ودارا للبيع . ولم تكن المطالب الدينية للمستوطنين مهمة ، أما لأن حيهم يضم كنيسة موهوبة لهم ، وأما لأن أفراد الجالية قد شيدوا كنيسة أو أكثر (٧) . وكانت هذه الكنائس تهدى عن طيب خاطر للقديس شفيع كاتدرائية الوطن الأصلي .

(١) يؤكد السيد الأستاذ يروتز Prutz الذى درس هذه الجهات أن هذا الثلث الذى حصل عليه البنادقة يشكل القسم الجنوبي ، أو بالأصح الجنوب الشرقى من مدينة صور الحالية انظر : Aug Phönizien, p. 269.

(٢) Taf et Thom I, 79 et ss. 140 et ss., 145 et ss., 167 et ss.

(٣) حينما تصادف بعد كلمة *ruga* كلمة *Campus* ، فإن هذه الكلمة الأخيرة يقصد بها أرض مكشوفة (سوق) تنتمى الى حي تجارى . مثال ذلك فى :

— Sanuto, Istoria di Romania, dans Hopf, Chron. greco-rom.
p. 165 Taf. et Thom. III, 32.

Taf et Thom. III, 40; ibid ibid 11, 364, 390 et s. (٤)

وفى أحد البيوت التى تمتلكها الجالية الجنوبية فى عكا ، كان الدور الأرضى مخصصا للمحكمة وكان البيت المخصص لهذا الغرض نفسه فى المستعمرة الجنوبية بصور ، يطلق عليه اسم *lobia communis*

Arch de l'Or lat. II, 2, p. 215, 222. انظر فى ذلك :

Taf. et Thom. I, 134. (٥)

Ibid. II, 364, 390-393. (٦)

Taf et Thom II, 362 et s. (٧) كان للبنادقة ثلاث كنائس فى صور :

وكانت أكبر وأغنى كنيسة هى كنيسة القديس مرقس St. Marc.

من ذلك نجد أن البنادقة كان لهم كنائس للقديس مرقس في صور وعكا وبيريت (أو بيروت) béryle ، كما كان للجنوبيين كنائس القديس لوران St. Laurent في صور ، وعكا ، وفي قيصرية (على ما يحتمل) (١) .
ومن جهة أخرى ، كان للمستوطنين طواحينهم وأفرانهم وسلاخاناتهم الخاصة ، تكمّلها دار خاصة للاستحمام ، مخصصة لهم دون غيرهم ، يستخدمونها مرة في الاسبوع (٢) .

وكلما كان الحى التجارى واسعا ، ازداد ما فيه من بيوت سكنية ، وحوانيت للبيع ، وورش صغيرة يشتغل بها الأفراد ، وتوجرها أو تبيعها لهم الجالية ، فتحصل على إيرادات كبيرة (٣) . وكانت إيجارات البيوت والمخازن التجارية والحوانيت ترتفع (٤) بنوع خاص في فترات السنة التى تصل فيها قوافل السفن التجارية القادمة من الغرب ، وفى كل مرة ، كان وصول هذه القوافل فرصة لمضاعفة نشاط الحركة التجارية (٥) . وكان المسافرون الذين تأتى بهم هذه القوافل ، ثم تعود بهم فيما بعد ينزلون فى ديار المستوطنين حتى تنتهى أعمالهم . ومن المفيد أن نعرف أى جنس من الناس يتشكل منهم السكان المقيمون فى كل من هذه المستوطنات . إلا أنه من العبث البحث عن إحصائية تفيدنا فى هذا الخصوص . وكل ما نعلمه ، علم اليقين ، هو أنه فى عكا أو فى صور ، على سبيل المثال ، لم يكن الحى البندقي فى أحداها ، أو

(١) Taf. et Thom I, 140, 148, 281 et ss., 425; II, 26, 126, 174, 362 et s. 429 et s., 445 et ss.; III, 31 et ss., 153.

(٢) Paoli, Cod. dipl. I, 164; Ughelli, It sacr. IV, 882; Lib jur. 1, 412; Caffar, p. 14; Arch de l'Or, lat. II, 2 p. 215, 220.

(٣) كان للجنوبيين دار من هذا اليوم فى بيروت ، أنظر : Lib jur I, 665, 687.

(٤) وضع البابل (الحاكم) مارسيليو جورجيو قائمة تفصيلية بالإيجارات التى كانت تحصلها الإدارة القينيسية فى عكا عام ١٢٤٤ ، أنظر : Taf et Thom, II, 389 et ss.

وبعد بضع سنين ، وضع Gugl. di Bulgaro Simone Malocello

من قناصلة المستعمرات الجنوبية ، قائمة بإيجارات المنازل ، والحوانيت ، والأقبية ، الخ التابعة لبلدية عكا (١٤ من يولية ١٢٤٩) ، وكانت التاجيرات تتخذ اما لفترة السوق ، واما للسنة كلها . وقد وضع S. Malocello قائمة واحدة من هذا النوع لإيرادات مستوطنة صور ، بما فيها إيرادات الحدائق والأراضي والمزارع الواقعة فى النواحي المجاورة (١٢ من ديسمبر ١٢٤٩) ، وفى السنة التالية وضع قائمة مماثلة لمدينة عكا (٣ من مايو ١٢٥٠) . هذه القوائم ذات أهمية كبيرة ولا يوجد منها حاليا سوى مطبوعات ناقصة وملاى بالأخطاء والمناقضات وقد نشرها السيد C. Desimoni les Archiv de l'Or, Lat II, 2, p. 215-224.

(٥) Tar-et Thom, II, 362, 390 et ss. ; Camera, Istoria, p. 204 ; Murat, Antiq ital II, 413.

Taf. et Thom, II, 391 et ss. (٦)

وسوف نتحدث عن هذا الموضوع فيما بعد ، بمزيد من التفاصيل .

الجنوى فى الأخرى يسكنه فقط أفراد ينتمون الى هذه الأمة أو تلك ، دون غيرهم من سائر الأمم وكانت الأمم التجارية ، عندما تضع يدها على حى من الأحياء لا تقدم على طرد السكان الموجودين أصلا فى الحى . من ذلك مثلا أنه قد نص فى المعاهدة المبرمة فى عام ١١٢٣ بين سادة مملكة القدس وبين دوج البندقية على أن المستوطنين الذين ينتمون الى جنسيات مختلفة يستطيعون أن يقيموا مساكنهم فى الحى الفينيسى (١) - باعتبار ذلك أمرا طبيعيا . والواقع أنه كان فى الثلث الفينيسى بمدينة صور سوريون ويهود يستمتعون ثمة بأمن وطمأنينة تامه (٢) . فضلا عن أنهم يدفعون ايجارا ، كانوا يضعون فى خدمة التجار الأجانب ما لديهم من معلومات ، وكان التجار الاجانب يجدون عندهم بنوخ خاص عمالا مهرة ، لذلك رأينا بالمدينة مصانع للحريير يديرها سوريون ، ومصانع للزجاج يستغلها يهود ، قائمة فى قلب حى البنادقة (٤) .

وفى توزيع الأملاك على طوائف التجار ، لم تكن الحدائق هى التى تعتبر وحدها ، وبوجه عام بمثابة أجزاء مكمله لهذه الأملاك ، ولكن يضاف اليها عادة امتيازات كبيرة حول المدن ، وفى الأرياف . فاذا كان ثلث المدينة هو الممنوح للطوائف ، فانه يضاف اليه ثلث الأراضى المجاورة فى دائرة نصف قطرها ميل واحد ، وكانت هذه العادة تيسر لأفراد هذه الطوائف أن يزرعوا فى أراضى يملكونها حبوبهم وخضرهم وعددا كبيرا من النباتات التى يختص بها الشرق ، والتى كانوا يجهلونها حتى ذلك الحين . وكانت الحقول تشكل مجموعات حول مبان تسمى Casaux ، وتطلق هذه التسمية على مزارع صغيرة ، وكفور ، وقرى (٥) . وفى المعاهدات الأولى نجد تنازلات فى الأرياف من هذا القبيل ، بمثابة ملاحق للتنازلات المنعقدة فى داخل المدن (٦) .

Taf. et Thom. I, 88, 92; cf. III, 152.

(١)

Ibid. II, 358 et s.

(٢)

وكان اليهود يقيمون فى مجموعة منعزلة من المساكن ، وهذا ما استنتجه بروتز بحق من

عبارة "domus nostrorum Indiorum" ، انظر : Taf. et Thom II, 364.

Ibid. II, 359.

(٣)

(٤) انظر فى قائمة الإيرادات التى تكتسبها الجالية التينيسية من صناعة الزجاج :

Benjamin de Tudèle التى كتبها (Taf. et Thom. II, 385) والفقرة التى كتبها

فى امتداد (éd. Asher, p. 62 et s.) مهارة صناع الزجاج اليهود فى صور :

(٥) Beugnot, Mém. sur le régime des terres dans les principautés fardées en Syrie par les Francs à la suite des croisades. Bibl. de l'école des chartes. 3e série (1854), p. 252-256.

Lib. jur. I, 16; Taf et Thom. I, 88.

(٦)

وعلى هذا نمت الملكيات العقارية التي تكونت لصالح الجاليات (١) وفي الامكان أن نتصور أهمية الاملاك التي كانت للبنداقية داخل المدن السورية ، كما ورد في أخبار مارسليو جورجيو Marsilio Giorigio (زورزي Zorzi) الذي صار في عام ١٢٤٠ بايل (*) الجمهورية في سوريا ، واحتفظ بمنصبه عدة سنوات (٢) ونجد في أخباره قائمة (٣) بأسماء حوالي ثمانين ضيعة casaux حول مدينة صور ، وكان أغلبها في عام ١٢٤٣ ملكا حقيقيا للمستعمرة الفينيسية وقد انتزع عدد صغير منها في أعقاب أعمال عدوانية عنيفة يقتربها بعض الجيران أو الأتباع الجشعين ، أو بسبب إهمال معاونيه . كانت هذه الأملاك تمتد من ساحل البحر حتى الهضبة التي تنتج المرتفعات المجاورة للمدينة ، وترى فيها حقول ، وحدائق ، وبساتين فاكهة ، وكروم ، ومزارع قصب السكر ؛ وأشجار الزيتون والتين ، وهنا وهناك بيوت الفلاحين ، منعزلة أو متجمعة في شكل ضياع . ويبدو أن البنداقية لم يباشروا بأنفسهم استغلال هذه الأملاك ، إلا أنه يمكن الاستنتاج من بعض العبارات على أنهم لم يكونوا يهملون هذا المصدر للدخل . من ذلك أنهم كانوا يقدمون للفلاحين بذورا «لتجود زراعة أراضيهم» كما قيل . وكانوا يعينون في الضياع (ال casaux) الكبيرة مديريين يقال لهم gastaldiones . وكان المزارعون الحقيقيون لهذه الأراضي فلاحين سوريين ، ونتعرف عليهم من الأسماء التي تصادفها هنا وهناك . ومع ذلك فإنهم لا ينتمون كلهم لطبقات الشعب الأكثر وضاعة ، ففيهم من نسب إليه صفة «الريس» ، وهذا نعت لمنصب من مناصب الحكام ، ويدل على أن أصحابه يتمتعون ببن مواطنيهم ببعض الاعتبار (٤) . وجرى العرف على أن يترك لهؤلاء ثلثا أو ثلاثة أرباع المحصول ، فلم تكن الجالية تقتضي منهم سوى الثلث أو الربع (٥) . فضلا عن ذلك كان على المزارعين عادة أن يعطوا «البایل» (حاكم مستعمرة

(١) في عام ١١٦٣ تنازل راؤول Raoul أسقف بيت لحم للجالية المرسيلية عن الكثير من المنازل في عكا . انظر Bifl. de l'Ecole de chart. XXXIV, 1873, p. 656 et s. — وفيما يختص بالجنوبيين انظر :

— Lib jur. J. 358, 401; Taf et Thom. II, 368 et s.; Arch. de l'or lat. II, 2, p. 223, 228.

وبالنسبة الى ال casaux التي يمتلكها البيزيون في ضواحي عكا ، وصور ، و Joppé انظر. Doc. sulle relaz. tox. p. 26 et s., 28, 30, 34, 36, 39 (Dal Borgo, p. 97, 101. 107, 109) ; Taf et Thom. II, 377 ; Prutz Phönizien, p. 286 et s.

(*) لقب حكام المستعمرات التابعة لمدينة البندقية في القطاع الشرقي (الترجم) .

(٢) Wilken, Gesch der Kreuzz. VII, 371 et ss.; Taf. et Thom. II, 351 et ss.

(٣) Prutz, Aus Phönizien, p. 276 et ss.; Quatremaire édition de l'His des sult. mamel. de Makrizi, II, 1, p. 216 et s.

(٤) Beugnot, I. c. p. 413.

(٥)

(٥) تبدو ان هذا العرف كان شائعا في البلاد الصليبية بسوريا .

البنادقة (ثلاث مرات فى السنة ، فى بعض مناسبات الأعياد دجاجة ، أو عشر بيضيات ، أو نصف وزن من الجبن ، الخ من كل حرث . وفى مرة من المرات ذكرت كلمة السخرة (angarioe) التى كان عليهم أن ينفذوها بدوابهم . وقيل أحيانا ان عددا معينا من المحارث تشكل «كازالا» casal حرا ، ويبدو أن ذلك يعنى أن جزءا من الأراضى الممنوحة للفلاحين معفى من الضرائب . وأخيرا ، فيما يختص بحالة الفلاحين الاجتماعية ، يبدو أنهم لم يهبطوا جميعا الى طبقة القنانة (رقيق الأرض) ، لأن عددا منهم ذكروا على أنهم hom.iges ، وهذا مثال ممتع لتطبيق عرف اقطاعى فى الشرق .

والى جانب هذه الأموال العقارية فى المدن وفى الأرياف كانت الجاليات التجارية تتمتع بنصيب من بعض إيرادات المدينة . من ذلك أن الجنويين كانوا يحصلون ، حسب المعاهدات ، فى صور ، وعكا ، واللاذقية ، والسويدية على ثلث إيرادات الميناء (١) . وكان للبنادقة أيضا فى صور الحق فى ثلث الرسوم التى تحصل فى الميناء ، وبعض الإيرادات الأخرى ، فضلا عن ذلك ، وبمقتضى معاهداتهم ، كان لهم أن يتسلموا سنويا مبلغ ٣٠٠ دينار بيزنطى ، كانت تدفع لهم أولا من الصندوق الملكى لرسوم الانتاج (funda) فى صور ، وفيما بعد من إيرادات جمارك ميناء عكا (٢) . ولدينا أيضا فى هذا الخصوص مثل لعدم مراعاة ملوك بيت المقدس الذين كانوا دائما فى حاجة الى المال ، للحقوق من هذا النوع ، والتى منحت للأمم التجارية . وكان الملك فولك Foulques أول من نازع البنادقة مبلغ الثلاثمائة دينار بيزنطى هذه ، وفعل خلفاؤه الشيء نفسه . وعلى مر الأيام انتهى الأمر بانكار الحقوق كلها وعدم صرف ما سبق لهم أن صرفوه من ثلث الإيرادات العامة بصور (٣) .

والجدير بالملاحظة أن كل الامتيازات التى منحها ملوك الدول الصليبية لجماعات التجار ، سواء عن طريق المعاهدة ، أو عن طريق الهبة الخالصة لم تؤد بهؤلاء التجار الى حالة العبودية الاقطاعية ، أو تفرض عليهم ضرائب الزامية . وكانت الجمهوريات الايطالية قد اشتركت فى الحملات الصليبية الى جانب قادة الجيوش بصفتها حليفات لهم ، وعلى قدم المساواة معهم ، ونالت نصيبها من الغنائم ، وامتلكت هذه الغنائم معفاة من كل التزام أسوة بالأمراء (٤) . ومع ذلك فقد نص فى المعاهدات على أن تسهم مستعمراتها فى الدفاع عن المدن التى

Lib jur. I, 16, 30 et s., 249, 358, 401; Canale, Nuova istoria della repubblica di Genova, II, 293. (١)

Taf. et Thom. I, 86, 92 141, 168; II, 367 et s. Arch. de l'Or. lat. II, 2, p. 225. (٢)

Ibid. I, 141; II, 384 et s. (٣)

Taf. et Thom. I, 85; Ibid 88; éd. Thomas p. 15. (٤)

استوطنتها . وفرض الملك بلدوين الثاني على بنادقة صور أن يقدموا للدفاع عن المدينة عددا من الرجال يتناسب مع دخل الثلث الذي يملكونه فيها . ونتيجة لهذا المبدأ نجد البنادقة مقيدين بقائمة الأفراد الخاضعين للخدمة الإلزامية وقت الحرب ، ووصلت إلينا هذه القائمة ضمن مجموعة قوانين ومراسيم مملكة بيت المقدس (١) Assises de Jérusalem ، فكان عليهم أن يجهزوا ثلاثة فرسان من بين الثمانية والعشرين فارسا الذين كان على مدينة صور (٢) أن تقدمهم (٣) . وكان على المدينة فضلا عن ذلك أن تجهز مائة « رقيب » (من الجند) ، ولم يقل أحد بأن البنادقة كانوا ملزمين بتقديم وحدة منهم ضمن هذه الجماعة (٤) . ويبدو أنه قد فرض عليهم أيضا في عكا أن يجهزوا عددا معيناً من رجالهم للدفاع عن المدينة . وأضاف سانوتو Sanuto إلى هذا الأمر خريطة لمدينة عكا ، نرى فيها ، بعيداً عن حي البنادقة ، قسماً من سور المدينة وبرجا كانا دون شك في حراسة البنادقة ، لأننا نقرأ ثمة هذه العبارة *eustodia Venetorum* (أى حراسة البنادقة) . ما بالنسبة إلى الجنويين ، فليس هناك ما يثبت التزامهم بالخدمة العسكرية في أوقات الحرب ، والعجيب أنه لم يرد لهم ذكر في مجموعة قوانين مملكة بيت المقدس . وليس من النادر أن نرى فرق الجاليات التجارية ضمن الحملات التي كان الملوك أو نوابهم يشنونها على المسلمين أو غيرهم (٥) . غير أن الجاليات كانت تتمتع بحرية تامة في هذا الشأن ، فلم يطلب أحد بالمرة من الجاليات الصغيرة أن تزود الجيش بالرجال في حملات عسكرية هجومية . وفي عام ١٢٥٧ حين أنشأ سكان « انكونا » (*) مستعمرة بمدينة عكا ، فإنهم التزموا فقط بأن يضعوا تحت تصرف الملك خمسين رجلاً مسلحاً في حالة قيام عدوان بالهجوم براً أو بحراً على المدينة أو مينائها أو إقليمها (٦) .

وقد طبق النظام الإقطاعي بكامل أوصافه على الدويلات التي أنشأها الصليبيون ، وكانت الجاليات التجارية بأملاتها المستقلة بمثابة بقع شاذة وسط هذا النظام ، لذلك كان البارونات ينظرون إليها باستياء . ولما كانت الأملاك التي اكتسبتها تلك الجاليات قد صارت في مركز أمين غير قابل للطعن ، فإن البارونات كانوا يجتهدون على الأقل أن يحولوا دون أن يقع في أيدي الجاليات

Le livre de Jean d'Ibelin, dans Beugnot, I, 425.

(١)

Sanut, Secr. fid. cruc. p. 174.

(٢)

Tof et Thom. II, 387.

(٣)

Sanuto, I, C. ; Assises, I 426 ; Prutz, Aus Phönizien, p. 258.

(٤)

Cf. p. ex. Cont. de Guill de Tyr, p. 218 D. 219 et s., 334, 433.

(٥)

Paoli, Cod. dipl. I, 157-161.

(*)

(٦) مدينة إيطالية وميناء على البحر الأدرياتي - (المترجم) -

أية منطقة يقتزن بملكيتها أى ارتفاق . ولهذا السبب فإن «مجموعة قوانين مملكة بيت المقدس» التى هى كما نعلم تعبير عن الأفكار الاقطاعية ، حظرت على هذه الجاليات شراء أية أملاك اقطاعية ، أو من تلك المسماة بورجوازية (١) . فضلا عن ذلك فإن المستعمرات التجارية ، بتكوينها نفسه وأسلوب ادارتها تشكل تباينا جليا مع العالم الاقطاعى . ولكى نفهم ذلك فهما صحيحا ، ينبغى لنا أن نعود قليلا الى الوراء وندرس هذه المستعمرات منذ نشأتها . فحين تحصل احدى القوى التجارية على امتياز فى مدينة ما ، كان عليها أن تعين بعض الأشخاص لادارة المستعمرة الجديدة ، واقامة القضاء فيها ، والدفاع عنها ضد اعتداءات جيرانها . من ذلك أن قادة الجيش الجنوبى الذى استولى على جبلة لم يبرحوا المدينة الا بعد أن عهدوا بحكم الحى الذى كان لجنوا حق امتلاكه (وكان يشغل وقتئذ ثلث المدينة) الى أحد مواطنيهم ويدعى انصالدو كورسو Ansaldo Corso . وفيما بعد ، حين تم التنازل عن الثلثين الآخرين بالمدينة الى مدينة جنوا ، عين حاكما عليها رجل يدعى اوجونى امبرياكو Ugone Embriaco جمع بين يديه بعد قليل ادارة المجموعة كلها . وجرى الأمر على هذا المنوال بعد الاستيلاء على عكا ، وهنا أقيم على رأس الحى الجنوى رجل يدعى سيجبالدوس Sygbalus وهو من كهنة كاتدرائية جنوا (٢) ، ذلك لأن كنيسة سان لورنزو ، كاتدرائية جنوا هى فى الواقع التى منحها صك الامتياز ملكية هذا الحى (٣) . وكان لسيجبالدوس لقب viccomes ، وهو لقب كان لزم من طويل لرئيس مستعمرة جنوا فى عكا (٤) . وفى البداية اتخذ البنادقة هذا اللقب لممثلى الجمهورية فى منشأتهم بسوريا . حقا . لقد قال ماركو فوسكارينى (٥) Marco Foscarini ان أحد البنادقة ويدعى تيوفيلو زينو Teofilo Zeno شغل هذا المنصب فى سوريا بلقب بايل (أو بايلو) Bailo ، وكانت هذه الواقعة مسلما بصحتها حتى عام ١٨٦٠ ، تصديقا لما رواه هذا العالم الذى كان اسمه موضع ثقة كبيرة ، ولكننى أوضحت عندئذ أن فوسكارينى قد أخطأ فى مائة سنة ، فالواقع أن الوثيقة التى استند اليها لم تكن سوى صك امتياز « جى » Guy سيد « جبلة » ، وهذا الصك مؤرخ بعام ١٢١٧ (٦) ، وطوال فترة تمتد عشرات

(١) Assises de Jérusalem, éd. Beugnot, I, 372, 399 ; II, 255.

وكذا ملاحظات الناشر فى مقدمة الطبعة الثانية .

(٢) حكى هذه المعلومات « كافرو » De liber liv. or., l.c. p. 47, 48 Caffro.

(٣) ومن ثم كان اسم «Ruga beati Laurentii» الذى أطلق على الحى الجنوى فى عكا ، انظر : lib. jur. I, 412.

(٤) Belgrano, dans l'Archiv. stor. it Sér. 3, VIII, 2, p. 160.

(٥) Delle letteratura Veneziana, 2e éd. p. 25.

(٦) Taf. et Thom, II, 196.

السنين بعد تأسيس الدويلات الصليبية ، لم تتضمن أية وثيقة اسم موظف ملحق بمستعمرات البندقية ، وأول وثيقة نصادف فيها اسما من هذا القبيل ترجع الى عام ١١٨٣ وهى خاصة بمن يدعى Jacobus Gradenicus viscomes in Achan (١) . أما بخصوص البيزيين ، فيبدو أن رؤساء مستعمراتهم كان لهم فى الأصل لقب فيكونت ، ذلك أنه فى عام ١١٥٦ منحهم بلدوين الرابع فى شكل امتياز بفيكونتية ، امتياز محكمة خاصة فى مدينة صور (٢) . وبعد ثلاث وعشرين سنة ظهر رئيس المستعمرة البيزية بعكا حاملا لقب القنصل (٣) الذى استخدمه البيزيون من ذلك الحين فى سوريا . ثم ان هذه العادة ، عادة اقامة فيكونتات على رأس مستعمرات الدول التجارية كانت من تقاليد سادة البلد الآخرين . فبعد الاستيلاء على جبلة ، كلف ريموند التولوزى فيكونتا بمهمة ادارة القسم الذى كان يتبعه فى المدينة (٤) ، فكان من الطبيعى أن يكون للجنويين أيضا فيكونت يتولى ادارة القسم الخاص بهم . ونرى فى مجموعة قوانين مملكة القدس أن لكل مدينة فيكونتا ، سواء كانت المدينة تابعة للملك مباشرة ، أو تنتمى الى أحد أتباعه ، وكان الفيكونت هو رئيس الادارة ، ورئيس « محكمة البورجوازيين » : كان رئيس كل السكان غير النبلاء فى مقاطعته ، فى أوقات السلم والحرب ، وكانت المحكمة التى يرأسها مختصة بنظر كل القضايا المتعلقة بالبورجوازيين ، فى حين يحاكم النبلاء فى « المحكمة العليا » المشكلة من نظرائهم (٥) . وكانت الجمهوريات الإيطالية تبذل جهدها لخلق وضع استثنائى لمستوطنيتهم ، بحيث لا يتلقى هؤلاء أمرا ، أو يلتصون عدالة من موظفى الدولة ، ولا شأن لهم الا بموظفى أمتهم . ثم ان الأمراء والملوك والأتباع منحوا هذا الجمهوريات فى البداية وعن طيب خاطر تلك الاعفاءات اعترافا بالخدمات العظيمة التى قدمتها لهم ، وصرحوا لها فى الجهات التى يعيش فيها مواطنوها بأعداد كبيرة أن يكون لهم فيكونتاتهم ومحاكمهم الخاصة ، حيث يحاكم المستوطنون بمعرفة محلفين من بنى أمتهم (٦) ، يجتمعون تحت رئاسة الفيكونت . وعندما تمنح أمة غربية فى مدينة سورية مجموعة من المنازل والشوارع المجاورة لها ، فان هذا الحى يشكل منطقة خاصة مستقلة ، لها حصاناتها ، ولا يمكن لأى موظف من موظفى الدولة أن يعطى فيها أية أوامر ، أو يصدر أى حكم ، ولم يكن لسكان المنطقة كلهم ، دون تمييز رئيس أو قاض

Ibid, I, 176.

(١)

Doc. sulle relaz. tox. n. 7.

(٢)

Ibid, p. 17, Pipindo consul Aconensis (Pianorum) 1179.

(٣)

Caffaro, De liber. civ. or. p. 47.

(٤)

Assises de Jérus., éd. Beugnot, T. I, Introd. p. XVI, s.; T. 11, p. XX et 22, note.

(٥)

Taf, et Thom. 2, 361, Lünig, Cod. dipl. Ital. I, 2459 et s.

(٦)

خلاف الفيكونت المفوض من الوطن الأصلي (١) . وفيما بعد ، حين اهتم الملوك بتنظيم دويلاتهم وتطبيق النظام الاقطاعي فيها ، أصبح وجود هذه المستعمرات الخارجية عن سلطتهم عائقا لهم في الكثير من الأحيان ، لذلك فانهم ما لبثوا أن بذلوا جهودهم للحد من سلطات الفيكونتات وتوسيع سلطات موظفيهم هم . وفي عام ١١٥٥ ، رفعت جمهورية جنوا عدة شكاوى ضد ملك القدس ، وكونت طرابلس ، وأمير أنطاكية لأنهم يحاولون يوما بعد يوم تضيق اختصاص المحاكم الجنوية في سويسرا . وفي تلك الآونة (في شهر نوفمبر أو ديسمبر) تواجد البابا اديان الرابع Adrien IV مع بعض الأحرار الشرقيين في مدينة بينفنتو Bénévent (بايطاليا) ، فرفعت اليه جنوا شكواها ، عن طريق مبعوث خاص . وهدد البابا الأمراء بالحرمان اذا هم استمروا في التعدي على الجنوبيين . ولسوء الحظ لم يبق من هذا النص سوى رسالة واحدة من الرسائل البابوية التي حررت في هذه المناسبة ، وكانت موجهة الى بلدين الرابع ملك القدس ، نرى فيها أن الملك استهدف باعتدائه بنوع خاص فيكونتية جنوا بمدينة عكا ، وأن رجاله استولوا على سفينة جنوية محملة بالنقود (٢) . وفي عام ١١٥٦ عقد بلدين الرابع معاهدة صلح مع البيزنيين ، ويتبين من هذه الوثيقة أن المعاهدة سبقتها أعمال عدوانية (٣) . وكانت ييزا قد عقدت في هذه الآونة علاقات ودية مع مصر ، الا أن هذا لم يكن وحده سببا كافيا لتبرير الاعتداءات ، في حين أن تزامن هذا النزاع مع ما كان يجرى مع الجنوبيين ، كما رأينا منذ قليل يشبت وجود نوع من التآمر من جانب ملوك سوريا ضد الحريات التي تتمتع بها المستعمرات التجارية . ثم ان الموقف كان مماثلا لذلك في المجال الديني ، فقد علقت الجمهوريات الايطالية أهمية كبيرة على أن يشغل الوظائف الكهنوتية في مستعمراتها رجال من مواطنيها (٤) . وهنا برزت مسألة خطيرة : فهل يخضع القساوسة المبعوثون من جانب الوطن الأصلي الى احدى المستعمرات لسلطة الأساقفة المحليين أو لسلطة أساقفة وطنهم الأصلي ؟ ومن هذه المسألة تولد بين الأساقفة والمطارنة في سوريا من جهة ، وبين الامم التجارية من جهة أخرى سلسلة من المنازعات . وقد أدى موقف الكهنة البنادقة في صور بالنسبة الى أسقف الأبرشية الى قضية طويلة في محكمة روما ، لم تعرف نتيحتها

(١) بعد الاستيلاء على صور ، حررت معاهدة ، بمناسبة فتح البنادقة حيا في المدينة :

— Taf et Thom, I, 88, 92.

Cf. Caffar, Jan. p. 23, 24; Jaffé, Reg. pontif. p. 664 et s. (٢)

Doc sulle relaz. tox. p. 6 et s.; Langer, op. cit., p. 66. (٣)

— (Mém de l'Acad de : رسائل جاك دوفري Jacques de Vitry مطران عكا :

Brux T. XXIII 1849) ، ونرى في الرسالة الثانية أن هذا الأسقف يعنى على الجنوبيين ،

والبيزنيين ، والبنادقة عصيانهم الكنيسة .

بوضوح (١) . وقد نجح أسقف عكا عن طريق اتفاق تسوية في أن يضم لسلطته كهنة كنيسة القديس مرقس بتلك المدينة ، وللوصول الى هذا الاتفاق تنازل لهم عن كنيسة القديس ديمتريوس St. Demetrius التي كانت في داخل « خورنية » (*) . البنادقة (٢) . وتبين الوثائق التي في أيدينا أن مثل هذا النزاع كان قائما بالنسبة الى الجنوبيين والبيزيين (٣) .

وعلى ذلك كانت الأمم التجارية المستقرة في سوريا في نزاع متواصل مع الملوك وأصحاب المناصب الكبيرة ، الكنسيين منهم والعلمانيين في البلد ، من أجل الدفاع عن أموالهم وحقوقهم وحررياتهم . غير أن متاعبهم لم تقف عند هذا الحد ، ذلك لأن المستوطنين كانوا في الكثير من الأحيان أول من ينتهكون أملاك الوطن الأصلي وحقوقه ، على الأقل ما يختص منها بالبندقية وجنوا . وبالتأكيد لم تحظر جمهورية جنوا في عام ١٢٢٥ دون ميرر على رؤساء مستعمراتها فيما وراء البحار أن ينصرفوا في الأملاك البلدية ، وإلا تعرضوا لأشد العقوبات (٤) . ومن جهة أخرى اسفر إهمال بعض مديري مستعمرات البندقية عن خسائر أصابت الدولة (٥) . غير أن أكبر الاختلاسات كانت تلك التي اقترفتها أسر الأشراف التي استغلت اتجاه ذاك العصر نحو النظام الاقطاعي ، فاستطاعت بمهارتها أن تستولي على أملاك بلدية باعتبار أنها من قبيل الاقطاعيات . مثال ذلك : كان دوق البندقية قد منح شخصا يدعى رولاند كوتتارينى ، بصفة اقطاعية منازل و « ضياع » Casaux كائنة في صور ، ولما توفي كوتتارينى بلا وريث ، أعلنت ادارة المستعمرة الفينيسية ضم أملاكه الى البلدية بحق الأيلولة ، إلا أن الأرملة رفضت التخلي عنها ، واحتكمت الى الملك ، ونجحت بهذا الاجراء في أن تحتفظ بملكية العقارات ، وحررت أخيرا وصية لصالح الملك ، فضاعت هذه الأموال على البلدية (٦) . وفي جنوا ، كانت التنازلات عن الأملاك البلدية في سوريا بصفة اقطاعية أو اجارة زراعية أكثر منها في البندقية . وقد رأينا أنه بعد الاسنيلاء على جيبيل تنازل الأمراء الصليبيون لجمهورية جنوا أولا عن ثلث

(١) Dandolo, dans Murat., XII, 319; Archiv. Venet. XX11, (1881), p. 325. et ss.; Taf. et Thom. I, 281 et ss., 425; 11, 26 et s., 174, 362, 445 et s.; Innocent. 111, epist. lib. IX no. 138, éd. Bréquigny, 11, 951 et s. Registrum epistolarum perditurum Innoc. 111 dans Theiner, Monum. hist. Slav. merid. p. 48, 67.

(*) (قرية يخدمها كاهن . المترجم) Taf. et Thom. 111, 31 et ss.

(٣) Ughelli, Ital. sacr. IV, 876-883; Doc. sull. relaz. tosc. p. 27, 37. 82 et s.; Tronci, Memor. pis. p. 169.

(٤) Lib. jur. I, 753; Belgrano : Le colonie commerciali degli Italiani in Orient : Archiv. stor. ital. Série 111, T. VIII, part. 2 p. 160.

Taf. et Thom. II, 388. (٥)

Ibid., II, 387 et s. (٦)

المدينة ، ثم عنها كلها ، وأن الجمهورية أقامت على ادارة الثلث الأول انصالدو كورسو ، وعلى ادارة الثلثين الآخرين اوجونى امبرياكو ، وبعد قليل حصل الأخير على تنازل لصالحه عن المدينة كلها باعتبارها اقطاعية وراثية ، وتعهد فى مقابل ذلك بأن يدفع للجمهورية أتاوة سنوية . ويشهد البابا أوربان الثالث بأنه أوفى بالتزامه بانتظام (١) . وورث ابنه غليوم الاقطاعية فى حوالى عام ١١٣٥ ، وحصل فى عام ١١٥٤ على تجديد الاقطاع لمدة تسعة وعشرين عاما . الا أن ديونه كانت قد تراكت (٢) . وعندما انتقلت الاقطاعية الى ابنه هوج Hugues (٣) اضطرت الجمهورية الى أن تحتكم ثلاث مرات الى البابوات اسكندر الثالث ، لوسيان الثالث ، وأوربان الثالث للحصول على الريع الذى الذى رفض هوج باصرار أن يدفعه ، وكانت تعلم مقدما أنها لن تحصل على شيء من خلفه الذى يدعى أيضا هوج (٤) . وفى هذه الأثناء غزا صلاح الدين البلد واستولى على جبيل (٥) التى بقيت ست سنوات (١١٨٧ - ١١٩٣) فى قبضة المسلمين . وفى عام ١١٩٣ استطاع آل امبرياتشى Embriaci العودة الى المدينة بعد رشوة حاميتها المسلمة (٦) . ولكن لم يكن بها أحد يطالب بحقوق الوطن الأصلي ، ونسى سادة جبلة الذين اكتسبوا مركزا رفيعا بين بارونات الدويلات الصليبية بفضل ما حصلوا عليه من ثروات كبيرة ، أو مصاهرات متألقة ، نسوا تماما ما كان عليهم من التزامات (٧) . ولابد أن الشيء نفسه قد حدث لجزء من أملاك جمهورية جنوا فى أنطاكية واللاذقية وسولينم Solinum (ميناء سان سيمون) ، وجابولم Gabuum وعكا ، وكانت أسرة امبرياتشى Embriaci قد أنجبت العديد من الأبناء ، وحصل هؤلاء فى كل هذه المدن على حيازة أموال بلدية نظير ريع سنوى يدفعونه ، غير أن هذه الحيازة كانت محددة بعشرين سنة ، وحين انقضت هذه المدة فى عام ١١٤٧ ،

(١) Lib. jur. I, 336.

المعروف أن شخصا يدعى جويوم امبرياكو اشترك فى حصار بيت المقدس مع أخيه بريمو .

(٢) Ibid. I, 173; Itinerary, éd. Asher, I, 28, 60; 11, 69 et s.

— رأى الرحالة الشهير بنيامين من تيوديل Benjamin de Tudèle جويوم هذا ، وكان

وقتئذ سيد جبلة ، وأسماء بنيامين جيليانس (Guglielmo) Gilianus

(٣) كان سيد جبلة فى الزمن الذى كتب فيه جويوم الصورى تاريخه ، أنظر :

liv. XI, chap. 9.

Lib. jur. I, 308 et s., 336-338.

(٤) Wilken, Gesch. d. Kreuzz. III, 2, p. 295.

(٥) Contin. de Guill. de Tyr. p. 217 et s., Jacq. de Vitry, p. 1124.

(٦) Ducange, Familles d'autremer, éd. Rey : انظر : انساب هذه الأسرة أنظر :

— ولسوء الحظ نسى المؤلف أن يستفيد من الايضاحات التى تتيحها

Lib. jur. I بشأن تاريخ أسرة امبرياتشى ، كما أنه أهمل كل الاهمال السجلات الجنوبية

والبيزية والفينيسية ، وهذا الاهمال كان له ضرر كبير على قيمة أبحاثه .

عملوا على تحويل هذه الأموال التي ينتفعون بها الى ملكية خاصة ، ورفضوا التخلي عنها (١) . وليس في الامكان معرفة ما اذا كانت الجمهورية قد قضت على مطالبهم أو أنها فقدت حقوقها في هذا الصدد . وبافتراض حدوث خسارة ما ، فان مدينة جنوا هي وحدها التي تكبدت هذه الخسارة ، أما السكان فلم يكونوا يابھون لذلك ، لأنه اينما كان أفراد أسرة امبرياتشي سادة ، كان المستوطنون والمرتحلون الجنوبيون يلقون كل ترحيب ومودة .

(ب) الدول الصليبية من وجهة تجارة الشرق الأدنى

حظيت تجارة الشرق الأدنى خلال الحروب الصليبية بنهضة لم تكن تحلم بها قبل ذلك بقليل . وربما كانت هذه أول مرة يطأ فيها التجار الغربيون أرض آسيا ، وقد قنعوا في البداية باحتلال شريط ضيق من البلاد على طول الساحل ، ولكن هذا الشريط كان يجمع كل المزايا الممكنة ، فأول كل شيء لم تعد سوريا اقليما أجنبيا ، لم تعد بلدا من تلك البلاد التي كان فيها التاجر الغربي تحت رحمة أمراء من أصل وطبائع شرقية ، يتعامل فيها مع سكان تختلف لغتهم وطبائعهم ، وعاداتهم كل الاختلاف عما يراه في وطنه ، ولم يكن في وسعه أن يستقر هناك الا بحصوله على حظوة يشتريها بوسائل عسيرة للغاية ، دون أن يكون لحظة واحدة في مأمن على نفسه . أما الآن فانه أصبح بحق في وطنه ، في كنف حكومة من أمراء من جنسيات غربية ، وسط سكان يسودهم العنصر اللاتيني ، وهناك لم يعد الشرقيون المقهورون يؤدون سوى دور ثانوي ، وأصبح فضلا عن ذلك يتمتع بمزايا وامتيازات منحها اياه الأمراء بصفتهم مواطنين ورفقاء في السلاح : كان كل شيء بالنسبة اليه كسبا وامتيازاً . وهو اذا أراد أن يستقر نهائيا في البلد ، فانه يختار مسكنه في حي تملكه مدينته الأصلية ، حتى فيه رجال الادارة والشرطة والرؤساء الدينيون من مواطنيه ، ويحيط به عدد كبير من بنى وطنه . فاذا كانت اقامته في سوريا إقامة عرضية وقتية ، فانه يجد فيها أيضا قاعدة متينة لعملياته التجارية ، ومسكنا جيدا له ولبضاعته ، وحماية من قبل السلطات الاستعمارية ، وعونا ونصحا من جانب المواطنين المستقرين بالبلد .

كان التجار الغربيون يجدون في سوريا منتجات الشرق كله على وجه التقريب ، فلم يكونوا مضطرين من أجل الحصول عليها للقيام برحلات طويلة الى قلب آسيا ، اذ كان هناك العديد من الطرق التجارية الكبيرة التي تأتي عبرها هذه المنتجات حتى شواطئ البلد . ولكن لكي نفهم جيدا أهمية الدول

L'ab. jur. 1, 133 172-174 ; cf. Doc. sull relaz. tosc.

p. 6, 16; Monum.

hist patr., Leges municipalis, p. 248, 276 et s.

(١)

الصليبية من وجهة « الترانزيت » (عبور البضائع والأشخاص) ، ونحيط علما بتطور الحياة التجارية بها ، ينبغي أن نبدأ بدراسة ما آلت إليه الحركة التجارية في آسيا في أواخر القرن الحادى عشر .

فى عصر الحروب الصليبية ، كانت التجارة فى المحيط الهندى نشيطة كما كانت فى أزهى عصور الخلفاء ، وكان العرب ، بما اتصفوا به من روح الاقدام والمغامرة ينافسون الصينيين فى هذا المجال . ولم تزل سيلان التى كانت وقتئذ كما كانت قبلا مركزا للتجارة البحرية فى الشرق ، وباروتشى Barotch بخليج كامبى Cambaye (بالهند) ، وديبال Daybal المجاورة لمصب نهر الاندوس (السند حاليا) ، لم تزل تشهد فى القرن الثانى عشر السفن الصينية وهى تتوافد على ثغورها (١) . وفى القرن التالى ، وتحت التأثير الوقتى للسياسة التجارية التى كانت تتبعها حكومة الصين ، لم يعد الصينيون يتجاوزون من ناحية الغرب جزيرة سومطرة (٢) . ومع ذلك لم تنقطع الصلات بين غربى آسيا وشرقيها : فقد تكفل العرب بتعزيز هذه الصلات . فاذا اعتبرنا أولا الجزيرة العربية ذاتها وجدنا أن التجارة على ساحل عمان قد أصابها الشلل بسبب أعمال القرصنة التى مارسها السلطان المرعب ، سلطان جزيرة قيش Kéich الواقعة فى الخليج الفارسى (٣) . لذلك امتنع سكان صحار Sohâr عن ارسال سفن تجارية الى الصين . وعلى العكس من ذلك لم تزل Kalhat فى الجنوب الشرقى من مسقط ، فى القرن الثالث عشر ملتقى عدد كبير من السفن القادمة من جهات مختلفة (٤) . وكانت عدن فى أوج ازدهارها ، وعلاقاتها تزدد نموا (٥) ، وكانت نقطة اقلاع السفن المتجهة الى السند ، والهند ، والهند الصينية ، بل والى الصين حيث كانت خان فو Khan-fou هى غاية الملاحة (٦) ، وفى كل هذه البلاد كانت السفن التجارية تشحن عند عودتها بالمسك ، والصبر وخشب الصبر ، والفلل ، والقاقلة (*) ، والقرفة ، وجذور الخولجان (**) ، وجوز الطيب ، والكافور ، والقرنفل ... الخ (٧) ، وباختصار التوابل التى كان الغربيون يعتبرون حيازتها أعظم نتيجة لصلاتهم

(١) الادريسي : Edrisi, Géogr. trad. Janbert, I, 73, 161, 175.

(٢) القزوينى : Kazwini, dans Gildemeister, Script. arab loci de rebus. indicis, p. 193.

(٣) الادريسي : Edrisi, I, 152.

(٤) Ibn-al-Mogawir (1228), cité par Miles, Account of Kalhat, dans l'Indian Antiquary, IV. (1875), p. 48-51.

(٥) Karabacek, Ueber einige Benennungen mittel-alterlicher Gewebe, I, p. 15.

(٦) الادريسي ، الجزء الاول ، ٨٤ وما بعدها ، ٩٩ .

(*) (القاقلة الهال - فوه من أفواه الطيب ، وهو المعروف بالبهان - المترجم)

(**) (والخولجان (نبات طبي من الفصيلة الزنجبيلية - المترجم) .

(٧) الادريسي ، الجزء الاول ، ٥١ .

بالشرق . ومن الناحية الأخرى ، أى من ناحية الخليج الفارسي ، تقلع أيضا أساطيل من السفن التجارية قاصدة بحار الهند والصين . ولم يفقد أهالى سيراف ولعهم بالأسفار البعيدة ، ولم يكن نشاطهم مقيدا لجيرانهم فقط ، أى لأقاليم فارس ، وكانت مدينتهم من أغنى المدن (١) . وكان أحد سكان هذه المدينة يؤدي أعمالا كثيرة مع الصين ، حتى ان أحد وكلائه أحضر من « خان فو » فى رحلة واحدة بضائع قيمتها ٥٠٠.٠٠٠ دينار . وفى عام ١١٣٧ أهدى هذا التاجر العظيم لمسجد مكة ستائر نفيسة من حرير الصين مما أكسبه شهرة بين اخوانه فى الدين (٢) . ومع ذلك يبدو أنه فى أوائل القرن الثالث عشر بدأ تدهور مدينة سيراف ، وحين زارها « ياقوت » لم يجد بها الا نفرا من الأهالى الفقراء ، وهجرت الأسر الثرية مساكنها الجميلة التى صارت خرائب (٣) . وانتزعت جزيرة قيش المكانة الأولى من المدينة الساحلية ، وسادها حكام نشيطون ، بسطوا سلطانهم على كل الجزر المجاورة ، وأغارت أساطيلهم على الكثير من السفن ونهبته ، ودمرت الكثير من الأنحاء الساحلية ، وأوقعوا الرعب فى النفوس حتى فى بلاد الهند (٤) . وقد جعل نفوذهم ، أو بالأحرى الضغوط التى يمارسونها من جزيرة قيش Keïch المرفأ الرئيسى للسفن القادمة من الهند (٥) ، ولم تكن أية سفينة قادمة من بلاد الدجلة والفرات تجرؤ على المرور على مرفأ من الجزيرة دون أن ترسو عندها (٦) . وهكذا أصبحت الجزيرة سوقا هامة ، وكان تجار الهند ، والهند الصينية يبيعون فيها كميات كبيرة من توابلهم لتجار الجزيرة العربية ، وفارس ، وبلاد ما بين النهرين ، الذين يجلبون بدورهم منتجات هذه البلاد الصناعية والزراعية (٧) . وكان تجار الجملة من كل الأنواع يتواعدون للقاء فيها . وثمة فقرة فيما كتبه الشاعر « سعدى » تعطينا فكرة عن الأعمال التى كانت تجرى فيها : فقد قال له تاجر ثرى قابله فى قيش ، فى غضون حديث دار بينهما انه سوف يقوم برحلته الأخيرة قبل أن يعتزل العمل ، وانه كان مشغولا وقتئذ بشحن كبريت من فارس الى الصين حيث كانت اسعار هذه المادة مرتفعة كثيرا فى تلك

(١) الإدريسي ، الجزء الأول ، ٣٩٧ .

Pariset, Histoire de la soie, II, 142, not. 1.

(٢)

Wüstenfeld, Jakut's Reisen dans la Zeitscher der deutsch. mor-

(٣)

genl. Des XVIII, 420 et s. Jaqout Dictionn. de la Perse, par Barbier de Meynard, p. 332 ; Weil, Gesch d. Chalif III, 23 et s.

Edrisi, I, 59, 152, 171 ; Jaqout, dans Wüstenfeld, op. cit., p. 419 et s.

(٥) ياقوت - المرجع السابق .

Marco Polo, éd Pauthier, I, 47.

(٦) ماركو بولو .

Benj : of Tudela itinerary, éd. Asher, I, 137 ; Zaccaria Kazwini et

(٧)

Abdallah Schirazi, cités par Ouseley, Travels in various countries of the East, I, 171 et s.

الآونة ، ربعد ذلك يصدر الى اليونان خزفا صينيا ، والى الهند ديباجا من اليونان ، والى حلب فولاذا من الهند ، والى اليمن زجاجا من حلب ، وأخيرا الى فارس أقمشة مخططة من اليمن (٢) . ولم يقل سعدى ما اذا كان هذا التاجر من أهالى جزيرة قيش ، غير أن هذا لم يكن محتملا لأن أهالى هذه الجزيرة لم يكونوا من الرحالة ، وانما هم يقنعون بالعمل سماسرة للتجار الأجانب (٢) . وكان من بين السلع الرئيسية فى سوق قيش ، بخلاف منتجات الهند ، سلعة من منتجات الخليج الفارسى ، ونعنى بها اللآلىء ، فقد كان هناك أكثر من ثلثمائة مغاص متناثرة على طول السواحل ، وبخاصة بالقرب من جزيرة أفال Aval (البحرين) ، ولذلك كانت على الدوام ملتقى العديد من التجار (٣) . وكان الجزء الأكبر من هذه اللآلىء يصعد الى الشمال ، عن طريق مصب نهر الدجلة (٤) ، ويتكدس فى سوق بغداد الكبيرة . وكانت بغداد فى عصور الخلفاء سواقا رئيسية من أسواق آسيا ، تصل اليها عن طريق البر منتجات فارس ووسط آسيا والصين . وكانت القوافل المنطلقة من فارس والمتجهة غربا تسلك غالبا طريق بغداد . وهذا أمر طبيعى بالنظر الى السيادة التى كان يمارسها الخلفاء على هذا البلد . ومن جهة أخرى كان العرب والفرس والتاوجك المستوطنون حول نهر الأجزوس (حاليا أموداريا - جيحون - المترجم) ، على حدود دولة الخلفاء يجتازون مناطق وسط آسيا التى يقطنها شعوب مستقلة من الجنس التركى ، ويواصلون طريقهم حتى الصين ، ويعودون لمنتجاتها الى الأسواق العربية . وكان يرحلون من فرغانة (خوقند Khokand على نهر ياجزارت الأعلى ، ويعبرون ممر تربك Terek ، أو يسلكون الطريق الكبير الذى يمر بطلس Talas ويحاذى بحيرة اسيك قول Issik Koul وينتهى فى حوض نهر تريم Tarim عند كوتشا Koucha حيث يتلاقى الطريقان ، ومن هناك يواصلون سيرهم صوب الحدود الصينية مارين غالبا بواحة خامي Khami ، وكانوا يذهبون أيضا الى الخوتان Khotan لاحضار المسك والراوند . وكان سكان الخوتان والتبت يمشون من جانبهم حاملين بضائعهم الى فرغانة وأفغانستان وفارس (٥) . كانت هذه الحركة كلها فى صالح بغداد التى تصب فيها منتجات الشرق كله . وكانت المنتجات التى لا يستهلكها سكان المدينة الكثيرون تخرج من هناك وتنتشر فى العالم

(١) توجد هذه المعلومة فى القصة الثانية والعشرين من الفصل الثالث من كتاب « الجبلستان » للسعدى (المکتوب فى عام ١٢٥٨) . أنظر الترجمة الفرنسية ل : Defrémery, p. 177-179. (٢) Benj. Tudel I.C.

(٣) الادريسي ، الجزء الأول ، ص ٣٧٢ وما بعدها

(٤) وهناك أيضا ، كان يتصدى لها جمارك سلطان قيش ، انظر « ياقوت » فى :

Barbier de meynard, p. 112; dans Wüstenfeld, p. 418 et s.

(٥) الادريسي ، الجزء الأول ، ٤٩٢ وما بعدها ، الجزء الثانى ٢١٤ وما بعدها ، ينبغى أيضا

قراءة تفسيرات رشتنهوفن (Richthofen, China, I, 502 et ss.) وأنظر أيضا الخريطة رقم ٩ المرفقة ، لهذا المؤلف .

كله ، اما عبر الطرق النهرية العديدة ، واما عبر طرق القوافل الممتدة حولها .
ويؤدى بنا موضوع هذا الفصل الى الاهتمام أولا بالطرق المؤدية الى سوريا .
ومن المزايا العديدة لموقع بغداد ، مزية ليست أقلها شأنًا ، ذلك أنها واقعة على
نقطة يكون عندها مجرى الدجلة ومجرى الفرات أقرب ما يكونان أحدهما من
الآخر ، ويتصل النهران أحدهما الآخر بقناة قصيرة ، تسمى « نهر عيسى »
Nahr-Issa ، وتشكل في بحثنا هذا الشريان التجارى الرئيسى . وكانت
منتجات الهند وفارس التى تصدر عن هذا الطريق تصل الى الفرات عند عنبر
Ambar وتصلع النهر حتى الرقة Rakka وهى موقع تجارى مزدهر منذ عدة
قرون (١) . وكانت نقطة تقاطع طريقى القوافل الكبيرين المؤديين الى الفرات :
أحدهما يخرج من نهر الفرات شمالى بغداد ، عند الموصل ، وهى مقر صناعة
أنسجة هامة وتجارة شاسعة (٢) ، ويتحول الى Nisibe (نصيبين ؟) ثم يمتد
وزاءها فيصوب فى آسيا الصغرى كمية هائلة من منتجات الشرق ، أما الطريق
الآخر فانه يبتعد عن الدجلة عند أميدا Amida (ديار بكر) ، ويصل الى الرقة
مارا بساموساطة Samosate ، وادسا Edessa ، وحران Harran (٣) .

ونصادف هنا بضعة أسماء تتردد كثيرا فى تاريخ الحروب الصليبية ،
ونحن نعلم أن الصليبيين واصلوا غزواتهم حتى نهر الفرات وما بعده الى بلاد
ما بين النهرين ، وأسسوا كونتية فى ادسا ، عاشت حوالى نصف قرن
(١٠٩٨ - ١١٤٤) . ولعله يهمنى أن نعرف ما اذا كان الغربيون الذين استقروا
فى هذه الكونتية قد استفادوا فى تجارتهم من التسهيلات التى آتاحتها لهم
مجرى النهر الصالح للملاحة ، أم أنهم اتبعوا طرق القوافل للذهاب لأداء
مشترياتهم فى بغداد أو الموصل . ولا يوجد فى الأخبار التاريخية أية إشارة
فى هذا الخصوص ، غير أنى لا أتردد فى القول بأنهم لم يفعلوا شيئا من هذا
أو من ذاك : فقد اقتضت سيطرة الفرنجة على اقليم الفرات على احتلال أهم
المدن والقلاع احتلالا عسكريا ، وكانت الحاميات قليلة نسبيا ، ولم يكن لدى
الرجال المسلحين الذين يشكلون هذه الحاميات أى وقت أو ميل لممارسة
التجارة ، لذلك لا نرى من أية جهة أن الجنويين أو البيزيين قد مضوا الى ضفاف
الفرات طلبا للثروة . فالسكان من الأهالى القدامى ، وغالبيتهم العظمى من

(١) الادريسي ، الجزء الثانى ، ١٣٦ ، ١٤٤ .

éd. Pauthier, p. 45.

(٢) اقرأ ما يقوله ماركو بولو بشأن الموصل :

وسوف أثبت فيما بعد أن هؤلاء التجار الكبار ، تجار الموصل كانوا يزورون أيضا مملكة

بيت المقدس .

(٣) الادريسي ، الجزء الثانى ، ١٤٨ - ١٥٣ : ياقوت ، فى

— Wuestenfeld, op. cit., p. 431-444;

السوريين والأرمن المسيحيين هم وحدهم الذين زاولوا هذا النشاط تبعاً لعاداتهم القديمة (١) .

لقد تتبعنا حتى الرقة الطريق النجاري الرئيسي الممتد من الشرق الى الغرب ، وابتداء من هذه المدينة يصعد الطريق مجرى نهر الفرات حتى الى القرب من بليس Baris ، ثم يتعدى منحرفاً أولاً الى حلب (٢) . سوق الحرير الكبير ، الأمر الذي يثبت أن هذه المدينة كان لها علاقات عديدة بوسط آسيا (٣) ، ومن هناك ينقسم الطريق الى فرعين رئيسيين ، يصلان الى البحر المتوسط عند أنطاكية من جهة ، ولاوديكية من جهة أخرى . ويحكى سانوتو Sanuto الذي كتب في بداية القرن الرابع عشر ما يلي : « في الزمان الماضي كان القسم الأكبر من السلع والتوابل (الهندية) المرسلة الى الغرب تمر ببغداد ، وتنقل منها الى بحرنا (البحر المتوسط) عن طريق أنطاكية ولاوديكية ، وكان عندنا وقتئذ منتجات الهند بكميات كبر وثمن أقل مما هي عليه في الوقت الحاضر » (٥) .

والمؤرخ حين ينوه برخص ثمن المنتجات الهندية في زمن ماض فإنه يسترجع ذكريات أيام شبابه ، أو يردد حكايات شائعة لدى مواطنيه البنادقة ؛ ذلك لأنه لا يوجد في ذلك العصر مؤرخ كان له صلة بهذا الموضوع . وعلى ذلك فإن عبارة « في الزمان الماضي ، لا يمكن أن تنصرف الى عصر سابق على عصر الحروب الصليبية » ونحن نعلم أن إحدى المدينتين اللتين ذكر اسمهما توا . وهي أنطاكية ، لم تكن بذاتها ثغراً على البحر ، وإنما كانت متصلة بالبحر بطريق طوله عشرة أميال (٦) ، ينتهي الى ميناء سان سيمون (مدينة السويدية

Guill. de Tyr, XVI, 4.

(١)

(٢) يؤيد الإدريسي ، الجزء الثاني ١٣٦ أن الطريق الكبير ، طريق « العراق » ، والفرس ،

وخراسان « يمر بحلب » .

(٣) رحلة ابن بطلان Ibn-Boutlan (المتوفى عام ١٠٥٢) ، ويتضمنها المؤلف

الجغرافي الكبير لياقوت . انظر — Wuestenfeld, Jakut's Reisen, op. cit., p. 450; Kremer, Auszuge aus Ibn-osch-schinch's Gesch V. Haleb, dans les Wiener Sitz. Ber phil. hist Cl. 1850, Avril, p. 239, 243.

(٤) عند الاستيلاء على أنطاكية ، وجد الصليبيون بها كمية كبيرة من الفلفل والبهار ، انظر :

هذا النبا يثبت أن تلك المدينة كان لها (Alb. d'Aix dans Bongars, p. 247)

صلات بالهند (عن طريق الفرات) .

Secr. fid. cruc. p. 22.

(٥)

Guill. de Tyr, XV, 13; XVI, 26 : Sanuto, op. cit., p. 244 : Eugesippus, (٦)

De distantues locorum terrae sanctae, éd. Allatius Symmict, p. 4.

الحالية (١) الواقعة على مصب نهر الأورنت (Oronte) (*) على الضفة الشمالية من النهر . أما اللاوديكي (اللاذقية) فانها تقع على شاطئ البحر ، ومينائها من أجمل موانئ سوريا ، وكانت آئذ حصينة ، مفتوحة لكل السفن (٢) . وفي الفقرة التي ذكرناها آنفا لا يذكر سانوتو الاسكندرونة التي أصبحت في هذا العصر ميناء التصدير الرئيسى لسوق حلب ، ولكن هذا السكوت ليس بمستغرب لأن هذه المدينة لم يكن لها في زمن الكاتب أية أهمية تجارية . ومع ذلك كان هناك وقتئذ مدينة تستحق الذكر الى جانب أنطاكية واللاذقية : تلك هي جبلة (Gibel (le grand Gibel, Gabulum) ، وتبعد عن حلب نفس المسافة التي تبعد بها عنها المدينتان الأخريان (٣) ، وكانت تتلقى بالتأكيد في مينائها الصغير جزءا من البضائع الواردة من الفرات ؛ وكان استيطان الجنوبيين بها أكبر دليل على أن لها أهمية تجارية خاصة .

لقد تتبعنا حركة البضائع من الشرق الى الغرب حتى تصل الى شاطئ البحر المتوسط ، وسندرس الآن الطرق التي تمتد من الشمال الى الجنوب وراء الدول الصليبية . وكانت السوقان الاسلاميتان الكبيرتان ، حلب ودمشق متصلتين احدهما بالأخرى بطريق نرتاده القوافل كثيرا ، يجتاز مدينة حماه وحمص ، والاثنان تهتمان كثيرا بحركة مرور البضائع (٤) . كذلك كانت أسواق حمص تستقبل البضائع من جهة أخرى، لأن طريقا للقوافل يحاذي لحدود الصحراء كان يصلها مباشرة بالركة والفرات (٥) . ولما كانت حماه وحمص على بعد قليل من البحر ، كان على تجار هاتين المدينتين بطبيعة الحال أن يبحثوا عن منفذ اليهما ، غير أن الجزء من الساحل الأقرب الى المدينتين كان وقتئذ في قبضة كنت طرابلس،

(١) كان هذا الاسم مستعملا عند العرب في عصر الحروب الصليبية . انظر الادريسي ، الجزء الثاني ١٣١ : (Adoulf, Géogr. II, 2, p. 12) وكان الغربيون أيضا يعرفون هذا الاسم ، وأجروا عليه مختلف التحويرات ، والأسماء الأقرب شيها من الشكل الاشوري هي الألفاظ Sedium في كتابه Raoul de Caen ص ١٥١ و Sudinum Suidin في الموائيق الفينيسية أو الجنوبية أنظر : (Taf, et Thom. I, 102; Lib jur. I, 30, 31, 249.)
ثم يأتي اسم Soldinum, Soldyn مبتعدين عن التسمية القديمة ، ثم Solinum, Sollinum (Ughelli, It sacr. IV, 847; Lib jur. I, 17, 133; Caffar. أنظر : Annal. p. 14 ; De liber civ. or. p. 41, 42).

(★) نهر العاص - المترجم

(٢) Edrisi, II, 131 : Aboulf. Géogr. II, 2, p. 35 : Chemseddin Dimachky, trad Mehren, p. 285 : Ibn Batouta. I, 185 : Wilbr. V. Oldenburg, p. 171.
وقد تغيرت الأحوال منذ ذلك الحين .

(٣) يقدر ياقوت في (Wuestenfeld, op. cit., p. 452) المسافة بينها وبين كل من المدينتين الأخريين بثلاثة أيام .

(٤) ياقوت ، المرجع السابق ، ص ٤٥٥ : الادريسي ، الجزء الأول ٣٥٧ وما يليها .

(٥) الادريسي ، الجزء الثاني ، ١٣٧ .

وكان لابد من شحن البضائع الواردة من القسم الأعلى من نهر الأورونت (العاصي) في موانئ تابعة للفرنجة. كان الانسان يصادف أولا ، وعلى مسيرة يومين مرفأ صغيرا كثير النشاط ، ذلك هو مرفأ طرطوس Tortose الذى يذكره الادريسي ، تبعا لما ذكره الاصطخرى على أنه مرفأ حمص (١) ، وعلى بعد قليل ، طرابلس التى كانت مخازنها مكتظة بالبضائع الثمينة ، ومينائها يجذب اليه السفن من كل البلاد ، وسكانها خليطا من اللاتينيين ، واليونانيين ، والأرمن ، والمارنيين ، والنستوريين ، واليهود ، والمسلمين ، يمارسون التجارة والصناعة بنشاط (٢) . وهناك أخيرا على مسافة قليلة جبلة ، الميناء الصغير الصالح لرسو السفن ذات الحمولة الصغيرة ، وبه سوق ذكره أبو الفدا (٣) . فاذا عدنا أدراجنا الى الجزء من سوريا الذى بقى فى أيدي المسلمين ، صدمنا باسم دمشق ، مركز المنطقة ، وأهم سوق فى ذاك القطر . ومما يجعل أهمية كبيرة لهذا الموقع هو أنه نقطة تلاقى البضائع الواردة من فارس ، وبلاد ما بين النهرين ، وآسيا الصغرى مع البضائع القادمة من مصر ، وبلاد العرب والمتجهة الى الشمال . وقد قلنا سالفنا ان دمشق كانت نقطة انطلاق أكبر القوافل ، قوافل الحجاج الذاهبة الى مكة ، قافلة « الحج السورية » ، وكانت تضم أيضا الكثير من المسلمين من البلاد ومعهم منتجات بلاد العرب ، وبضائع الهند المستوردة عن طريق عدن . وهكذا الشمالية . وكان التجار الذين يصحبون هذه القافلة وغيرها من القوافل الأقل أهمية - فقد كانت هناك قوافل من هذا النوع طوال السنة - يعودون من مكة ومعهم منتجات بلاد العرب وبضائع الهند المستوردة عن طريق عدن .

وهكذا كانت دمشق تتلقى توابل الهند من جهتين ، عن طريق الخليج الفارسي ونهر الفرات ، وعن طريق عدن ومكة ، كما ترد اليها منتجات غرب آسيا بكميات هائلة . ثم انها كانت أخيرا تقيم علاقات نشيطة مع مصر ، وبخاصة منذ أن اتحد البلدان تحت سيادة الأيوبيين . وفوق هذا التدفق للبضائع من كل البلاد ، كانت دمشق التى يسكنها قوم أذكىء بارعون (٤) ، تنتج بنفسها مواد ذات قيمة كبيرة ، فكانت الأقمشة الحريرية على اختلاف أنواعها ، وبخاصة الديباج المطرز بخيوط ذهبية تصنع هناك باتقان شديد ، لم يوجد ما يفوقه الا فى اصفهان ونيسابور ، ولم يستطع اليونانيون أن يبلغوا مستواه ، ولذلك كان هذا الحرير مطلوبا فى بلاد بعيدة (٥) . وكان يصنع بها مربيات ممتازة (٦) ، كما كان

(١) الادريسي ، الجزء الأول ، ٣٥٨ ، ٣٥٩ : الجزء الثانى . ١٣٠ ، الاصطخرى ، ٣٧ .

(٢) الادريسي ، الجزء الأول ، ٣٦٥ ، Wilbr., éd. Laurent, p. 28 : Burchardus, V. Oldenb., éd. Laur., p. 168.

(٣) الادريسي ، الجزء الأول ، ٣٥٦ :

— Wilbr. I, c. p. 167 : Aboulf. Géogr. II, 2, p. 26.

Thietnar, éd. Laurent, p. 10.

(٤)

Edrisi, I, 352 et s. : Francisque Michel, Recherches sur le commerce des étoffes de soie I, 254, 310 et s.; II, 214 et ss.

(٦) الادريسي ، الجزء الأول ، ٣٥٣ .

لسيوف دمشق شهرة عالمية ، مثلما كان لسائر الأشياء التي تخرج من أيدي صانعي الأسلحة بهذه المدينة . ولم تكن ثمة مدينة اسلامية جنوبي دمشق وشرقي الدول الصليبية في عصر الحروب الصليبية تمارس التجارة بنشاط ؛ وكانت المدينة الوحيدة التي امتد رخاؤها الى ما بعد نشأة الاسلام ، وهي بستر Bastra . قد اضمحلت . ومع ذلك لانسى أن نتحدث عن سوق كانت تقام في صيف كل عام في الهواء الطلق على السهل شرقي الأردن ، وقد حدد السيد Motzarib حديثا موقع هذا السوق (meidan) بدقة تفوق من سبقوه في ذلك ، فقد عين موقع موزرب Mauzarib في الحوران Haruran (١) . ولما كانت موزرب مرحلة من المراحل الرئيسية في طريق قافلة الحج السورية (٢) فمن المفترض أن السوق كانت تقام ثمة عند وصول القافلة القادمة من مكة . وعلى أية حال ففي مستهل الصيف ، كان جمع حاشد من المسلمين يهرع من جميع الأنحاء ، حتى من بلاد ما بين النهرين ، ويتدفق على سهل موزرب ؛ ويقضى هناك تحت الخيام فترة السوق (٣) . ومن المحتمل أنه كان يرتاد هذه السوق أيضا تجار من الغرب لأن سكان الدول الصليبية حاربوا في كل الأنحاء المجاورة ، ويعرفونها باسم سويتا Sueta أو سويت Suite (وحاليا سويت Souwet كما ذكر Wetzstein) ، وكانت جزءا من مملكة القدس في أقصى امتداد لها (٤) . وعلى أية حال فلا بد أن حركة المبادلات التجارية التي كانت تجري في سوق موزرب كان لها تأثير محسوس على المدن التجارية بمملكة القدس . فالواقع أنه في الوقت الذي كانت فيه امارة أنطاكية وكونتية طرابلس بمثابة المعبر لتجارة البلاد الاسلامية والغرب ، كانت مملكة القدس ، مع بقائها على الدوام في حالة حرب مع المسلمين ، توثق معهم في أكثر من ناحية علاقات سلمية . كانت قوافل المسلمين التي تجتاز اقليم يحكمه أمير مسيحي أو أحد أتباعه تتعرض بالتأكيد

(١) Westzstein : Job, de Delitzsch (Leipzig 1864) p. 522 et ss. ; Ritter, op. cit., p. 1018 et ss.

(٢) Ritter, Erdk. XIII, 420, 423 ; l'éd. anglaise, dans les publications de la Hakluyt Society, p. 16.

(٣) Eugesippus, 1. C. p. 4 : Theodoricus, Libellus de locis sanctis, éd. Tobler, p. 109 : Thietmar, éd. Laur, p. 8 : Anon. lat., dans Vogué, op. cit. p. 422; Burchard., éd. Laur. p. 37; Guill de Tyr, XVI, 9 (cf. XI 11 18 : XXII, 21) : Sanut. Secr. fid. cruc. p. 246.

(٤) Chartes de Terre Sainte provenant de l'abbaye de Notre Dame de Josaphat, publ par Delaborde (Bibl. des écoles française d'Athènes et de Rome, fasc. 19).

— ري : Rey : مذكرات عن الاقاليم التي يمتلكها الفرنجة شرقي بحيرة طبرية ، والبحر الميت ، والاردن : (Mém. de la Soc. des antiq. de France. XLI)

للسلب والنهب (١) ، ولم تكن هذه حالة نادرة ، وربما لم تكن الرغبة فى الاستيلاء على الغنيمة هى الباعث الوحيد لدى سادة البلاد ؛ فقد تكون عندهم اسباب سياسية تدفعهم الى عرقلة التقدم المستمر فى التجارة بين سوريا ومصر ، لأن اتحاد هذين البلدين لا يمكن أن يتم الا اضرارا بمملكة القدس . على أن هذه التجارة كانت تجرى بنوع خاص بوساطة القوافل التى تضطر الى اجتياز مملكة القدس ، فتدخلها اما عن طريق غزة ، وتصعد نحو الشمال الشرقى لتخرج ثانية عند بحر الجليل (بحيرة طبرية Genezareth) ، أو أنها تصل الى هناك قادمة من البحر الأحمر ، فتدخل وادى الأردن عن طريق غور Ghôr . ومهما كان الطريق الذى تسلكه القوافل ، فانها تجد نفسها تحت رحمة ملوك القدس لأن طريق الغور تتحكم فيه قلعتا كرك Karak وشوبك Choubek (٢) . وحتى قبل عهد صلاح الدين ، كانت المملكة تمتد حتى « ايلة » Ailah (ايلات) على البحر الأحمر (٣) . وكان صاحب حصن كرك هو رينو دوشاتيون Renaud de Châtillon المغامر المشاغب الذى تركت احدى حملاته ضد قافلة للمسلمين ، وما أعقبها من سلب ونهب ؛ تركت ذكرى لانتسى ؛ ذلك أن صلاح الدين أعلن على الصليبيين فى عام ١١٨٧ حربا مشثومة انتقاما من هذه الأعمال . كانت أعمال النهب والسلب هذه ، على قول كل من الأصدقاء والأعداء انتهاكا صريحا للهدنة . ومهما كان الأمر ، فان تلك الاحداث تثبت أن قوافل المسلمين كانت فى أوقات السلم تجتاز حسب عاداتها الاقليم المسيحى (٤) . وكانت معاهدات الصلح أحيانا تفرض أمن القوافل صراحة (٥) ، وكانت هذه الحركة التجارية فضلا عن ذلك جزيلة الفائدة للدول الصليبية . ذلك لأننا حين نتصفح التعريفات الجمركية لمملكة بيت المقدس فى مجموعة قوانين المملكة ، نرى مثلا أن الكتان المصدر من القاهرة الى دمشق يخضع لرسم مرور (٦) . وكم من السلع الأخرى الذاهبة والعائدة على نفس الطريق كانت تأتى للخزانة الملكية بعوائد كبيرة ، ولم ينس الملك بلدوين الثالث هذا المورد فى الصكوك

(١) Alb. d'Aix, X, 35; XII : Joinville, Hist de Saint-Louis, éd de Wailly (1874) p. 294.

— استولى ريتشارد قلب الأسد على احدى هذه القوافل Itin Reg. Ricardi, p. 290; Contin de Guill. de Tyr, p. 185 D. 189, 196 et s. D.)

(٢) فى أهمية هذه القلاع أنظر : Wilken, II, 616. 111, 2, p. 141, 229, 236, note — Oliver. Scholast., De captione Damiatæ, éd. Bong. p. 1191

(٣) أبو الفدا : Annal. musul. III, 633.

(٤) Ekkeh. (Hierosolymita, éd Hagenmeyer, p. 195 et s.)

(٥) نجد مثلا لذلك ، فى عهد بودوان (بلدوين) الثانى ، فى الجزء من الوقائع الذى ذكره

بيجنو Beugnot فى كتابه : Assises de Jérusalem, II, 181.

(٦) بيجنو ، المرجع السابق ، II ، ١٧٥ .

التي نزل فيها عن قلاع الشوبك والكرك ، ووادي موسى بصفتها اقطاعيات ، فنص فيها على تحفظ خاص بالقوافل (أى برسوم المرور التي تخضع لها) التي تمر على مرأى من هذه القلاع وهي ذاهبة من مصر الى بغداد ، وبالعكس (١) . وفي غير هذه الضريبة المباشرة ، كانت القوافل المارة تترك دائما بعض الأشياء في مدن المملكة التي تجتازها . فاذا كانت مدينة طبرية ، مثلا ؛ أهم مدن وادي الأردن ؛ فذلك لأنها واقعة على الطريق الكبير الممتد من مصر الى دمشق ؛ على مسيرة ثلاثة أيام من هذه المدينة : فهذا الجوار جعل منها مدينة تجارية ، وكانت البضائع التي تصدرها ترسل عن طريق ميناء حيفا الواقع عند سفح جبل الكرمل Carmel (٢) .

ومع ذلك لم تقتصر تجارة مملكة بيت المقدس على حركة مرور من بلد اسلامي الى بلد اسلامي آخر ، فقد أصبح البلد بعد قليل مركزا كبيرا للمبادلات بين الشرق والغرب . حقا ، لم يكن هناك طريق من الطرق التجارية الكبيرة الموصلة من الشرق الى البحر المتوسط يصب في اقليم المملكة : فبضائع الشرق التي تسلك هذه الطرق تصل اما الى شمال سوريا ، أو الى شمال مصر تبعا لما اذا كانت قد عبرت الخليج الفارسي وصعدت نهر الفرات أو عبرت البحر الأحمر . وكان هذا أمرا سيئا ناتجا عن موقع البلد نفسه : ولكن ثمة مزايا تعوضه . فدمشق ، المستودع الكبير الذي ترد اليه منتجات الشرق كله بكميات هائلة ، يقع خلف المملكة ، وعلى مسيرة بضعة أيام من موانئها التجارية ، ثلاثة أيام من بيروت وصيدا ، وأربعة من صور وعكا (٣) . ومن جهة أخرى ، كان لأمم الغرب التجارية منشآت رئيسية في موانئ مملكة بيت المقدس . وكان لهذا الاختيار ما يبرره : فهذه الأمم ، في مجال الغزو قد كرس كل جهودها وقراها للاستيلاء على هذه الأماكن ، ومن ثم كان لابد أن تتركز هناك الحياة التجارية (٤) .

قلنا فيما سبق كلمة عن التعريفات الجمركية ، ويرجع أول ذكر لها على الأرجح الى القرن الثاني عشر ، ونرى فيها تشكيلة كبيرة من السلع من منتجات معظم بلاد الشرق . فاذا كانت هذه التعريفات تطبق في مدينة عكا ، وليس في

(١) Chart de l'année 1161, dans Strehlke, Tab. ord. teuton, p. 4.

(٢) الادريسي ، الجزء الأول ٣٤٧ : ٣٤٨ : ياقوت في وستنفيلد Wuestenfeld

ص ٤٦٠٠ .

(٣) ياقوت ، في وستنفيلد ، ص ٤٥٩ .

(٤) لم تكن اماره انطاكية تجتذب الكثير من التجار الغربيين . وثمة ظاهرتان تشبان ذلك . اولاهما ندرة التصاريح التي يمنحها أمراء انطاكية للأمم التجارية (الغربية) ، ثم ، وبنوع خاص ، الرسالة التي حررها الأمير بوهمند الثالث في عام ١١٦٩ وفيها يحث صراحة الجنوبيين على الاكثار من التردد على بلده ، والاستيطان به في أعداد كبيرة : (Lib. jur. I, 249)

ذلك أى شك ، فأننا نجد فى سوق هذه المدينة الراوند الوارد من الشرق الأقصى ، ومسك التبت ، والفلفل ، والقرفة ، وجوز الطيب ، والقرنفل ، وخشب الصبر ، والكافور ، وغير ذلك من حاصلات شبه القارة الهندية وجزرها ، وعاج الهند وأفريقيا ، والبخور ، والبلح من بلاد العرب ، وغير ذلك (١) . ويذكر بيچولوتى Pegolotti وهو يتحدث عن حالة التجارة فى عكا قبل أن تخرج المدينة نهائيا من أيدي المسيحيين ، يذكر من بين السلع التى كانت تباع فيها عددا كبيرا من منتجات الشرق الأقصى ، منها التوابل (٢) . ونجد أيضا فى أحد الصكوك (٣) ، أنه كان فى سوق بيروت الفلفل ، والبخور ، والنيلة ، وخشب البقم ، والآلى . من الواضح إذن أن موانئ مملكة بيت المقدس كانت تتلقى كميات كبيرة من منتجات وسط آسيا .

كان أهم هذه الموانئ بلا مرأى ميناء عكا ، فكان ينزل من السفن هناك أعداد كبيرة من الحجاج ، ويعود الى السفن أغلبية هؤلاء الحجاج . وكان الميناء الفسيح الأمين يأوى عددا كبيرا من السفن (٤) المخصصة لنقل الحجاج أو البضائع ، ويجد التجار فرصا كثيرة لتصدير منتجات الشرق الى أوروبا . وبلى عكا مدينة صور ، وهى مدينة زاهرة ، ومستودع فسيح ، تتيح للسفن الوطنية والأجنبية مأوى آمينا بنوع خاص ، بفضل مينائها المزدوج ، وحصونها المنيعة (٥) . ولم تكن بيروت فى حالة تسمح لها بمنافسة هاتين المدينتين ، ومع ذلك فإنها كانت أقرب منهما الى دمشق ، وكان سيناؤها ممتازا ، وقد اسهم هذان الظرفان آنئذ فى بعث الحياة والحركة داخل أسوارها (٦) . ولهذا السبب نفسه ، ولكن على نطاق أصغر ، كان لميناء حيفا الصغير بعض الأهمية إذ تمر به القوافل القادمة من طبرية . وكانت كل الموانئ التى ذكرناها تتبع القسم الشمالى من المملكة ، أما القسم الجنوبى فلم يكن به أى مرفأ له اتساع كاف لايواء السفن التجارية : ومن هذه الموانئ قيصرية (٧) ، ويافا (٨) ، وعسقلان (٩) . ومع ذلك ، ورغم

Assises de Jérus. II, 173 et ss.

(١)

Practica della mercatura, dans Pagnini, Della decima e delle altre gravezze dei Fiorentini III, 48 et s.

(٢)

Taf, et Tham, II, 233.

(٣)

(٤) أحصى الحاج تيودوريك الذى زار هذا الميناء بين ١١٧١ و ١١٧٣ ثمانين بها .

— Theodericus, De locis sanctis, éd. Tobler, p. 91.

انظر :

Theoder I. C. p. 111 : Benj de Tud. p. 62 et s. : Jacq de Vitry, 1. c.

(٥)

— Aboulf. Géogr, II, 2, p. 25 et s.; Phoeas, 1 c. p. 531.

(٦)

Guill. de Tyr. X, 15 : Jacq de Vitry p. 1067.

(٧)

Cf. Tobler, Topographie von Jerusalem und seinen Umgebungen,

(٨)

II, 585.

Aboulf. Géogr. II, 2, p. 17.

(٩) أبو الفدا :

هذا العيب ، كان ميناء يافا أقرب ميناء من وسط المملكة ، ومن مقصد الحجاج ، لذلك كان يستقبل كثيرا من سفن الغرب طالما بقي اللاتينيون سادة بيت المقدس . وحتى بعد سقوط المدينة المقدسة ، ولأن دخول الميناء كان مسموحا للحجاج الغربيين ، فإن حركة المرور لم تتوقف أبدا توقفا كلياً . ولم يكن للتجارة الكبيرة شأن يذكر بهذه الناحية ، ولم يكن باستطاعة بيت المقدس أن ينافس المدن الساحلية مثل صور وعكا . كان بيت المقدس متصلا بمصر وبلاد العرب بطرق تجارية ، وكان بأسواقه توابل من الشرق الأقصى ، غير أن التجارة هناك كانت قاصرة على الحركة المحلية ، لسد حاجات بلاط لم يكن غنيا بنوع خاص ، وسكان قليلين ، وجمهور متذبذب من الحجاج . ومن أجل هذه الحاجات ، كان هناك مثلاً حوانيت الصيارف ، وتجار الجوخ ، والصاغة ، يديرها بعض الفرنجة من الأهالي الذين ورد الحديث عنهم في أوصاف بيت المقدس في ذلك العصر (١) . وفي هذه الظروف ، لم يكن في المستطاع أن تصير يافا ميناء بيت المقدس مركزا للمبادلات الهامة بين الشرق والغرب ، ومع ذلك كانت أسواقها في عهد سيادة الفرنجة مليئة بالسلع (٢) . وإلى الجنوب ، كانت عسقلان أيضا مركزا لحركة تجارية كبيرة (٣) ، غير أنه بسبب قربها من مصر ، وسهولة الوصول منها إلى هذا البلد ، عن طريق البحر أو البر ، باتباع طريق غزة المحاذي للساحل ، فإن ميناءها كان بالأغلب وسيطا بين سوريا ومصر ، أكثر منه بين الشرق والغرب .

استعرضنا سواحل الدول الصليبية كلها ، من السويدية إلى غزة ، وبيننا الموانئ التي كانت تأتي إليها وتخزن بها منتجات الشرق بكميات كبيرة أو صغيرة في انتظار سنوح الفرص لكي تصدر إلى أوروبا . بقي علينا أن نعرف ما إذا كان التجار الفرنجة المقيمون بهذه الموانئ يتسلمون مباشرة بضائعهم الواردة من الشرق ، أو يذهبون لشراء هذه البضائع من أسواق المسلمين . ليس لدينا في هذا الخصوص ، وبالنسبة إلى العصر الذي بلغت فيه الدول الصليبية ذروة مجدها سوى معلومات قليلة ، هي والعدم سواء . أما بالنسبة إلى العهود التالية ، فإننا نقر بأن الوسيطتين كانتا متبعيتين (٤) ، فالثابت أن

(١) 3e vol. de la série géographique publiée par la Société de l'Orient latin (Itinéraires à Jérusalem, rédigés en français aux XIe, XIIe et XIIIe siècles) ... p. 34, 38, 42 et s., 146, 147, 155.

Aboulf., Géogr. II, 2, p. 17.

(٢) أبو الفدا :

Benj-de Tud., éd. Asher, I, 79, 80.

(٣)

(٤) استقبال العالم المسيحي بصيحات الفرح والأمل نبا انتصارات جنكيز خان :

Lettre de Jacq. de Vitry, dans d'Achéry, Spicilegium, III, 591, et dans Zaurocke, Der Priester Johannes, Suppl. II, p. 14.

البنادقة كانوا في حوالى منتصف القرن الثالث عشر يذهبون الى دمشق ، والى جهات متنوعة من اقليم المسلمين لأغراض البيع والشراء (١) ، ومن جهة أخرى نجد فى عكا ، الى جانب طائفة التجار الفرنجة عددا كبيرا من المسيحيين واليهود الشرقيين (٢) الذين يعيشون من التجارة : كذلك نرى تجار الموصل الكبار (٣) الذين تشير اليهم فقرة مما كتبه ماركو بولو ، اذ يحكى هذا الرحالة المشهور أن « أهالى الموصل » هم الذين يتاجرون فى التوابل ، والحرائر ، والديباچ ، ومن ثم يحق لنا أن نفترض أن هؤلاء هم الذين كانوا يستوردون هذه السلع الى عكا . وما كان يجرى فى عكا كان يجرى أيضا فى سائر المدن الساحلية بمملكة بيت المقدس : لذلك فانا نقر بأن التجار الغربيين كانوا يذهبون بأنفسهم الى أقرب الأسواق الاسلامية طلبا لمنتجات البلاد الآسيوية ، أو أنهم لا يذهبون بعيدا عن مقارهم ، ويستلمون هذه المنتجات من أيدي الشرقيين المقيمين بجوارهم . وكان لحلب فى شمالى سوريا ، بالنسبة الى أمم الغرب التجارية نفس الجاذبية التى كانت لدمشق فى وسط سوريا . وليس من شك فى أن البيزيين بأنطاكية كانوا فى حوالى عام ١٢٠٠ يتاجرون ببضائعهم فى داخل البلد ، وأن وجهتهم كانت حلب ، لأنهم يدفعون رسما لأمر أنطاكية عند مرورهم على جسر أورونت المحصن (على نهر العاصى - حاليا) ، وهو الآن « جسر الحديد » على طريق أنطاكية - حلب (٤) . ومنذ أوائل القرن الثالث عشر ، عقد البنادقة مع أمير حلب العديد من المعاهدات التى سوف ندرسها فى فصل خاص .

اننا الى الآن لم ننظر الى الدول الصليبية الا من حيث مرور البضائع الواردة من داخل آسيا بها : غير أن التجار الأوروبيين كانوا يجدون فى البلد نفسه حاصلات طبيعية أو صناعية تستحق التصدير . وكانت سوريا وفلسطين تتمتعان وقتئذ بخصوبة مذهشة (٥) ، وكانت المنشآت الكبيرة المقامة لرى الأراضى ، والعديد من المزارع والحقول المؤجرة بطريق المزارعة ، والقرى (٦) .

(١) Taf. et Thom. II, 397 et s.

(٢) وجد فيلبراند دولدنبرج Wilbrand d'Aldembourg (الناشر لوران ، ص ١٦٣) سكان عكا من عناصر يونانية ، وسورية ، من يهود ويعاقبة .

(٣) Assises de Jérus. II, 178 : Contin : de Tyr, p. 474.

(٤) Doc. sulle relaz. tox p. 80 ; voy. Ritter, Erdk, 2, p. 1641.

(٥) ي خصوص الحاصلات الطبيعية فى هذه البلاد فى عصر الحروب الصليبية ، أنظر بخاصة : Jacques de Vitry, p. 1099 et s. Burchardus de Monte Syon, éd. Laurent, p. 86-88.

(٦) أحصى حول عسقلان ٧٢ مزرعة كبيرة يسكنها ٢٠٠ أسرة ، وعشرون مزرعة صغيرة : (Taf. et Thom. II, 398)

ويقول المصدر نفسه أن الثلث الفينسى بمدينة صور كان يضم قرابة ٨٠ مزرعة ، فكانت هناك فى المجموع حوالى ٢٤٠ مزرعة فى الضاحية .

التي وجدها القادمون الجدد في ضواحي المدن ، واستمروا في استغلالها ، تشهد كلها بمدى ما تلقاه الزراعة من عناية . كذلك كانت الحدائق ، وخاصة في ضواحي طرابلس (١) ، وصور (٢) غاصة بفواكه الجنوب ، من ليمون ، وبرتقال ، وتين ولوز . وعلى سفوح لبنان من جهة البحر ، وعلى الكثير من النواحي الأخرى ، تزرع الكروم ، ويصنع منها نبيذ فاخر ، أشهر أنواعه نبيذ نيفن Nefin في كونتية طرابلس (٣) . وكانت مزارع الزيتون وحقول السمسم (٤) تعطى محاصيل وفيرة من ثمار زيتية (٥) ، وفي الأراضي المقدسة رأى الغربيون قصب السكر لأول مرة (٦) . وكثيرا ما ارتوى الصليبيون بقصب السكر حين كانت جيوشهم تجتاز سوريا وفلسطين إبان الحملة الصليبية الأولى . وفيما بعد ، حين أصبح الفرنجة سادة البلد ، تعلموا من السوريين زراعته واستخلاص عصيره ، وأصبح السكر من السلع التصديرية الرئيسية في سوريا (٧) ، وأصبح الكثير من المحاصيل الفاتحة للشهية ، التي تنتجها تربة سوريا زينة لموائد الغربيين . وفي القرن الثاني عشر ، قدم ثرى من كانوسا Canossa لضيوفه ، مع الفواكه المستوردة من الخارج ، فواكه فلسطين وطرابلس التي استجلبها غالبا عن طريق باري أو تراني Trani (٨) .

وإذا انتقلنا من الأغذية الى الثياب ، نرى أن الدول الصليبية تنتج القطن والحرير (٩) ، وكان جزء من هاتين المادتين يصدر كمادة خام (١٠) ، وجزء منهما يصنع محليا . ففي سوريا تنسج أقمشة بارعة في فنها ، تتمتع بشهرة

(١) Burchard, éd. Laur, p. 28 ; Edrisi, I, 356.

(٢) Guill. de Tyr, XIII, 3 : Taf et Thom, II, 351 et ss.

(٣) Burch. p. 88, 28 etc. : Wilbr. ab Oldenb. éd. Laur, p. 168 : Assises de Jérusalem II, 177, 179, 180.

وبخصوص زراعة الكروم والنباتات الزيتية في الدول الصليبية ، انظر :

— Prutz, Culturgesch der Kruz, p. 553 et ss.

(٤) ذكر زيت السمسم في قوانين مملكة القدس ، الجزء الثاني ، ١٧٥ :

— Taf, et Thom, II, 385 ; etc. etc.

(٥) في عصر الخليفة المأمون كانت فلسطين تصدر سنويا لبلاد بغداد ٣٠٠٠٠٠٠ وطل من

cf. Ibn Khaldoun, Prolégomènes, I, 366.

الزيت :

Jacq. de Vitry, pp. 1075, 1099.

(٦)

(٧) سوف نقدم مزيدا من التفاصيل عن موضوع السكر في الفصل الخاص بالمواد التي كانت

موضوعا للتجارة .

Joh. Sarisberiensis, De nugis curialium, lib. 8, cap. 7.

(٨)

Jacq. de Vitry, p. 1099; Burkhard p. 86 et s.; Wilbrand d'Oldenbourg (٩) trouve la sire au nord de Tripoli (éd. Laurent, p. 169).

Taf et Thom, II, 233; Assises de Jérusalem, II, 173; Lib. jur. 1, 71 (١٠), et s.

عريضة (١) . وعندما كان القديس لويس في فلسطين ، بعث نائبه دو جوافيل لبيتاع في طرطوس مائة قطعة من قماش « الكاميلان » المختلف الألوان ليهديها عند عودته الى الفرنسيسكان (٢) : ويدل هذا الخبر الصغير على أن أصغر المدن كان لها تخصصاتها في هذا الفرع من الصناعة . ومع ذلك كانت المراكز الرئيسية لصناعة الحرير أنطاكية وطرابلس وصور . وعندما استولى الصليبيون على أنطاكية وجدوا من الغنائم بخلاف الذهب والفضة والأحجار الكريمة والأواني الفاخرة سجاجيد وأقمشة من الحرير الخالص (٣) . وفي عهد سيادة الفرنجة استمر في تلك المدينة صناعة الأقمشة البديعة (٤) . وفي طرابلس ، شغل نسيج الحرير عددا كبيرا من الصناع . وفي نسخة من «وصف الأراضي المقدسة» لبركهارد Burkhard — محفوظة الى يومنا هذا — نجد أن عدد المشتغلين بنسيج الحرير و « الشملة » (*) في هذه المدينة بلغ ٤٠٠٠ عامل وأكثر (٥) . ويلاحظ أن هذا الرقم يطابق تماما الرقم الذي ذكره المقرئ ، فيقول هذا المؤرخ أنه في الزمن الذي استعاد فيه السلطان قلاوون هذه المدينة ، بعد رحلة بركهارد في سوريا ببضع سنين ، كان بها ٤٠٠٠ نول تعمل بهمة ونشاط (٦) . وكانت صور متخصصة في صناعة أقمشة بيضاء ثمينة تصدر الى جهات بعيدة ، وكانت الأقمشة الحريرية الخارجة من مصانعها تباع أيضا في الغرب (٧) ، كما كانت الأقمشة التي يصنعها النساجون السوريون في حى البنادقة مطلوبة كثيرا حتى يقال أن السفن الفينيسية كثيرا مما كانت تنتظر الانتهاء من صنعها لتشحنها الى أوروبا . وكان معظم هذه الأقمشة يلون بألوان متنوعة ، وتزودها الطبيعة بهذه الألوان ، وكانت مواد الصباغة موجودة في البلاد نفسها ؛ فينتج وادي الأردن النيلة (٨) ، وتنتج ضواحي دمشق وادي « الأورونت » (نهر العاصي) « القوة » (*) (٩) . وكان البحر يلقي على شاطئ صور الأرجوان (١٠) ، تلك الصدف المعروفة من قديم الزمان . وكانت الصباغة صناعة مزدهرة ، ازدهار

(١) Francisque Michel, Recherches sur les étoffes de soie, I, 347 et s.

(٢) Joinville, Hist de St Louis, éd de Wailly (1874) p. 328.

(٣) Guill de Tyr, V, 23.

(٤) الادريسي ، الجزء الثاني ، ١٣١ ، « قوانين مملكة القدس » ، الجزء الثاني ، ١٧٩ .

(٥) (كساء من صوف أو شعر يلقى به على الكتفين — المترجم)

(٦) Edition de Reinerus Reieccius (Magdeb. 1578) no 13; éd. Laurent, p. 25; Neumann, dans l'Asterr. Monatschrift fuer den Orient, 1880, p. 78.

(٧) المقرئ ، Hist. des sultans mamlouks, éd. Quatremère, II, 1, p. 103.

— Michel, 1, c. I. 208.

(٨) الادريسي ، الجزء الأول ، ٣٤٩ :

(٩) الادريسي ، الجزء الأول ، ٣٣٩ .

(١٠) (عشب معمر ، يستخرج من شذوره مادة تستعمل في صنع الصوف والحرير — المترجم)

Ritter, Erdk. XVII, 1, p. 622; XVII, 2, p. 1358, 1391.

(١١)

Benj. de Tudèl., éd. Asher, I, 63.

(١٢)

صناعة النسيج ، وكانت مركزية في أيدي اليهود (١) . وكان بسوريا مصانع للأواني الخزفية والزجاجية الدقيقة (٢) ، واحتفظ زجاج صور دائما بشهرته القديمة الراجعة الى شفافيته غير العادية . وثمة سببان لهذه الشهرة : جودة المواد الأولية (البوتاس المستخلص من الرماد) التي ينتجها البلد نفسه . ثم مهارة الصناع ، وكلهم تقريباً من اليهود . وكانت التجارة تصدر هذه الزجاج الى جهات بعيدة ، وتحصل منه على أرباح كبيرة (٣) .

مما سبق كله يتبين لنا مدى ثراء سوريا بسلع التصدير . الا أنه من الثابت أن السفن التي كانت تأتي طلباً للمنتجات الشرق لم تكن تصل خالية ، ولكنها تجلب شحنات من بضائع الغرب . ذلك أن فرسان الغرب وسيداته ، الذين استقر بهم المقام في قصور سوريا ، ورجال الدين الذين نشأوا في الكنائس والأديرة وأفراد الطبقة البورجوازية في المدن الفرنجية الذين انتقلوا الى مدن الشرق الأدنى ، كانوا في حاجة الى أشياء كثيرة لا يمكن أن يزودهم بها غير الصناعات القائمة في أوطانهم الأصلية . بل ان الوطنيين أنفسهم قد عرفوا منهم أقمشة أوروبا وأدواتها المنزلية . والثابت ان احضار منتجات الغرب لعرضها في أسواق الشرق كان يتطلب جهوداً لا نملك بشأنها سوى دلائل غير كافية . يضاف الى هذه الحركة التجارية حركة غير عادية للمسافرين بين أوروبا وفلسطين ، فكان هناك كل يوم أعداد كبيرة من رجال الدين والفرسان والحجاج والمغامرون ورجال الصناعة يرغبون في السفر حتى لم تكن ثمة سفينة تبصر وهي خالية من الركاب ، وكانت حركة السفر نشيطة جداً ، فكان الى جانب السفن الفردية ، أساطيل حقيقية ، تسمى « قوافل » ، وكان التجار الذين يحضرون معهم سلعاً ثمينة ، يفضلون هذه الوسيلة في السفر ، لأنها تكفل لهم أمناً كبيراً من غارات القراصنة . وكان ينتظم بعامة في موانئ الغرب رحلتان كبيرتان في الموسم الملائم : الأولى في (أعياد الفصح تقريباً) (٤) ، والثانية في عيد القديس يوحنا

(١) Ibid. I, 58, 63, 65, 69, 75, 78, 79 : Carmoly, Itinéraires de la Terre sainte, p. 129 et passim ; Cf. Ritter Erd., XVIII 1, p. 379.

(٢) Carmoly, 1. c. p. 248, Edrisi, I, 349. في يافا وصور :

(٣) Guill. de Tyr, XVII, 3 ; Jacq de Vitry p. 1098 : Benj de Tudél. I, 63 ; Edrisi, I, 349. Benj. du Tudél, I, 58.

— كان اليهود القلائل الذين يقطنون في أنطاكية يزاولون صناعة الزجاج . Taf. et Thom. II, 391 et ss. Cf. Annal. Jan. p. 238, 239, 412, (٤) 457, 489, 508; Dandolo dans Murat, SS., XII, 371; Cont. de Guill. de Tyr, p. 447, 610.

(٥) «Passagium pascoe s. Martii» Paoli, Cod. dipl. I, 125 : Raynold. Annal eccles. ad an. 1238, no 26 ; Roger, de Hoveden, éd. Stubbs, IV, 187, «Passage de Marz» : Villeh., éd. de Wailly, p. 44; Jacq. de Vitry p. 1138 : Guill. de Tyr, XVII, 8, etc.

المعمدان (١) (٢٤ يونيو) . ومع ذلك كانت رحلة الربيع تؤجل أحيانا الى شهر مايو (٢) كما تؤجل رحلة الصيف الى شهر أغسطس أو سبتمبر (٣) . وفي مستهل القرن الثالث عشر ، نظم البنادقة رحلة شتاء (٤) الى سوريا ، الا ان الرحلات بقيت بوجه عام قاصرة على رحلتين ، حتى عام ١٢٧٨ ، وفي هذه السنة قرر مجلس شيوخ البندقية الا يرحل كل عام سوى أسطول واحد ، في شهر أغسطس ، قاصدا سوريا وأرمينيا ومصر وقبرص ، وحظر على السفن المبعوثة الى جهات أخرى أن تغير وجهتها لتزور هذه البلاد (٥) ، وكان الاقلال من الرحلات يبرره غالبا الحاجة الى عدد أكبر من السفن لخدمة خطوط الملاحة الجديدة . وكان وصول أسطول من هذه الأساطيل دليلا على تجديد النشاط التجاري في موانئ الشرق الأدنى ، وتنظم التجارة في سوق كبيرة طوال فترة توقف الأسطول في الميناء . ومع ذلك كان التجار الغربيون الكثيرون المستقرون في مواقع ثابتة من موانئ سوريا يهتمون بالا تفرغ مخازنهم من السلع ، فتظل حوانيتهم مفتوحة ، وتستمر حركة التبادل التجاري بين منتجات الغرب ومنتجات الشرق نشيطة طوال السنة . من الصحيح اذن أن نسلم بأن هؤلاء المستوطنين يؤدون لتجارة الشرق الأدنى من الخدمات أكثر مما يؤديه التجار الذين تقتصر مهمتهم على الذهاب والعودة مع الأساطيل التجارية . ولم يكن في عبور البحر المتوسط مصاعب كثيرة ، وكان في مقدور الذين يخشون مخاطر السفر في أعالي البحار أن يعبروا مع ذلك البحر المتوسط بالسير بحذاء سواحل أوروبا ، والانتقال بين الجزر العديدة المتناثرة في هذا البحر ، فيجدوا بذلك موانئ مناسبة يرسون عندها . ثم انه كان من النادر في ذلك الأوان أن يخاطر الناس بالابتعاد عن الشواطئ ، فنرى مثالا لذلك أن الصليبيين الحجاج القادمين من بحر الشمال (٦) ، بعد أن يجتازوا مضيق جبل طارق ،

(١) «Passagium oestivale, passagium S. Johannis»; v. les lettres de Grégoire IX dans Reynald, 1. c. no 2, de St Louis, dans Duchesne, V. 432, de Guillaume, patriarche de Jérusalem, dans la Biblioth. de l'école des chartes, 4e serie, T, IV, p. 124.

Duchesne, 1. c.

(٢)

Duchesne, 1. c.; Guill de Tyr, XI, 20; Paoli, 1. c. Dal Borgo, Dipl.

(٣)

Pis., p. 185 Taf et Thom, III, 36 : Mas-Latrie, Traité de paix et de commerce, Suppl. p. 2, 3 : «Caravana Augusti», dans la «Commission pour la Crète» de l'an 1350, publié par Thomas, Alh. d. bayr. Akad. Cl. I, vol. XIV, Sect. 1, p. 195; Bibl. de l'éc des Chartes, 4e série, T. IV, p. 124.

Taf, et Thom II, 261.

(٤)

Collect des doc. inéd., Mélang. hist, III (1880), p. 17.

(٥)

Adam de Brém, Pertz, ss. VII, : نجد يوميات السفراء لهذا هؤلاء الحجاج في

368 (addit), et dans les Annal. Stad. ibid. XVI, 340, et dans la Chron. d'Emen et de Menkon Pertz ss. XXI 478 et ss., 554 et ss.

— توقف كل هؤلاء الحجاج في ميناء مرسيليا .

يخشون المخاطرة بالابحار على طريق مباشر من الغرب الى الشرق ، ويفضلون اتباع طريق طويل يحاذي شواطئ أسبانيا وفرنسا وإيطاليا . وفى البداية ، كان أهالى مرسيليا يسرون أيضا بحذاء سواحل إيطاليا ، ويتوقفون عند صقلية كانديا، وربما أيضا عند رودس وقبرص، ولم يجسروا على الابتعاد عن الملاجئ الآمنة التى توفرها السواحل والجزر الا فيما بعد ، فكانوا عندئذ يتركون سردينيا وصقلية وكانديا الى يسارهم ، وينطلقون فى أعالي البحار على خط مباشر الى عكا ، ولم يكن هذا العبور يستغرق أكثر من خمسة عشر يوما وليلة اذا أتيح له ريح مواتية (١) . ولم يتبع هذا الطريق بوجه عام الا فى أواسط القرن الثانى عشر ، وحتى بداية هذا العصر لم تكن السفن تخاطر باتباعه الا بنوع استثنائى ، وفى بحر هادى ، ولم تكن تواصل الملاحة الا بجوار السواحل (٢) . ولما كان نقل البضائع يتم فقط على سفن شراعية تجارية ثقيلة ، وكان المطلوب عدم تعرضها لأية مخاطر ، فقد بقى الطريق التجارى المطروق أكثر من غيره ، كما كان فى الماضى هو ذلك الذى يخترق مضيق مسينا . وبالنسبة الى أهالى جنوا ، وبيزا وأمالفى لم يكن هذا الطريق هو الأكثر أمانا من غيره ، ولكنه كان أيضا الأقصر . وابتداء من صقلية كانت السفن تسلك طريقا مباشرا صوب الشرق عبر البحر الأيونى حيث تنضم السفن القادمة من غربى البحر المتوسط الى القادمة من البندقية وأنكونا وموانئ بوليا (أو أبوليا) . وكان أول مرسى لهذه السفن كانديا فى منتصف الطريق بين صقلية وعكا ، وقلما كانت السفن تمر أمام رودس دون أن تتوقف عندها ، وكانت قبرص آخر موقع ترسو عنده .

كانت الدول التى لها علاقة تجارية بالشرق تهتم بمعرفة المحاط الوسطى التى فى أيدي بلاد صديقة . ففى صقلية كان الأمراء النورمان قد طردوا العرب منها ، وكانت كانديا ورودس وقبرص تابعة للإمبراطورية البيزنطية ، وقد عقد كل منها معاهدات مع الدول التجارية . وفيما يختص بالملوك النورمان فانهم منحوا الجنوبيين فى صقلية مجموعة من الامتيازات (٣) عرف هؤلاء كيف

(١) هذى هى المدة التى ذكرها روجر دو هوفدن :

Roger de Hoveden (éd. Stubbs, III, 51) :

أما المعلق على « آدم دو بريم » (المرجع السابق) فإنه يحسب ٤ أيام من مرسيليا الى مسينا ، و ١٤ يوما من مسينا الى عكا ، فيكون المجموع ١٨ يوما .

Gesta Regis Ricardi, éd. Stubbs II II, 198 et s. : Roger de Hoveden, (٢)

I, c. 51, 160 Annal Stad, I, c.

(٣) نعرف براءة منحها أيام روجر الثانى فى عام ١١١٧ ، ونعرف أيضا براءتين أخريين

منحهما الملك جويوم الأول (Lib jur. I, 190, 202 et s.). غيز أن الدراسة

الدقيقة تتيح لنا أن نعرف أنهما ورقتان مأخوذتان من وثيقة واحدة تنتمى الى سنة ١١٥٦ ، أنظر

— Atti della Società Ligure, I, 289 et s.

فى ذلك :

يستغلونها لصالح تجارتهم مع الشرق الأدنى . وكانت سفنهم ترسو عند مسينا ، ومنذ بداية القرن الثاني عشر ، كانوا قد أقاموا هناك قنصلية (١) ، ويمتلكون بها تحت رعاية القديس يوحنا مستودعا (٢) يحتوى فى الكثير من الأحيان على بضائع من الشرق الأدنى تجلبها سفن جنوية عائدة من الاسكندرية أو سوريا لتباع فى صقلية (٣) . وكان للأمايفيين أيضا مستودع فى مسينا (٤) . أما البيزيون فكانوا على ما يبدو أقل حظا ، اذ كانت علاقاتهم الواهية بأسرة هوهنشتاوفن تجعلهم بلا شك مخطئين فى نظر الملوك النورمان (٥) . لذلك يبدو أنهم استفادوا كل الفائدة ، من حيث المزايا وكسب المال من الحملة التى أعدها فردريك بارباروسا ، ونفذها ابنه هنرى السادس بنجاح بغزوة الجزيرة ، فعقدوا تحالفا مع الامبراطور ، ومع الجنوبيين الذين لم يكونوا مع ذلك من الجبلبيين (*) ، ولكنهم خدعوا ولم ينالوا الأجر الذى وعدوهم به (٦) . وفى هذه الأثناء توفى هنرى السادس ، واستغل البيزيون فرصة خلو العرش فى أعقاب هذا الحدث واستولوا على سيراكيوز : الا أن الامبراطورين كانا قد وعدا الجنوبيين بالذات بمنحهم هذه المدينة ، ولم يقبل هؤلاء أن يسيطر البيزيون على مدينة وقع عليها اختيارهم (أى البيزيين) ليفرضوا سيادتهم عليها . وفى عام ١٢٠٤ ، اجتمع عدد من سفن جنوا أمام جزيرة كريت ، وكانت احداها تحت قيادة رجل يدعى الامانوس دى كوستا Alamannus de Costa قد استولت من البيزيين على كمية كبيرة من الأسلحة فى معركة بحرية ، وشعر بحارتها بأن لهم من العدد والقوة ما يؤهلهم للقيام بهجوم مفاجئ على سيراقوسة . وفى الطريق انضم الى الأسطول جنوى آخر ، هو الكونت انريكو بسكاتورى Enrico Pescatore من مالطة ، وبعد حصار دام سبعة أيام سقطت المدينة فى أيدي هؤلاء القرصان الأشداء واستولوا عليها باسم جمهورية جنوا ، وأقاموا حاكما عليها الامانوس دى كوستا الذى منح نفسه لقب كونت سيراقوسة (٧) . واستطاع أن يحكمها سنوات طويلة . ومن هناك أرسل سفنه تشق عباب البحر المتوسط كله للاستيلاء على سفن أعداء

(١) انظر براءة الملك روجر الثانى ، المذكورة بعاليه .

(٢) Annal. Jan. ad an. 1194. p. 108.

(٣) Lib jur. I, 202.

(٤) «Ravellus magister Amalphitanorum (Messanae) figure comme témoin dans un document de l'année 1172, cité par Gregorio, I, c. p. 23.

(٥) Gregorio, Cosiderazioni, II, 226.

(*) (أنصار الأباطرة من آل هوهنشتاوفن - المترجم)

(٦) Lib. jur. I, 207 et ss., 369 et ss.; Dal Borgo Dipl. Pis p. 26, 34;

Annal. Jan. p. 108-110.

(٧) Annal Jan. p. 121 et s.; Pirri, Sicil. sacra I, 658, II, 936 et s.

جنوا (١) . وأخيرا ، فى عام ١٢٢١ وضع فردريك الثانى نهاية لهذه الأمور (٢) ، كما أنهى سيادة جنوا على سيراقوسة ، وكان الباعث له على هذا التصرف ان هذه الأقاليم التى كانت تابعة للسلطة الملكية تبعية اسمية فحسب لا يتوافق وصفها مع النظام المركزى الدقيق الذى اجتهد فى تطبيقه على صقلية . وهكذا فبعد سبع عشرة سنة من الحيازة فقدت جنوا واحدة من أهم المحاط لتجاريتها مع الشرق الأدنى ، وحاولت استردادها بتحالفها مع الكنيسة ضد الامبراطور ، وحمل الكرسي البابوى على التنازل لها عنها بصفتها اقطاعية (٣) . وأثبتت الأحداث أن هذا كان وهما . وفى الوقت نفسه استرد الامبراطور من الجنويين ملكية قصر فى مسينا كان قد وهبه لهم فى عام ١٢٠٠ (٤) . وباستثناء هذا الخلاف الذى استمر أمدا طويلا ، كان عهد فردريك الثانى (٥) وابنه مانفرد Manfred (٦) ملائما كل الملاءمة للجنويين ، فقد منحهم الأميران الكثير من الامتيازات التى جعلت منهم - رغم فقدهم - سيراقوسة - الأمة الأكثر رعاية ، وأعطتهم فى صقلية مركزا متفوقا .

وفى العصر الذى تنازعت فيه جنوا وبيزا من أجل امتلاك سيراقوسة وانتهى هذا النزاع لصالح الأولى ، بدأ نزاع جديد بين جنوا وبين دولة أخرى بشأن محطة أخرى من محاط التجارة مع الشرق الأدنى . وكان الموضوع يتعلق بكانديا ، وهل تتبع البندقية أو جنوا ، وقيمت المسألة مزعجة ، واضطرت البندقية الى استخدام كل طاقاتها للاستيلاء على تلك الجزيرة والاحتفاظ بها (٧) . وسوف نتاح لنا الفرصة لنعود الى دراسة تاريخ هذا النضال .

هذه الوقائع تعرض علينا الأمم التجارية ، وكل منها يحاول التفوق على الآخر بامتلاك المحاط المتراصة على طول طريق الشرق ، وسوف نقدم الآن برهاننا

(١) Annal Jan. p. 123 et s., 127, 129, 130, 132, 138, 141.

(٢) Annal. Jan. p. 146. Cf Winkelmann, Kaiser Friedrich II, p. 143, (٣) 145, 165.

(٣) انظر معاهدة الصلح التى أبرمت عام ١٢٣٩ بين البابا جريجوار (غريغوريوس) التاسع من جهة وجنوا وفينيسيا من جهة أخرى فى :
— Lib. jur. I, 980 et ss.

(٤) Lib. jur. I, 462 et s.

(٥) Ibid. I, 621, 462, 564 : Annal. Jan. p. 139 Lib. jur. I, 653 et ss. 774 et ss.

(٦) براءة عام ١٢٥٧ (البراءة وثيقة رسمية - المترجم) المصدق عليها من مانفرد فى ٢٢

مارس ١٢٥٩ - بالرمو ١٨٥٧ ص ١٠٢ وما بعدها ، ومن جمهورية جنوا فى ١٧ من سبتمبر ١٢٥٩ (Lib. jur. I, 1293).

وثمة براءة أخرى تحتوى على أحكام مماثلة ، صادرة فى يولية ١٢٦١ :

— Lib. jur. 1346 et ss.; Orlando, I. c. p. 115 et ss.

— يقر فايرا Vayra ان مانفرد منح الجنويين وحدهم حق استغلال أسواق صقلية :
Vayra, dans l'introduction des Fandetta delle gabelle, I. c. p. 31.

(٧) (كانديا Candia هو الاسم القديم لجزيرة كريت - المترجم)

على الجهود التي كانت تبذلها الأمم الأقدم والأقوى من غيرها لسد الطريق في وجه الأمم الأحدث منها ، فمنذ مستهل القرن الثاني عشر على أكثر تقدير ، نمت حركة تجارية نشيطة للغاية بين المدن التجارية الواقعة على ساحل إيطاليا الغربي وجنوب فرنسا . ولسنا نريد اثباتا لذلك سوى العديد من المعاهدات التي عقدتها جنوا بنوع خاص ، وكذا بيزا مع كثير من المدن الكبيرة والصغيرة ، والسادة ، والأشراف بجنوب فرنسا . وكان الغرض من هذه المعاهدات أن تكفل لتجار هاتين المدينتين استقبالا طيبا في جميع الأنحاء ، وضمان الأمن للأشخاص والبضائع في البر والبحر (١) . وكان الساحل الجنوبي لفرنسا في كثير من الأحيان مسرحا لحروب طويلة الأمد ناتجة عن المنافسة بين جنوا وبيزا الأمر الذي يتبث أهمية المصالح التي كان على هاتين الجمهوريتين أن تعمل على رعايتها في هذه المناطق ، وقيمة الأموال العقارية والمنقولة التي تدافعان عنها هناك . وكان حماس التجار الإيطاليين في أن يفتحوا لأنفسهم أسواقا في فرنسا ويقيموا بها منشآت يعود بالتأكيد على سكان القسم الجنوبي من فرنسا بمنافع هائلة ، كما يعود بالمنفعة بطريق غير مباشر على جيرانهم في الشمال . وكان هؤلاء التجار يجلبون معهم كميات كبيرة من المنتجات الكثيرة التنوع من كل البلاد . وفي الزمن الذي زار فيه بنيامين دي توديل Benjamin de Tudèle مونبيلييه (١١٦٦ - ١١٦٧) كانت هذه المدينة سوقا عالمية شديدة الأهمية يقد إليها التجار من البلاد الإسلامية والمسيحية (٢) ، وكما قال هذا السائح الذي نقتبس منه هذه المعلومة ، كانت المدينة تدين برخائها الى وجود التجار الجنوبيين والبيزيين بها (٣) . وكان هذا هو السبب في نجاح أسواق سان جيل Saint-Gille وفريجوس Fréjus ، فقد ثبت بأدلة كثيرة أن الجنوبيين والبيزيين كانوا يتجرون بهما (٤) . وكانت الأمتان تملكان مستودعات دائمة (٥) في بعض المدن الكبيرة مثل مونبيلييه وناربون (٥) ، وكانت حوانيتهما مفتوحة بها طول العام .

-
- (١) من المستحيل أن نذكر بالتفصيل كل الوثائق التي يتضمنها ال Libet Jurium بجنوا ، وكتابي جيرمان Germain عن مونبيلييه (تاريخ بلدة مونبيلييه ، وتاريخ تجارة مونبيلييه) وغيرها .
- (٢) يحدد بنيامين دي توديل البلاد الآتية : الجارفة (بالبرتغال) ، ولبارديا ، والامبراطورية الرومانية (ألمانيا ؟) ، مصر ، وفلسطين ، واليونان ، وفرنسا ، وأسبانيا ، وإنجلترا .
- (٣) Ed. Asher, p. 33.
- (٤) Marang., Annal. Pis. p. 253 bis 266 ; Annal Jan. p. 66 Lib. jur. I, 512 et ss., 1277 : Canale, Nuova istoria di Genova, I, 333.
- (٥) Lib jur. I, 39 ; ibid. I, 88 : Germain Hist. de la commune de montp. II, 424, 431 434, 476 : Lib jur. I, 1146.; Germain, Hist. du commerce de Montp. I, 113, not. 1, 234-236, 395.

غير أن مدن جنوب فرنسا هذه كان لها أيضا سفنها ، ولم تكن مجرد مدن قائمة على شاطئ البحر ، ولكن منها ما يتصل بالبحر بطرق غير مباشرة ، مثل آرل عن طريق الرون ، وناربون عن طريق الأود ، ومونبيلييه عن طريق ثغر لات Lattus وفيما بعد « ايج مورت » Aigues-Mortes ولم تقتصر سفن هذه المدن على الملاحة بطول السواحل المجاورة في أسبانيا وإيطاليا ، ولكنها كثيرا ما قامت برحلات الى الشرق الأدنى ، كنتيجة لازمة للحروب الصليبية . وقدمت هذه الرحلات للحجاج تسهيلات زادت من أعدادهم زيادة كبيرة . وفي حوالى عام ١٢٣٨ كانت مرسيليا ترسل مرتين كل عام فى شهر مارس (فى أعياد الفصح) ، وفى شهر أغسطس قوافل كاملة من الحجاج ، وباشرت السلطات البلدية رقابة فعالة تكفل للحجاج أماكن كافية بالسفن ومعاملة طيبة (١) . ومن ثغر مرسيليا أيضا ، وبتصريح من السلطات ، فى عهد الرحلات البحرية ، تقلع السفن التى يجهزها « فرسان الهيكل » ، وفرسان القديس يوحنا (٣) لنقل الحجاج الى فلسطين ، وسفينة يملكها كونت امبورياس Empurias تجمع لها الركاب وكالة خاصة « تابيولا » Tabula (٤) ، ويسافر أيضا حجاج كثيرون من سان جيل (٥) ، وآخرون من آرل ، ومن ناربون كما سوف نرى . على أن نقل الحجاج لم يكن الباعث الوحيد لهذه الرحلات ، اذ كان جزء من حمولة السفن يتشكل من التجار والبضائع (٧) ، وبخاصة حين حصل المرسيليون على امتياز ببعض الأحياء التجارية فى مملكة بيت المقدس . وان رؤية الفرنسيين يرسلون بأنفسهم من جنوب فرنسا سفنا الى الشرق ، ويذهبون الى هناك لاحتضار السلع التى هم فى حاجة اليها دون الاعتماد على وساطة الايطاليين ليثبت قيام منافسة لم يكن بوسع الجنوبيين أن يتقبلوها عن طيب خاطر . وكشفت الجمهورية عن مقاصدها فى عام ١١٠٩ حين طلبت من بترام Betram كونت تولوز أن يتعهد بعدم التصريح بدخول مدينة سان جيل التابعة له لأى تاجر قادم عن طريق البحر ان لم يكن من أهالى

(١) Mery et Guindon, Hist. de la municipalité de Marseille, II, 279

et ss., IV, 118 et ss., 128 et ss.

(٢) Winkelman, Acta imperii inedita, p. 117.

(٣) Paoli, Cod. dipl. I, 124-127.

كانت السفن التى تجهزها الطوائف الدينية تحمل فى الرحلة الواحدة من الحجاج عددا يصل

الى ١٥٠٠ حاج ، وأدت هذه المنافسة الى شكوى مجهزى سفن ميناء مرسيليا ، انظر :

— Prutz, Culturgesch der Kreuzz. p. 105.

(٤) Teulet, Layettes du trésor des Chartes, I, p. 482 et ss.

(٥) Benj. de Tudèl, éd Asher, II, 35.

(٦) Leges municipales Arelatis 1162-1202, cap. 140, dans Giraud, Essai

sur l'hist du droit français au moyen âge II, 232 et s.

(٧) كانت سفن « فرسان الهيكل » المجهزة لخدمة الحجاج مرخصا لها صراحة بحمل التجار

والبضائع ، انظر فى ذلك : Winkelman, op. cit.,

جنوا (١) ، ولم يكن القصد من هذا سوى الهبوط بمدن جنوب فرنسا الى حالة من التبعية لجنوا في مجال التجارة والملاحة ، وخلق تفوق بحرى لصالح هذه الجمهورية (٢) شبيه بالتفوق الذى انتزعته البندقية لنفسها فى البحر الادريانى ، ولكن فى ظروف أفضل . بل جعل الجنويون يراقبون باهتمام السياسة المتزايدة يوما بعد يوم ، التى يحظى بها بورجوازيو بروفانس ولايجادوك . وفى عام ١١٤٣ ساعدوا جوبوم الرابع ، سيد مونبيليه فى القضاء على ثورة محلية (٣) ، فكان عليه فى نظير هذه الخدمة أن يعدهم بمعافاتهم من رسوم تفريغ سفنهم فى ميناء هذه المدينة ، وتعهد بالأى يصرح بدخول الميناء أو الخروج منه الا للسفن التى يمتلكها سكان مونبيليه ، والثى تقصد سواحل اسبانيا ، أو تنقل الحجاج ، ولا يجوز التصريح لأهالى مونبيليه بالابحار شرقا الا بحذاء السواحل ، بحيث لا يتجاوزون مدينة جنوا (ومن البديهي أن نقل الحجاج كان مستبعدا ضمنا من هذا البند) . ولم تكن هذه الاتفاقية سارية المفعول الا لخمس سنوات ، غير أن الجنويين عقدوا فى عام ١١٥٥ معاهدة جديدة أبقوا فيها على الشروط الخاصة بقصر حركة سفن مونبيليه على الملاحة بحذاء الساحل غربا الى اسبانيا ، وشرقا حتى جنوا (٤) . والواقع أن كل المدن البحرية فى جنوب فرنسا لم تكن تلقى من الجنويين مثل هذه المعاملة السيئة ، فقد وثق هؤلاء علاقات طيبة مع ناربون وسمحوا لبحارتها بالملاحة فى كل الاتجاهات بشرط الا ترسل المدينة أكثر من سفينة واحدة تحمل حجاجا فى كل عام (٥) . وكان الحظر والتصريح يقومان أيضا على أساس ادعاء الجنوبيين بحقوقهم المطلق فى تحديد المسافة التى يجوز لفرنسيى الجنوب أن يقطعوها فى البحر المتوسط . وكان هذا التفوق خليقا بأن يصير غير محتمل بالمرّة لو استطاع الجنويون أن ينفذوا المشروع الذى وضعوه بالاتفاق مع ريموند كونت تولوز (١١٧٤) الخاص بغزو مقاطعة بروفانس بقواتهم المشتركة . وتم الاتفاق مسبقا على اقتسام الغنيمة ، واحتفظ الجنويون لأنفسهم بملكية مدينة مرسيليا ، وحصلوا على وعد بالأى تفتح الموانئ على مدى الأقاليم التابعة

Lib. jur. 1, 19.

(١)

(٢) أنظر تفسيرات Corn. Decimoni لمصطلح pelago (أعالي البحار) فى « الوثائق الجنوية » (Atti della Soc. Lig. II, 2, p. 740-742 et 111, p. xc)

ونتين منها أن جنوا كانت فى الماضى تعتبر أعالي البحار بمثابة مجالها الخاص ، ولا تسمح للأمم البحرية فى القسم الغربى من البحر المتوسط بالملاحة الا بحذاء السواحل .

Germain, Hist de la commune de Montpellier, I, 12.

(٣)

Lib. jur I, 88, 182.

(٤)

(٥) معاهدة عام ١١٦٦ ، Vic et Vaissette, Hist. de Languedoc, éd. Dumège, IV, 517 et s.

— لم يكن من الجائز أن يكون هؤلاء الحجاج من أهالى مونبيليه أو سان جيل ، أو الاقليم الواقع بين الرون ونيس (بروفانس) .

تكونت تولوز الا للجنوبيين والأمم التي يصرحون لها بذلك ، وأن يحظر ، حتى على رعايا الكونت ، تسيير سفن في أعالي البحار دون اذن من القناصل ومن الأغلبية في مجلس جنوا(١) . ولو انقضى على هذا زمن قليل لأصبحت تجارة جنوب فرنسا وبحريتها التجارية في وضع قريب الشبه من وضع البينجا Albenga ، وسافونا Savone ، وفنتميللا Vintimille ومدن أخرى من الريفيرا دي بوننتي Riviera di Ponente التي فرضت عليها الجمهورية القوية زعامتها(٢) . ولحسن الحظ فشلت هذه الحملة . وثمة مؤامرة أخرى دبرت في عام ١١٧٦ بين كونت تولوز ، وسادة آخرين وجنوا لتخريب مرسيليا ومينائها ، انتهت هي الأخرى الى المصير نفسه(٣) .

ومنذ أن بذل الجنويون كل ما في وسعهم لمنع سفن جنوب فرنسا التجارية من الذهاب الى الشرق ، كان من الطبيعي أن يعملوا على سد الطريق الى صقلية في وجه البروفانسيين : هاتان الفكرتان مرتبطتان احدهما بالأخرى ارتباطا وثيقا ، فقد رأينا أن صقلية كانت من أهم المحاط في الطريق الى الشرق الأدنى . وفي عام ١١٥٦ أوفدت الجمهورية مبعوثا الى الملك النورماندى وليم الأول ملك صقلية يطلب منه التصديق على الحصانات التي تتمتع بها في الجزيرة ، ويطالب غيرها ، كما طالبت بالحصول منه على تعهد برفض دخول السفن التجارية البروفانسية في موانئ مملكته ، والا يرسل هو نفسه سفنا تجارية صقلية الى جنوب فرنسا(٤) . وفيما بعد ، حين احتاج فردريك باربروسا الى مساعدة الجنوبيين لينتزع من النورمان ملكية صقلية ، منحهم تفويضا مطلقا بمنع البروفانسيين وفرنسيي الشمال من مزاولة التجارة مع صقلية وجنوب ايطاليا ، وسد طريق الذهاب والعودة أمامهم ، بكل ما لديهم من وسائل(٥) .

ولحسن الحظ بقيت هذه الأمور كلها في نطاق المشروع ، وأدرك الجنويون أخيرا أن كل العوائق الممكنة سوف تتحطم بمرور الزمن ، دون أن تمنع نمو البحرية البروفانسية ، ولم تعد المعاهدات التي انعقدت في غضون القرن الثالث عشر بين جنوا ومونبيليه تحمل أى أثر لمطالب جنوا المبالغ فيها ،

Lib. jur I, 294-300.

(١)

وكان الكونت ريمون قد تعهد بالتزامات مماثلة في عام ١١٧١ : المرجع نفسه ص ٢٥٦ .

Lib. jur. I, 106, 312, 316, 436, 448, 451, 475, 478, 621, 1040; 1079.

(٢)

Lib. jur. I, 302.

(٣)

(٤) المرجع السابق ، ص ٢٠٣ .

(٥) المرجع السابق ، ص ٢٠٨ وما بعدها . نقل هنرى السادس هذا الحكم بحذافيره في براءة

أصدرها لصالح الجنوبيين في عام ١١٩١ : المرجع السابق ، ص ٣٧١ .

ونجد فيها أسماء تجار من مونبيلييه يقيمون في القسطنطينية أو في سوريا دون أن تبدى جنوا أية مطالب ضد اتساع تجارة منافستها (١) .

وفي حين نجا البروفانسيون من طغيان الجنوبيين ، ولم يصبهم منهم أذى ، راحت أمالفي ضحية لغيرة منافس لها ، وحدث ذلك على الوجه الآتي : ففي عهد ولاية روجر الثاني ، ارتأى لبيزا أن تتدخل في شئون المملكة النورماندية في إيطاليا ، وكان الملك يعمل على تركيز السلطة في يديه مما أثار عليه بارونات فتمردوا . وبالاتفاق مع البابا انوسنت الثاني ، عرض البيزيون على هؤلاء البارونات مساندتهم وأرسلوا اليهم مددا من سفن حربية وقوات عسكرية (٢) . وفي الوقت نفسه سئحت لهم الفرصة ليرووا غليلهم من أمالفي . وذات يوم حاصر أسطول قوامه ست وأربعون سفينة حربية المدينة فجأة ، واستولى عليها وعلى مواقع حصينة في ضواحيها ، ونهب من عليه كل شيء ، وأحرقوا البيوت والسفن الثراسية في الميناء (٤ - ٥ من أغسطس ١١٣٥) (٣) . وبعد سنتين ظهر أسطول بيزي في مياه جنوب إيطاليا ، وذلك لتحويل أنظار العدو في الوقت الذي قام فيه الإمبراطور لوثير Lothaire بغزو مملكة روجر . وكادت أمالفي تلقى من جديد المصير الذي لقيته أول مرة ، ولم يتخلص السكان من الخطر الذي تهددهم الا بدفع جزية ، والتعهد بالولاء للبيزيين ، واكتفى هؤلاء بتخريب الضواحي ، وحلت الكارثة بكل ثقلها على مدينة سالرنو السيئة الحظ (يولية وأغسطس ١١٣٧) (٤) . الا أن غارة عام ١١٣٥ كانت كافية لتحطيم قدرة أمالفي التجارية بما بذله البيزيون من جهد لتحطيم اسطولهم . ومن هذا الحين نلاحظ أن الأمالفيين قل نشاطهم في الشرق عما كان عليه فيما مضى ، وصاروا أقل جراءة ، وذلك بلا شك بسبب الكارثة التي حلت بهم .

وكان هناك مع ذلك أمر آخر : ذلك أنه اذا كانت أمالفي قد تخلفت عن سائر الأمم في الشرق ، فאלعة في ذلك أنها وقعت تحت سلطة النورمان ، وأن أمراء هذه السلالة شديديو البأس ، لا يرتاحون الى الحريات البلدية التي يتمتع بها البورجوازيون ، والحصانات التي يتمتع بها البارونات . وعندما ارتقى روجر الثاني العرش ، كان من أول أعماله الاعتداء على استقلال أمالفي القديم

(١) Germain, Hist de la commune de montpellier, II, 427, 469 (Lib. jur. I, 761, 1148).

(٢) Alexandri Telesini abb. De rebus gestis Rogerii, dans Del Re., Cronisti e scrittori sincerenj Napoletani I, p. 121 et s., 129, 132, 140 et s., 148; Falco Benev. ibid. p. 220, 222, 225, 227 et s; Romuald Salern., dans Pertz ss. XIX, 420-422; cf. Epist. Wibaldi, 324, éd. Joffé.

(٣) Alex. Teles. I.c. p. 140; Falco Benev. if. p. 227; Romuald, I.C. p. 421; Marangonis Annal. Pis., dans Pertz, SS. XIX, 250; Annal Saxo, ss. VI, 774.

(٤) Falco Benev. p. 232 et s. ; cf. Marangonis Annal. Pis p. 241.

العهد . ولما كانت المدينة محاطة بقصور منيعة تعتبرها بمثابة قلاع تحمي حريتها فقد طلب منها روجر أن تسحب حامياتها من هذه القصور لتحل محلها قوات عسكرية ملكية . ولما رفض الأمالفيون تنفيذ الأمر ، استخدم الملك القوة ، فاستولى على القصور (١) ، ورأى الأمالفيون معاقلمهم القديمة وقد صارت حصونا تتهددهم . وتحت هذا الضغط اضطر البورجوازيون الى التخلي عن حرياتهم البلدية ، وفقدوا معها بالتدريج نشاطهم وطبيعتهم المغامرة .

بيزنطة تحت حكم أسرة كومنينوس وأسرة انجيلوس

أعقبت الحروب ضد النورمان في الإمبراطورية اليونانية كلها فترة من الهدوء الوقتي ، لم تلبث الحملة الصليبية الأولى أن عكرت صفوه بقوة . ذلك لأن « مشروع الغربيين » هذا كان حقيقيا بأن يسبب لسيادة الإمبراطورية أشد أنواع القلق : فقد كان مجرد مرور تلك العصابات التي لا حصر لها ، ولا نظام يسودها مما أصاب نظام الدولة ، وهناء سكانها بأضرار بليغة . غير أن كل هذا لم يكن سوى أقل المصائب فداحة : فقد حام على الإمبراطورية نفسها وعلى وجودها خطر دائم ، لأن مرأى هذه البقاع الخصبة وسكانها المترفين كان خليقا بأن يثير في نفوس الصليبيين الرغبة في الاستيلاء على اليونان التي كان موقعها صالحا لأن يكون نقطة ارتكاز لأملاكهم الحديثة في سوريا ، ولم يكن الأباطرة اليونانيون في حالة تسمح لهم بمقاومة القوات المشتركة التابعة للدول الغربية . ومرت الحملة الصليبية الأولى في سلام ، إذ لم يكن لقادتها سوى فكرة ثابتة واحدة ، وهدف واحد ، هو سوريا . غير أن الجيوش تنابعت ، والأساطيل تعاقبت ، وفي كل مرة تثير نوبات جديدة من الفزع في قلب الإمبراطور . ومنذ البداية اتخذ الكسيسيوس موقفا متحفظا وحذرا لم يلبث أن تحول الى عداء مكشوف . وعندما كانت أساطيل جنوا المرسله لمساعدة الدول الصليبية تعبر مياه الإمبراطورية ، كانت تلقى مقاومة من جانب حاميات الجزر أو أساطيل الإمبراطورية ، فلا تلبث أن تأخذ بثأرها . من ذلك أنه حدث في عام ١٠٩٩ أن أسطولا بيزيا كان مبحرا صوب الأراضي المقدسة بقيادة المطران ديبيرت Daibert ، فوجد عند الجزر الأيونية حامية يونانية حاولت اعتراض طريقه ، ولكن الأسطول شق له طريقا بين الجزر واستولى على جزر كورفو ، وكيفالونيا ، وسانت مور ، وزانتى (٢) (زكشوس باليونانية) ، وطارد أسطولا

Alex. Teles. 1. c. p. 103-105.

(١)

Murat, ss. VI, 99; Maragone, dans l'Archiv. stor ital VI, 2, p. 7, (٢)

et Prtz, ss. XIX, 239 ; Anne Comnène Alex., éd. Bonn., 11, 115. :

Alb. d'Aix, IX, 16, dans Bongars, p. 332.

يونيا في بحر ايجه وأدركه وهاجمه بين جزيرة رودس ، ومدينة باتارا Patara في ليكية Lycie (١) . وتحكى بعض الوقائع المتأخرة أن هذا الأسطول عند عودته انتقم بالاستيلاء على عدة مدن يونانية (٢) . ولما كانت هذه الوقائع تقابل بين الأحداث وبين بعض الامتيازات التي منحها الإمبراطور يوحنا (كالم يوانس) الذى لم يرتق العرش الا بعد فترة طويلة ، كما أن أقدم الوقائع لا تذكر شيئا عن هذه المعارك ، فلنا أن نقر بأن هذه المعلومات لا قيمة لها ، وأن نهملها . وبعد انقضاء عام على رحيل هذا الأسطول البيزى قدم أسطول جنوى متجها بدوره الى الشرق ، وعكف أميرال يونانى على مناوشة هذا الأسطول (٣) . وفى خريف عام ١١٠١ بعد أن استولى الأسطول على أرسوف وقيصرية ، وكان عائدا الى الوطن ، وبازاء ايتاكي Ithaque (٤) التقى بأسطول يونانى كبير أراد قائده أن يختبر بسالة الجنويين ، ولكنه عانى من هذا الاختبار ، واضطر أن يطلب التفاوض للصلح . واستمرت فى القسطنطينية المفاوضات التي بدأت فى كورفو ومثل الجنويين فيها رينالدس دى رودلفو Raynaldus de Rodulfo ولامبرتس جيتوس Lambertus Ghetus اللذان انتقلا من كورفو الى بلاط الإمبراطور الكسيوس لمتابعة المفاوضات ، ولا يبعد أن يكونا قد حصلا فى هذه المناسبة على بعض المزايا التي ساعدت على نمو تجارة أمتهما فى الامبراطورية اليونانية (٥) .

غير أن بوهمند Bohémond سبب للأمبراطورية ارتباكات شديدة ، ولما استقر به المقام أخيرا فى امارته بأنطاكية ، عمل على انقاذها بتنظيم حملة صليبية كبيرة ، الهدف الأول منها قلب عرش القسطنطينية . ولكى يضم اليه

(١) « أنا كومينا » Anne Comnène هي المؤلفة الوحيدة التي ذكرت هذه الواقعة .

(٢) Annal. rer. Pisan., dans Ughelli, It. sacra, 2e éd. X, 99; Chron. breve Pis., ib. p. 118 ; Mich de Vieo, dans Murat, ss. VI, 168 ; Ranjeri Sardo, dans l'Archiv. stor. it VI, 2, p. 79.

— عند عودة البيزيين ، سنحت لهم الفرصة لاختطاف ابن الإمبراطور وسجنه :

— Tronci, Annal, Pis p. 37; Roncioni, Istorie Pisane : Archiv. stor. it. VI, 1, p. 152.

Ann Comn. II, 121 et s.

(٣)

— اذا سلمنا بأن الحرب بين اليونانيين والبيزيين نشبت فى عام ١٠٩٩ بدلا من ١١٠٣ . فان مطاردة الأسطول اليونانى لأسطول جنوى فى السنة التالية ، حسبما ذكرت أنا كومينا نفسها تكون قد جرت فى عام ١١٠٠ . وهذا التاريخ هو بالذات تاريخ حملة صليبية قام بها الجنويون : (Caffaro, dans Pertz, XVIII, 11, 4E)

(٤) Le Val de Compar Gesta هي ايتاكي ، انظر Bened. Petrob Uzzano, p. 218; Richardi, éd. Stubbs II, 198, 203 ; Georg.

Germnic, dans Pez, Thes anecd II, 3e part., p. 633; Archiv. Venet.,

20, 93 ; Sanudo. Diarii, III, 444, 498 et s., V, 883, 1009.

Caffaro, De liberatione civitatum Orientis, dans Pertz, op. c. p. 46; (٥)

les Atti della Società Ligure, I, 1, p. 70.

بعض الحلفاء قام بجولة في فرنسا وإيطاليا (١١٠٥ - ١١٠٦) حيث أثار المشاعر ضد الكسيوس ، واتهمه باستخدام الدهاء تارة والعنف تارة أخرى لايقاع الصليبيين في كوارث لا آخر لها . ولكي يخمد الكسيوس العاصفة التي تجمعت فوق رأسه بعث الى عدد كبير من أمراء الغرب ومدنه ، وبخاصة بيزا وجنوا والبندقية رسائل دافع فيها عن نفسه ضد الاتهامات الموجهة اليه ، وناشد الدول ألا تتحالف مع الأمير النورماندى (١) . وفى البندقية نجح بسهولة في مسعاه . ولما كانت الجمهورية (البندقية) مخلصه لسياسته فانها أرسلت أسطولها لينضم الى الأسطول اليونانى ، باعتبارها حليفة لليونان . وراعت جنوا وبيزا موقفا محايدا على الأقل ، وبقيتا بمنأى عن الأحداث خلال الحملة التي شنّها الأمير النورماندى . والمعروف أن تلك الحرب انتهت بفشل بوهمند ، وب عقد معاهدة مخزية بالنسبة الى اللاتينيين (١١٠٨) . ومع ذلك تعهد الامبراطور بأن يحمى مستقبلا كل شخص يجتاز اقليمه فى طريقه الى الدول الصليبية اذا امتنع القضاء عن حمايته (٣) .

كان للأحداث التي ذكرناها آنفا فى كلمات قلائل تأثير مباشر على تأسيس الجالية التجارية البيزية فى القسطنطينية . ونحن نعلم أنه عندما كانت الحرب توشك على الاندلاع بين بوهمند والكسيوس ، عمل الأخير على اجتذاب بيزا الى صفه ، وجرى عندئذ بين القسطنطينية وبين الجمهورية تنقلات لسفراء البلدين . وانقطعت المفاوضات مرارا . ومع ذلك يبدو أن السفير (Couropalatés) باسيلئوس ميزيميريوس Basilius Mésimérius (٤) أجرى فى عام ١١١١ نيابة عن الكسيوس مفاوضات ناجحة ، أدت الى عقد اتفاق ، واذ ارتاح البيزيون الى تصريحاته فانهم تعهدوا بالامتناع مستقبلا عن أى عمل عدائى ضد الامبراطورية البيزنطية ، وأن يدفعوا تعويضا عند أول طلب من الامبراطور اذا نقض واحد منهم هذا التعهد . ويجب أيضا على كل بيزى يقيم بالقسطنطينية أو بأى ناحية أخرى باقليم الامبراطورية أن يحمل السلاح فى حالة الضرورة دفاعا عن الامبراطورية ضد أعدائها . وسجلت هذه التعهدات وسلمت الوثيقة الى ميزيميريوس فى ١٨ من أبريل ١١١١ . ومع ذلك ففى خريف السنة نفسها أبحر أسطول مشترك من سفن حربية بيزية وجنوية وسفن ايطالية أخرى

Ann Comnène, II, 132 et s.

(١)

Dandolo, p. 261.

(٣)

Fouch. de Chartres dans le Recueil des historiens des croisades, (٣) p. 418.

(٤) نجد الشخصية نفسها وقد كلفها الكسيوس بمهمة فى البلاط الرومانى ، انظر :

Jaffé, Reg. Pontif, no. 4782.

قاصدا سواحل الامبراطورية اليونانية لتخريبها (١) ، ولا شك فى أن الباعث على هذا السلوك المخالف صراحة للتعهدات السابق تسجيلها كان تأخر الكسيوس فى الوفاء بوعوده . واتخذ الامبراطور اجراءاته ببراعة ، ففضى على الحملة قضاء مبرما ، ولكنه تعب أخيرا من هذه المنازعات الدائمة ، فقر عزمه فى شهر أكتوبر عام ١١١١ أن يسلم السفير البيزى المبعوث خصيصا للقاءه وثيقة رسمية ، نقدم فيما يلى تحليلا لأحكامها الأساسية :

يتعهد الكسيوس ، بعد أن يشير الى أحداث السفن السابق ذكرها بآلا يقيم فى المستقبل أية عقبات فى طريق الحملات الصليبية التى يشنها البيزيون ، وأن يضمن للبيزين المقيمين فى ولاياته عدالة القضاء . واثباتا لعطفه السامى على الجمهورية ، يتعهد بأن يقدم كل سنة لكاتدرائية بيزا وكبير أساقفتها هبة تتكون من مال وحرير . ويمكن تفريغ البضائع التى تأتى بها السفن من بيزا فى اقليم الامبراطورية كله وعرضها ثمة للبيع . ولا يدفع البيزيون أية رسوم على استيراد الذهب والفضة ، وبالنسبة الى المواد الأخرى يدفعون رسما قدره ٤٪ . وبالنسبة الى السلع التى يشترونها داخل الامبراطورية وينقلونها الى جهة أخرى فى اقليمها ، فانهم يخضعون للرسوم نفسها التى يخضع لها الأهالى . ويخصص لهم فى القسطنطينية رصيف بحرى ، وحى مناسب يضم بيوتا لسكنائهم وحوانيت لبضائعهم . ويتنازل لهم أيضا عن أماكن فى كل مدن الامبراطورية وجزرها حيث اعتادت سفنهم أن ترسو عندها . وتشجيعا للتجار على الإقامة فى القسطنطينية ، يخصص لهم فى كنيسة آيا صوفيا أماكن فى احتفالات القداس ، وفى مضمار الخيل أثناء إقامة العروض العامة . ويتعهد الامبراطور أخيرا بالاسراع فى اصدار الأحكام القضائية فى شأن ما يقترب ضد البيزين من اهانات أو اغتصابات ، ويتعهد لهم بتقديم الترضية الكافية فيما يصيبهم من اهانات ، وتعويضهم عما يقع لهم من سرقات . وقبل كل هذه الأحكام وضمنها الأمير يوحنا ، وابنه وولى عهده (٢) .

ومن الطبيعى .الا ينظر البنادقة بعين راضية الى خصومهم (البيزين) وهم يوطدون أقدامهم فى أرض كانوا هم تقريبا وحدهم حتى ذلك الحين سادة

(١) آن كرومينيا ، الجزء الثانى ٢٦٤ وما بعدها ، و ٢٧٠ وما بعدها : تقول ان الشتاء يقترب ، شتاء ١١١١ الى ١١١٢ لأن الملك بودوان تلقى نأ بفشل تلك الحملة حين كان مشغولا بحصار مدينة صور فى ذلك الشتاء نفسه ، انظر : Wilken, Gesch. der Kreuzz, II, 227 et ss. (٢) هذا الميثاق الذى يحتوى فى الوقت نفسه على عرض للمفاوضات التمهيدية ، قد أدرج فى ميثاق لاحق لاسحاق انجيلوس ، نجده باللغة اليونانية فى :

— Miklosich et Muller, Acta et dipl. graeca, III, 9-13.
— Dal Borgo, Dipl. Pis., p. 151-154; وباللاتينية فى :
— Les Docum. sulle relazioni toscane coll' Oriente, p. 43. وباللغتين فى 45, 52-54.

فيها . وإذا أردنا أن نكون فكرة عن الجهود التي بذلوها لأقصاء الأجانب من سوق اليونان ، فانا نذكر مثلا متميزا : ذلك أن أسطولا يحمل صليبيين من البنادقة استقر به المقام في رودس في شتاء ١٠٩٩/١١٠٠ ، وفي هذه الأثناء قدم أسطول بيزي كان متجها أيضا الى فلسطين فأغار على أسطول البنادقة ، ولكنه انهزم ، وأسر البنادقة عددا من البيزيين ، ولكنهم لم يحتفظوا بهم مدة طويلة ، وحين أطلقوا سراحهم ، أخذوا منهم عهدا ألا يطلأوا أرض رومانيا Romanie لأغراض تجارية (١) . وهنا حصل البيزيون على امتياز بحيازة حتى تجارى ، وتأهبوا لزيادة نشاطهم التجارى الذى كانوا يزاولونه مع بيزنطة حتى ذلك الحين ! والواقع أن علاقات البنادقة مع العالم اليونانى كانت قديمة العهد ، وكانوا يتمتعون بالمعافاة من رسوم الجمارك استثناء من سائر الأمم (٢) ، وهذا امتياز كبير ، حتى انهم لم يكونوا يخشون شيئا من جانب منافسيهم الجدد . وإذا كانوا قد تغلبوا من هذه الناحية على منافسيهم ، فانهم كانوا يدركون تفوقهم على اليونانيين الذين لم يكونوا قادرين على مباراة الغربيين فى القدرة والنشاط ، سواء فى فنون الحرب أو فى فنون السلم ، وأسهمت الثروات التى جمعوها بالتجارة فى تنمية شعورهم بقيمتهم ، ولعل المؤرخ البيزنطى كينامس Cinnamus كان على حق حين اتهم كلا من الطبقة الدنيا وذوى المكانة الرفيعة منهم بالخطرسة حيال اليونانيين ، وبخاصة أولئك الذين يحملون ألقابا رنانة من قبيل سباستوس Sébastos (٣) .

وبعد وفاة ألكسيوس (١١١٨) أرسل الدوق دومنيكو ميشيل سفراء الى خليفته يوحنا الثانى (كالمو يوانيس) طالبا منه تأكيد الامتيازات التى سبق أن منحها أبوه ، فرفض الامبراطور الجديد (٤) . ويذكر كينامس أن الابعاء على هذا الرفض كبرياء البنادقة المفرط ، ولعل من الجائز أن نفترض أن اىحاءات بعض الأمم الغربية التى أقيمت فى أذن الامبراطور فى لحظة مناسبة كان لها بعض التأثير فى هذا الرفض . وكان البنادقة يعتقدون ، بسبب الخدمات الكثيرة التى أدوها للأباطرة البيزنطيين فى العديد من الحروب ، أنهم اكتسبوا حقا فى أن يعترف الأباطرة لهم دوما بالجميل : ولكنهم مع ذلك لقوا جزاءهم ! وبلغ سخطهم أقصاه ، وزودتهم الحملة الصليبية التى شنوها فى عام ١١٢٢ بفرصة للانتقام . وفى البداية ضربوا الحصار أمام عاصمة جزيرة كورفو ، الا أن النداءات الملحة التى وصلتهم من فلسطين اضطرتهم الى رفع الحصار (فى ربيع

Hist transl, S. Nicola, dans cornelius, Ecol. Venet. IX, 8, 9. (١)

Cinnam., éd. Bonn, p. 281. (٢)

Cinnam 1, c. (٣)

Hist. duc. Venet., dans Pertz, ss. XIV, 73; Dandolo, p. 269; Cinnamus, op. cit., (٤)

عام ١١٢٣) ، ولكن عند عودتهم اتسع لهم الوقت ليعودوا الى ما كانوا قد بدأوه . وفي رودس امتنع الأهالي عن تزويدهم بالمؤن التي كانوا في حاجة اليها ، وعاملوهم كالأعداء . غير أن الغارة على المدينة ، والاستيلاء عليها ونهبها ، كل ذلك لم يستغرق بضعة أيام . ومن هناك أغاروا على جزيرة خيوس . Chio ، واستولوا على العاصمة ، وعسكروا بها طوال شتاء ١١٢٤ - ١١٢٥ ، وانتشروا حول خيوس ، وراحوا ينهبون ويخربون جزر ساموس ، ولسبوس ، واندروس ، وحين استطاعوا في الربيع أن يعودوا الى وطنهم ، نهبوا مدينة مودون Modon على الساحل الجنوبي لشبه جزيرة المورة (١) . وكان الأمبراطور يوحنا ضعيفا فلم يكن بوسعه أن يتصدى لمشروعاتهم ، وانتهزوا هذه الفرصة لمعاودة حملاتهم . وفي عام ١١٢٦ كانوا قد استولوا على جزيرة كيفالونيا Céphalonie وارتأى للأمبراطور أنه من الحكمة أن يتنازل لهم عنها ، وأنبأ الدوق سرا أنه اذا أراد أن يرسل اليه سفراء لتسوية الخلاف فانهم يكونون على الرحب والسعة (٢) . وكان الدوق طاعنا في السن ، ويسعده أن يستتب الأمن ، فلم يتمنع كثيرا . وفي شهر أغسطس عام ١١٢٦ عقدوا اتفاقية ، وأصبح البنادقة حلفاء لبيزنطة ، ووعد الامبراطور من جهة أن يتناسى أعمالهم العدوانية الأخيرة نظير خدماتهم السابقة ، وأن يعيد اليهم دون قيد الانتفاع بالحقوق والايادات التي كان الكسيس قد منحها اياهم (٣) . ولم يكن البنادقة قد ظهروا في أسواق الامبراطورية منذ ثلاث سنوات (٤) . واستطاعوا أخيرا أن يعودوا من جديد الى ممارسة عاداتهم القديمة ، ومزاولة تجارتهم المربحة . ومن تلك الآونة نشطت الأعمال من جديد بين بيزنطة والغرب اللاتيني (٥) : ثم ان الظروف كانت مواتية بشكل غريب . ذلك أن الامبراطور يوحنا حافظ على صلات ودية للغاية مع أوربا طوال فترة حكمه ، في حين لم يكف عن النضال من ناحية سوريا وآسيا الصغرى . ويصور نيكيتاس Nicéas (٦) التجار الايطاليين في هذا العهد وهم يدخلون بسفنهم الشراعية

Hist. duc. Venet. I. c. p. 73 et s.; Dandolo, p. 270 et s.; Fouch; (١)

d. Chartr. I. c. p. 470 Cinnam. p. 281.

Hist duc Venet. I. c. p. 74; Dandolo, p. 274. (٢)

(٣) هذه الوثيقة مدرجة في وثيقة مانويل ، ونجدها على حدة في :

— Taf. et Thom. I. 96-98.

Hist duc Venet. I. c. p. 74. (٤)

تري هل هاجر البنادقة الذين أقاموا بالقسطنطينية منذ سنين طويلة ؟ هذى نقطة لم توضح

بعد .

(٥) في حوالى عام ١١٢٩ شب حريق في الحى الفينيسى بالقسطنطينية وأتلف مجموعة قيمة

ومع ذلك لا يبدو أن هذا الحدث كان كارثة بالنسبة الى الحالية (الفينيسية) بوجه عام ، والا

تحدث عنها المؤرخون .

Moise de Bergame (Cod. dipl. Bergam., éd. Ronchetti, II, p. 951)

Nicéas, p. 25. (٦)

تغر ملكة المدائن (القسطنطينية) ، والامبراطور وهو يحاول أن يتأكد من حسن نواياهم ، وفى سريرته مقاصد طموحة . ويسود العلاقات بين مدينة بيزا وبين الامبراطور يوحنا غموض تام حتى عام ١١٣٦ . ولم يذكر أى مؤرخ - من الاغريق أو من البيزيين - حدوث أى انقطاع فى العلاقات ، أو يقول ان الامبراطور ثارت ثائرتة من غارة البنادقة ، فأنزل جام غضبه على البيزيين الأبرياء من هذه الآثام . ومع ذلك يؤيد السيد لانجير M. Lagner (١) هذه الواقعة ، ففى رأيه أنه ليس هناك الا تفسير واحد للكمية الهائلة من الحرير التى أحضرها السفراء الاغريق الذين قدموا الى بيزا عام ١١٣٦ من طرف الامبراطور : ذلك أن الامبراطور يوحنا كان غاضبا على البيزيين سنين طويلة . ومن ثم منع عنهم المنحة السنوية التى تشمل ثلاثة أثواب (الباليوم ، وهو طيلسان الأساقفة) التى كان مدينا لهم بها بمقتضى المعاهدات . والتى أوفى لهم بها مرة واحدة فى هذه المناسبة . واذا كانت الرواية التى سجلتها « الحوليات البيزية » صحيحة ، وكان السفراء الاغريق قد أحضروا بالفعل فى عام ١١٣٦ ووهبوا لكاتدرائية بيزا حوالى مائتى « باليوم » أمبراطورى بالإضافة الى كساء للمذبح بديع الصنع ومطرز بالذهب (٢) ، فمن المؤكد ، حسبما هو معروف عن هدايا الأباطرة ، أن الهدية التى قدمها الامبراطور كانت عظيمة . غير أن نص فقرة الحوليات المشار اليها قد طرأ عليه تحريف كبير . ويرى السيد لانجير نفسه أن الرقم CC (٢٠٠) فى النص مشكوك فى صحته ، ويستبدل به الرقم LII (٥١) ، انه مجرد تخمين ، ولكن ما المانع من اجراء تخمين آخر ، وجعل الرقم II (٢) ؟ وبذلك يكون هذا الرقم هو الذى حددته المعاهدات ، وتكون الهدية المشروطة قد تأجل الوفاء بها فى عام ١١٣٦ كما حدث فى السنوات السابقة . ومن المرجح أن يكون أعضاء بعثة عام ١١٣٦ مكلفين بتجديد المعاهدة القديمة باسم سيدهم ، لأن وثيقة التصديق موجودة ، والبرهان على ذلك ثابت فى وثيقة محررة باسم ابنه « مونويل » Manuel (٣) . وعلى ذلك لا يجوز فى خصوص هذه المعاهدة القول بأنها لم يكن لها وجود الا فى خيال المؤرخين الذين جاءوا بعد هذه الأحداث بزمان طويل (٤) . وحين يضيف هؤلاء أنه عند رحيل السفراء الاغريق انضم اليهم « اجونى دوودى » Ugone Duodi فذهب معهم الى القسطنطينية للتصديق على المعاهدة باسم مدينة بيزا ، وإدارة شئون الجالية البيزية بالقسطنطينية ، فان

Pol. Gesch. Genua's und Pisa's, p. 9-11, 203 et s. (١)

Marang., Annal. Pis, dans Pertz, SS. XIX, 240. (٢)

Doc. sulle relaz. tox. p. 45, 54. (٣)

Tronci, Annali Pisani, p. 71 ; Roncioni, Istorie Pisane, dans l'Archiv. stor. ital. VI, a, p. 250. (٤)

هذه الأقوال تبدو قائمة على أخبار جديدة بالنقطة (١) . لأننا نملك وثيقة متعلقة بمنشأة أقامها في القسطنطينية عام ١١٤١ زوجان من بيزا ، والوثيقة موقع عليها في الصدارة باسم Ugo Dudonis, qui tune erat legatus Pise (٢) . والمعروف عن دوودي هذا أنه بقي في القسطنطينية حتى وفاة الإمبراطور يوحنا ، ولما توج ابنه مانويل في عام ١١٤٣ ، سلم الإمبراطور الجديد خطاب عزاء من مدينة بيزا ، وعقد معه معاهدة جديدة (٣) . وظلت الجالية البيزية مقيمة بالقسطنطينية في أمان تام ، وكانت قبلا تملك كنيسة مكرسة للقديس نقولا (٤) .

وفي هذا العصر نفسه ، أجرت جمهورية جنوا لأول مرة مفاوضات مع بلاط بيزنطة . وفي عام ١١٤٢ ذهب السفيران أوبرتو ديلا توري Oberto della torre وجويلمو ديلا باركا Guglielmo della Barca باسم القناصل لمقابلة الإمبراطور يوحنا الذي كان موجودا وقتئذ مع الجيش في شمال سوريا (٥) . ولا يعرف أحد شيئا عن الاقتراحات التي كانا يحملانها إليه ، وما حصل عليه منها (٦) ، غير أن الثابت هو أن السبب الرئيسي لهذه المهمة كان متعلقا بمسائل تجارية .

ومات يوحنا بعد هذا بوقت قصير (في ٨ من أبريل ١١٤٣) تاركا عرشه لابنه مانويل . واستهل حكم هذا الأمير مع فترة خطيرة بالنسبة إلى الإمبراطورية والجاليات الإيطالية . ويبدو أن الأحداث التي تجمعت خلال السنوات الأولى كانت تكرارا للأحداث التي ميزت نشأة جالية البندقية . وما حدث في عهد روبرت جيسكار ، حين أعلن ابن أخيه روجر الحرب على الإمبراطورية ، حدث في عهد الكسيوس اذ دعا مانويل البنادقة إلى مساعدته . وارتأى للإمبراطور أن طلبه لن يرفض : فحين بذل أبوه يوحنا مساعيه لدى الإمبراطور لوثير لحمله على الزحف ضد روجر (١١٣٥) (٧) ، قدمت له جمهورية البندقية مساندة دبلوماسية ، ولم تكن تقصد وقتئذ مجرد الانتقام من الملك النورماندي المتهم بأنه سلب من بعض التجار البنادقة كمية من

(١) نبدأ مع ذلك تحفظا : ذلك أنه ٧ توجد أية وثيقة تثبت أن دوودي كان يحمل لقب قنصل الذي نسيه إليه ترونس Tronei ورونسيوني Roncioni

Documenti sulle relaz. tox coll' Oriente, p. 4. (٢)

Roncioni, 1. c. (٣)

Documenti sulle relaz tox, p. 4. (٤)

Annal Jan. p. 20. (٥)

(٦) بزعم لانجر Langer أن المفاوضات التي أجراها السفراء الجنوبيون لم تحز رضا

مواطنيهم (ص ١٠) ، ولكن براعينه على ذلك ليست قوية .

Annal. Erphesfurdenses, dans Pertz, SS, VI, ٤٤٠. (٧)

البضائع يقدر ثمنها بمبلغ ٤٠٠٠٠ جنيه فضة ، ولكن كان يدفعها الى ذلك مصلحة سياسية رفيعة . وفي هذه المرة ، في عام ١١٤٧ (١) ، كان روجر يعلم أن الملك الألماني كونراد الثالث ، ومانويل منهمكين تماما ، الأول بالاستعدادات للحرب الصليبية ، والثاني بالاجراءات اللازمة لاستقبال الصليبيين (٢) ، لذلك اعتقد أن الفرصة ملائمة للاغارة على الامبراطورية اليونانية ، ولكن الجمهورية (البندقية) وضعت هذه المرة أيضا قواتها تحت تصرف الامبراطور الذي فوجئ على غير استعداد . ولم يكتف الدوج بهذا بل طلب من البنادقة الموجودين في الامبراطورية لأعمال تجارية أن ينضموا الى الجيش (٣) . وتركز الصراع حول كورفو ، وقاتل الجنود من كلا الطرفين بضراوة شديدة . وبعد أن مرت العصابات النورماندية كالسيل الجارف على كورنيت ، وأثينا ، وطيبة ، ونجربونت Nègrepont (جزيرة ايوبويا حاليا) وهي مدن عزلاء من السلاح ، اختفت سريرا ، كما ظهرت ، حاملة معها الذهب والفضة والحرائر ، واستصحبوا معهم قسرا بعض نساكي الحرير (٤) . غير أن روجر ثبت في كورفو ، وكان هذا الموقع قد سقط في قبضته بالخدعة والخيانة ، فعقد العزم على أن يبقى به مهما كلفه ذلك . وكان الحصار عسيرا طويلا الأمد ، وأسدى البنادقة بمعداتهم الحربية الممتازة خدمات جليلة للاغريق . ولسوء الحظ وقع حادث مؤسف أظهر مقدار ما يكتنه كل من الحليفين للآخر من نفور وكراهية ، كراهية ولدتها تصرفات الامبراطور يوحنا السيئة في نفوس البنادقة ، وشعورهم بجدارتهم ، واحتقارهم اليونانيين ، كل هذه الأشياء خلقت الشقاق بين الطرفين ، ومن ثم اقتضت الفطنة أن يخصص لقوات الأمتين مواقع منفصلة بعضها عن بعض (٥) . ومع ذلك لم يكن هذا الاحتياط الحكيم كافيا لمنع النزاع (٦) ، وتطرق الأمر من الأقوال الى الأعمال العنيفة ، فأريق الدماء رغم الجهود التي بذلها القادة لتهدئة النفوس . وغلب البنادقة على أمرهم ، واستشيطوا غيظا ، ومن جزيرة صغيرة كانوا يحتلون راحوا ينسلون باطلاق

(١) Kugler: (Studien Zur Geschichte des Zweiten Kreuzzugs, p. 116.

et s., not 13); et Amari (Storia dei Musulmani di Sicilia, III, 435, not 2).

لا شك أنه يجب تحديد بداية الحرب (بالاتفاق مع سيمونسفيلد) في ربيع عام ١١٤٧ .

وعلى ذلك تمتد فترة حصار كورفو من ربيع ١١٤٨ الى نهاية صيف ١١٤٩ .

Taf. et Thom I. 110.

Hist. duc. Venet. dans les Mon. Germ. SS. XIV, p. 75; Dandolo, (٣)

1.c.; Taf. et Thom, op. cit.,

Cinnam. p. 92, 119; Nicet. p. 96 et ss.; Annal. Cavens. dans Pertz, (٤)

SS. III, 192; Sigebert contin. Praemonstrat., ibid. VI, 453; Romuald.

Salern., ibid. XIX, 424; Otto Frising. ibid. XX, 370; Hist. duc Venet.

1. c. p. 75; Dandolo, p. 282.

Nicet. p. 103.

(٥)

Cinnam p. 98 ; Nicet p. 113 et s.

(٦)

القذائف على الأسطول اليوناني ، وأشعلوا النيران في بعض السفن ، وانتهوا بالاستيلاء على سفينة الامبراطور ، حيث مثلوا بها ملهاة آذت مشاعره : فبعد أن غلفوا جدران غرفته بأقمشة أرجوازية ومذهبة ، أدخلوا بها زنجيا ليؤدي دور الامبراطور (وكانت بشرة مانويل شديدة السمرة) (١) ، ووضعوا تاجا على رأسه ، وأقاموا حفلة اختلطت فيها ضروب التكريم الموجهة للامبراطور باهانات وضروب من الشطط والتهريج . أما الامبراطور المتعجرف فإنه أخفى مؤقتا ما كان يعتمل في صدره من ضغينة ، اذ كان من الضروري أن يستمر الحصار الذي كان له فيه مصالح كبيرة : وانتهى الأمر بالتغلب على المتمردين . واستسلام الموقع (١١٤٩) بعد طول معاناة .

وكانت النتيجة الظاهرة لهذه الحرب بالنسبة الى البنادقة ، دعم مستوطناتهم التجارية في الامبراطورية البيزنطية ، وامتداد جديده لهذه المستوطنات . الا أن هذه الحرب كانت في الواقع نواة لأحداث مشؤمة سوف نتحدث عنها فيما بعد . وحتى تلك الآونة ، منح مانويل حلفاء امتيازين خلال عام ١١٤٨ (٢) : أحدهما زاد من أملاك التجار البنادقة في القسطنطينية : اذ لما أصبح الحى الذى يشغلونه بين باب اليهود والمخفر الأمامى (فيجلا Vigla) ضيقا أكثر مما ينبغي ، فانه أعطاهم مجموعة جديدة من المنازل بجوار المخفر الأمامى ، ورصيفا رابعا بالاضافة الى الأرصفة الثلاثة التى كانت لهم من قبل (٣) . أما الامتياز الثانى الذى منحه فى شهر أكتوبر ١١٤٨ فانه مد الاعفاءات الممنوحة لهم لمبيعاتهم ومشترياتهم لتشمل علاقاتهم مع جزيرتى كريت وقبرص (٤) . وفى تعداد محاط الامبراطورية التى كان على البنادقة أن يتقدموا اليها ليتمتعوا بالاعفاء بموجب البراءة التى منحها اياهم الكسبيوس فى عام ١٠٨٢ أغفل اسما هاتين الجزيرتين عمدا ، ومن ثم كان موظفو الامبراطورية حتى ذلك الحين يقتضون من التجار البنادقة الرسوم المفروضة . وعلى ذلك صدر مرسوم من الامبراطور يوحنا يلغى هذا الاستثناء الذى بقى فى الواقع قائما ، ولم يلغ الا بعد صدور رسوم مانويل . واذا رضى البنادقة بالامتيازات التى منحهم اياها الامبراطور الجديد ، فانهم رسخوا أقدمهم أكثر فأكثر فى الامبراطورية اليونانية ، وزاد اختلاطهم يوما بعد يوم بالأهالى ، وتزوجوا من نسائهم ، وراحوا يقيمون وسط اليونانيين خارج حدود الحى الخاص بهم ، ومضوا كذلك يستوطنون فى كثير من مدن الامبراطورية ، وجعلوا بعجرفتهم التى كانت تتزايد بسبب شعورهم بما يملكون من ثروات يجرحون فى كل لحظة

Eustathii opp. éd., Tafel, p. 201.

(١)

Domenico Morosini

(٢) كان السفيران الفينيسيان وقتئذ دومينيكو موروسيني

Taf. et Thom. I, 107.

، أنظر :

واندريا جينو

Taf et. Thom. I, 109-113.

(٣)

Taf. et Thom. I, 113-124.

(٤)

مشاعر اليونانيين ، كما راحوا ، بعدم مراعاتهم مرة بعد أخرى القوانين واللوائح ، يغضبون الامبراطور الذى كان غيورا على حقوقه باعتباره عاهل البلاد (١) . وصمم مانويل على وضع حد لهذه الانتهاكات فأنشأ - كما يذكر كيناموس - وضعاً خاصاً للبنادقة المستوطنين فى الامبراطورية ، وكان هؤلاء حتى ذلك الحين يخضعون لنفس النظام الذى يخضع له مواطنوهم الذين يأتون فى سفنهم ثم يرحلون عائدين الى بلادهم ولما لم يكن فى الامبراطورية وقتئذ وضع مماثل لهذا الوضع فقد أطلق عليه اسم مستعار من اللغات الغربية ، هو *burgenses* وقبل أن نفسر معنى هذه الكلمة ، نقول ان المرسوم المشار اليه قد ضمن فى فئة الـ *burgenses* هذه ليس فقط البنادقة - كما يقول كيناموس - ولكن أيضاً كل المستوطنين الغربيين . ويبدو أن مانويل نظر بشئ من القلق الى هؤلاء الأجانب وهم يشكلون جماعات محتشدة على أرض الامبراطورية ، وبخاصة فى العاصمة ، وليس هناك ما يضمن ولاءهم واخلاصهم . وفى هذه الآونة بالذات كان هناك نبيل بيزى يدعى سينيورييتو *Signoretto* قام نزاع بينه وبين موطنه الأصلي ، وربما استبعد منه ، فجاء ليعيش فى القسطنطينية ، واعتبر مواطنوه هجرته هذه من قبيل فقد الجنسية ، وقالوا انه كان من قبل مواطناً بوجوازيا ينتمى الى أمة عظيمة ، ولكنه لم يعد الآن سوى *burgensis* تابع للامبراطور مانويل (٢) . وبعد انقضاء خمس سنوات على وفاة مانويل حاصر النورمان تسالوينك ، وبلغت مسامع المحاصرين أنباء عن حدوث خيانة ، ولخطوا اشارات تجرى من أعلى برج مجاور لى التجار الغربيين . ولم يذكر أوستاث *Eustathe* أسقف سالونيك الذى يروى هذه الواقعة هؤلاء الغربيين الا بكلمة *burgensis* (٣) . من الثابت اذن أن الوضع الذى جعل للبنادقة كان يشمل أيضاً كل الأمم التجارية الأخرى . كذلك يصف كيناموس الوضع القانونى الذى وجدوا فيه منذ أن أصبحوا *burgensis* ، اذ يضيف أن عليهم أن يقدموا ضماناً على أن يخضعوا طوال حياتهم للالتزامات المفروضة على الرعايا اليونانيين (٤) . وعلى ذلك اقتضى مانويل منهم نوعاً من الولاء ، وضمناً للاخلاص ، وكذا فى الغالب تأميناً على الأراضى والبيوت الممنوحة لهم . والواقع أن البوجوازي يتمتع تبعاً للقوانين الاقطاعية بكامل حريته الشخصية ، ولكنه يدين للأمير أو البارون الذى يعيش فى اقليمه بإيراد عن منزله أو ماله ، واعانات.

^(١) Cinnamus, p. 282; Nicét, p. 223.

^(٢) Docum. sulle relaz. tosc. coll' Oriente, p. 12.

^(٣) Eustathue opuscula, éd. Tafel, p. 290.

^(٤) Cinnam. loc. cit.

مالية ، والخدمة العسكرية ، الخ (١) . ونحن نجهل المدى الذى بلغته مطالب مانويل فى هذا الخصوص ، الا أن الثابت انه فرض ضرائب على الجاليات الأجنبية ، ضرائب قاذحة فى بعض الأحيان . من ذلك أنه فى عام ١١٦٦ عند عودته من حملة فى هنجاريا (٢) ، استقدم معه يهوديا يدعى استافورت Astaforte ، اشتهر بخبرته فى الشئون المالية ، وأثبت كفاءته بأن أثقل بالضرائب اللاتينيين المتفرقين فى أنحاء الامبراطورية . ويبدو أن الامبراطور كان يريد أن يرث أموال الأشخاص الذين يتوفون دون أن يتركوا وصية . وفى حالة نذكرها ، بالغ استافورت فى حماسه وإخلاصه للمالية الامبراطورية ، وذلك فى مسألة تخص تركة سينيوريتو الذى ذكرناه آنفا : فقد أوصى المتوفى بأملكه لمؤسسة خيرية ، فأمر استافورت بمصادرة الأملاك وألقى فى السجن منفذ الوصية المعين حسب الأصول القانونية . على أننا نقول ان هذا الاجراء قد ألغى بعد ذلك بحكم قضائى (٣) . وأخيرا فرض مانويل على أفراد الجاليات الغربية أداء الخدمة العسكرية ، وفى الغالب كنتيجة لوضعهم الخاص باعتبارهم Burgenses . ونجد آثارا للقواعد التى وضعها فى هذا الشأن فى المعاهدات التى عقدها مع مدينة جنوا : ففي حالة اغارة أسطول للعدو على اقليم الامبراطورية اليونانية ، تلتزم الجاليات الجنوبية بالخدمة على السفن الحربية التابعة للامبراطورية ، وفى نظير ذلك يكون لأفرادها الحق فى مرتبات ، ولا يسمح لهم بالاحتفاظ بأكثر من عشرين رجلا لحراسة سفنهم الخاصة (٤) .

وفى الوقت الذى عمل فيه مانويل ، بهذه الوسائل والاجراءات على استغلال الجاليات الغربية المقيمة فى امبراطوريته لمصلحته الخاصة ، عمل أيضا على كسب صداقة شعوبهم . والواقع أنه اتبع فى ايطاليا سياسة ذات هدف كبير ، تتمثل فى بعث السيطرة الاغريقية بالحالة التى كانت عليها من قبل ، واستعادة لقب الأباطرة الرومان وسلطانهم لصالح أسرة كومنينوس . وفى هذا السبيل كان لا بد له من حلفاء بين مدن ايطاليا وأمرائها . وكان من الطبيعى أن يولى وجهه

Ducange, dans son Gloss. med. et inf. latinitatis, s.v. (١)
burgagium, burgensis, et les Notes du même auteur sur cinnamus, éd. Paris, p. 487-490; Ordonnances des roys de France, XII; Gregorio, Considerazioni sopra la storia di Sicilia, I et II, passim; Amari, Storia der Musulmani di Sicilia, III, 250 et ss.

Cinnam. p. 248. (٢)

Doc. sulle relaz. tosc. coll' Oriente, p. 11-13. (٣)

Lib. jur. I, 184, 186, 253; Langer op. cit. p. 60, not. 3). (٤)

يقول لانجر انه كان فى مصلحة الجاليات (الغربية) أن تشارك فى الدفاع عن الامبراطورية ، وهذا صحيح من الوجهة النظرية ، غير أنه قد يحدث عندما يلتحق المستوطنون بجيوش الامبراطورية أن تبقى المواقع التى توجد فيها متاجرهم ومصانعهم وسفنهم بلا حراسة كافية ، أو من غير حراسة بالمرّة .

أولا شطر المدن التجارية المرتبطة معه قبلا بمصالحها في الشرق الأدنى ، فيغريها بالامتيازات والوكالات التجارية ، ولكنه يحاسب جالياتها اذا لم تلتزم بالطاعة والخضوع ، وتبعاً لهذه السياسة الطموح ، أصبح الجنويون في عداد الأمم الأكثر رعاية في الامبراطورية اليونانية . وبعد أن أحبط الامبراطور محاولة النورمان غزو كورفو ، عقد العزم في عام ١١٥٥ على نقل الحرب الى أرض العدو . وكان عدد كبير من بارونات جنوب ايطاليا قد ثاروا علنا ضد وليم الأول ، خليفة روجر ، كما أظهر البابا وامبراطور ألمانيا عداها له ، ومن ثم بدت الأحوال ملائمة ، وبدا لخاطر مانويل - وله بعض الحق في ذلك - أنه بتحالفه مع خصوم الملك سوف يتسنى له توطيد أقدامه في ايطاليا (١) . ولم يدخر مالا أو وعودا في سبيل اكتساب حلفاء له ، أو على الأقل تخليص حلفائه من سيطرة أعدائه . وعلى ذلك انطلق مندوبوه من حليف الى آخر حتى وصلوا الى جنوا ، وكان المندوب الذي حل الى هناك أول اقتراحات مانويل هو نفسه الذي تفاوض في انكونا مع الامبراطور بارباروسا (٢) ، وفي بنيفنتو مع البابا أدريان الرابع (٣) لحملهما على تشكيل رابطة ضد ملك صقلية : كان هذا المندوب هو ميشيل ناليولوجوس Michel Paléologue ، وهو من أبرع قباطنة ذلك العصر (٤) ، ولكن استبدل به بعد ذلك ديمتريوس ماكريمبوليتس Démétrius Macrembolitès (٥) ، وكل ما طلبه الامبراطور من قناصلة جنوا على ما يبدو هو الا يرتبطوا بأية تعهدات مع أعدائه ، وأن يفرضوا على مواطنيهم المقيمين بأرض الامبراطورية واجب المعاونة في الدفاع عن الامبراطورية في حالة الهجوم عليها . وتمسك بشدة بهاتين النقطتين ، وفي نظير الحصول عليهما وعد الجمهورية بهدايا فاخرة تشمل قطعا من المصوغات والحريير ، وحيا تجاريا وأرصفة في القسطنطينية ، في أجزاء المدينة التي كان للبيزيين والبنادقة فيها أحياءهم وأرصفتهم من قبل . ولم يحدد ماكريمبوليتس موقع هذا الحى ، ولكنه تعهد بأنه اذا كان سلفه أو زميله (٦) قد وعد بمنح معين أو رصيف معين فان الامبراطور سوف يفى بالوعد

(١) Cinnam. p. 135 et ss.; Nicét. p. 120 et s., 124 et ss.; Guill de Tyr, XVIII Chap. 2, 7, 8.; Romuald. Salern., dans Pertz, ss. XIX, 428 et ss.; Marango, ibid. 242 et s.

(٢) Otto Fris., dans Pertz, SS. XX, 408, 413.

(٣) Hadriani vita out. Bosone, dans Watterich, Vitae pontif. roman. II, 332 et s.

(٤) Hase, Introd au Dialogue de Timarion, Not. et extr. IX, 2e part. p. 154 et s.

(٥) يظهر اسم هذا الشخص أيضا في مناسبة أخرى : فقد بعثه مانويل الى كوزاد الثالث حين اقترب الجيش الصليبي بقيادة هذا الأمير من الحدود (Cinnam p. 67)

(٦) يطلق على هذا الزميل لقب Subitus : وهو في الغالب Jean Ducas le Sebatos (Cinnamus, p. 135 et ss.) يقترون اسم كثيرا في ذاك الحين باسم ناليولوجوس

دون مناقشة . فضلا على ذلك يستطيع الجنوبيون ، مثلهم مثل البيزيين أن يقيموا منشآت فى مدن أخرى من مدن الامبراطورية ، ويكون وضعهم القانونى على أية حال مماثلا لوضع البيزيين ، ولا تكون رسوم الجمارك التى تحصل منهم أعلى من الرسوم التى تحصل من الآخرين . وسجلت التزامات ماكريمبوليتس من جهة والتزامات القناصلة من جهة أخرى وشكلت وثيقتين مرتبطتين (١) . ويتفق مضمون الوثيقتين تماما مع ما يقوله كافارو Caffaro فى خصوص هذه المعاهدة فى عام ١١٥٥ (٢) ، وينبئنا فوق ذلك أن الحى الموعود به يشمل كنيسة . وترتب على الماثلة بين الجنوبيين والبيزيين ، بالنسبة الى الجنوبيين أن خفض ١٠٪ من الرسوم الجمركية ، و ٤٪ من التعريفة الخاصة بالذين لا يتمتعون بأى امتياز .

وأرسل قناصلة جنوا لعام ١١٥٧ الى القسطنطينية اميكو دى مورنا Amico de Murta ليستلم الحى المخصص لاقامة التجار ، والأماكن المخصصة لرسو سفنهم (٣) ، وخلفه فى عام ١١٦٠ ايرنكو جوير Enrico Guerico (٤) . ويبدو أن الجنوبيين كانوا يملكون فى القسطنطينية فى هذا الحين منشآت ومنازل كثيرة ، الا أن منافسيهم لم يتركوهم يتمتعون زمنا طويلا بهذه الأشياء . ففي ذات يوم من عام ١١٦٢ أقبل ألف شخص من البيزيين المتعطشين للنهب والدماء ، وأغاروا على الجنوبيين الذين لا يزيد عددهم على الثلاثمائة ، والذين دافعوا مع ذلك بشجاعة حتى المساء ، واضطر المغيرون الى الانسحاب دون أن يحققوا جريمتهم . ولكنهم أعادوا الكرة فى اليوم التالى ، وانضم اليهم مدد من بنادقة ويونانيين وعصبة من الأوباش من كل نوع ، وقصدتهم نهب مخازن الجنوبيين . ولما رأى هؤلاء أنهم سوف يهزمون أمام تفوق أعدائهم فى العدد ، تركوا منازلهم وأموالهم ، وحمل الأعداء غنائم تقدر بمبلغ ٣٠٠٠٠ هيبير hyperpres وقاتلوا نبيلاً جنوبياً شاباً ، ابن اوتو روفو Otto Rufo . وعاد الجنوبيون الى وطنهم ، وكان هذا الحادث بداية لحرب ضروس نشبت بين جنوا وبيزا . ولما كانت هذه الحرب قد اتخذت من ايطاليا ميداناً لها ، فأننا لن

(١) Sauli : Della colonia dei Genovesi in Galata, II, 181 et s.;
Lib. jur. I, 183-186.

— صارت هذه المعاهدة ملزمة للجنوبيين فى عام ١١٥٧ ، انظر فى ذلك :

— Atti della società Ligure di storia patria, I, 192.

Annal. Jan. p. 23. (٢)

bid. p. 25 ; Olivieri, dans les Atti della Soc. Lig. I, c. p. 30 (٣)

Cf. Monum hist patr. Chartae, II, 402 et s.

Annal. Jan. p. 30. (٤)

تتصدى لها في مجالنا هذا (١) . وعلى ذلك انتهت بالفشل المحاولة الاستعمارية الأولى التي قام بها الجنويون في القسطنطينية . ومع ذلك لم يتوان الامبراطور مانويل في أن يقدم لهم بنفسه مزايا جديدة ، وطلب اليهم أن يبعثوا بالسفراء الى بلاطه ، وأعلن أنه مستعد من جانبه لتنفيذ المعاهدات القديمة . واستجابة لهذه الدعوة بعثت الجمهورية ثلاثة سفراء مفوضين استقبلوا بحفاوة ، ولكنهم لم يحصلوا على أية نتائج هامة (٢) . وسارت الأمور على هذا المنوال حتى قيام السفارة الثانية التي تولاهاميكو دي مورتا (١١٦٨) (٣) ، وانتهى هذا السفير بعد مفاوضات طويلة بالحصول (في أكتوبر ١١٦٩) (٤) ، على موافقة الحكومة اليونانية على تحرير معاهدة تبقى مع ذلك مجرد مشروع الى أن تصدق عليها حكومة جنوا . ويتبين من تصريحات السفير أن جمهورية جنوا تتعهد ألا تقوم بأى عمل ضد الامبراطورية اليونانية لحسابها الخاص أو لحساب أى حاكم متوج أو غير متوج (٥) ، وتعد أيضا بالعمل على احباط أى هجوم على أى مكان في اقليم الامبراطورية ، ووضع كل مواطني جنوا المقيمين في الامبراطورية تحت تصرف الامبراطور للدفاع عنه ، وتلتزم - فى حالة قيام حرب بين مانويل وبين أية شخصية متوجة أو غير متوجة ، ويرى من المفيد أن يرسل الى جنوا قوافل محملة بالذهب ، أو سفنا أو فرقا عسكرية - أن تتصرف حياله تصرف دولة صديقة . ويضمن مانويل من ناحيته لمدينة جنوا أن يمنحها حيا ورصيها وكنيسة فى موضع مناسب خارج القسطنطينية ، فى منطقة غير معروفة مع ذلك ، اسمها أوركو Orcou . ولم يغرب عن البال اشتراط الهدايا المعتادة ، من ذهب وحريز ، وهى كبيرة المقدار ، نظرا الى النفقات الكبيرة التى سوف تلتزم الجمهورية بتغطيتها ، ومن ثم يجدد الوعد الذى سبق أن أعطاه ماكريمبوليتس بدفع ائانة مالية قدرها ٥٠٠ هيبير ، ويتعهد بأن يسدد دفعة واحدة الستة والعشرين قسما سنويا الأولى . وفيما يختص بالرسوم الجمركية ، يجب على الجنويين أن يدفعوا للقسطنطينية اعتبارا من ذلك الحين ٤٪ فقط ، كما

Annal. Jan. p. 33;

(١)

- فى أعقاب هذا العدوان ساءت جنوا للامبراطور فى عام ١١٧٤ على يد السفير جريما لدى طلبها بدفع تعويضات تبلغ ٢٩٤٤٣ هيبير (تذكر الحوليات رقما صحيحا هو ٣٠٠٠٠) ، انظر ، فى خصوص موت روفو الصغير Desimoni, dans le Giorn. ligust, 1874, p. 157-159.

Annal. Jan. p. 61.

(٢)

Ibid. p. 78.

(٣)

(٤) ذكر عام ١١٧٠ فى ال Lib jur خطأ ، بسبب قراءة غير صحيحة ، انظر :

— Olivieri, dans les Atti della Soc. Lig. I, 338 et s. desimoni dans le Giorn. lig. 1874, p. 148 et ss.

(٥) ذكر اسم الأمير المقصود بهذه العبارة شفاة الى السفير ، فوافق هذا وصرح بأن من صالح وطنه أن يمتنع عن مساندة هذا الأمير اذا شن حملة ضد الامبراطورية اليونانية . وكان هذا الأمير الذى بقى اسمه مضعرا ، هو بالتاكيد فردريك بارباروسا .

يدفعون في الأماكن الأخرى نفس النسبة التي يدفعها سائر اللاتينيين إذا كانوا خاضعين لهذه الرسوم . وأخيرا ، اتفق على أنه يمكن للسفن التجارية الجنوبية أن تدخل في كل موانئ الامبراطورية بكامل حريتها فيما عدا ميناء روسيا Rossia و Matracha ماتريكا إلا إذا صدر مرسوم لاحق يلغى هذا الحظر (١) . ويبدو أن هذا المرسوم لم يصدر أبدا ، وعلى العكس ، انعقد اتفاق جديد مع مانويل في العام التالي جدد التحفظ المشروط بالنسبة إلى الميناءين ، وفي وقت لاحق لم يتحدد تاريخه ، أرسل الجنويون وفدا مكلفا بالعمل على رفع الحظر (٢) ، ولكن الثابت أنه أخفق في ذلك .

نرى ما السبب في تشبث الامبراطور بهذا الحظر ؟ من المفيد البحث عن هذا السبب (٣) . لا شك في أن ماتريكا Matracha ليست سوى Tamatarcha التابعة لقسطنطين بروفروجنطوس ولم يكن يفصل إقليم هذه المدينة سوى أحد أنهار إقليم Zichie ، وهو أقصى إقليم شمالي للامبراطورية في جبال القوقاز ، وكان الاقليمان تابعين لرئيس أساقفة واحدة (٤) . ويفول وليم (جويوم) دى روبروك Guill de Rubrouk الذى يطلق على المدينة اسم ماتريكا Matrica (٥) . ان اقليمه يحد من الغرب بالمضيق الذى يربط البحر الأسود ببحر أزوف . وعلى ذلك كانت Matracha المذكورة في وثيقة مانويل واقعة في شبه جزيرة تهامان Taman وتشكل المركز السياسى والتجارى لمنطقة شاسعة مغطاة بالقرى (٦) ، تصل إليها السفن الآتية من أعالي البحار ، وتمتاز فوق ذلك بأنها قائمة على ضفاف نهر كبير يسمى الادريسي (سكير أوستير) Le Eokir (٧) ، ومن ثم فهي كائنة على أحد مصاب نهر كوبان ، وهو مصب لم يعد له وجود (٨) . ويصعب معرفة جنسية أمراء وسكان ماتريكا Matracha في عصر الامبراطور مانويل . وكان الأمراء الروس فيما مضى قد دفعوا بغزواتهم حتى هناك ، واستولوا على إمارة تموتوراكان Tmoutorakan التى أجمع العلماء على

- (١) هناك ترجمتان باللاتينية لهذه المعاهدة ، احدهما في : le Lib. jur. I, 252-255. والثانية في : Sauli, II, 188 et ss.
(٢) Desimoni, Giorn ligustico, 1874, p. 156.
(٣) Lib. jur. I, 255; Sauli II, 192, Miklosich et Muller, Acta graeca, 111, 35 . mfhy cmfhmb
(٤) Const. Porph, De administrando imp., p. 181, 268 ; Mikloschi et Muller, Acta graec. I, 76, 477; II, 268; Tafel, Const. Porph. Europa, p. 45, 53, 55.
(٥) Recueil de voy. et de mém. publ. p. la Soc. de géogr. IV, 21E.
(٦) الادريسي ، الجزء الاول ، ٤٠٠ .
(٧) Guill. de Rubrouck, p. 215; Edrisi, II, 396, 400.
(٨) Dubois de Montpéroux, Voyage autour du Caucase, V, 37, 64, 78 et s.

اعتبارها هي وماتريكا Matricha اقليما واحدا ، غير أن اسم هذه الامارة اختفى من المصادر التاريخية منذ الربع الأول من القرن الثاني عشر . ولما كان هذا الاختفاء معاصرا تقريبا لغزو البوتوفست Polovtses هذا البلد ، فالراجح أنهم هم الذين دمروا الامارة (١) . وفي الوقت الذي كتب فيه الادريس كتابه في الجغرافيا (نزهة المشتاق في اختراق الآفاق - المترجم) (١١٥٤) أى فى عهد مانويل ، كان سكان ماتريكا Matricha فى حرب متصلة مع جيرانهم الروس (٢) ، وليس فى وسعنا أن نطلق اسما آخر على سكان روسيا Rousia التى سوف نتكلم عنها بعد قليل . ومع ذلك يبدو أن الادريس نفسه يشير الى جنسية أمراء Matricha لأننا نقرأ فى ترجمة جوبير Jaubert (٣) أنهم كانوا معروفين باسم Alou-Abas وهذه التسمية قريبة الشبه من اسم Abkases (٤) . ولكن دوزى Dozy وخويه Goeje (٥) يذكران أن المصطلح الذى استخذه الادريس ليس اسم علم ولكنه نعت يصف هؤلاء الأمراء بأنهم أولو بأس شديد . ها نحن اذن قد وقعنا فى حيرة . وعلى أية حال فالراجح أنهم ينتمون الى احدى القبائل التى كانت تسكن جبال القوقاز ، وبخاصة قبيلة اعتنقت الحضارة والديانة اليونانية . والواقع أن المبشرين الذين أرسلهم هنغريو نهر التايس Theiss عام ١٢٣٠ الى اخوانهم الوثنيين فى حوض نهر الفولجا ، مروا بماتريكا Matricha ووجدوا فيها أميرا وشعبا يتكلمون ويكتبون اليونانية ، كما وجدوا ثمة كهنة يونانيين (٦) . من الصعب اذن التسليم بأن الحظر الذى فرض على التجار الجنوبيين من أن يزوروا ماتريكا كان الباعث له علاقات عدائية بين الأمباطور وامارة ماتريكا . ويشير الرحالة وليم دى روبروك (١٢٥٣) الى الباعث الحقيقى ، اذ يرى (٧) أن تجار القسطنطينية كانوا يذهبون الى ماتريكا ، ومن هناك يعبرون بحر آزوف على قوارب صغيرة ليصلوا الى مصب نهر تنايس Tanais حيث يشترون كميات كبيرة من السمك . وما كان يفعله تجار الفرنجة فى عهد الأمباطورية الرومانية ، كان التجار اليونانيون يفعلونه بالتأكيد فى عهد الكومنينوس . وعلى ذلك كان

-
- (١) انظر مقال Pogodin عن وضع امارة تموتوراكان فى :
 — l'Ereman's Archiv fuer die Kunde Russlands, V, 429-431; Karamsin,
 (٢) الادريس ، الجزء الثاني ، ٤٠٠ .
 Gesch. des russ. Reiches, I, 140, 345; II, 117.
 (٣) الادريس ، الجزء الثاني ، ٣٩٥ .
 (٤) هذا هو التفسير الذى يقره المترجم نفسه :
 Lewel, Géogr. du moyen-âge, III, 197.
 (٥) الادريس ، Description de l'Afrique et de l'Espagne, Préf. p. xix
 Theiner : Monum. vetera Hungar. I, 152.
 (٦)
 Guill de Rubrouk, p. 215.
 (٧)

الاجراء الذى اتخذه مانويل يستهدف منع الجنوبيين من استخدام هذه المياه التى يقصدها اليونانيون للتزود بالسلك ، وأن يضمن لرعاياه احتكار فرع من فروع التجارة الأكثر ربحا .

ومن العسير تحديد مدلول كلمة Rosia (روسيا) المذكورة فى مرسوم مانويل . وفى رأى أنه اذا كان المقصود بهذه الكلمة « بلد الروس » فانى لا أعارض فى ذلك . وبالأجمال فان مانويل قد يكون لديه بواعث التى تدعوه الى منع الأمم التجارية الغربية من التعامل بالتجارة مع الروس ، فكثيرا ما كان هؤلاء يبدون نوايا عدوانية ضد الامبراطورية ، وحتى حين يأتون الى القسطنطينية فى مظهر سلمى ، فان الأهالى يستشعرون الخوف والحذر منهم ، وفى الامكان تفسير قرار الامبراطور تفسيراً أكثر استساعة : فبين ما تراك الواقعة على خليج تمان وبين سولدايا Soldaia (سوداك Soudak) فى القرم ، يشير الادريسي (١) المعاصر لمانويل الى محطتين ، احدهما أكثر قربا من سوداك ، ويطلق عليها اسم Boutra أو Bouter ، وهم اسم لا أثر له فى أى مكان ، والأخرى أكثر قربا من ماتراك ونجدها مذكورة أحيانا على أنها منفذ لنهر من أنهار روسيا ، نهر الدن ، وأحيانا على أنها مدينة اسمها « روسيا » Rousia واقعة على نهر كبير ينحدر من جبال كوكايا Kokaia ، أى نهر الدن أيضا . هذه النقاط الأربع كما تبدو على خريطة الادريسي (٢) واقعة على أبعاد متساوية من بعضها بعضا ، يقدر كل بعد منها بعشرين ميلا (٣) ، ومصطفة على طول البحر الأسود على خط عرض واحد . ويمكن تبعا لهذه المعلومات أن تكون Boutra فى كافا Caffa (٤) ، وروسيا فى كيرتش Kertch (٥) . والواضح أن الادريسي يعتبر مصبا للدن ما هو فى الواقع مضيق كيرتش . ثم أن وليم دى روبروك (٦) لا ينظر هو أيضا الى بحر أزوف الا باعتباره انتفاخا لمجرى نهر الدن ، وفى رأيه أن هذا النهر يضيق (مكونا مضيق كيرتش) قبل أن يصب فى البحر الأسود . غير أنه كلما ذكرت مدينة كيرتش فى كتابة من كتابات العصور الوسطى ، سماها الكاتب « البسفور » Bosfous (Vosporo) القديم ، أو أطلق عليها اسمها الحالى ، ولم يطلق عليها أحد اسم روسيا Rosia, Rousia ، ولا يذكر التاريخ فى أى مكان منشأة أقامها الروس فى هذا الموقع . ومن جهة أخرى اذا

(١) الادريسي ، الجزء الثانى ، ٣٩٥ و ٤٠٠ وما بعدها .

(٢) يحدد الادريسي المسافة بين ماتراك وروسيا ب ٢٧ ميلا فى ثمانية الفقرات المشار اليها .

(٣) Hommaire de Hell, Steppes de la mer Caspienne, Atlae : Monumens géographiques, no. 4.

(٤) Lelewel, 1. c.

(٥) Ibid. ; Brunn, Notices sur les colonies italiennes en Gazarie, p. 6.

(٦) Guill de Rubrouk, p. 215, 250.

كانت « روسيا » تختلط بكيرتش ، فهناك تناقض مع خريطة الادريسي الذي يجعلها على الضفة اليسرى للنهر الذي ظن أنه نهر الدن ، أى البسفور ، فى حين أن كيرتش موجودة على الضفة المقابلة كما يعلم الجميع . ولنحاول وضع الحقائق فى نصابها : فالادريسي نقل الى البحر الأسود مصب نهر الدن الذي يصب فى الواقع فى بحر أزوف ، ولكن كان تحت ناظريه خط سير صحيح يجعل مدينة الروس على يسار المصب الحقيقى للنهر ، ومع ذلك نقل المدينة الى الجنوب من موقعها الحقيقى ، وهذا هو ما أخطأ فيه . وهناك خرائط من بداية القرن الخامس عشر ، نرى عليها جنوبى مصب نهر الدن اسم : Casal (Cassar) degli Rossi (١) (كزال - أو كسار الروس) ، والراجح أنه كان هناك بقايا منشأة للروس . كان هؤلاء القوم فى الأصل سادة على أهالى النهر فقط ، ولكنهم ما لبثوا أن نظموا حركة ملاحية نشيطة للغاية ، حتى سمى النهر فى عهد الادريسي نهر الروس (٢) . وفى الامكان أن نسلم بأنهم أنشأوا هناك محطة غير بعيدة عن مصب الدن ، نمت نموا سريعا جعل لها مظهر المدينة ، ثم انكشفت فيما بعد حتى صارت مجرد قرية صغيرة (Casal) هي « روسيا » لدى الجغرافيين العرب (٣) . ويروى وليم دى روبروك أن تجار القسطنطينية كانوا يرسلون زوارقهم من ماتركا لتأتى بالسماك من مصب الدن ، ولا شك أنهم كانوا يتعاملون هناك مع المستعمرة الروسية ، فاذا كنا بذلك على صواب ، فإن الحظر الذي فرضه الأمباطور على الجنوبيين يسرى على كل من روسيا وماتركا .

حسبنا هذا الاستطراد ، ولنعد الى المفاوضات التى جرت بين جنوا والأمباطور مانويل ، ففي جنوا لم يكن أحد راضيا عن المعاهدة المنعقدة بين اميكو دى مورتا والأمباطور فى شهر أكتوبر ١١٦٩ والتى اشترطت تصديق حكومة جنوا عليها . وبوجه عام لم يتشبت الجنوبيون ، أو على الأقل لم يعودوا يحرصون فى تلك الآونة على أن يفرضوا على اليونانيين التزامات واسعة . والشئ العجيب أن المعاهدة كانت على ما يبدو بوضوح سلاحا موجها ضد

(١) Lelewel, Alt. p. 13. dans Thomas, Periplus des Pontus Euxinus, p. 245 et s., 266, et dans les Wiener Jahrbuech. 1834, I, p. 9.; Rubr. p. 249.

Edrisi, II, 395; cf. Traehn, Ibn Fossilan, p. 38. (٢)

(٣) لتحديد موقع روسيا Rousia ، اتبع ابن سعيد (المتوفى عام ١٢٧٤) وشمس الدين (المتوفى عام ١٢٢٧) بيانات الادريسي الخاطئة فى هذا الخصوص . فبالنسبة لأول هذين الجغرافيين أنظر : (Aboulfeda, Géogr. II, 340) (Ibn. Fossilan, p. 31)

وبالنسبة للثانى أنظر ترجمة Mehren ص ٣٧٧ . والى جانب هذا اعتقد البعض فى وجود روسيا Rusia أخرى ، عاصمة الروس ، وجعلوها فى الشمال ، أنظر أبو القدا وابن سعيد ، راجع Froehn ص ٣٢ .

أمبراطور ألمانيا . ثم أن الجنوبيين استاءوا من رفض مانويل اعطاءهم حيا داخل عاصمته . واذ بقى مورتا فى القسطنطينية وقضى بها فصل الشتاء ، فقد أرسل اليه تعليمات ، حصلنا عليها فى صورة تعديلات للمعاهدة واضافات عليها - وهى المعاهدة المبرمة فى عام ١١٥٥ مع ماكريمبوليتس (١) . وتلقى مورتا الأمر بأن يبذل قصارى جهده لمحو الفقرة التى أشير بها الى شخصية متوجة ، أى فردريك بارباروسا ، وألا يسمح ببقاء هذه الفقرة الا اذا تعرضت المفاوضات للفشل بسبب هذا الالتزام . وخول لمورتا أن يقبل البند الذى يفرض على الجنوبيين المقيمين فى اقليم الامبراطورية ، التزاما بالمعونة فى الدفاع عنها فى حالة غزو يقوم به عدو من الخارج ، وذلك بالصيغة المثبتة فى المشروع ، على أن يوضح صراحة أنه فى حالة حدوث غارة جزئية ، لا يستدعى للسلاح سوى الجنوبيين المقيمين فى الاقليم المهدد ، أما فى حالة غزو عام يشنه أسطول كبير للعدو يضم مائة سفينة حربية أو أكثر ، لا يجوز للجنوبيين أن يتركوا أكثر من عشرين رجلا فى كل وكالة من وكالاتهم التجارية لحراسة المباني والسفن ، ويجب على سائر الجنوبيين فى كل موقع من الامبراطورية يوجودون فيه أن يخدموا فى الأسطول الامبراطورى . وعلى مورتا فضلا عن ذلك أن يلح بشدة على الامبراطور ليسدد التعويضات المتأخرة . ولما كان ماكريمبوليتس قد تعهد بأن يتمتع الجنوبيون فى الامبراطورية اليونانية بنفس المعاملة التى يتمتع بها الميزيون ، فقد كلف السفير بأن يجمع المعلومات الصحيحة عن أملاكهم والحقوق الممنوحة لهم ، والأعباء المفروضة عليهم ، حتى يتسنى له المطالبة بالمساواة فى المعاملة ، استنادا الى أدق المعلومات والتفاصيل . وأخيرا فيما يختص بالجالية الرئيسية ، أوصى بأن يبذل كل ما فى وسعه ليحصل للجنوبيين على مستودعات وأرصعة فى العاصمة : وعليه أن يختار بالأولى المنطقة الواقعة بين حى البنادقة وبين قصر الطاغية انجيلوس Angelos أو المكان المجاور للبيرفورم Perforum (٢) ، فان استعصى عليه الحصول على موقع فى الداخل فعليه على الأقل أن يطالب بمكان فى بير (٣) بصفة مؤقتة مع التحفظ بأنه اذا حدث فى يوم ما أن رخص لسائر الجاليات اللاتينية بالاقامة فى المدينة ، فإنه يجب أن يحفظ للجنوبيين بها مستودعات وأرصعة ، ويجب على الحكومة اليونانية منذ الآن أن تعين للسفير مواقع هذه المستودعات والأرصعة .

(١) نجد هذه التعديلات والاضافات بعد نص المعاهدة مباشرة فى .

— Le lib. jur. I, 184-186.

(٢) Cf. Nicét, p. 719, 742; Paspatis, Journal du Syllagos de Cons-
tantinople, VI, 148, VII, 90 et B. p. 141.

(٣) * (حى فى القسطنطينية - المترجم)

وتحت الحاح مورتا ، تنازل مانويل أخيرا للجنوبيين عن حي في داخل المدينة (أبريل ومايو ١١٧٠) (١) ، في المنطقة المسماة كوباريون Coparion (أو كوبريا Coparia) على مقربة من حي بيزا ، واذ أبلغ مورتا حكومته بنتيجة مساعيه ، كان له الحق في أن يتوقع منها حفاوة أحسن مما استقبلت بها مشروعه في أكتوبر ١١٦٩ . وحين وصل الى جنوا ، وجد بها سفراء يونانيين ينتظرون عودته ليحصلوا على اجابة حاسمة ، وكانوا قد وصلوا هناك في شهر يونية ١١٧٠ ومعهم مبلغ كبير من المال ، ولم يكن هذا المبلغ هو التعويض الذي كثيرا ما طالب به الجنوبيون عن الخسائر التي لحقت بهم في حيمهم القديم بالقسطنطينية ، ولكنه منحة خاصة أرسلها مانويل لاستمالة الحكومة الجنوبية واقناعها بحمل السلاح ضد أسرة هوهنشتاوفن . ولعل السفراء في محادثاتهم قد أضفوا على الفكر الحقيقي للامبراطور تأكيداً أقوى مما أثبتته هذا في كتابه ، غير أن كلامهم لم يكن يتوافق مع التقرير الشفوي الذي قدمه أميكو عن مفاوضاته مع البلاط البيزنطي . ورغم ما قد يبدو غامضاً أو متناقضاً في هذه القضية كلها ، فلم يكن هناك ما يدعو حكومة جنوا الى الارتياح في نوايا السفراء . غير أن قبول الهدية التي أرسلها مانويل قد يكون بمثابة تصريح قاطع لصالح الامبراطور اليوناني ضد الامبراطور الألماني ، وهذا هو ما حرصت حكومة جنوا على تجنبه ، ومن ثم أخطرت السفراء بأنه ليس في وسعها أن تقبل الهدية (٢) ، فعاد هؤلاء بنقودهم . ومع ذلك كان من الضروري التخفيف شكلاً من هذا الرفض ، وكان أميكو هو الذي كلف أيضاً بالذهاب الى القسطنطينية لتقديم بعض التفسيرات في هذا الخصوص (٣) . ورجع الامبراطور دون صعوبة عن مشروعه الخاص بالتحالف واكتفى بوعده من حكومة جنوا بالا تعقد أي تحالف ضده مع أية شخصية متوجهة أو غير متوجهة ، وأن تتعاون في الدفاع عن الامبراطورية في حالة وقوع هجوم خارجي تشنه قوات كبيرة ، وذلك بالطريقة المنصوص عليها في التعليمات المسلمة قبلاً لاميكو دي مورتا ووافق الامبراطور من ناحيته على منح الجنوبيين حياً داخل عاصمته ، وخفض رسوم الجمارك الى ٤٪ ، وأيد وعده بتقديم منحة سنوية دفع مقدماً وفي الحال أقساطها السنوية العشرة الأولى (٤) . ولم يتمتع الجنوبيون طويلاً وفي سلام بحيمهم الجديد ، فقد أغار عليهم منافسوه ، مثلما

(١) نشر وثيقتي التنازل هاتين ديزيموني Desimoni في نهاية كتابه :

Memoria sui quartieri dei Genovesi a Constantinopoli nel secolo XII, dans le Giornal. ligust. 1874 (p. 178 et ss.)

Annal. Jan. p. 90 91; Lib. jur. I, 254 et s. (٢)

Annal. Jan. p. 86. (٣)

Miklosich et Muller, Acta graeca, III, 25 et ss. (33-36); Sauli, (٤)

Della colonia dei Genovesi in Galata, II, 194 et s. ; M. Langer, p. 170.

حدث في عام ١١٦٢ ، فهدموا بيوتهم ، ونهبوا أموالهم . وألقى الامبراطور مسؤولية هذه الأحداث على البنادقة ، كما سنرى فيما بعد ، كما يتهمهم المؤرخ كيمانونس باقترافها . غير أن الناس في جنوا لم يكونوا من هذا الرأي ، ونتبين ذلك في التعليمات المرسلة في عام ١١٧٤ الى السفير جريمالدي Grimaldi اذ نجد فيها بين سائر طلبات التعويض مطالب مختلفة متعلقة بالخسائر التي لحقت بالجنوبيين بسبب الغارة التي وقعت على حيهم الجديد ، ونطالع فيها أيضا أن الامبراطور اعتبر البنادقة مسئولين عن ذلك ، ومن ثم وضع أموالهم تحت الحراسة ، ولكنهم لم يكونوا الجناة الحقيقيين . وكان جريمالدي آخر سفير لجنوا لدى الامبراطور مانويل ، وكان مكلفا أيضا ، بالإضافة الى المطالب السابق ذكرها ، بطلب تعويضات عن أضرار لحقت بمواطنين جنوبيين في البر وفي البحر في جهات تابعة للامبراطورية اليونانية ، واضافة كنيسة قائمة على مشارف الحى ، وبضع منازل تفصل الحى عن البحر ، ورصيف ثان . وليس هناك أية معلومات عن نتيجة هذه المهمة ، ولا يوجد شيء خلاف التعليمات التي شرحتها آنفا (١) .

أما بيزا فانها ثابرت منذ زمن مبكر على اتباع سياسة جبلية (الجبليون : اسم أطلق في ايطاليا على أنصار الأباطرة الرومان الجرمانيين ، في مقابل الجولفيين انصار البابوات واستقلال ايطاليا - المترجم) ، ولم تكن هذه بالتأكيد هي الطريقة الملائمة للحصول على منافع من مانويل . ففي أواخر عام ١١٦١ وصل سفيران من هذه الجمهورية ، هما كوكو جريفي Cocco Griffi ورائيري بوتاكشى Ranieri Bottacci الى بلاط مانويل لعقد معاهدة جديدة . ووضع مانويل شرطا مسبقا أنه في حالة قيام حرب بين آل هوهنشتاوفن والامبراطورية اليونانية تتعهد بيزا بأن ترفض للأولين كل مساعدة ، أدبية كانت أو مادية . ولكي يحمل السفيرين على قبول هذا الشرط ، استخدم حجته المعتادة ، وهى الوعد بتقديم اعانات مالية ضخمة . ولما كانت بيزا عازمة على أن تبقى مخلصه للعلم الجبلى ، مهما كان الأمر ، فانها رفضت هذا الشرط ، وتوقفت المفاوضات عند هذا الحد (٢) . وانتهاز السفيران فرصة اقامتهما طويلا في القسطنطينية فعملا على تنفيذ مرسوم للقناصل البيزيين صدر في عام ١١٦٠ (٣) ، وينص على أن كل الرسوم التي تدفعها السفن التي ترسو عند الأرصفة البيزية ، والضرائب التي تحصل على استعمال الموازين والمكاييل

(١) لم يعرض سولي هذه التعليمات الا بكيفية ناقصة : Sauli, 1. c. p. 183-188.

(٢) Marang, Annal Pis, p. 246 et s.

— عاد بوتاكشى الى وطنه في ٢٩ من يولية ١١٦٢ ، وعاد كوكو جريفي في ٢٢ من يولية

١١٦٣ .

Doc. sulle relaz. tosc. p. 8. et s., 10.

(٣)

التي تملكها الجالية ، وإيجار المنازل الممنوحة للمستعمرة ، والمبالغ المخصصة لمؤسسات خيرية ، الخ ، وباختصار كل إيرادات المستعمرة البيزنية يجب أن تسلم لصندوق كاتدرائية بيزا في القسطنطينية ، فضلا على ذلك لا يمكن بيع كنوز كنيسة بيزا في القسطنطينية ، أو رهنها أو استعمالها في أغراض ذات نفع عام دون ترخيص الوكيل المفوض بالكاتدرائية . وهكذا فنقل الثروة التي تملكها المستعمرة من إدارة علمانية الى إدارة كنسية كان المقصود على ما يبدو بوضوح جعلها في مأمن من مشروعات الامبراطور الذي كان الجميع يخشون جشعه واستبداده ، وثبت بعد قليل أن هذا الاجراء كان ثمرة بصيرة حكيمة : ذلك أن استافورتي Astaforte سمير الامبراطور أوقع باللاتينيين كل ضروب الكيد والأذى ، ووصلت جرأته الى حد مصادرة مبلغ من المال كان بيزي قد حصل عليه بموجب وصية لصالح بعض أعمال البر . وفي العصر نفسه نقل مانويل بالقوة الى البيزيين الى خارج المدينة ، ولم تزل بواعث هذا العمل مجهولة (١) ، فهل كانت راجعة الى الخلاف السياسي الذي ظهر واضحا بعد بعثة عام ١١٦١ ؟ أم بسبب العداء الذي أبداه البيزيون ضد الجالية الجنوبية الصغيرة ، ثم تحول في الفترة الأخيرة الى عنف مكشوف ؟ أم لعل هذا الاجراء كان تنفيذا لأحد مشروعات الامبراطور ، يتغيا تطهير العاصمة من العناصر الأجنبية (٢) التي كانت متأهبة دوما للتآمر مع الأعداء الخارجين ، الأمر الذي يمثل خطرا مستمرا على الأمن العام ؟ وفي رأينا أن الباعث الأخير هو الصحيح ، إذ أراد الامبراطور في عام ١١٦٩ أن يخرج الجنوبيين من المدينة . ولسنا نملك عناصر تحدد لنا تاريخ طرد البيزيين ، ولكن لنا أن نؤكد أن الأمر لم يكن يتعلق بطردهم من الامبراطورية كما يزعم ماران Marin (٣) ، وانما اكتفى مانويل بطردهم من الحى الذي كانوا يشغلونه داخل المدينة ، وتخصيص حى آخر لهم ، أقل ملائمة لهم بطبيعة الحال ، ويقع على الضفة المقابلة من البسفور (ربما من ناحية سكودارى ، أو غلطة) ، وهذا هو كل شيء . ثم ان هذا النفي لم يكن طويلا الأمد . ولكى تستعيد بيزا رضاء الامبراطور ، بعثت اليه في شهر نوفمبر ١١٦٨ القنصل البرتوس بولسى Abbertus Bulsi ، والفقيه المشهور بورجنديوس Burgundius (٤) ، والكونت ماركوس Marcus وذهب الثلاثة أولا الى راجوزة Raguse (*) حيث مضوا في ١٣ من مايو ١١٦٩ معاهدة بين المدينتين (٥) ، وقضوا بالقسطنطينية عام ١١٧٠ كله ، وبهذا

Doc. sulle relax tosc. p. 54.

(١)

Benj. de Tudèl, I, ٤5.

(٢) نفى كذلك اليهود الى بيرا ، انظر :

Storia del commercio dei Veneziani, III, 118.

(٣)

(٤) بخصوص هذه الشخصية انظر :

Savigny, Gesch des R. Rechtes im Mittelater, 2e éd. IV, 394-410.

(*) (راجوزة مدينة بيوغسلافيا ، وهي الآن دبرونك - المترجم)

Monumenta spectantia historiam Slavorum meridionalium (éd. Liubie). Zagrab. 1868, I, p. 10.

(٥)

العام أرخ الاتفاق الذى عقده مع مانويل ، ثم عادوا الى وطنهم فى ٩ من نوفمبر ١١٧١ ، واستصحبوا معهم فى عودتهم ثلاثة سفراء يونانيين مكلفين بتسوية كل التفاصيل (١) . ومال الامبراطور الى التساهل ، ورخص للبيزنطيين باستعادة الأماكن التى كانوا يشغلونها فى القسطنطينية ، وعلى العكس من ذلك كان على قنصلية بيزا أن يقسموا يمين الولاء له ، ويتعهدوا بأن يعتبروا لاغيا وكأن لم يكن كل التزام تعقده الجمهورية نحو أى أشخاص ، متوجين أو غير متوجين ، اذا كان الالتزام يتعارض مع هذا القسم (٢) . ووعد الامبراطور ، فضلا عن ذلك بتحسين حالة الأرصفة المخصصة للبيزنطيين ، وتسليم المدينة ورئيس أساقفتها الهدايا التى نصت عليها المعاهدات ، وكانت محتجزة منذ خمس عشرة سنة (٣) . ويبدو أن السفراء اليونانيين قد عادوا الى القسطنطينية فى بداية عام ١١٧٢ ومعهم المعاهدة مصدقا عليها من سلطات بيزا ، والغالب أن البيزنطيين حصلوا آنئذ على التصريح بعودتهم الى حيزهم القديم .

ولم يهتم الامبراطور فى هذه الأثناء مشروعاته الخاصة بإيطاليا ، وضاعف جهوده للتقدم فيها ، ولكنه كان يصطدم بعقبات فى كل الاتجاهات . لقد استطاع فى عدد كبير من المدن أن يضم الى قضيته بعض الأفراد (٤) ، الا أن الأغلبية أبدت عدم استعدادها للتمرد على امبراطور ألمانيا والوقوع فى حبال الامبراطور اليونانى . وكانت أنكونا وحدها هى التى شذت من هذه الظاهرة : فمنذ أن أعاد مانويل الاستيلاء على كورفو ، فكر فى أن يجعلها مركزا للأسلحة والعمليات الحربية . ولم يقل المؤرخ كيناموس الذى ذكر هذه المعلومة شيئا عن السبب فى فشل المشروع ، هل كان ذلك بسبب عجز القائد اليونانى المكلف بالتنفيذ ، أو بتأثير البنادقة سرا (٥) . وبعد مضى بضع سنين ، نظم مانويل فى أنكونا مركزا للتعبئة من أجل حربه ضد النورمان . غير أن عملاءه لم يكتفوا بجمع قوات من المرتزقة ، ولكنهم كلفوا بوجوازى ثغر أنكونا وسادتها بالعمل فى هذا السبيل : واعتزم مانويل أن يعيد فى حالة نجاحه تنظيم اكسرخسية ، (حكومة عسكرية بيزنطية - المترجم) ، أنكونا ، فيستطيع بهذه الوسيلة أن

(١) Marang. Annal Pis p. 262, ad an. 1172 (more Pisano), Ind. 5 (commencant au 24 Sept. 1171).

(٢) بلغنا نص هذه المعاهدة مدمجة فى وثيقة لاحقة للامبراطور اسحق ، وقد نشر النص

باليونانية ميكولوسش ومولر Acta graeca, III, 13 et s.) وباللاتينية (Dal Borgo, pp. 155 et s.) (les doc. sull relaz. tox p. 45, 54)

وباللغتين فى :

Marank. op. c.

(٣)

Nicét, p. 262.

(٤)

Cinnam. p. 102.

(٥)

يهزم البندقية ويذلها ، فهو لم ينس مما أنزلت به من ذل واهانة أمام كورفو (١) (*) كذلك لم يكن البنادقة من ناحيتهم يجهلون الأخطار التي تحيق بحريتهم السياسية وتفوقهم التجاري في البحر الأدرياتي (٢) اذا نجح اليونانيون في توطيد أقدامهم في هذه المنطقة واحياء تجارة انكونا ، وكانوا من جهة أخرى يحققون على الامبراطور بسبب منحه الجنويين أحياء تجارية ومزايا ، وهم منافسوه في أسواق الشرق الأدنى . وأخذت وشائج الصداقة القديمة التي كانت تربط البندقية بالامبراطورية اليونانية تتراخى يوما بعد يوم ، ولم يبق الا نقطة واحدة تتلاقى عندها مصالحهما المشتركة ، وكان هذا الأمر هو وحده الذي منع انقطاع العلاقات : فالواقع أن البندقية كانت عضوا من أشد أعضاء اتحاد المدن للمباردية حماسة ، وكانت تعمل بكل قوتها ، كما يعمل الامبراطور اليوناني على طرد الامبراطور فردريك بارباروسا من ايطاليا . ويبدو أنها هي التي كانت تتفاوض مع الامبراطور اليوناني لكي يقر الاعانات المالية التي تمر عن طريقها للاتفاق على كفاح المبارديين ضد آل هوهنشتاوفن (٣) . ومن الصعب تحديد السبب الذي أدى الى انقطاع العلاقات بصورة نهائية (٤) . وثمة سجل تاريخي حرر بعد مرور خمسين سنة على هذه الأحداث *l'Historia ducum Veneticorum* يذكر عدة بواعث اسهمت في هذا الانقطاع : فقد تكون الغيرة ، والغضب ، والخوف قد أثرت في نفس مانويل ، الغيرة من الثروات التي يملكها البنادقة ، والغضب لرفضهم التآلف الذي عرضه عليهم ، وأخيرا الخوف من نشاطهم وقدرتهم (٥) . ويبدو أن المؤرخ ، عند ذكره الباعث الثاني ، قد أخذ في اعتباره الأحداث التي رواها داندولو *Dandolo* فيما بعد وبمزيد من التفاصيل (٦) . يقول هذا الكاتب ان مانويل وعد ملك صقلية الشاب أن يزوجه ابنته ، ثم رجع بعد ذلك فيما وعد به (٧) ، واذا توقع أن تؤدي هذه الاهانة الى نشوب حرب بينهما ، فانه جعل يجس نبض البنادقة ليعرف ما اذا كانوا في هذه الحالة ينحازون اليه ، فكان جواب البنادقة عليه

(١) * (اكسرخسية ، حكومة عسكرية بيزنطية - المترجم)

Cinnam, p. 170; Sudendorf, Registrum, II, 131 et ss.; Annal. Colon. max. dans Pertz SS. XVII, 767; Epist. Frederici I, dans Otto Fris., ibid. XX 348 et s. ; Rogevinus, ibid. 428.

(٢) على الضفة الشرقية من البحر الادرياتي انجازت سبالاتو ، وتراو ، وراجوزة الى مانويل ، كما أن زارا ثارت على البندقية .

Cinnam, p. 228-231; Vignati, Storia dipl. della lega lombarda, (٣) p. 145; cf. Prutz, Friedrich I, I, 354; II, 100 et s., 373.

Dand. p. 292-294; Appendini, Notizie sulle antichità dei Ragusei, (٤) I, 267.

Mon. Germ. SS. XIV, 78. (٥)

Murat, SS. XII, 291. (٦)

Romuald . Salern, dans Pertz, SS. XIX, 436, 439 et Nicét, p. 221 et s. (٧)

بالنفي . غير أن مؤرخا آخر جديرا بكل الثقة ، وهو روموالد دى ساليرن Romuald de Salerne يجعل هذه الواقعة فى عام ١١٧٢ أى عاما بعد وقوع الكارثة التى جلبت على البنادقة غضب مانويل . وعلى ذلك فليس فى وسعنا أن نقبل الباعث الذى قدمه واندولو دون أن نصادف مصاعب تتعلق بتاريخ الأحداث . ومع ذلك فليس هذا سببا يدعو الى ما أشارت Veneticorum l'Historia ducum فربما كان فى ذهن الكاتب اقتراح آخر بالتحالف ، ومن الأسف أنه لم يذكر القصد بمزيد من الايضاح . ومن بين المؤرخين اليونانيين ينسب نيكتاس الخطأ كله الى غطرسة البنادقة التى لم يعد مانويل يحتملها ، ولكنه لا يذكر أية واقعة ايجابية على أنها الباعث على انقطاع العلاقات (١) . وعلى العكس من ذلك يروى كيناموس الأمور على الوجه الآتى ، فيقول ان البنادقة المقيمين بالقسطنطينية أساءوا جهازا معاملة اللومبارديين ، وهو يقصد بهذه التسمية دون شك الجنوبيين (٢) ، وذلك بدعوى أن هؤلاء نقضوا معاهدات التحالف القديمة ، فدمروا منازلهم تدميرا ، وأنزلوا بهم خسائر لا تعد ولا تحصى ، ومن ثم حملهم الامبراطور مسئولية اصلاح الأضرار التى أوقعوها ، وحكم عليهم باعادة بناء منازل اللومبارديين ، وتعويضهم عن الخسائر التى حدثت نتيجة لأفعالهم . ولكن البنادقة لم ينصاعوا لهذا الحكم ، بل انهم هددوا اليونانيين بغارة كذلك الغارة التى راح ضحيتها الامبراطور يوجنا . وكان هذا أمرا فوق ما يمكن احتماله ، ولم يكن ثمة مجال للتردد ، وهذا ما استقر عليه رأى مانويل ، ومن ثم اعتقلهم جميعا فى يوم واحد . هذه الرواية تعتمد على وقائع تاريخية : ففي الفترة التى نتحدث عنها وقعت غارة على الجنوبيين فى حينهم ، وكان هذا الحى ، كما عرفنا من البيان الذى سلم للسفير الجنوى جريبالدو (١١٧٤) هو نفس الحى الذى منحوه قبل ذلك بوقت قليل (بمقتضى « مرسوم ذهبى » صادر فى شهر أبريل ١١٧٠) فى منطقة كوباريا Coparia . وألقى مانويل مسئولية هذا الفعل على البنادقة فصادر كل ما فى حوزتهم من أموال (٣) . ومع ذلك ففى جنوا ، لم يتهم الأهالى البنادقة بارتكاب هذه الأفعال (٤) . أما من ناحية الامبراطور ، فان الاتهام الذى وجه ضدهم ، والعقوبة التى وقعت عليهم ، لم يكونا سوى تمهيد للأعمال العدوانية التى نحاول أن نعرف سببها . وليس ثمة شاهد واحد ممن استشهدنا بهم يؤيد رواية كيناموس ، فهو من بين كل المؤرخين المعاصرين الوحيد الذى يتحدث عن غارة قام بها البنادقة على حى الجنوبيين فى

Nicét. p. 222 et s.

(١)

(٢) يستخدم كيناموس كلمة « لومبارديون » كمرادف للجنوبيين ، راجع صفحة ١٠ .

Sauli, op. c. II, 185.

(٣)

Sauli, op. c.

(٤)

القسطنطينية (١) . ويبدو لنا أنه من الأوفق أن نتمشى مع بيانات ال
Historia ducum Venetiorum (٢) ونبحث عن السبب في غضب
مانويل ، وخيبة الأمل التي انتابته حين جس مشاعر « الولاية » عن طريق بعض
الوسطاء فاصطدم برفض مطلق لسياسته في إيطاليا ، بل وعزم ثابت على
مناهضة هذه السياسة إذا صمم على تثبيت أقدامه نهائيا على الضفة اليسرى
من البحر الأدرياتي وبخاصة أن يتخذ مدينة أنكونا نقطة ارتكاز له . ولعلنا
نضيف الى هذا السبب أن منظر الثروات الضخمة التي جمعها بنادقة
القسطنطينية قد أثارت جشعه (٣) إذ أنه كان في حاجة الى الكثير من المال ليوصل
الحروب التي تورط فيها ، والانفاق على أساليب الرشوة التي كان يستخدمها
بسخاء ، وضروب البذخ التي يمارسها . ورغم الأعباء التي كان يشغل بها كاهل
رعينه ، فان خزانة الدولة لم تكن كافية للوفاء بمطالبه (٤) . وشعر الدوق
ميشيل الثاني Michel II - الذي كان يتولى الحكم وقتئذ - بالخطر الذي
يتهدد مواطنيه ، فمنع بوجه عام الرحلات الى رومانيا (٥) . وردا على هذا الخطر ،
أرسل مانويل بعثة وكلفها بدعوة البنادقة الى العودة كما حدث في الماضي ، ضمن
لهم السفراء أمنا تاما على أموالهم ، كالأمن الذي يتمتعون به في بلدهم ،
وأضافوا أن في عزم الامبراطور أن يمنحهم امتيازا مطلقا بممارسة التجارة في
كل أنحاء الامبراطورية . فوقع الدوق في الفخ ، وأذن لمواطنيه بالعودة الى
رومانيا ، بل وأمرهم بذلك . وسافر عشرون ألف شخص مزودين بأموال كثيرة ،
ومسلحين تسليحا جيدا ، وفي صحبتهم سفيران : سباستيانو زيانى ، وأوربو
ماستروبييترو . وجدد لهم مانويل تعهداته ، وضاعف لهم من آيات الصداقة
حتى يمحو الشكوك التي لم يستطع السفراء أنفسهم أن يبدوها . وفي هذه
الأثناء جشد قوات عسكرية كثيرة في المدينة ، وزود أسوارها وقصورها بمعدات
الدفاع . وحين أكمل استعداداته أصدر أمره بالقبض على كل البنادقة ومصادرة
أموالهم ، واحتجاز سفنهم : وكان ذلك في ١٢ من مارس عام ١١٧١ (٦) . ومن
القسطنطينية وحدها راح ١٠٠٠٠ من البنادقة ضحية هذا الاعتداء . ولما كانت
السجون غير كافية لاحتوائهم ، كان لابد من حبس جزء منهم في بعض الأديرة .
وصدر الأمر ذاته ليعم في الامبراطورية ، بل ونفذ في ذات يوم صددوره

Langer, op. cit., p. 171, note 3.

(١) انظر الشرح في :

Hist. ducum, Venet. 1, c.

(٢)

Hist. ducum, Venet. 1, c.

(٣)

Nicét p. 265 et ss.; Tafel, Komnenen und Normannen, p. 14 et ss.

(٤)

Dandolo, p. 291.

(٥) يقول داندولو أن هذا الخطر كان في عام ١١٦٨ :

(٦) كان هذا عيد القديس جريجوار :

Cronaca di Marco, Arch stor, ital, VIII, p. 260.

نفسه (١) ، وفى الميرو Almyro نجح عدد من البنادقة فى الهرب (٢) ، غير أن القليل هم الذين أتاحت لهم بالاجمال هذه الفرصة ، ولما لم يكن فى المستطاع ايواء المسجونين جميعا ، اضطر الامبراطور بعد بضعة أيام أن يطلق سراح عدد منهم بكفالة . وأبحر الكثير من هؤلاء ، ومعظمهم من العزاب ، وعلى متن سفينة كبيرة من سفن البحرية الامبراطورية ، وضعت بربانها تحت تصرفهم ، والربان بندقى الأصل ، وأقلعت السفينة مع ريج مواتية . وطوردت السفينة ، ولكنها استطاعت الافلات من القذائف والنييران اليونانية ، فلم يصبها ضرر (٣) .

كان مانويل يتمتع بخليط غير عادى من الشجاعة العسكرية التى لا شك فيها ، والمكر والخداع اللذين حلا عند الرومان ذوى الأخلاق المخلّة محلّ المسألة الزائلة : ولم يعلم البنادقة ذلك الا بعد فوات الأوان ، وفى غير صالحهم . وفى البندقية كان الرعب أول انطباع لهذا العمل فى نفوس الأهالى ، وكانت أول فكرة طرأت لهم أن يرسلوا سفراء يطلبون من الامبراطور تفسيراً عن تصرفه العجيب ، الا أنه عند وصول الهاربين من الميرو ، وحين علم الأهالى بغدر الامبراطور ، وما حل بضحاياه من مصائب ، تغلبت فى نفوسهم الرغبة فى الانتقام على سائر المشاعر ، ونسوا فكرة ارسال وفد ، وأصبحت الحرب ضالّتهم المنشودة . وفى بضعة أيام تم تجهيز مائة سفينة حربية جديدة وعشرين ناقلة ، وصدر الأمر الى كل الغائبين بالعودة الى البندقية قبل نهاية شهر أغسطس للاشتراك فى الحملة ، وعلى سكان استريا ودالماسيا أن ينضموا الى الحملة فى منتصف الطريق . وأقلع الأسطول فى أواخر شهر سبتمبر تحت قيادة الدوق نفسه ، وخرب فى طريقه شواطئ اليونان وجزره ، ولكن ما أن وصل الى جزيرة نجروبونت (ابوية - ايفيا حاليا - المترجم) حتى توقف فجأة : فقد تراخى الدوق ، واستمع مرة أخرى الى اليونانيين ، وعاد أسلوب المفاوضات معهم . وأمضى الجيش الشتاء فى جزيرة خيو ، وهناك أصاب صفوف الجيش وباء أهلك خلقا كثيرا ، ولم يعرف سبب الوباء ، وشاع أن الامبراطور سمم ينابيع الماء والنبيد . ونقل المعسكر مرارا الى جهات أخرى ، ورغم كل ما بذل فى هذا الشأن من علاج ، كان عدد ضحايا الوباء يزداد يوما بعد يوم ، ولم يعد الجيش قادرا على المقاومة بعد أن ضعف جنده ، وطوقه أسطول العدو .

(١) Annal Venet, breves, Mon. Germ, SS, XIV, 72 l'hist duc, 1. c. p. 78

et s.; Mort da Canale, p. 312; la Cronaca di Marco, 1. 1. c.; Dandolo, p. 293; Cinnam, p. 282; Nicét, p. 223.

Hist, duc. Venet p. 79.

(٢)

Cinnam, p. 283; Nicét, p. 223; Taf, et Thom, I, 168.

(٣)

وأخيرا ، وبعد عيد القيامة عام ١١٧٢ ، قر العزم على العودة الى البندقية (١) . وهكذا بدأت هذه الحملة بحماسة ، وبدت وكأنها سوف تلتهم كل شيء ، وشنت العديد من الغارات ، ومارست الكثير من أعمال التخريب على طول الشواطئ (٢) ، ولكنها بالاجمال انتهت دون أن تنجز عملا حاسما ، ودون أن تجبر الامبراطور على ارضاء البنادقة ، وأن يرد لهم حق الانتفاع بأحيائهم وسائر أموالهم . ولم يصل السفراء الذين بعثهم الدوج مرتين الى القسطنطينية الى أية نتيجة . وثرثرت الامبراطور أولا ، وترك الأمور تأخذ مجراها ببطء . غير أنه عندما راح الوباء يشتت صفوف أعدائه ، لم يبد عليه أى استعداد لتوقيع معاهدة شبيهة بالتى كانوا يطالبونه بها ، بل انه تحول الى التهديد ، ولم يعد يتحدث فى شيء خلاف ايقاع الهزيمة المنكرة بالبنادقة .

يقول المؤرخ ماركو (٣) ، انه ما أن عاد الدوق الى البندقية الذى قامت هذه الحملة التوسع بناء على أمره حتى بدأ يعد العدة لتسليحات جديدة ، ولكن مانويل جعل هذه التسليحات عديمة الجدوى بأن أطلق مسراح كل البنادقة المسجونين . ورغم أن ماركو كتب ما كتبه بعد انقضاء مائة سنة على هذه الأحداث ، فانه كان يملك بوجه عام معلومات وافية ، ولكنه اقترف خطأ فى هذا الخصوص . فأولا ، اغتيل الدوق المشار اليه بعد عودته (فى مايو ١١٧٢) دون أن يتاح له وقت للتفكير فى شن حملة ثانية ، وثانيا ، لم يتعجل مانويل كثيرا فى اطلاق مسراح أسراه ، بل انقضت عدة سنوات فى مفاوضات عقيدة (٤) ، وظلت تجارة البندقية مع بيزنطية متقطعة زمنا طويلا (٥) . ولا بد من التسليم بأن السياسة التى اتبعها البنادقة طوال هذا الوقت لم تكن ملائمة لأن تقربهم من الامبراطور . ولم يقنع البنادقة بدفع العرب الى محاربة الامبراطور (٦) ، ولكنهم أمدوا كريستيان ، رئيس أساقفة ماينس ، ومستشار فردريك الاول بالتعزيزات اللازمة لحصار مدينة أنكونا التى كانت نصف يونانية (٧) . ولكن

(١) Hist. duc. Venet. p. 79 et s.; la Cronica di Marco, p. 260 et s.; Dandolo, p. 293-296; Cinnam, p. 283-286; Nicétas, p. 224 et s.

(٢) كان الهدف من احدى هذه الغارات مدينة الميرو ، واحترقت فيها سفينة للجنوبيين الذين كانوا يدافعون عن المدينة ، وكانت هذه الواقعة من الأسباب التى حدت بهم الى مطالبة مانويل بتعويضات عن طريق جريمالدى : (Sauli, II, 185).

Archiv. stor. ital VIII, 261.

(٣)

Hist. duc. Venet. p. 81 ; Dandolo, p. 298 et s.

(٤)

Hist duc. Venet. p. 81.

(٥)

Cinnam, p. 286.

(٦)

Romuald, Salern. p. 441; Hist duc. Venet. p. 81 et s.; Buoncompagni, (٧)

De obsidione Anconae, dans Murat, ss. VI, 929 et ss. Cinnam, p. 288 et s.; Taf, et Thom, I., 160.

هكذا المشروع أخفق بالفعل . وفي هذه الأثناء كانت العثات تروح وتجيء بين البندقية والقسطنطينية (١) : وأخيرا تعب البنادقة من التفاوض مع خصم يتهرب باستمرار ، فتحالفوا ضده مع وليم الثاني ملك صقلية (١١٧٥) . ونحن اذا نظرنا الى نص المعاهدة بمعناها الحرفي ، نجد أنها لا تحتوى فى الظاهر الا على بنود تتعلق بالتجارة ، وضمانات متبادلة بشأن الملكيات الاقليمية ، ومواطنى كل من الدولتين ولكن بامعان النظر فيها ، نكتشف فى النص سلاحا موجهها ضد مانويل ، يتمثل فى حرمان أنصار الأمبراطور اليونانى من كل المزايا المنصوص عليها (٢) . ولم يخطئ الامبراطور لحظة فى فهم مدلول هذا التحالف ، وفى الوقت نفسه طرد الدوق كل سفرائه (٣) . ولم يكن الامبراطور يخشى شيئا كخشيتته من تحالف الدول الغربية ضده (٤) ، ولذلك رأى من الحكمة أن يستسلم ، فأعاد الى البنادقة الحقوق التى كان قد منحها اياهم فى الوقت الذى جعلهم فى طبقة ال *burgenses* ووضعهم هذا الاجراء الجديد على قدم المساواة مع اليونانيين ، وأصدر مرسوما باطلاق سراح الأسرى ، وأن ترد لهم الخزانة أموالهم التى صودرت . ونيكتاس هو الكاتب الوحيد الذى يذكر هذا الصلح الذى تم بين مانويل والبنادقة (٥) . والغريب أنه يبدو أن داندولو لم يعلم شيئا عن هذا الخصوص ، بل يقول ان أسرى مانويل لم يطلق سراحهم الا فى عهد اندرونيكوس (١١٨٢ - ١١٨٥) تحت الحجاج الدوق ، وان هذا الامبراطور وعدهم بتعويض يصرف اليهم على أقساط سنوية (٦) . الا أن داندولو جاء فى زمن لاحق لنيكتاس ، فهو ليس جدير بالثقة التى يستحقها الأخير ، ولهذا السبب أيضا أخذ ماران *Marin* ورومانين *Romanin* برواية الأخير (٧)

ومع ذلك حين تفكر فى كل الخلافات التى جرت ، ليس فقط بين مانويل والبنادقة ، ولكن أيضا بينه وبين سائر الأمم التجارية ، ندهش من أن رعاياه اليونانيين كانوا يعتبرون عليه بالذات ميله المفرط الى اللاتينيين . والواقع كان فى خدمته على الدوام عدد كبير من هؤلاء ، وكان يأوى عنده المنفيين ، ويجد

(١) Streit, Venedig und die Wendung des vierten Kreuzzugs gegen

Costantinopel, p. 40 et s. not. 118.

Taf. et Thom. I, 173; cf. Dandolo, p. 301.

Dandolo, p. 301.

Nicét. p. 260.

Nicét. p. 225 et s.; Taf. et Thom. I, 207, 210.

Dandolo, p. 309.

Marin, III, 166 et s.; Romanin, 11, 118.

المتنكرون عنده الحفاوة والحماية ، والتأييد لمؤامراتهم (١) . وإذا كان قد أقام العراقيين أمام الحركة التي تجذب تجار الغرب الى امبراطوريته ، فان هذا لم يكن عنده مسألة مبدأ . ويقول نيكتاس بحق انه دعاهم الى المجيء وسعى الى استخدامهم بوسائل بارعة (٢) : هذا صحيح ، الا أن المشروعات الطموحة التي كان يخفيها وراء ما يبديه لهم من مودة ومجاملة ، والقيود غير المحتملة التي وضعها على حرية المستوطنين استتارت سخطهم ، وأدت في الكثير من الأحيان الى انقطاع العلاقات التجارية . ثم ان المدن التجارية الرئيسية في ايطاليا كانت تدين له بأمالك استعمارية كبيرة ، وزاد عدد الايطاليين المقيمين في اليونان في عهده زيادة كبيرة . ويقدر اوستات Eustathe عدد اللاتينيين المقيمين بالقسطنطينية في حوالى عام ١١٨٠ (عام وفاته) بأكثر من ٦٠.٠٠٠ شخص (٣) . ويمكن التسليم بأن هؤلاء اللاتينيين كانوا كلهم تقريباً من الايطاليين ، وأن عدد البنادقة يفوق كثيراً عدد البيزيين والجنوئين ، وفي الحشد المختلط الذى يملأ عاصمة الامبراطورية ، كان هؤلاء الألوف من اللاتينيين على صلة بتجار قادمين من الكثير من مختلف البلاد . وقد وصف بنيامين دى توديل (٥) الذى زار القسطنطينية في عصر مانويل الحركة التجارية وصفا بارعا ، ولم يعرف سوى بغداد ، مدينة يمكن أن تنافس القسطنطينية في هذا المجال ، ويقول ان المرأ يصادف هناك تجارا من بابل ، وبلاد ما بين النهرين ، وميديا ، وفارس ، ومصر ، وفلسطين ، وروسيا . وهنغاريا . وبلاد الييتشينج Petchenegues أو Patginaguie (*) ، وبلغاريا (٦) ، ولبارديا ، وأسبانيا ، وثمة مصادر أخرى تتيح لنا تكملة هذا التعداد : فهناك الأرمن (٧) المقيمون بأعداد كبيرة في القسطنطينية ، ويزاولون بها التجارة التي يبدو أنها مهنة شعبهم ، ويذكر الكثير من الفقرات صراحة أن «بيرى» Ibères مضيق القوقاز كانوا يذهبون

(١) Guill de Tyr, XXII, 10; Eustathe, Oraison funèbre de Manuel, dans ses Opuscules, éd. Tafel, p. 200, et dans Tafel, Komn. und Normann p. 15, 16; Nicét. p. 266-268. Robert Antissiod., dans les Monè Germ. ss. XXVI, 247.

Nicét. p. 260. (٢)

Opusc, p. 275 ; Tafel, Komnen, und Normann, p. 98. (٣)

(٤) نجد ٢٠.٠٠٠ بندقى يلبنون دعوة مانويل ، و ١٠٠٠ بيزى (فى عام ١١٦٢) يهاجمون متاجر الجنوئين ، و ٣٠٠ جنوى فقط يدافعون عنها .

Ed. Asher, I, ٤١. (٥)

Tafel : De Thessalonica ejusque agro, p. 509. (٦)

Anne Comnène, éd. Bonn. II, p. 3; Nicét. p. 527. (٧)

كثيرا الى القسطنطينية لأعمال تجارية (١) . وكثيرا ما شاهدوا هناك تجار من الترك واليونانيين قادمين من حدود ولايات سلطان قونية (Iconium) (٢)

وكان اللاتينيون يشكلون بتعدادهم الكبير النواة الأساسية لهذا الحشد المختلط ، لذلك راحوا يؤدون هناك بالتدريج دورا ممتازا . وبعد وفاة مانويل (فى ٢٤ من سبتمبر عام ١١٨٠) تولت أرملته مع نديمه « بروتوسيباست » الكسيوس الحكم باسم الامبراطور الكسيوس الذى كان وقتئذ قاصرا ، فأساءا التصرف حتى كرههما الشعب ، وكانا قد ورثا عن مانويل ايثاره اللاتينيين ، وأجبرتاهما العزلة التى ما لبثت أن أحاطت بهما أن يلتمساعون الأجانب (٣) أما الوطنيون فانهم لجأوا الى اندرونيقوس andronic الذى تشجع بهم فدير ثورة فى عام ١١٨٢ وزحف على العاصمة . وأعد البروتوسيباست الكسيوس جيشا لصدده ، وكان اللاتينيون أهم عنصر فى هذا الجيش ، أغرتهم الرواتب الكبيرة ، أو على الأقل كان هذا الخبر الذى ذاع بين اليونانيين ، ووعد الكسيوس بأن يسمح لهم بنهب العاصمة واسترقاق اليونانيين (٤) .

ولم يلبث اليونانيون أن هجروا المدينة بجمعهم . أما اللاتينيون فقد حاصروهم من ناحية جيش اندرونيقوس ، ومن ناحية أخرى أنصاره الذين بقوا فى المدينة ، فانهزموا أمام الأعداء المتفوقين عليهم عددا (ربيع ١١٨٢) . وانصب حقد اليونانيين على كل الغربيين ، وأعقب ذلك بمذبحة مرعبة لم يسلم منها النساء والأطفال ، ولا المرضى فى مستشفى فرسان القديس يوحنا (٥) ، وانطلقت أعنة الأحقاد الدينية ، فعومل القساوسة ورجال الدين معاملة وحشية ، وبيع عدد كبير من اللاتينيين بيع الرقيق الى الكفار ، واستطاع ٤٠٠٠ منهم بعد ذلك أن يشتروا حريتهم ، أما منازلهم التى كانوا قد كدسوا فيها ثروات هائلة ، فانها نهبت ، وأحرقت الكنائس التى احتفى بداخلها الكثير ، وأحياء كاملة صارت رمادا (٦) . ويبدو أن القسم المسالم من السكان هو الذى كان به أكبر عدد من الضحايا ، واستطاع الكثير من الناس أن يهربوا ويركبوا

Nicét. p. 303, 499.

(١)

Nicét. p. 653 et s.

(٢)

Gull, de Tyr, XXII, 6, 10, 11 ; Eustathe, Opusc, ed. Tafel, p. 275.

(٣)

Nicét. p. 321; Eustathe, 1. c.

(٤)

Ducange, Cpol. christ lib. IV, p. 163, éd. Paris, et du même, annotations à l'oeuvre de Villehardouin, p. 302 et s.

(٥)

Guill. de Tyr, XXII, 12; Nicétas, p. 326.

(٦)

— لم يكن البيزيون وحدهم الذين أصيبوا ، فقد أصيب مثلهم الجنويون ، انظر :

— Tafel, Komnenen und Normannen, p. 117 ; Eustathe, Opusc, p. 280.

— وبلغت قيمة التعويضات التى طالبوا بها ٢٢٨٠٠٠ هيبير ، انظر : Miklosich et Muller, III, 27.

السفن . وامتلاً أربع وأربعون سفينة راسية في الميناء بالهاربين ، وتبعها بضعة سفن أخرى استطاعت أن تلحق الواحدة بعد الأخرى بمعظم الأسطول . ويؤكد « أوستاث » أن قذائف أطلقت على السفن ، ولكن يبدو أنه كان مخطئاً في ذلك . وينفى نيكتاس هذه الواقعة نفياً باتاً ، ويقول ان الفارين أمضوا ليلتهم أمام جزر الأمراء Princes ، ولم تقلع السفن الا في اليوم التالي بعد أن أشعل هؤلاء النار في بعض الأديرة . ويضيف وليم (من صور) أن الهاربين قد اتسع لهم الوقت والقدرة ليأخذوا بثأرهم بصورة أكمل مما قال بها نيكتاس . وكان أسطولهم قويا وكثير العدد فاستطاعوا أن ينهبوا ويدمروا ضفتي البسفور وبحر بروبنس (مرمرة حالياً - المترجم) دون أن يخسروا شيئا ، وقتلوا البورجوازيين ، والقساوسة ، والرهبان في المدن والأديرة القائمة على الساحل ، ونهبوا كنوز الأديرة ، والأشياء الثمينة التي وضعها هناك سكان القسطنطينية أثناء نشوب الحرب ، وبذلك عوضوا كثيرا من خسائرهم . ودلت السنة النيران التي ارتفعت من الأديرة المحترقة لسادة الإمبراطورية الجدد أن الانتقام لم يتأخر كثيرا (١) . ولما تمت هذه الأعمال ، أقبل الهاربون متجهين صوب سواحل الأرخبيل اليونانية ، ولم يكن ثمة ما يمنعهم من النزول حيثما شاءوا ، وممارسة اعتداءاتهم الرهيبة بكل ما يملكون من قوة ، ومضوا ينهبون ويدمرون حتى وصلوا الى تسالونيكي وتجاوزوها (٢) .

وفي هذه الأثناء ، كان اندرونيقوس قد وطد دعائم سلطته . ونحن اذا فكرنا أنه يدب بعلو مكانته الى رد فعل نصفه سياسي ونصفه ديني ، موجه ضد الأجانب (٣) ، وأن جريمة مانويل والكسينوس كانت في أعين اليونانيين أنهما أنعمتا بأكثر مما ينبغي على هؤلاء الأجانب ، فانا نجد من الصعب أن نقر مع داندولو أنه لكي يوطد هذا الإمبراطور مركزه على العرش ، أطلق سراح التجار الذين سجنهم مانويل ، ووعد البنادقة بتعويضات . وقد أوضحنا فيما قبل أن مانويل اتخذ الخطوات الأولى للوصول الى مصالحة . وعلى العكس من ذلك استهل النظام الجديد بفتنة خربت في خلالها أحياء التجار الإيطاليين في القسطنطينية . ومع ذلك لم يكن التخريب تاما ، وحتى في عهد اندرونيقوس

Guill. de Tyr, XXII, 13 : cf. Nicéas, 1. c.

(١)

Nicéas, 1. c. : Eustathe, Opux, éd. Tafel, p. 284; Tafel, Komnenen und Normannen, p. 127 et s.

(٢)

— يذكر Guill de Tyr أيضا سواحل تساليا . وثمة سفينة محملة بالفارين أقبلت في البحر المتوسط وسقطت في أيدي القرصان المصريين .

(٣) كان هذا أيضا هو الرأي السائد في الغرب ، انظر :

— Sigeberti Gemblac. contin. Agucinct, dans Pertz, ss. VI, p. 421 et s.; Rob. Altissiod., ibid. XXVI, 247.

بقى فى هذه الأحياء بعض الحياة • وتنبئنا بعض الاتفاقات الفردية المنعقدة فى سنتى ١١٨٣/١١٨٤ أن بعض البنادقة على الأقل كانوا يملكون عقارات فى القسطنطينية فى ذلك العصر (١) • غير أن معظم اللاتينيين هجروا مدينة عمها الفوضى والعسف دون رادع • ولم تقاس الأقاليم قدر ما قاسته العاصمة ، وبقى بها دون شك الكثير من التجار الأجانب الذين استشعروا بعض الجوانب الطبية من طبيعة اندرونيقوس : فالواقع أن هذا الأمير اكتسب شهرة هو جدير بها ، اذ تعقب بشدة لم تكن معروفة حتى ذلك الحين الموظفين الطغاة ، وغير النزهاء فى الجمارك والادارة المالية ، ودافع بقوة عن الممتلكات الأجنبية ضد حق الكسر والتعطيل •

ومع ذلك جلب هذا المقتصب على نفسه أعداء كثيرين حتى لم يعد فى الامكان التسليم بطول عهده فى الحكم • وبالإضافة الى اللاتينيين الذين هلكوا على يديه ، فان عددا كبيرا من اليونانيين ، وبخاصة فى صفوف النبلاء وكبار الموظفين كانوا يرغبون فى سقوطه • هؤلاء المتدمرون ، ومنهم بطبيعة الحال البيزنطيون والجنوبيون ، راحوا يستقصون آراء أمراء الشرق والغرب لينظموا حملة ضد طاغية بيزنطة (٢) • وثمة أمير واحد ، هو ملك صقلية قام بالفعل عام ١١٨٥ بإعداد حملة ضد الامبراطورية اليونانية ، وكانت هذه الحملة بالنسبة لليونانيين بمثابة انتقام ١١٨٢ (٣) ، ولكنها كانت عنده بمثابة تنفيذ لحظة فتوحات واصل القيام بها اسوة بأجداده : ولم يشترك فى هذه الحرب أية جمهورية من جمهوريات شمال ايطاليا التجارية • غير أنه حين أقبل النورمان وعسكروا أمام تسالونيك ، اتصل بهم اللاتينيون (اى التجار الايطاليون) وسهلوا لهم الاستيلاء على الموقع • وسوف نتحدث عن ذلك فيما بعد •

ومع أسرة انجيلوس الحاكمة ، بدأ عهد جديد أكثر ملاءمة للمستوطنات الايطالية فى الامبراطورية البيزنطية • ويبدو أن كلا الطرفين كان يشعر بالحاجة الى توثيق روابط الصداقة • وكان الامبراطور اسحق (١١٨٥ - ١١٩٥) يدرك تماما هذه الضرورة لأنه كان يتوقع دوما غزوا جديدا من ناحية النورمان أو حملة صليبية موجهة ضد الامبراطورية اليونانية ، ولم يكن كبير الثقة فى جيشه أو بحريته ، لذلك فحين وصل الى بلاطه أوتافيو كويرينى ، وبيترو ، وجيوفانى

(١) Taf. et Tom. I, 177; Flamin. Cornelius. Eccl. venet. III, 13.

(٢) Eustathe, Opux, p. 280 ; trad. par Tafel, dans Komnenen und Normannen, p. 117-119.

(٣) هذا هو رأى أوستاث (Opux, p. 275) فهو يعد نيكاس الكاتب الجدير بالثقة من جانب اليونانيين ، فى كل ما يتعلق بهذه الحرب • أما المفاوضات التى أدت الى عقد الصلح فى عام ١١٨٧ فقد تحدث عنها : — Rob. Altiss, 1. c. p. 253.

ميشيل (١) مبعوثين من قبل الدوج أوريو ماسترويتيرو ، استقبلهم كأصدقاء قدامى عائدین بعد خصام طويل ، وعقد معهم معاهدة تحالف ، هجوى ودفاعى ، كان أول نتائجها أن وضع تحت تصرفه أسطولان يستطيع أن يواجه بهما أى عدو . فقد نص فى المعاهدة على أن تقدم البندقية فى حالة الغزو أسطولا يضارع فى قوته قوة الأسطول اليونانى ، وتكفل الامبراطور بنفقات التسليح ، والتزويد بالرجال والعتاد ، كما يلتزم البنادقة المستوطنون بالامبراطورية اليونانية اما بالاشتراك فى الدفاع عن المدينة التى يقيمون بها ، أو الخدمة فى السفن المرسلة من البندقية ، أو فى سفن الامبراطور ، ويجب أن تستقل السفن ثلاثة رجال من كل أربعة ، ويعفى من ذلك فقط الأشخاص الذين يقل عمرهم عن عشرين سنة أو يزيد على الستين (٢) . فاذا تم الاستيلاء على بعض المدن فى خلال حرب مشتركة ، كان للبنادقة الحق فى أن يكون لهم فى كل مدينة كنيسة وحى ورصيف ، وحرية التجارة ، والاعفاء من الرسوم الجمركية . ولا يجوز للامبراطور أن يعقد صلحا دون أن يشمل الصلح البندقية . وصدق « اسحق » من جهته على المزايا التى منحها أسلافه للجمهورية بموجب مراسيم ، وتعهد برد كل الأموال التى صادرها مانويل من البنادقة فى ١٢ من مارس ١١٧١ ، ولا يقتصر الرد على أحيائهم ، بل يشمل كل أموالهم المنقولة ، سواء انتقلت الى أيدي الأفراد ، أو استخدمت فى تزيين القصور والأديرة ، أو سلمت للخزانة العامة (٣) . وفى حالات كثيرة لم يكن فى الامكان تنفيذ هذا الحكم لاستحالة معرفة مصير الأشياء . غير أن البنادقة عرفوا كيف يتصرفون حتى لا يضيع منهم شئ : فبدلا من الأشياء التى لم يكن من الممكن العثور عليها ، استولوا على الأحياء والأرصعة التى يشغلها الفرنسيون والألمان ، ويكفل هذا لهم دخلا سنويا يقدر بخمسين « هيببر » ، كما احتفظوا لأنفسهم بحق مقاضاة كل يونانى ثبت لهم أنه امتلك شيئا يخص أحد البنادقة فى عهد مانويل ولم يردده . وأخيرا حصلوا من اسحق على تعويضات مالية كبيرة . وقد وقعت معاهدة التحالف فى عام ١١٨٧ ، وعقدت الاتفاقيات الأخيرة فى شهر يونية عام ١١٨٩ بمعرفة السفراء

Dandolo, p. 313 ; Taf et Thom. I, 207.

(١)

(٢) يتخذ رومانن (Romanin, Storia di Venezia, II, 127, note 3) هذه الفقرة من المعاهدة أساسا لاحصاء عدد المستوطنين البنادقة فى الامبراطورية اليونانية ، ولكن منطلقة هذا غير صحيح ، لانه يذكر أن المستوطنين قد زدوا بالعتاد الأسطول كله الذى جهز فى البندقية (من ٤٠ الى ١٠٠ سفينة حربية ، بكل منها ٤٠ جديفا) ، فى حين أن الأسطول أقلع من البندقية بمعداته وأسلحته ، سفينة حربية ، بكل منها ٤٠ جديفا) ، فى حين أن الأسطول أقلع من البندقية بمعداته وأسلحته ، ولم يجهز المستوطنون الا بضع سفن .

(٣) كل ما سبق نجده فى الخطابات الثلاثة باعتماد الامتيازات الممنوحة من اسحق فى غضون

Taf, et Thom. I, 178-203.

شهر فبراير من عام ١١٧٨ . انظر :

أنفسهم ، وانضم اليهم سفيران آخران : بيترو كورنارو ، ودومنيكو ميمو (١) ،
الا أن الامبراطور لم يوافق عليها على ما يبدو الا بعد مفاوضات طويلة : فمن جهة
كان يشق عليه أن يلتزم بدفع مبالغ نقدية ، ومن جهة أخرى كان يتردد في
منح البنادقة أماكن أكثر في القسطنطينية ، لعلهم بمدى استهجان اليونانيين
لهذا العمل . ومع ذلك فإنه بدد وساوسه ، وبرر كربه هذا بأن البنادقة من
جنس وثيق الصلة بجنس اليونانيين ، وأنهم كانوا فيما مضى تابعين للامبراطورية
ومع ذلك كانت أمامه مشاكل محيرة : ذلك أن الممتلكات التي جرد منها الفرنسيين
والألمان دون اخطارهم مسبقا بذلك كانوا قد منحوها بمقتضى « مرسوم ذهبي »
امبراطوري ، فكان لا بد له من مبرر ، فتعلل بأن الامتيازات لم تمنح للفرنسيين
والألمان باعتبارهم هيئة تنتمي الى أمة ، وانما منحت لبعض الأفراد دون ارتباط
بوطنهم ، ومن ثم لم يكن التمتع بهذه الملكيات مكفولا لهم . وهكذا تم التغلب على
كل المضاعف لصالح البنادقة ، فلم يسترد هؤلاء حيهم القديم من الأفراد
والجماعات التي اقتسموها في أعقاب أحداث عام ١١٧١ فحسب ، ولكنهم
حصلوا أيضا على مواقع جديدة في المدينة .

وفي عام ١١٩٥ خلع اسحق من العرش ، خلعه أخوه الذي حكم باسم
الكسيوس الثالث Alexis III حتى الحملة الصليبية الرابعة . وفي البداية
كانت الجمهورية تأمل في أن تواصل معه العلاقات الطيبة التي كانت تقيمها مع
سلفه ، ولكن المفاوضات استغرقت معه زمنا طويلا دون نتيجة : فقد أرسل
الدوق واندولو الى القسطنطينية ثلاث سفارات (٢) وأرسل الكسيوس الى
البندقية سفارتين (٣) ، كل ذلك دون جدوى . وكان من العسير علينا أن نفهم
نوع المضاعف التي صاحبت هذه المفاوضات الكثيرة ، لولا الكشف الموفق الذي
وقع عليه لسيد أرمينجو M. Armingaud في « أرشيف فراري » Archivio dei Frari
تلك هي التعليمات (٤) المحررة لسفارة البندقية الثالثة المكونة من انريكو
نافيجايوزو ، وأندريا دونانو (٥) . وكان للكسيوس مصلحة تفوق مصلحة
سلفه اسحق في أن تتحلل البندقية من التزاماتها حيال مملكة صقلية
وامبراطورية ألمانيا ، ومن ثم ترتضى بكليتها في أحضان الامبراطورية اليونانية .
ولما بدأت المفاوضات كان الامبراطور هنري السادس يفكر في مشروعات كبيرة
بخصوص بيزنطة ، ولكنه توفي فجأة في عام ١١٩٧ .

Taf. et Thom. I, 206-211; cf. Dandolo, p. 314.

(١)

Dandolo, p. 318; Taf. et Thom. I, 249; Streit, op. cit., notes 185, 192

(٢)

Dand. 1. c.; Taf. et Thom. 1. c.

(٣)

Armingaud, Venise et le Bas-empire, dans les Archives des missions
scientif., 2e serie, IV, p. 426 et s., not.

(٤)

(٥) يبدو أن بنديتو جريلوني لم يلحق بهم الا فيما بعد .

Taf. et Thom. I, 199 et s.

(٦)

ولكن خليفته الملك فيليب السوابي ، صهر اسحق الامبراطور المخلوع من العرش ، وحما الأمير الكسيوس انجيلوس ، كان خصما لا يستهان به . أما البنادقة فانهم حريصين على الاحتفاظ بحرية التصرف : كانوا يريدون عقد تحالف مع بيزنطة ، ولكنهم لم يكونوا يريدون أن تسوء العلاقات بينهم وبين صقلية أو ألمانيا . وانتهى أمر السفيرين بييترو وميشيل ، واوثافيانو كويريني بأن يضعوا مع الكسيوس في ٢٧ من سبتمبر ١١٩٨ نصوص معاهدة (١) كانت بنوع ما نسخة مطابقة لمعاهدة التحالف الهجومي والدفاعي في عام ١١٨٧ ، فيما عدا أنهما نجحا في محو النص المتعلق بصقلية ، وكان الامبراطور مرتاحا الى هذا المحو لأن صقلية لم تعد وقتئذ مرهوبة الجانب ، بل انه على العكس من ذلك توصل الى اضافة نص تلتزم به الجمهورية بمعاملة ملك ألمانيا على أنه عدو اذا هو غزا رومانيا (٢) . ويقول داندولو (٣) أن السفراء لم يستطيعوا أن يحمّلوا الامبراطور على توقيع هذه المعاهدة الا بالتهديد بتأييد مطالبة الأمير الكسيوس انجيلوس بالعرش . ولم تنفذ هذه الفكرة الا ابان الحملة الصليبية الرابعة . وعلى أية حال لم تستخدم هذه الفكرة في تلك الآونة الا كوسيلة للضغط ، وعدلت عنها في المعاهدة لأنها التزمت أن تنحاز الى الامبراطور ضد الحامي الطبيعي للمطالب بالعرش . وشملت المعاهدة ، بخلاف تجديد الخلف الدفاعي والهجومي ، تصريحاً خاصاً لصالح البندقية ينص على الاعفاء من الرسوم على البضائع ، سواء كانت مصنوعة في الداخل أو مستوردة من الخارج ، ومهما كانت وسيلة النقل المستعملة ، مركبات أو دواب أو سفن ، وجاء في أعقاب هذا التصريح تعداد صادق ودقيق لكل ولايات الامبراطورية المفتوحة للتجارة ليقيموا فيها بجولاتهم التجارية . والواقع أن البنادقة كانوا يضادفون في بعض الولايات ، وخاصة في بعض الأقاليم التابعة للكنائس أو أديرة أو أملاك الدولة موظفين يدعون أن الاعفاء الممنوح لا يسرى على منطقتهم ، ومن ثم يرفضون عليهم ضرائب جزائية : ولذلك وضعت هذه القائمة درءاً لهذا الوضع السيئ . وكان لهذه القائمة فائدة كبيرة من الوجهة الجغرافية (٤) ، لأنها أكثر تفصيلاً من القائمة التي من نوعها الملحقة بمرسوم الكسيوس الأول لعام ١٠٨٢ والتي اقتصر على تعداد الموانئ والجزر أو المواقع التي يمكن الوصول اليها عن طريق

Ibid. I, 246 et ss. Cf. Dand. p. 319.

(١)

— التاريخ الحقيقي (للمعاهدة) هو اليوم الذي أقسم فيه السفراء البنادقة بمراعة بنود المعاهدة ، ولم يصدق عليها الامبراطور الا في شهر نوفمبر .

Ibid. I, 254, 255.

(٢)

Dand. p. 319.

(٣)

(٤) اكتسب السيد تافل شهرة يستحقها ، بالتعليقات التي دونها بأسفل السجل الفيني « والشروح التفصيلية التي أحياها بكتاب Symbolae criticae geographiam Byzantinam spectantes, pars I (Abhandl. des hist. Cl. der K. bair. Akad., V, sect. 2, 1849).

البحر ، في حين أن القائمة الأخرى تشمل كلا من المقاطعات البحرية والمقاطعات البرية الداخلية ، مما يثبت أن البنادقة كانوا يتوغلون في داخل اقليم بنطس Hemipont وآسيا الصغرى . وأخيرا استطاع السفراء بعد مقاومة طويلة من جانب الامبراطور أن ينتزعوا منه امتيازا متعلقا بالمحكمة المختصة بالقضايا والمنازعات بين المستوطنين البنادقة وبين الرعايا اليونانيين ، وهذه نقطة سوف نعود اليها فيما بعد .

أما بالنسبة الى الجنوبيين والبيزيين فقد تأخر التعويض عن خسائهم مدة أطول من مدة التعويض عن خسائر البنادقة . ففي حين تم صلح البنادقة مع اسحق انجيلوس في عام ١١٨٧ ، فان البيزيين لم يتوصلوا الى التفاهم معه الا في شهر فبراير عام ١١٩٢ ، والجنويون في ابريل من العام نفسه . والواقع ، رغم ما يقوله السيد كانالي Canale (١) أن السفيرين نيكولا مالونيه ، ولافرانكو بيفيري اللذين أوفدتهما جمهورية جنوا في عام ١١٨٦ لم يحصلوا على شيء (٢) ، وأعقبهما ثلاث سفارات لم تحرز أى نجاح (٣) : فمرة رفض اسحق مقابلة السفراء ، ومرة عرض سفيره الخاص قسطنطين ميزديوتاميتس مقترحات أكثر فائدة للجنويين ، فتنصل منها (الامبراطور) باعتبار أنها تجاوزت حدود تعليماته . والشئ الذي أزعج الامبراطور بنوع خاص هو مطالبة الجنوبيين بتعويضهم عن الأضرار التي لحقت بهم في عهد اندرونيقوس ، وأن يتسلموا الهدايا التي كان على هذا الامبراطور أن يرسلها الى جنوا ولكنه احتجزها . وكان لاسحق بعض الحق في أن يرفض مسئوليته عن تصرفات أندرونيقوس ، فلا مشاحة في أنه اذا كان الجنوبيون قد غانوا من بعض المظالم ، فانهم انتقموا لذلك انتقاما شديدا . ومع ذلك كان الامبراطور مستعدا للتعامل مع الجنوبيين ، وشرح وجهة نظره في خطابين وجه أحدهما الى الجنوى بالدوينو جويريكو (١١٨٨) والثاني الى «نورستات» محافظ جنوا ، مانيجولدو دي تيتوتشيو (١١٩١) (٤) . وردا على الخطاب الثاني أوفد المحافظ الى القسطنطينية جولييلمو تورنيللو ، وجويدو سبينولا ، وأعاد هذان السفيران المطالبة بالتعويضات . الا أن اسحق رفض أن ينساق في هذا الطريق ، وقدم بدوره مطالبات بالتعويض عن أضرار أوقعها الجنوبيون ببعض السفن اليونانية ، وبعض سكان السواحل . وتبين استحالة الوصول الى اتفاق ، واستعد السفيران للعودة ، ولكن تم في اللحظة الأخيرة عقد اتفاق : ذلك أن الطرفين سحبوا مطالبهما ، وأقسما اليمين على الصلح

Nuova istorica di Genova, I, 319.

(١)

Annal. Jan. p. 101.

(٢)

Miklosich et Muller, Acta groeca, III, 1, 2 et s., 27; cf. Annal.

(٣)

Jan. p. 103, 110, 113, 139, 140 ; Canale, op. 1, 436.

Miklosisch et Muller, op. c. p. 1, 2 et s.

(٤)

عما مضى . ومن بين المسائل المشكو منها ، ذكر السفيران ما كان يقتصره الموظفون اليونانيون كثيرا من عسف بفرضهم رسما يزيد على ٤٪ على السفن الجنوبية ، وعرضت الحالة بنوع خاص بالنسبة الى السفينة التي قدم عليها هذان السفيران : وكان من رأيهما أن مجرد توقيع العقوبة لهذه المخالفة لأحكام المعاهدات غير كاف ، وطالبوا بتخفيض الرسوم الجمركية الى ٢٪ بالنسبة الى السفن الجنوبية التي ترسو عند القسطنطينية . ووافق الإمبراطور على ادانة تصرفات موظفيه التعسفية ، ولكنه تمسك بثبات بمسألة الرسوم الجمركية بنسبة ٤٪ ، وأمر بأن تطبق هذه الرسوم بنسبة واحدة في القسطنطينية وفي سائر أنحاء الامبراطورية (١) . أما بشأن باقى الطلبات فكان كريما ، إذ أضاف الى حى الجنوبيين القديم مجموعة من البيوت ، وضاعف حجم الرصيف القديم فالحق به رصيفا مجاورا ، ورفع رقم الهدايا المنصوص عليها لصالح الطائفة ، ورئيس أساقفة جنوا (٢) .

وتم الصلح مع البيزيين بكيفية مماثلة . ففي عام ١١٩٢ ، أوفد حاكم بيزا « تيديتشو Tedecii » ابن الكونت اوجولن Ugolin الى القسطنطينية سفيرين : رينيريوجاثاني ، والقاضى سيجيريوس . وطبقا للتعليمات التي أعطيت لهما ، طالبا ، كما فعل الجنوبيون ، بتعويضات عن الأضرار التي أصابتهم بفعل اندرونيقوس ومن جاء بعده ، بالإضافة الى ما يعادل الهدايا المنصوص عليها في المعاهدات والتي لم تسدد اليهم ، وكذا ايراد المخازن الذي حرموا منه منذ ذاك الحين ، وأخيرا زد الرسوم الإضافية التي فرضها لصالح التجار الجنوبيين بعض موظفى الجمارك اليونانيين . وبالنسبة أيضا فى مطالبهما ، واستشاط اسحق غضبا حين طالب السفيران بسداد قرض تلقاه اندرونيقوس ، عدوه اللدود من تجار بيزيين فى القدس فى فترة طاف فيها البلاد مغامرا (٣) . وكان يمكن أن يستجيب لطلب بسداد قرض آخر كان أخوه وخليفته الكيسوس الثالث انجيلوس قد عقده مع بعض التجار البيزيين ليفتدى نفسه من الأسر لدى كونت طرابلس (٤) ، ولكنه رفض الاستماع الى هذا الطلب أيضا . وفى عام ١١٩٧ قدم سفراء آخرون هذا الطلب نفسه الى المقترض ذاته الذى أصبح

(١) تأيدت هذه الواقعة بالتعليمات المسجلة الى السفير اوتوبونو دللا كروتشى (١٢٠١) ،

انظر : Sauli, Della colonia dei Genovesi in Galata, II, 198 et s.

(٢) Miklosich et Muller, Acta graeca, III, 25-37; Silvestre de Sacy,

Mém. de l'Institut, III, 1818, cf. Miklosich et Muller, III, 24 et S.;

Desimoni, dans le Giornale ligustico, 1874, p. 164.

(٣) فى خصوص اقامة اندرونيقوس فى القدس انظر :

Nicét, p. 180 et ss.; Cinnam p. 250; Guill. de Tyr, XX, 2.

(٤) la Lettre du levant dans le Presbyter Magnus, Pertz, ss. XVII,

p. 511; Mon. hist. patr., Chartae, II, 1225.

بدوره امبراطورا ، وكان طلبهم هذا أكثر ملاءمة من الطلب الأول ، ولكنى لا أستطيع أن أؤكد أنه كان أكثر منه توفيقا (١) . ولتسوية هذه المطالب كلها بالجملة ، قدم اسحق قائمة بالأضرار التي أوقعها بعض البيزيين برعاياه فى بعض الأمور التي فصلها بالتحديد . واتفق الطرفان على إسقاط الماضى فى أغوار النسيان . وكان منح الامتيازات للبيزيين أمرا ميسورا ، ولم يضمن عليهم الامبراطور فى منحهم مزايا جديدة ، اذ وعد بزيادة الهدايا السنوية لكاتدرائية بيزا ورئيس أساقفتها ، وسمح بتوسيع المستوطنة البيزية فى القسطنطينية ، بشغل منازل وأرصعة جديدة . وفيما يختص بالضرائب ، كان مرسوم الكسبوس الأول يميز بين البضائع التي يستوردها البيزيون من بلدهم أو من أى جهة أخرى غير تابعة للامبراطورية اليونانية وبين منتجات الامبراطورية . فبالنسبة الى الأولى يدفع البيزيون ضريبة تعادل ٤٪ ، وبالنسبة الى الثانية يدفعون نفس الضريبة التي يدفعها اليونانيون . وبناء على طلب السفراء الغى اسحق هذا الفرق ، وقرر أن يخضع البيزيون من ذلك الحين لضريبة واحدة قدرها ٤٪ لجميع بضائعهم ، دون تمييز من حيث مصدرها .

ويمكن القول على وجه اليقين بأن اليونانيين استاءوا من المزايا التي منحها اسحق للاتينيين . وكان أهل القسطنطينية بنوع خاص يكرهون هؤلاء الدخلاء الذين يحتكرون القسم الأكبر من الأعمال التجارية ، ويغزون خطوة بعد أخرى فى الحى البحرى أكثر المواضع ملاءمة للحركة التجارية ، وقضوا بالخراب على الصناع والتجار الوطنيين ، ودفعوهم الى داخل المدينة ، وتأسفوا على عهد اندرونيفوس ، حين كان يوسعهم أن ينقضوا على اللاتينيين وينهبوا بيوتهم دون أن ينالهم أى عقاب . ونجد الدلالة على هذه الروح فى حدث وقع قبيل تتويج اسحق فى عام ١١٨٦ : فقد برز شخص يدعى الكسيوس براناس Alexis Branas يطالب بالعرش . وفقد الأمبراطور رشده بعض

الشيء ، الا أن صهره كونراد دى مونفيررا Conrad de Montferrat حشد من اللاتينيين فى القسطنطينية جيشا صغيرا ولكنه قوى والحقيقة أن هؤلاء لم يكونوا من المستوطنين ، ولكنهم بالأحرى من الجنود المرتزقة الذين يجوبون البلاد ، ومن البحارة والمغامرين الذين يوجد منهم الكثير بالمدينة (٢) . وتولى كونراد قيادتهم ، وما لبث أن أنهى أمر براناس ، الا أن اللاتينيين ، وقد أسكرهم النصر ، اقتربوا كل ضروب العنف والأذى فى ضواحي العاصمة . وحين عادوا الى قواعدهم ، كانت أعمالهم قد جرحت مشاعر اليونانيين ، وغلت

Doc. sulle relaz. tox p. 72, au haut de la 2e colonne.

(١)

Eustathius, Opux. p. 200, cap. 18.

(٢)

فى قلوبهم مراحل العداوة ، فاحتشد الصناع واندفعوا بقضاهم وقضيتهم الى
أحياء التجار ليعتدوا عليهم . غير أن الوقت كان قد اتسع لسكان هذه
الأحياء ليأخذوا أهبتهم ، فتحصنوا خلف المتاريس ، وانتظروا المغيرين بقد
ثابتة ، وكان معظم هؤلاء سكارى غير مسلحين ، فقتلوا عددا منهم . وفى اليوم
التالى جدد الرعاع هجومهم ، وفى هذه المرة قام جنود الامبراطور باخضاعهم ،
وأعادوا الأمن الى نصابه . واذا كانت معاملة اسحق الطيبة للايطاليين قد
أغضبت زغاياه ، فمن الثابت أن الايطاليين لم يجازوه عن ذلك الا بالبحود .
ويبدو أن مانالهم فى عهدى مانويل واندرونيقوس من ضروب الطرد المتكررة
قد ترك فى نفوسهم ضغينة لا تفتقر ضد اليونانيين . وكان فى وسع حكومات
المدن التجارية الايطالية أن تعقد أوامر السلام مع الامبراطور ، غير أن هذا
لم يكن ليمنع بعض الأفراد من الاستمرار فى مطاردة السفن اليونانية ، والاغارة
على السواحل . ولم يكن من النادر رؤية تاجز ، تعب من دوام المطالبة بنسداد
دين يستحقه ، أو استغله أحد موظفى الجمارك دون وجه حق ، ينقلب قرصانا ،
ويسعى بوسائله الخاصة الى استعادة ماخسره . ويبدو أن الجنوين والبيزين
كانوا أكثر من يعمل فى هذه المهنة (أى القراصنة) حمية وصلابة ، ويشكلون
القسم الأكبر من طائفة القراصنة الذين كانت تعج بهم المياه اليونانية .
وكانت حالة البحرية اليونانية السيئة للغاية تسمح لهم بأن يشنوا غارات
قوية . وفى صيف عام ١١٩٢ ، قام اثنان من القراصنة ، أحدهما جنوى
والآخر يبنى بغازة أثرت فى نفس اسحق بنوع خاص (١) . وكان اسم القبطان
الجنوى هو أول اسم يشهد الأنظار فى الخطاب الذى كتبه الامبراطور شاكيًا من
هذا الاعتداء : ولهمس جراسوس Wilhelmus Grassus ، وهذا فى الواقع هو
نفس الشخصية التى نجدها فيما بعد أميرال مملكة صقلية ، وكونت مالطة ،
وهما انريكو بسكاتورى Enrico Pescatore ، اشهر كونت عرف بهذا
الاسم ، وكان تبعا لكل ما نعرفه عنه ، من أصل جنوى (٢) . وبعد أن زار
القرصانان رودس وسواحل آسيا الصغرى الجنوبية ، استوليا على سفينة أو
أكثر من سفن البنادقة القادمة من مصر متجهة الى القسطنطينية . وكان الاسطول
الفينيسى الصغير عائدا ببعض سفراء اسحق فى البلاط المصرى ، وبه بعثة
مرسلة من قبل صلاح الدين الى اسحق ، ومكلفة بأن تقدم له هدايا ، منها

(١) Miklosich et Muller, Acta graeca III, 37 et ss., 40 et ss.; Les Doc. nulle relaz. tox p. 66 et ss.; Desimoni, dans le Giornale ligustico, 1874, p. 165 et s.

— كتب الامبراطور اسحق ثلاثة خطابات يشكو فيها من هذه الاعتداءات .

(٢) Cf. winkelmann, Geschichte Friedrichs II, p. 362, et Forschungen Zurdeutschen Geschichte XII, 556; Huillard — Bréholles, Hist-dipl. Frid. II, Introd. p. cxliii; Desimoni, dans le Giorn., ligust. 1876, p. 222 et ss.

خيول ، وبغال ، وحيوانات برية ومستأنسة ، من مصر وليبيا . وسروج مذهبة ، ومرصعة بالآلئ والأحجار الثمينة ، وحرائر ، وخشب الألوة ؛ وبلسم ، وعنبر (١) ، وبين الركاب أيضا بعض العملاء المكلفين من قبل اسحق وأخيه الكسيوس بشراء بضائع ثمينة لهما ، وتجار يونانيون وسوريون وغيرهم . وقتل القراصنة السفراء والتجار ، ولم يتركوا حيا سوى الغربيين ، واستولوا على كل ما وقع في أيديهم ، وعاملوا بمثل هذا سفينة لومباردية كان على متنها الأسقف باقوس Paphos الذي أسروه . ترى هل وقع القراصنة بالصدفة على السفينة التي تستقل السفراء اليونانيين والمصريين ؟ لنا أن نشك في ذلك حين نتذكر أن بعض البنادقة (ويقول البعض أنهم جنويون) قد استولوا في عام ١١٨٩ في صور على أثر اسلامي ثمين (سماه أحد المؤرخين خطأ idolum Saladini ، أى تحفة لصلاح الدين) كان معدا للارسال الى القسطنطينية (٢) . اليس من المحتمل أن يكون هذان العمالان قد قصد بهما بث الاضطراب في روابط الصداقة بين اسحق وصلاح الدين ، ألد أعداء الدول الصليبية ، وكل من يساعدها ، وموضع مقت ورعب العالم المسيحي الغربي كله ؟ (٣) ومهما كان الأمر ، فإن قتل السفراء أثار سخط اسحق ، كذلك حاصره التجار اليونانيون الذين استولى القراصنة على بضائعهم ، وطالبوه بالحاح ليعرضهم عن خسائرهم . ولم يضيع الأمبراطور وقته ، بل أرسل الى جنوا وبيزا شكوى رسمية مرفقا بها طلبا بالتعويض ، وفي الوقت نفسه حجز على كمية من البضائع التي يملكها المستوطنون الجنوبيون والبيزيون (٤) في القسطنطينية ، وذلك لتهدة نفوس الضحايا الذين عيل صبرهم ، وحتى يكون تحت يديه رهن تعادل قيمته قيمة الأشياء المغتصبة : وقد استبدل بهذا الرهن العيني بعد بضعة أيام كفيل مضمون . وعندما تلقت حكومة جنوا الشكوى أوفدت الى القسطنطينية بلدوينو جويرشيو Balduino Guercio ، وجويدو سبنيولا Gdido Spinola (١١٩٣) وكلفتهما بأن يتوسلا الى الامبراطور الا يحمل شعبا بأسره مسئولية جريمة اقترفها بعض الأفراد ،

(١) لهذا التعداد أهميته ، أولا لأنه يعطى فكرة عن نوع البضائع التي كانت تستورد كثيرا من مصر الى اليونان ، ثم لأنه لم يذكر هدية لا بد أن يذكرها اسحق لو أنه وجدها بالسفن القادمة : أقصد بذلك الصليب « الحقيقي » المشهور الذي وقع في أيدي صلاح الدين في معركة حطين . (١١٨٧)

Gesta Henrici II, éd. Stubbs, II, 52.

(٢)

Riezler (Forschungen X, 102); Monum. hist. patr., Chartae, II, 1226. (٣)

(٤) فقد الخطاب الاول الذي وجهه الامبراطور الى مدينة بيزا ، ولا نعلم بوجوده الا عن طريق خطاب ثان لخصت فيه الوقائع ، وينبئنا هذا الخطاب الثاني بالذات أن اسحق أراد أن يحصل على ضمان أكيد ، فصادر بضائع يملكها بيزيون .

وأن يؤكدوا له أن المجرمين حكم عليهم بالنفي ، فإذا وطئت أقدامهم أرض الوطن فانهم سوف يسلمون اليه . وفي أعقاب السفيرين أقبلت عن كتب سفينة تجارية تحمل مبالغ كافية لسداد التعويضات ، واستعادة الرهن المأخوذ من المستوطنين . واتبعت بيزا هذا السلوك نفسه . ففي بداية شهر يولية من عام ١١٩٣ قررت أن تبعث وفدا رسميا الى القسطنطينية (١) ، واضطلع البيزو Albizzo ابن البيتزوني Albizzone وانريكو بارلاشيو Enrico Parlascio بهذه المهمة ، وقدموا للامبراطور كل ما يرغبه من ترضيات ، وحصلوا منه على رفع الحجز الذي كان قد أمره به (٢) . وهكذا تلاشت غمامة كثيفة من التهديدات التي كان يمكن ، مع امبراطور من خلق آخر أن تنزل بالمستوطنات البيزية والجنوية في القسطنطينية كوارث يصعب اصلاحها .

وفي عام ١١٩٤ ، بينما كان السفراء البيزيون في القسطنطينية ، أقبل أسطول من خمس سفن يقودها قراصنة من مواطنيهم ، وألقت السفن مراسيها أمام أبيدوس Abydos ، وراحت تنهب أملاك اليونانيين وتوقف القوافل المتجهة الى القسطنطينية : وأرسل قناصلة بيزا ، ورؤساء المستوطنة البيزية في القسطنطينية ، والسفراء أنفسهم تحذيرات الى القراصنة ، ولكن دون جدوى . وأخيرا اقتربت سفن حربية يونانية وحملت القراصنة على الفرار . الا أن سفن قراصنة أخرى اقبلت وحلت محل السفن الغارة ، وانقضت على السفن اليونانية ، الى أن اقتربت من القسطنطينية وصارت على مرمى البصر منها ، فحرقت بعض هذه السفن اليونانية ، وباعت سفنا أخرى ، وأعملت السلب والتقتيل في كل مكان . وأدرك الامبراطور مدى العار الذي سوف يلحق بحكومته اذا لم يتمكن من القضاء على هذا الاخلال بالأمن ، الا أنه لم يكن يملك القوة الكفيلة بذلك ، فبعث الى بيزا بمبعوثه جاك (٣) Jacques حاملا رسالة تفصح عن يأسه . وحصل جاك من قناصلة بيزا على تعهد بمطاردة القراصنة بقوة السلاح ، وتخليص رومانيا منهم . ولكن ما قيمة هذا العلاج بالنسبة الى هذا البلاء الشديد ؟ ثم ان الطبقة البورجوازية في بيزا رفضت المواثيق التي التزم بها قناصلتها . وتوقفت الأمور عند هذا الحد (٤) .

وفي فترات الاضطرابات العامة ، كانت المدن التجارية الإيطالية ، جنوا

Doc. sulle relaz tox, p. 61 et ss.

(١)

Ibid, p. 66 et s.

(٢)

(٣) كان هذا الشخص بيزيا حسب مولده ، واعتقد انه هو نفسه جاك البيزي الذي أرسله اسحق للاقاة الجيش الصليبي بقيادة فردريك بارباروسا ، انظر :

Ansbertus, De expeditione Friderici, éd. Tauschinsky et Pangertl, p. 46;

Doc. sulle relaz tox, p. 67, 69, 77, 78.

Doc. sulle relaz tox, p. 66 et s., 72.

(٤)

وبيزا بنوع خاص ، وكذا البندقية ، بدرجة أقل تتساهل مع أعمال القرصنة (١) ان لم تكن تشجعها - ولم تكن القرصنة تعرقل التجارة الوطنية ، لأن القراصنة كانوا يتسامحون دائما مع مواطنيهم ، ولكنها (أى القرصنة) كانت وبالا على الأعداء والمنافسين ، حتى دون اعلان حرب ، وكان فى المستطاع دائما التنصل من أعمال هؤلاء المغامرين . وعند نشوب الحرب ، كان لدى القوم بحساسة شجعان ومدربون ، لا يعرفون الخوف ، مستعدون لخوض غمارها ، وشهود أكثر من زعيم قديم من زعماء القراصنة يتولى بصفته أمير حرب قيادة أسطول وطنه ، أو أسطول دولة صديقة (٢) . أما بالنسبة الى جزر البحر المتوسط وسواحلها التي لم يكن لها أسطول قوى يحميها ، فان المصيبة كانت فادحة . وعندما عاد فيليب أوجست ملك فرنسا من فلسطين فى عام ١١٩١ زار جزر الأرخبيل ، فوجد معظمها وقد هجره سكانه ، أو احتله بعض القراصنة . وكان « الميناء البيزى » الذى صادفه عند مصب نهر فينيكا Phinéca غربى مير Myre فى ليقييا Lyeie ينتسب اسمه دون شك الى وجود قراصنة جعلوا منه مأوى لهم أكثر منه الى تجار مسلمين يترددون عليه (٣) . ولاخضاع هؤلاء الذين يعكرون صفو الأمن والسلام كان لا بد من وجود بحرية قوية ، ولكن البحرية اليونانية كانت قد أصابها الانحلال باهمال الأباطرة أنفسهم . ففى المياه اليونانية ، ومن ثم كانت تلتمس حماية السفن الحربية الأمبراطورية (٤) . أما فى عهد الكسيوس الثالث ، فانه هو نفسه الذى يطلب مساعدة القراصنة ضد نظائريهم ، أو يسعى للتحالف مع دولة بحرية ليحارب قراصنة دولة أخرى : وسوف نرى مثالا لذلك فى موضع لاحق من هذه الدراسة .

وبعد انقضاء بضعة أيام على اعتلاء الكسيوس الثالث ، أخى اسحق وخليفته العرش (١١٩٥) ، دعا مدينة بيزا الى أن تبث اليه بسفراء يجدد معهم المعاهدات القديمة . ولم يرد حاكم بيزا على هذه الدعوة الا فى صيف عام ١١٩٨ : وكان سفيراه فى هذا الخصوص هما أوجوتشيونى Ugucione

Les Annales génoises, p. 114.

(١)

- تحكى الحوليات الجنوبية أن بيزا استدعت قراصنتها فى عام ١١٩٦ لتعزيز الحرب ضد جنوا

(٢) فى تاريخ جنوا بنوع خاص أمثلة كثيرة من هذا النوع .

Gesta Henrici II, éd. Stubbs, II, 195, 198.

(٣)

Doc. sulle relaz. tox, p. 20 et ss.

(٤)

ابن لامبرتو بوتو ، وبيترو مودانو Pietro modano (١) وكانت التعليمات التي يحملانها تنص أولا على اعفاء مواطنيهما اعفاء تاما من الرسوم الجمركية ، أو على الأقل ، اذا لم يتمكن من ذلك فخفض هذه الرسوم الى ٤٪ بالأكثر ، وهذه هي في الواقع القيمة الرسمية منذ زمن بعيد ، ولكن كثيرا ما كان بعض موظفي الجمارك يطلبون أكثر منها ، فكان من الضروري على أية حال القضاء على هذا التعسف . وكان على السفراء فضلا عن ذلك أن يطلبوا الغاء التفرقة في جمارك القسطنطينية مستقبلا بين السفن البيزية القادمة من بيزا مباشرة أو تلك القادمة من دكان ما من الاقليم البيزنطي ، والمعافاة من الرسوم الجمركية لصالح التجار البيزيين اذا أرادوا أن ينقلوا من مكان الى آخر بضائع بقيت معهم ، وذلك في أول سوق تصادفهم ، وأخيرا اذا أرادوا العودة الى بيزا أو الذهاب الى بلد آخر ، فلهم أن يحصلوا على اذن بمغادرة الأراضي اليونانية ومعهم بضائعهم دون اتخاذ أية اجراءات بشأنها ودون أن يدفعوا رسوما جديدة . وكان على السفراء ثالثا أن يحصلوا على زيادة في الهدايا السنوية ، وضم مجموعة من المنازل ورصيف الى الحى البيزى ، وكانت هذه المنازل والرصيف تشكل عائقا لحركة السكان . وأخيرا ، كان عليهم أن يعالجوا بضع مسائل متعلقة بمنشئات تسالونيكا ، وألميرو ، وسوف نعود الى ذلك فيما بعد . ولستنا نعرف ما اذا كان الامبراطور قد حقق كل هذه الرغبات ، ولكن الثابت أن قراره قد نشر في صورة مرسوم ذهبى محرر باليونانية واللاتينية : ذلك لأن فيكونت البيزيين كان عليه أن يدفع من أجل المرسوم نفسه أربعة « هيربر » وللختم ثلاثة ، وريالا من عملة مانويل Manuellatus وبالنسبة الى المسائل الخاصة بتسالونيكا وألميرو ، أصدر الامبراطور مرسوما خاصا دفع الفيكونت أجر ترجمته ثلاثة « هيربر » ، الى رئيس المترجمين (٢) . وقد ضاعت هذه العملات .

ولكننا لم ننته بعد من التعليمات المسلمة الى السفراء البيزيين : فنحن نرى في هذه التعليمات أن هؤلاء السفراء يملكون السلطات الضرورية لعقد الصلح مع البندقية ، في حالة ما اذا أبدى سفراء الدوق ، أو قناصلته أو فيكونتات البنادقة في القسطنطينية أو قادتهم العسكريين الرغبة في ذلك

(١) اتخذت الاجراءات التمهيدية الاولى في شهر يولية ١١٩٧

(Doc. sulle relaz. tox. p. 69)

وتحمل التعليمات المعطاة للسفراء تاريخ ٦ سبتمبر ١١٩٧ ، ولكنها مصحوبة بملحق في ١٨ من يولية ١١٩٨ ، وعلى ذلك فلا يمكن أن يكون رحيل السفراء قبل هذا التاريخ . وكان ببيزو مودانو في القسطنطينية في ٣٠ من يولية ١١٩٩ . (Doc. p. 78) ، كذلك كان جواز السفر المسلم الى السفيرين من أجل عودتهم يحمل هذا التاريخ :

— Doc. p. 79; Miklosich et Muller, Acta graeca III 48.

les Doc. sulle relaz. tox. p. 78.

(٢)

بصورة واضحة (١) . هذه المعلومة تثبت أن بيزا والبندقية كانتا في وضع عدائى ، أحدهما حبال الأخرى . والواقع أن هذه الحالة استمرت زمنا طويلا . ويؤكد نيكيتاس (٢) أنه فى عهد الامبراطور الكسيوس حاربت الاثنان أحدهما الأخرى ، أحيانا فى القسطنطينية (٣) ، وأحيانا فى البحر ، وتقاسما النجاش والفشل . واتهم الامبراطور بأنه كان يحرض سرا أحدهما ضد الأخرى الا أن التحريض لا يكفى لتبرير صراعات مسلحة بين الأمتين ، فقد كان هناك باعث آخر : فللذهاب من بيزا الى القسطنطينية كان لابد من عبور البحر الأدريانى فى خط مستقيم ، لذلك كان سفراء بيزا فى بلاط الشرق يركبون السفن بوجه عام فى أنكونا (٤) وكان التجار يفضلون بلا شك ساوك هذا الطريق بدلا من اتخاذ طريق بحرى طويل بحذاء سواحل ايطاليا واليونان ، غير أن ما أعلنته البندقية على الملأ من سيطرتها وحدها على البحر الأدرياتي كان أمرا مزعجا لجمهورية بيزا التى ترغب فى الأخرى فى أن يكون لها بعض المراكز على سواحل ايطاليا ودلماشيا ، وحرصت على أن تكفل لمواطنيها أمن الملاحة على البحر الأدرياتي . هذه الحالة تفسر السبب الذى من أجله عقدت بيزا معاهدة صداقة مع راجوزه ، ويمكن فهم العلاقة المباشرة التى كانت قائمة بين هذه المعاهدة وبين المصالح التى كانت بيزا تدافع عنها فى القسطنطينية اذا تذكرنا أنها أبرمت أثناء مرور بعض السفراء البيزيين فى طريقهم الى عاصمة الامبراطورية اليونانية ، وأنه كان على الفيكونتات البيزيين فى القسطنطينية أن يجددوا كل سنة التعهد بمراعاة أحكام هذه المعاهدة (٥) ، وهذا الطرف نفسه يفسر العلاقات التى كانت قائمة بين بيزا وأنكونا (٦) ، وبينها وبين زارا (٧) : وأخيرا انفجار الصراعات بين المنافستين بعد سلام استمر خمس عشرة سنة ، وأمكن المحافظة عليه بفضل معاهدة عام ١١٨٠ (٨) التى تحدت مدتها أولا بخمس سنوات ثم مدت الى عشر سنوات أخرى (٩) .

سبق أن تحدثنا عن أسطول من القراصنة البيزيين الذين استقروا فى ابيدوس (فى عام ١١٩٣ أو ١١٩٤) ، واستثارت غاراتهم على الأراضى اليونانية

-
- | | |
|--|-----|
| Toeche, Heinrich VI, p. 463, not 2. | (١) |
| Ed. Bonn, p. 713. | (٢) |
| Doc. sulle relaz. tox. p. 78. | (٣) |
| Doc. sulle relaz. tox. p. 62, 63. | (٤) |
| Monum. spect. hist. Slav. merid. I, 10. | (٥) |
| Doc. sulle relaz. tox. p. 21, 22 | (٦) |
| معاهدة التجارة لعام ١١٨٨ : | (٧) |
| Wakuscev, Monum. hist Slav. merid. I, 422 et ss. : | |
| Doc. sulle relaz. tox. p. 20 et ss. | (٨) |
| Dandolo, p. 311. | (٩) |

شكاوى اسحق ، ولعل هذه الغارات لم تكن على الأرجح سوى بداية لنشوب المعارك ، ذلك لأنها تدل على أن القرصان كانوا يريدون محاربة البنادقة (١) . وفى عام ١١٩٥ قام البيزيون بحملة فى البحر الأدرياتي واستناروا على ما يبدو ثورة فى مدينة بولا Pola ضد البندقية . ولكن فى شهر أغسطس خرج أسطول حربى يرافقه قافلة من السفن التجارية من ميناء البندقية تحت قيادة جيوفانى موروسينى ، وروجيرو بريمارينى ، وبدأ بالقضاء على ثورة بولا ، ثم انطلق يطارد البيزيين ، وهاجم أسطول من ست سفن تجارية ، فأسر اثنتين منها فى عملية ، ثم سفينة ثالثة ، وعاد الى البندقية ومعه أربعمائة أسير (٢) . وفى السنة التالية طلبت الجالية الفينيسية - وكانت تخشى على ما يبدو أعمالا ثأرية من جانب البيزيين المتربصين فى جزر الأرخبيل - طلبت المعونة من أسطول راس أمام أبيدوس . ولست أجد تفسيراً لسلوك قادة هذا الأسطول ، لأنهم رفضوا أمراً صدر اليهم من الدوق بالعودة ، وتحملوا مسئولية البقاء فى الدردنيل (٣) . حدث هذا فى شهر مارس عام ١١٩٦ ، وفى أول سبتمبر من السنة نفسها ، تصالحت الجمهوريتان بشروط مناسبة لصالح مدينة بيزا (٤) . ولكن تبين من كل من التعليمات الصادرة الى السفيرين البيزيين اوجوتشيونى بونو ، وبيترو مودانو ، والسفيرين الفينيسيين انريكو نافيجاجوسو ، وانديا دوناتو فى عام ١١٩٨ (٥) ، أن أياً من الطرفين لم يراع كثيراً الأوضاع السلمية بالنسبة الى الطرف الآخر . فالواقع أن البيزيين عادوا فى عام ١١٩٩ الى شن الغارات على البندقية ، وانطلق أحد أساطيلهم يجول قبالة برنديزى ليقطع الطريق على سفنها ، غير أن أسطولاً فينيسياً نجح فى فتح الطريق ، وارند البيزيون على أعقابهم (٦) .

واستطال نزاع الخصمين على هذا النحو طوال عهد الكسيوس الثالث ، فلم يترك لجاليات القسطنطينية سوى لحظات قلائل من الهدوء والسكينة . وانحاز الامبراطور على ما يبدو بوضوح ضد البنادقة ، فأثقل كاهلهم بالضرائب رغم المعاهدات ، وآخر مرة بعد أخرى دفع التعويضات التى وعد بدفعها ، وانتهى الأمر ، من كثرة ماسييه لهم من ازعاج الى أن جعل منهم أعداء للامبراطورية (٧) . وعلى العكس من ذلك خص البيزيين برعايته ، وكثيراً

Dandolo, p. 66.

(١)

Annal. Venet. brev. I. c. p. 72 ; Chron. Justiniani, ibid. p. 91; (٢)

Mart da Canale, p. 338; Dandolo, p. 317.

Taf. et Thom. I, 216 et ss.

(٣)

Toeche, Heinrich VI, p. 463; Cod. Ambr. Dandolo, p. 317 et s.

(٤)

Armingaud, Op. c. p. 426 et s.

(٥)

Dandolo, p. 319 et s.; Winkelmann, Acta imperue inedita, saec.

(٦)

XIII, p. 470 et s., no. ٤83.

Nicét, p. 712 et s.

(٧)

مازورهم بالسفن ليقاتلوا بها القراصنة أو غيرهم من الأعداء (١) . لسنا نذكر من ذلك سوى مثال واحد : فثمة جنوى يدعى جافوربو Gaffairo (٢) . كان يقوم برحلات كثيرة الى القسطنطينية بصفته تاجرا بسيطا مسالما : وفي حوالى عام ١١٩٨ تصدى له رجل مستغل جشع ، هو الأميرال ميشيل ستريفنوس ، أوقع عليه غرامة ظلما وعدوانا ، فاضطربت فى نفسه الرغبة فى الانتقام ، وتحول الى قرصان ونجح فى وضع الامبراطور فى مأزق حرج ، وبدأ على رأس أسطول كبير يغير على موانئ وجزر الأرخبيل ، ونهب ادراميتيوم Aderamytium ، وهزم أسطولا من ثلاثين سفينة تحت قيادة جيوفانى ستيريونى ، وهو قرصان كالابرى (من كالابريا ، جنوبى ايطاليا) قديم ، أصبح أميرالا فى خدمة امبراطور اليونان . وبعد هذا العمل الرائع ، فجأ سفنا حربية أخرى رأسية عند سستوس وأسرها ، واستطاع منذ ذلك الحين أن يمد جولاته البحرية مسافات طويلة ، وفرض ضرائب على الجزر والشغور .

وإذ رأى الكسيوس أن الحرب المكشوفة لا تجدى معه ، لجأ الى الحيلة ، وتفاوض معه بوساطة بعض الجنوبيين من سكان القسطنطينية الذين كانوا يعرفون مواطنيهم ، وبذل له أحلى الوعود . وانخدع جافوريو ، ولم يأخذ حذره لسوء حظه ، وذات يوم أغار عليه فجأة ستيريونى Stirione على رأس سفن يونانية وبيزية ، فأسره وقتله ، أما سفنه ، فيما عدا ثلاثا أو أربعا فانها وقعت فى قبضة العدو (٣) .

واتهم عدد كبير من الجنوبيين بالتواطؤ مع جافوريو ، وأسر الكثير منهم معه ، ومع ذلك أطلق الامبراطور سراحهم (٤) ، وواحد منهم فقط دفع ما أخذه من الثورة بتمنازله عن اقطاعيته ، ويدعى بلدونيو جويرشيو ، وهو جندى قديم كان منذ سنين طويلة فى خدمة الأباطرة اليونانيين ، وكان مانويل قد منحه اقطاعيات كبيرة مكافأة له على ما أداه له من خدمات جليلة ، ولاخلاصه المشهور به . وفى عهد اسحق ، تذبذب هذا الاخلاص فى وقت ما ، ولكنه استعاد ثقة الامبراطور ، وصدق الامبراطور الكسيوس على حقه فى اقطاعيته . على أن الحركة الأخيرة أفقدته نهائيا اقطاعيته ، وحل الخراب بأسرته (٥) . ولم يكن

(١) Doc. sulle relaz. tox. p. 72, 77.

(٢) Nicétas; Doc. sulle relaz. tox. p. 72; Mon. hist patr. Chartae II.

1225; Lib jur. I, 411 et s.

مدينة فى تراقيا على الدردنيل قبالة ابيدوس - المترجم

(٣) يقول نيكيتاس فقط ان هذه الأحداث لاحقة على وفاة الامبراطور (Nicét. p. 636 et s.)

هنرى السادس أى فى ٢٨ من سبتمبر ١١٩٧ ، ولكنه لا يحدد التاريخ .

(٤) Miklosich et Müller, Acta graeca III, 46 et s.

- يبدو مع ذلك أنه احتفظ بعدد منهم فى الأسر .

(٥) Monum. hist patr., Chartae II, 1225; Miklosich et Müller, op. c.

p. 1.

هذا الثأر كافيا وحده لتسكين غضب الامبراطور ، فأنزل جام غضبه على مدينة جنوا ، أو بالأرجح على الجالية الجنوبية بالقسطنطينية . وهناك ما يدعو الى الاعتقاد بأنه انتهر فرصة قيام ثورة جافوريو فاسترد من الجنوبيين قصر كالامانوس Calamanus بملحقاته من مصلاة ، وحمام ، وصهريج ، وقناء ، وكان اسحق قد منحهم هذا القصر في عام ١١٩٢ (١) ، وأسكن به بعض الألمان (٢) . ولكي تستعيد مدينة جنوا خطوتها لدى الامبراطور بعثت اليه بالطبيب نيكولاس حاملا رسالة تطلب اليه فيها أن يستقبل سفارة مكلفة بتجديد المعاهدات القديمة . وحين وصل هذا الطلب ، كانت السفن الجنوبية قد أغارت منذ قليل على الأراضي اليونانية وأحدثت بها بعض الدمار بحجة الاعتداء الذي وقع على البيزيين ، ومع ذلك أجاب الامبراطور اجابة مرضية (٣) . وكلف قناصلة جنوا لعام ١٢٠١ ، اوتو بوني ديلا كروتشي أن يمضى لعقد اتفاق جديد مع الامبراطور ، وكانت طلباته (٤) تتعلق بنقطتين : أولاها مسائل تتعلق ببعض الأفراد ، وتهتم بها حكومة جنوا ، ومضمونها أن يسترد الجنوبيون الذين أصابتهم خسائر مالية ما فقدوه من مال ، واطلاق سراح أولئك الذين مازالوا مسجونين في أعقاب مسألة جافوريو ، كما كان رد الاقطاعية التي نزعتم حديثا من جويريكو شرطا من شروط التسوية المطلوبة . وتعلق النقطة

(١) ليس ثمة شك في أن الأوصاف التي سوف نذكرها تتعلق بموقع واحد فحسب :
— Chartae II, 1224; Sauli, II, 196.

(٢) Mon hist. part., Chartae, II, 1224; Sauli, Storia di Galata II, 196; Serra (Storia dell'antica Liguria I, 434 et ss.)

— فيما يختص بالألمان ، آخر دون صعوبة أنهم هم المرتزقة الذين استقدمهم اسحق ، وضمهم الكسيوس اليه ، وغمرهم بأفضاله ورعايته : (Toeche, Heinrich VI, p. 364 et s.)
(٣) Miklosich et Muller, III, 46 et s.

— لا أجد في أي موضع برهانا على أن الطبيب نيكولاس قد أرسله الامبراطور في سفارة ، كما يؤكد السادة مولر وديزيموني : Muller et Desimoni (Giorn. ligust. 1874)

(٤) التعليمات التي ذكرت بها هذه الطلبات ، وصلتنا في نسختين خطيتين : نسخة في تورين ، في محفوظات (أرشيف) البلاط حيث استنسخها سولي Sauli لينشرها ، أنظر :
(Della Colonia di Galata II, 195-199) ، ولكنه لسوء الحظ صرف النظر عما اعتبره

ذا أهمية ثانوية ، أما النسخة الثانية فإنها محفوظة في « الأرشيف » السري بجنوا ، وقد نشرت في : Les monum. hist. part., Chartae II, 1224-1227; et dans Cibrario, Della economia politica del medio eco; 2e éd., III, 399 et ss.

وفي رأس النسختين دونت أسماء السلطات التي حررت هذا الأمر : وهي قناصل جنوا لعام ١٢٠١ ، ولكن أسماء هؤلاء القناصل في النسخة الأولى فقط تتوافق مع تاريخ ٤ مايو ١٢٠١ ، أما النسخة الثانية فإنها تحمل تاريخ ١٥ مايو ١٢٠٣ وهذا التاريخ يتعارض مع أسماء القناصل ، لأنه في عام ١٢٠٣ لم يكن القناصل هم أنفسهم قناصل عام ١٢٠١ الذين كانوا على رأس الحكومة ، بل حتى لم يكن ثمة قناصل ، لأن الحكومة كانت في أيدي « البودستات » جيزدوتو جرازيلو Guifredotto Grasello . وفيما يختص بالمواد فإنها محررة في النسختين بعبارات

متماثلة تقريبا .

الثانية بالملكيات والامتيازات ذات المصالح العام ، وموضوعها المطالبة بالتأخر من الاعانات المالية السنوية التي لم تدفع منذ سبع سنوات ، والحصول على علاوة في المستقبل ، والمطالبة بخفض الرسوم الجمركية من ٤٪ الى ٢٪ ، أو على الأكثر ٣٪ ، وترميم قصر كالاتوس الذي خربه الألمان الذين سكنوا فيه ، وأخيرا التنازل عن المباني التي تسد منافذ الحى الجنوى ، وأرصعة أخرى .

ولسنا نعرف رد الامبراطور على كل نقاط هذا البرنامج ، لأن المرسوم الذهبى الذى عاد به السفير الى بلده لم يحفظ ، أو أنه على الأقل لم ينشر : وليس لدينا سوى الوثيقة الاصلية ، والترجمة اللاتينية لبروتوكول التسليم المرفق بها (١) ، ويتبين منهما أن السفير حصل على الاذن بتوسيع الحى الجنوى .

هذا البروتوكول مؤرخ فى النسخة اليونانية الاصلية بعام ٦٧١١ ، وفى الترجمة اللاتينية بعام ٦٧١٠ ، ويقابل هذان العمان عامى ١٢٠٢ ، ١٢٠٣ من التاريخ المسيحى . ولما كانت السنة فى التقويم اليونانى تبدأ قبل نظيرتها فى التقويم الغربى بأربعة شهور ، أى فى أول سبتمبر ، ولما كان اليوم المذكور فى البروتوكول هو ١٣ من أكتوبر ، فانه يتعين التسليم بأن تاريخ الأصل اليونانى يوافق ١٣ من أكتوبر عام ١٢٠٢ ، وتاريخ الترجمة اللاتينية يوافق ١٣ من أكتوبر عام ١٢٠١ (٢) . هناك اذن اختلاف ، ولكن يبدو لى أنه يتعين تفضيل تاريخ النص اللاتينى بسبب أن تحديد تاريخ انعقاد المجلس فى الوثيقتين واحد : وعلى هذا يمكن التسليم بأن اوتوبونو ديلا كروتشى قد أنهى مأموريته فى ١٣ من اكتوبر ١٢٠١ . الا أن السيد كانالى Canale (٣) يؤكد أن الجمهورية لم تقبل التسوية بشكلها الأول ، وأعادت السفير نفسه الى القسطنطينية مزودا بتعليمات جديدة . هذه التعليمات المؤرخة ١٥ من مايو ١٢٠٣ ليست فى الكثير من النقاط سوى نسخة مطابقة من تعليمات ٤ مايو ١٢٠١ ، ويريد السيد كانالى أن يثبت بهذا الاستدلال أن التاريخ الحقيقى هو المثبت بالوثيقة الخطية بالمحفوظات السرية بجنوا . فلنعرض أنه على صواب : يتعين اذن التسليم بأن السفير عند عودته ثانى مرة الى القسطنطينية ، وجد هناك الجيش الصليبي الذى أطاح بحكومة الكسيوس الثالث فى صيف عام ١٢٠٣ . غير أن صعوبات جديدة تظهر عندئذ : ذلك أن تعليمات جديدة محررة فى شهر مايو عام ١٢٠٣ لا يمكن بأية حال أن تحمل فى مقدمتها اسماء قناصل عام ١٢٠١ . ينتج من ذلك أنه اذا كان تاريخ ١٥ مايو ١٢٠٣ لا يمكن الموافقة

Miklosich et Muller III, 49 et ss.

(١) أنظر النص الاصلى فى :

le Lib. jur. I, 496 et ss. : والترجمة اللاتينية فى :

Desimoni (Giorn. ligust. 1874, p. 168-171).

(٢)

- يتردد ديزيمونى بين سنتى ١٢٠١ و ١٢٠٢ ، ومع ذلك فهو يميل الى السنة الثانية ،

وعلى أية حال فهو يرفض تاريخ ١٢٠٣ للأسباب نفسها التى ذكرتها .

Nuova istoria della repubblica di Genova, II, 365 et s.

(٣)

عليه ، فان البعثة الثانية المنسوبة الى اوتوبونو ديلا كرتشي تكون غير مقبولة ، والحقيقة أنه لم يتم الا برحلة واحدة ، ولم يتلق سوى مرة واحدة تعليمات تاريخها الحقيقي ٤ مايو ١٢٠١ . وكانت الاجابة الامبراطورية التي عاد بها تتضمن التنازلات الأخيرة التي منحت لأمة تجارية غربية قبل الحملة الصليبية الرابعة . وبعد مضي سنتين كانت القسطنطينية في أيدي الصليبيين وعلى مدى نصف قرن كان الأمراء اللاتينيين هم الذين يسيطرون على البسفور .

بقي لنا ، قبل أن ندخل في القرن الرابع عشر ، ان نستعرض المدن الاقليمية اليونانية التي كان التجار الايطاليون يزورونها أو يقيمون بها قبل الحملة الصليبية الرابعة ، ثم نعود أدرجنا الى القسطنطينية ، وندرس نطاق الأحياء التجارية بها ووضعها ، ونذكر القليل الذي نعرفه عن الادارة والنظام الداخلي بهذه المستوطنات .

لقد أشرت من قبل الى أن المزايا التي منحها الأباطرة الروم للتجار الايطاليين ترخص لهم بممارسة التجارة في جميع أنحاء رومانيا حتى حدود الامبراطورية ، الا أنه حين تذكر أسماء مدن على سبيل المثال ، فان هذه المدن تكون دائما ، في أقدم الوثائق مدنا بحرية أو قرية جدا من السواحل ، ولا تظهر أسماء مدن داخلية الا في الوثائق الأكثر حداثة . ثم ان هذا كان هو المسار الطبيعي الذي تتبعه التجارة : فهي تبدأ بتثبيت أقدامها في الموانئ البحرية ، ومن هناك تنطلق متوغلة في داخل البلاد . وفي البداية كانت وسائل النقل المستخدمة دائما هي السفن وفقط في أواخر العصر الذي ندرسه الآن ، ورد في مرسوم لألكسبوس الثالث لأول مرة ذكر دواب النقل والعربات (١) . وأدت الرحلات التجارية داخل البلاد الى اقامة منشآت ثابتة ، ولم تكن المراكز الكبرى هي الوحيدة التي أقيمت فيها مثل هذه المنشآت ، فثمة مدن صغيرة نالت هذه الخطوة . وفي الامكان تقدير المدى الذي بلغته أعمال البنادقة التجارية - على سبيل المثال - في اقليم الامبراطورية ، من فقررة واردة في المعاهدة المبرمة في عام ١١٨٧ بين الجمهورية والامبراطور اسحق . نرى في هذه الفقررة أن للامبراطور أن يدعو الى حمل السلاح دفاعا عن الاقليم ضد الأعداء الخارجين ، ليس فقط البنادقة المقيمين في القسطنطينية ، ولكن أيضا من يقيم منهم بين القسطنطينية وأبيدوس ، وفي أبيدوس نفسها ، وبين القسطنطينية وفيلادلفيا ، وفي فيلادلفيا نفسها ، وأخيرا بين العاصمة واندرينوبل (حاليا ادرنة - المترجم) ، وفي اندرينوبل نفسها .

وسنبحث الآن ، بدءا من الشرق الى الغرب عن المدن التي أنشئت بها

Taf. et Thom. I, 257.

(١)

Ibid. I, 199.

(٢)

جاليات تجارية فينيسية وجنوية وبيزية . ففي فيلادلفيا ، المدينة الكبيرة المكتظة بالسكان على الحدود مع الأتراك (١) عند سفح جبل نمولس Tmolus (حاليا بوزدا - المترجم) بالقرب من سارديس Sardes القديمة ، كان يوجد بنادقة كما قلنا من قبل . وإلى الشمال ، في بيجي Pega (٢) . وجد فردريك بارباروسا في عام ١١٩٠ ، والبنادقة ، والفلامنك في عام ١٢٠٤ جاليات لاتينية ، وهم في الغالب تجار ايطاليون . وفي فجر الامبراطورية اللاتينية ازداد عدد السكان الغربيين بتلك المدينة حتى طالبت الادارة بتعيين اسقف كاثوليكي روماني (٣) . وعلى الهلسيونتس ، كانت أبيدوس ، موقع المراقبة الذي كثيرا ما احتلته أساطيل الغرب ، تضم جاليات فينيسية (أنظر فيما قبل) (٤) .

وبالانتقال الى أوروبا ، نجد في زمن مبكر للغاية بنادقة مقيمين على الشاطئ الشمالي لبحر مرمرة ، في رودستوس (رودستو) Rodosto وهي ميناء شديد الأهمية لتجارة الحبوب ، وفي خارج المدينة حي افرنجي به (مستودع) fondaco (٥) ، وبالقرب كنيسة مكرسة للعدراء ، ومستشفى ، وحديقة ، الخ ، وكانت الكنيسة في الأصل تابعة لدير سانت ماريا داندرينيويل ، الذي تنازل عنه رئيس رهبان يدعى هوج Hugues في عام ١١٥٧ الى دير سان جورجيو ما جيوري دي فينيسيا : S. Giorgio Maggiore de Venise . وقبل هذا التاريخ كان في رودستو دير للقديس جورج تابع لدير سان جورجيو ماجيوري . ولكل صفقة تعقد في هذه المدينة ، سواء بخصوص مادة صلبة أو سائلة يتجاوز وزنها خمسين رطلا يتعين على كل تاجر فينيسي أن يستخدم موازين الدير ومكاييله مقابل دفع رسم معين ، وكان الروم أيضا يستخدمون هذه الموازين والمكاييل ، ولكن فقط بالنسبة الى الصفقات التي يعقدونها مع البنادقة (٦) . وفي تراقيا كانت اندرينوبل (حاليا أدرنه) وفيليبوبولي Philippopoli مركزين تجاريين هامين ، وقد ذكرنا قبلا أنه كان يوجد بنادقة بالمدينة الأولى في عهد الامبراطور أسحق . ولكن

(١) Nicét, p. 521; Georg. Acrop. p. 111, 112; R. Muntaner, trad. Lanz, II, 115.

(٢) Pegoe ، واسمها الحال بالتركية Bigha واقعة على مرتفع يشرف جنوبا على السهل الذي يخترقه نهر جرانيك Granique قبل أن يصب في بحر مرمرة .

(٣) Ansbert, De expeditione Frid., éd. Tauschinski et Pangeral, p. 56;

Villehardouin, l. c.; Nicét, p. 795; Innoc. 111, Epist., XII, 144, éd. Baluze, 11, 355 et s.

(٤) Procop., De aedif. IV, 9; Mich Attaliota, p. 202.

(٥) Taf. et Thom. I, 138.

(٦) Les chartes des années 1145, 1147, dans Taf. et Thom. I, 103. et s., 107 et s., 137 et ss.

إذا سلمنا ، كما رأينا منذ هنية أن دير سانت ماريا بهذه المدينة كان منشأة فينيسية ، يكون من الثابت أن استيطان البنادقة بها يرجع الى تاريخ سابق وكانت مدينة فيليبوبولى يسكنها تجار أرمن (١) ويحلق بها خارج أبوابها حتى لاتيني أنيق (٢)

وفي مقدونيا كان لتسالونيك في كل زمان علاقات تجارية واسعة النطاق، وتقع هذه المدينة على طريق اجناسيا Via Egnatia ، الطريق الكبير الذى يمتد من دوراتزو Durazzo الى القسطنطينية ، فكان يمر بها كل يوم أطواف من المسافرين، فضلا على أنها كانت تتيح للسفن ميناء فسيحا وأميناً (٣)، لذلك كانت البضائع ترد اليها من كل الجهات ؛ وكانت تنافس القسطنطينية (٤) من حيث الترف والرفاهية . ولم تكن حركة التجارة فى أية فترة من فترات السنة أكثر نشاطا منها فى فترة سبوق أكتوبر التى توافق عيد القديس ديمتريوس شقيع المدينة . وفى ذلك الحين نشأ خارج أسوار المدينة ، مثلما يحدث فى المعجزات مدينة ثانية مكونة من صفوف من الأكواخ ممتدة حتى مدى البصر . وكان تجار القسطنطينية يجلبون اليها على ظهور الخيل والبغال منتجات شواطئ البحر الأحمر (وغالبا الجلود والفراء والأسماك المملحة) ؛ وكان تجار فينقيا ومصر وإيطاليا وأسبانيا يصلون اليها مباشرة بطريق البحر ؛ وكانت الأقمشة صنع نساجى بيوتيا Brötie الماهرين تنافس الطنافس البديعة المزركشة (أغطية المذبح) من « أعمدة هرقل » (وكان هذا الاسم يطلق دون شك على القسم الجنوبى من أسبانيا الذى يسيطر عليه العرب) . ويتكون الحشد الذى يتزاحم فى مضمار السوق من يونانيين وبلغاريين وإيطاليين وأسبانيين وبرتغاليين وفرنسيين (٥) ، ويجد الكثير من تجار العرب من مصلحتهم أن يستقروا بصفة دائمة فى تسالونيك . وبمرور الزمن تكون على هذا النحو حتى لاتيني كامل فى داخل المدينة ، ملاصق للأسوار . ويتحدث اوستات عن هذا

Nicét. p. 527, 534.

(١)

(٢) كان نبيند بيليبو بولى يصدر الى الغرب

Odo de Diogilo, éd. Chifflet, p. 27 et s.

— Willehalm, 448, 7, cité par Schultz, Hoefisches Leben, I, 301.

Ellissen, Michael Akominatos, p. 70; Joann. Comeniat. De excidio (٣)

Thessal., éd. Bonn. p. 492; Tafel, De Thessalonica ejusque agro, p. 209 et s.

Ellissen, op. cit., Eustathe, Opu., éd. Tafel, p. 304 et s.; Tafel, (٤)

Komnenen und Normannen, p. 192 et s., 197.

Dialogue de Timarion, Chap. 5 et 6 (éd. Hase, Notes et extr. IX, (٥)

2, p. 171-174 : éd. Ellissen, dans les Analecten der mittel-und neugriechischen Literatur, vol. IV, sect. 1, p. 46 et ss., 98 et ss.); cf. Tafel,

De Thessalon. p. 227-230.

الحى فى مناسبة استيلاء النورمان على تسالونيك (٢٤ أغسطس ١١٨٥) (١) : فمن أعلى برج متاخم لهذا الحى ، أرسل بعض الخونة اشارات كان لها فائدة كبيرة للمحاصرين ؛ وكان الايطاليون يشكلون فى هذه المدينة الأغلبية ، على الأرجح ؛ ونعرف بنوع خاص أن البيزيين كان لهم ثمة مستوطنة . فالواقع نطالع فى التعليمات المحررة فى بيزا عام ١١٩٧ الى اوجتشيونى بونو ، وبيتيرو مودانو أن عليهم أن يطلبوا من الامبراطور أن يعيد اليهم (أو ربما يعطيهم اعترافا جديدا بالملكية) المنازل والسوق التى كان من عادة البيزيين منذ زمن بعيد النزول فيها ، والتصريح باقامة فيكونت بها ، بشرط أن لا يستتبع ذلك أى تكليف أو ضريبة (٢) . وقد حظى هذا الطلب بالموافقة ؛ الأمر الذى ينبئنا به مذكرة صغيرة أرفقها فيكونت القسطنطينية بحساباته لعام ١١٩٩ (٣) .

فاذا نزلنا من تسالونيك واتجهنا صوب الجنوب ، قابلنا فى تساليه Tessalie ، فى خليج فولوس Volo مدينة الميرو (أرميرو) Almyro, Armiro . ويتحدث بنيامين دى توديل ، والادريسي ، وهما معاصران للامبراطور مانويل عن هذه المدينة ، على أنها موقع تجارى كبير الأهمية . وتكمل معلوماتهما ، بعضها بعضا : فالادريسي يذكر أن اليونانيين يحضرون اليها بضائعهم ، كما يشير بينامين الى الأمم الغربية التى تأتى ثمة لاجراء مبادلات تجارية معهم ، ويذكر بخاصة البيزيين ، والجنوبيين ؛ والبنادقة ، وغيرهم أيضا (٤) . واشتلت أن الغربيين كانوا يصلون عادة الى أليرو عن طريق البحر . ومع ذلك يشير الادريسي الى طريق يبدأ من أفلونا Av.ona ويعبر مباشرة شبه الجزيرة من الغرب الى الشرق حتى ينتهى الى الميرو (٥) . والراجح أن هذا الطريق كان يستخدمه التجار الايطاليون ، وأن الجغرافى العربى الذى كان مقيما بصقلية قد سمع من أفواه بعض هؤلاء المسافرين المعلومات التى يذكرها عن هذا الطريق ، وعن الكثير غيره . وفى حوزتنا وثائق تتيح لنا أن تتبع المنشئات التجارية التى أقامها الايطاليون فى أليرو منذ منتصف القرن الثانى عشر : هذه الوثائق هى صكوك رهن عقارى ، وشراء ، وهبة صادرة من رعايا بنادقة اشترؤا ثمة أراض وبنوها ، منهم شخص يدعى ستيفانو كابيللو

(١) Annal. Ceccan., dans Pertz, SS. XIX, 287; Eustathe, opux, éd.

Tafel, p. 293.

— هذا التاريخ هو الصحيح ، تبعاً لهذه المراجع .

— اما نيكتاس ، ص ٣٩٢ فإنه يذكر تاريخ ٢٥ أغسطس ، ولكن هذا خطأ .

(٢) Opux., éd. Tafel, p. 260; Tafel, Komnenen und Normanen, p. 146.

Doc. sulle relaz. tox, p. 72

Ibid. p. 78.

Edrisi, II, 296; Benj. de Tudél., ed. Asher, p. 49.

Stefano Capello ، بدأ يرهن أملاكه لصالح كنيسة القديس مرقس التابعة للبنداقية بالقسطنطينية ، وانتهى بأن باعها لها ؛ وشخص آخر يدعى ناتالي بيتاني Natale Betani وهب أملاكه لكنيسة سان جورج الفينيسية بمدينة الميرو (١) هؤلاء الأشخاص كانوا بالتأكيد أعضاء فى جالية كبيرة ، آية ذلك وجود العديد من الكنائس الفينيسية بالمدينة (٢) ، وبالأخص ذلك العدد الكبير من البنداقية الذين هربوا من الميرو فرارا من اضطهاد مانويل (٣) . والى جانب المستوطنة الفينيسية ، كان هناك مستوطنة بيزية ترجع الى العصر نفسه تقريبا . وفى أثناء الحرب التى شنها وليم الأول ملك صقلية على الامبراطور مانويل ، استولى أسطول صقلى على مدينة الميرو . وفى خلال الهرج والمرج نهبت كنيسة القديس جاك التابعة للبيزيين ، وبرجها ؛ والتهمتها النيران (١١٥٨) (٤) على الرغم من مرسوم صادر من انستاسيوس الرابع Anastase IV قبل ذلك ببضع سنوات (١١٥٣) صرح فيه هذا البابا أن يشمل بحمايته هذه الكنيسة مع كل أملاكها ، وفرعها كنيسة القديس نيقولاس Nicolas (٥) ، واحتفظت مدينة بيزا بحق التمتع بالأموال التى تملكها فى الميرو طوال هذه الفترة وما بعدها : ذلك أنه بناء على طلب سفرائها صدق الامبراطور الكسيوس الثالث على هذا الحق (٦) . ويبدو أن المستوطنتين اقتديتا بوطنهما الأصلي ، كما أدى تنافسهما الى منازعات صريحة بينهما ، يدل على ذلك المعاهدة المنعقدة فى عام ١١٨٠ بين بيزا والبندقية : فقد التزم الطرفان المتعاقدان بألا يحصنا الأحياء التى يملكانها فى الميرو ، وألا يحاولوا اذلال أحدهما الآخر بأن يزيد أى منهما من ارتفاع كنيسته أو أبراجه بحيث تفوق ارتفاع كنيسة أو أبراج الآخر ، وأن يجعلوا ذرى بيوتهما على مستوى واحد وأخيرا أن يلجئا الى القضاء لردع ما يقدم عليه أفراد مستوطنة منهما من انتهاكات لحقوق أفراد المستوطنة الأخرى (٧) . وكان فى الميرو أيضا مستوطنة جنوية ، وهذه حقيقة لا بد لنا من التسليم بها لأن بنيامين دى توديل قد ثبت له هناك وجود تجار من هذه الأمة ؛ كما نجد فى تحقیقات السفير جريما لدى أن الجنويين اشتركوا فى الدفاع عن المدينة ضد البنداقية على ١١٧١ - ٧٢ (٨) .

(١) les Chartes des années 1150, 1151 et 1156, dans Taf. et Thom. I, 125-133, 136 et s.

Doc. sulle relaz. tox. p. 22.

Hist. duc. Venet. p. 79.

Annal. Pis. Marang., dans Pertz, SS. XIX, 243 et s.

Doc. sulle relaz. tox. p. 5.

Ibid. p. 71, 78.

Ibid. p. 20, 22.

Sauli, II au bas de la page 185

ولسنا نجد في غضون الفترة التي ندرسها سوى القليل جدا من الدلالات على رحلات قام بها تجار ايطاليون في وسط اليونان والمورة . ومع ذلك كان يصنع في طيبة حرائر مشهورة كان البنادقة يأتون للحصول عليها ، وكان الجنوبيون أيضا يزورونها للغرض نفسه (١) . نذكر أيضا كورنثوس Corinth و يشيد نيكثاس بسرائرها ، ويقول ان الايطاليين يأتون ثمة ويلقون مراسيهم في أحد موانئها ، بينما يرسو الأسويون في الميناء الآخر (على الجانب الآخر من البرزخ) وان المبادلات التجارية تجري في المدينة (٢) .

ولابد أن نذكر في المرتبة الأولى من جزر اليونان جزيرة بوبويا Eubée ، وكانت عاصمتها نيجربونت تجذب اليها جموعا كبيرة من التجار (٣) ؛ ثم جزيرة أندروس بمصنع حرائرها ، وكانت مزدهرة منذ مستهل القرن الثاني عشر (٤) ؛ وخبوس Chio ومزارعها التي تنتج المستكة (شجر يستخرج منه صمغ يمضغ) ، وأخيرا ليمنوس Lemnos حيث حصل رئيس كنيسة القديس مرقس (سان مارك) الفينيسية في القسطنطينية في عام ١١٣٦ من رئيس الاساقفة هبة تتمثل في مصلى بشرط أن يقيم مكانها أو بجوارها كنيسة أكبر حجما تحت حماية القديس جورج (٥) : هذه المعلومة تثبت وجود حركة تجارية مستديمة بين البندقية والجزيرة . ولا حاجة بنا الى القول بأن المحطتين الكبيرتين لطريق الشرق الأدنى : جزيرة كريت ، وجزيرة رودس تستقبلان كثيرا في موانئهما سفنا من كل دول الغرب البحرية (٦) .

غير أنه مهما كان الرخاء الذي تتمتع به كل هذه المحاط القائمة على طول سواحل الامبراطورية اليونانية وجزرها ، فانه لا يعد شيئا بازاء ما تتمتع به العاصمة ، القسطنطينية ، بموقعها الممتاز ، فقد كانت مهيأة لأن تغدو مركزا من المراكز التجارية الرئيسية في العالم ؛ لذلك كان لها جانبية خاصة للايطاليين : فكان هدفهم الدائم أن يمتلكوا بها أحياء تكون بقدر المستطاع واقعة لا في أرباض المدينة أو ضواحيها ، ولكن في المدينة ذاتها . ولقد رأينا من قبل بصورة عامة أنهم أصابوا غايتهم . وآن الأوان لنقول بنوع خاص ان هذه

(١) يتبين هذا من تعليمات كتبت لسفير جنوى ، لم يعرف اسمه ، بعث الى بلاط القسطنطينية

بعد عام ١١٧٠ .

— Desimoni, dans le Giorn. ligust. 1874, p. 156.

Nicét. p. 100.

(٢)

Benj. de Tudél. éd. Asher, p. 47.

(٣)

Soewulfi (1102-1103) itinirarium, dans le Recueil de voy. et de

mém., publ. par la Soc. de Géogr. VI, 834; Archiv. fuer oesterreich. Geschichtsquellen, XIV, p. 80.

Taf. et Thom. I, 98 et ss.

(٥)

(٦) نجد مثالا لذلك في خصوص كريت في

— Les Mon. hist. patr. Chartae, II, 1226.

«الأحياء كانت أحياء تجارية • ونجد في « المراسيم الذهبية » للأباطرة الروم البيزنطيين ، ومواثيق التملك المرافقة لها وصفا مضبوطا للرقعة الممنوحة لكل أمة ، والرسم الرقيق لمحيطها ، وتعيين المباني العامة القائمة في دائرتها أو على حدودها • ونتج عن الحرائق ، والثورات الشعبية ، والغزوات ، وبخاصة الأخيرة منها ؛ غزوة الترك ؛ نتج عنها تغيرات كبيرة في المدينة ، حتى أصبح من المستحيل تقريبا ، باستثناء حالات نادرة ، حتى بالنسبة الى أكثر الأشخاص معرفة بالأماكن تحديد مواقع المباني المذكورة في هذه الوثائق ، وليس في هذا ما يبعث على الدهش • ومع ذلك تسنى حديثا لطبيب يوناني مقيم بالقسطنطينية ، وهو السيد الكسندر باسباتي Alexandre Paspatis أن يحرز تقدما كبيرا في دراسة الأحياء التجارية (١) • غير أنه من الضروري أن تقدم بعض المعلومات الأولية قبل أن نقف أثره في الأحياء التي كان يشغلها التجار الأجانب • ففي القسطنطينية البيزنطية ، وبالأخص في ألسامها الأكثر ازدحاما بالسكان ، كان بها عدد كبير من الشوارع التي تكتنفها « بواكى » يحتوى فيها المارة من المطر ، وقيظ الشمس • كان هذا النظام يتيح للتجار مزايا خاصة ، فيسر لهم إقامة حوانيتهم ؛ ومن ثم كانت الامتيازات الممنوحة من الأباطرة الى الأمم التجارية تتضمن عادة شارعا أو اثنين من هذا النوع ، بحيث أن مساكن التجار كانت اما متاخمة لهذه الشوارع ، أو متجمعة حولها ، ومن ثم فإن الجى بأكمله ، حتى ولو شمل مجموعة كبيرة من البيوت كان يطلق عليه اسم هذا النوع من الشوارع ذات البواكى (باللاتينية embolum (٢) •

وكثيرا ما نجد في صكوك التملك ذكرا لبعض أجزاء سور المدينة أو بعض الأبواب ، وفي هذا اشارة الى موقع الأحياء الممنوحة للايطاليين • وكان الأغلبية العظمى من المنازل في داخل المدينة ، ولكن البعض منها كان خارجها ، على الشريط الواسع بنوع ما ، الذى يفصل المدينة عن البحر ؛ وتنتهى الأحياء كلها دون استثناء الى « القرن الذهبى » ، أى مرفأ القسطنطينية • ولا يبدو أن هذه الأحياء قد توغلت كثيرا في داخل المدينة •

ومن العناصر الرئيسية لهذه المنشآت الأسكلة ، وكان هناك اسكلات كثيرة

(١) كان تحت ناظرى ، وقت اتمام هذا الكتاب ، الدراسات الأربع الكاملة التى جمعها هذا

المؤلف •

Ducange, Constantinopolis christiana, lib. I, p. 109 et ss.

(٢)

— جمع دوكانج عددا كبيرا من الاستشهادات التى ذكر فيها هذه الشوارع ذات « البواكى »

فى القسطنطينية • أنظر أيضا :

— Mich. Attal, p. 211, 275 et s.; Codin, De orig. Cpol, p. 22 ;
cf. Stephanus s.h.v.; Reisha, Comment de Constant. Porphyre, De
Cerim, II, 130; Goar, Comment, de Cedren, p. 783; Unger, Griech.
Kunst, dans Ersch et Gruber, sect. 1, vol. LXXXIV, p. 332.

مخصصة لكل أمة ، وهى من توابع الحى ، وتكفل الاتصال بين الحى وبين السفن التى تلقى مراسيها فى أقرب نقطة .

ونحاول الآن أن نحدد موقع كل من هذه الأحياء ، بادئين بحى البنادقة ، فهو أقدم الأحياء كلها . كان هذا الحى فى قلب الحياة التجارية ، فى مكان يسمى بيراما Perama (١) : ويرجع اسم هذا الجزء من المدينة الى أنه كان موضع الرسو لضاحية غلطة Galata (بيرا Pera) الواقعة على الضفة المقابلة للخليج (٢) . وكان باب بيراما (٣) واسمه الحالى Balik-Bazar-Kapoussi (اى باب سوق السمك - بالتركية - المترجم) من النقط القائمة على حدود حى البنادقة ، وفى الناحية المقابلة يمتد الحى الى المكان المسمى Hebraica أو Judeca (٤) ، ولم تكن هذه الكلمة تعنى فى هذه الحالة « حى اليهود » ؛ وينبغى الا ننسى أن اليهود كانوا قد طردوا من المدينة فى عهد ثيودوسيوس الثانى Theodose II (٤٠٨ - ٤٥٠) (٥) ، وأنهم كانوا طوال الفترة التى ندرسها يقطنون القسم من ضاحية غلطة المجاور للبسفور ، وهذا القسم ، مثل سائر الأراضى الواقعة على ضفتى البسفور معروف عامة باسم « المضيق » (٦) ، وعلى ذلك فليس من النادر أن نجد فى المصادر التاريخية هذه الكلمة ؛ ويقصد بها حى اليهود . وفى عام ١٠٧٧ أى قبل أن يمتنع الامبراطور الكسبيوس الأول البنادقة اقليم « ab Hebraica ad viglam » ببضع سنين شب حريق هائل أحال منازل اليهود الى رماد (٧) . وحتى عهد مانويل كان رئيس (stratège) حى اليهود هو القاضى الوحيد الذى يمكنهم أن يلجأوا اليه (٨) . وخين زار بنيامين دى توديل القسطنطينية وجد اخوانه فى الدين فى « بيرّا » ، ولم يكن هؤلاء يذهبون الى القسطنطينية الا من أجل شئونهم فى « بيرّا » ، ولم يكن هؤلاء يذهبون الى القسطنطينية الا من أجل شئونهم التجارية ، فيصلون اليها فى مراكب (٩) ، وكان لهم أيضا جبانتهم فى بيرّا ،

Taf. et Thom. I, 50, 52; Paspatis, VI, 163.

(١)

Paspatis, 1. c.; cf. Nicét. p. 384.

(٢)

«Porta Peramioe» ; Taf. et Thom. I, 56.

(٣)

Ibid. I, 50, 52, 56.

(٤)

Codinus, De aedif. Cpol. p. 83.

(٥)

(٦) نجد من ذلك أمثلة كثيرة فى :

Tafel, Symbolae criticae ad geogr. btz. spect., Pars posterior (Abh.

der 3e Cl. der Muenchen. Akad., vol. 5, sect. 3) p. 96-98.

Cf. Krug, Chronologie der Byzant. p. 190 et ss.; Wilken, Ueber die Verhaelt-nisse der Russen zum byzant. Reiché dans les Abhandl. der Berlin, Akad., 1928, p. 85 et s., 102.

Mich Attal, p. 252.

(٧)

Zacharicé, Jus graeco-romanum, III, 504.

(٨)

Benj. de Tudél, éd. Asher, I, 55 et s.

(٩)

كما يقول ينكتاس (١) . نضيف أخيرا ، حتى ننتهي من موضوع حي اليهود ، أنه في عام ١٢٠٣ وجد الصليبيون الميناء مسدودا بسلسلة ، فاتهموا إلى ستينون (l'Estanor) Stenon حيث استقروا (٢) .

من الثابت أنه لايجوز ترجمة كلمة Hebraica التي توجد في الميثاق الذي منحه الكسيوس إلى البنادقة ، ولا كلمة Judeca التي تشير إلى الموقع نفسه ، والتي نقرأها في وثيقة فينيسية أخرى متأخرة عن الأولى بشأني سنوات فقط ، بعبارة « حي اليهود » . ولايزودنا النص اليوناني الأصلي بالتفسير الصحيح للكلمة ، فلا يبقى لنا سوى أن نطلب هذا التفسير من كاتبة جديدة بالثقة ، على علم تام بتصرفات المكسيوس وبنواحي القسطنطينية ، تلك هي آن كومنينوس : اذ تقول ان الأرض التي منحها الأمبراطور البنادقة تمتد من رصيف اليهود القديم حتى مركز الحراسة الذي سوف نعود إلى الحديث عنه بعد قليل . والآن ، في أي موضوع اعتاد اليهود ، أو بالأحرى كانوا مضطرين أن ينزلوا به من مراكزهم عند قدومهم من « غلطة » ؟ هذه المعلومة غير مذكورة للأسف في أي مرجع ؛ ومع ذلك ففي وثيقتين من القرن الثالث عشر إشارة إلى Porta ebraica (باب اليهود) باعتباره جزء من حي البنادقة (٣) . فضلا عن ذلك ، يتبين من أحدث الوثيقتين أن باب اليهود هذا يؤدي إلى قصر « الدانجار يوس » Drungarios أو كما يقال حاليا « الإميرالية » (مركز القيادة البحرية) (٤) ومن الراجح كثيرا أن هذا الباب هو الذي كان يحمل في نهاية ذلك القرن اسم Porta Drungarii (٥) . ومع ذلك فاننا لم نتقدم كثيرا بهذه المعلومات . ولتر اذن ما اذا كان بوسعنا أن تقترب من هدفنا عن طريق آخر . فبعد مرور قرن ونصف من الزمان ، يظهر مرة أخرى اسم porta judoea الذي يطلق على أول باب يصادفه المرء حين يبدأ من الموضع الذي يقع حاليا عند طرف « السراي » (قصر السلطان) فيسير مجاذبا سور المدينة من ناحية الميناء متجها صوب الغرب . وهذا أيضا هو الاسم المثبت على خريطة القسطنطينية التي رسمها « بوندلمونتي » Buondelmonti (١٤٢٢) (٦) . وفي العهد التركي ، سمع لونيلاف يوس Leunclavius (٧) أيضا عامة الشعب يطلقون على أول باب بعد « السراي » اسم hebroea ؛ وهذا هو نفس الباب الذي كان يطلق

Nicét, p. 382.

(١)

Villehardouin, éd. de Wailly, p. 88.

(٢)

Taf. et Thom. II, 5, 271.

(٣)

« Porta qua exitur ad Drungarium, quae dicitur Ebrayki ».

(٤)

Taf. et Thom. III, 139; Miklosich et Muller, 111, 88.

(٥)

Cpol. christ de Ducange.

(٦) توجد هذه الخريطة في مقدمة :

Pandect. hist. turc. 1596, p. 206.

(٧)

عليه في أواخر العهد البيزنطي الاسم القديم *Porta Neorue* (١) محرفا بعض الشيء فإذا سلمنا بأن هذا الباب اليهودي في أواخر العصر البيزنطي وفي العصر التركي هو نفس « باب اليهود » *Porta hebraica* في العصر اللاتيني ، و *scala hebraica* (مرسى اليهود) الذي ذكرته آن كومنينوس ، فانا نستنتج أن الحي الفينيسي كان يمتد من *Porta Permatiss* وهو حاليا *Balik-Bazar-Kapoussi* و *porta piscarie* الذي ذكره بوندلونتي (حتى باب *Porta Neorue* القديم ، أي الباب المسمى حاليا *Baghtche-Kapoussi*) بالتركية : باب الحديقة . غير أن هذا الاستنتاج يبدو لأول وهلة غير مقبول ، لأن هذا الباب المسمى *porta Veorue* كان موجودا كما سنرى في منطقة البيزين ، وأن الرقعة الموجودة ناحية الغرب ، أي من جانب باب سوق السمك كان يشغلها الأمافيون . ويبدو أن الباب الذي أطلق عليه البيزنطيون الآخرون والأتراك اسم « باب اليهود » لم يكن له أية علاقة بالباب الذي أسماه البيزنطيون القدامى واللاتينيون الاسم نفسه . ولابد أن الباب الذي كان معروفا حتى عام ١٢٢٩ باسم باب اليهود ، ثم من هذا التاريخ باسم *porta Drungarie* (٢) كان واقعا الى الغرب من *la porta Permatiss* ، وكان موجودا على الأرجح في موقع الباب المسمى حاليا *Zindan-Kapoussi* (باب السجن ، وفيما مضى باب سوق الأعشاب) . هذا أيضا هو رأي باسباني *Paspatis* ، فهو يجعل حي البنادقة في المنطقة المحصورة بين باب سوق السمك وباب السجن ، ويسلم بتماثل هذا الأخير مع باب « الأمرالية » *Porta Orungaru* نجد أيضا بين أسماء الصروح الواقعة على حدود حي البنادقة ، نصب : *La Bigla* (مركز الحراسة) ، والمزار المتاخم *Sacrum* (٣) ، وليس لدينا أي دليل يسمح بتحديد الموقع . وقد أراد البعض (٤) أن يبحث عن مكان هذين الصرحين في موقع « باب السجن » ، غير أنه يستحيل التوقف عند هذا البحث ، لأن الأمر يتعلق بجدول ماء أو قناة آتية من « مركز الحراسة » ؛ وعلى ذلك يتعين التسليم بأنه « أي مركز الحراسة » كان موجودا داخل المدينة . نستنتج من كل ذلك أن البنادقة كان لهم حيهم قبالة الباب المسمى حاليا « باب سوق السمك » ، والذي كان يستخدم في كل الأزمات كطريق للمواصلات

Gyllius, De bosporo Thracio, dans Muller Geographie groeci (١)
minores, II, p. 22; Leunclav. I. c.

Taf. et Thom., II, 11 60; la Scala Drongario Scala hebraica (٢)

Taf. et Thom. I, 50, 52, 56, 111 et s. (٣)

Paspatis, VI, 162, not. 4, 164, not 4. (٤)

بين القسطنطينية وبين ضاحية غلطة (١) : والراجع أنه كان يمتد من هناك حتى « باب السجن » ، وأن الأرصفة الثلاثة المخصصة لهم كانت موجودة أيضا في هذا القطاع (٢) . بقى أن نعرف أبعاد الحى فى داخله .

ولنتقل الى البيزين : ان ما كان لباب porta permatis عند البنادقة كان لباب porta Neorii (باب دار الصناعة ، أو الترسانة Arsenal) بالنسبة الى البيزين . هذى هى النقطة الثانية التى يمكننا أن نبدأ منها لكى نحدد على وجه التقريب موقع حيهم . هذا الباب يقابل الباب الذى يحمل حاليا اسم Baghtché-Kapoussi ، أى باب الحديد (٣) ؛ وتبعاً للوثيقة الصادرة من الامبراطور انجليوس عام ١١٩٢ ، وهى الوحيدة التى تعطينا بعض التفاصيل عن حى البيزين ، كانت أرصفتهم (٤) موجودة ؛ معظمها أو كلها غربى هذا الباب (٥) . وعلى هذا كان حيهم يمتد من « باب الحديد » الى « باب سوق السمك » حيث يبدأ حى البنادقة ؛ غير أنه لم يصل الى هذا الحد ، اذ كان هناك بين الحين مستودع صغير ورصيف تابعان للأمافيين ، وأسكلة أخرى خاصة بدير القديس انطوان اليونانى (٦) .

بقى علينا أن نتحدث عن ممتلكات الجنويين فى القسطنطينية (٧) . وتبعاً للعرض التاريخى الذى قدمناه عن الأحداث الخاصة بهم نعرف أنهم غيروا مرارا حيهم . وقد استهل ديمتريوس واكريمبوليتس المفاوضات فى هذا الشأن فى عام ١١٥٥ بتكليف عن الامبراطور اسحق ، والراجع أن أميكو دى مورتا المؤقد من قبل جمهورية جنوا بعد هذا بسنتين كان هو الذى استلم الأرض المعينة . ولم يكد المستوطنون الجنويون يستقرون فى حيهم حتى وقعت بهم من جانب البيزين الغارة الرهيبة التى نعرفها من قبل . وحين مرت العاصفة طالبوا بتعويضات عما وقع بهم من أضرار ، ونجد فى الوثائق المكتوبة فى هذه المناسبة ، لأول

(١) Gyllius, I. c. Leunclavius, I. c. ; Paspati, VI, 163, 165 et s.; Hammer Constantinopel und der Bosphorus, I, 102.

(٢) Taf. et Thom. I, 52; ibid. I, 57, 112, 183; II, 11 60.

(٣) Paspati, VI, 156; 153.

(٤) لم يكن للبيزين حتى عام ١١٩٢ سوى رصيف واحد ، ولم يذكر كل من الكسيوس ومانويل فى براءتهما سوى رصيف واحد (doc. sulle relaz. tox. p. 45 et s., 53 et s.) وفى عام ١١٦٢ لم يكن لدى السفيرين يوتاتشيو وجريفى الا رصيف واحد (ibid. p. 10) Ibid. p. 48 et s., 57 et s.

(٥) انظر شرح براءة اسحق فى : Paspati, VI, 155 et s., VI, 153 et s.

(٧) بخلاف كتاب بامياتى فى هذه المسألة ، بحسن البدء بقراءة :

Le Memoria sui quartieri dei Genovesi a Constantinopoli nel secolo XII dans le Giorn. ligust. 1874, p. 137-180, par C. Desimoni.

مرة اسم أول حى شغلوه . كان اسم هذا الحى (1) Embolum de Sancta Cruce ، وموقعه غير معروف بالمرّة ، ثم أنهم هجروا هذا الحى بعد غارة البيزيين . ومن ناحية أخرى ، كان الامبراطور مانويل مستاء كل الاستياء لأن يرى تنافس الأمم التجارية ينقلب الى معارك تنشب حتى فى شوارع عاصمته ، وكان نفوذ اللاتينيين القوى فى القسطنطينية يثير قلقه ، ومن ثم منحهم فى أكتوبر ١١٦٩ بدلا من حيمهم الأصلي حيا آخر خارج المدينة ، فى منطقة تسمى اوركو Orcu (٢) . وعلى الرغم من عبارات النص الواضحة كل الوضوح ultra Constantinopolim أى خارج القسطنطينية) ، فان السيد باسباتى يصر على أن هذه المنطقة موجودة داخل المدينة ، ولا يكتفى بهذا ، بل يبيح لنفسه أيضا أن يغير فى لفظ النص حتى يتسنى له أن يحدد الموقع الذى يبحث عنه : ففى رأيه أنه يجب أن نقرأ orea بدلا من Orcu ، وهذا اسم أطلقه البيزنطيون فى عهدهم الأخير على الـ porta Neoriri (٣) (بوابة الحديثة) . ومع ذلك فحسبنا أن نفحص الوثائق المذكورة قليلا لكى نهدم هذه الفروض . فأوركو Orcu كانت ولم تنزل منطقة واقعة خارج القسطنطينية (٤) ، يفصلها البحر عن المدينة (٥) ، ونجدها على الأرجح فى بيرا Péra . ومن المشكوك فيه أن يكون الجنويون قد قبلوا الحى الذى منحوه ، لأنهم لم يرتاحوا اليه بالمرّة : وكان المرسوم الذى منحهم هذا الحى قد صدر فى شهر أكتوبر ١١٦٩ ، وفى السنة التالية صدر مرسوم آخران فى شهرى أبريل ومايو ، نعلم منهما أن الامبراطور استجاب أخيرا لرغباتهم ، فعين لهم حيا آخر داخل أسوار المدينة intra-muros ، استقروا فيه نهائيا ، وكان اسم هذا الحى الجديد تبعا للمنطقة القائم بها embolum de Coparia (٦) هذا الاسم Coparia أو Coparion كوباريا ، أو كوباريون (٧) مقتبس من كلمة يونانية ، معناها : مجداف . والواقع كان يوجد فى هذا الحى من قديم الزمان ورش المجاديف ، واستمر الجنويون يمارسون هذه الصناعة (٨) . ولا تزودنا

(١) Sauli, II, 184; Desimoni, I, c. p. 159.

— يبدو لى أنه من غير المحتمل أن يكون هذا الحى ، وحى كوباريا Coparia قسمين من حى واحد كما يقول باسباتى ، ولم يشغل الجنويون أبدا هذين الحين فى وقت واحد .

(٢) Sauli, II, 192, Lib. jur. I, 254.

(٣) Paspati, VI, 147; p. 138 et s.

(٤) الى جانب كلمة ultra (Sauli, II, 192) التى حولها باسباتى الى inter

— Lib. jur. I, 254; Desimoni, p. 180.

توجد عبارة

Desimoni, p. 180.

(٥)

(٦) Sauli, II, 185; Desimoni, p. 178.

(٦)

(٧) Desini, I, c.; Mikl. et Mull. Acta graeca, III, p. vi.

(٧)

(٨) Mikl. et Mull. I, c. p. 51, 52; Lib. jur. I, 497 et s.; Sauli, II, 196:

(٨)

والمصادر اليونانية بأية بيانات عن موقع هذا الحى (١) ، كما أنها لا تعرفنا أين توجد بوابة تسمى *porta veteris rectoris* أو أيضا *porta bonu* (٢) التى ورد ذكرها فى الوثائق الرسمية المذكورة آنفا . أما الجهات الأخرى المذكورة أسماؤها فى هذه الوثائق فأنها لا تفيدنا باعتبارها نقطا للاستدلال ، أما لأنها غير معروفة ، وأما لأنه لا يمكن تحديد مواقعها (٣) . ومع ذلك ففى الامكان أن نعين بوجة عام موقع الحى الجنوى فنحن نعرف أن ارضفتهم لم يكن يفصلها عن أرسفة البيزيين سوى رصيفين لليونانيين (٤) ، ثم أن حيهم كان متاخما لحى البيزيين ، ونحن نعلم نقطة الاتصال بين الحيين ، تلك هى دير أبولوجوتيتون *Apologotheton* المذكور فى وثائق الأمتين الرسمية . وموقع هذا الحى المين بصورة غامضة (٥) فى وثيقة الجنويين بين بصورة أكثر وضوحا فى وثيقة البيزيين اذ كان مجاورا لكل من بوابة ينورى *Porta Neorii* شرقى هذه البداية ، وعلى الحد الأقصى من الحى البيزى من ناحية الشرق (٦) . يدل هذا على أن الحى الجنوبى كان ممتدا من مجاورات بوابة ينورى (بوابة الحقيقة) شرقا حتى حوالى *Iali-Kiosk* (كشك يالى) (٧) كذلك يتعين البحث عن أرسفة الجنويين على طول هذا الجزء من الشاطئ . ولم يكن لهم فى البدايه سوى رصيف واحد ، ولكن اسحق منحهم رصيفا ثانيا ، كما منحهم ألكسيوس الثالث رصيفا ثالثا (٨) . وأخيرا فان الحى لم يكن ممتدا بالطول فحسب ، ولكنه كان منوغلا فى الداخل ، من ناحية كنيسة القديسة صوفيا ، وفى الأجزاء العليا من المدينة (٩) .

ونحن اذا تمثلنا فى مخيلتنا مجموعة الأحياء التجارية فى القسطنطينية حسب الخلاصة التى قدمناها آنفا ، فاننا حقيقون بأن نسلم بصحة الوصف الذى قدمه « اوستات » اذ يقول ان اللاتينيون يعيشون على حدة ، على طول شاطئ « قرن بيزنطة » فى الجزء الذى ينظر شرقا أى الجزء المكشوف شرقى

- (١) فى *Novelle 159* لجستنيان ، تنويه بمنطقة « كوبرايا » ، ولكن هذه المنطقة واقعة خارج المدينة .
 (٢) *Mikl. et Muller, 1. c. p. 53; Lib. jur. I, 499; Desimoni, p. 179* (cf. p. 145); *Desimoni, p. 145 et s.*
 (٣) *Desimoni, p. 171-176.*
 (٤) *Mikl. et Muller, 1. c. p. viii; Mon hist. patr. Chartae, II, 1225.*
 (٥) *Desimoni p. 178 ; Mikl. et Muller, 1. c. p. vi et ss, 29, 31, 51, 53.*
 (٦) *Lib. jur 1, 499.*
 (٧) *Mikl. et Muller, III, 19, 21.*
 (٨) *Desimoni, p. 179; Mikl. et Muller, 1. c. p. vi, ix e ts., 28, 31, 50, 53 et s.*
 (٩) «Versus S. Sophiam»; *Mon. hist patr. Chartae, II, 1225; Sauili 11, 125.*
Paspati. VI, 157, 162; 156, 163.

الخليج ، والذي احتفظ الى يومنا هذا باسم « القرن الذهبي » (١) . وعلى هذا احتل اللاتينيون أكثر النقاط ملائمة للتجارة والملاحة ، الشيء الذى ملأ نفوس اليونانيين سخطا اذ وجدوا أنهم دفعوا أكثر فأكثر الى داخل المدينة . ومع ذلك لم تكن أحياء اللاتينيين متلاصقة بحيث لا تترك بينها مسافات بقى اليونانيون مسيطرين عليها . كان هنا وهناك بين أمسطلات الايطاليين ، أمسكلات أخرى لليونانيين ، كما كان هناك على محيط الأراضى الممنوحة للايطاليين عدد كبير من البيوت المحصورة بين هذه الأراضى والتابعة لكنائس أو أديرة يونانية . وكان هناك أيضا عدد من اليونانيين يقطنون كمستأجرين داخل الأحياء الإيطالية . ومع ذلك فالثابت أن كل القسم الممتد على طول الشاطئ من « بوابة السجن » الى طرف « السراى » تابعا على وجه التقريب للغربيين ، وكان غالبية السكان من الغربيين وكانت كل أمة تؤجر المنازل والحسوانيت والورش وأسكلات السفن (٢) ، والأراضى التى يشملها امتيازها ، الا أن المستأجرين كانوا جميعا على وجه التقريب تجارا أو حرفيين من الأمة نفسها (٣) .

ولعل من المفيد جدا دراسة تنظيم وإدارة المستوطنات التجارية الغربية فى الامبراطورية اليونانية ، ولسوء الحظ لا نملك الا القليل النادر من المعلومات بشأن بدايات تنظيم هذه المستعمرات وإدارتها ، ولا تتعرض تحقيقات السفراء والمعاهدات التى فى حوزتنا نصوصها لهذه التفاصيل الا فى القليل النادر . ومن جهة أخرى لم تدون اللوائح الادارية الخاصة بالمستعمرات الا فيما بعد . ونهاية القول أنه لم يصل الى أيدينا سوى عدد محدود جدا من الوثائق الصادرة من المستوطنات نفسها . وأول سؤال يعن لنا هو أن نعرف ما اذا كان هناك فى كل عصر ، على رأس هذه المستوطنات رؤساء مفوضون من قبل الوطن الأم ، ولهم سلطة الحكم والادارة باسمه . والمعروف كثرة ايفاد السفراء Legats الى بلاط القسطنطينية ، وكانت المفاوضات المكلف هؤلاء باجرائها تستغرق زمنا طويلا ، وتقتضيهم أن يمكثوا فى العاصمة كثيرا ، والمطلوب معرفة ما اذا كان هؤلاء السفراء مكلفين بضمان تنفيذ الاجراءات التى يقررها الوطن الأم بشأن المستوطنات ، وتسوية المسائل القانونية التى يمكن أن تكون محتجزة فى الفترة بين وفد وآخر ، أو أنها انبثقت أثناء وجودهم هناك . وفى هذه الحالة لم يكن الوطن الأصلى ممثلا فى المستوطنة الا بصورة غير نظامية ، ولم يكن يمارس بها سلطة حقيقية . والمسألة تستحق أن تدرس ، فالثابت أن السفراء كان عليهم ، الى جانب وظائفهم الدبلوماسية أن يؤدوا مهامها ادارية

(١) Opu. éd. Tafel, p. 275 ; Tafel, Komnenen und Normannen, p. 97 et s.

(٢) Lib. jur. I, 449; Mikl. et Muller, I. c. p. x.

(٣) Taf. et Thom. II, 8-11; Doc. sulle relaz. tox. p. 74 et ss.

وقضائية فى الأحياء التى يشغلها مواطنوهم . وهاكم مثالا لذلك : كان قناصل بيزا قد قرروا تحويل كل أموال الكنيسة الموجودة فى القسطنطينية وكل الإيرادات الآتية من تأجير الحى البيزى الى كاتدرائية بيزا : وفى عام ١١٦١ قام سفيرا بيزا فى بلاط مانويل ، كوكو جريفى ، وراينيرى بوتاتشى بتنفيذ هذا الاجراء ، ومعاقبة كل اعتداء على حقوق الكاتدرائية ، ووضعوا فوق ذلك لوائح تتعلق باستعمال الأرصفة والموازين والمكايل العامة التى تملكها المستوطنة (١) . وثمة مثال آخر : اذ أصدر بعض السفراء البنادقة فى البلاط نفسه أثناء اقامتهم بالقسطنطينية حكما فى قضية معقدة بين رئيس كنيسة سان جورج فى رودستو Rodosto وبين التجار البنادقة فى المدينة نفسها (٢) . ومن هذين المثالين السابقين ، يحق لنا بازائهما أن نتساءل عما اذا لم يكن هناك ممثل دائم للوطن الأصلى ، مزود بسلطات كافية لوضع مثل هذه اللوائح الادارية ، أو الفصل فى مثل هذه الخلافات . وثمة واقعتان يبدو أنهما تثبتان أنه لم يكن فى المستوطنة الفينيسية موظف خاص قائم على رأس الادارة : فمن جهة هناك وثيقة رسمية لمانويل ، قيل فيها ان كبار المستوطنة الفينيسية أتوا اليه باسم المستوطنة طالبين منه توسيع حى المستوطنة (٣) ، وهناك من جهة أخرى تعليمات أصدرها عام ١١٩٨ الدوق داندولو الى سفرائه يوصيهم اختيار مجلسهم (من العمال وأصحاب العمل) من بين أفراد المستوطنة فى القسطنطينية (٤) ويعتقد السيد هوف Hopf (٥) أنه اكتشف رئيسين للمستوطنة الفينيسية فى القسطنطينية ، فيذكر أولا شخصا يدعى باراسترو Giov. Barastro يتخذ لقب *procurator in Constantinopoli super redditibus* (مدير مالى ...) وذلك فى قسيمة موقعة منه بصفته صراف البلدة (للجلالية الفينيسية) فى عام ١١٩٤ (٦) ، وثانيا ماجستر ليو Magister Leo بصفة « مدير مالى » *procurator Constantinopolitanus* . أرسل اليه البابا سيلستان الثالث Célestin III فى عام ١١٩٧ الأمر بسداد عشرين لاسقف كاستيللو Castellو فينيسيا (٧) . الا أن هذا الأمر نفسه يثبت أن الموضوع لا يتعلق بموظف فينيسى ، وانما بوكيل للبابا . من الثابت أننا لا نجد حتى عام ١٢٠٤ أى اسم لأحد الرعايا البنادقة يحمل لقباً أو يتولى وظيفة من طبيعة أى منهما أن يضافى عليه صفة « رئيس المستوطنة » . ولكن لدينا دلائل

Doc. sulle relaz. tox. p. 10.

(١)

Taf. et Thom. I, 107.

(٢)

Taf et Thom. I 110.

(٣)

Archives des missions scientifiques, Série II, T. IV, p. 426 et s. not.

(٤)

Gesch. Griechenlands im Mittelater, dans Ersch et Gruber, LXXXV, p. 169.

(٥)

Taf. et Thom. I. 215 et s.

(٦)

Ibid. p. 226.

(٧)

تثبت أن هذه الوظائف كانت موجودة . من ذلك أن في التعليمات التي دونتها في عام ١١٩٧ حكومة بيزا لأوجوتشيوني بونو ، وبييتيرو مودانو ، أمرا بأن يعملوا على مصالح البنادقة في حالة ما اذا عرض عليهما اقتراح بذلك ، اما بواسطة سفراء الدوق (في القسطنطينية) أو قناصل البنادقة أو نوابهم ، أو قادة أسطولهم (١) . ولا يمكن أن تنطبق ألقاب القنصل أو الفيكونت التي نجدها في هذه الوثيقة الا على وظائف خاصة بالمستوطنة ، باعتبار الجملة التي استخدمت فيها هذه الألقاب ، ذلك لأننا بالتالي مباشرة ظهور رئيس الجالية البيزية بلقبه ، لقب الفيكونت . وقد تفضلنا فقرة في وثيقة رسمية لألكسيوس الثالث لعام ١١٩٩ بشأن القضايا بين اليونانيين والبنادقة (٢) . فالامبراطور يوافق على أنه في الحالات التي يقدم فيها يوناني شكوى ضد فينيسي لأضرار اصابته في مسائل نقدية ، أو لاهانات ، أو ضرب ، وجرح فله أن يلجأ الى المحكمة القينيسية : والاشخاص المذكورون ثمة على أنهم يشكلون المحكمة هم : سفير legatus الدوج في القسطنطينية ، ومروؤسوه من القضاة (٣) . ولما كانت كلمة legati (جمل legatus - المترجم) هي نفسها المستخدمة للدلالة على الأشخاص المكلفين بالتفاوض مع الامبراطور باسم البندقية ، فقد يتراءى لنا أن هؤلاء هم نفس الاشخاص الذين يمارسون القضاء باسم الجمهورية . ولما كانت فترات طويلة تنقضي بين رحيل سفارة ووصول سفارة أخرى ، فان فترات تأخير وانقطاع طويلة تحدث في أعمال القضاء ، ولا تتناسب مع كثرة الدعاوى التي تستثيرها المصالح المالية . ينبغي إذن التسليم بأن محرر الوثيقة أو من قام بترجمتها قد ارتكب خطأ حين استخدم كلمة legatus لتدل أحيانا على العضو الدبلوماسي ، وأحيانا على المفوض الدائم من قبل الدوق ، أي الممثل الشرعي للوطن الأم وحكومته في المستوطنة ، ولقبه الرسمي هو عادة « قنصل » vicecomes ومن الواضح أن هذا القاضي المفوض يعين بصفة موظف لفترة طويلة ، ويستصحب قضاة آخرين ، مروؤسيه ، ويقسم معهم اليمين بالتزام النزاهة التامة ، وذلك في جلسة رسمية أمام الجالية مجتمعة وبحضور مندوب يوناني . ولا يمكن أن ينطبق كل هذا على عضو دبلوماسي مهمته ذات طبيعة غير نظامية من حيث زمانها ومن حيث مدتها . لنا إذن أن نؤكد أنه كان على رأس الجالية القينيسية في القسطنطينية رئيس معين من قبل الدوج ، لا تنتهي وظيفته الا يوم أن يحل محله فيها خليفة آت من البندقية .

Doc. sulle relaz. tox. p. 72.

Taf. et Thom. I, 273 et s.

Taf. et Thom. I, 273 et ss.

(١)

(٢)

(٣)

— اثبت السيد توماس في بحث صغير هام أنه في القضايا المرفوعة أمام المحكمة القينيسية ،

تتبع الاجراءات البيزنطية .

ونصل الى النتيجة نفسها الى مستوطنات بيزا ، ولكن بكيفية أكثر بساطة .
كان تنظيم هذه المستوطنات في الأصل مختلفا . لقد أتاحت لنا قبلا الفرصة
للقول ، حسب رواية مارانجون Marangone أنه في عام ١١٣٧ حمل سفراء
من قبل يوحنا كومنينوس هدايا باسمه الى بيزا . ويضيف بعض المؤرخين
الأحدث عهدا ، كما رأينا أيضا أن السفراء اليونانيين كان في صحبتهم عند عودتهم
اوجوني دودي ، البيزي Ugone Duodi الموفد الى القسطنطينية من جهة لشكر
الامبراطور ، ومن جهة أخرى لتولى ادارة المستوطنة البيزية بهذه المدينة . ويبدو
أن اللقب الذى يطلقه المؤلفون على « دودي » هذا أكثر حداثة بالنسبة الى ذلك
العصر ، فيقولون انه عين قنصلا مقيما بالقسطنطينية (١) . ولدينا ميثاق بإقامة
منشأة ، حرر في حضوره في القسطنطينية ، أثبت فيه صفته ، لا بأنه «قنصل»
ولكن باعتباره Legatus (٢) . هذا الميثاق يثبت أن « دودي » كان بالفعل وزيرا
مفوضا لوطنه في القسطنطينية . هناك اذن أسباب تؤيد ما يقوله المؤلفون الذين
ذكرناهم آنفا : وكذلك ما يروونه من أخبار مستقاة بعامة من مصادر موثوق
بها . وعلى ذلك فنحن هنا بازاء حالة خاصة ، حالة شخص كلف بمهمة لدى
الامبراطور ، وعين مقدما ليؤدى لعدة سنوات (٣) وظيفة رئيس المستوطنة ،
وذلك بعد انجاز مهمته التى كلف بها . وفي موثائق لعصر لاحق ، نجد منصب
السفير ، ومنصب رئيس المستوطنة مسندين الى شخصين مختلفين : فالمنصب
الأول يوصف بأنه legati, missatici, nuntue والثاني بأنه Vicecomites (٤) .
وكان فى الامكان تكليف السفراء بتنفيذ بعض الاجراءات التنظيمية فى المستوطنة .
الا أن الممثل الشرعى الدائم للوطن الأم فى المستوطنة ، كان ، كمبدأ عام على
الأقل ، ومنذ عام ١١٦٠ هـ الفيكونت الذى يعين سنة بعد سنة . من ذلك
أنه أوفدت سفارة الى القسطنطينية فى عام ١١٦٩ ، ولم يكن أحد من الاشخاص
الثلاثة الذين يشكلون السفارة معينا فى منصب رئيس المستوطنة ، ولكن كان
فى صحبة هؤلاء موظف معين لهذا المنصب ، هو الفيكونت مارسنيوس Marcus
وكان مارسنيوس هذا هو أول جماعة من أربعة الى خمسة فيكونتات عرفنا
أسماءهم (٥) . ولستنا نجد ، الا فى مرة واحدة الى جانب الفيكونت اسم

(١) يزعم مؤرخان : السيد ترونشى Tronci (ص ٣٧) ، والسيد رونشوني Rencioni
(ص ١٥٢) أن بيزا حصلت منذ عام ١٠٠ على الاذن بارسال قناصل الى القسطنطينية ، وقد اوضحت
فيما قبل أن التاريخ الصحيح ينفى نفيا قاطعا مثل هذه المزاعم .

(٢) Doc. sulle relaz. tox. p. 4.

(٣) يقول Ranciani ص ٢٥٦ ان اقامة « دودي » فى القسطنطينية امتدت الى ما بعد
ارتقاء مانويل العرش (١١٤٣) .

(٤) Doc. sulle relaz. tox. p. 8, 10, 62; Monum. spect. hist. Slav. merid. I, 10.

(٥) Marcus, 1169. Mon. Slav. merid. I, I. ; Doc. sulle relaz. tox. p. 81, Gerardus Marzucci, 1195, ibid. p. 67, 72 : Gerardus Arcossi ?
1199, ibid. p. 75-78; Sigerius Cinami, 1199-1200 : ibid. p. 74 et s., 82.

comes Pisanorum (رينيريوس Raynerius (١) . غير أن هذه الصفة تبدو أنها اللقب الشخصي لرينيريوس هذا ، وليست لقباً لمنصب في مستوطنة . والراجح أن هذه الشخصية هي نفسها التي تصادف اسمها في ميثاق آخر Raynerius comes de Segaiari (٢) . القاعدة العامة هي إذن أننا لانجد سوى فيكونتات كرؤساء للمستوطنة . وكانت مهام وظائفهم الرسمية تنظم اما بتعليمات خاصة ، يؤدون اليمين لمراعاتها ، أو (٣) بقوانين سارية في الوطن الأم ، واما بمعاهدات . وفي الظروف العصيبة بنوع خاص كانوا يطلبون موافقة كل أفراد المستوطنة (٤) . وثمة وثائق ادارية ، ونصوص أحكام قضائية قد تكون ذات فائدة كبيرة لنا لأنها تعطينا فكرة عن أهمية دور هؤلاء في هذين المجالين . غير أنه لم يصلنا شيء من ذلك ، فلا نكاد نملك الا بضعة سجلات للايرادات والمصروفات تثبت أن من وظائفهم وظيفة مدير خزانة البلدية ، وهم بهذه الصفة يحصلون ايجارات المنازل والأراضي ، والموانئ ، وحوانيت الصيارف الخاصة بالمستوطنة بوجه عام ، ونصيب الجماعة من الأموال التي يتركها المستوطنون الذين يموتون دون أن يتركوا وصية ، ويسددون أيضاً نفقات المستوطنة ، ويقدمون حساباتهم في اجتماع رسمي في كنيسة القديس نيكولاس بحضور السفراء حين يكونون موجودين في القسطنطينية (٥) . وكان يتبعهم موظفون آخرون ، منهم مراقبو الأسواق embolarue ، ومراقبو الاسكالات scalarue وقضاة Judices يساعدون الفيكونت في وظائفه القضائية (٦) .

ورغم ندرة المعلومات التي وصلتنا بشأن ادارة المستوطنات البيزية والفينيسية ، فانا نملك على الأقل بعضاً منها ، في حين أن المصادر الجنوية ، على الأقل ما نشر منها الى الآن لا تزودنا بأى ايضاح عن تنظيم المستوطنة الجنوية في القسطنطينية ، ولا عن الادارة الكنسية . وفي هذا الموضوع كما في الموضوع السابق ، يتعين علينا أن نقنع بما نعرفه عن المستوطنات الفينيسية والبيزية . قفى كل المرات التي حصل فيها المستوطنون البنادقة في القسطنطينية على كسب جديد ، كان نصيب كنائس البندقية منه موفوراً بقدر كبير . فمن جهة كان الأباطرة اليونانيون أنفسهم هم الذين يخصصون لكنيسة سان مارك بالبندقية (٧)

En 1195; Doc. p. 67.

Doc. p. 94.

Doc. p. 74.

Doc. p. 77. مثال ذلك : عندما يقتضى الأمر تجهيز سفينة بناء على طلب الإمبراطور .

Doc. sulle relaz. tox. p. 74-78; cf. 72.

Ibid. p. 8, 18, 74 et s.

Taf. et Thom. I, 52, 97, 117, 183.

نصيبا معيناً في الإيرادات ، وذلك في عقود الامتياز . ومن جهة أخرى كان الأدواج هم الذين يتبرعون بجزء من المبنى أو الأرض المتنازل عنها لصالح وطنهم للعديد من الأديرة ، كدير القديس جورجيو ماجيور S. Giorgio Maggiore والقديس نيكولو S. Niccolo الخ . وفي القسطنطينية نفسها ، كان البنادقة يملكون بالفعل ، قبل وثيقة الكسيوس الكبرى (١٠٨٢) كنيسة القديس اكندينوس St. Akindynos اليونانية التي كان لها امتياز الاحتفاظ بالموازين والمكايل المستعملة في كل الصفقات التجارية التي يعقدها البنادقة بداخل المدينة (١) . وكانوا يملكون أيضا كنائس أخرى شيدوها هم في الغالب : كنيسة سان مارك وديرها ، وهي تابعة لكنيسة القديس جورجيو ماجيور في البندقية ، وكنيسة القديسة مريم المسماة de embulo تميزها لها عن كنيسة أخرى بنفس الاسم ، وكنيسة القديس نيكولاس ، ومجموعها لا يقل عن أربع كنائس (٢) . وثمة مرسومات من البابا أدريان الرابع ، والكسندر الثالث (٣) يرخصان لبطريك جرادو Grado (البندقية) بأن يقيم أسقفا في القسطنطينية وفي مدن الامبراطور اليونانية ، اذ اقتضت ذلك أهمية المستوطنة ، أو كان للبنادقة بها عدة كنائس : وليس هناك وثيقة معروفة تثبت أن هذا الترخيص قد نفذ .

وكان البيزيون يملكون في القسطنطينية كنيستين ، كنيسة القديس نيكولاس ، وكنيسة القديس بطرس ، وكانت الأولى ضمن المنحة الأولى التي أجراها الكسيوس ، أما الثانية فقد أقاموها هم أنفسهم في حينهم (٤) : ويتبع هاتين الكنيستين مستشفى وجبانة ، وتملكان ثروة كبيرة تشمل منازل وإيرادات من الموازين والمكايل وأسكالات السفن ، الخ (٥) . وكان للكنيستين رئيس واحد (٦) ، ولكنهما تابعتان لكاتدرائية بيزا ، فلم يكن هذا الرئيس بالأجمال سوى مدير (bailius) يتولى الادارة باسم رئيس كاتدرائية بيزا . وتتكون إيرادات الكنيستين من الإيجارات ، وحصيلة بعض الرسوم ، وإيرادات المؤسسات

Ibid. I, 68; ; ibid, 127, 129, 132, 227, 281.

(١)

Taf. et Thom. I, 98 et ss., 125-133, 280 et s.

(٢)

Armingaud, I.c.p. 427 et ss.

(٣)

Doc. sulle relaz. tosc. p. 50, 55; les chartes, à partir de 1160 (Doc. p. 8, 10, 12 etc.)

(٤)

Doc. p. 10, 18 et s., 70, 75, 93.

(٥)

Doc. p. 18, 81 et s.) Petrus في عام ١١٨٠ شغل هذا المكان شخص يدعى بتروس

(٦)

(Doc. p. 79, 81 et s.) Benenatus

وخلفه في عام ١١٩٧ من يدعى بنيناتوس

بقي شاغلا وظيفة فترة طويلة بعد استيلاء الفرنجة على القسطنطينية

ibid. p. 84 et ss., 88, 93 et s.)

الخيرية . وحين يتسلم الرئيس مهام وظيفته ، بقسم أن يؤدي هذه الإيرادات الى صندوق كاتدرائية بيزا بعد خصم المبالغ اللازمة لصيانة الكنيستين وأداء الشعائر ، وكان محظورا عليه أن يبيع أو يرهن أو يستخدم لغرض ذى نفع عام الأشياء الثمينة التى تملكها الكنيستان دون ترخيص من رئيس الكاتدرائية (١) . وبخلاف هاتين الكنيستين المكرستين للشعائر الكاتوليكية الرومانية ، كانت المعاهدات تكفل للبيزيين مكانة فى كنيسة القديسة صوفيا اليونانية : وكان الغرض من هذا النص غالبا أن يضمن للفيكونت البيزى مكانا فى الاحتفالات الدينية الكبرى ، كما كان للمستوطنين أيضا عدد من الأماكن محجوزة لهم فى مضممار السابق للأعياد المدنية (٢) .

لقد عرضنا من جميع جهات النظر حالة العلاقات بين مدن البندقية وبيزا وبحثنا وبين الامبراطورية اليونانية قبل الحملة الصليبية الرابعة ، ولم يبق علينا فى ختام هذا الفصل إلا أن نعطي فى بضعة سطور لمحة من الوثائق النادرة التى تسجل علاقات البلاد الغربية الأخرى بهذه الامبراطورية وسبق أن رأينا ، فى نص للامبراطور الكسيوس كومنينوس أن المستوطنين الأمالفيين الذين يملكون حوانيت فى القسطنطينية كانوا تابعين لكنيسة سان مارك بالبندقية . وعندما سقطت أمالفي فى أيدي الملوك النورمان ، سحب منهم البابطرة اليونانيون كل امتيازاتهم : ومن ناحية أخرى سدد البيزيون فى أغسطس ١١٣٥ ضربة قاضية لهذه المدينة ولا مبطولها . ولما كان البيزيون حلفاء للامبراطور الألماني لوثير Loptaire فى جرية ضد الملك النورماندى روجر ، واضطلعوا فى الحرب بدور فعال ، وانتهزوا الفرصة للانقضاض على السفن التجارية التابعة لحصصهم القديم ونهبها واشعال النيران فيها ، وكانت هذه الكارثة نقطة البداية لانهايار أمالفي . ومع ذلك تشبثت أمالفي بمسقطها بالقسطنطينية . وفى عام ١١٩٢ بمناسبة طلبت قدم لتوسيع الحى البيزى ، أمر الامبراطور اسحق بعمل وصف لهذا الحى ، ونرى فى هذا الوصف أن حى الأمالفيين ورصيفهم كانا متاخمين لحى البيزيين ورصيفهم (٣) . وبجانب هذه المنشأة القديمة العهد ، التى تمد وجودها بلا ضوضاء زمنا طويلا ، يتبين لنا منشأة جديدة . وإذا كانت أمالفي قد فقدت عطف البابطرة ، فإن « إنكونا » على العكس من ذلك قد غمرها مانويل بآيات فضله وإحسانه ، جزاء لها على اشتغادها لأن تجعل من نفسها أداة لمؤامرات الامبراطور ودسائسه . والراجح أنه الى هذا التاريخ يرجع وجود مستوطنة

Doc. p. 10, 18 et s., 70, 93.

Doc. p. 53.

Doc. sulle relaz. tox. p. 56 et s.

Paspati, p. 156, 154. : انظر : ورصيفهم ، الحى البيزيين الى حى البيزى ورصيفهم ، انظر : Paspati, p. 156, 154.

أنكونية فى القسطنطينية • وفى عام ١١٩٩ وقع رئيس الكنيسة الأنكونية فى القسطنطينية بروتوكولا فى مسألة تخص رئيس الكنيسة البيزية • هذه المعلومة تثبت أن الانكونيين كان لهم كنيستهم فى القسطنطينية (١) ، ومن ثم يجوز لنا أن نستنتج وجود مستوطنة لهم • ومن الجائز أن نعتبر من الشعوب الايطالية أهالى راجوزة (الآن دبروفنك بيوغوسلافيا - المترجم) ، ذلك لأن العنصر السلافي (الصقالبة) الذى صار له فيما بعد أهمية كبيرة بين هؤلاء (أى أهالى راجوزة) كان فى ذلك العصر محسوسا بالكاد • وثمة حوليات تذكر أن مانويل منحهم حق البورجوازية فى القسطنطينية (٢) • حقا ، ان هذه الحوليات ترجع الى عصر أكثر حداثة ، ولا تستند الى أية وثيقة حقيقية ، ومع ذلك فليس من المستحيل أن يكون فيها أساس من الحقيقة ، فالمعروف أن مانويل كان فى نزاعة مع البندقية يعتبر راجوزة من حلفائه •

وفىما يختص بسائر الأمم المثلة فى الامبراطورية اليونانية ، فان رعاياها كانوا منتشرين فى كل ناحية • وفى عام ١١٤٢ طلب كونراد الثالث (من أسرة هوهنشتاوفن) ، من الامبراطور يوحنا كومنينوس التنازل لصالح الألمان المقيمين فى القسطنطينية عن رقعة من الأرض كافية لبناء كنيسة : واستجاب لهذا الطلب أما يوحنا كومنينوس ، وأما خليفته مانويل • وفى خطاب لاحق أعلن كونراد لمانويل سفر امبريكو Embrico السقف فيرتزبورج موفدا سفيراً الى القسطنطينية (١١٤٥) ، وينبئه بأن مبعوثه هذا مكلف ببعض المسائل المتعلقة بموقع الكنيسة (٣) • وزعم البعض أن هذه الكنيسة شيدت خصيصا للجنود الألمان ، فقد كان الكثير منهم فى القسطنطينية ، وكان العاهل الالمانى قد أرسل عددا منهم لنجدة يوحنا كومنينوس • الا أنه لا يمكن التسليم بهذا الحدث العارض كباعث على انشاء الكنيسة ، على الأقل ، وبالذات لأن كونراد يقيم فى خطابه تفرقة تامة بين هؤلاء الجنود وبين الألمان الذين يتعين انشاء كنيسة لهم • يجب إذن أن نفترض أن هؤلاء تجار ، وان أردنا برهانا على ذلك ، فانا نجدده فى الوثيقة المؤرخة يونية ١١٨٩ ، وفيها يقترب الامبراطور اسحق عملا غير

(١) Doc sullé relaz. tox. p. 82.

— كانوا يقومون برحلات عمل فى القسطنطينية وفى الامبراطورية اليونانية ، انظر :
Jac. Bon. compagnie, dans sa relation du siège d'Ancône

(جاك بوتكميانى فى روايته لحضار أنكونا عام ١١٧٤) :

en 1174 Murat, SS, VI, 930.

(٢) Luccari, Copioso ristretto-degli annali di Rausa, Venise, 1605.

p. 22, 27.

— يقول هذا المصدر (ص ٢٧) ان الكسيس ابن مانويل ،

(أو بالأحرى أوصيائه) صدق على امتيازات الراجوزيين •

(٣) Otto Frising, dans Pertz, SS, XX, 264, 365 ; cf. Jaffé, Konrad III.

p. 101, 103; Giesebrecht, Gesch. der deutschen Kaiserzeit, IV, 465, 468, 497.

شرعى بصورة واضحة ، اذ ينزع من الفرنسيين والألمان حين واسكالات لرسو السفن ، وكان الفرنسيون يتمتعون بها بموجب قرار امبراطورى (١) ، ويعطى هذه الأشياء للبنادقة . ولتبرير هذا التصرف ، ادعى أسحق أن عقد امتياز هؤلاء المستوطنين لم يحدد الايجار الواجب أن يدفعوه ، وأن تقدير قيمته متروك للظروف ، وأن الامتياز لم يمنح لمجموع الفرنسيين والألمان ، ولكن لبعض أفراد غير معروفين ، لا صلة تربطهم بأمتهم . أما بالنسبة الى الألمان (٢) ، فانا نتساءل: من أين جاء هؤلاء التجار ، الذين لا صلة تربطهم ببلدهم بحيث لا يوجد خلفهم أية سلطة قادرة على توفير الاحترام والحماية لهم ؟ هل جاءوا من مدن الدانوب ، أو من فيينا أو راتسبون ؟ وهل أتوا عن طريق البر أو البحر ؟ أو كانوا ينتسبون الى بلاد تطل على بحر الشمال ، أو من بريم Brème أو كولن Coelln وجاءوا الى القسطنطينية على متن سفنهم ؟ يبدو أن امتياز الارصفة الممنوحة لهم بأشخاصهم يدل على أن سفنهم كانت ملكا لهم ، أو لعلمهم كانوا يجوبون البحار فى سفن تنتمى الى جنسيات أخرى ، ولم يختاروا القسطنطينية الا كنقطة للتلاقى ؟ أما بخصوص المستوطنين الفرنسيين الذين جردهم أسحق أيضا من ممتلكاتهم، فانا نستطيع أن نؤكد ، ولدنيا البرهان على ذلك ، أنهم ينتمون الى المدن التجارية الكائنة بجنوب فرنسا ، مثل « الفرنسيين » الذين كانوا فى تسالونيك يترددون على سوق القديس ديمتريوس ، مع الاسبان والبرتغاليين .

الامبراطورية اللاتينية

كان العالم اليونانى يعيش فى مواجهة الصليبيين الغربيين فى حالة مستمرة من الفزع ، يستشعر وقوع كارثة تكون القسطنطينية ضحيتها الأولى . وكان اليونانيون فى أكثر من مرة يتسببون بأخطائهم فى تفجير الكارثة . ففي عام ١١٤٧ أثناء مرور الجيش الذى يقوده لويس السابع ، كان سلوك اليونانيين مثيرا ، والهيّاج شديدا فى صفوف الصليبيين ، حتى لقد عانى الملك مصاعب جمة فى الدفاع عن نفسه حيال مطالبهم الملحة التى كانت تنزع على أقل تقدير الى حمله على التحالف مع الملك النورماندى روجر للاستيلاء على القسطنطينية (٣) وفى ظروف مماثلة ، كان فردريك بارباروس يفكر بعض الوقت فى مشروع الاستيلاء قسرا على حاجة الامبراطورية ، فأقام معسكره الشتوى فى اندرينويل .

Taf. et Thom. I, 208 et s.

(١)

Guntherus, Hist. Cpol.

(٢) نجد أيضا اشارة الى هؤلاء الألمان فى :

اذ يذكر أنه حين استولى الصليبيون على القسطنطينية لثانى مرة (١٢ أبريل ١٢٠٤) ،

قتل عدد كبير من اليونانيين .

Kagler, Studien zur Geschichte des Zweiten Krcuzzugs, p. 141, 142 (٣)

ولما كان في حاجة الى أسطول حتى يتيسر له فرص النجاح ، فانه كلف ابنه هنري بخطاب حرره في ١٦ من نوفمبر ١١٨٩ أن يجري مفاوضات مع مدن إيطاليا البحرية ، وبالذات جنوا ، وانكونا ، والبندقية ، وبيزا ، وكان على الأمير أن يقترح على هذه المدن تجهيز الأسطول وإرساله الى القسطنطينية في شهر مارس من السنة التالية ، بحيث يمكن مهاجمتها برا وبحرا في آن واحد . ووافقت بيزا على أن تسهم في هذا المشروع ، وأوفدت سفيرا الى بارياروس ، وعندما لحق به السفير كان الامبراطور قد تخلى عن مشروعاته بخصوص القسطنطينية وتأهب لعبور الدردنيل (مارس ١١٩٠) (١) .

وأخيرا هبت العاصفة التي كانت تتهدد « ملكة المدن » ، وذلك بمناسبة الحملة الصليبية الرابعة . وقد نظم هذه الحملة فرسان فرنسيون وفلمنك ، وتعززت فيما بعد باسهم البنادقة ، وكان هدفها الأصلي مصر ، وغايتها ضمان سلامة مسيحي سوريا (٢) . وفجأة غير رؤساء الحملة وجهتهم . وأصدروا الأمر بالابحار الى القسطنطينية ، وأعلنوا على رؤوس الأشهاد قصدهم باعادة الامبراطور اسحق الى عرشه الذي خلع منه منذ قليل ، ورد حقوقه وحقوق ابنه الأمير الكسيوس . فماذا حدث اذن ؟ تمكن الأمير من الهرب من القسطنطينية (١٢٠١) بمساعدة ذوى نفوذ في المستعمرة البيزية (٣) الكونت رينبيوس دى سيجالاي (٤) والبيراندس فارسيلياتس (٥) ، ولذا البلاط الألماني حيث استقبلته بالترحاب اخته ايرين Irene وزوجها فيليب دى سواب Philippe de Souabe اهتم هؤلاء اهتماما شديدا بمشروعه الخاص باسترداد العرش . وهنا طرأت لهم فكرة الاستعانة بالفرسان الفرنسيين والفلمنكيين الذين كانوا وقتئذ يعدون عدتهم للرحيل لشن الحملة الصليبية ، وتكليفهم القيام بعملية حربية مضللة لصالح أسرة انجيلوس : وكان الرئيس الذي انتخبه الفرسان في أحسن حالة نفسية تدفعه للاستماع الى تلميحات فيليب : كان هو المركز بونيفاس دى مونفيريا Boniface de Montferrat وكانت مصاهرات أسرته ، ومثال اخوته ، وما أصابه ن إهانات يريد أن يثأر لها ، بدت أنها قد تجمعت لتدفعه الى القسطنطينية (٧) : وعهد اليه فيليب دى سواب الأمير الكسيوس الصغير

(١) Ansbertus, De exped. Friderici, p. 32, 55; et Riezler : Forschungen zur deutschen Geschichte, X, 48.

(٢) Villehardouin, éd. de Wailly (1872), p. 19; Rob. de Clary, dans Hopf, Chroniques gréco-romanes, p. 5.

(٣) Doc. p. 94; Nicéas, p. 711. كانت السفينة التي استقلت الأمير سفينة بيزية : Ughelli, Ital. sacr. I, 539.

Doc. sulle relaz. tosc. p. 67.

Doc. p. 9, 12, 13 ; ibid 19.

(٤) Winkelmann : Jahrbuecher der deutschen Gesch. 1197-1208, Revue des questions historiques, XVII, p. 321 et ss., XVIII, p. 5. et ss.

Robert de Clary (I.c. p. 24,31).

(٧)

بنوع خاص (١) . وكان لابد أخيرا من مشاورة الفرسان مجتمعين : وأقام بونيناس نفسه المحرك الرئيسى المتحمس للمشروع ، وقدم السفراء الألمان المزيد من الوعود الخلافة ، وتقدم ألكسيوس متوسلا فأثار المشاعر . ومع ذلك لم يكن ثمة شئ يقنع الفرسان بالموافقة على قلب كل الخطط التى اشتركوا فى وضعها ، بهذه الصورة غير المتوقعة ، وذلك من أجل مغامرة لا يهتم بها الغالبية منهم . وبدا أن المشروع قد أهمل ، ولكن الدوج دونالدو تناوله من جديد ، وتولى تحقيقه وكان هو الذى جهز الأسطول . ولما كان الفرسان مفلسين ، صار الدوج ، بسبب ما قدمه من مال هو القائد الفعلى للحملة بعد أن كان مجرد حليفا لها ، ولم يهتم برغبات فيليب دى سواب ، ولم يشغل باله فكرة الانتصار على البابا بتحويل الحملة الصليبية عن هدفها الرئيسى ، فى حين كان لهذه الفكرة فى مجالس الملك أهمية لا تقل عن سائر الحوافز . كان اعتبار واحد هو الذى يوجه تصرفات الدوج : ذلك هو الدفاع عن مصالح البندقية التجارية ، وكان يعرض هذه المصالح للخطر ارسال أسطول حربى مجهز بمعرفة الجمهورية للاغارة على مصر ، وهى بلد لكل تجار البندقية مطلق الحرية فى دخولها بسفنهم والخروج منها ، ومباشرة أعمال تجارية مثمرة معها . أما فى القسطنطينية ، فعلى العكس من ذلك كان المقتصب يذيق البنادقة ألوان الذل والهوان ، ويفضل عليهم البيزيين ، لذلك كان من صالحه اسقاط المقتصب ، وارتقاء أسرة ملكية أخرى العرش . وإذا أصبحت هذه الأسرة مدينة بالفضل للبندقية ، كان اقرارها بالجميل يحتم عليها أن تفعل كل ما يطلبه منها . وهكذا حان الوقت لتنفيذ التهديد الذى وجهه فى عام ١١٩٨ سفراء البندقية الى الامبراطور الكسيوس ، ولمساندة المطالب بالعرش مساندة فعالة . ولا ننسى اعتبارا شخصيا كان له بالتأكيد نصيب فى التأثير على الدوج : ذلك هو حب الظهور على رأس أسطول قوى أمام مدينة القسطنطينية حيث كان قبلا ضحية لخبت الشعب اليونانى وهمجيته . ومنذ اليوم الذى عرفت فيه مشروعات الصليبيين ، أصبح وضع البنادقة المقيمين فى القسطنطينية سيئا للغاية ، كما كان متوقعا ، كذلك لم يكن وضع سائر اللاتينيين بأحسن حالا . وكان سيكارد Sicard أسقف كريمونة موجودا فى القسطنطينية فى عام ١٢٠٤ ، ومن ثم كان على علم تام بأحداث عامى ١٢٠٢ ، ١٢٠٣ ، اذ يروى أنه عندما علم الناس أن الصليبيين بدءوا المعارك بنهب سواحل الامبراطورية على طول البحر الأدريانى ، قامت ثورة ، فاقتحم اليونانيون والحرس القاراجى الحى الفينيسى وارتكبوا فيه كل ألوان العنف والقسوة ، وألقوا بالكثير من البنادقة فى السجون ، وقتل الكثير منهم (٢) . واستبد الهياج بالدهاء فهدموا المنازل التى يسكنها الغريبون على ضفاف القرن الذهبى . ويسجل نيكتاس بأسف أن الأمالفيين الذين كانوا وقتئذ نصف

Villehardouin, p. 64.

Murat. SS, VII, 619.

(١)

(٢)

يونانيين ، وكذا البيزيين قد أصابهم ما أصاب سائر اللاتينيين (١) .

وقد ارتكب الدمهاء خطأ جسيما حين أوقعوا ضرباتهم الهائلة بالغربيين . كافة دون فرقة : ذلك لأن الجنوبيين والبيزيين كانوا أولا قد رفضوا التعاون مع الحملة الصليبية (٢) . ولم يكن ثمة مواطن واحد من مواطني هاتين الجمهوريتين في صفوف الجيش ، بل على العكس ، أسهم المستوطنون البيزيون اسهاما فعّالا في الدفاع عن القسطنطينية ، وكانوا يشكلون قسما من حرس برج غلطة (٣) ، وذات يوم دحروا نفرا من العدو اقتحموا المدينة من ثغرة فتحوها في السور بالقرب من الرصيف الامبراطوري (٤) . ولم يكن سلوكهم هذا يمليه فقط الرغبة في مساندة الامبراطور اعترافا بأفضاله عليهم ، وانما كانوا يحمون بيوتهم ، ويدافعون عنها ضد خصوم أثبتت لهم تجارب السنين الأخيرة ، على أقل تقدير مواقفهم غير الطيبة . ومع ذلك لم يستطيعوا الحيلولة دون سقوط المدينة في أيدي الصليبيين . وفر المغتصب ، وابتهج الأمير الكسسيوس حين رأى أباه اسحق الشيخ الكفيف يسترد عرشه ، وبقي هو الى جوار الامبراطور بصفته شريكا له في الحكم . ولسنا نعرف كيف عامل الصليبيون في هذه الأحوال (١٧ يولية ١٢٠٣) الغربيين المقيمين في العاصمة . وانقضت بضعة أسابيع ، وأسعد الامبراطور اسحق بعدها أن يجرى تقاربا بين البنادقة وبين البيزيين : فذهب هؤلاء لزيارة البنادقة في معسكرهم في بيرا (حى بالقسطنطينية) ، واستقبلوا ثمة بالترحاب (٥) ونسيت الخلافات القديمة ، وصارت مقاليد الحكم في أيدي الامبراطورين اللذين يحاييان اللاتينيين . يبدو اذن أن كل شيء لابد أن ييسر للتجار الايطاليين . استعادة نشاطهم التجاري . لسوء الحظ بقي نفور الشعب اليوناني من الغربيين شديدا كما كان فيما مضى ، وزادته حدة أعمال العنف والقسوة التي اقترفها الصليبيون ، وكان في هذا ما يكفي لمحو كل نتائج الحملة تقريبا . ولسوء الحظ قامت عصابة من النهابين الفرنجة بأشغال حريق انتشر بدرجة مخيفة . وزادت هذه الكارثة من هياج الشعب اليوناني حتى لم يعد الغربيون يشعرون بالأمان في المدينة ، ولم ينج الكثير منهم من هذه البلية ، اذ نزل الخراب بهم ، وفقدوا ديارهم (٦) . في هذا الوقت العصيب قرعهم على تأمين

Nicét, p. 730.

(١)

Villehardouin, p. 21; Clary, p. 5.

(٢)

Epist. Hugonis comitis S. Pauli, dans Taf. et Thom., I, 307.

(٣)

Nicét, p. 721.

(٤)

Nicét, p. 730; Wilken, Gesch. d. Kreuzz. V, 241,

(٥)

Nicéas, p. 731 et ss.; Villehardouin, p. 119.

(٦)

يتبين من وصف نيكيتاس للأحياء التي أصابها الحريق ، أن الحريق أصاب أيضا الأحياء

التجارية ، وامتد يسارا الى بيراما .

— Cf. Paspatis, dans le Bulletin du Syllogos de Constantinople,

VII 94 et s., p. 190. الذي سلم من الحريق

سلامتهم بالهجرة الجماعية : فعبر خمسة عشر ألف منهم الميناء ، مع نسايتهم وأطفالهم ، ولجأوا الى معسكر الصليبيين فى بيرا (١) . كان ذلك فى شهر أغسطس عام ١٢٠٣ . وبعد زمن قليل هب اليونانيون علانية ، وأشعلوا ثورة مضادة بقيادة الكسيوس دوكاس مورتزوفيلوس Alexis Ducas Muréuphyle (يناير ١٢٠٤) الذى نشر مرسوما بطرد كل اللاتينيين المقيمين بالقسطنطينية بقصد منعهم من التآمر مع الصليبيين المعسكرين تحت أسوار المدينة . ولكن رغم ما يؤكد كاتب لاحق ، هو جورجوس اكروبوليتس Georgius Acropolitès فانى أشك فى أن هذا الامبراطور أصاب بمرسومه « الألف » : اذ لم يبق ثمة الكثير من هؤلاء اللاتينيين (٢) . ومع ذلك فان اللاتينيين لم يهجروا القسطنطينية هجرا مطلقا ، فقد بقى بها دائما بعض البنادقة ، حتى فى أشد الأوقات خطورة . ويحكى المؤرخ نيكتاس أنه فى اليوم الذى استولى فيه الصليبيون على القسطنطينية لثانى مرة نجا بحياته بفضل حماية بعض البنادقة من أصدقائه (٣) هذا لا يمنع من أن الذين اضطروا الى الخروج من المدينة كانوا متعطشين للانتقام ، وفى أثناء الهجوم وضعوا فى خدمة المقاتلين سواعدهم ونصائحهم ، وفيما بعد أبدوا منتهى العنف والقسوة فى مذبحة المهزومين (٤) .

أصبح الصليبيون لثانى مرة سادة القسطنطينية (١٣ من أبريل ١٢٠٤) ، الا أن هذه العملية الحربية الجديدة كان لها نتائج مختلفة كل الاختلاف عن العملية الأولى . فأول كل شيء عدل (الصليبيون) عن القيام بمحاولة جديدة لاقامة أمير يونانى على العرش : فنوطدت امبراطورية لاتينية فى الأقاليم اليونانية ، وملأت الأرض حولها مجموعة من الامارات والبارونيات على رأسها سادة يتكلمون الايطالية أو الفرنسية . وكان الغزاة منقسمين الى جزأين متباينين كل التباين ، وكل جزء يسعى الى مصلحة خاصة به ، وبقي كذلك وقت التقسيم : فهناك من جهة البنادقة ، ومن جهة أخرى الصليبيون peregrini و ثمة معاهدات ، وضعت مبادؤها مقدما ، تولت تنظيم الامبراطورية اليونانية مستقبلا . وتم الاتفاق على أن يحكم الامبراطورية كلها امبراطور واحد ، ويجرى اختيار هذا الامبراطور اثنا عشر ناخبا ، ستة عن الصليبيين ، وستة عن البنادقة ، ويعترف الجميع به رئيسا ، ويوضع ربح الامبراطورية تحت سلطته المباشرة ، ويقسم الباقي الى جزئين متساويين

Villehardouin, p. 119.

(١)

يحدد أبو الفرج (السورى) عدد التجار الفرنجة المقيمين بالقسطنطينية فى هذه الاونة بثلاثين ألفا ، ولكننا نفضل بيان قبلها دون فى هذا الخصوص اذ كان شاهد عيان . ويتولى اوستات انه فى حوالى عام ١١٨٠ كان هناك من هؤلاء قرابة ستين ألفا وأكثر .

Georg. Acrop., p. 8,9 : Gunther (Hist cpolit, dans Riant..)

(٢)

Nicét, p. 777; Gunther, I. c.

(٣)

Georg. Acro p. 9; Guntheri, Hist. Cpolit I. c.

(٤)

تحددهما لجنة خاصة^١ ويسلم كل جزء الى واحد من المنتقاسمين ، يستلمه كقطاعية من قبل الامبراطور في مقابل التزامات محددة . وعند تحرير هذا المشروع الأولى لم يفت البنادقة أن يحتفظوا لأنفسهم في الامبراطورية اللاتينية الجديدة بكل الحقوق والعادات والأموال التي كانوا يتمتعون بها في الامبراطورية البيزنطية (١) .

وبعد الاستيلاء على المدينة ، جرى انتخاب الامبراطور (٩ مايو) ، والمعروف أن الاختيار وقع على بودوان (بلدوين) كونت الفلاندر ، ولم يجر تقسيم الأقاليم التي كان يحكمها قبلا الاباطرة البيزنطيون الا بعد نقضاء عدة شهور ، وذلك في مستهل شهر أكتوبر (٢ ، ٣) وفي حوزتنا وثيقة التقسيم . وقد دون الإسيد تافل M. Tafel النص الأصلي بعد أن أجرى تصححاً لما أصابه من تلف ، وأتاح له معرفته العميقة بالجغرافيا ايضاح قدر كبير من الغموض (٤) ونلقى الامبراطور في التقسيم أقليم آسيا ، والجزر الواقعة شمالي بحر ايجه وشرقيها ، وشرط من اقليم تراقيا على طول البحر الأسود ، ونال الصليبيون (الحقيقيون) القسم الأكبر في تراقيا ، من نهر هبرس (ماريتسه ، أو ماريتزا Maritza) حتى بحر هرمة ، والقسم الجنوبي من مقدونيا ، وتساليه ، والقسم الشرقي من الهيلاد (هيلاس : الاسم القديم لبلاد الاغريق - المترجم) وأخيراً فان نصيب البنادقة ، وهو الذي يهمنا في هذا المجال ، كان يشمل :

١ - ابيروس l'Epire ، داکارنانيا l'Acarmanie وإيتوليا l'Etolie مع مدن دورانرو Durazzo ، وأرته Arta ، وغيرها ، ٢ - الجزر الأيونية ، وذكر منها بنوع خاص كورفو ، وكيفالونيا Céphalonie ، وسانت مور Sainte-Maure وزانتى Zante ، ٣ - البيلوبونيز ، والمشار إليها في المعاهدة بمدن : بتراس Patras وكالفريتا Calovryta ، وأوستروفا Ostrova ومودون Modon ولاكيدومونيا Lacédemonia ٤ - جزر جنوبي وغربي الأرجنيل (بحر ايجه قديماً - المترجم) ، ومنها ناكسس Naxos ،

(١) Taf. et Thom. I, 446, 450; II, 229.

(٢) هذا هو التاريخ الذي ذكره فيلهاردون (ص ١٨١) ، انظر ايضاً :

Robert de Clary, p. 80 :

Nicetas, p. 787; Tafel, Symboloe criticoe, pars. 2, p. 31. (٣)

يذكر نيكيتاس أن التقسيم شمل أيضاً مصر وليبيا ، وفارس ، وأشور ، وهذه مبالغة غير معقولة ، وليس هناك شيء من هذا القبيل في نص معاهدة التقسيم . ومع ذلك يرى راموزير Ramusio في المعاهدة مدينة من مدن كيليكيا Cilicie « طرسوس » Tarse ومدينة بمصر ، « بيلوز » .

(٤) Tafel, Symboloe critica geographian byzantinam spectantes, pars 2 dans les Abh. der 3. der Munch. Akad. V, 3e sér, p. 1-136, et Venet. Urkund, Buch, I, 452-501.

اندروس Andros ، وجزيرة يوبيه المشار إليها بمدينتي أوريوس Oréos وكاريسستوس Karystos ، ٥ - مجموعة من المدن ، متراصة على طول الشاطئ الأوروبي لمضيق الدردنيل وبحر مرمرة ، أهمها جاليبولي Gallipoli ، ورودستو Rodosto وهيراقلية Heraclée ، ٦ - وأخيرا بضع مدن دخل تراقيا أكبرها اندرينوبل . نضيف أيضا جزيرة كريت التي حصل عليها البنادقة بمقايضة أجريت مع المركز دو مونفيريا . وانا للنعترف بأن البنادقة أثبتوا في اختيارهم هذا بتمتعهم بروح عملية في كل ما يؤدونه من أعمال ، اذ كان معظم هذه الجهات أقاليم خصبة ، تصل إليها السفن بسهولة ، فهي مناسبة للاستغلال التجاري ، وكلها تقريبا موجود على الطريق البحري الكبير الذي يصل البندقية بالقسطنطينية .

وبعد أن تم التقسيم ، كان لابد من استلام الأملاك : وعندئذ اصطدم البنادقة ، والامبراطور ، وسائر الصليبيين بصعوبات كثيرة ، اذ سرعان ما تبين للدوق بيترو زيانى زيانى ، خليفة داندولو أنه لكي يحتفظ بالمكاسب الجديدة ، فلا مناص من الانفاق لسنوات عديدة على الكثير من فرق الجنود المرتزقة المتناثرة على مواقع مختلفة ، ولا تتناسب المبالغ الضخمة التي يتطلبها الانفاق على هذه الفرق مع القيمة الحقيقية لهذه الممتلكات بالنسبة الى دولة بحرية كالبندية . وعلى ذلك قنع الدوق بالاحتفاظ بداقية دوراتزو الصغيرة (١) التي تأسست عام ١٢٠٥ ، وتنازل عن الحقوق المكتسبة للجمهورية طبقا لمعاهدة التقسيم فى باقى أقاليم ابروس ، وأكارنانيا ، وإيتوليا . واستغل الطاغية اليونانى ميخائيل الأول فترة خلو العرش فوضع يده على هذه الأقاليم . وكان لابد من حرب ، ربما طويلة ليستعيد الدوق هذه الممتلكات ، لذلك سره أن يجرى تسوية : فوافق ميخائيل على أن يتسلم الأقاليم المذكورة بصفة اقطاعية من حكومة البندقية ، ووعده البنادقة ومواطنيهم الجدد فى دوراتزو أن يسمح لهم بممارسة التجارة بمطلق الحرية فى ولاياته (١٢١٠) (٢) . ولم يمتنع هذا من تدمير دوقية دوراتزو بعد انقضاء بضع سنوات فقط من انشائها (١٢١٥) ، دمرها الطاغية تيودور أخو ميخائيل وخليفته (٣) ، ومن ثم لم تتمتع الجمهورية بهذا الجزء من فتوحاتها ثم كان للجمهورية فيما بعد قنصل فى دوراتزو ، ولكنه كان قنصلا تجاريا فحسب ، مثل زميله قنصل أرته عاصمة الطاغية (٤) .

Dandolo, p. 332.

Taf. et Thom. II, 120 et ss.

Georg. Acropol. p. 28.

Hopf, Griechenland, dans Ersch et Gruber, LXXXV, 299, 331.

(١)

(٢)

(٣)

(٤)

وفى المورة ، وجد البنادقة المكان وقد احتله الغير ، فقد استولى عليها الفارس جوفروى دى فيلهاردوين Geoffroi de Villehardouin . نيم دوشاميليت Guillaume de Champlite وأقاما بها دوقية أخايا . ومع ذلك ففى عام ١٢٠٦ استغل البنادقة حملة مرسلة الى جزيرة كريت ، فاحتلوا بالقوة موقعا فى الجنوب الغربى من شبه الجزيرة ، مسينا القديمة ، وبالذات فى الجزء الذى كان جوفروى دى فيلهاردوين قد أنشأ به اماره ، ولكنه لم يحسن حراسة ثغرى مودون وكورون ، وكانتا من أوكار القراصنة (١) . ولم يجد البنادقة عناء كبيرا فى فرض سيطرتهم عليهما وعلى مجاورتهما : فبعد أن استقر بهما المقام هناك ، تفاوضوا مع جوفروى ، واتخذوا كحد شمالى لهذا الاقليم خطا يمتد من النهر الصغير الذى يصب فى خليج نفارينو Navarin (٢) الى ميناء سينات Sinat (٣) (ازينيه القديمة) . وعلى العكس ، تخلى البنادقة عن سيطرتهم بصورة مباشرة على بقية أجزاء البيلويوينز ووافقو - كضمان كان كافى لحقوقهم على البلد - على وعد جوفروى بالاعتراف بدوق البندقية سييدا على اماره أخايا ، بالاضافة الى الالتزام بأن يصبح هو نفسه من مواطنى البندقية ، وأن يكفل المساعدة والحماية لمواطنيه الجدد فى كل أنحاء الاقليم ، ويمنحهم أينما شاءوا كنيسة وسوقا صغيرة fondiculum ومحكمة خاصة (٤) : وهذى نسخة مطابقة تقريبا للالتزام الذى اتخذته ميخائيل طاغية ايروس . وكانت هذه السيادة على المورة وقتية بالضرورة ، ولم يخف ذلك على البندقية ، بيد أنها تمسكت بهذه الملكية تمسكا ضعيفا . وبعد قرن من الزمان (١٣٢١) عرض عليها بعض الأتباع الاقطاعيين القائمين على اماره « أخايا » السيادة الفعلية على الامارة ، لكنها لم تستسلم لهذا العرض المغرى بالتوسع ، وأجابت برفض قاطع (٥) . لقد كان لتجارها حق ممارسة التجارة فى كل البلاد ، وكانت علاقاتها الودية مع أمراء أخايا تكفل أن تكون الموانئ مفتوحة لها على الدوام ، وكان هذا هو كل ما ترغبه . ثم ان منتجات البلد كانت قليلة ، تشمل الزبيب ، وعنب كورنثوس (٦) ، والتين ، والزيت ، والعسل ، والشمع (٧) ، والسنديان ، وحب القرمز ، والحريز ، والسكر ،

Sanuto, dans Murat, ss. XXII, 536, les Annal. Jan, p. 125. (١)

Dandolo, p. 335; Sanut. 1. c. (٢)

Buchon, Mém. géogr., placé en préambule du Livre de la conquête, p. xlii, et Lelewel, Géographie du moyen-âge, Atlas. (٣)

Hopf, Griechenland, op. cit., p. 239. (٤)

Juillet 1209. Taf. et Thom. II, 96-100. (٥)

Hopf, op. cit. p. 406; Coll. des doc. inéd., nouv. mélange, hist: III, 54-57 (= Commem reg. I. 231, nos 277, 278). (٦)

Pegol p. 107; Uzz. p. 89 et ss. (٧)

والمادتان الأخيرتان موجودتان بكميات قليلة ، ومن صنف غير جيد (١) ، وحتى في الركن الصغير من المورة حيث احتفظت البندقية بسيادتها المباشرة ، لم تكن لنسلك (التجارية أهمية تذكر : ومع ذلك كان ينتج بها نبيذ وزيت ، وكان للقرمز بمجاورات « كورون » شهرة كبيرة (٢) (القرمز : صبغ لونه أحمر قان . . المعجم الوسيط) . ولم يكن البنادقة يقيمون وزنا للملكيتهم الطرف الجنوبي من المورة الا من أجل موقعه . وفي سجل من سجلات مجلس شيوخ البندقية (٣) نجد مورون ، وكورون مذكورين بعبارة نمطية واحدة *ocui capitales communis* . والواقع أن الغالبية العظمى من السفن التجارية القادمة من الغرب صوب القسم الشرقي من البحر المتوسط ، أو الأرخبيل ، أو البحر الأسود ، أو بحر آزرف كان تمر على مرأى من هذين الميناءين . وعلى ذلك كان للجمهورية هناك نقطتان ممتازتان للمراقبة يمكنها أن تراقب منهما كل تحركات أصدقاءها وأعدائها في مياه الشرق الأدنى ، وكانتا فضلا عن ذلك محطتين مناسبتين ، ومأويين ممتازين ومكفولين لسفنها الذاهبة والعائدة في رحلاتها الى الشرق . لذلك لم تدخر وسعا في تحويلهما الى محطتين بحريتين في الدرجة الأولى من الأهمية ، وتحصينهما ، وتسليحهما . كانت طبيعة هاتين المستعمرتين عسكرية قبل كل شيء ، ويتولى ادارتهما قادة القلاع ، وكان هناك دائما اثنان على الأقل من هؤلاء القادة ، وثلاثة في بعض الفترات الطويلة ، ويقيمون بالتناوب في مودون وكورون (٤) .

وإذا كان البنادقة قد تخلوا عن بسط فتوحاتهم على القارة اليونانية ، فإن الأمر كان على خلاف ذلك بالنسبة الى الجزر : ثم انهم ضمنوا في معاهدة التقسيم ضم قسم من هذه الجزر اليهم ، فلم يروا من الضروري تملك هذه الجزر كلها بصورة مباشرة ، ولكنهم حرصوا على أن تكون السلطة في الجزر التي لا يوجد بها دوق أو بايل *baie* مفوض من الجمهورية ، في أيدي مواطنين يمكن الاعتماد على اخلاصهم في الدفاع عن مصالح الوطن الأم في كل المناسبات : لذلك فرضوا عليهم صراحة ألا يتنازلوا لأفراد من غير البنادقة عن الجزر أو أجزاء من الجزر المسلحة .

وفي عام ١٢٠٣ وجد الجيش الصليبي في كورفو عناصر معارضة .

(١) سوف نتاح لي فرصة الحديث عن هذه المنتجات الثلاثة .

Bened. Petrob., éd. Stubbs, II, 199; Buondelmonti, *Liber insularum* (٢) *archipelagi*, p. 63; *Viaggi di lion. Frescobaldi*, p. 16; *Roehricht et Meisner, Deutsche Pilgerreisen*, p. 135, 251.

Acte du 30 Mars 1375, cité par Hoff, op. cit., LXXXVI, 10. (٣)

Thomas ; *Abh. der Munchen Akad. Cl. 1*, vol. XIII, sect. 1, p. 20-22 ; (٤) *Hopf, Griechenland*, op. cit., LXXXV, 307 et s., 341 et s., 396, 440; LXXXVI, 10, 24.

لمشروعاته . وفى عام ١٢٠٥ انتهزت البندقية فرصة مرور أسطول صغير يحمل الى القسطنطينية أول بطريرك فينيسى لتطالب بحقوقها الجديدة فى الجزيرة ، ولكن لم تزل الصعوبات نفسها قائمة . وثمة قرصان جنوى يدعى ليونى فترانو Leone Vetrano كان يجوب تلك المياه . مسيطرا عليها ، فشجع الكورفين على المقاومة ، فلم يكن هناك مناص من ارسال أسطول كبير فى عام ١٢٠٦ لاسقاط القلعة الرئيسية فى الجزيرة ، ومن ثم انهزم فترانو ، وأسر ، وأعدم (١) . وفى عام ١٢٠٧ منح الدوق هذه القلعة هى والجزيرة كلها ، وبضع جزر مجاورة لها ، باعتبارها اقطاعية وراثية ، منحها لعشرة من النبلاء بشرط أن يتكفلوا بالانفاق على عدد معين من الجنود المرتزقة ، ويقدموا فروض الولاء للدوق ، ويلتزموا من رعاياهم أن يؤدوا يمين الاخلاص لهم . وتعهده السادة الجدد بطبيعة الحال أن يقفوا الى جانب الجمهورية فى كل المسائل السياسية ، كما تعهدوا برعاية مصالحها التجارية . والحفاوة بسفنها الحربية . وضمان حرية التنقل للتجار البنادقة ، ومعاافة بضائعهم الصادرة والواردة من كل الرسوم (٢) . ولم يدم هذا النظام زمنا طويلا ، اذ يبدو أن كورفو سقطت مع دوراتزو (٣) فى وقت واحد فى أيدي طاغية أفيروس الذى لم تستطع البندقية أن توقف تقدمه المظفر ، وبقيت أكثر من أربعين عاما خاضعة لسلطانة أو سلطان خلفائه . كان هؤلاء الطغاة فى الوقت نفسه سادة سانت مور جازتها ، وكان على البندقية ، كما سنرى أن تصطبّر وقتا طويلا قبل أن يتسنى لها أن تعتبر ضمن ممتلكاتها هذه المحطة الهامة فى البحر الأيوني .

وبالإضافة الى كورفو وسانت مور (لو كاد Leucade) أعطت معاهدة التقسيم لعام ١٢٠٤ البندقية جزيرتى كيفالونيا ؛ وزانتى : وفاتنا أن نذكر أن هاتين الجزيرتين لم تعودا منذ بضع سنين تنتميان الى الامبراطورية اليونانية ، فقد انتزعهما منها فى عام ١١٨٥ نورمان جنو ايطاليا وكونتا من ذلك الحين كونتية منفصلة ، وكان أول من تولى أمورها أشراف تابعون لتاج صقلية ، وبعدهم بارونات من امارة أخايا (٤) . وفى عصر الحملة الصليبية الرابعة ، كان السيد الحاكم هو ماتيو Matteo الذى عاش حتى عام ١٢٣٨ ، ويصفه المؤرخ الفينيسى داندولو بأنه nobilis gallicus أى نبيل ذو شأن - وربما كان السبب فى ذلك أنه ينحدر من جنس نورماندى) ، ويزعم أنه أقسم فى عام ١٢٠٩ يمين الولاء للبندقيه ، بمقتضاه اعترفت هذه بسيادته على الجزيرتين .

Dandolo, p. 334.

(١)

Taf. et Thom. II, 54-59.

(٢)

(٣) وعلى أية حال تحدث ال : Liber Plegiorum, p. 148. عن كورفو عام ١٢٣٨

على أنها جزيرة تحت سيادة اليونانيين .

Hopf, op. cit., LXXXV, p. 181 et s., 257, 314 et s., 331 etc., p. 421, (٤) note 53; Buchon, Recherches historiques sur la principauté française de Morée I, (1845), p. lxxxii et s. ; Fl, p. 478-461.

ولننتقل من البحر الأيوني الى الأرخبيل ، فنجد ثمة من نصيب البندقية جزر الكيكلاد . وكان المطلوب احتلال هذه الجزر ، وهو أمر لم يكن خلوا من المصاعب ، إذ لم يكن يد من قتال السكان الذين كان يساندتهم بعض القرصان . وتقدم بعض الأشراف الرومان ، وكانوا يشعرون بشيء من الشجاعة يؤهلهم للاقدام على هذه العملية ، ومعهم ما يكفي من المال لتحمل نفقاتها : وتنازلت لهم الحكومة عن حقوقها ، دون أن تخسر شيئا . وفي عام ١٢٠٧ اجتمع في القسطنطينية عدد كبير من القراصنة البنادقة ، وقاموا بحملة بقيادة ماركو سانودو Marco Sanudo ونجحت الحملة نجاحا كبيرا . وتلقى سانودو ، مكافأة له على انتصاره جزيرة ناكسس naxos أكبر الجزر كلها ، ملكا خالصا له ، ومعها عدة جزر ، كبيرة وصغيرة ، تحيط بها ، ومنح فضلا على ذلك حقوق السيد الاقطاعي على سائر الجزر التي تم غزوها في نفس الحمل ، وكما جعله امبراطور القسطنطينية « دوق نكسس » (١) . أما سائر الكيكلاد فقد تقاسمها زملاؤه القدامى الذين أصبحوا أتباعه من ذلك الحين : منهم مارينو داندولو الذي نال جزيرة اندروس Andros (٢) ، ونال الاخوان جريشيا واتندريا غيزي Geremia et Andrea Ghisi تينوس Tenos وميكونوس Mykonos ثم جزءا من سريفيوس Sériphos وخيوس Keos ، اقتسماها مع دومينكو ميشميل Domenico Michiel وبييترو جوستيناني Pietro Giustiniani (٣) . وفيما بعد منح يوحنا فاتانزيس Jean Vatatès امبراطور نيقية اليوناني جريشيا غيزي القسم الشرقي من أمورجوس Amourgos وفي القسم الجنوبي من الأرخبيل ، كان لليوناردو فوسكولو Leonardo Foscolo جزيرة نامنيو (أناذيه) الصغيرة ولجاكوبو باروتزي Jacopo Barozzi جزيرة سانتورن Santorin (٤) غير أن سانودو ورفاقه لم يقنعوا بجزر الكيكلاد ، بل تقدموا في المناطق المجاورة من ذلك أن جيوفاني Giivanni Quirini استولى على ستامباليا (استروباليا) Stampalia (Astropaloea) (٥) ، وهي إحدى جزر سيوراديس Sparades في حين مضى ماركو فينيه ، وجاكوبو فينارو الى الجنوب الغربي ، فاحتل أحدهما Cérigo والثاني Cérigotto وجعلا منهما مركزيتين (٦) . ولم يتورع هؤلاء المغامرون في أن يعتدوا على أملاك امبراطور القسطنطينية ، فقد كان يملك في شمال الأرخبيل وشرقية عددا كبيرا من الجزر ، بعضها كبير : غير أنه لما كان

Hopf, Griechenland, op. cit., p. 222 et s., 308. (١)

Hopf, Geschichte von Andros, p. 36 et ss. (٢)

Hopf, article Ghisi, dans Ersch et Gruber, LXVI, 336; article Giustiniani, ibid, LXVIII, 303. (٣)

Hopf, Veneto-byz. Analecten, op. cit., 499 et ss., 378 et ss. (٤)

Hopf, ibid, p. 461 et s. (٥)

Hopf, Griechenland, dans Ersch et Gruber, LXXXV, 223; cf. Archiv. Venet, XVII, 263; XVIII, 61. (٦)

فرسانه الفلمنبيكون والفرنسيون يفضلون الاقطاعات الواقعة على الأرض اليابسة فانه لم يكن يسوؤه أن يتولى احتلال هذه الجزر بنادقه اعتادوا حياة البحار . وهكذا استقر فيلو كالو نافيجاجوزو Filocalo Navigajoso في جزيرة ليمنوس الكبيرة (١) وأضاف الاخوان غيزي الذين سبق ذكرهم الى الجزر التي يملكونها من قبل في الكيكلاء ، جزر سكيروس ، وسكوبلوس ، وسكياثوس ، وخيلدرومي ، من جزر سيوراديس الشمالية شرقي جزيرة يوبيا (٢) وكان أهم أمير من أمراء الجزر هؤلاء البنادقة دون ناكسس (٣) ، وغرندق ليمتوس اللذان لا يعترفان بسيادة الوطن الأم ، ولكنهما يتبعان الامبراطور ، حتى ان غالبية السادة الأقل مرتبة ، الذين أخذوا اقطاعاتهم من دون تاكسس كانوا بمثابة « مولى المولى » بالنسبة الى الامبراطور . وكان من حق البندقية أن تقتضى ولاء أولئك الذين يملكون جزرا تخضع لسيطرتها ، الا أن حكومتها كانت من الحصافة بحيث تجنببت اثاره نزاع في هذا الخصوص ، فاعتمدت على سياستها الخاصة ، وعلى قوة الظروف لضم الأميرين الى صفوف أتباع البندقية الاقطاعيين . وكانت الأمور كلها وقتئذ مواتية لها ، فالغالبية من الجزر اليونانية في أيدي مواطنين من البندقية : وهى النقطة الأساسية . والواقع أنه أيتها أقام البنادقة اماره كان مقرهم يحاط بمستوطنات ايطالية ، وحيثما كان فى الماضى أوكار القراصنة الذين يبعثون الرعب فى تجارة البندقية ، نجد الآن موانى صديقة ، وملاجئ ، أمينة وحصينة يستطيع ربابنة السفن والتجار البنادقة أن يطلبوا فيها الملاذ والحماية وهم على ثقة من احتفاء القوم بهم . وإذا كان سادة هذه الجزر يتساهلون أحيانا فى وجود بعض القراصنة عندهم ، فان هؤلاء لم يعودوا يشكلون خطرا على السفن الفينيسية . ثم ان صغار البارونات هؤلاء ، والمستوطنات التى أتت فى أعقابهم لم تقض على الموهبة التجارية التى تتمتع بها أمتهم ، ومن ثم لم تلبث أن نمت وتطورت حركة تجارية كبيرة ، أولا من جزيرة الى أخرى ، ثم بين الجزر والأراضى اليونانية وأخيرا بين الجزر والبندقية ، والواقع أن بعض هذه الجزر لم يكن أكثر من صخور عارية ، وفقيرة جدا بحيث لا يمكن أن تغذى سكانها . وهناك على العكس من ذلك جزر تسهم بنصيبها فى التجارة ، من حبوب ، وفواكه مجففة ، وزيت ، وعسل ، وشمع ، وقطن ، وصوف ؛ وحرير (٤) . وفى العصور الوسطى كان عسل الجزر اليونانية ، وجبن سانتورن يصدر الى مصر (٥) ، وكبريت نزيروس Misyros سلعة تجارية

Hopf, Veneto-byzant, Analecten, p. 496.

(١)

Hopf, art. Ghisi, op. cit.

(٢)

Hopf .. philos hist. Cl., 1856, XXI, 242 et ss.

(٣)

Liber insul, archipelagi, éd Sinner, p. 85; Hopf, Veneto-byzant. Analecten, p. 394; Caumont p. 86.

(٤)

Piloti, p. 376.

(٥)

واشتهرت تكسس بالصنفرة (١) ، وثبت أن محاجر باروس Paros كانت ولم تزل تستغل ، وأن هذه الجزيرة تصدر رخامها ، ليس فقط إلى خيوس ولكن أيضا إلى البندقية (٢) . ويتبين لنا أن امتلاك البنادقة هذه الجزر كان يكفل لهم نموا كبيرا في الحركة التجارية . وفي الجنوب ، كانت جزيرة كريت لحسن الحظ آخر مجموعة الممتلكات الفينيسية في المياه اليونانية . ولا ترجع نشأة حقوق البندقية في هذه الجزيرة إلى معاهدة عام ١٢٠٤ ، فهي لم تذكر بها ، لأنها في تلك الآونة كانت تابعة بالفعل للبندقية . وفي غضون الحملة الصليبية الرابعة أهداها الكسيوس انجيلوس - هذا الأمير الذي أقامه الصليبيون أولا على العرش ثم ما لبثوا أن أطاحوا به - أهداها إلى الماركيز مونفيرا . ويبدو أنه وقت انتخاب الامبراطور اللاتيني الذي يحل محل الكسيوس ، قرر العزم على أن تكون كريت والأقاليم الأسيوية للامبراطورية اليونانية من نصيب من يخفق من المرشحين الاثنين (لعرش الامبراطورية) ، وكان هو الماركيز مونفيرا . لذلك كان له حق مزدوج في الجزيرة . وقد سجلت هذه الواقعة في أخبار جوفروا دي فيلهاردوين ، وهي المصدر الوحيد الذي نجد فيه قصة انتخاب الامبراطور . غير أن المخطوطات التي في حوزتنا تعرض قراءات مختلفة عن الفقرة المقصودة : فمنها ما ورد به isle de Crète (جزيرة كريت) ، أما السيد وايلي M. Wailly فإنه يفضل نصا isle de Grèce (جزيرة اليونان) (٣) متمشيا مع رأى بوشون Buchon ، فهذا الاسم كان يطلق كثيرا في هذا العصر على شبه جزيرة المورة (٤) وعلى أية حال ، لم يذكر بونيفاس Boniface سوى منحة الكسيوس في وثيقة ١٢ أغسطس ١٢٠٤ التي تنازل فيها عن جزيرة كريت للدوق داندولو في مقابل أقاليم ذات قيمة مساوية لها واقعة في القسم الغربي من القارة اليونانية (٥) . وكان لهذا التنازل باعثن : أولا كان الكسيوس حريصا على استمالة الدوق لأن علاقاته مع الامبراطور كانت متوترة للغاية ، وقد يحتاج إليه في يوم من الأيام ، وثانيا كانت حملاته البرية قد كلفته مالا كثيرا ، وكان يطلب له أن يتخلص من النفقات التي تتطلبها فوق ذلك حملة بحرية . فالواقع أنه لابد من غزو كريت لاحتلالها . وفي الوقت الذي كان يجري تسليحها كانت ولم

(١) Buondelmonti, p. 78 et s. 96; Ross, Reisen auf den griechischen Inseln, I, 41; II, 78.

(٢) Cyriacus Anconitanus, dans Targioni-Tozzetti, 'Relazioni d'alcuni viaggi fatti in Toscana, V (Firenze 1773), p. 424; Buondelmonti, l.c. p. 94; Fel. Fabri, Evagatorium, III, 264, 299.

(٣) Geoffroy de Villehardouin, éd. de Wailly, p. 152, 156.

(٤) Henri de Valenciennes سبيل المال

(٥) Taf. et Thom. I, 512 et ss.; Monum. hist. patr. Chartae, I, 1112 et ss.

نزل تحت سلطة اليونانيين (١) . وأخطأت الجمهورية بتردها منذ البداية ، واكتفت مؤقتا بأن تعطي الأسطول الذي كان عليه أن يرافق البطريق موروسيني Morosini الى القسطنطينية الأمر بأن تترك في طريقها حامية صغيرة في حصن سبينالونجا Spinalonga (شرقي كانديا Candie) . واعتقد كونت مالطة ، انريكو بسكاتوري Enrico Pascatore التابع لعرش صقلية ، والذي كان شديد الحماس لسيادة وطنه جنوا ، من الوجهتين البحرية والتجارية (٢) ، أعتقد أن اللحظة المناسبة قد حانت لايقاف تقدم البنادقة في اليونان . لذلك بدأ في عام ١٢٠٥ بإرسال ثلاث سفن حربية الى الميساه اليونانية لايقاع كل أذى مستطاع بأعداء جنوا ، فأسرت بالفعل سفينتين بندقيتين (٣) . وفي عام ١٢٠٦ قام بنفسه على رأس حملة كبيرة متجهة الى كريت ، وبسط سلطانه على الجزيرة بأسرها (٤) . واذ امتلأ زهوها بنجاحه ، فإنه أضاف الى لقبه comes maltos كونت dominus cretoe (٥) (سيد كريت) وتأهب لغزو الجزر والسواحل المجاورة . وتبعاً لبعض الأخبار التاريخية اللاحقة ، نجد أن التجار الجنوبيين المقيمين بالجزيرة شكلوا من أنفسهم هيئة اجتماعية تحت رئاسة أربعة قناصل (٦) . ومن عجائب الصدف أننا نجد أسماء هؤلاء القناصل هي بالذات أسماء قناصل الاسكندرية المذكورة في « الحوليات الجنوبية » لعام ١٢٠٤ (٧) : هذه المعلومة كافية لأن تجعل الخبر كله مشكوكاً في صحته . وفي السنة التي استقر فيها الكونت انريكو في كريت ، أرسلت البندقية الى هناك أسطولاً كبيراً استرد قسماً كبيراً من الجزيرة . ودافع ازيكو عن الأرض خطوة خطوة . وأخيراً في عام ١٢٠٧ أمست العاصمة وباقي أجزاء الجزيرة في أيدي البنادقة . وفي عام ١٢٠٨ استطاع انريكو أن يعاود النضال بفضل التعزيزات التي أرسلها اليه وطنه ، وواتاه الحظ في البداية ، فأسر الاميرال الفينيسي رانييري Ranieri ، غير أن وصول أسطول ثان على التمهق (٨) . وفي عام ١٢١٠ طلب من جديد مساعدة جمهورية جنوا : فحاولت الحكومة أولاً أن تتدخل بالطرق الدبلوماسية.

Hist. duc. Venet., l.c. p. 95.

(١)

Annal. Jan. p. 121; Hist. duc. Venet., ibid; Papon, Histoire de

(٢)

Provence, II, Preuves, no 51; Annal. Jan. ad. an. 1243, p. 209; Canale,

Nuova istoria di Genova, II, 440.

Annal. Jan. p. 124.

(٣)

Hist. duc. Venet., l.c.; Annal Jan. p. 125; Dand. p. 335.

(٤)

Lib. jur. I, 540, 553.

(٥) نجده بهذا اللقب في عام ١٢٠٨ ، ١٢١٠ .

Pagano, .. Delle imprese e del dominio dei Genovesi nella Grecia, (٦).

p. 12.

Annal Jan. p. 122.

(٧)

Dandolo, p. 335; Hist duc. Venet., l.c.; Da Canale, dans l'Archiv. stor. ital. VIII, 347.

(٨)

ولكن البندقية رفضت حتى مجرد الكلام عن اجراء تسوية مع انريكو ، فأرسلت اليه الحكومة أسطولا (١) ، وفتح بعض المواطنين باب التبرع لتغطية نفقات الحملة (٢) . وجوبا على ذلك وعد بسكاتوري المشتركين في الاكتتاب بالسداد العاجل ، وأعطى بعضهم كضمان لذلك ايرادات جزيرته « جوتزو » Gozzo ، ومن ناحية أخرى تعهد لوطنه بموجب معاهدة بتاريخ ٢٥ يولية ١٢١٠ أن يمنح الجنوبيين في كل مدن الجزيرة التي سوف يغزوها (٣) ، حيا وكنيسة ، وسوقا ، وحماما ، وفرنا ، بالإضافة الى محكمة خاصة في أربع مدن ، وتعهد أخيرا بالتصريح بحرية التجارة . أما بخصوص مبلغ ١٨٠٠ جنيه جنوى ، وهو مجموع ما قدمته الجمهورية من مال ، فانه تعهد برده على أقساط ، بالإضافة الى دفع جزية سنوية قدرها ألف « هيببر » ، وأن يوصى للجمهورية بملكية الجزيرة في حالة وفاته دون أن يترك ورثة شرعيين من الذكور (٤) . وليس ثمة مصدر فينيسى أو جنوى ينبئنا عن تصرفات كونت مالطة أثناء هذه الحملة ، ولكن الشيء المؤكد هو أن البندقية ظلت مالكة للجزيرة ، وأنه في المعاهدة التي وقعتها الجمهوريتان عام ١٢١٢ تخلت جمهورية جنوا ضمنا عن ملكية الجزيرة . وأقسم الكونت ايزيكو نفسه اليمين على مراعاة تنفيذ المعاهدة ، والا تتحول قوات وطنه ضده اذا ما شن حربا من جديد ضد البندقية (٥) . وفرض الشرط نفسه على زميله « اليمانو داكوسنا » كونت (سيراكيوز) . وعلى الرغم من العهد الذي أعطاه هذا الأخير ، فانه سلح في عام ١٢١٧ أسطولا من القراصنة للقيام بحملة الى كريت ، وكلفه هذا العدوان سنة قضاها في الأسر في البندقية ، فضلا عن أنه استدان مبلغا كبيرا لسداد التعويضات التي طلبت منه (٦) .

ولم يكن الأعداء الخارجيون هم وحدهم مصدر ازعاج حكومة البندقية في كريت : فقد كانت الجزيرة آهلة بسكان مستقلين ومحبين للقتال . فبتأثير التحريضات الخفية والوعود بالنجدة من جانب يوحنا فاتاتزيس امبراطور نيقية ، اشتعلت ثورات كثيرة اتخذت أحيانا أبعادا مزعجة ، فكان لا مفر من اتخاذ اجراءات قمع شديدة . ولما كانت حكومة الجمهورية (الفينيسية) راغبة في اقامة علاقات وثيقة بين جزيرة كريت وبين البندقية فانها أجرت في كل أنحاء الجزيرة تقسيمات للأراضي وزعتها على بعض المواطنين البنادقة ، فأعطت الأشراف قطعاً كبيرة ، والعامّة قطعاً صغيرة مع حق نقلها

Annal. Jan. p. 127; Dand l.c.

Annal. Jan. p. 129.

Lib. jur I, 554; Pagano, l.c. p. 15.

Lib. jur I, 553 et s.

Canal (Nouva istoria di Genova, II, 17); Annal. Jan. p. 132.

Annal. Jan. p. 138; Hist. duc. Venet., l.c.; Lib jur, I, 613, 819.

(١)

(٢)

(٣)

(٤)

(٥)

(٦)

الى ورثتهم من أقربائهم المباشرين ، أو التصرف فيها بالبيع بشرط أن يكون المشتري من البنادقة . وكانت الملكيات الكبيرة اقطاعيات للفرسان ، والصغيرة اقطاعيات للجنود المشاة ، وكان ملاكها ملزمين بأداء الخدمة العسكرية اذا طلب منهم ذلك دوق كانديا ، أما فى وقت السلم فانهم أحرار فى ممارسة التجارة . وبعد ذلك توسعت الجمهورية فى نظام الاقطاع هذا (١) ، ولم تحتفظ لنفسها الا بشريط ضيق من الاقليم على طول السواحل ، وبالعاصمة حيث أقامت دوقا (حاكما) يعين عادة لسنتين ، ويحكم المدينة بمساعدة اثنين من المستشارين ومجلسين . واحتفظت المستعمرة زمنا طويلا بالطابع العسكرى الذى كان لها فى البداية ، وذلك على أثر نشوب العديد من الثورات التى قام بها الأهالى اليونانيون ؛ وأجبرت هذه الثورات المستعمرين أن يتدربوا على القتال ، ومن مساوئها أنها كثيرا ما عرقلت تجارتهم . غير أنه لما كانت الجزيرة واقعة على الطريق التجارى العالمى الرئيسى ، كان من السهل عليهم أن يحصلوا على جميع أنواع السلع ، ويبيعوا منتجات حقولهم ، وكرومهم ، وخلايا النحل الخ . وكانت كريت تنتج الدقيق (٢) ، والعسل ، والشمع ، والجبن (٣) ، وكذلك . وبالإضافة الى هذه الأغذية العادية ، نبيذ مالتوازيا Malvoisie (٤) المشهور ، والسكر ، والقطن ، والقرمز ، واللادن (٥) ، وكان المئات من السفن تأتى من كل صوب وحذب تشحن أنبذة الجزيرة ، وكانت الشخصيات الكبيرة فى مصر تتعاطى خفية هذا الشراب اللذيذ (٦) . الا أنه لم تكن هناك أمة تستطيع الحصول على هذه المنتجات بشروط مغرية مثلما يستطيع البنادقة ، ذلك لأنه كان من المنصوص عليه صراحة - وهذا شئ بديهي - أنه لا يجوز للمستعمرين أن يفرضوا ضرائب على السلع المباعة للبنادقة (٧) .

ولم يكن ما جعل امتلاك هذه الجزيرة عظيم الفائدة للبندقية خصوصيتها الفائقة فحسب ، ولكن كان ذلك بنوع خاص بسبب موقعها الملائم كل الملائمة عند ملتقى طرق أقسام العالم الثلاثة . فعلى طريق الغرب الكبير الى

Taf. et Thom. II, 129 et ss., 234 et ss., 314, 470 et ss. (١)

Fel. Fabri, III, 280; Cammem. regesti, I, 50, no 233. (٢)

Piloti, p. 376, Aboulf., trad. Reinaud, II, 276; Taf. et Thom. III, 254. (٣)

Fabri, l.c., Uzz, p. 106; Piloti, l.c.; Casola, p. 42; Commem. regesti, I, 238, no 312, Roehricht et Meisner, Deutsche Pilgerreisen p. 341 : cf. p. 32E; Sanudo, Diar. II, 478, 628. (٤)

(٥) أنظر البراهين فى الفصل المخصص للسلع التجارية .

Piloti, p. 376, 404; Hopf, Griechenland, op. cit., LXXXVI, 462. (٦)

Pashley, (Travels in Crete, II, 51 et ss.)

Taf. et Thom. II, 132, 244 et s. (٧)

مصر وسوريا ، كانت كريت هي المحطة التجارية الرئيسية ، وكثيرا ما كانت السفن التجارية الفرنسية والاسبانية تعبر البحر على خط مستقيم ، تاركة الجزيرة الى يسارها ، وكان هذا هو أقصر خط بالنسبة اليها . ولكن الأمر كان جـد مختلف بالنسبة الى الايطاليين . وكان على الجنوبيين والبيزيين مثلا أن يجتازوا حتما مضيق سينا للبحار الى مصر أو سوريا ، ومن هناك كان من الميسر عليهم أن يتوقفوا عند جزيرة كريت الواقعة بالضبط عند منتصف الطريق (١) . أما بالنسبة الى القادمين من البحر الادرياتي ، كالبنادقة ، فانهم يمرون أولا أمام مودون وكورون حيث لا يفوتهم أن يلقوا مراسيمهم . ويبدو أنه عند خروج السفن التي تنقل الحجاج الى سوريا من هذين الثغرين ، فانها تتخذ في يسر الطريق المباشر الذي يمر بجزر اكيكلاء وروودس ، وتترك عندئذ جزيرة كريت الى يمينها (٢) . وحين تكون وجهتها مصر ، فانها تتخذ أحيانا طريقا مباشرا في أعالي البحار من مودون تاركة كريت الى يسارها (٣) ، ولكن ذلك كان يحدث لما ، اذ كانت ترسو غالبا عند كانديا (٤) . كانت هذه هي القاعدة العامة بالنسبة الى السفن التجارية . وعندما تطلع قاصدة مصر فانها تسير بحذاء سواحل الجزيرة حتى طرفها الشرقي : وهناك تقابل السفن القادمة من الشمال ، من القسطنطينية أو البحر الأسود قاصدة مصر (٥) ، ولما كانت السفن الأخيرة لا يفوتها أن تتصل بالجزيرة ، وهي ماضية طريقها ، فان الطريقين يختلطان في اتجاههما صوب الجنوب (٦) نرى من ذلك مدى اهتمام البنادقة بضمان امتلاكهم جزيرة كريت : اذ كانت نقطة دعم قوى لتجارتهم مع سوريا ومصر . وفي حز كان ربانة سفنهم يقنعون بالمرور على مرأة من الجزيرة دون أن يرسوا عندها ، فانهم يستطيعون أن يبتعدوا عنها وهم مطمئنون آمنون . ومن الوجهة السياسية البحتة كان احتلال الجمهورية لكريت يكفل لها التفوق على كل جزر الأجنيل الصغيرة : وفي امكاننا . أن نمضي الى أبعد من ذلك فنؤكد أن هذا الاحتلال كان شرطا جوهريا لبقاء السيادة الأوروبية التي استقرت في اليونان في أعقاب الحملة الصليبية الرابعة (٧) .

واذ لم يقنع البنادقة بضمان تفوقهم في المياه اليونانية عن طريق احتلال

Gesta Ricardi, éd. Stubbs, II, 198. (١)

Nic. d'Este, p. 113; Fabri, I, 166; Gumpfenberg dans le Reyssbuch des heil. Landes, p. 237. (٢)

Frescobaldi, p. 19 ; Sigoli p. 157 ; Gucci, p. 273. (٣)

Casola, p. 42; Georg. Gemnicensis (Baumgarten), p. 470, 623. (٤)

(٥) سوف نرى كيف أن دوق كريت قبض على بعض العبيد المرسلين من القسطنطينية الى مصر ، عند مرورهم بالجزيرة ، مما أثار خلافا بين هذا الأمير وبين سلطان مصر .

Sanudo, Secr. fid. cruc. p. 69. (٦)

Taf. et Thom. III, 57. (٧)

جزيرة كريت ، فانهم عزموا أيضا على انشاء نقطة ارتكاز غربى الأرخيل بالقرب من القارة . كانت جزيرة يوبيا Eubée ، حسب معاهدة التقسيم من نصيب البنادقة (وقد أشير إليها فى النص بنقطى : أوريوس Oréos فى الشمال ، وكارستوس uarystos فى الجنوب) ، ولكنهم وجدوا هناك عند وصولهم ، كما وجدوا فى مواضع أخرى أن المكان قد استولى عليه بعض الدخلاء . وفى الوقت الذى كان فيه جيش المريكز دو مونفيرا قد اجتاح شمال اليونان ووسطها ، تقدم فارس فلمنكى من رفاقه اسمه جاك دافسن Jacques d'Avesnes ناحية جزيرة يوبيا ، وكان دخولها ميسورا لوجود قنطرة تربطها بالقارة ، فانتهاز الفرصة وأقام حامية فى نجربونت (حاليا يوبيا) ، وعاد بالتالى فلحق بالجيش وتبعه حتى البيلوبونيز . وهكذا كانت جزيرة يوبيا ضمن فتوحات المريكز دومو نفيرا الذى قسمها الى ثلاث اقطاعيات كبيرة ، ومن ثم أشير الى سادتها فى الوثائق الخاصة بهذه الجزيرة ، وفى عهد السيادة الأوربية عليها بصفتهم Terzicri و tiersiers (أى الثلاثيون)

وعلى هذا يبدو أن البندقية وجدت ثمة من يقوم مقامها . ولكن حدث فى عام ١٢٠٩ أن أكبر هؤلاء الثلاثى ، رافانو دالى كارتشيري Ravano delle Carceri من فيرونا اعترف رسميا بحقوق الجمهورية : وكان هذا الاعتراف بالنسبة اليه وسيلة للتخلص من سيادة الامبراطور اللاتينى ، بعد أن ثار ضده بالاتفاق مع المريكز بونيفاس . وعلى ذلك أعلن نفسه تابعا للجمهورية ، واستخدم نفوذه لحمل سائر السادة الفرنجة و « الأرخونت » (الولاة) اليونانيين فى الجزيرة على الاقتداء به . وكان الدليل الملموس على هذه التبعية ضريبة اقطاعية مقدارها ٢١٠٠ هيبيربر ، وهدية مكونة من أقمشة حريرية . وتم الاتفاق فضلا على ذلك على أن يكون للبندقية كنائس ومنشآت ، وأن تقام الدعاوى المتعلقة بمصالح البنادقة أمام قضاة من جنسيتهم ، وأن يمارس التجار البنادقة تجارتهم بمطلق الحرية فى الجزيرة ، ودون أن يدفعوا ضرائب (٢) . وبعد موت رافانو جدد الولاء أرملة وابنته ، وابنا أخيه (أو أخته ؟) مارينو ، وريزاردا ، ومواطناه البرتو وجولييلمو ، واقتسموا مثنى مثنى الاقطاعيات الثلاث التى تشكل اقليم الجزيرة (٣) . وفى البداية كانت أملاك الجمهورية المباشرة هناك قليلة ، تشمل بضعة مباني منعزلة ، ومجموعات منازل فى نجربونت ، أهمها مسكن رافانو دالى كارتشيري الذى صار دارا عامة تستخدمها المستعمرة الفينيسية (٤) ، وبضع كنائس فى المدينة نفسها

Hopf, Griechenland, op. cit., LXXXV, 211, 225 et s.

(١)

Taf. et Thom. II, 89-96.

(٢)

Ibid, II, 175-184.

(٣)

Ibid, 11, 177, 181 et s ; III, 5, 10, 14 ; Sathas, Doc. inéd. 11, 113.

(٤)

منها كنيسة سان مارك ، وهي في الوقت ذاته كاتدرائية (١) ، وأخيرا fondaco وميدان يستخدم سوقا للنبيذ (٢) . ولا نعرف ما اذا كانت البندقية قد استخدمت حقها في امتلاك كنائس وأسواق في سائر مدن الجزيرة ، ولكن كان لها « بايل » (حاكم) مقيم في وسط الحي Campus الذي يقطنه البنادقة في العاصمة ، وكان هذا الموظف يتولى ادارة المستعمرة بمساعدة اثنين من المستشارين ، ويمثل الدوق بصفته السيد عاهل الجزيرة كلها ، ويتمتع بهذه المثابة بسلطات واسعة . وحين تنتقل ملكية قسم من الاقليم الى حاكم « ثلاثي » جديد ، بالوراثة أو الزواج ، فان هذا الحاكم لا يستطيع ممارسة حقوق السيادة الا بعد أن يقلده « البابل » منصبه ، وبعد أن يقدم اليه ولاء اقليمه . ومع ذلك كان الحكام « الثلاثة » منذ البداية تابعين لعاهلين اقطاعيين في وقت واحد ، عاهل جمهورية البندقية من جهة ، وأمير المورة من جهة أخرى . وحين تزوج وليم دى فيلها ردوين من وريثه رافانو دالى كارتشيري ، أمد هذا الزواج بذريعة جديدة للتدخل في شئون الجزيرة ، وكان ذلك من سوء طالع البندقية . كان أهم ما يشغل الحكام البنادقة هو القضاء على نفوذ جييرانهم الأقوياء في الجزيرة . وانتهى هذا النضال المستمر الى نشوب معارك علنية . واستمرت الحرب عامين (١٢٥٦ - ١٢٥٨) وتقلبتم أحداثها ، وانتهت بهزيمة الحلفاء الذين كانوا مع البندقية في الأراضي اليونانية . ولم يزل في مقدور الجمهورية أن تتفاوض ، الا أنها فقدت من ذلك الحين كل أمل في النجاح . وانتهى الأمر بالصلح في عام ١٢٦٢ ، ولكن كان من شروط المعاهدة هدم قصر نجر بونت ، وكان هذا الحصن يتحكم في القنطرة القديمة القائمة بين الجزيرة وبين القارة ، ومن ثم يحمي كلا من المدينة والجزيرة من أى هجوم يأتى من هذه الناحية ، واحتفظت الجمهورية في الجزيرة بحقوقها المكتسبة بمقتضى المعاهدات السابقة ، ولكن كان عليها أن تقر بسيادة أمراء المورة على الحكام الثلاثة ، وكان هذا عقبة دائمة في سبيل ممارسة حقوقها (٣) . وكان لابد للجمهورية من أن تؤجل الى المستقبل أملها في أن تصير السيدة الوحيدة على الجزيرة ، ولم يكن الوقت الحاضر مناسبا للخلافات الداخلية . وأخيرا أطاح اليونانيون بالامبراطورية اللاتينية ، وأقاموا ميخائيل باليولوجوس على العرش . وكان لابد أن يتماسك الفرنجة بقوة ويقاوموا العدو المشترك ، وفي هذه الأثناء كان التجار البنادقة يمارسون التجارة في جزيرة يوبيا بكامل حريتهم مثلما يمارسونها في بلدهم الأصلي دون أن يدفعوا ضرائب ، ويتمتعون أيضا بامتياز استعمال الموازين والمكاييل الخاصة بهم في عمليات البيع (٤) .

Taf. et Thom. II, 91, 94, 117 et s., 181 et s., 480 et s.; 111, 15, 370-372. (١)

Ibid, II, 91, 94, 177, 181. (٢)

Taf. et Thom. III, 46-55. (٣)

Ibid II, 177, 182; 111, 15, 48, 54. (٤)

وكانت الرسوم التي يدفعها التجار الأجانب للجمارك تدخل في خزائن الجمهورية ، وكان الخراج الذي يؤديه الحكام الثلاثة سنويا تنفيذا للمعاهدة الأولى (١) قد ألغى في عام ١٢٥٦ ، واستبدل به إيرادات الجمارك من البضائع الأجنبية (٢) . وكانت الجزيرة شديدة الخصوبة ، تصدر القمح (٣) ، والنبيد ، والزيت (٤) والشمع ، والعسل (٥) ، والحرير (٦) . ويبدو أن الحرير كان يصنع في الجزيرة نفسها ، إذ يتبين من معاهدتي عامي ١٢٠٩ ، ١٢١٦ أن الحكام الثلاثة كان عليهم أن يرسلوا سنويا الى الدوق قطعة من « البروكار » المذهب ، كما نستنتج أيضا من هاتين الوثيقتين أن الحرير الخام والحرير المصنع يشكلان جزءا من الثروة التي يتمتع بها هؤلاء الحكام بضمنان الجمهورية .

تكلما قبلنا عن مدينة هالميروس Halmyros (الميرو ، ارميرو) (٧) الواقعة شمالي جزيرة يوبيا في خليج فولوس Volo ، وكانت بموقعها هذا سوقا لتصريف قمح تساليه (٨) . ولم تكن في معاهدة التقسيم من نصيب البندقية ، لا هي ولا جارتها وسميتها (الميري) (٩) . وعندما استولى المركز دو مونفيرا على تساليه كانت ضمن الاقطاعية التي منحها لنيل لومباردي يدعى جوليلمو دي لارسا Guglielmo de Larsa و « دي لارسا » هذه تحريف لاسم لاريس (لاريسنا) - Larisse (Larissa) - مقر هذه الشخصية (١٠) . ونحن نعرف أن البنادقة كان لهم مستعمرة في الميرو قبل الحرب الصليبية الرابعة بزمان بعيد ، ومكثوا هناك طوال عهد سيادة الفرنجة في سلام مستمتعين بأموالكم وكنيستهم (١١) . واثما لهذا العرض ، يتعين الآن أن نعتبر الأرخيبيس في خط مستقيم ، ونمر بكيرسوينز تراقية Chersonnèse de Thrace (الآن شبه جزيرة جاليبولي) : هنا جرى التقسيم طبقا لنصوص المعاهدة . ونجد أحسن برهان على ذلك في اتفاقية (١٢) عقدت عام ١٢٠٦ بين مندوبي الامبراطور هنري

Ibid. 11, 90, 93, 176, 181.

Ibid. III, 14, 47, 53.

Pegol, p. 145.

Taf. et. Thom. II, 177, 181, 183; 111, 15.

Pegol, 1.c., Piloti, p. 375.

Pegol. 1. c.

Tafel, De Thessalonica, p. 495 et s.; Taf. et Thom. I, 266, 488.

Sanut, Secr. fidel. cruc. p. 68.

Taf. et Thom. I, 487.

Hopf, Griechenland, op. cit., LXXXV, p. 210.

Taf. et Thom. II, 15; 111, 28; Docum. sulle relaz. tox. p. 89:

Muratori, Antiq. ned. oevi, III, 233 et s.

من جهة ومحافظ (بودستات) البندقية من جهة أخرى فى مناسبة وضع الحدود للأقاليم . وكان بين البنادقة الذين يحتلون جاليبولى ، ومونتينيانى Muntinianoe وسيجوبوتاموس Sigopotamos ، وبين « الفرنجة » سادة سستوس Sisto ، وبلاجيا Plagia ، وبوتاميا Potamia (١) منازعات متكررة ، بخصوص تحديد الأراضى فى النواحي الرئيسية . وفى المعاهدة الكبرى كانت المناطق الثلاث الأولى من نصيب البنادقة (٢) ، وبلاجيا (٣) وبوتاميا من نصيب الصليبيين ، أما سستوس فانها وحدها هى التى لم تذكر فى المعاهدة ، بل ذكر بدلا منها جارتها ماديتوس madytos (٤) . وكانت جاليبولى وحدها هى أهم المدن كلها للبندقية ، اذ كانت فى حاجة اليها لتكفل تفوقها فى الدردنيل ، ومع ذلك منحتها كقطاعية لاثنيين من النبلاء ، ماركو داندولو ، وجياكومو فيارو ، فعاد داندولو الى البندقية ، ومضى فيارو الى جزيره تشيريجوتو حيث أنشأ بارونية . عندئذ الحقت جاليبولى بالأقاليم التى يحكمها مباشرة « بودستات » الجمهورية فى القسطنطينية (٥) . وكان من الأهمية العظمى لدى ربانبة السفن الفينيسية أن يكون فى حوزة وطنهم موقع حصين فى هذه القناة الضيقة التى لا بد لهم من عبورها للوصول الى القسطنطينية . ولكن للتوقف فى الطريق ، أو البحث عن فرصة مناسبة لعقد صفقات تجارية (٦) ، فانهم يفضلون كثيرا ثغور بانيوم Panium ورودستو ، وهيراقليا فى بحر مروة ، فهذه الموانئ ، وبخاصة رودستو (٧) كانت بمثابة أسواق لقمح سهول تراقيا الغنية . ثم ان البندقية كانت قد رفعت علمها فى قلب هذا الاقليم . وفى سجلات هذا العصر نجد أركاديوبل Arcadiople وهى برجولا Berguloe (٨) القديمة ، مدينة Tchatal-Borgas أو Leulé-Borgas الحالية على الطريق من بينزطة الى اندرنيول ، مذكورة على أنها مدينة فينيسية (٩) . وحتى أندرينوبل نفسها

Muntaner, trad. II, 160.

(١)

Taf. et Thom. I, 468.

(٢)

(٣) لا زال الجزء الأكبر من سكان هذه الناحية من أصل يونانى حتى اليوم يسمونها بلاجياري ، أما الترك فيسمونها بولاير .

Taf. et Thom. I, 483.

(٤)

Dandolo, p. 334

(٥)

Hopf, Griechenland, op. cit. LXXXV, p. 222 et s.; Liber plegiorum, p. 52.

(٦)

Villehardouin, p. 136, 146.

(٧)

Brochart, Advis directif, dans la Collect, des chron. belges, Namur, V. 306.

(٨)

Commentaire d'Hiéroclis par Wesseling, éd. Bonn, p. 402 et ss. ;

(٩)

Willehardouin, p. 125, 145.

كان يحتلها في البداية حامية فلمنكية ، فاضطرت الحامية الى الجلاء بمقتضى معاهدة التقسيم ، وحلت محلها حامية فينسية (١) . ولم يدم هذا الحال زمنا طويلا ، فبعد بضعة شهور ، ثار الأهالي وطرّدوا البنادقة ، الا أنهم وافقوا بعد ذلك على قبول سيادة البندقية بشرط أن يكون الحاكم يونانيا صديقا للاتينيين ، اسمه ثرودور براناس Théodore Branas . وبعد أن استقر المقام بهذا الحاكم اعترف بدوق البندقية سيّدا اقطاعيا له (١٢٠٦) (٢) . ورغم كل شيء ، كانت سيادة البندقية على اندرينوبل دائما سيادة وقتية غير ثابتة .

أما في القسطنطينية ، فعلى العكس من ذلك كان لاقامة البنادقة طوال عصر الامبراطورية اللاتينية صفة الثبات والرسوخ ، واتسع حيهم القديم الذى كان لهم في عهد اليونانيين (٣) ، وذلك بضم العديد من الملحقات : ذلك لأن العاصمة كانت موزعة بينهم وبين سائر أصحاب الحقوق فيها بنفس النسبة التى كانت لسائر أجزاء الامبراطورية : الربع للامبراطور (٤) ، وثلاثة الأثمان لهم . ولم تكن أملاكهم الجديدة بعيدة عن القديمة ، ذلك لأن ثمة مجرى مائيا (قناة أو جدولا ؟) يروى العاصمة كان يمر « من الحى الفينيسى القديم الى الجديد » (٥) . ويبدو أنه ينبغى البحث عن هذه الممتلكات الجديدة بخاصة داخل القرن الذهبى (٦) حتى البلاكويرن (٧) Blaquernes ولكن بقي للامبراطور القصر الذى يحمل هذا الاسم . (٨) وضم الحى الفينيسى فى محيطه الجديد حوض المرفأ (arsana) الذى تهدم الآن ، وكان وقتئذ مجاورا لباب القصر Balat-kapoussi (٩) بالإضافة الى مجموعة من الاسكالات تستطيع السفن أن ترسو عندها بسهولة ، وتباشر عمليات الشحن والتفريغ (١٠) . ولاحظوا كميات البضائع الهائلة التى تجلبها السفن، شيد « البودستات » جاك تيبولو Jacques Tiepolo فى عام ١٢٢٠ مستودعا هائلا (١١) . وترتب على امتلاك مساحة أكبر من الأراضى امتلاك عدد أكبر

Ibid, p. 108 et s., 110 et s., 124.

(١)

Ibid, p. 147; Nicét, p. 830; Taf, et Thom, II, 17-19.

(٢)

Taf et Thom, II, 289, 298

(٣)

Villeh, p. 136.

(٤)

Taf, et Thom, II, 284, 292.

(٥)

Paspati, VII, 10 et s., 197 et s.

(٦)

Taf, et Thom, II, 48.

(٧)

Taf, et Thom, I, 447, 450.

(٨)

Ibid, II, 284, 293 ; Cf. Hammer, Constantinopolis und der Bosphorus, 1, 21, 126-603.

(٩)

Ibid, II, 4 et s., 11, 60.

(١٠)

Flamin. Cornelli, Eccl. venet. III, 99.

(١١)

من الكنائس والأديرة . وقبل الغزو كان البنادقة يملكون كنيسة سان مارك ، وسانت ماري المسماة *de embulo* (أى الخاصة بالحي) تسيب لها عن الكنيستين الآخرين (١) : كنيسة سان نيكولاس (٢) ، وكنيسة سان اكند *St. Akindynos* (٣) . وكانت الأحياء الملحقة تضم دير بانتيبوبيتس *Pantéoptès* (٤) ، وكنيسة بانتوكراتور *Pantocrator* (٥) التى أصبحت فيما بعد مسجد تل زيريك *Zeirek* (٦) ، ودير ماريا بيربليتيه *Maria Périblepté* (٧) . ولفصل أملاك البنادقة (حاليا صولو - موناستر *Soulo-Monastir*) ولفصل أملاك البنادقة عن أملاك جيرانهم فصلا تاما ، وربما أيضا لحمايتها من غارة مفاجئة ، با أول بودستات ، مارينو جينو *Marino Geno* ببناء حائط جديد (٨) . إلا أن وسائل الدفاع كانت على ما يبدو مركزة فى قلعة حقيقية *castrum* (٩) .

كانت القسطنطينية بطبيعة الحال مركزا لممتلكات البندقية الاستعمارية ولكن تركز فيها فى الوقت نفسه مجموعة كبيرة من المصالح ذات الأهمية الحيوية للجمهورية ، حتى لقد طرأ لها فى وقت ما أن تنقل مقر الدوق اليها (١٠) وعلى أية حال بقيت هذه الفكرة فى نطاق المشروع ، وربما لم تناقش بالمرّة بصورة جدية . واستمر خلفاء انريكو واندولو الذى توفى فى القسطنطينية يحكمون من مدينة البندقية الجمهورية ، وممتلكاتها فى اليونان مستغلين نفوذهم على حلفائهم الأباطرة اللاتينيين . ومع ذلك ، فاعتبارا من تلك اللحظة وعلى مدى قرن ونصف (١١) أضافوا الى ألقابهم لقب : *dominator quartoe partis et dimidioe totius imperue Rimanioe* وهو لقب ليس فيه كثير من المبالغة لأنه بالأجمال يعبر عن الواقع الذى سجلته معاهدة التقسيم . ولا ننسى

Taf. et Thom. I, 167 et s., 280; II, 422; Lib. jur. I, 1352; Commem. (١)
Reg. 92, no. 530.

Taf. et Thom. I, 280; El Cornel., l.c. II, 259. (٢)

Taf. et Thom. I, 67, 127, 381; II, 5, 10, 449 et s.; Ughelli, Ital. sacr. (٣)
V, 1133; Archiv. Venet XX, 314 et s.

Flamin. Cornel. l.c. VIII, 134 et ss.; Dandolo, p. 342 et s; Taf, (٤)
et Thom. II, 423.; Hammer, op. cit., I, 381, Dethier, Der Bosphor und
Constantinopel (1867), p. 39; Paspati, 313 et s.

Taf. et Thom. II, 46, 348. (٥)

Hommer, op. cit., I, 378 et s., 471; Dethier, op. cit., Paspati, 290. (٦)
309 et ss.

Riant, Exuvie sacrae Cpol. p. XCV, 135, 137; Paspati, 379. (٧)

Taf. et Thom. II, (٨)

Lib. jur. I, 1352. (٩)

(١٠) لم يذكر هذه الواقعة سوى مؤرخ واحد فى عصر أكثر حداثة ، هو دانييل نابارو : أنظر
Daniele Barbaro : Hopf, Griechenland, op. cit., LXXXV, 251.

Jusqu'à Giov. Delfino (1356-1361). (١١)

أن سيادة البندقية كانت تمتد على كل من ممتلكاتها المباشرة ، ومجموعة من الدويلات التي قبل أمراؤها سيادة البندقية عليها . وفي القسطنطينية كان يمثل الدوق نائب «بودستات» هو في ذات الوقت رئيس المستوطنة الفينيسية بالعاصمة ، وحاكم كل ممتلكات البندقية في رومانيا (١) . وقد انتخب هؤلاء «اليودستات» وهو مارينو جينو بعد وفاة واندولو بوساطة مجلس من بنادقة القسطنطينية واختير من بين أعضاء هذا المجلس لأنه كان من الضروري الاسراع في أن يحل محله رئيس نشيط وحازم . ولكن البندقية احتجت على هذا التعدي على حقوقها ، ولما كان هؤلاء المستوطنون مخلصين لوطنهم قبل كل شيء ، فانهم امتنعوا فيما بعد عن انتخاب رئيسهم ، وأقسموا أن يقبلوا من يعينه الدوق (٢) . وعلى هذا كان كل البودستات بعد مارينو جينو موفدين من البندقية ، ولسنا نعرف على وجه اليقين أسماءهم أو مدة توليهم وظيفتهم أو عدد المستشارين الملحقين بهم ، ذلك لأننا نجد قوائم باسمين تارة ، أو ثلاثة أو بخمسة أسماء تارة أخرى : وكان المجلس يتكون غالبا من ستة أعضاء ، كما في البندقية . ويساعد البودستات في الشئون القضائية خمسة قضاة judices وربما ستة ، وفي الشئون المالية وكيلان للخزانة camerarue (٣) . وكان لوظائف البودستات هذه في أعين الكافة أهمية كبرى ، وفي لقبه بالذات برهان على ذلك ، وكان هذا اللقب يضاف على حامله اعتبارا آخر ، خلاف الاعتبار الذي يتمتع به القنصل أو «البایل» (حاكم المستوطنة) . وينبغي فضلا عن ذلك ، ولزيد من الدقة القول بأن البودستات البندقي كان مثيلا في التدرج الوظيفي بالامبراطورية اللاتينية بال despotc (ومعناه الأمير في المفهوم البيزنطي) : كان يعامل الأباطرة وبارونات مجلس الوصاية باعتباره ممثلا لدولة حليفة ، متمسكة بحقوقها ، ولا يجوز التغاضي عن نصائحها وطلباتها ،

(١) Taf. et Thom. I, 567 et ss., II, 18, 206, 216, 221, 227, 254, 347;; (٢) 111, 23. Taf. et Thom I, 569 et ss.; II, 15.

— ومع ذلك ، فمنذ أكتوبر ١٢٠٥ لم يحتفظ البورستات الأول في نطاق سيادته بدوقية دوراتزو ، وجزيرة كورفو بسبب بعدهما . أما جزيرة كريت فانها لم تكن تابعة له منذ البداية لأن معاملة التقسيم لم تتضمنها . وعلى العكس ، كان يتصرف في أموال في المير في خليج فولوس .
(٢) Taf. et Thom. I, 566 et ss. ; Dandolo, p. 334.

(٣) Taf. et Thom. I, 559 et s., 568, 579 et s.; II, 6 et s., 19, 230; Liber pelgiorum, p. 34.

— نجد أيضا ، منذ عام ١٢٠٥ في مستوطنة القسطنطينية وظيفة انشئت منذ بضعة عشرات السنين في البندقية (انظر Romanin, 11, 137 et s.) وظيفة ال Avagadore del commune المكلف بتمثيل البلدية في المسائل المتنازع عليها بينها وبين الأفراد : (Taf. et Thom. I, 560) وكانت المرافعات المدنية في المنازعات بين البنادقة والفرنجة ينظمها قانون خاص وضع بالاتفاق بين الامبراطور هنري والبورستات م. جينو في عام ١٢٠٧ (المرجع السابق ، الجزء الثاني ٩٢ - ٥٢) ، ويقوم على مبادئ القانون الروماني في العصر الأخير ، كما أوضحه السيد توماس في :
M. Thomas dans le Bulletin der Muenchen, Akad Gel. Anz., 1854, XXXIX, no. 4. p. 26-28.

بالنظر الى الحاجة الى أموالها وأساطيلها . وفى مناسبة ارتقاء كل امبراطور العرش ، لا يفوته أن يطلب منه اقرار الحقوق والملكات المكفولة للبنادقة بموجب معاهدات . وبخصوص الادارة الكنسية والاكليريكية كان له علاقات مع الكرادلة والبطاركة ، ويناقش حضوريا أصعب المسائل وأكثرها تعقيدا . وكان عليه أن يهتم بنمو التجارة ، ومن أجل ذلك عليه أن يتفاوض دوما مع الأمراء المجاورين . وكان أخيرا ، بالنسبة الى البنادقة المقيمين بالقسطنطينية أو الذين يمرون بها ، وكذلك البنادقة فى مدن الأقاليم أو الجزر يمثل أعلى السلطات السياسية والقضائية .

وفى حماية شخصية لها هذه الأهمية كان لا بد لمستوطنات البندقية أن تزدهر فى كل الأقاليم اليونانية كما ازدهرت فى القسطنطينية . وإذا كان الامبراطور لم يزل يؤدى الدول الأول من الوجهة السياسية ، فان البندقية أصبحت مع ذلك بلا جـدال القوة التجارية الأولى فى بلاد اليونان . ولم يكن الامبراطور أو باروناته يتدخلون فى شئون التجارة ، أو ينافسون البنادقة . أما الدولتان الوحيدتان اللتان استطاعتا حتى ذلك الحين مواصلة التنافس بقدر كثير أو قليل من النجاح بفضل الامتيازات التى حصلتا عليها من أسرتى كومنينتوس وانجيلوس ، وهما جنوا وبيزا فانهما تراجعتا بتواضع أمام الحليفة القوية لِسادة الامبراطورية لِسادة الامبراطورية الحاليين ، والاكتفاء بالمركز الثانى أو الثالث . ولم يكن من شأن حرب تنشب لهذا الغرض الا أن تقصيهما تماما عن السوق اليونانية والواقع أن المعاهدة الأساسية التى انعقدت بين البنادقة وبين سائر الصليبيين وجدها على التوالى كل الأباطرة اللاتينيين . كانت تشتمل على مادة خاصة تحظر دخول الامبراطورية والاقامة بها على كل من ينتمى لأمة تحارب البندقية (١) .

ويبدو فى الأوقات الأولى التى أعقبت نشأة الامبراطورية اللاتينية أن حربا نشبت بين البندقية وبين جمهوريتى جنوا وبيزا ، وعلى الأقل يشتم كتاب « تاريخ دوقية البندقية l'Historia ducum Veneticorum » البيزيين بأنهم أرادوا أن يرفعوا رؤوسهم أكثر مما ينبغى . ويطمعوا فى الاستيلاء على الامبراطورية البحرية عن طريق الرعب الذى يثيره قراصنتهم ، واضفاء هالة من المجد على الدوق بييترو زيانى لأنه كسر نخوتهم (٢) . والكتاب لا يحدد تاريخا ، ولكن ، كما نعلم من حكايات هذا الدوق مع البيزيين فى السنوات الأخيرة من حكمه ، ينبغى أن نسلم بأن هذه الوقائع ترجع الى السنة الأولى (١٢٠٥ - ١٢٠٦) ، وليس هناك أية اشارة الى ذلك فى أى موضع آخر . ولما لم يكن البيزيون فى حالة تسمح لهم بمواصلة التضال ضد كل من البنادقة والجنوين ، أعدائهم الوراثيين

Taf. et Thom. I, 448, 573; II, 229.

l.c. p. 95.

(١)

(٢)

فانهم عقدوا العزم على مصالحة البنادقة ، ولم يلبث هذا الصلح أن تحول الى اتحاد وثيق . وكان بودستات بيزا ، جيراردوا كورتفياكا Gerardo Cortevicchia هو الذى بدأ المفاوضات الأولى عام ١٢٠٦ ، وفى هذه الآونة كانت البندقية مضطرة الى جمع كل ما لديها من قوات لانقاذ كريت المهددة بالوقوع فى أيدي الجنويين ، وكان البيزيون يحاربونهم منذ عدة سنوات فى صقلية وسردينيا . وقبل الدوق بيتر زيانى اليد التى امتدت اليه ، وفى ٢ من يولية عقد مع سفراء بيزا معاهدة تحالف التزم فيها كل من الدولتين بتجهيز أربعين سفينة حربية ، واتفق على أن ينضم الاسطولان أحدهما الى الآخر قبالة مسينا ، ويهاجمان الجنويين أينما التقيا بهم ، وتم التصديق على المعاهدة فى بيزا فى الخامس من أغسطس (١) . ولسنا نعرف مصير هذه المعاهدة ، فالتاريخ لم يقل شيئا عنها (٢) . وفى معاهدة ثانية وقعت عام ١٢١٤ تعهد البنادقة بالامتناع عن كل عمل من أعمال النهب والسلب البحرية ضد البيزيين (٣) ، وأعلنوا استعدادهم لتجهيز سفن تتعاون مع سفن بيزا لقمع أعمال القرصنة (٤) . وتجنبنا لكل فرصة للنزاع بين الأمتين ، تم الاتفاق على أن يمتنع مواطنو كل من الأمتين عن دخول أى بلد يملكه عدو أى منهما ، وفى الحالة التى يستولى فيها مواطن بندقى بطريقة غير مشروعة على أرض يملكها بيزى ، أو بالعكس ، فعلى المقتصب أن يرد الأرض الى مالكها الشرعى ، ونص بنوع خاص على رد المال ، ووافقت جمهورية البندقية على ذلك مقدما فى حالة استيلاء بندقى على حقول أو كروم أو حدائق أو طواحين تتعلق أما بمستعمرة الميرو **Almyro** البيزية أو بكنيسة سان جاك البيزية فى المدينة نفسها . وكان الباعث على هذا النص هو أن الأحياء الفينيسية والبيزية فى الميرو كانت متلاصقة ، وأن المشاجرات بين الجاليين كثيره الحدوث على ما يبدو . والواقع أن البنادقة ، فى المعاهدة التى نجرى تحليلها يفرضون كشرط للتفاهم السلمى أن يكف البيزيون فى الميرو عن بناء أى معقل أو تحصين كنيستهم أو برجهم ، بالإضافة الى أن تكون الكنيسة وبرجها فى كل من المستعمرتين على ارتفاع واحد ، وأيضا تكون سقوف المنازل كلها مسطحة .

هذه المعاهدة تثبت بلا ريب أن مستعمرة الميرو البيزية كانت موجودة بعد

(١) من بين الوقائع المنسوبة الى عام ١٢٠٦ تذكر ال **Annal Jan.** واقعة تعزز تماما التواريخ التى أوردناها : ذلك أن السفن الحربية الجنوبية ذهبت الى ميناء بيزا واشعلت النيران فى سفينة بيزية تحت انظار سفير فينيسى جاء خصيصا ليرى هذا العمل ، وكان موجودا فى بيزا بحجة استعجال التصديق على المعاهدة ، وتابع بمزيد من الاهتمام أعمال التسليح .

(٢) رغم أن هذه المعاهدة كانت بمثابة حجر على ورق ، فان لدراستها أهمية كبيرة : **Cicogna, Inscr. Venez. IV, 539; le Giorn ligur. 1874, p. 69 et ss.**

Loc. sulle relaz. tosc coll' Oriente, p. 88-90.

Ann. Jan. p. 136

(٣)

(٤)

نشأة الامبراطورية اللاتينية . وهناك وثائق لا تقل عنها أصالة تزودنا ببرهان مماثل بالنسبة الى سائر منشآت البيزية في رومانيا . فمستعمرة القسطنطينية على سبيل المثال استمرت قائمة تحت حكم فيكونت . ولكن عندما سقطت المدينة عام ١٢٠٤ ، سبب لها النهب والسلب والحرائق خسائر لم تستطع تعويضها زمنا طويلا ، وحل بها الضيق والعوز لدرجة أنه من عام ١٢٠٤ الى ١٢٢٣ اضطر رئيس الاكليروس بنيناتوس **Benenatus** أن يتحمل جزءا من نفقات الشعائر الدينية . ومع ذلك كان له الحق في ايرادات الموازين والمكايل ، بالاضافة الى ايرادات المنشآت الخاصة . غير أن الايرادات لم تصل طوال هذه الفترة الى مبلغ خمسة عشر دينارا بيزنطيا في أية مرة (١) ، ولما كانت كنيسة سان بير وسان نيكولاس من أملاك الجالية البيزية ، فانهما أصيبتا بأضرار بالغة نتيجة اشتعال النار فيهما ، وأصبحنا غير صالحين لأداء الشعائر الدينية فيهما ، ومن ثم منحت الجالية كنيسة ثالثة مجاورة لحيها ، كنيسة سان سوفير (القديس المخلص) **St. Sauveur** (٢) . وحصلت الجالية مع الكنيسة على ملحقات لها تشمل أراضي ، كروم ، وأديرة متفرقة في أنحاء مختلفة ، حتى في آسيا الصغرى (٣) . وقد نال البيزيون هذه المنحة بناء على اقتراح ثلاثة من كبار قادة جيش الصليبيين ، وأقواهم نفوذا ، وهم أساقفة سواسون **Soissons** وتروى **Troyes** ، وبيت لحم **Bethléem** .

الا أن تحالفهم بعد ذلك مع البنادقة ، وإخلاصهم للبيت الامبراطوري أكسبهم أيضا عطف سادة الامبراطورية . وامتدح الامبراطور هنري الأول وزوجته ماري الأميرة البلغارية الخدمات التي قدمها الفيكونتان البيزيان راينيرى فيديرتشى ، وباك سكارلاتى ، اللذان أثبتا عرفانها بهذا الجميل ، واستطاعا أن يجددا للبيزيين ضمان ممتلكاتهم داخل الامبراطورية ، واشترط الامبراطور لذلك أن يقسما بين يديه يمين الاخلاص مثلما فعلا قبلا مع اسلافه (٤) .

ويختلف عن ذلك وضع الجنويين كل الاختلاف في البداية بالنسبة الى الدويلات التي نشأت في أعقاب الحملة الصليبية الرابعة . فما أن انتهت هذه الحملة حتى راح الكثير من « القرصان » الجنويين يجوبون البحر الأدرياتي وبحر ايجه ، ويعرقلون الاتصالات بين البندقية وبين فتوحاتها الجديدة ، ويحثون اليونانيين على مقاومة سادتهم الجدد . والمؤكد أنهم لم يفعلوا ذلك

Doc. sulle relaz. tosc. p. 94.

(١)

Ducange, Cpol. christ., lib. IV, p. 82, éd. Paris; Miklosich et

(٢)

Muller, Acta graeca, III, vi et ss., 19, 1, 29, 31 50, 53; Docum. sulle relaz., tosc. p. 47 s., 56 et s., cf. Paspatis, op. cit., p. 157.

Doc. sulle relaz. tosc. p. 84-86.

(٣)

Docum. sulle relaz. tosc. p. 86, 87; les Archiv de l'or. lat. II, 2, p. 250 et s.

(٤)

من تلقائهم (١) فالمساعدات التي قدمتها جنوا لأكبر هؤلاء القراصنة ، الكونت هنري المالطي Henri de Malte لم تكن سرا لأحد . واذ تورطت جنوا الى هذا المدى في عدائها للبندقية ، فانها مع ذلك لم تكن تطمح بالمرّة في الاحتفاظ بمبستعمراتها في اليونان وبخاصة في عاصمة الأمبراطورية ، وحيثما كان نفوذ البندقية سائدا . لذلك ففي نص الهدنة المنعقدة عام ١٢١٢ بين القوتين لمدة سنتين ، لم يكن ثمة اشارة الى التصريح بدخول التجار والمستعمرين الجنوبيين في رومانيا (٢) . ومع ذلك تم الصلح أخيرا في عام ١٢١٨ (٣) ، وفي المعاهدة التي أبرمت لهذا الغرض ، تعهدت جمهورية البندقية بمنح الجنوبيين في الأمبراطورية الرومانية كل الضمانات التي منحها إياهم قبلا الأمبراطور الكسيوس الثالث ، وتم الاتفاق على أن تكون لهم الحرية في ممارسة التجارة في كل أنحاء الامبراطورية ، وأن يحتفظوا بكل الحقوق والممتلكات التي كانت لهم فيما مضى على أن يخضعوا لنفس الرسوم والضرائب التي كانوا خاضعين لها . ووافقت البندقية على أن تعيد لورثة بلدونيو جويريكو Balduino Guerico الاقطاعات الواقعة خارج القسطنطينية والتي أعلن الأمبراطور مانويل تجريدته منها ، على أن تكون من أملاك الجمهورية ، أو تعطيهم ما يعادلها على أن يلتزم الورثة قبل الجمهورية بنفس الواجبات التي التزموا بها لمانويل . وتوجد المواد نفسها مدرجة في معاهدتي ١٢٢٨ (٤) ، ١٢٥١ (٥) مما يثبت أنها كانت سارية المفعول طوال عهد الأمبراطورية اللاتينية . وليس هناك وثائق أخرى خلاف هذه المعاهدات يظهر فيها بمثل هذا الوضوح التأثير القوي الذي كانت تمارسه البندقية في الأمبراطورية . ولم يكن في وسع الأمبراطور نفسه أن يعبر عن ذلك بلغة أخرى . ويبدو من سماع أقوال الأمبراطور أن البندقية كان في أيديها مفاتيح الأمبراطورية كلها ، ولم يكن ثمة حاجة لمرسوم أمبراطوري لمنح الجنوبيين من دخول أراضي الأمبراطورية ، والواقع أنه لم يكن هناك مرسوم من هذا القبيل ، وكان في تصريح البندقية في هذا الشأن ما يكفي .

والمؤكد أنه بعد صلح الجنوبيين مع خصومهم ، استعادوا تجارتهم مع القسطنطينية ، وتشير معاهدة الصلح لعام ١٢٥١ صراحة الى المستعمرين

Mart. da Canale, p. 353; Dand. p. 335, 341; Innoc. III, epist. (١)
éd. Baluze, II, 56 (cf. Riant, Exuviae sacrae Cpol. I, p. clv.); Annal.
Jan. p. 123.

Canal, Nuova istoria di Genova, II, 17. (٢)

Lib. jur. I, 609 et s.; Cf. Annal. jan. p. 139. (٣)

Tafel et Thom, II, 197-205; Lib-jur; I, 815-820; Cf. Liber plegiorum, p. 151. (٤)

Lib. jur. I, 1090 et ss., 1099 et ss.; Pagano, I.c. p. 246-248; Taf. et Thom, II, 547. (٥)

الجنوئين ورؤسائهم (١) . ثم يبدو أنهم اتجهوا بالأحرى الى أجزاء الأمبراطورية الفرنجية الجديدة الأقل خضوعا بصورة مباشرة للبندقية ولعملها الأمبراطور . وثمة أمير ينتمى الى بلد مجاور لجنوا ، هو بونيفاس مركيز دو مونفير ، أنشأ لنفسه مملكة فى تساليا ، وكانت وشائج التبعية التى تربطه بالأمبراطورية اسمية على وجه التقريب . على أنه لم يكد يستولى على سالونيك عاصمة الاقليم حتى أبحرت سفن جنوية قاصدة هذه المدينة (٢) ، ولم يكن ذلك بالتأكيد من قبيل الصدف . والى الجنوب قليلا أسس بعض الأشراف البورجنديين من بيت لاروش فى بيوتيا القديمة وفى أتيكا امارة أخرى ، كانت هى أيضا مستقلة عن القسطنطينية . وفى ٢٤ من ديسمبر ١٣٤٠ وقع الأمير الثانى فى هذه الأسرة وهو جى دولاروش Guy de Roche امتيازاً لصالح الجنوئين (٣) ، وفى هذه الفترة كان قانعا بلقب « سيد أثينا » : dominus Athenarum ، ولكنه فيما بعد (وعلى الراجح ابتداء من عام ١٢٦٠) اتخذ لقب دوق ، وكان هذا الامتياز يكفل للجنوئين الاعفاءات التى كانوا يتمتعون بها فى عكا ، وفى سائر الجهات التى كانوا فيها الأمة الأكثر رعاية ، أى الاعفاء من الضرائب ، واقليم خاص بهم ، ومحكمة استعمارية ، كما وعد بمنحهم فى كل من مدينتى أثينا وطيبة أرضا حسنة الموقع ليقيموا بها حيههم ويشيدوا دارا للبلدية ، ولا يخضع الجنوئون الذين يستقر بهم المقام فى هاتين المدينتين الا لقضاء قنصلهم ، فيما عدا ما يرتكبونه من جرائم السرقة والقتل وهتك العرض ، فهى من اختصاص محاكم البلد ، وتفصل هذه المحاكم أيضا فى استئناف الدعاوى التى يقيمها أفراد من غير الجنوئين ضد أفراد جنوئين ، ولم يكن الحكم الصادر من القناصلة قد أنصفهم . ومهما كانت أهمية هذه الوثيقة ، فمن الخطأ اعتبارها أول اجراء يرخص بانشاء مستعمرة جنوية بأثينا ، فالواقع أن هذه المستعمرة كانت موجودة من قبل : ذلك أننا نطالع فى نهاية هذه الوثيقة اسم القنصل الجنوى الذى كان يتولى منصبه فى اقطاعية أثينا Riccio di S. Donato وتعرفنا الوثيقة أيضا أن الجنوئين لم يكونوا يمارسون التجارة فحسب ، ولكنهم كانوا يشتغلون أيضا بصنع الأقمشة الحريرية : فالواقع أنه قد نص بالوثيقة أن الأقمشة الحريرية المصنوعة بأيديهم أو لحسابهم فى داخل البلد تستثنى من الاعفاء الجمركى وتخضع للضرائب المفروضة على كل المشتغلين بنفس النوع من الصناعة ، وسوف نعود فى ملحقات هذا الكتاب الى الكلام عن صناعة الحرير فى طيبة ، وازدهار هذه الصناعة فى ذاك العصر .

ولنعد الى مركز الأمبراطورية اللاتينية . سبق أن رأينا أن القوى الرئيسية

Lib. jur. I, 1093.

(١)

Voy. Canale, Nuova storia di Genova, II, 625, 628.

(٢)

Lib. jur. I, 992 et s.

(٣)

المنافسة للبندقية قد اعتزمت الواحدة بعد الأخرى أن تهادنها لصالح مستعمراتها في القسطنطينية . وهناك أمم تجارية غربية لم يسمح لها ضعف بحريتها أن تباشر منافسة جدية ، كان لها نفس المزايا دون حاجة إلى أن تتعامل معها بصورة رسمية . مثال ذلك أن « أمالفي » - التي فقدت آنذاك ما كان لها من عظمة ، كانت ولم تزل ضمن الأمم التجارية في القسطنطينية . ولم يزل دير سانتا ماريلا دي لاتينا Santa Maria de Latina القديم موجودا . وفي عام ١٢٥٦ أعلن البابا الكسندر الرابع حمايته على ممتلكاتها وما تتمتع به من إعفاءات مثلما فعل قبله الكثير من سفراء أسلافه (١) . وزعم البعض أن الأمالفيين لم يزالوا يملكون في القسطنطينية كنيسة مكرسة للقديس أندريه شفيع مدينة أمالفي ، مثلها مثل كاتدرائية أمالفي ، غير أن هذا الزعم لا يستند إلا على ما أكدته أوغيلي Oghelli وهو تأكيد لا أساس له ، وثبت عدم صحته (٢) . والواقع أن رفات القديس أندريه كان محفوظا في القسطنطينية ، وقد تسلمه الكاردينال بيير دي كابو Pierre de Capoue المواطن الأمالفي المبعوث إلى القسطنطينية سفيراً للبابا ، وذلك بعد استيلاء الصليبيين على المدينة بوقت قليل ، ونقل الرفات في عام ١٢٠٨ إلى كاتدرائية وطنه الأصلي . ترى بأية سلسلة من الاستنتاجات توصل أوغيلي إلى الزعم بأن المكان الذي أودع فيه هذا الرفات في البداية بالقسطنطينية لا يمكن أن يكون إلا كنيسة مكرسة للقديس أندريه ، وتابعة للأمالفيين ؟ أنه الأمر من الصعب فهمه . وليس هناك شيء شبيه بهذا ، لا في قصة نقل الرفات التي نصص لها بضع صفحات فيما بعد (٣) ، ولا في أي تاريخ آخر (٤) . حقا ، كان في القسطنطينية عدة كنائس مكرسة للقديس أندريه (٥) ، ولكن لم يكن أي منها قد آوت رفات القديس الذي تحمل اسمه . وإلى أن جاء اليوم الذي حصل فيه الكاردينال سفير البابا الرفات إلى الغرب ، كان الرفات محفوظا في كنيسة القديسين الحواريين Saints A potres (٦) . ترى هل يوجد على الأقل وثيقة تشهد بأن إحدى كنائس القسطنطينية المكرسة للقديس أندريه قد منحت للجالية الأمالفية ؟ كلا .

لننتقل إذن إلى موضوع آخر ، ونكتفي بأن نعرف أن هذه الجالية قد احتفظت بديرها القديم ، دير سانتا ماريلا دي لاتينا ، وحسبنا هذا لاثبات

Ughelli, Italia sacra, 2e éd VII, 222 et s. (١)

Ibid, p. 187. (٢)

Ibid, p. 206 et ss. (٣)

Chron Amalph, dans Murat, Atiq, I, 215 et s. (٤)

Ducange, Constantinopolis christiana, lib, IV, p. 76. (٥)

Ibid p. 71 et ss.; Hammer, Constantinopolis und des Booporus, I, 388. (٦)

وجود حي أمالفي في القسطنطينية في العصر الذي ندرسه . ثم أن الممتلكات والاعفاء الخاصة بتلك الجالية كانت عرضة للانتهاكات المتكررة ، ولم تكن الجالية قادرة على الدفاع عن نفسها دون أن تعتمد على حماية قوية . لذلك وجه رئيس أساقفة أمالفي في عام ١٢٥٧ التماسا الى البابا الكسندر الرابع ، وحصل على مرسوم يخول لرئيس دير سنت أنج « السستري » بالقسطنطينية استخدام سلطاته الكهنوتية لصالح الجالية الأمالفية (١) . وفي تصورها ، على أقل تقدير أن هذه الجالية الضعيفة التي عانت من اضطهاد جيرانها الأقوياء ، لاقت مشقة كبيرة في استمرار وجودها الذي يبدو أنه لم يكن مقدرا له أن يتجاوز وجود الأباطرة اللاتينية .

وفي منشور بابوي لعام ١٢٠٨ (٢) بشأن العصور الواجبة الأداء لبطريك القسطنطينية ، يذكر البابا انوسنت الثالث Innocent III من بين الأجانب المقيمين بالمدينة ، غير البيزيين والأمالفيين ، لمبارديين ، ودانمركيين ، وأنجليز . وليس من المحتمل أن يكون هؤلاء الغربيون موجودين هناك لممارسة التجارة ، وعلى أية حال فإن هذا الافتراض لا يبدو على جانب من الصحة إلا بالنسبة الى اللمبارديين ، أما الآخرون فلا بد أنهم كانوا يؤدون مهمات عسكرية : فالمعروف أن الأباطرة البيزنطيين كانوا يجندون عساكرهم المرتزقة بنوع خاص من شمال أوروبا (٣) . وقد ورد ذكر الجنود المرتزقة من الانجليز والدانمركيين بصفة خاصة عدة مرات ضمن المدافعين عن القسطنطينية ضد الصليبيين عام ١٢٠٤ (٤) . والمرجح أنهم بعد سقوط المدينة بقوا بها ، وانتقلوا من خدمة الأباطرة اليونانيين الى خدمة الأباطرة اللاتينيين .

وتذكر الحوليات الجنوبية أيضا عنصرا آخر من سكان القسطنطينية : أولئك هم « الاتكونيوت » (نسبة الى اتكونا) (٥) ، والبروفانسيون وكان هؤلاء بالذات تجارا . وقد ثبت لنا من قبل وجود جالية اتكونية في القسطنطينية قبل الحملة الصليبية الأولى ، إلا أن البروفانسيين جاءوا فيما بعد (٦) ، وكان لهم حي مشترك مع الاسبانيين ، وليس في ذلك

Ughelli, 1. c. p. 223.

(١)

Epist. éd. Baluze, II, 147.

(٢)

Ducange, Villehardouin, p. 296-299.

(٣)

«Englois et Danois» : Villehardouin, dé. de Wailly, p. 96, 106., Taf. et Thom., I, 307.

(٤)

Annal. Jan. p. 136.

(٥)

(٦) من الثابت أن تجارا من سان جيل ومونبيليه كانوا يسافرون الى القسطنطينية ، ويتبن

هذا من المعاهدات المبرمة بين سان جيل وجنوا في عام ١٢٣٢ ، وبين جنوا ومونبيليه في عامي ١٢٣٠ ، ١٢٥٢ ، انظر : Lib. jur. I, 761, 903, 1148.

ما يشير الدهشة لأنه كان يوجد في ذاك الحين بين سواحل فرنسا الجنوبية وسواحل أسبانيا الشرقية (كنالونيا) كل أنواع الروابط السياسية والقومية . لم يكن بين تلك الأمم التجارية متفاوتة من حيث عدد أفرادها ، ونفوذها ، وأقدمية استقرارها في القسطنطينية من لا تعترف بتفوق جمهورية البندقية . فأولا ، كفلت هذه الجمهورية لنفسها مزية كبيرة على مزاحمها ، تتمثل في الاعفاء المطلق (من الرسوم والضرائب) المنصوص عليه في الميثاق الأساسي لصالح تجارها ، ليس فقط في البلاد التي تحكمها حكما مباشرا ، أو يحكمها مواطنوها أو اتباعها ، ولكن أيضا في لأمبراطورية اللاتينية بأسرها (١) ، هذا في حين أن النظام الجديد لم يكن يكفل للجنوبيين والبيزيين الا الامتيازات وتخفيضات التعريفات التي كانوا قد حصلوا عليها فيما مضى من الأباطرة اليونانيين . فاذا كان الأمر كذلك بالنسبة الى هاتين الأمتين ، تبين لنا أن الأمم الأخرى الأقل أهمية لم تكن لتستطيع حتى التفكير في طلب الاعفاء التام من الرسوم الجمركية . على أن هذا لم يكن كل شيء ، فقد وجدت البندقية فوق ذلك وسيلة أخرى لتأكيد تفوقها على سائر الأمم التجارية . ذلك أنه اتماما للإجراءات المتخذة ابان تقسيم الأمبراطورية ، اتفق الأمبراطور روبرت Robert مع جمهورية البندقية في عام ١٢٢٣ على اقتسام إيرادات الضرائب والرسوم التي تدفعها للدولة الأحياء التجارية بنسبة ٨/٥ للأمبراطور ، ٨/٣ للجمهورية (٢) . ولم يصلنا نص هذه المعاهدة ، ولسبب ما ، جعل فيها تحفظ فيما يختص بحى البروفانسيين والاسبان ، وأجل البت فيه الى زمن لاحق . الا أن قرارا بتاريخ ٢٠ من فبراير ١٢٢٤ جعل هذا الحى في نفس الفئة التي ضمنت سائر الأحياء (٣) . وتبع لهذا الاتفاق أصبح المستوطنون الغربيون في القسطنطينية يؤدون الضرائب للبندقية ، ومن ثم كان وضعهم يتضمن بعض التبعية .

وكان لا بد للوضع المتفوق الذي اكتسبته الجمهورية (الفينيسية) في البسفور أن يكفل لها مزيدا من السيطرة في علاقاتها مع القوى المجاورة ، وكانت حريصة على ألا تفرط في هذه المزية ، واعتماد كل تاجر بندقى أن يجعل من القسطنطينية التي أضحت بنوع ما وطنا ثانيا له مركزا لعمليات تجارية واسعة ، ونقطة انطلاق لرحلات بعيدة في مناطق البحر الأسود وما بعدها ، أو في آسيا الصغرى . وهكذا أخذ « البودستات » البنادقة يتوسعون بالتدريج بفضل سياستهم التجارية ، وروح المغامرة لدى التجار ، وامتدت علاقات البندقية أكثر فأكثر ، وبخاصة صوب الشمال والشرق . ولنتتبعهم أولا صوب

Taf. et Thom. I, 573; II, 229, 383, 292.

(١)

Ibid. II, 253, 283, 292.

(٢)

Ibid. II, 255.

(٣)

الشمال . ففي شهر يونية عام ١٢٤٧ كان المبشر يوحنا دو بلان دو كاربن Jean du Plan de Carpin عائدا من بلاد التتار ، فأقام في كييف ، وتعرف ثمة بالكثير من التجار الايطاليين الآتين من القسطنطينية ، ومن هؤلاء ثلاثة من البنادقة في الغالب ، واثنين من الجنوبيين (١) . وهكذا كان الايطاليون هم الذين وثقوا في تلك الآونة من جديد العلاقات التي كانت قائمة بين الروس واليونانيين .

وهناك فضلا عن ذلك حقيقة غريبة ، ذلك أن معاهدة التقسيم لم تتضمن أية مدينة يونانية من مدن الضفة الشمالية لاقليم بنطس ، لاصغداية Sougdaia ولاخرسون Cherson . وقد ورد اسم صاغوداي Sagoudai وهو موقع نسبته المعاهدة الى البندقية (٢) (*) على القائمة بين مدينتي خرسونيز Chersonnèse وبتراقيا ، وهكساميليوم Hexamilium (٣) ، وجاليبولي . وان اعتبار ذلك الاسم « صاغوداي » هو اسم المدينة صغداية ، وهي مدينة بالقرم ، كما قال السيد برون nM. Phil Brunn (٤) لهو من قبيل الزعم ، دون مبرر بأن صانعي هذه الوثيقة قد أخطأوا خطأ غير معقول باطلاق اسم مدينة على مدينة أخرى (٥) . ومن الراجح أنه في وقت انعقاد المعاهدة كانت هذه الأقاليم فيما وراء البحار قد انفصلت عن الإمبراطورية ، ويفسر هذا السبب في أنها لم تذكر في مناسبة التقسيم ، وكيف أنها ألحقت بالإمبراطورية طربزون Trébizonde ، يؤيد ذلك وثائق لاحقة بوقت غير بعيد (٦) ، دون أن يوجه اليها الفرنجة اهتماما أكثر مما وجهته للغزوات التتارية التي كانت هذه الاقاليم مسرحا لها مرارا . والواضح أن الفرنجة لم يكونوا ليهملوا استغلال الحقوق التي يخولها لهم كونهم غزاة هذه الامبراطورية في الأقاليم التي كانت فيما مضى تابعة لها لو أنهم استشعروا في ذاك العصر

(١) Jean du Plan de Carpin, publ. par d'Ovezac, dans le Recueil de Voyages et de mémoires, IV, 772; Brunn (Not. sur les colonies en Gazarie, p. 5).

(*) (بنطس اقليم شرق آسيا الصغرى على شاطئ البحر الأسود - المراجع)

Taf, et Thom. I, 467.

(٢)

Ramon Muntaner, trad. Lanz, II, 122.

(٣)

Brunn : Notices historiques et topographiques concernant les colonies italiennes en Gazarie (Mém. de l'Acad. des sciences de S. Pétersbourg, 7e série X, no 9 S. Pétersb. et Leipzig, 1866) p. 8.

Le Bulletin de l'Acad. de St.

(٥) نشرت ردا على رأى السيد برون في :

Pétersb, XIII, 1869, p. 269 et s. (Mélanges russes tirés du Bulletin etc. IV, p. 582-584).

Fallmerayer, Original fragmente zur Geschichte des Kaiserthums (٦)

Trapezunt, Abh. der hist. Cl. der Muenchen. Akad. III, 3e sect. p. 18 et s., 72 et s, 87, 92 103, 144 et s.

ما سوف تكتسبه مناطق البحر الأسود وبحر آزف فى المستقبل من أهمية تجارية عظيمة . وكان هناك فى عصر الإمبراطورية اللاتينية تجار يستخدمون الطريق الذى رسمه اليونانيون للسفر من القسطنطينية الى محطة ماتريكسا (Matrice) Matrega القديمة فى شبه جزيرة تامان ، ويصلون من ثمة الى مصب نهر الدن فى زوارق ، ولكنهم لم يكونوا يذهبون الى هناك بحثا عن شىء خلاف السمك المجفف ، ولم يكونوا يفكرون فى منتجات آسيا الوسطى والصين (١) . ولم تكن التوابل التى تصل فى ذلك العصر من قلب الشرق الى سواحل روسيا الجنوبية الحالية تنحدر فى مجرى الفولجا والدن ، بل كانت على العكس من ذلك تصعد صوب الشمال عن طريق آسيا الصغرى .

والواقع أنه كان يوجد فى ذلك العصر حركة مبادلات تجارية كبيرة بين السكان المسلمين فى آسيا الصغرى وسوريا ، وبلاد ما بين النهرين من جهة وبين سكان جنوب روسيا (الكبتشاك Kiptchaks) من جهة أخرى . وكان تجار روسيا والموصل يتقابلون عادة فى سيواس Sivas فى أعداد كبيرة تكفى لتشكيل قوافل ، ويمضون من ثمة صوب البحر الأسود عبر اقليم السلاطين السلاجقة أو طربزون ، ويعبرون البحر ليصلوا الى جنوب روسيا (٢) ، وكان التجار الترك ، أى الذى ينتمون الى سلطنة السلاجقة يركبون السفن فى سينوس Sinope وهى من صنع سلطنة قونية Iconium (حاليا قونية) ، وذلك منذ عام ١٢١٤ (٣) (*) ، ثم ينزلون برا على شواطئ القرم عند صولديا Soldaia (سوداك Soudak) ، وكانت بضائعهم تتكون - حسبما يذكر « وليم دو روبروك » من أقمشة حريرية وقطنية وتوابل (٤) . وثمة مثال ، بين أمثلة أخرى يوضح الأهمية التى كان السلاطين السلاجقة يولونها لهذه التجارة . ذلك أن علاء الدين قيقباد Alaeddin-Kaikobad وجه فى عام ١٢٢٧ حملة ضد سوداك لينتقم من سوء المعاملة التى عانى منها أحد رعاياه ، ويقتضى ترضية نالها على أكمل وجه مستطاع (٥) . ومن جهة أخرى كان سكان القرم وروسيا يعبرون كثيرا البحر حاملين لآسيا الصغرى فراءهم الجميل (٦) .

(١) Guill. de Roubrouck, p. 215.

(٢) Ibn-Alathis, dans Defrémery, Fragmente de géographie et d'hist arabes et persans inédits relatifs aux anciens peuples du Caucase et de la Russie méridionale. Journ. asiat. 4e série, XIV, p. 461 et s.
(٣) M. Th. Houtsama, Ueber eine tuerkische Chronik zur Geschichte der Seldschunken Kleinariens (tiré du 2 vol. des travaux de la 6e section du congrès int. des Orientalistes à Leyde) p. 10 et s.

(*) (مناء سينوس تركى على البحر الأسود - المترجم)

Guill. de Rubruck, p. 215; Ibn-Alathir (I. c. p. 459).

Houtsama, op. cit., p. 12 et s.

Buill, de Rubrouck, l.c. : Ibn-Alathir, l.c. p. 461 et s.

وتشكل هذه المادة أيضا مع الرقيق من الجنسين شحنة سفن المسلمين العائدة (١) .
وكان استعمال الفراء الناعم قد انتشر في تقاليد العالم الاسلامي لدرجة أنه اذا
وقعت بعض الأحداث الحربية في القرم أو في آسيا الصغرى فأوقفت تصدير الفراء ،
كان ذلك بمثابة كارثة في كل مكان (٢) .

ويبدو أنه كان لابد من انقضاء زمن طويل قبل أن تبلغ حركة التجارة
بين اللاتينيين في القسطنطينية وبين اليونانيين في القرم مثل هذا النشاط .
ونتيجة طبيعية للأحداث السياسية تحول اليونانيون عن القسطنطينية واتجهوا
صوب طربزون ، ومن ثم كان نزوع تجارتهم الى ترك الوجهة الجنوبية الغربية
والتحول الى الجنوب الشرقي . ويبدو أن الغربيين أنفسهم لم يوجهوا اهتمامهم
ناحية القرم الا منذ اليوم الذي أقام فيه التتار في جنوب روسيا خانية كيتشاك .
ولأسباب سوف نوضحها فيما بعد ، نشأت علاقات نشيطة ومثمرة بين الأمراء
المسيحيين وبين الخانات التتار . واعتقد الرهبان والتجار الغربيون أنهم
اكتشفوا في بلاد التتار - البعض من أجل رسالتهم الدينية ، والبعض الآخر
من أجل تجارتهم - ساحة تبشر خيراتها وحصادها بما يزيد كثيرا على أعظم ما
كانوا يأملون .

ولكى يمكن دخول هذه المناطق المجهولة ، كان أفضل موقع لهذا الغرض
هو بالذات في القرم ذلك هو « صولدايا » . كانت تلك المدينة واقعة على
الساحل الجنوبي للقرم بين كافا Caffa ، والوستا Alousta عند منفذ واد خصيب
مغطى بالكروم أشاد الرحالة ابن بطوطة بمينائه ووصفه بأنه من أفضل الموانئ
في العالم وأجملها (٣) . وكان اليونانيون ينطقون اسم هذه المدينة
« صغداية » (٤) Sougdaia ، أما الغربيون فكانوا يسمونها طوال العصور
الوسطى « صودايا » (٥) Sodaia أو « صولداشيا » Soldachia (٦) أو بعامة
« صولدايا » (٧) وكتبها الارديسي « شولتاديا » Scho Itadia أو « صولتاديا »
Soltadia (٨) ، ويسمى الجغرافيون الشرقيون (٩) والأهالي في عصرنا

Ibn-Alathir, l.c. p. 457. (١)

Ibn-Alathir, 1 c. p. 460-462. (٢)

I, 28; II, 415. (٣)

Micklosich et Muller, Acta et dipl. groeca medii oevi, I, II, passim; voy, la Table du T. II. (٤)

Carte catal, p. 83; Thomas, Periplus des Pontus Euxinus, p. 19 et s. (٥)

L'édition de Marco Polo publiée par pasini, p. 430 et s. (٦)

Guill de Rubrouck, p. 215 et s., 219; M. Polo, éd. Pouthier, I, 6 : (٧)

Annal. Jan, p. 285; Atlante Luxoro, p. 125 etc.

Trad. Jaubert, III, 395. (٨)

Aboulf. Géogr, trad. Renaud II, 319; Annal muslim, IV, 301; (٩)

Ibn-Alathir, l.c. p. 457; Chehabeddin, dans les Not. et extr. XII, 361; Ibn Batouta, Voyages, éd. Defrémery et Sanguinetti, I, 414 et s.

الحاضر « صوداك » (صوداغ Soudagh ، وكان معظم السكان من أصل يوناني ويعتقدون المسيحية . غير أن نمو التجارة مع البلاد التي تشرف على البحر الاسود والمناطق الواقعة شلهالي القرم جلب اليها الكثير من الأفراد من جنسيات وديانات مختلفة (١) . وقد استولى التتار على صولدايا لأول مرة في عام ١٢٢٣ في غضون حملة مظفرة عبر برزخ القوقاز وسهل كتبشاك ، وكان أكبر عمل حربي في تلك الحملة هو النصر الذي أحرزه التتار على الروس بالقرب من كلكا Kalka (٢) : وقد انتزعت المدينة بعد قليل من سيطرتهم ، ولكنهم استعادوها في عام ١٢٣٩ (٣) ، ومع ذلك احتفظت بإدارتها الوطنية وأسقفها اليوناني ، وقنع الخانات التتار باقتضاء جزية (٤) . كانت صولدايا يسكنها قوم جلهم من اليونانيين ، وغالبيتهم مسيحيون (على الأقل في تلك الحقبة) ولكنهم في الوقت نفسه خاضعون للتتار ، وكانت محطة دسطة محطة ممتازة للتجارة والرهبان قبل أن تصير في داخل بلاد التتار ، ونزل بها الراهب «وليم دوروبروك» في عام ١٢٥٣ وأقام ضيفا على ملحقات الكنيسة الكاتدرائية ، ومن هناك بدأ رحلته الى أقاصى آسيا . والراجح أن هناك أيضا نزل في عام ١٢٦٠ (٥) التجاران البندقيان نيكولو Niccolo ، ومافيو بولو Maffio Polo (مايتو Mathieu ليبيعا جواهر في بلاط السلطان برکه Berké خان القيشاق ، ووصلا مباشرة من القسطنطينية حيث أهضى أخوهما الأكبر وشريكهما ماركو Marco شطرا من حياته ، وكان هو أيضا قد مده عملياته حتى صولدايا ، ان لم يكن في تلك الآونة ، فعلى الأقل فيما بعد ، وكان له بها بيت تجاري (لعله فرع) . وعندما تقدمت به السن قرعزمه على أن يعتزل في البندقية ، وطنه ، وكان يسكن ببيته ابنه نيكولاس Nicolas وابنته ماروكا Marocca . وفي وصيته التي حررها في ٥ من أغسطس ١٢٨٠ ترك لهما حق الانتفاع بالدار طوال حياتهما ، في حين أوصى بملكية الرقبة لفرنسيسكان المدينة (٦) . وليس من المحتمل أن يكون ماركو بولو هذا استثناء بين البنادقة ، ولا بد أن آخرين غيره اشتروا أملاكا في صولدايا ، وسوف نرى أنه كان هناك فيما بعد.

(١) Ibn-Saïd, dans Aboulf. trad. Renaud.

(٢) Ibn-Alathir, I.c. p. 457; Aboulf. Annal musul. IV, 301; Erdmann, Temudschin, p. 434; L'Archimandrite Antoninos (les Mémoires-en russe de la société d'histoire et d'Antiquités d'Adessa, V, 1863, p. 595 et ss.)

(٣) Notes du Synaxorion, op. cit., p. 597, no. 10.

(٤) Guill. de Rubrouck, p. 217.

(٥) Neumann, dans la trad. de M. Polo par Buerk, p. 606. l'éd. de M. polo par Pasini, p. 271, celle de Pauthier, I, 5, 7, 17; celle de Yule, I, 2, 5, 8; M. Hammer, Geschichte der goldenen Horde, p. 168, not. 3.

(٦) Cicagna, Incr. venez. 111, 489 et s.; puis dans le supplément de Viaggi di M. Polo éd. Pasini p. 430 et s.

جالية بندقية مزدهرة ، يرجع أصلها غالبا الى العصر الذي كانت البندقية قوية السلطان في القسطنطينية . ويلاحظ مارن marin (١) بحق أنه لا يمكن التسليم بأن نيكولو ، ومافيو بولو قد خاطرا بحمل أشياء ثمينة في بلد مجهول ، ودون أن يكون قد سبقهما اليه بعض مواطنيهما . وليست آسيا الصغرى الا على بعد خطوتين من القسطنطينية ولا بد أن البنادقة قد فكروا في أن يفتحوا بها أسواقا ، ولم يفتهم ذلك : فأولا كان الجزء الذي غزاه الصليبيون عام ١٢٠٤ مع باقى أجزاء الامبراطورية ، ولم يزل بالطبع مفتوحا للتجارة البنادقة طالما بقى بها الفرسان الفرنسيون والفلمنكيون . وحصل بعض الأفراد من أهل البندقية على أملاك بها ، واستقر ثلاثة من البنادقة ، هم جورجيو (؟) كويرينو ، وجاكوبو كويرينو ، وجيوفاني سوكوجولو على الشاطئ الآسيوى . عند لامبساكوس Lampsaque (لاباساكو Lapasaco ، كما لو كانوا تابعين للإمارة الصغيرة التى أسسها اثنان من البنادقة فى جاليبولى على الشاطئ الأوروبى من الدردنيل ، ونسبوا الى أنفسهم حقوقا من حقوق الريادة : ونجد اثباتا لذلك فى قائمة للمرائب التى يدفعها لهم السكان (٢) ، وتظهر فى القائمة أسماء الأرصفة والسوق ، الشيء الذى لعله يثبت أنه كان يمارس ثمة نوع من التجارة . الا أن حدود الاقليم التابع للإمبراطورية البيزنطية القديمة كانت أضيق من أن تنمو التجارة فيها . ولم يتوان البنادقة فى تخطى هذه الحدود . ولتمهيد الطريق لهم عقد « بودستان » القسطنطينية معاهدات مع رؤساء الدول المجاورة ، من سلاجقة ويونانيين . وفى هذه الفترة ، كان القسم الأكبر من آسيا الصغرى يشكل « امبراطورية سلاطين قونية » ، ويتحدث عنها ماركو بولو باسم تركمانيا Turqueménie . ورغم تغير الأسماء ، فأنه من الميسور التعرف على تماثل الأسماء التى ذكرها مع أسماء المدن الحقيقية : مثال ذلك قونية Iconium canie ، وسيواس Savast (Sivas) ، وقيصرية Caserie (Kaisarièh) . ووسط سكان أغلبهم من الترك الذين يمارسون بنوع خاص تربية الماشية والخيول ، وجد الرحالة ذائع الصيت حشودا كبيرة ممن بقوا على قيد الحياة من الأجناس اليونانية والأرمنية الذين ازدهرت عندهم التجارة والصناعة ، فهم الذين كانوا يصنعون أجمل الطنافس ، وتميزت منسوجاتهم الحريرية بشراء ألوانها وتنوعها (٣) . وكان الشب من الحاصلات الطبيعية المطلوبة أكثر من غيرها . وفى عام ١٢٥٥ ، حين زار وليم دو روبروك السلطنة عند عودته من

رحلته في وسط آسيا ، وجد في العاصمة عددا من الغربيين ، من بينهم تاجران شريكان ، أحدهما جنوى يدعى نيكولاس دي سانتو سيرو ، من عكا ، وبندقى اسمه بونيفاس دي مولندينو (١) وكانا يحتكران تجارة الشب المستخرج في البلد ، ويرفعان ثمنه كثيرا حتى ان ما كان يساوى قبلا ١٥ دينارا بيزنطيا ، بيع وقتئذ بسعر خمسين دينارا (٢) . هذا أول مثال لغربيين اجتذبتهم منتجات البلد الى سلطنة قونية . ولعل التجارة كانت تجرى في ذاك الأوان عبر الطريق الكبير الذى يحتاز آسيا الصغرى بانحراف من الجنوب الشرقى الى الشمال الشرقى ، ويصل برا بين سوريا والقسطنطينية ، ويبدأ من أنطاكية ، ويعبر ممر بيلان Beilan ويلف حول خليج الاسكندرونة ، ويصل الى آسيا الصغرى على حدود كيليكيا Cilicie . ولما كان هذا القطر وقتئذ في أيدي ملوك مسيحيين ، كان التجار الغربيون يطوفون به في جميع الاتجاهات ، وكثيرا ما كانوا يدخلونه عن طريق سوريا ويخرجون منه عبر ممر « جوليك بوغاز » Goulek-Boghaz على طريق ايكونيوم (٣) . وبالطبع لا يثبت هذا أنهم كانوا يرتحلون عادة ودون انقطاع من سوريا الى ايكونيوم ، ومن ايكونيوم الى القسطنطينية . والثابت أنهم اذا كانوا يفضلون الطريق البرى على البحرى فى الذهاب من سوريا الى القسطنطينية ، فذلك لأنهم لم يصادفوا أية عراقيل من ناحية السلاطين السلاجقة الذين كان من المحتمل أن يقفوا منهم موقفا متشددا بسبب اختلاف الديانة . ومارست البندقية بوساطة «بودسناتها» فى القسطنطينية تأثيرا طيبا على هؤلاء الأمراء : وبفضل هذه العلاقات الطيبة حصلت على امتيازات وقعها ثلاثة منهم : غيات الدين كيخسرو الأول (المتوفى عام ١٢١١) ، وابناء وخليفته عز الدين كايكاس (١٢١١ - ١٢٢٠) ، وعلاء الدين كيقباد (١٢٢٠ - ١٢٧٧) . ولسنا نعرف لسوء الحظ سوى الوثيقة الأخيرة الصادرة عام ١٢٢٠ (٤) والتي ورد بها الكثير من الاحالات الى الوثيقتين السابقتين ، وقد منح علاء الدين فيها التجار البنادقة ، مثلما فعل سلفاه الاعفاء من رسوم الدخول على الأحجار الثمينة ، أما بالنسبة الى السلع الأخرى فقد احتفظ برسم خفيف عليها مقداره ٢٪ . وبهذه المناسبة تبادلت الدولتان الضمانات بشأن سلامة أرواح المسافرين وأموالهم ، حتى فى حالة غرق السفن . واذا قام نزاع فى اقليم السلطان بين بناقة ولاتينيين آخرين ، كان من حق البنادقة أن يشكلوا فى كل قضية محكمة من قضاة يختارونهم من

Savuto, Secr. fld. cruc p. 235 et s.

(١)

Guill de Rubrouck, p. 392.

(٢)

(٣) أنظر المعاهدة التجارية المبرمة عام ١٢٨٨ بين جنوا وأرمينيا .

Taf. et Thom. 11, 221 et ss.; cf. I, 438 et s.; Dandolo p. 341.

(٤)

— ينبغي ايضا التنويه بان ال Liber plegiorum ص ١٦٠ تذكر احد البنادقة ويدعى

فيليبو جوليانو الذى بعث بمهمة لدى سلطان ايكونيوم فى عام ١٢٢٨ .

بينهم : ومع ذلك يحتفظ السلطان لمحاكمه الخاصة بالفصل فى كل قضايا السرقة والقتل . هذه المعلومة تثبت أن السلطنة كانت مفتوحة لكل اللاتينيين ، ثم ان البيزنين ذكروا بالاسم فى الوثيقة نفسها . وكان الكثير من هؤلاء الأجانب يأتون الى البلد عن طريق أرمينيا الصغرى ، وآخرون عن طريق جزيرة قبرص . فالبروفانسيون مثلا ، كانوا يمارسون تجارة عابرة (ترانزيت) بين قونية وقبرص ، ويجلبون الى الجزيرة ، ضمن أشياء أخرى ، الشعير والصوف والجلود والحريير الخام والمشغول (١) ، وتوضح خرائط العصور الوسطى بنوع خاص على شاطئ آسيا الصغرى ، فى مواجهة قبرص ، جنوب غربى مصب نهر سلف Selph ميناء مكونا من جزيرة أطلق عليها اسم Portus Prorensalium أو la Proensal (٢) . وربما كان هذا الموقع يتردد عليه البروفانسيون ، وربما كان اسمه مأخوذا من فرسان القديس يوحنا الذين يتكلمون اللغة البروفانسية، وكان لهم ثمة محطة (٣)، كما هى الحال بالنسبة الى جزيرة مجاورة يدل اسمها «كافاليري» (Cavalière) (portus Cavalierus Sadut) لأول وهلة على أنها ملك لفرسان غربيين . بيد أن السلاطين كانوا يملكون على الشاطئ الجنوبى موانئ أهم من هذه ، منها كانديلورى Candelore (ويسمىها الشرقيون علاية Alaia ، وساتاليا Satalia

وكان ميناء ساتاليا مفتوحا لكل الأمم التجارية المرتبطة بمعاهدات مع الإمبراطورية البيزنطية ، الى أن غزا الصليبيون الإمبراطورية (٤) . ورغم أن المدينة كانت واقعة تحت ضغط جيرانها الأتراك منذ عهد الأباطرة كومنينوس ، وكثيرا ما هددوها حتى تضطر الى أن تدفع لهم الجزية ، فانها بقيت يونانية حتى وقعت الكارثة ، وكانت دائما مفتوحة للغربيين من ناحية البحر (٥) . وفى زمن الغزو ، انتهز شخص يدعى الدوبراندين Aldobrandin من أصل ايطالى ، ولكنه اصطبغ بعض الشيء بالطابع اليونانى ، انتهز فرصة الفوضى التى عمت المدينة ففرض سيادته عليها (٦) ، وكان هذا فى صالح المدينة اذ كان له تأثير حسن على علاقاتها بالغرب . واذا حاصر السلطان غياث الدين كيكسرو

(١) أنظر البراءة المؤرخة بشهر مارس ١٢٣٦ والتي منحها هنرى الأول ملك قبرص لصالح سكان مرسيليا ومونبيليه وسائر البروفانسين ، فى Mery et Guindon, I, 419 et s. —
(٢) Cf. Sanuta, p. 89 ; la Carte Catalane ; l'Altante Luxoro, p. 114 ; les cartes de Munich, dans Thomas, Periplus von Armenien, dans les Abh. der Muenchen, Akad. Cl. I, vol. X, sect. 1, p. 283 et s.

، ما زالت هذه الجزيرة تحمل الى اليوم اسم بروفنسال Provençal

(٣) Beaufort, Caramania, p. 214 et ss. et Ritter, Kleinasien, II, 412 et s.

(٤) Taf. et Thom. I, 118, 272: Manum. hist. patr. Chartoe, II, 351.

(٥) Guill. de Tyr, XVI, 26 ; Cinnam. p. 179 ; Nicet., p. 50, p. 340.

(٦) Nicet., p. 842 et s. ; Innoc. III, Epist., dans Bréquigny, Dipl. 11, 997.

المدينة ، تولى الدوبراندين الدفاع عنها ببسالة بمعاونة فرقة عسكرية من قبرص ، ولكن السلطان شدد الحصار على المدينة حتى استسلمت في ٥ من مارس ١٢٠٧ (١) ، وأصبحت من ذلك الحين جزءا من سلطنة ايكونيوم . وكان البنادقة قد وثقوا مع السلطان المظفر علاقات تجارية واصلوا ربطها مع خلفائه . وعلى ذلك فلا شك أن سفنهم كانت تستطيع ، قبل هذا الحادث وبعده أن ترسو دون عائق في ساتاليا . ومن الأسباب التي كانت تأتي بهذه السفن الى هناك نقل البضائع بين مصر وساتاليا (٢) : وسوف نتحدث عن ذلك فيما بعد . وقد رأينا من قبل أنه كان الى جانب هؤلاء غربيون آخرون يتمتعون بحرية مطلقة في التنقل في البلاد التي يحكمها السلاجقة ، وعلى ذلك يمكن الجزم بأنه حتى ما بعد عام ١٢٠٧ كان ميناء ساتاليا تزوره سفن أخرى غير سفن البندقية . ومن المشكوك فيه ، على العكس من ذلك أن تكون مدن البحر الأسود التي أصبحت تركية في عهد سيادة الأمبراطورية اللاتينية قد تلقت في موانئها سفنا أوروبية .

وفي القسم الأمامي من آسيا الصغرى ، استطاع جزء من الأمبراطورية اليونانية أن يحافظ على استقلاله ، واستمر قائما باسم أمبراطورية نيقية Nicée . وبعد أن ناضل سادة هذه الأمبراطورية الصغيرة نضالا بطوليا دفاعا عن أرضهم ضد هجمات اللاتينيين ، عادوا يشنون الهجوم بقصد استرداد ما كانوا قد فقدوه ابان الحملة الصليبية الرابعة . واتصلت الحرب سنين طويلة ، تخللتها فترات من التوقف . وانتهاز « بودستات » القسطنطينية جاكوبو تيبولو Jacopo Tiepolo ، الذي أبرم عام ١٢٢٠ معاهدة مع السلاجقة ، انتهز فترة من فترات الهدوء هذه فحصل من الأمبراطور تيودور لاسكاريس Théodore Lascaris على امتيازات لصالح مواطنيه (١٢١٩) (٣) . أما بالنسبة الى المعاهدة ، أسوة بالمعاهدات المبرمة مع السلاجقة ، فإن الوثيقة التي في حوزتنا ليست هي الأقدم ، لأنها تشير الى معاهدة انتهت أجلها منذ زمن قصير . وفي معاهدة ١٢١٩ هذه منح لاسكاريس تجار البندقية حق دخول أمبراطوريته ومعهم كل ما يطيب لهم حملة من سلع ، وكذا معافاتهم من تفتيش الجمارك ومن كل الضرائب والمكوس ، في حين بقي رعاياه ملزمين بأن يدفعوا للقسطنطينية ، وفي باقى أنحاء الأمبراطورية اللاتينية الضرائب المعتادة ، فضلا عن أنه تكفل كالمعتاد برعاية أموال البنادقة الغارقين أو المتوفين في البلد . وأخيرا جرى الاتفاق على أن يكون للعملات التي تضرب لحسابه ، ال

(١) Ibn-Alathir, publié par M. de Mas-Latrie, Hist. de Chypre II, 13. et s.; Nicéas, p. 843 et s.; Nicéphore Gregoras (1, 17).

Taf. et Thom. III, 430.

(٢)

Taf. et Thom. II, 205 et ss., cf. Dandolo, p. 341.

(٣)

و manuclates hyperpres (١) ، و stamena (٢) نمط مختلف عن عملات
بنادقة القسطنطينية ، والعكس بالعكس . ولم تكن السوق التي فتحتها هذه
الاتفاقية ، أو بالأحرى كفلتها لتجارة البندقية قليلة الأهمية . وتتيح أجور
النقل المنخفضة لمنتجات الغرب أن تنافس منتجات الشرق التي تضطر لاجتياز
اقليم سلاطين قونية . وكان اليونانيون المقيمون في البلد يستعملون للمبهم
نوعين من الأقمشة ، بعضها مصنوع في إيطاليا ، والبعض الآخر منسوج في
فارس أو بلاد ما بين النهرين بحري صيني . ومع ذلك توقفت هذه العادة فجأة
في اليوم الذي حظر فيه الامبراطور يوحنا فاناتزيس (١٢٢٢ - ١٢٥٥) على
رعاياه شراء هاتين السلعتين ، وأمر باستخدام المنتجات الوطنية وحدهما ،
ولا تعرضوا للعقاب ، وذلك بدعوى منع تصدير عملة البلد (٣) ، وربما أيضا
للقضاء على مصالح اللاتينيين ، موضع كراهيته . ومن المحتمل أن يكون هذا
القانون الخاص بتحديد النفقات الكمالية ، شأنه شأن سائر القوانين المماثلة
قد أهمل تطبيقه ، ذلك لأنه من العسير التوفيق بين مراعاة تطبيقه وبين وجود
تجار من مواطني Lucques في نطاق الأبراطورية ، وهي مدينة مشهورة
بنوع خاص بجودة هذه المنسوجات . ولا بد من القول بأننا لا نعرف سوى
اسمين من مواطني هذه المدينة ، هما لانفرا نشينوس Lanfranchinus
وايلديبرانيوس Ildebrandinus ، وليس من الثابت أن هذين
التاجرين قد استوردا منسوجات حريرية وقطيفة : بل انهما على العكس من
ذلك أتيا ومعهما مبلغ كبير من المال لأداء بعض المشتريات ، وذات يوم ،
ولسبب ما ، اعتقلتاهما السلطات المحلية في ادرايتيوم Adramyttium
 واحتفظ بهما الامبراطور ميخائيل باليولوجوس اسيرين ، وتوسط لهما البابا
الكسندر الرابع (٤) ، فأخلي سبيلهما ، ولكننا نقرأ في عريضة ثانية وجهها الى
الامبراطور لصالحهما البابا أوربان الرابع (٥) ، أن المال الذي وجد عند
لانفرانشينوس قد صودر ولم يستطع صاحبه أن يسترده ، هذه الأحداث جرت
قبل أن يستولى ميخائيل باليولوجوس على القسطنطينية . ومنذ أن كان تجار

(١) هذى عمله تحمل اسم الامبراطور مانويل ، نجدها مذكورة في :

Taf. et Thom. II, 18 dans les Documenti sulle relaz. tox. coll'Orient.

p. 77, 78, et dans Arnold, Lubec, dans Pertz, SS. XXI, 174.

وكان هناك عملات مماثلة ، انظر :

— Anne Comm. I, 175; Guill de Tyr. XI, II, X111, 15; Raoul de Caen,
p. 709 et l'éd. Paris.

(٢) عملة نحاسية صغيرة ، انظر :

Taf. et Thom. I, 108; Paspati, dans la Revue du Syllogos de Constantinople,
VII, 121.

Niceph. Gregor. I, 43, éd. Boun.

(٣)

Iib. jur. I, 1345.

(٤)

(٥)

البندقية ولوكاس يترددون على أمبراطورية نيقية ، فانا لا نعجب من أن نجد فيها أيضا جنويين . وفي البداية لم تكن العلاقات بين الأمبراطورية وجنوا قد اتخذت في الواقع سمة الود والألفة التي اتخذتها فيما بعد حين اتحدت القوتان ضد الأمبراطورية اللاتينية . وفي عام ١٢٣٦ كان الجنويون يقاتلون الى جانب البنادقة والبيزنيين دفاعا عن القسطنطينية التي حاصرها كل من اليونانيين والبلغار (١) الأمر الذي لم يمنع استمرار المفاوضات بين القوتين منذ عام ١٢٣١ ، تلك التي انتهت بالاتفاق بينهما . وفي هذا التاريخ توجه سفيران جنويان لمقابلة أكبر أميرين يونانيين ، يوحنا فاناتزيس ، ومانويل ، طاغية أيبروس ، بحجة الاعداد لعقد معاهدة صلح (٢) . ولسنا نعرف القصد الحقيقي من هذا العمل ونتيجته . وفي عام ١٢٣٩ ، حضر من نيقية الى جنوا شخصية أخرى بصفة سفير يتمتع بسلطات مطلقة ، الا أن المفاوضات لم تصل أيضا الى نتيجة هذه المرة (٣) . ومن المحتمل ان مسألة سقوط الأمبراطورية اللاتينية كانت وقتئذ محل بحث ، ولكن من المرجح أيضا أن جنوا بسعيها للتقرب من امبراطورية نيقية كانت تعمل للحصول على مزايا لتجارتها ، وأنها حصلت بالفعل عليها .

ومن بين كل الجزر التي بقيت في قبضة اليونانيين ، كانت رودس بالتأكيد هي التي استنارت أكبر قدر من الرغبة لدى الغربيين لأنها تشكل محطة في الدرجة الأولى من الأهمية من حيث الاتصالات التجارية بسوريا ، وأرمينيا الصغرى ، وجزيرة قبرص ، ومصر . وثمة حاكم قديم تابع للأمبراطورية يدعى لأوون جابالاس Léon Gabalas اقتطع امارة بالجزيرة ، ولكنه أهمل الحصول من أباطرة نيقية على الاعتراف بها . ولما ضيق عليه يوحنا فاناتزيس الخناق ، ويئس هو من أن يحمي بقواته وحدها استقلاله ، فانه تحالف مع جمهورية البندقية التي كان يتهدهدها الامبراطور في تلك الآونة بانتزاع جزيرة كريت منها : وكان في اعتقاده أن قواتهما المجتمعمة تستطيع مقاومة العدو المشترك . هذه المعاهدة معاهدة التحالف الهجومي والدفاعي التي انعقدت في رودس في شهر أبريل عام ١٢٣٤ التحالف الهجومي والدفاعي التي انعقدت في رودس في شهر أبريل عام ١٢٣٤ بين مارسيليوس جورجيوس Marsilius Georgius سفير البندقية ، ولأوون جابالاس (٤) صدق عليها في شهر أغسطس من العام نفسه الدوق جاكوبو

Hopf, art. Griechenland, dans Ersch et Gruber, LXXXV, 253. (١)

Annal. Jan. p. 177. (٢)

Ibid, p. 190. (٣)

— اذا كان موضوع هذه المفاوضات القضاء على الأمبراطورية اللاتينية ، فانها تكون مخالفة صريحة للتحالف القوى المرم قبل ذلك بقليل بين جنوا والبندقية ، أنظر في ذلك : Taf. et Thom. II, 341 et ss.; Annal Jan. p. 189; Lio., jur. I, 980 et ss, 984 et ss.

(٤) لمزيد من التفاصيل بشأن الأخوين لاقون ويوحنا جابالاس أنظر مقال السيد شلومبرجو

— M. Schlumberger dans la Revue archéologique, XXXI (1876) p. 233 et ss.

Jacopo Tiepolo وظهر «أمير جزيرة رودس وجزر الكيكلاد» في المعاهدة بصفتة الطرف الأضعف ، وطالب المعونة تابعا للدوق ، والتزم بأن يؤدي سنويا لكنيسة القديس مرقص (سان مارك) ضريبة تتمثل في قطعة من الحرير مطسرة بالذهب ؛ كما تعهد باعفاء البنادقة وسكان جزيرة كريت في ولاياته من الرسوم الجمركية والضرائب - المستوطنين منهم والأهالي ؛ في حين استمرت البندقية تقتضى من تجار رودس في مستعمراتها اليونانية الرسوم الجمركية المفروضة في عهد السيادة اليونانية ، ولم تعفهم من الضرائب الا في جزيرة كريت . وأخيرا رخص جابالاس للبنادقة بأن يقيموا بها منشأة تضم كنيسة و fondaco ودارا للبلدية ، وأن يستعملوا موازينهم ومكاييلهم في أعمالهم التجارية . ولا شك أن البنادقة استغلوا هذا الترخيص في انشاء مستعمرة لهم بها ، اذ كان الوضع ملائما لهم . غير أنه لم يثبت استمرار هذه المستعمرة زمنا طويلا : ذلك لأن يوحنا جابالاس ، خليفة لاؤون ، قدم ولاء لامبراطور نيقية ، وتابعه في حملاته ضد اللاتينيين مما يدل على أنه وقع في نزاع مع البندقية . وذت مرات ، كان متغيبا عن جزيرته ، اذ مضى الى آسيا الصغرى ليقا تل اللاتينيين الى جانب الامبراطور ، فكادت الجزيرة تقع غنيمة للجنويين . ففي ذات ليلة ، انقض فريقتان من الأنصار على العاصمة (١٢٤٨) واستقروا بها فترة طويلة بمساعدة مائة من فرسان المورة . عندئذ اضطر يوحنا فاتاتزيس أن يرسل جيشا لاجبار هؤلاء الدخلاء على الجلاء عن المدينة (١٢٥٠) (٢) . وبقيت رودس بعض الوقت في أيدي اليونانيين ولم يترتب على سيادة البندقية عليها ، أو احتلال جنوا لها أى أثر يذكر .

وبوجه عام فان الفترة التي وصلنا اليها تمثل أوج احتلال الغربيين الأقاليم القديمة التابعة للإمبراطورية البيزنطية ، ولم يكن هؤلاء قبل هذه الفترة أو بعدها أكثر عددا أو أشد قوة . كانت هناك « فرنسا جديدة » في القصور والقلاع بالقسطنطينية وطيبة وأثينا وشبه جزيرة المورة ، « وإيطاليا جديدة » في مقار الأمراء بمملكة سالونيك ، وجزيرة يوبيا ، والقلاع التي شيدها أشراف البندقية في جزر اليونان ، وفي الأحياء التجارية بالقسطنطينية ، ونيجربونت ، والميرو ، الخ . الا أن هؤلاء الفرسان والتجار لم يكونوا سوى جماعات منعزلة وسط حشود كثيفة من السكان اليونانيين ، وبخاصة في الأرياف . وزادت صلابة اليونانيين يوما بعد يوم بقيادة زعماء من المقاتلين الأشداء ، وجعلوا يتبادلون المعونة من آسيا الصغرى الى ابيروس ؛ وبمساعدة البلغار راحوا يسحقون جيوش الفرسان والمرتزة الصغيرة التي استطاع اللاتينيون أن يواجهوهم بها (٣) . ولفترة طويلة ، لم

Taf, et Thom, II, 319-322.

(١)

Georg, Acrop, p. 92-95.

(٢)

(٣) سقطت مملكة تسالونيك الا فرنجية عام ١٢٢٢ تحت وقع ضربات تيودور دوق ابيروس .

من اسرة انجيلوس . ومع ذلك فان الهدنة التي وقعتها نارجو دو توى بايل امبراطورية القسطنطينية اللاتينية في شهر سبتمبر عام ١٢٢٨ مع هذا الأمير اتاحت لتجارة البلدين أن تسترد صلاتها بشيء من الأمان ، في طرق كانت حتى ذلك الحين معرضة لغارات القرصنة : انظر :

— Lib., pleg. oppend., p. 184 et s.

تعد القسطنطينية تشكل - كما كان ينبغي لها أن تكون - حاضرة الامبراطورية اللاتينية . فقد ظلت أرضا محصورة داخل الاقليم اليوناني . حتى سقطت بدورها ، وكانت عودة اليونانيين الى عاصمتهم القديمة ضربة قاضية على الامبراطورية اللاتينية .

كان لهذا الحدث دوى هائل ، وبقي لنا أن نبحث عن نتائجه ، وأن نتحدث قبل ذلك عن سوق تنتمي بموقعها الجغرافي الى شبه جزيرة هيموس Hoemus التي لم يسمح سكانها - وغالبيتهم العظمى في الأصل من الايطاليين - الا في وقت متأخر - لم يسمحوا بأن تختلط بهم عناصر سلافية أخذت تحتل شيئا فشيئا القسم الأكبر من شبه الجزيرة : تلك هي راجوزة Raguse . كانت هذه المدينة في الفترة التي استعرضناها منذ هنيهة تشغل في ظل البندقية مركزا تجاريا من الدرجة الثانية . وكان من نتيجة القوة الكبيرة التي بلغت البندقية في عهد الامبراطورية اللاتينية أن حملت راجوزة على أن تعترف اعترافا تاما بتفوقها . كان لراجوزة منذ زمن مبكر بحرية مزدهرة ، وكادت تصبح منافسا خطيرا للبندقية التي تملك السيادة عليها . وتوصلت راجوزة ، تارة بوضع نفسها تحت حماية الامبراطور اليوناني ، وتارة أخرى بالتحالف مع الأمراء النورمان بجنوب ايطاليا وصقلية ، توصلت الى التخلص من هذه التبعية . وفي عام ١١٧١ اضطر الدوق أن يلجأ الى القوة لكي يحمل راجوزة على أن تقبل ، بصفة كونت نبيل من البندقية يدعى رانيري زانيه Ranieri Zane (١) ، ويبدو مع ذلك أنه لم يشغل هذا المنصب زمنا طويلا ، وفي القرن الثالث تغيرت التيارات الفكرية ، وأصبحت راجوزة هي التي انحنت بذاتها أمام الجمهورية القوية ، والتمست منها أن تعطيها كونتا (١٢٠٥) . وفي عام ١٢٣٠ اضطر الكونت أن يترك منصبه أمام دفعة جديدة من التيارات المعادية للبندقية، الا أن رد الفعل هذا لم يدم طويلا . وبعد سنتين استدعت المدينة نفسها (٢) واعتبارا من هذه اللحظة كان الرأي مجمعا على أن مصلحة راجوزا تكمن في أن تبقى تابعة للبندقية ؛ وتأكد هذا الاعتقاد ثلاث مرات في الأعوام ١٢٣٢ ، ١٢٣٦ ، ١٢٥٢ بوثائق تثبت هذه التبعية (٣) . وفي وثائق هامة من هذا القبيل لم يمكن اغفال المسائل التجارية ؛ وحتى في هذا الخصوص لم يكن في استطاعة سكان راجوزة أن يدعوا مساواتهم ببورجوازي البندقية ، ووافقوا

Dandolo, p. 294.

(١)

Appendini Notizie sulle antichità, storia e letteratura dei Ragusei (٢)
(Ragusei 1802-1803) I, 275-279.

Taf, et Thom, II, 307 et ss., 328 et ss., 464 et ss.; Engel, Gesch. (٣)
des Freistaats Ragusa, p. 289 et ss.; l'Archiv. stor. ital., App. IX, 382
et ss. Cf. Dandolo, p. 347, 360.

على دفع ضريبة للبندقية عن استيراد البضائع الأجنبية . وتعرفنا هذه الوثائق بالبلاد التي كانت راجوزة تستورد منتجاتها : تلك هي رومانيا (أى الامبراطورية اللاتينية وتوابعها) ، مصر ، وتونس ، وبلاد البرابرة ، وصقلية ؛ ويوليا . يتبين لنا من هذا أنه كانت لراجوزة علاقات واسعة ، وتتمتع فى الامبراطورية اليونانية باعفاءات ترجع غالبا الى عهد الكومنينوس ، وبالأخص مانويل ، ذلك لأن جهود هذا الامبراطور كانت تستهدف تشجيع موانئ دالماشيا لمكافحة البندقية . وصدق على هذه الاعفاءات أول أباطرة اللاتينيين ، بلدوين ، وهنرى ، ويسدو . أنها قد حصلت أيضا على امتيازات من أباطرة نيقية ، وطربزون ، وقيصر بلغاريا « كالويان » Johannitius (Kalojan) (١١٩٧ - ١٢٠٧) ولكن لم يصلنا شيء عن هذه الامتيازات (١) . وفيما يختص بمصر ، كان تجار راجوزة يترددون على سوق الاسكندرية العالمية : ولدينا فى هذا الخصوص شهادة بنيامين دوتوديل ، وان كان من الأصح أن نقرأ بدلا من كلمة « راكوفيا » Rakuphia الواردة فيما حكاه عن رحلته كلمة « راجوزة » Fagusa (٢)

ولما كان تجار راجوزة يقومون عادة وبسهولة برحلات طويلة من هذا القبيل ، فالمعتقد أنهم كانوا يزورون أيضا وبكثرة السواحل الشرقية لاطاليا ، اذ لم يكن عليهم من أجل القيام بذلك سوى عبور البحر الأدرياتي (٣) ، وكذا أيروس ، والبلاد السلافية (بلاد الصقالبة) الجنوبية كانوا يتصلون بهم عن طريق البحر مباشرة . والواقع أنه يمكن اقامة البراهين على وجود تجارة لهم مع أيروس قبل الحملة الصليبية الرابعة فى العهد الذى كان فيه يوحنا انجيلوس يتولى مهام الحاكم باسم الامبراطور اليونانى ، واستمراره فى عهد الطغاة المستقلين ميخائيل الأول (المتوفى فى ١٢١٤) ، ومانويل (المتوفى فى ١٢٤١) ، وميخائيل الثانى (المتوفى فى ١٢٧١) وقد شجع كل هؤلاء الأمراء تجارة راجوزة بأن منحوها كافة الامتيازات التى نعرفها عدا واحدا هو أقدمها (٤) . ثم أنه ليس ثمة ما يحملنا على التفكير فى هذا الأمر أكثر من ذلك لأنه لا يتعلق بتجارة الشرق الأدنى Levant بمعناه الصحيح . انما أردنا أن نوضح أن راجوزة ، وقد عادت الى ولائها للبندقية ، فانها اكتسبت مزيدا من القوة بانضمام بحريتها التجارية اليها : ذلك لأنه اذا لم تكن هذه البحرية تماثل بحرية الجمهورية

Tof. et Thom. Griech. Orig. - Urk. zur Gesch. des Freistaats (١)
Ragusa, dans les Sitzungsberichte der Wiener Akad. philos. hist. Cl. VI, 511.

Mon. slav. merid. I, 33.

(٢)

Engel, Gech. des Freistaats Ragusa, p. 83, 106 et s., 112.

(٣)

Taf. et Thom. Griech. Orig. - Urk. von Ragusa, op. cit., p. 524-529; (٤)

Miklosich et Muller, Acta graeca. III, 58 et s., 66 et s., 87 et s;

Hopf., Griechenland, op. cit., LXXXV, 211, 254, 258; Taf. et Thom. op. cit., p. 508-518.

الكبرى من حيث عددها فأنها مع ذلك كانت قوية بدرجة تسمح لها بالمخاطرة في مشروعات بعيدة المدى ، كالمشروعات التي تقوم بها بحرية الجمهورية .
 وختاماً نقول كلمة عن موانئ دالماشيا : زارا Zara ، وتروا Trau ، وسبالاترو Spalatro التي يسكنها بحارة نشطون متمرسون بنوع خاص على التجارة مع سوريا وقبرص (١) . كانت هذه المدن في الحقيقة في وضع من التبعية للبندقية ، أقوى من تبعية راجوزة لها ، ويمكن اعتبار بحريتها بوجه عام جزءاً لا يتجزأ من بحرية البندقية ، في حين احتفظت راجوزة بقدر كاف من الاستقلال يتيح لها أن تعقد معاهدات تجارية لحسابها الخاص ، ومع ذلك لم تكن في الواقع سوى نصف جمهورية ، وطالما كان على رأسها كونت بندقى فإنه يمكن القول بأن بحريتها ، رغم كبرها لم تكن سوى جزء من قوة البندقية البحرية الضخمة . وهذا برهان آخر يدعم ما سبق أن ذكرناه عن التفوق الهائل الذي اكتسبته البندقية خلال الفترة التي درسناها .

الدول الصليبية في سوريا في غضون القرن الثاني من وجودها

يعتبر ظهور صلاح الدين بداية لعهد جديد في تاريخ الدول الصليبية . وقد جعلت موقعة حطين (٤ من يولية ١١٨٧) هذه الدول في موقف ميئوس منه على وجه التقريب . وبغض النظر عن فقد بيت المقدس كنتيجة مباشرة لهذه الموقعة ، وكان هذا الفقد نكبة على العالم المسيحي كله ، فإن هذه الهزيمة كانت نذيراً بسلسلة من الكوارث التي حلت بالمستعمرات التجارية . وبعد انقضاء بضعة أيام (في ٩ من يولية) فتحت عكا أبوابها للمتصر دون قتال ، وكانت حتى ذلك الحين ، كما يقول بهاء الدين ، وابن الأثير مركزاً من أكبر المراكز التجارية في آسيا (٢) ، وملتقى التجار الفرنجة واليونانيين وغيرهم من القادمين من قريب ومن بعيد (٣) . واذ فر الأهالي من المدينة تاركين لهم كل شيء في مكانه ، فقد استولى المنتصرون على غنيمة هائلة ، أهم ما فيها الذهب ، والآلئ ، والمنسوجات الحريرية من النوع المسمى « سجاتون » Siglatoun ، وأقمشة البندقية benedikiy ، والسكر ، والأسلحة ، الخ (٤) . وقبل انقضاء السنة كان صلاح الدين سيداً على يافا ، وصيدا ، وجبله ، وبيروت ، وقيسرية ؛

(١) Guill de Tyr, II, 17; Monum. slav. merid III, 396 et s. : IV, 52, 75.

(٢) Boha-eddin, Vie de Saladin, dans le Rec. des hist. des crois hist. orient III, 98.

Ibn-Alathir, ibid.

(٣)

Ibn-Alathir, ibid.

(٤).

وعسقلان ، واستولى أيضا على طرطوس ، وجبل ، ولاوديكيكا ، ولم نذكر هنا سوى الأماكن ذات الأهمية الكبيرة للتجارة . وصور وحدها هي التي استطاعت أن تقاومه ، ولأذ بأسوارها عدد كبير من الفرسان الذين نجوا بأرواحهم من هزيمة حطين ، وكذا حشد ممن هربوا من المدن السورية التي أعاد صلاح الدين فتحها (١) . ومع ذلك فكان من الراجح سقوطها لو لم يأت إليها المركيزدو مونفيرا الذى تولى مهمة ادارة شئون الدفاع . ومع ذلك لم ينتظر البيزيون والجنويون وصوله لينظموا أعمال الدفاع الأولى (٢) . ومن تلك الآونة واصلوا القتال الى جواره ببسالة يحفزهم تشجيع الأمراء الكنسيين والعلمانيين بالمدينة المقدسة . ويساندتهم كذلك عدد كبير من مواطنيهم الذين هرعوا الى نجدتهم من جميع الأنحاء (٣) . ولم يخش البيزيون أن ينظموا قبل الحصار وبعده حملات بحرية ، ويهاجموا عكا نفسها ، ويعودوا كل مرة ومعهم كميات وافرة من الغنائم والأغذية (٤) . ونميز من بين هؤلاء بنوع خاص فرقة « الحمير » *societas Vermiorum* (٥) ، وسميت هكذا بسبب لون شاراتها ، ومن ثم نالت مكافأة على ما قدمته من خدمات أموالا وحقوقا فى صور (٦) . ونذكر أيضا الى جانب هؤلاء المدافعين تجارا من سان جيل ، ومونبيلييه ، ومرسيليا ، وبرشلونة مقيمين بالمدينة (٧) . وأثار سقوط القدس وما سبقه وأعقبه من أحداث انفعالا شديدا فى الغرب كله . وكان الجنويون من أوائل من أذاعوا الخبر المشؤم (٨) ، ونشروا نداء بارونات الأرض المقدسة بالدعوة الى حملة صليبية جديدة ، وأرسلوا مرارا سفراء الى فرنسا وإنجلترا : (روفو ديلا فولتا فى عام ١١٨٨ ، واتريكو ديوييتسالفير ، وانسالدو بوخيريو فى عام ١١٨٩) لحث فيليب أوجست ، وريتشارد قلب الأسد على الجهاد (٩) . ولسوء الحظ كان هؤلاء الأمراء يتحاربون ، وكانوا أيضا فى حرب مع البيزيين ، وكان لابد من أن يوجه

-
- (١) *Epistola Januensium ad Urbanum Papam*, dans les *Gesta R. Henrici II*, éd. Stubbs, II, 12.
 (٢) *Lib. jur.* I, 347, 357, 400, 405; *Doc. sulle relaz. tox.* p. 26, 28, 30, 33, 34, 36, 39.
 (٣) *Lib. jur.* I, 346 et s. Voyez Belgrano, *Arch. stor. ital.*, série III, T. VII, part. 2, p. 160.
 (٤) *Cont. de Guill. de Tyr*, p. 77 (*Rec. des hist. des crois I*); *Caff. Annal Jan.* p. 54.
 (٥) Sicard, *Cremon.*, dans Murat, SS, VII, 604 et s., Robert de Clary dans *Hopf. Chron. greco-romanes*, p. 28 et s.
 (٦) Bonaini, *Stat. Pis* II, 573 et s.
 (٧) *Doc. sulle relaz. tox.* p. 33, 34 et s.
 (٨) Voy. le diplôme du marquis Conrad, dans Méry et Guindon, I, 190-192.
 (٩) Voy. la lettre des Genoïs dans les *Gesta Henrici II*.

تعنيف رسمى من قبل البابا جريجورى الثامن ، والبابا كليمنت الثالث الى هؤلاء
 الحصوصم الالءاء لملهم على التقارب . وما أن تم الصلح بينهم (١) حتى أبحر
 أسطول بيزى تحت قيادة كبير الأساقفة أو بالدو Ubaïdo (١١٨٨) : وكانت
 خطته أن يمضى الشتاء فى سينا حتى يتحسن الجو فى العام التالى فيجر الى
 فلسطين (٢) . وأبحر الأسطول الجنوى فى عام ١١٨٩ تحت قيادة القنصل
 جويدو سبنيولا Guido Spinola ، وتبعه فى عام ١١٩٠ (٣) أسطول آخر
 يعززه . وطلب الدوق أوريو ماستروبيترو Aurio Mastropietro من كل رعايا
 البندقية ، السادة منهم والخدم أن يكونوا مستعدين للاشتراك فى عيد القيامة
 لعام ١١٨٩ (٤) ؛ وأرسل بالفعل أسطولا قويا لحق فى الطريق بأسطول بيزا (٥) .
 وعلى ذلك فان جيوش الدول التجارية الثلاث الأولى سبقت بكثير جيوش فيليب
 أوجست وريتشارد التى لم تصل الى الأرض المقدسة الا فى أشهر أبريل ومايو
 ويونية ١١٩١ ، وضم الأميران جيوشهما تحت أسوار عكا الى الجيش الصغير
 التابع للملك « جوى » Guy الذى كان قد بدأ يضرب الحصار على المدينة (٦) .
 وطال هذا الحصار المشهود قرابة سنتين (من أواخر أغسطس ١١٨٩ حتى ١٢
 يولية ١١٩١) . ويشيد المؤرخون الذين سجلوا قصة هذا الحصار بالآلات
 الحربية القوية التى يملكها الجنوبيون والبيزيون ، وبالغارة التى قام بها
 البيزيون بجراحة تزيد عما نالوه من نجاح على برج « الذباب » الذى يحمى مدخل
 الميناء ، وأخيرا بدمورهم فى الغارة الأخيرة التى أجبرت الحامية على التسلم (٧) .
 وكان الجيش القائم بالحصار يضم فى صفوفه محاربين من جميع أمم أوروبا ،
 تميز من بينهم بنوع خاص يورجوازيو مرسيليا (٨) . واذا تم الاستيلاء على
 المدينة ، عاد الذين كانوا يملكون بيوتا أو عقارات أخرى قبل غزو صلاح الدين ،
 واستطاعوا أن يقدموا أدلة جديدة تثبت حقوقهم ، فاستردوا بذلك ما كانوا
 يملكونه (٩) . وعاد التجار والصيارفة البيزيون وغيرهم فشغلوا حوانيتهم فى

Dal Borgo, Dipl. Pis. p. 114 et ss. (١)

Breviarium hist. Pis. dans Murat. VI, 191. (٢)

Annal. Jan. p. 104, 105. (٣)

Taf. et Thom. I, 204, Toeche, Heinrich VI, p. 107. (٤)

Dandolo, dans Murat. SS. XII, 312 et s. (٥)

Breviar. hist. Pis. l.c.; Sicard. Cremon. dans Murat. SS. VII, 606; (٦)

Itinerar. R. Ricardi I, éd. Stubbs, p. 62, 74; Gesta Ricardi
 I éd. Stubbs, p. 95 et s.

Itiner. Ric. p. 84, 109 et s., 228; Gesta Ric. p. 173, 178; Contin. (٧)

de Guill. de Tyr, p. 157; Annal. Jan. p. 104; Lib. jur. I, 357, 411.

Diplôme du roi Guy, de l'année 1190, dans Méry et Guindon, I, 194 (٨)

et s. et dans Papon, Hist. de Provence, II, Preuves, p. XXXV et ss.

Contin. de Guill. de Tyr, p. 175 et s. (٩)

ميدان السوق (١) . ونشطت كل الأمم التجارية لاستعادة أملاكها القديمة في المدينة . وكان الجنويون قد اتخذوا حيطتهم من قبل حتى لا يضيع منهم شيء ؛ وتعهد فيليب أوجست بموجب معاهدة عقدها معهم في ١٦ من فبراير ١١٩٠ أن يرد اليهم الأملاك التي فقدوها على أثر فتوحات صلاح الدين ، ويمنحهم فوق ذلك في كل المدن التي يستولى عليها خلال الحروب الصليبية مستعمرة ومحكمة خاصة ، مع كل الملحقات المعتادة ، وكانت هذه الشروط قد فرضها الجنويون على سفير الملك « هوج دو بورجونى » الذى كلفه سيده أن يتفاوض لتأجير أسطول لنقل الجيش الفرنسى الى سوريا ، فقبل السفير هذه الشروط ، وأقرها الملك فى أثناء وجوده فى جنوا فى شهر أغسطس ١١٩٠ (٢) . وإذا لم يرض الجنويون عن هذه الوعود ، فانهم حصلوا لأنفسهم على ضمان مزدوج ، وحصلوا من الملك جى دو لوزينيان ، على وثيقتين رسميتين تحملان ذات المضمون (٣) . وحصلت بيزا على ضمانات مماثلة من الماركيز كونراد دو مونفير . حقا ان هذه الضمانات ترجع الى فترة لم يكن أحد يفكر فيها فى حصار الموقع ، الا أن جى دو لوزينيان ، وريتشارد قلب الأسد صدقا عليها فيما بعد (٤) ، وكانت الأعمال البطولية التى قام بها البيزيون قد أكسبتهم الحق فى أن يعترف بهم هؤلاء الأمراء ، ولا شك أنهم أوفوا بعهودهم (٥) . كذلك ألحق الأماطيون وحدثهم بالجيش القائم بالحصار ، ومكافأة لهم على خدماتهم الجليلة أعفاهم الملك جى من رسوم الدخول والخروج ، وكذا رسوم البيع والشراء على بضائعهم فى عكا ، ورخص لهم بأن يقيموا بها فيكونتات أو قناصل ، وأهدى لهم فضلا على ذلك دارا ليقيم بها هؤلاء الموظفون (٦) . وأخيرا ، وفى أثناء الحصار ، حصل البنادقة من جديد من الماركيز كونراد ، وبصفة عامة ، على الحقوق والأملاك التى كانت لهم قبلا فى مملكة القدس ، وسجل مؤرخهم داندولو أنهم استردوا بالفعل ، بعد الاستيلاء على المدينة ، حيازة بيوتهم ، وكنيسة القديس مرقس (سان مارك) (٧) . وثمة أمر غريب : ذلك أنه لم تذكر كلمة واحدة ، لا فى وثيقة كونراد ، ولا فى الوقائع المدونة عن الأعمال البطولية التى أداها هؤلاء أمام الموقع ، ولم يكن ثمة شيء يختص بهم ، اللهم الا فى هذا الاقرار البحث بأملاكهم القديمة ، فى حين حصل الجنويون والبيزيون خلال بضعة السنين هذه على مجموعة من الامتيازات التى تضيف أملاكا

Gesta Ricardi., II, 181.

(١)

Lib. jur. I, 355 et s., 368 et s.; Annal. jan. p. 104; Annal. Jan.

(٢)

I. c.; Gesta Ricardi II, 113; Heinrich VI, p. 107 not. 11.

Lib. jur. I, 359 et s., 380 et s.

(٣)

Doc. sulle relaz. tosc. p. 30 et s., 38 et s., 58 et s.

(٤)

Roncioni, Istorie Pisane, dans l'Archiv. stor. ital. VI, 1, p. 419 et s.

(٥)

Charte du 10 Avril 1190, dans Camera, Memorie di Amalfi, I, 201;

(٦)

Flicker, Acta imperie selecta II, 609 et ss.

Taf. et Thom. I, 712; Dandolo, p. 314

(٧)

كبيرة على الأملاك التي ضمنوها لأنفسهم من قبل ، وكفلت لهم مجموعة من الحقوق والاعفاءات . والجدير بالملاحظة بوجه عام أن البنادقة في سوريا قد هبطوا زمنا طويلا الى المرتبة الثانية ، وأن هذا الوضع تفاقم بصفة خاصة منذ أن تلاشت قواتهم بتأسيس ودعم الامبراطورية اللاتينية في القسطنطينية ، وبقي لهم قدر من الطاقة يتيح لهم بالكاد الاحتفاظ بأقدم أملاكهم ، وعلى هذا الوجه تركوا المجال مفتوحا للبيزيين والجنويين . كذلك كانت هذه الفترة ازهى عصور البيزيين (١) .

وقد يثير الدهشة هذا السخاء الذي تجلى فيما منحه الأمراء لهاتين الأمتين من امتيازات ، لو لم تكن نعرف أن الاعتراف بخدماتهما لم يكن عاملا ذا أهمية في هذا الشأن (٢) ، اذ كان العرش معرضا للخطر ، وكان يهمهم أن يكتسبوا أنصارا . كانت الهزيمة في معركة حطين ، والأسر ، والوضع الخارجى قد أفقد جى دو لوزينيان كل ما كان له من هيبة ونفوذ ، أما كونراد دو مونفير الذى لم يزل يزهو بالنصر الذى اكتسبه ابان دفاعه عن صور ، آخر معاقل المملكة ، فانه فرض نفسه جهارا مطالبا بالعرش ، ومنافسا خطيرا . ولا مجال هنا لسرد وقائع الصراع بالتفصيل ، ولكن هناك نقطة واحدة تهمننا ، تلك هى الدور الذى لعبه الجنويون والبيزيون في هذه الظروف . فقد انحاز الجنويون الى المريكز دو مونفير ، وساندوه فيليب أوجست . أما البيزيون ، فعلى العكس من ذلك جهروا بتأييدهم جى دو لوزينيان (٣) ، وكان لهم علاقات مودة بنوع خاص مع ريتشارد قلب الأسد (٤) ، ويبدو أن هذا الأمير قد حثهم جهارا على اتخاذ هذا السلوك (٥) . وكان لا بد أن يؤدي هذا الموقف الى انفجار : ففي شهر فبراير (٦) من عام ١١٩٢ شنت الأمتان احدهما على الأخرى حربا صريحة . فقد تناهى الى اسماع البيزيين فى عكا نبأ مؤامرة دبرها الجنويون لتسليم الموقع لكونراد دو مونفير ، فبادروا الى حمل السلاح ، وأغاروا على الجنويين وحلفائهم الفرنسيين ودحروهم . وعندما وصل المريكز متوقعا أن يستولى على المدينة على حين غرة ، وجدها متأهبة للدفاع عن نفسها . وبعد انقضاء ثلاثة أيام فى غارات فاشلة ، اضطر الى التحول عنها والهجوم مع الفرنسيين على صور . ووصل ريتشارد قلب الأسد الذى

Cont. de Guill. de Tyr. p. 202, D.

(١)

(٢) قدم الجنويون والبيزيون لبعض الفرسان الانجليز والفرنسيين فى الجيش المحاصر مبالغ

من النقود بمثابة سلف كانت لهم جزيلة الفائدة ، انظر :

Delisle, Catalogue des actes de Philippe Auguste, p. 82 : Bibl. de l'école des chartes, Série I, V, 35 et s.

Roehricht, Forschungen zur deutschen Gesch. XVI, 487; Itinerar (٣)

Ricard, p. 321; Tractatus de terra sancta, éd. Thomas, p. 35.

Gesta Ricardi II, 170; Itiner. Ric. p. 212 et s.

(٤)

Contin. de Guill de Tyr, p. 152-154.

(٥)

Roger de Hoveden, éd. Stubbs III, 180.

(٦)

التاريخ الذى ذكره روجر دو هوفدن غير صحيح :

استنجد به البيزيون ، وصل بعد انسحاب كونراد . وفى ٢١ من فبراير ، دبر تصالحا بين البيزيين والجنوبيين (١) . وفى هذه الأثناء توفى كونراد (فى ٢٨ من ابريل ١١٩٢) ، وبقي البيزيون أنصارا مخلصين لـجى دو لوزينيان ، ودعوه الى الاتحاد معهم لاستعادة صور (٢) ، ولكنهم لم يعملوا حسابا لبارونات سوريا الذين قدموا العرش لهنرى كونت دو شا Henri, comte de Champagne بهوافقة عمه ريتشسارد قلب الأسد . وقنع جى لوزينيان بالسيادة على قبرص . وبعد كل ما حدث ، لم يكن فى وسع السيد الجديد الا أن يغذى فى صدره مشاعر الحقد والريبة حيال البيزيين ، وخاصة أن هؤلاء استمروا على علاقة بالملك المخلوع عن عرشه (٣) ، واستمهلهم حتى شهر مايو عام ١١٩٣ ليعقد معهم اتفاقية بتسوية (٤) ، ووافق على أن يضمن لهم امتيازاتهم وأملاكهم فى صور ، وعكا ، ويوبيه Yoppé ، ويعفيهم من الرسوم الجمركية عند مدخل ميناء عكا ومخرجه ، ولكنه رفض أن يضمن لهم سائر ما كان لهم من امتيازات ، ووعدهم بها حين يتاح له استرداد بيت المقدس : أى الى أجل غير مسمى ! واشتراط عليهم فوق ذلك الا يقيم فى صور خلال السنة القادمة كلها أكثر من ثلاثين بيزيا فى وقت واحد لا بتصريح خاص منه ، وأن يقسم القناصل والرعايا البيزيون عندما يطأون أرض المملكة أن يدافعوا عن حياته وكرامته واقليله ضد أعدائه كلهم . وعلى أية حال ، فهم لم يراعوا هذا الشرط الأخير ، فقد جهزوا حملة بحرية على مرأى من سواحل سوريا ، وراح بحارتهم ينهبون المسافرين الذين يريدون دخول المملكة أو الخروج منها . وأنذر الكونت البيزيين فى عكا أن يضعوا حدا لهذه الحال ، فلم يدعنوا ، فاستشاط غضبا وأمر بطردهم من عكا ومن المملكة كلها (٥) .

ومع ذلك فانه عقد الصلح معهم من جديد فى عام ١١٩٤ ، وأذن بترميم البرج الذى كانوا يمتلكونه فى عكا ، ومن المحتمل أن هذا البرج قد أصيب بأضرار فى العديد من الثورات التى نشبت هناك . فضلا على ذلك أقر بملكيتهم للفرن والحمام اللذين كانا لهم فى كل الأزمان (٦) . وفى عام ١١٩٧ تعهد بأن يمنحهم حمايته فى كل جهات المملكة التى يريدون الإقامة بها أو ممارسة التجارة فيها ، ولكنه أيد قرار الطرد الصادر ضد طاقم السفينتين (اكويلا ، وامبرياليس) المتهمين بقتل بعض الحجاج (٧) .

Itiner. Ric. p. 321 et s. ; Roger de Hoveden, l.c.

Contin. de Guill de Tyr, p. 194.

Op cit., p. 199. 202.

Doc. sulle relaz. tox p. 60.

Contin. de Guill. de Tyr, p. 202.

Ibid. p. 203; Doc. sulle relaz. tox. p. 65 et s.

Doc. sulle relaz. tox p. 78.

(١)

(٢)

(٣)

(٤)

(٥)

(٦)

(٧)

وتعطي الأحداث التي لخصناها آنفا فكرة عن وجود « مستوطنات تجارية » في غضون هذه الفترة الثانية من تاريخ الامارات الصليبية . فحتى ذلك الحين قنعت هذه المستوطنات بأن تزدهر دون جلبة أو ضوضاء ، حتى ان المؤرخ قلما يجد هنا أو هناك احداثا تتعلق بها ، واستبعدت هذه المستوطنات قوة في الدولة ، وقوى نفوذها في كل التغيرات السياسية مهما كانت خطيرة . وفي الكثير من الأحيان لم تكن هذه المستوطنات تخشى ، من أجل ضمان نفوذها أن تشترك بأسلحتها في المعركة . وكان النظام الاقطاعي شرا على المملكة ، وأضيف الى هذه العلة ضروب المنافسة المتوصلة التي كان العرش هدفا لها ، وثمة ملوك وأباطرة أجانب كانوا يدعون أن لهم حقوقا في العرش ، ويطالبون بها على حساب حقوق اللوزينيين في قبرص ، ولكنهم جميعا لم يظهروا في سوريا الا في القليل النادر ، واكتفوا بارسال نواب عنهم ، ومعهم جيوش صغيرة . وبالتدريج ، وفي غضون هذه الفوضى ، استولى بارونات المملكة على جزء كبير من مخصصات المملكة ، والى جانبهم لعب الأساقفة ، وطوائف الفرسان ، والجمعيات الأخوية (التي سوف نتكلم عنها) والمستوطنات التجارية دورا يزداد أهمية يوما بعد يوم . غير أن سكان سوريا كانوا تقريبا ممزقين من جراء الخلافات الداخلية ، وقلما وجدت المستوطنات كلها منضمة الى جانب واحد (١) ، وهذى من النقاط التي اختلف فيها هذا العصر مع العصر الذي قبله . ففيما مضى ، ورغم كل المنافسات في مجال التجارة ، كانت المستوطنات تعيش جنبا الى جنب في سلام دون أن تنشعب بينها نزاعات ذات أهمية . وابتداء من الفترة الثانية ، جرت صراعات مسلحة لا نهاية لها : فأحيانا كانت الحروب التي تشنها أوطانها الأصلية تمتد فروعا حتى تصل اليها وأحيانا كانت المعارك تشتعل في المستوطنات نفسها بسبب منازعات من أجل الحدود أو الممتلكات ، وكثيرا ما كانت هذه الصراعات تتسبب في توقف حركة التجارة ، ومع ذلك لا يبدو أن هذه الحركة عانت كثيرا وبصورة محسوسة من هذه الصراعات . وكانت طبقة التجار بين سائر الطبقات الممثلة في مملكة القدس هي التي تزيل بأسرع ما يمكن آثار الكوارث التي أوقعها صلاح الدين . وكانت المدن البحرية بالإجمال هي مراكز التجارة الرئيسية ، وقد أعاد المسيحيون الاستيلاء عليها الواحدة بعد الأخرى في زمن وجيز ، وامتلات أسواقهم من جديد ، ونشطت حركة المبادلات كما كانت من قبل . وبقي داخل البلاد في أيدي المسلمين ، ولم تعد الامارات الصليبية تشغل سوى شريط ضيق من الأرض على طول الساحل ، وكان في ذلك ضرر بالغ بالتجارة ، لأن قوافل البضائع الراحلة من المدن المسيحية كانت فيما مضى تغادر الاقليم المسيحي الصديق على مسافة بضعة أميال من الساحل ، ففي زمن

Le contin. de Guill de Tyr. p. 474 et s.

(١) انظر على سبيل المثال :

السلم كان المسلمون يتركونها تمر دون عائق ، أما في زمن الحرب ، فإن حركة التجارة مع الداخل كانت تتعرض لكل أنواع المخاطر .

وفي الفترة التي نتحدث عنها ، تركزت التجارة أكثر من ذي قبل في مدينة عكا . وقد أصبحت هذه المدينة منذ سقوط بيت المقدس المركز السياسي للمملكة ، وفيها مقر الملك أو من يمثله ، وتنعقد فيها جلسات محكمة العدل العليا ، واليهما لجأ الكثير من كبار شخصيات الكنيسة الذين طردهم العدو من كراسيهم الأسقفية ، والفرسان الذين طردوا من قلاعهم . وكان لابد لهذه الظروف أن تجتذب المزيد من تجار الغرب وتثير بينهم روح المنافسة . وبدأ الأهالي « انكونا » الذين لم يكونوا حتى تلك الآونة يزورون سوريا الا تسلا خلف البيزيين أو الجنويين أو البنادقة ، بدا لهم أن الفرصة صارت مواتية لكي يعتمدوا على أنفسهم في ترحالهم . وقدم لهم البابا انوسنت الرابع يد المساعدة فأوصى بهم بطريرك القدس ، وأسقف عكا ، ومنحهم الاعفاء من الرسوم الجمركية في عكا وسوريا بوجه عام ، في التصدير والاستيراد (١) . بقي أن نعرف ما اذا كان بارونات الأرض المقدسة قد قبلوا هذا القرار وكفوا عن طلب الرسوم عن البضائع التي يحملها الانكوبيون : ونحن نشك في ذلك . وبعد زمن قليل ، أقامت الجالية الانكوبية مستوطنا مستقلا في عكا . وفي ١٠ من أغسطس ١٢٥٧ عقد المندوبون المفوضون من انكونا معاهدة مع يوحنا ديبلان Jean d'Ibelain ، سيد أرسور Arsur ، والقائد العام لمملكة القدس : وفي هذه الوثيقة منحت مدينة انكونا قطعة أرض داخل عكا تقيم بها كاتبة لخدمة مواطنيها ، وقصرا لأعضاء القنصلية ، وبيوتا للسكنى وحوانيت ، وصرح لجالية التجار الجديدة أن يكون لها ادارتها ومحكمتها ، غير أنه كان عليها أن تسهم في الدفاع عن الموقع في زمن الحرب (٢) . ومع حركة التدفق الجديدة للتجار الذين توافدوا على عكا ، كان لتسكانيا نصيب كبير ، ووصل الفلورنسيون ثمة مع أوائل من وصلوا من البيزيين (٣) . وأسس تجار مدينة « لوكا » Lucques هناك توكيلات تجارية (٤) ، وحصلت مدينة سينييا Sienne في عام ١٢٦٨ على وعد من كونرادن دي سواب Conrandin de Souabe بالاعفاء من الرسوم عند الدخول في مدينة عكا والخروج منها وتخفيض رسوم الميناء بمقدار ١/٥ (٥) ، ولم يسمح الحظ العاثر لهذا الأمير التعس بالوفاء بوعده . وفي حين كان عدد البلاد

(١) Berger, Registres d'Innocent IV, I, 214 (trois chartes du 28 juillet, 1245).

(٢) Pooli, Cod. dipl. dell'ord gerosolim. I, 157-161.

(٣) Contin, de Guill. de Tyr, p. 218.

(٤) Comme preuve, voy. une charte citée par Bini, I Lucchesi in Venezia, I, 113 et s.

(٥) Doc, sulle relaz. tox. p. 100 et s.

الايطالية الممثلة في عكا في تجارة البضائع يزداد يوما بعد يوم ، قامت شركات البنوك الايطالية التي كان لها فروع مصرفية في أوروبا بإنشاء فروع لها في عكا ، ذلك لأن هذا الموقع يتيح أكثر الظروف ملائمة لتجارة واسعة في الفضة . والمعروف أنه بفضل العلاقات التي كانت لبعض البيوت المصرفية التابعة لسيينا ، وبخاصة لبياتشنزا Pisanenza استطاعت أن تزود القديس لويس بالموارد اللازمة للانفاق على جيوشه أثناء الحروب الصليبية وبعدها (١) . وإلى جانب التجار الايطاليين نجد أيضا في عكا آثار مستوطنة من التجار الانجليز : والغالب أنهم وصلوا هناك في أعقاب الحملة الصليبية التي قادها ريتشارد قلب الأسد . وكان « حى الانجليز » يقع على التل المسمى « جبل موزارت » Mont Musart (٢) . ومع ذلك كان أهم المستوطنات ، بعد المستوطنات الايطالية ، مستوطنة البروفانسيين ، وكان لهم أيضا حيهم (٣) وكنيسة مكرسة لمريم العذراء (٤) . إلا أن ثمة مدينتين كانتا تزودان المستوطنة بغالبية أعضائها هما مرسيليا ، ومونبيليه ، وكان تجارهما يتمتعون بالاعفاء من رسوم الدخول والخروج ، وكان لمن استقربهم المقام هناك بصفة نهائية موظفون استعماريون من موطنهم الأصلي . وأدت المنافسة بين كل هؤلاء التجار ، من الايطاليين وفرنسيين وانجليز الى اعطاء دفعة جديدة لتجارة عكا اذ اضطرتها الى توسيع علاقاتها أكثر فأكثر . ونحن نعلم من قبل أن البنادقة وغيرهم كانوا يذهبون من هناك الى دمشق ، ويرحل منها أيضا وكلاء متجولون قاصدين دمياط وآنيا Ania بآسيا الصغرى ، والقسطنطينية (٥) . وعندما زار المبشر وليم دو روبروك سلطنة ايكونيوم وثمة مبشر آخر ، هو يوحنا دو بلان دو كاربان Jean du Plan de Carpin (حاليا قونية ، بتركيا) وجد تجارة الشب حكرا لجنوى من عكا ، ولبندقي . التقى في مدينة كيبف بتاجر من عكا (٦) . ثم ان الشرق لم يكن الهدف الوحيد لتجارة عكا ، فهناك أكثر من تاجر عاد الى الغرب وزار هناك المواقع التجارية

(١) Belgrano, Doc. ined, riguard le due crociate di S. Luigi IX; G. Servois, Emprunts de Saint-Louis en Palestine et en Afrique, dans la Bibliothèque de l'école des chartes, Série IV, T. IV, p. 113 et ss.; A. G. Tenon, Documents relatives aux Plaisançois d'Orient, dans les Archiv. de l'Or, lat. II, 2, p. 208-212.

(٢) Charte de 1240, dans les Archives de l'Or, lat. II, 2, p. 156; Charte de 1255 dans Paoli, Cod. dipl. I, 261; les Archiv. de l'Or lat. I, p. 426; les Itinéraires à Jérusalem et descriptions de la terre sainte, éd. Michelant et Reynaud

(٣) Rue des Provenanceaux "Paoli I., 265 ; Mas-Latrie, Hist. de Chy. ne, II, 67; «Ruga Provincialium» ibid. 111, 636 : "Vicus Provincialium" Taf. et Thom, II, 32.

(٤) Taf. et Thom, II, 32; Paoli, I, 264.

(٥) Doc. sulle relaz. tosc. p. 103, 104.

(٦) Recueil de voyages et de mémoires, publ. par la Société, de géographie, IV, 392, 772.

الرئيسية . من ذلك أنه في أواخر القرن الثالث عشر كان يوجد تجار من هؤلاء في أسواق شامباني الكبيرة (١) ، وفي جنوب إيطاليا (٢) وغيرها .

كانت صور من الناحية التجارية تحتل المرتبة الثانية ، وكانت الأحياء الإيطالية بها ، تلك التي بقيت من غارات الأعداء تتمتع برخاء متصل ، وتكون بها باسم البروفانسيين مستوطنة جديدة مؤلفة من بورجوازي مرسيليا ، ومونبيلييه ، وسان جيل ، وبرشلونة (٣) ، وقد غمرها كونراد دو مونفيرا بالأموال والحقوق والاعفاءات ، فلم يكن ثمة شيء كثير يثير حسدها من أخوتها الأقدم عهدا منها (٤) . وأقر فيليب دو نورف سيد صور من ١٢٤٣ الى ١٢٦٩ الاعفاءات الخاصة بأهالي مرسيليا بالمدينة (٥) .

وفي خريف عام ١١٩٧ استعاد المسيحيون سيادتهم على مدينة بيروت التي كان لمينائها بعض الأهمية في عهد مملكة القدس القديمة (٦) ، غير أنه اعتبارا من هذه الآونة ، وبتأثير أمراء أسرة ايبيلان Ibelin ، وبراعتهم في الادارة ، أرسيت بها دعائم رخاء استمر مزدهرا عدة قرون بعد ازدهار صور وعكا . وأول هؤلاء السادة معروف ، لأنه كثيرا ما ذكر في « قوانين بيت المقدس » باسم « سيد باروت الكبير » vieux sire de Baruth ومن ١٢٢١ الى ١٢٢٣ منحه الجنويين (٧) والبنادقة (٨) والمارسييليين (٩) بسخاء حقوقا وأملاكا في مدينته ، واتسمت علاقته بالجنويين بطابع صداقة ومودة في شتاء عام ١٢٢٢ - ١٢٢٣ ، وكان هؤلاء قد احترقت املاكهم في عكا بفعل البيزيين ، واشتد غيظهم لعدم قدرتهم على الحصول على التعويضات التي طالبوا بها فهجروا المدينة ورحلوا الى بيروت التي أصبحت من ثمة المرفأ التجاري الوحيد (١٠) . وسوف نرى فيما بعد الظروف التي توثقت فيها العلاقات بين الجنويين وسادة بيروت .

عندما يغادر المرء بيروت متجها نحو الشمال ، يصل أولا الى حدود مملكة بيت المقدس عند مصب نهر الكلب Nahr-el-Kelb . وعلى مسافة بضعة أميال

Contin, de Guill. de Tyr, p. 195, not. 21. (١)

Charte de l'an. 1266, dans Del Giudice, Cod. dipl. di Carlo d'Angio I, 235. (٢)

M. Germain, Hist. du commerce de Montpellier I, 180; cf. Vic et Vaissette, Hist de Languedoc, éd. Du mège, III, 231, IV, 214. (٣)

Charte du mois d'octobre 1187, dans Méry et Guindon I, 190. (٤)

Ruffi, Hist. de Marseille, I, 96. (٥)

Wilken, Gesch. der Kruzz, P, 35-39. (٦)

Lib. jur. I, 665 et s. 687 et s. (٧)

Taf. et Thom, II, 230 et ss., 232 et ss. (٨)

Méry et Guindon I, 287 et s. (٩)

Annal Jan, p. 150. (١٠)

من هذا النهر يصادف مدينة « جبيل Gibelet أول مدينة باقليم طرابلس ، وكانت أسرة امبرياتشى Embriaci قد استولت عليها عام ١١٩٣ ، ووجد الجنويون فى أفراد هذه الأسرة مواطنين لهم وحماة ، وكانت الميناء مفتوحة لهم بالاعفاء الكامل من كل الرسوم ، ومن ثم كانوا يؤثرون التردد عليها (١) . ولم يكن البنادقة يتمتعون بالامتيازات نفسها ، فحتى عام ١٢١٧ كانوا يدفعون ٤٪ من قيمة السلع ، ولكن اعتبارا من هذا التاريخ حصلوا على خفض نصف هذه النسبة (٢) ، غير أن المجهود الذى كانوا يبذلونه للوصول الى هناك يدل على أنهم كانوا حريصين على الا يتركوا هذا المكان .

وبالمضى على طول الساحل بين جبيل ونفين Nefin على بعد أربعة فراسخ ونصف فرسخ من طرابلس (٣) نصادف مدينة التبرون الصغيرة التى استخلصت من أيدي المسلمين ، وعادت الى سيدها القديم بعد فترة قصيرة أمضتها بلا حاكم ، وكان اسمه بليبانوس Plebanus (٤) ، وينتمى الى أسرة غنية موطنها الأصلي بيزا ، ثم استقر بها المقام فى طرابلس ، وكان يدين بسيادته لكفاءة أحد أعمامه : اذ لما كانت سلالة الذكور فى بارونات الباترون قد انتهت فى شخص جويوم (وليم) دوريل ، فان ابنته ووريثته سيسيل لم يكن بوسعها أن تتزوج الا باذن كونت طرابلس الذى كان له الحق فى التصرف فى زواجها بصفته السيد الاقطاعي ، وكان قد وعد بزواجها لفارس يدعى جيرار ريدفورت ، ولكن مبلغ ١٠٠٠٠ دينار بيزنطى دسه سرا فى يده البيزى الثرى حملة على تفضيل الشرير على الفارس ، وهكذا تزوج بليبانوس الوريثة وأصبح سيد مدينة الباترون (٥) . حدث هذا قبل غزو صلاح الدين بعدة سنين ، وكلف انتصار صلاح الدين بليبانوس اقطاعيته وحرثته (٦) ، ولكنه استعادهما بعد بضع سنين . وفى عام ١٢٠٢ منح تجار وطنه الأصلي الاعفاء من الرسوم الجمركية عند الدخول والخروج (٧) . وكان من شأن وثوق البيزيين من الترحيب بهم فى مكان سيده من مواطنيهم أن اجتذبهم الى مدينة الباترون ، كما دفع الجنويين صوب جبيل . ولسوء الحظ لم يرزق بليبانوس بوريث ذكر ، فانقل ارثه من بعده الى أيد

Diplôme de 1168, dans le Lib. jur. I, 230.

(١)

Taf, et Thom. II, 196 et s.

(٢)

Wilbrand ab Olenburg, dans Laurent, Peregrinatores, p. 168; Jacq. de Vitry, p. 1072; Sanut, p. 245; Edrisi, I, 356; Ghistele, p. 263; Asien XVII, 1, p. 584-588; voy. aussi p. 37.

(٣)

Paoli, Cod. dipl. 1, 70, 103, 218, 252, 283; Doc. sulle relaz. tox. p. 65, 79; Lib. jur. I, 523; Tab. ord. teuton, éd. Strehlke, p. 18, 35; Hopf, dans la Revue critique et littéraire 1e déc. 1871, p. 236.

(٤)

Annal. Jan. p. 52; Contin. de Guill de Tyr, p. 51, Lignages d'Ostremer, éd. Beugnot, p. 468.

(٥)

Cont. de Guill. de Tyr, p. 66 D.

(٦)

Doc. sulle relaz. Tosc. p. 83 et s.

(٧)

أجنبية ، وكان خلفاؤه ينتمون الى أسرة أمراء أنطاكية (١) . ولسنا نعلم ما اذا كانوا يحابون البيزنين مثل أسلافهم .

ومن جبيل والباترون ، وهما من البارونيات الصغيرة ، تنتقل الى مقر سبدهما الاقطاعي ، كونت طرابلس . وقد آن الأوان لدراسة موقف هؤلاء الأمراء من الأمم التجارية في غضون الفترة الثانية من تاريخ الدول الصليبية . فبالنسبة الى البنادقة ، لا يوجد سوى وثيقة واحدة في صالحهم ترجع الى تلك الفترة ، مؤرخة الأول من يونية ١٢٩٧ ، وعليها توقيع الكونت بوهمند السابع (٢) ، وتشهد فقط بأنهم يملكون في عاصمة الكونتية مستودعا وحماما وفرنا . وكان من حق الجنوبيين منذ البداية أن يتسلموا ثلث المدينة ، وذلك بموجب المعاهدات ، ولكنهم لم ينالوا حقهم هذا بسوء نية الكونت بترام Betram . وبوجه عام وجدوا الكونتات الأوائل غير مستعدين للاهتمام برغباتهم . ويبدو أن وفاة ريموند الثالث قد فتحت عهدا أكثر ملاءمة لمصالحهم : فقد انتقلت الكونتية الى أيدي أمراء أنطاكية ، وكان بوهمند الرابع قد تزوج لأول مرة بلاسنتيا Placentia ابنة هوج امبرياكو Hugues Embriaco سيد جبيل ، فهي من ثمة جنوية ، وأثمر هذا الزواج بوهمند الخامس . والواقع أنه في عام ١٢٠٣ حصل السفيران الجنوبيان لامبرتو فوناري ، وبلمستو ليركاري من بوهمند الرابع على وثيقة تضمن لمواطنيهما الحرية المطلقة في مزاولة التجارة ، والاعفاء التام من الرسوم الجمركية ، ومحكمة قنصلية خاصة (٣) . وفي عام ١٢٠٥ وقع حادث كان من شأنه أن يحسن موقف الأمير : ذلك أن كونت مالطة الذي تحدثنا عنه قبلا كان قد بعث الى مياه رومانيا (الأرخبيل) أسطولا صغيرا قوامه ثلاث سفن بقيادة الفيكونت الامانوس (أرمانوس) ، والبرتس جالينا ، للهجوم على أعداء جنوا ، فواصلت سفينتان منها الى سوريا ، ونزل بحارتهما وعددهم ٣٠٠ رجل في طرابلس ، ووضعوا أنفسهم تحت تصرف بوهمند الرابع ، وساعده في الخضاع تابع متمرّد يدعى رينوار Renoart (٤) ، سيد نفين .

(١) Ducange, Familles d'Outremer, éd. Rey, p. 258 (Doc inédit sur l'hist. de la France).

(٢) Rey, Recherches hist. et géogr. sur la domination des Latins en Orient, Paris 1877, p. 42-45.

(٣) Canale, Nuova istoria di Genova, II, 304 et s.; Olivieri, Carte e cronache, p. 59.

Annal Jan, p. 124 et s.; le Contin de Guill. de Tyr, p. 315; Sanuto, p. 205.

- يقول المؤلفان الاخيران أن جريمة رينوار كانت في خطبته ابنة سيد جبل - عكار دون الحصول على اذن بذلك من سيدة كونت طرابلس ، ولهذا السبب لقي جبل عكار مصير نفين .

Ducange, Familles d'Autremer, p. 414

(٤)

وهي مدينة تقع على مسافة بضعة فراسخ جنوبى طرابلس (١)، وفكوا الحصار عن مدينة جبيل التي كان يطوقها المسلمون وقتئذ (٢) . وأضاف كونت مالطة على هذه الخدمات اعانة مناسبة تبلغ ألفى دينار فضى بيزنطى وأعطى بوهمند لصالح كونت مالطة ومواطنيه الجنوبيين اقرارا منه بهذا الجميل وثيقة مماثلة لتلك التي حصلوا عليها منذ سنتين (٣) .

ولم يكن للبيزنيين علاقات طيبة مع كونتات طرابلس . وكان أصل الخلاف نزاع قام بينهم وبين أسقف طرابلس : فقد كان لهذا الأسقف حق فى ثلث ايرادات الجمارك ، وكان البيزيون قد حصلوا فى عام ١١٨٧ على اعفاء كامل من الرسوم ، ولكن الأسقف أنكر صحة الاعفاء فيما يختص بالثلث الذى يستحقه ، ورفض البيزيون من جانبهم أن يدفعوا ، واحتكموا الى بوهمند الرابع الذى وافق مؤقتا ، فى انتظار قرار المحاكم ، الا يضع أموال البيزنيين تحت الحراسة ضمانا لمطالب الأسقف ، ولكنه أضاف أنه اذا قدم له الأسقف حججا كافية ، فانه سوف يحكم له بما طلب ، وهذا ما يبدو أنه حدث بالفعل . ومن هنا نشأ نزاع خطير . وأخيرا فى عام ١١٩٩ قرر البيزيون أن يدفعوا للكونت بمثابة تعويض عن الاضرار التى أوقعوها خمسة آلاف دينارا بزنطيا ، ويدفعوا ثلاثة آلاف لرعاياه ، كما تعهدوا بأن يدفعوا بالتدريج علاوة قدرها أربعة آلاف دينارا كضريبة تفرض على البضائع . أما الكونت فقد أعاد اليهم بيوتهم ومحكماتهم واعفاهاتهم ، ولكنه أعلن أنه اذا ارتكب البيزيون المقيمون خارج طرابلس أعمالا عداوية ضده ، فانه يحتفظ لنفسه ، ازاء البيزنيين المقيمين فى طرابلس بالحق ، لا فى اعتقالهم ومصادرة أموالهم ، ولكن فى طردهم من البلد فى مهلة قدرها ثلاثة شهور . ولا يبدو أن الأمور وصلت الى هذا الحد ، وواصلت المستوطنة حياتها العادية ، بل ان الكونت بوهمند الخامس منحها فى عام ١٢٣٣ وثيقة تؤيد الامتيازات اللذين منحهما جده ريموند الثالث (٤) .

وازداد عدد المستوطنات المستقرة فى طرابلس بانشاء مستوطنة من تجار مونيبيليه ، وأفرد لهم الكونت بوهمند الخامس حيا فى المدينة ودارا لقنصلهم . وكان مرخصا لهذا القنصل بالفصل فى المنازعات بين مستوطنى مونيبيليه ، أو بينهم وبين مستوطنى جنوا وبيزا . ولم يمنح بوهمند المستوطنين الاعفاء الكامل من الرسوم على المبيعات والمشتروات والمرور ، ولكنه خفضها لصالحهم الى ثلث

-
- (١) Sanuto, Secr. fidelium-crucis p. 85, 245 ; Brevidenbach (Reyssbuch des heil. Landes p. 65, 6) et Burchard (éd. Laurent, I.c. p. 28).
 (٢) Les annal. Jan, I 1.c.
 (٣) Lib. jur. I, 522 et s.
 (٤) Les trois diplômes des Doc. sulle relaz. tosc. p. 65, 79, 99.

القيمة المعتادة . ومع ذلك كانت كل هذه الامتيازات مشروطة ، فلكى يستمر الانتفاع بها ، كان على مونبيلييه أن ترسل الى طرابلس كل سنة سفينة يسيرها طاقم من أربعين بحارا على الأقل ، وتحمل شحنة بضائع لا تقل عن ٨٠٠ طن (١) . وفي عام ١٢٥١ حصل بورجوازي قوى النفوذ فى مونبيلييه ، يدعى بتروس دى تيركو (٢) على امتيازات جديدة لمواطنيه ، مما يحملنا على الافتراض بأن التجارة كانت نشيطة جدا بين المدينتين فى أواسط القرن الثالث عشر ، وربما حتى استيلاء المسلمين على طرابلس .

وقاست اماره انطاكية من حملات صلاح الدين أكثر مما قاست كونتية طرابلس ، ولم يعد الأمراء يملكون خارج عاصمتهم أكثر من بضعة قصور حصينة . وحتى بعد وفاة صلاح الدين لم يكن فى مقدورهم أن يعوضوا خسائرهم لأن جيرانهم سلاطين حلب المحاربين الأشداء أبناء صلاح الدين وخلفائه لم يتركوا لهم وقتا للراحة . من ذلك أن ميناء جبيل ولاوديكييا (اللاذقية) وكل الاقليم المتوسط الذى فتحه صلاح الدين فى عام ١١٨٨ (٣) بقيت فى أيدي المسلمين ، باستثناء فترات قصيرة ، وكان الطريق الوحيد الذى تستطيع به الرقعة الوحيدة الباقية من اماره انطاكية أن تتصل بالبحر هو طريق السويدية (ميناء سان سيميون) . ولما كانت الامارة الصغيرة كائنة بين أرمنيا المسيحية وسوريا المسلمة فانها كانت تعاني من ضغط جيرانها . ومع ذلك احتفظ الجنويون والبيزون زمنا طويلا بمستوطناتهم فى انطاكية ، ومعهم فيكونتاتهم (٤) .

وثمة وثيقة تثبت أن الجنويين كانوا يملكون فى عام ١٢٦٤ كنيسة القديس يوحنا St. Jean والحي المجاور لها ، وكانت الكنيسة والحي قد منحهما لهم بوهمند الأول بعد الفتح مباشرة (٥) ومنح آخر الأمراء النورماندين مستوطنى الأمتين امتيازات تتعلق باختصاص محاكمهم وتسوية ضرائبهم (٦) . وعلى العكس من ذلك لم يعد هناك أثر للبنداقية : ومن الراجح أنهم توقفوا عن مزاوله تجارتهم مع أنطاكية ، كذلك لا يبدو لنا أن الأمم التجارية التى بدأت وقتئذ تزور سوريا فكرت فى أن تنشئ بها مستوطنات . حقا ان بيتروس دى نيريكو من مونبيلييه ، الذى صادفنا اسمه قبلا قد ذهب الى بلاط أمير انطاكية فى عام

Germain, Hist de la commune de Montpellier II, 513 et s. (١)

Germain, du commerce de Montpellier I, 214 et ss. (٢)

Itinerar. R. Ricardi p. 26; Weil, Gesch. d. Chalif. III, 407 et s. (٣)

Lib. jur I, 577; Doc. sulle relaz. tosc. p. 90. (٤)

Canal II, 307. (٥)

Le Lib. jur I, 364, 432, 577; les Doc. sulle relaz. tox. p. 80, 90 et s. (٦)

99 et s.

١٢٥٠ (١) بأمر سيد موطنه ارضلى جايم الأول ayme ملك أراجون ليتفاوض معه فى شئون تجارية ، ولكن الموضوع كان يتعلق بالحصول على شروط أكثر ملاءمة فى كونتية طرابلس التى كان يحكمها وقتئذ بهموند الخامس ، لا فى امارة انطاكية . وقد رأينا أن هذه المأمرية قد حظيت بكل النجاح المنشود (٢) .

ذكرنا الى الآن المدن التى احتفظت الحركة التجارية فيها بنشاطها بنوع ما خلال الفترة الثانية من وجود الدول الصليبية ، كما بينا مختلف الأمم الغربية التى كانت تشغل السوق فى كل منها . ومع ذلك بقى علينا أن نتحدث عن الاسبان والفرنسيين فى الجنوب ، ذلك لأن بضع الكلمات التى ذكرناها هنا وهناك لا تكفى لتغطية فكرة عن أهمية الدور الذى لعبه هذان الشعبان فى سوريا .

أما الاسبان فانهم لم يسهموا فى الحروب الصليبية الا بنصيب قليل نسبيا (٣) ، ولم يكن لهم حاجة للخروج من بلدهم لمحاربة المسلمين . وكانت المدينة التى قدر لها أن تفوق ذات يوم سائر المدن فى شبه الجزيرة بنشاطها التجارى وقوتها البحرية ، برشلونة ، كانت ملزمة بأن تظهر ما حولها من أماكن قبل أن تطالب بنصيبها من المزايا التى جعلت الأمم التجارية تسعى للحصول عليها فى سوريا . فالواقع أن المغاربة ، وهم عمال مهرة ، وبحارة أكفاء ، وقد اتخذوا مقاما لهم فى طرطوس ، وفالنسيا ، والميرية ، (المرية) (٤) ، وجزر البليار كانوا منافسين خطرين لمدينة برشلونة ، وأضحت جزر البليار أوكارا للقراصنة الذين كانت جبرتهم ثقيلة الوطأة ، ليس على سكان برشلونة فحسب، ولكن وبوجه عام على كل المسيحيين فى الجزء الغربى من البحر المتوسط . وفى عامى ١١٤٧ ، ١١٤٨ نظم الاسبان والجنويون نوعا من الحروب الصليبية ، واتجهت قواتهم المشتركة أولا صوب الميرية واستولت عليها ، ثم الى طرطوس التى لقيت المصير ذاته . وكان هذا كسبا ارتاحت له برشلونة ، ولكنه شئ قليل بالنسبة الى النتائج التى حصل عليها فيما بعد جايم الأول فى سلسلة من الحملات المظفرة : فقد استعاد هذا الامير من المسلمين جزر ماجورقا (١٢٢٩) ، ومينورقا (١٢٣١) ، وعلى القارة مملكة فالنسيا (١٢٣٥) . ومن هذه الآونة وجدت برشلونة نفسها محاطة بحزام عريض من البلاد الصديقة ، وتيسر لأسطولها أن ينطلق صوب الشرق دون خوف من أن يعترض طريقه قرصان البليار . وكان العهد الطويل لحكم هذا الأمير العظيم (١٢١٣ - ١٢٧٦) من جميع الوجوه مقدمة لفترة من

-
- Germain, Hist. du commerce de Montpellier I, 220 et s. (١).
Ibid, I, 214 et ss. (٢).
Memorias de la R. Academia de la Historia T.V., Madrid 1817 : (٣)
Mem. da R. Academia de Lisboa 1854.
Colmeiro, Historia de la economia politica in Espana I, 388. (٤)

الرخاء والمجد للمدينة برشلونة . وتصرف هذا الأمير بحكمة ، فسلم ادارة المصالح الكبرى فى المدينة للطبقة البورجوازية التى تشكل طائفة التجار ذوى النفوذ الأكبر . وفى عهده ، وفى كل مرة كان على السلطة الملكية أن تتدخل فى المسائل التى تتصل بالصناعة أو الملاحة أو التجارة ، وهى تفعل ذلك لا للاعاقه أو الوصاية ، ولكن بمثابة حماية وتشجيع . من ذلك أنه فى عام ١٢٢٧ حظر جايم أن تشحن السفن الأجنبية بضائع الى سوريا أو مصر (الاسكندرية) طالما وجدت فى الميناء سفن وطنية (١) . وكان يطيب له أن يرى التجار الأجانب يجرون مشروعات فى برشلونة ، ويصدرون منها منتجاتها ، ولكنه لم يصرح لهم بأن يبيعوا بالتجزئة البضائع التى استوردوها من الخارج (٢) . ولم يكن يطبق أن يرى فى برشلونة منشآت يقيمها أجانب : ففى عام ١٢٦٥ بالغ فى هذا الشعور فأمر بطرد التجار اللومبارديين ، والفلورنسيين والسيينيليين (من سبيننا) ، واللوكيين (من لوكا) ، وحظر عليهم الإقامة مستقبلا فى المدينة لمزاولة التجارة بها (٣) . كان يريد أن تبقى تجارة برشلونة كلها فى أيدي التجار الوطنيين ، وأن يأخذ مئونه من الصناعة الوطنية ، ولا يستخدم سوى وسائل المواصلات الوطنية . ثم ان برشلونة كانت تملك كل ما يلزم لتحقيق هذا الغرض : ففيها طبقة من التجار الأذكاء ، والصناع المهرة ، والبحارة البواسل . وقد يكون من المبالغة الادعاء بأن هذه المدينة لم تبدأ فى تبوأ مكان لها بين المراكز التجارية الا ابان حكم جايم الأول ، فقد جرى هذا منذ زمن بعيد ، ووجد بها بنيامين دى توديل من قبل عددا كبيرا من التجار من كل أنحاء العالم المعروف ، من اليونان وفلسطين والبلاد المجاورة لهما ، والاسكندرية ، وصقلية ، وجنوا (٤) ، ولم تتوقف هذه الحركة فى عهد جايم ، وكان الميناء يأوى على الدوام سفنا قادمة من سوريا ومصر (٥) . ولكن الشيء الذى لم يشاهد حتى القرن الثالث عشر هو الحركة العكسية ، أى انطلاق تجار برشلونة يجوبون العالم دون مساعدة أجنبية . حقا لقد رأيناهم من قبل ينشئون مستوطنة فى صور فى أواخر القرن الثانى عشر ، بالاشتراك مع بعض البروفانسيين ، غير أن دلائل تجارتهم مع سوريا لم تبدأ فى التواتر الا فى عهد جايم . عندئذ تردد ذكر السفن التى تحمل تلك الجنسية مبحرة الى سوريا أو عائدة منها (٦) والأفضل من ذلك أن التعريفات الجمركية المقررة فى ذلك العصر

(١) Campany, Memorias sobre la marina, comercio y artes de Barcelona II(1779) 11 ets.

(٢) Ibid, p. 34, Ordonnance de l'année 1268.

(٣) Ibid, p. 31.

(٤) Benj, de Tudèl, éd. Asher, p. 31 et s.

(٥) Capmany, I. c. p. 11.

(٦) Ibid, I.c. p. 11, 16, 33, 34.

بالذات للمبادلات التجارية بين برشلونة وبعض البلاد المجاورة (١) ، وكذا تعريفات الرسوم المفروضة على المبيعات والمشتريات الجارية في برشلونة ذاتها (٢) ، هذه التعريفات تنهض أدلة بينة على نشاط العلاقات التي كانت قائمة بين هذه السوق وبين الدول الصليبية . فعن طريق سوريا كانت برشلونة تحصل غالبا وبكثير من السهولة على توابل وسط آسيا . ونجد في تعداد المواد المقرر لها هذه التعريفات أسماء التوابل والعطور ، وخشب الصبغة المستورد من آسيا ، ونخلص من ذلك الى أن هذه المنتجات كانت تستورد عادة الى أسبانيا في سفن برشلونة .

وفي جنوب فرنسا ، مدينة كبيرة أخرى ، هي مونبيلييه ، كانت مثل برشلونة خاضعة لحكم أسرة « أراجون » Aragon ، وتاجر مثلها مع الشرق . ولما انتهت سلالة سادة مونبيلييه القديمة خلفهم ملوك أراجون بالوراثة المباشرة (١٢٠٤) . غير أن الطبقة البورجوازية في المدينة لم تفقد شيئا من حريات البلديّة ، فكانت في الواقع تحكم نفسها بنفسها ، إذ كان يحكمها قنصلية منتخبة . ولها دستور ديموقراطي حقيقي . وكان الملوك يقيمون دوما بعيدا عن المدينة ، فتركوا لها من ثمة حرية شبه تامة ، ولم يمنعهم ذلك من الاهتمام برخائها المادي . وكان جايم يفخر بنمو هذه المدينة نمو غير عادي ، إذ أصبحت في عهده من أهم مدن العالم (٣) ، وكان محقا في فخره لأنه أسهم بنفسه في هذا النمو ، كما كان هو الذي شجع اتساع تجارة المدينة في الشرق الأدنى ، وبأمره ذهب بتروس دي يتريكو الى سوريا ، وحصل لصالح مواطنيه في عكا . وفي طرابلس على حقوق واعفاءات جديدة (٤) . وقبل ذلك بعامين بعثت بلدية مونبيلييه باسمها الى طرابلس سفيرين مكلفين برعاية مصالحها التجارية (٥) . وكانت تقيم قناصل في عكا (٦) ، وصور (٧) ، وطرابلس (٨) ، ومع أنها كانت من أواخر القادمين الى سوريا ، فإنها لم تكن تخشى أن يقارن بينها وبين سائر الأمم التجارية .

ولم تكن مرسيليا تتمتع باستقلال تام ، شأنها في ذلك شأن مونبيلييه .

Ibid. p. 3-11.

(١)

Capmany, dans les notes du 2e volume, p. 72 et ss.

(٢)

Diplôme du 8 févr. 1273, cité par Germain, Hist. du commerce de Montpellier I, 12 et s., not.

(٣)

Les-diplômes des années 1251 et 1253, ibid I, 214 et ss., 220 et s.

(٤)

Germain, Hist de la commune de Montpellier II, 513 et s.

(٥)

Germain, Hist du commerce de Montpellier I, 243.

(٦)

Méry et Guindon I, 190 et s.

(٧)

Germain, Hist. de commune de Montpellier II, 513.

(٨)

غير أن سيادة كونتان بروفانس عليها لم تمنعها من أن تدير بنفسها شئونها الداخلية بواسطة موظفين منتجين ، وإن تعقد معاهدات مع دول اجنبية . واستمر هذا الوضع حتى عهد شارل دانجو Charles d'Anjou الذى ألغى انتخاب موظفى البلدية ، ولكن حتى فى عهد أمراء هذه الأسرة ، احتفظت مرسيليا ببعض الامتيازات ، من بينها عقد المعاهدات . وفى أيدينا مراسيم بشأن الاستيراد والتصوير ، والضرائب والجمارك ، حررت فى عام ١٢٢٨ ، فى عصر كان بمرسيليا « بودستات » (محافظون) منتخبون . وتظهر لنا فى هذه المراسيم مدينة تجارية فى أوج ازدهارها ، تقيم علاقات مع الموانئ المسيحية بصقلية وسوريا وأرمينيا من جهة ، ومع الموانئ الاسلامية فى الاسكندرية ، ودول شمال أفريقيا (١) ، وتتضمن فضلا عن ذلك تعريف جمركية ذات أهمية قصوى ، أدرج بها أسماء منتجات أوروبا وشمال أفريقيا مختلطة بتوابل الهند (٢) . وهناك أيضا وثيقة قيمة أخرى أحدث عهدا بقليل (١٢٥٥ ؟) وهى سجل لقوانين ولوائح مرسيليا باسم « الكتاب الأحمر » . وفى هذا السجل أحكام خاصة ، ليس فقط بالمواطنين المقيمين داخل أسوار المدينة ، ولكن أيضا بالتجار الذين يجوبون البحر المتوسط . والذين لهم منشآت فى سبتة ، أو بجاية ، أو الاسكندرية ، أو سوريا . ولا بد أن هؤلاء التجار كان لهم أثناء عبورهم البحر ، وعند إقامتهم فى محطات ما وراء البحار رؤساء يختارون من بينهم يمثلون بلدية مرسيليا ، ويسألون أمامها . ومن بين القناصل الاستعماريين ، كان قنصل عكا يستحق تنويها خاصا (٣) . ولم تكن مرسيليا تملك أحياء تجارية كبيرة فى مدن الشرق الأدنى ، ولكن كان لها فى مختلف الأنحاء منشآت نظمها كتاب القوانين livre des statuts (٤) . ومن العيب أن نبحث فى هذا الكتاب عن تفاصيل بشأن أملاك مرسيليا فى الشرق الأدنى . ولسوء الحظ ، فإن مراسيم الأمراء السوريين التى استبقينا منها كل المعلومات التى ذكرناها هنا شحيحة جدا فى هذا الخصوص . لذلك فليس فى وسعنا أن نعرف الظروف المتعاقبة التى أدت الى الحد من الاعفاءات والأملاك الممنوحة للمرسيليين فى عكا ، وقبرص ، وجهات أخرى فى غضون الفترة التى ندرسها . بيد أنه من الثابت أنه حين سلمت مرسيليا مقاليد أمورها الى شارل دانجو فى عام ١٢٥٧ ، حررت وثيقة بعنوان « أحكام السلام » Chapitres de paix وعد فيها هذا الأمير بمساعدتهم

Méry et Guindon, Hist. de la municipalité de Marseille I, 329, 333, (١)
355, et s.

Ibid. 341-349 ; le supplément à la préface du Cartulaire de l'abbaye de S. Victor de Marseille T. I, p. lxxiii et ss. (Coll. des doc. inéd.);

Rawdon Brown, Colendar of state papers Venetian I, p. 1.

Méry et Guindon IV, 121.

Ibid. II, 205-212.

(٣)

(٤)

بكل ما له من سلطة على استرداد ما كانوا قد فقدوه (١) . وبالفعل حين ارتقى عرش بيت المقدس ، استخدم حقوقه كملك لتأكيد اعفاءات المرسيليين في عكا وفى أماكن أخرى (٦ من سبتمبر ١٢٨٤) (٢) . وتبعاً لهذا يمكن التسليم بأنه من الثابت أن المرسيليين زاروا سوريا واحتفظوا ثمة بامتيازاتهم وأملاكهم الى أن سقطت السيادة نهائياً هناك .

ولم تكن مدن جنوب فرنسا التي بقي لنا أن نتحدث عنها في مثل أهمية مرسيليا ومونبيليه . وقد أرسلت سان جيل سفناً تجارية الى سوريا (٣) ، وأقامت كما رأينا قنصلية في صور . بتكاليف مشتركة مع مدن أخرى من بروفانس ، ومع ذلك فإن هذه المدينة لم تصبح أبداً مكاناً تجارياً . وكان لناربونة Narbonne (*) من قبل معاملات تجارية مع عكا في القرن الثالث عشر (٤) ، إلا أن أوج ازدهار هذه المدينة ، حين بلغ نشاطها التجارى مع الشرق الأدنى أقصاه يقترب كثيراً من العصر الحديث . ونلاحظ الشيء نفسه بالنسبة الى « ايج مورت » Aigues-Mortes أول ميناء استولى عليه ملوك فرنسا في البحر المتوسط . والمعروف أن القديس لويس حرص على أن يحشد أساطيله في ميناء يتبعه ، بحيث يتيسر له أن يطلقها وقتما يشاء . ومن ايج مورت أبحر مع حملته الصليبية في عامي ١٢٤٨ ، ١٢٧٠ ، ولكن كان عليه أولاً أن يشتري هذا الميناء من كبير قساوسة بسالموري Psalmodi . وبدأ بتوسيع الميناء وتحسينه حتى يكون صالحاً لتحقيق غرضه ، ولكنه بعد ذلك وضع مشروعا لتمويل هذا الموقع الصغير المجهول الى مدينة أهلة بالسكان ، ولينشئ بها سوقاً كبيرة لها صلات فيما وراء البحار : وأراد أن يكون لمدينة ايج مورت حيها وقنصليتها في عكا ، وأن تتمتع ثمة بالاعفاء من الرسوم الجمركية أسوة بالجمهوريات الإيطالية (٥) . وليسنا نعلم ما اذا كانت رغبته هذه قد تحققت ، وعلى أية حال فإن ايج مورت لم تكن أبداً مركزاً تجارياً هاماً . ومع ذلك فإن ميناءها أصبح بعد ذلك ملتقى عدد كبير من السفن التجارية ، الأمر الذي أكسب مكتبها الجمركي أهمية كبيرة . ولكن هذه النتيجة ترجع الى ارادة ملوك فرنسا أكثر مما ترجع الى موقع المدينة

Ibid, IV, 322.

(١)

Ruffi, Hist de Marseille, I, 150 et s.; Regeste communiqué par Minieri Ricco, dans l'Arch. stor. ital. IVe série, T. VII, 1881, p. 304; Del Giudice, Cod. dipl. di Carlo d'Anjo, I, 296.

Lib. jur. I, 903.

(٣)

Port, Essai sur l'histoire du commerce maritime de Narbonne (Paris 1854), p. 124.

(٤)

(*) ناربونة كما أسماها العرب مدينة بجنوب فرنسا - المراجع

(٥) ايج مورت - ميناء بجنوب فرنسا - المترجم

Memard, Hist de Nismes, I, Preuves, p. 78, 118.

المناسب (١) ، لقد استعرضنا كل مدن الغرب المسيحي الممثلة في أسواق الشرق الأدنى في غضون الفترة الثانية من وجود الدول الصليبية . وبفضل الكمية الكبيرة من الوثائق الخاصة بهذا العصر ، والتي حفظت الى وقتنا هذا ، أصبح من الميسور لنا الآن أن نقدم عرضاً تفصيلياً لتكوين وتنظيم المستوطنات القديمة والجديدة التي أقامها الغربيون في سوريا ، وكذا الحقوق والامتيازات التي كانت للمستوطنين . وعلينا فضلاً عن ذلك أن ننوه بأكثر من تغير حدث في حياة هذه المستوطنات .

فإذا ما بدأنا بإدارة المستوطنات ، لرأينا أن دور الجاليات التجارية ، وبخاصة الإيطالية في الحياة العامة والسياسية بنوع خاص قد اتخذ أهمية جديدة . كانت هذه المستوطنات تعيش منعزلة حتى ذلك الحين ، تعمل كل منها لحسابها الخاص ، تحت إدارة فيكونتاتها . ثم بدا للجمهوريات التي تتبعها هذه الجاليات أنه قد آن الأوان لإقامة روابط بينها عن طريق نظام مركزي . فبالنسبة الى البندقية ، تميز الانتقال بإقامة موظف كان يسمى أحياناً *bajulus Syrio* وأحياناً *bajulus Venetorum in Syria* وأحياناً *bajulus Venetorum in Occon, in Tyro et in tota Syria* (٢) . وعندما نجده مذكوراً بلقب *Baile d'Acre* أو *Baile à Acre* (٣) فمعنى ذلك أن مقامه الرسمي في عكا ، مقر الملك ، ومركز الحياة السياسية لسوريا كلها (٤) ، ولو أن مستوطنة البندقية في صور كانت أهم من نظيرتها في عكا (٥) . وكان أول هؤلاء « البايالات » *Bailes* البنادقة لسوريا كلها « الذين نملك بشأنهم معلومات كافية لكي نحدد على وجه التقريب ، معتمدين في ذلك على وثائق تحت أيدينا - الزمن المحدد لأداء مهام وظيفته ، كان هذا البايال يدعى بانتاليوني باربو *Pantaleone Barbo* ، وقد استلم وظيفته في الفترة التي كان فيها الكونت هنري دو شامباني يحكم مملكة القدس (١١٩٢ - ١١٩٨) (٦) . وأشهر هذه المجموعة هو مارسيليو جورجيو *Marsilio Giorgio (Zargi)* ، فبعد أن شغل العديد من المهام الدبلوماسية (٧) ، بعث الى عكا في عام ١٢٤٠ . وفي أثناء إقامته التي

(١) Du mège, Mém. sur Aigues-Mortes, dans les Mém. de la Soc. archéol. du Midi de la France, T. II; Em. di Pietro, Hist. d'Aigues-Mortes, Paris 1849; Martins, dans la Revue des deux mondes du 15 fev. 1874.

(٢) Taf. et Thom. II, 203, 261; Lib. jur. I, 612, 818; Taf. et Thom. II, 354, 196; II, 360 et s.; 111, 151.

(٣) Taf. et Thom. III, 32.

(٤) Taf. et Thom. II, 174 (Charte de 1214); Ibid. 11, 390 et s.

(٥) Taf. et Thom. II, 386.

(٦) Taf. et Thom. II, 379, 387, 389; l'Archiv. Venet. XXII (1881), p. 325 et ss.

(٧) Taf. et Thom. II, 319 et ss. (a Rhodes); Archiv. stor. ital. 111e série X111 (1871), p. 228 (à Ravenne).

امتدت حتى عام ١٢٤٤ أو ربما بعد ذلك عمل على استعادة الأموال والحقوق التي كان يمتلكها فيما مضى مواطنوه في عكا وصور ، والتي انتزعها منهم بالقوة بعض الملوك ، أو بعض الأنباغ الذين لا ضمير لهم ، أو جردوا منها بسبب إهمال بعض الموظفين . ولنا أن نتساءل ما إذا كان إلى جانب هذا « البابل » المقيم في عكا ، لم يزل هناك مرؤوس له ، ال *Vicecomes in Accon* ، ويبدو أن هذا محتمل ، إذ نرى من يدعى اندريا فيتاليس *Andrea Vitalis* يشغل في عكا ، في عام ١٢١٤ وظيفة البابل ، وكان موجودا هناك منذ بضع سنين حاملا لقب *vicecomes* (١) (فيكونت) ، أو هل ينبغي أن نسلم بأن الموظف نفسه كان يحمل في وقت واحد لقب بايل الذي أصبح فيما بعد لقباً معتادا ، ولقب فيكونت الأقدم منه ؟

وعلى أية حال فإن مستوطنة صور كان لها مدير محلي يعينه بايل عكا ، ومرؤوس (٢) ، وكان يحمل أيضا لقب بايل (٣) ، وله مساعد بلقب فيكونت . وكان المستوطنون البنادقة في صور ، وكل الأفراد المقيمين في حيهم ، وكذا القادمون الجدد يقسمون يمين الولاء ، ليس فقط لبابل أمتهم « رئيس مستوطنات سوريا كلها » ، وإنما أيضا لكل بايل أو فيكونت مكلف من قبله أو من قبل مفوض آخر عن الدوق بإدارة حيهم (٤) . وكان قنصل بيروت ، وقنصل (وفيما بعد بايل) طرابلس ، (٥) وفيكونت (٩) أنطاكية يخضعون بالتأكيد لأوامر البابل العام .

وأدركت جنوا أيضا ضرورة تركيز إدارة مستوطناتها في سوريا ، ولكن بدلا من أن تعهد بالسلطة إلى شخص واحد ، وزعتها بين اثنين من الموظفين باسم (قناصل) *consules* (٦) *consules et viacomites Januensium in Syria* (٧) ،

(١) 1207., dans Strclke, tab. ordin. Teuton, p. 34 ; 1212, Lünig, Cod. dipl. Ital. I, 2459 et s.

Taf. et Thom II, 361. (٢)

Ibid, 360 et s., 364 ; Thomas, Die ältesten Verordnungen, op. cit., (٣) p. 107 et s., 127 et s.; Chart de 1206, dans Taf. et Thom. II, 12.

Taf et Thom, II, 361. (٤)

Lib. bleg. p. 56 ; Thomas (Die ältesten Verordnungen, op. cit. (٥) p. 107,

à l'année 1279) ; le diplôme de Bohemond VI, de l'année 1277 (Rey. 1.c.)

Lib. jur. I, 366, 400 et s., 405, 665, 688, 1286 : Canale, Nuova (٦)

istoria della repubblica di Genova II, 310 s.; Strehlke, Tab. ord. teuton p. 37 . Lünig, Cod dipl. Ital. I, 1259 et s.

Lib. jur. I, 899, 941; Arch. de l'Or. lat. II, 2, p. 214 et s., 217 et s., (٧)

222; Canale, II, 295, 300, 311; Belgrano, dans l'Arch. stor. ital. Série 11, VII, 2e part., p. 160.

(قناصل وفيكونتات) ، ونجدهما هكذا مثنى مثنى في مجموعة من الوثائق ابتداء من عام ١١٩٢ . وإذا كنا نجد أن وثيقة ما لا تحمل الا اسم واحد من هذين الموظفين العاملين بصفة رسمية ، كما نجد مثالا لذلك في عام ١١٩٠ بشأن من يدعى مورينس Maurinus في عام ١١٩٢ ، وجويل ريسيوس Guill Ricuis في عام ١٢٣٢ ، و (دي اورتو) Gugl. de Orto في عام ١٢٣٣ ، و (بيليترو دي ماري) Pietro de Mari (١) ، فما تلك الا حالات فردية ينبغي الاحتراز من الاستنتاج منها أن جنوا لم يكن يمثلها في هذه السنين الا قنصل عام واحد . والواقع أننا نجد في مناسبات أخرى اسم دي اورتو مقترنا باسم زميله فيراروس ، واسم بيترو دي ماري مقترنا باسم من يدعى بيكاميليو (٢) ولا بد أن الأمر كذلك بالنسبة الى مورينوس ، ويسيوس .

كان هؤلاء ، ممثلو جمهورية جنوا في سوريا يقيمون في عكا (٣) ، شأنهم شأن ممثلي البندقية . وكان هناك أيضا موظفون خصوصيون على رأس مستوطنات عكا وصور وبيروت ، يحملون هم أيضا لقب consules أو vicecomites ، وأحيانا اللقبين معا ، ولا يمنع هذا عادة من وجود لقب واحد فقط (٤) .

وأخيرا ، فان بيزا أيضا نظمت ادارة مركزية لمستوطناتها في سوريا لذات البواعث التي حملت البندقية وجنوا على تنظيم مثل هذه الادارة ، وفي الفترة ذاتها . وكان مقر هذه الادارة في عكا ، ولكنها مدت سلطتها الى طرابلس وأنطاكية (٥) . وثمة وثيقة بتاريخ ١١٩١ ترينا هذه المناصب وقد عهد بها الى اثنين من القناصل (٦) ، ولكن عددهم ارتفع في السنة التالية الى ثلاثة ، وبقي ثابتا على هذا الرقم حتى أواسط القرن التالي (٧) . وفي أثناء هذه الفترة الطويلة ، نجد بطبيعة الحال ، حالات يعمل فيها أحد هؤلاء الأشخاص على انفراد ، أو يشغل وظيفة قضائية دون مساعدة أي من زملائه (٨) . ومنذ عام ١٢٤٨ لا نجد سوى قنصلا واحدا Consul Communis Pisanorum Accon et totius Syrie (٩) .

(١) Lib. jur. I, 366, 400 et s. ; Maslatrie, Hist de Chypre, I, 282 ; Archives des missions scientifiques II, 363.

(٢) Lib. jur. I, 899, 941 et s.; Giorn. ligust, 1877, p. 22.

(٣) Lib. jur. I, 1286.

(٤) Lib. jur. I, 347. A. 1250; Archiv. de l'Ar. lat. II, 2, p. 224; Canale 11, 311; Canal 1. ; Luenig, 1, c.; Archiv. de l'Or. lat. I, 526 et s.

(٥) Doc. sulle relaz. tox. p. 65, 80.

(٦) Ibid. p. 39.

(٧) Strehlke, 1.c. p. 25 ; Doc. p. 80 ; Lünig, 1, c.

(٨) Contin. de Guill de Tyr, p. 443 (à l'an. 1256); Breviar, hist. pis., dans Murat SS. VI, 192 (à l'an 1258) ; Taf. et Thom. III, 151 (à l'an 1277) ; Doc. sulle relaz. tox p. 105 (à l'an 1286).
(٩) Bonaini, Stat pis. I, 51, 334 et s.

ولم يكن ذلك من باب الصدفة ، ولكنه نتيجة لاجراء اتخذته حكومة بيزا ، ويتبين لنا ذلك عند قراءة بعض فقرات اللوائح التنظيمية لبلدية بيزا بخصوص مستوطنات ما وراء البحار . وفي « قرار بلدية بيزا » Breve Pisani communis لعام ١٢٨٦ ، وكذا من قبل في قرار عام ١٢٧٢ ، نجد نصا يتعلق بقنصل عكا بعبارات واضحة تستبعد احتمال وجود عدة موظفين معا في وقت واحد (١) . وبالإضافة الى هؤلاء القناصل الذين تشمل سلطتهم سوريا كلها ، كانت بيزا تقيم أيضا في كل من مدينتي طرابلس وأنطاكية فيكونتا (٢) يحمل أحيانا لقب قنصل (٣) .

ومع البروفانسيين ، نجد تشكيلة أخرى . ففي عام ١١٨٧ تنازل كونراد دي مونفيرا لمواطني سان جيل ومونبيلييه ، ومرسيليا ، وبرشلونة المقيمين في صور عن المبنى المسمى « القصر الأخضر » وفرن ، وكوخ . ومن المرجح أن عدد التجار الذين ينتمون بأصلهم الى كل واحدة من هذه المدن لم يكن بكاف ليسمح لهم بتشكيل مستوطنة خاصة بهم وحدهم ، لذلك كان يضمهم « جالية بروفانسية مختلطة » يدير شئونها ستة أو سبعة قناصل (٤) ، ومحكمة مشتركة يرأسها فيكونت واحد (٥) . وها هو أيضا مثل آخر للكيفية التي كانت مدن بروفانس تتألف من أجل الدفاع عن مصالحها التجارية : ففي عام ١٢٣٦ ، توجه « جيرار اوليفيه » قنصل مرسيليا في عكا الى بلاط هنري الأول ملك قبرص بصحبة شخص يدعى ريمون دو كونش ، يمثل مونبيلييه بصفة سفير على ما يبدو ، لا بصفته موظفا استعماري ، وعقد مع الملك معاهدة تجارية باسم مدينتي مرسيليا ومونبيلييه وجاليات بروفانسية أخرى (٦) . ومع ذلك فان اجتماع البروفانسيين تحت ادارة قنصل مشترك لم يكن أمرا ثابتا بقدر ما هو ثابت في مدينة صور . وقد رأينا أنهم كانوا في عكا يقطنون في شارع واحد ويترددون على كنيسة واحدة ، الا أن المستوطنين من مرسيليا (٧) ، ومن مونبيلييه (٨) ، كان لهم ثمة قناصلهم . وقد حصل المرسيليون في بيروت ومستوطنو مونبيلييه في طرابلس بموجب معاهدات خاصة على حقهم في أن يكون لهم قناصلهم (٩) .

Bonaini, Stat. pis. I, 51, 334 et s.

(١)

Doc. sulle relaz. tox. p. 65, 91.

(٢)

Ib. p. 90.

(٣)

(٤) لا ندرى كيف كانت المدن الأربع توزع فيما بينها هذه الأماكن القنصلية الستة أو السبعة .

Méry et Guindon, I, 190 et s.

(٥)

Ibid. I, 419 et s.

(٦) سوف نتكلم فيما بعد فيما يختص بقبرص .

Méry et Guindon I, 194 et s., 419; Bibl. de l'école des chartes 2e série, 111, p. 210.

(٧)

Bibl. de l'école des chartes, I, c.

(٨)

Méry et Guindon I, 287 et s.; Germain, Hist. de la commune de Montpellier 11, 513 et s.

(٩)

وقد أتيح لنا من قبل أن نلمس عرضا مسألة القناصل هذه ، وقلنا انه كان من غير المقبول عند ملوك الامارات الصليبية أن يكون عندهم قناصل تكفل لهم بعض المعاهدات حرية التصرف باعتبارهم قناصل قادمين من بلاد بعيدة ، ومن ثم لا يهتمون في أداء وظائفهم الا بتعليماتهم الخاصة ، وتصديق أعضاء مجالسهم . وانا لنزداد شعورا في غضون الفترة التي ندرسها باهتمام أمراء سوريا بانتزاع الأشخاص والمسائل القانونية من القضاء القنصلي ، واحالتها الى المحاكم الاقليمية وكانت المعاهدات المبرمة في الأصل تقوم عقبة كؤود في سبيل تحديد سلطة القضاء القنصلي على هذا النحو ، سواء بصفة رسمية أو ضمنية ، وكانت تنص على أن يحال الى القناصل كل الأفراد المقيمين في دائرة القرية ، مهما كانت جنسيتهم (١) ، وبالنسبة الى كل الجرائم على اختلاف أنواعها ودرجة خطورتها . ولوضع حد لهذا الوضع ، لم يكن أمام الأمراء من سبيل سوى استخدام القوة . فقيما يختص ببعض الأشخاص ، بدأ بعض ملوك الفترة الأخيرة بأن يعلنوا بأن يخضع السوريون واليهود المقيمون في الثلث البدقي في صور لمحاكمهم الخاصة ، وكان هذا الحكم غير قانوني بشكل صارخ ، ولم يكن ثمة بد من الغائه . أما يوحنا دو مونفور أمير صور فانه كان أكثر فطنة ، اذ تعامل حسب الأصول مع البندقية ، وتوصل بهذه الطريقة في عام ١٢٧٧ الى أن ينتزع من القضاء القنصلي الاتباع والبورجوازيين من رعاياه المقيمين في هذا الثلث (٢) . وبالنسبة الى الجرائم ، وضع حدا لاختصاص المحكمة القنصلية في صور لفترة ما . فقد انتزع مرسوم لأحد ملوك القدس لا نعرف اسمه من اختصاص هذه المحكمة حالات السرقة والقتل . وفي فترة لاحقة لم يعد هناك أثر لهذا القيد ، ورأينا « البابل » مرسيوليو جورجيو يتولى دون نزاع محاكمة اللصوص والقتلة . ولم يتردد يوحنا دو مونفور البتة في أن يمنح البنادقة القضاء المدني والجنائي دون أي قيد (٣) . غير أن الجالية البندقية في صور كانت محمية في كل الأحوال بالشروط الملزمة لها بنوع خاص والواردة في معاهدة عام ١١٢٥ . وفي الفترات اللاحقة ، وبخاصة تلك التي نحن بصدددها ، في المعاهدات المبرمة بين بعض أمراء سوريا وبعض أمم الغرب التجارية ، كان الأوائل يحتفظون دائما لأنفسهم بالحق في أن يحيلوا الى محاكمهم المسوطنين المتهمين بجريمة قتل ، استنادا الى قوانين مملكة القدس التي تتضمن نصا صريحا يحيل الى محاكم الملك كل المستوطنين المتهمين بجريمة قتل (٤) . وكان المركيز كونراد دو مونفور يصرح لمواطني جنوا المقيمين في صور بأن تتولى محكمتهم الخاصة الفصل في المسائل

Taf. et Thom. J. 88.

(١)

Ibid. 11, 358 et s.

(٢)

Ibid. 111, 152; Doc. sulle relaz. tox. p. 14; Lib. jur. I, 433.

(٣)

Taf. et Thom. 11, 358; 111, 152.

(٤)

المتعلقة بالواقع كلما كان أحدهم متهما بالقتل أو السرقة أو الاختلاس ، وهذه حالة استثنائية (١) . غير أن فيليب دو مونفور الذي جاء بعده دفع بروح المصالحة الى أقصى حد بأن ترك للمحكمة الجنوية حق اصدار الحكم حتى بالنسبة الى أخطر الجرائم ، ولم يحتفظ لنفسه الا بحق التنفيذ (٢) .

وثمة ساحة خصبة للنزاع بين السلطات الاقليمية والسلطات القنصلية ، تلك هى ساحة الشرطة . ففي البداية كان المسلم به أن الجالية وحدها هى المكلفة بالاشراف على التجارة وضمان الأمن العام فى داخل حيفا ، ومع ذلك فمن عهد يوحنا دو برين Jean de Brienne ، أى منذ عام ١٢١٠ ، أجاز رئيس الشرطة الملكية فى صور لنفسه أن يتدخل فى مراقبة الأسواق ، حتى فى حى البنادقة ؛ واشتكى البابل مرسيليو من هذا التعدى على حقوق أمته ، وطرد الدخيل ، واستبدل به رجال شرطة خصوصيين من الجالية (٣) .

وأخيرا ، فإن الاعفاء من القضاء الاقليمى جلب ضمنا للمستوطنين ذات الحق بالنسبة الى المحاكم الخاصة المقامة فى هوانىء مملكة القدس للفصل فى المنازعات المتعلقة بالجمارك ، وكانت هذه المحاكم تسمى « محاكم السلسلة » Cour de la chaîne ، ويرجع هذا الاسم الى العادة المنتشرة خاصة فى الشرق

Diplôme de 1190, Lib. jur. I, 358.

(١)

Diplôme de 1264, Archiv. de l'Or lat. II, 2, p. 225 et ss.

(٢)

— هذه الوثيقة حافلة بالمعلومات . ففي فقرة أخرى نرى أن الفصل بين القسم من المدينة الخاص بالمركز دو مونفور وبين الحى الجنوى لم يكن فصلا تاما بحيث لا يستطيع جنود الشرطة فى قسم أن يمرؤا فى القسم الآخر ، ولكن اذا قبض جنود البارون على متهم ، وصرح بأنه ينتمى الى الجنسية الجنوية ، كان عليهم أن يسلموه الى المملكة القنصلية ، والعكس بالعكس .

Taf. et Thom. II, 359 et s.

(٣)

— كان موظف الملك هذا يسمى بالمحتسب ، ويدل هذا الاسم بذاته على أن هذا النظام كله كان موروثا من النظام العربى . فالمحتسب عند العرب شخص نصادفه فى كل حين : وما علينا لى نقتنع بذلك الا أن نتصفح فقرات الكتاب الشرقيين ، وأوصاف الرحلات فى الشرق الادنى ، التى جمعها كاترمير Caatremère فى كتابه عن تاريخ سلاطين المماليك للمقرزى ، الجزء الاول ص ١١٤ ، وكذلك :

les commentaires de Behrnauer dans les journ. asiat. 4e série, XVI, p. 118 et ss., 347 et ss.; XV11 5 et ss.; ainsi que ceux de Freund dans L'ausland, 1879, p. 461 et ss.

— كان للملك بيت المقدس محتسبون ، وفيما بعد ادخل ملوك قبرص هذا النظام فى جزيرتهم

وبقى هذا النظام حتى عصر السيادة الفينيسية . انظر :

— l'Abrégé originaire de Chypre, dans le Suppl. des Assises de Jérusalem II, 237 et s., 243 et s., Lusignano. Corograffia di Cipro p. 80 ; de Mas-Latrie, Hist de Chypre 111, 206 et s., 853; Romanin VI, 281.

يغلق مدخل كل ميناء بسلسلة ممتدة بين برجين (١) . فحين تدخل بضائع في البلد عن طريق أحد هذه الموانئ ، كان يقال انها وردت « عن طريق السلسلة » ، وكانت الدخول الجمركية المقررة في تلك الموانئ تسمى introitus catena (٢) (دخول السلسلة) وعلى ذلك فان عبارة Cour de la chaîne محكمة السلسلة كانت تطلق على محكمة تتولى الفصل في القضايا المتعلقة بالميناء ، أى بجمرك الميناء (٣) . وكان رعايا الأمم صاحبة الامتيازات معافين من قضاء هذه المحاكم ، اما بمقتضى عرف ، واما تنفيذا لنص ضريح في المعاهدات ؛ وكانت هذه هي حال الجنويين في عكا ، وترجع الوثيقة التي تعنيهم الى عام ١١٩٥ (٤) . ورغم هذه الحقوق المكتسبة ، فان الكونت توماس دى اسيرا Thomas de Acerra المبعوث من قبل فردريك الثاني ليمثله في سوريا عام ١٢٢٧ أحال البيزيين الى محكمة ميناء عكا . ورأى قناصل بيزا في هذا التصرف اعتداء على حقوق المستوطنين ، وحصلوا من الامبراطور في عام ١١٢٩ على الغاء هذا الاجراء (٥) وفي المسائل الجمركية ، كان البيزيون على حق لأن يظهرُوا حساسية وريبة لأنهم كانوا يتمتعون في عكا وصور ويوبيه بامتياز خاص مؤداه أن يقيموا بجمرك الميناء ، وبالسوق العامة ، وأبواب المدينة موظفين يختارونهم ، يكلفون برقابة سلوك موظفي الخزانة الاقليمية مع مواطنيهم ، ووضع حد للمطالب غير المشروعة (٦) .

هذا الموضوع ينقلنا من مجال القضاء والادارة الى مجال المالية . وهنا أيضا نجد فروقا كبيرة بين مختلف العصور . فبمقتضى المعاهدات الأولى المبرمة مع الملوك ، كان البنادقة والجنويون يتمتعون في مملكة بيت المقدس بالاعفاء التام من الرسوم الجمركية عند الدخول والخروج ، ومن رسوم الانتاج على البيعات والمشتروات (٧) . وقد منحوا هذا الامتياز اعترافا بخدماتهم في الحروب ضد المسلمين . وفيما بعد حصل المرسيليون على هذه الامتيازات للأسباب

- (١) Theophanes, Chronogr. p. 567 ; Isstachri, p. 68 ; Cheuseddin, les
Nouv. annal des voyages, 1864, II, 293; Ibn-Batouta, 1, 131, 183; Benj.
de Tudél, 1, 63; Guill de Tyr, XX, 16; Contin. Guill. de Tyr, p. 108,
266, 326 et s; Sanuto, p. 171; Chron. Ursperg. dans Pertz, SS. XXIII, 300
Taf et Thom. II, 231; Lib. jur. I, 358, 401, 665; Taf et Thom. I, 141; (٢)
Doc. sulle relaz. tox. p. 33; Archiv. ed l'Or. lat. II, p. 145, 166 et s.
Beugnot, Assises de jérusalem, II, Introduction, p. xxiii. (٣)
Lib. jur. I, 411. (٤)
Doc sulle relaz. tox. p. 96. (٥)
Doc sull relaz. tox. p. 27, 29, 30, 37, 38 ; Assises de Jerus II, (٦)
p. xxiv, 171, 173 et s., 178 485; Taf. et Thom. I, 86, 141; II, 231, 397;
Lib jur. I, 358, 401, 665; Doc sulle relaz. tox. p. 33. Méry et Guindon
I, 288; Histoire de la commune de Montpellier II, 514; Paoli, Cod.
dipl. I, 103, 122, 130; Archiv. de l'Ar. lat. II, 2, p. 144, 146, 147, 167;
Strehlke, Tab. ord. teuton p. 6-8, 13 et s., 17, 52-55, 75.
Lib. jur. I, 16; Taf. et Thom. I, 86. (٧)

ذاتها (١) . ومع ذلك ، وبمرور الزمن ، تناسى بعض الملوك التزاماتهم الأدبية قبل هذه الدول البحرية ، فلم يروا في هذه الامتيازات سوى شيء واحد ، ذلك هو الاعفاء الممنوح بنوع خاص للأمم الأكثر ثراء ، وما يترتب على ذلك من نقص في الخزانة . ومن ثم عكفوا على الحد من هذا الاعفاء ، وهاجموه من جهتين في وقت واحد . فمجموعة قوانين بيت المقدس Assises de Jérusalem وضعت كمبدأ أن البضائع المصدرة برا من المملكة الى بلاد اسلامية يجب أن يدفع عنها رسم ، وحدد هذا الرسم بالنسبة الى البيزنطيين بمقدار « كاروبل » Carouble واحد ، أى $\frac{1}{4}$ من لدينار البيزنطى (٢) . ولما كان البنادقة يتمتعون باعفاء مطلق ، فلم يكن من الجائز تطبيق هذه المادة عليهم . ومع ذلك فرض عملاء الملك ضريبة على البضائع التى يصدرها التجار البنادقة من عكا الى دمشق أو الى مدن اسلامية أخرى (٣) ، وطبقوا الاجراء ذاته على الجنويين . وطبقا لمرسوم بتاريخ ١١٩٢ فرضت عليهم ضريبة عند انزالهم من البحر بضائع واردة من بلاد اسلامية أو مرت ببلاد اسلامية ، وبيعهم هذه البضائع فى صور (٤) . ومن جهة أخرى كان عملاء الملك فى القرن الثالث عشر يقتضون رسم مرور على البضائع القادمة فى سفن بندقية الى موانى المملكة ، اذا لم يجد أصحابها من يشتريها وأرادوا اعادة تصديرها الى مكان آخر (٥) كان هذا أيضا تطبيقا غير مشروع ، اضرارا بالبنادقة، لنص قانونى خاص بالسوريين والمسلمين (٦) . وشيئا فشيئا ازدادت القيود على مبدأ الحصانة العام ، ووصلت الأمور فى عام ١٢٤٤ الى درجة اضطرت معها المفوض القضائى le bailli مرسيليو جورجيو الى الشكوى بمرارة : ولا نعلم فى الواقع الى أى مدى سمعت شكواه .

قلنا من قبل ان البيزنطيين لقوا منذ البداية معاملة أقل حظوة من المعاملة التى لقيها من سبق لنا ذكرهم ، فلم يتمتعوا بالاعفاء من الرسوم الجمركية ، اللهم الا فى مدينة صور التى فضلوا الاقامة بها . وفقط ، بعد انقضاء زمن طويل ، عند استعادة عكا ، واحتلال البلاد التى أعيد فتحها على قواعد جديدة ، حصل البيزنطيون على وعد بمعاملة أفضل فى عكا ويافا (٧) . وليس لدينا ما يحملنا على الظن بأن هذا الوعد لم ينفذ .

- | | |
|---|-----|
| Méry et Guindon I, 182, 183 et s., 194 et s. | (١) |
| Assises, éd. Beugnot II, 174; ibid, 173. | (٢) |
| Taf. et Thom. II, 398. | (٣) |
| Lib. jur. I, 405 et s. | (٤) |
| Taf. et Thom. op. cit. | (٥) |
| Assises de jérus. II, 174. | (٦) |
| Doc. sulle relaz. tox. p. 6. et s., 28 et ss. | (٧) |

— فى عام ١١٥٧ لم يرد الكونت أمورى ، كونت عسقلان ، وسيد يافا الى البيزنطيين الا نصف الضرائب التى يدفعونها من قبل .

واقفتى كونتات طرابلس اثر ملوك بيت المقدس ففتحوا الايطاليين الذين كانوا يظهرون كثيرا فى البلد ، أى الجنويين والبيزيين والبنادقة (١) الاعفاء من الرسوم الجمركية عند الدخول والخروج . وقد رأينا بالنسبة الى أهالى مونييليه أن الرسوم على المبيعات والمشتروات وكذا رسوم التراخيص قد خفضت الى ثلث التعريفة المعتادة (٢) .

وفى اماره أنطاكية ، كان الجنويون وحدهم هم الذين يتمتعون منذ البداية بالاعفاء الكامل من الضرائب المفروضة على التجارة (٣) : وكان البنادقة والبيزيون يدفعون بعض هذه الضرائب التى كانت مرتفعة القيمة ، ومع ذلك فمن كثرة مساومتهم مع الأمراء ، انتهوا الى الحصول أولا على خفض هذه الضرائب ، وأخيرا الى الغائها (٤) . الا أن هذا الاعفاء فقد كل قيمته عند الجنويين والبيزيين عندما فرض الأمير روبن Roupen فى عام ١٢١٦ ضريبة ثقيلة على البضائع التى تستوردها هاتان الأمتان الى ميناء سان سيميون ، وهو الميناء الذى يصل العاصمة بالبحر (٥) . وأسهم هذا التشدد من جانب أمراء أنطاكية دون شك فى أن تقل زيارات التجار الغربيين لشمال الامارات الصليبية حتى صارت نادرة ..

قلنا ما فيه الكفاية عن الوضع الداخلى للمستوطنات التجارية ، ولنعد الآن الى تاريخها . ففى غضون هذه الفترة الثانية ، وثق الامبراطور فردريك الثانى وسلطان مصر بعض الزمن علاقات قائمة على تقدير متبادل بينهما . وكانت هذه الفترة نسبيا أصلح فترة للتجارة ، على الأقل لأن الطرفين كفا عن القتال ، واهتم الامبراطور بنوع خاص بتحسين أحواله . ولسوء الحظ ، فإن المنازعات المسلحة مع ملك مصر القوى — باستثناء هذه الهدنة القصيرة — كانت كثيرة ، وسببت أضرارا كبيرة لسكان سوريا . ومن وقت لآخر ، كان يشار الى وصول جماعة من الصليبيين ، كثيرة أو قليلة العدد الى الأرض المقدسة ، وكان القادمون الجدد يتطلعون الى اكتساب المجد بأدائهم أعمالا باهرة ، وأدى ذلك فى كل مرة الى انقطاع حالة السلم الضرورية مع ذلك لاستمرار بقاء الامارات الصليبية . ولم يكن للجيش الصليبية القوة والوقت الكافيان لدعم قواعد سيادة المسيحيين فى سوريا ، بل كان كل يوم يمر يزيد من ضعف هذه السيادة ، وتضييق

Lib. jur. I, 18; Doc. sulle relaz. tox. p. 25 : Rey, Recherches, I.c. (١)
p. 42.

Germain, Hist. de la commune de Montpellier II, 513. (٢)

Ughelli, It. Sacr. IV, 846 et s., 847 et s.; Lib. jur. I, 30 et s., 249 et s. 364. (٣)

Taf. e t Thom. I, 133 et ss., 148, 176; Doc. sulle relaz. tox. p. 6, 15 et s., 80, 90 et s. (٤)

Lib. jur. I, 577; Doc. sulle relaz. tox. p. 90 et s. (٥)

نطاقها ؛ ولم يخف على أحد أنه لابد عاجلا أو آجلا من ترك هذه السيادة للمسلمين . وعجل المسيحيون أنفسهم بوقوع الكارثة بما وقع بينهم من فتن وخلافات كانت طوائف التجار الذين يطمحون في ممارسة نفوذ سياسي ، تسهم فيها بنشاط كبير .

والمعروف أن النزاع بين الجولفيين والجبليين الذي قسم ألمانيا وإيطاليا إلى معسكرين متعادين امتد حتى وصل الشرق ، واشتركت فيه الجاليات التجارية هناك بدافع من أوطانها الأصلية . وحين وصل فردريك الثاني إلى سوريا في ربيع عام ١٢٢٨ . لم يكن مجرد قائد جيش صليبي ، ولكنه كان في الوقت ذاته يطالب بالاعتراف بحقوقه في تاج القدس ، لذلك استقبل هناك بمشاعر متنوعة : بعداء سافر من البعض ، وبرود متحفظ من البعض الآخر ، وود وإخلاص من الأقلية . وأيده البيزيون ، انصار جنسه القدامى ، رغم اعتداء نائبه توماس دي أسيرا Thomas de Acerra على حقوقهم . ومكافأة لهم على إخلاصهم ، وعدهم بتوقيع العقاب على عملائه الذين اجترأوا على الاعتداء على حقوقهم المكتسبة ، وأعفاهم فوق ذلك من كل الضرائب في عكا والقدس (١) . وفي هذه الفترة كان الجنويون أيضا جبليين ، وكان البنادقة وحدهم هم المترددون (٢) . وعند رحيل فردريك الثاني (مايو ١٢٢٩) ترك المارشال ريكاردو فيلانجيري Riccardo Filangieri في منصب الحاكم : ولما كان هذا الأخير قد اعتاد في حكمه أن يسلك سلوك القائد ، فإنه لم يعمل أي حساب للقانون العرفي بالملكة (وأسفر استبداده عن تدمير الكثيرين ، والتف الغالبية من البارونات والبورجوازيين حول يوحنا ديبلان Jean d'Ibelin ، سيد بيروت ، خصم الحاكم . وقام « بابل » البنادقة وقناصل الجنويين والبيزيين بالاتحاد مع بعض الشخصيات بمحاولة للتوفيق (٣) ، ولكن المحاولة فشلت ، وانتهى النزاع الخاص بين ديبلان وبين فيلانجيري إلى حرب عامة (٤) .

وإذا لم تكن على يقين من الاتجاه الذي اتخذته الجنويون ، فإن هذا الشك لم يدم طويلا : ففي شهر فبراير عام ١٢٣١ أرسل فريدريك الثاني إلى نائبه أمرا بأن يقتضى من الجنويين عند نزولهم برا في عكا رسم الميناء ؛ وكان في هذا اعتداء مباشرا على حقوقهم ، ومن ثم رفضوا الامتثال للأمر ، ولما كان تعدادهم

(١) Doc. sulle relaz. tox, p. 96-98, et Huillard — Bréholles, Hist. dipl. Frid. II, III, 131-135.

(٢) Chron. Ursperg, dans Pertz, SS. XXIII, 383; Winkelmann, Friedrich II, I, 389.

(٣) Cont. de Guill. de Tyr, p. 394.

(٤) في خصوص تاريخ هذه الحرب ، نكتفى بالإحالة إلى :

— l'Introduction de M. Huillard-Bréolles, Hist. dipl. Frid. II, à M. de Mas-Latrie, Hist. de Chypre I, 254 et ss. et à Winkelmann, Friedrich II, I, 491 et ss.

وقوتهم يجعلهم مرهوبى الجانب ، فان الحاكم لم يجرؤ على تنفيذ الأمر (١) .
 الا أن هذا كان كافيا لأن يظهر للجنويين ما ينتظرهم فى اليوم الذى يتربع فيه
 الهوهنشتاوفن على العرش . وفى الفترة ذاتها (١٢٣٢) قام على رأس الحكومة
 فى جنوا محافظ معروف بأرائه الجويلفية (٢) ، وتلقى الجنويون فى سوريا
 الأمر بالوقوف جهارا ضد الحاكم ، ومن ثم أرسلوا فرقا عسكرية وسفنا الى
 يوحنا دييلا (٣) . وفى ٢٤ من أكتوبر ١٢٣٣ عقدوا مع الحزب المعادى
 للامبراطورية معاهدة صدق عليها فى نيقوسيا فى الثانى من ديسمبر من ذات
 العام (٤) . وفى هذه المعاهدة التزم البارونات لخمس سنوات ألا يعقدوا أى
 تحالف مع البيزيين دون موافقة الجنريين ، وصدقوا على الامتيازات التى منحها
 للأخيرين يوحنا دييلا رئيسهم فى مدينة بيروت ، وكفلوا لهم امتيازات مماثلة
 فى حيفا ، ونعلم أن هذا الميناء الواقع عند سفح جبل الكرمل له بعض الأهمية
 التجارية بسبب مجاورته لمدينة طبرية (٥) ؛ وكان رئيس هذه المدينة الصغيرة ،
 روهارت الثانى (٦) Rohart II أحد المتعاقدين . وبعد ثلاثة أشهر (١٢ من
 يناير ١٢٣٤) منح ثمة للجنويين امتيازات باسمه (٧) . وهكذا جنى هؤلاء ثمار
 انضمامهم الى الحزب المنتصر ، فى حين اقتسم البيزيون الحظ السئ الذى لقيه
 أنصار الامبراطور . وكان البنادقة آخر من خرجوا من موقف الترقب . وإذا
 كانت جمهورية البندقية لا تميل الى الامبراطور ، فانها كانت تنفر من السير مع
 جنوا خصمها تحت أعلام واحدة . غير أن البابا جريجوار التاسع نجح فى حمل
 الأطراف على قبول وساطته ، وتحت تأثير نفوذه عقدت المدينتان فى عام ١٢٣٨
 معاهدة تحالف هجومي ودفاعي موجه بنوع خاص ضد الامبراطور (٨) . وابتداء
 من هذه اللحظة اتخذت البندقية موقفا صريحا ضده . وكان مقر نائب الامبراطور
 فى سوريا فى مدينة صور . وردا على اعلان الحرب هذا ، عامل البنادقة معاملة
 الأعداء ، وصادر أموالهم وايراداتهم فى داخل المدينة وخارجها . وفى عام ١٢٤٣
 تقرب « بايل » البنادقة مرسيليو جورجيو الى البارونات وأوضح لهم الخطر من

Annal. Jan. p. 176 et s. ,

(١)

Ibid. p. 178 et s.; Voy. Boehmer, Regesta Friderici II p. 154 et s.

(٢)

De Mas-Latrie, l.c. p. 277, 282, 293, 298; Huillard-Bréholles, Hist. dipl. Frid. II, 1, 2, p. 904.

(٣)

De Mas-Latrie, l.c. II, 56-58.

(٤)

M. de Mas-Latrie (Archives des missions scientif. II, 363), Olivieri

(٥)

(Charte et cronache p. 59 et s.),

Canale (Nuova hist. di Genova II, 291); M. Grassi, le Giorn. lig. 1877,

p. 22.

Ducange, Familles d'outremer, p. 267 et s.

(٦)

Lib jur. I, 941 et s.

(٧)

Taf. et Thom. II, 341; Annal. jan. p. 189; Winkelmann, Friedrich

(٨)

II II, lère part. p. 119 et s

تحقيق المشروعات التي وضعها فيلانجييري في عكا ، وهي المقر العام للحزب المناهض للامبراطورية (١) . وبناء على الحاحه ، تقرر أولا اتخاذ كل الاجراءات اللازمة للمحافظة على عكا ، ثم انتزاع صور من أيدي فيلانجييري . واذ سلك البارونات هذا المسلك ، فانهم اتخذوا خطوة أخرى باعترافهم بحقوق اليكس Alix ملكة قبرص في الوصاية على عرش مملكة القدس ، فأقسموا يمين الخلاص لها ولزوجها الثاني راؤول دوسواسون Raoul de Soissons . وكان أول عمل قامت به الوصية اعداد حملة لاستعادة صور . وتنفيذا للوعود الصريحة بضمنان حقوق البنادقة وأملاكهم في المملكة بعامة ، وفي صور بخاصة . وضع مرسيليو جورجيو تحت تصرف الوصية سفينة حربية ، واشترك بنفسه في الحملة ومعه فرقة مكونة من ثلاثين رجلا . وتم سريعا الاستيلاء على المدينة بفضل تواطؤ السكان البنادقة ، واستسلمت القلعة بعد ثمانية وعشرين يوما . وكان هذا آخر نقطة ارتكاز لسلطة آل هوهنشتاوفن في سوريا . وقد أسهم البنادقة بقوة في نجاح الحملة . ولكن بعد أن بذل البارونات الوعود بسخاء ، لم يفوا بعهودهم ، وثار الاحتجاج عليهم ، ولم يسترد حلفاؤهم حقوقهم التي طالبوا بها (٢) .

ورغم هذه الأحوال السيئة ، بقي البيزيون أوفياء للحزب الذي انضموا اليه . ولم يحضر قنصلهم المجلس الذي أعلنت فيه اليكس وصية على العرش (٣) . أكثر من ذلك أنه رغم أن نفوذ آل هوهنشتاوفن كان يؤول الى زوال ، فإن البيزيين لم تزل عندهم الجرأة لأن يرفعوا علم آل هوهنشتاوفن على سفنهم وهي داخله ميناء عكا ، بل ويحملوا هذا العلم في طلائع مواكبهم وهي تسير في شوارع المدينة .

كان لطول النزاع الذي عرضناه آنفا رد فعل على القوة التي كان المسيحيون في سوريا في حاجة اليها لمقاومة العدو في الخارج . حقيقة ان

(١) كان عملاء فردريك الثاني التجاريون يمارسون التجارة بحرية في عكا . ففي عام ١٢٣٩ باع واحد منهم فيها أغذية وتبنيذا ، واشترى بثمان البيع أقمشة صوفية ، وأقمشة قطنية خفيفة ، وأوشحة . وشمل . وكان البعض يشتري في عكا سمكا لحساب الامبراطور . انظر : — (Huillard - Bréholes I.c., V, I, p. 587, V, 2, p. 720 et s., 804).

ويبدو بوجه عام أنه كان يوجد في ذلك العصر حركة تجارية نشيطة بين صقلية وسوريا . نجد مثلا أصواف سورية مذكورة ضمن المواد المستوردة في صقلية . انظر : — Ricc. de S. Germano, ad. an 1232, dans Pertz, SS, XIX, 369.

Taf. et Thom. II, 351 et ss.; les Assises de jérus. éd. Beugnot II, (٢) 399 et s.; Cont. de Guill. de Tyr. p. 422, 426 et s.

(٣) لا نجد سوى اسماء السلطات الاستعمارية الجنوبية والفينسية . Taf. et Thom. II, 355.

الجاليات التجارية لم يكن لها هذه المرة الا أقل نصيب من المسئولية ، ومهما كانت أهمية عملهم ابان الصراع ، فانهم لم يكونوا هم الذين استشاروه ، ولم يؤدوا فيه الدور الرئيسى . ولكن دورهم حل بعد قليل . ذلك أن تنافس الأمم التجارية ، والمنازعات التى أثارتها مسائل الحدود بين أحيائها أسفرت فى الكثير من الأحيان عن معارك دامية . ففى غضون النصف الأول من القرن الثالث عشر ، اقتتل الجنويون والبيزيون مرارا فى شوارع عكا . وفى عام ١٢٠٣ تمكن القاصد الرسولى الكاردينال بيير دى ماشيللو Pierre de S. Marcello بمشقة من ازالة الخلافات القائمة بينهم(١) . وفى عام ١١١٢ أمكن أيضا عن طريق التحكيم انهاء نزاع نشأ من مسألة خاصة بالملكية(٢) . ولكن فى عام ١٢٢٢ تفجرت من جديد العداوة الكامنة ، بعنف أشد من دى قبل(٣) ، وانهزم البيزيون أول الأمر أمام خصومهم ، واضطروا الى التقهقر ، ولكنهم أشعلوا حريقا التهم قسما كبيرا من المدينة ، وعددا من المباني الأثرية من بينها برج مرتفع وجبل يملكه الجنويون الذين أخطأوا فى تصرفهم ، فانصرفوا عن القتال وهرعوا لانقاذ أملاكهم . واستغل البيزيون هذا الخطأ ، يساندتهم الملك ، وعادوا الهجوم ، وسحقوا بدورهم خصومهم . وفى أعقاب هذه الأحداث أرسلت حكومة جنوا أسطولا الى سوريا ، ولكنها لم تستطع الحصول على التعويضات التى طالبت بها عن الخسائر والأضرار التى سببها الحريق(٤) . وغضب الجنويون من ذلك ، وامتنعوا لعدة سنوات عن زيارة ميناء عكا ، وظهر أثر ذلك فى هذا الموقع وفى سائر أنحاء المملكة . وبسأل الإمبراطور فريديريك الثانى مساعيه لدى الجنويين لحملهم على العودة الى ممارسة تجارتهم فى هذه الناحية . ولم يستجب الجنويون أول الأمر ، بل قدموا شكواهم من ضروب الظلم التى ارتكبت فى حقهم ، ومع ذلك امتثلوا أخيرا ، وضمن لهم الإمبراطور ترحيبا طيبا بهم فى عكا(٥) . وفى عام ١٢٤٩ عادت المنازعات الى سيرتها الأولى من جديد بين الامتين ، ونشب بينهما القتال واحدا وعشرين يوما بكل أنواع الآلات الحربية ، وانهزم الجنويون ، وقُتل فى المعارك أحد قناصلتهم . وأخيرا توسط بين المتحاربين يوحنا ديبلان ، سيد أرسور Arsour ، ونائب ملك قبرص ، وانتهت وساطته بعقد هدنة لمدة ثلاث

(١) Innoc. III, epist., éd. Bréquigny, et du Theil, Diplom. ad res Francicas spectantia, 2e part. T.I, p. 408 (cf. gesta Innoc. ibid. p. 96, not. 2).

Luenig. Cod. dipl. Ital. I, 2459 et s.

(٢)

(٣) عين « بايل » البندقية حكما ، ولكن السزبون رفضوا الامتثال لحكمه . انظر :

— Canale, Nuova storia di Genova, II, 297.

Annal Jan, page, 150; Rancioni, Istorie pisane, dans l'Archiv. stor. (٤) ital, VI, I, p. 491 ; Tronei, Annali pisani, p. 184.

(٥) رسالته الى سكان عكا ، من كتابنا دى ٢٨ من مارس ١٢٢٤ . انظر فى :

— Winkelmann, Acta imp. ined. soec. XIII, p. 241).

سنوات (١) . ولم يكن هذا التنافس هو الوحيد الذي خضب شوارع عكا
بالدماء : ففي أواسط القرن الثالث عشر ، جرت مشاحنات بين تجار مونيبياييه
وبين المستوطنين المرسيليين أدت الى اثاره الشقاق بين المدينتين (٢) .

أما من حيث عدد المتقاتلين ، وضراوة الصراع ومدته وخطورة النتائج ،
لم تكن الاشتباكات التي ذكرناها آنفا شيئا الى جانب الحرب الاستعمارية
الكبرى التي نشبت عام ١٢٥٥ واستمرت ضارية عدة سنين في جميع أنحاء
سوريا . كانت البندقية وجنوا تعيشان زمنا طويلا في سلام ، وفي عام ١٢٥١
جددت الجمهوريتان لثمانى سنوات معاهدة صداقة موضوعها حل كل ما بينهما
من خلافات بالطرق السلمية (٣) . وفي سوريا كان الوثام يسود مستوطناتها
طالما اشتركتا في اضعاغ نفوذ آل هوهنشتاوفن . وعندما تحقق هذا الغرض ،
استيقظت الغيرة التي كانت كامنة في النفوس . ففي الوقت الذي كان فيه
سيمون مالوتشيللو Simone Malocello يتولى مهام قنصل جنوا في
عكا (٤) ، قتل جنوى بيد أحد البنادقة ، فثارت ثائرة مواطني القليل ، وهرعوا
الى الأسلحة ، واجتاحوا حي البنادقة ، واعتدوا على سكانه . وتقول « الحوليات
الجنوية » أنه من ذاك الحين أشتد الحقد في نفوس البنادقة ضد الجنوين ،
وكان يكفي أصغر الأشياء لاثارة مشاعرهم المتحفزة على الدوام (٥) . وكان لابد
لمثل هذا الوضع أن يؤدي الى نشوب الحرب ، غير أن المصادر تذكر أسبابا
أخرى لهذه الحرب .

كانت الأراضي التي تحتلها الأمان في عكا مفصولة عن بعضها بعضا بتل
يسمى « مونجوا » Montjoie (٦) ، يعلوه مباني دير مكرس للقديس
ساباس Sabas (٧) ، وادعى كل من البنادقة والجنوين أن لهم على هذا

(١) Contin de Guill. de Tyr, 1, 437; Sanut, Secr. fidel. cruc. p. 218; Epist. Odonis, dans d'Achery, Spicileg. III, 627, Guill. de Mangis, dans le Recueil des hist. de France, XX, 368.

(٢) Vic et Vaissette, Hist. de Languedoc, éd. du mèg, VI, 514 et ss.; voy. Germain, Hist. du commerce de Montpellier I, 222.

(٣) Annal, Jan. p. 138, Lib. jur. I, 1090 et ss.; 1099 et s. Giov. di Bolgaro

(٤) كان مالوتشيللو قنصلا مرتين ، الأولى في عام ١٢٤٩ مع

ومرة ثانية في عام ١٢٥٠ مع Ogerio Ricci . انظر :

— Arch. de l'Or. lat. II, 2, p. 215, 222.

لذلك فان تاريخ حادث القتل هذا غير مؤكد تماما .

Annal, Jan. p. 238.

(٥)

(٦) انظر خريطة عكا في كتاب Sanuto ، وقد اشير الى موقع هذا التل بكلمة Auonzoja

— Mar da Canale, Cronaca Veneta (Arch. stor. it VIII), p. 454, 729.

not. 177; Dondolo, p. 367.

Le contin. de Guill de Tyr, p. 443, 634, et Da Canale p. 454. (٧)

الدير حقوقا ثابتة في وثائق رسمية (١) . وأخيرا استولى الجنويون ذات يوم (١٢٥٦) بقوة السلاح على الدير موضوع النزاع ، واستقر بهم المقام فيه ، وأغاروا على حى البنادقة (٢) . وفي ظروف مماثلة ، تكرر النزاع : فثمة خلاف ثار بخصوص سفينة ، استغله الجنويون في الاستيلاء على كل سفن البنادقة الراسية في الميناء (٣) ، وبمساندة البيزين ، مساندة قوية ، ضغطوا على خصومهم ضغطا شديدا حتى كادوا يلغون بهم خارج المدينة (٤) . ولم يكتف الجنويون بذلك ، بل اقنعوا فيليب دي مونفيراسيد صور ، بدسائسهم ، أن يطرد منافسيهم من الثلث الذي كانوا يملكونه في المدينة (٥) . وبلغ سخط البنادقة ذروته ، وحاولت حكومة جنوا أن تعقد صلحا ، ولكن البنادقة لم يستمعوا اليها (٦) ، وكان السلاح هو الوسيلة الوحيدة الكفيلة بالفصل نهائيا في النزاع . ولم يكن من شأن الاستعدادات للقتال أن تنسى البنادقة الوسائل الكفيلة بأن تضمن لهم النجاح . ففي عام ١٢٥٧ تقربوا الى البيزين ، واقنعوهم بالتخلي عن تحالفهم مع جنوا ، وعقدوا معهم معاهدة تحالف هجومي ودفاعي (٧) ، واستطاع بايل البندقية ماركو جستنياني Marco Giustiniani وهو مفاوض قدير ، أن يكسب في عكا نفسها حلفاء أقوياء ، منهم يوحنا ديبلان نائب ملك قبرص الذي كان فيما مضى يؤيد الجنويين ، وشخصيات أخرى ذات نفوذ . وانقسمت المدينة حزبين متميزين : فكان مع البنادقة بطريك القدس ، وفرسان الهيكل ، وفرسان التيوتون ، والجالية البروفانسية (٨) . وكان مع الجنويين فرسان القديس يوحنا ، وتجار انكونا وكثالونيا (٩) ، ثم ان البلد كله كان يؤيد أيا من الطرفين .

- (١) Sanut, p. 220; Dandolo, p. 365; Lib. jur. I, 1097 et s., 1098 et s., année 1251.; Contin de Guill. de Tyr p. 634;
 (٢) Contin, de Guill. de Tyr, p. 443; Sanuto, I.c.; Dandolo, I.c.
 (٣) Annal (J. and. I.C. : Dandolo, p. 365;
 (٤) Contin de Guill. de Tyr, p. 443; Sanut. I.c.; Dandolo, I.c.; Annal. Jan. p. 239.
 (٥) Dandolo, I.c.; Taf et Thom. 11, 354 et ss.; Assis de Jérus. II, 400; Contin. de Guill de Tyr, p. 423; Mas-Latrie, I.c. p. 338.
 (٦) Annal Jan. p. 238; Mart. da Canale, p. 454; Dandolo, I.c.
 (٧) Dal Borgo, Dipl. pis. p. 72 75; Dand. p. 365, 373.

— تجددت هذه المعاهدة فيما بعد . انظر

- Murat. Antich. tal. IV, diss. 49, col. 403 et ss.
 (٨) معاهدة الصداقة التي عقدها البابل ماركو جستنياني والاميرال البندقي لورنزو تيببولو مع قنصل مرسليليا في عكا ، صدق عليها في اكتوبر ١٢٥٩ دوق البندقية بشرط تصديق مدينة مرسليليا . وكان مندوب من قبل شارل دانجو شاهدا على تحرير المعاهدة بصفته ممثلا لسيد مرسليليا ، وحضر الشخص نفسه التصديق على المعاهدة . انظر :
 — Coll. des doc. inéd., Mélanges historiques, III (1880) p. 11-14.
 (٩) Cont. de Guill de Tyr, p. 445, 633; Da Canale, p. 460; Dandolo, p. 366 et s.; Chron. Pis. dans Murat, VI, 192; Lib. jur. I, 1272; Annal. Jan. p. 239, not. a, 240.

وكان الجنويون على علم بمناورات خصومهم ، ولم يكونوا يجهلون أن البنادقة يضمنون لأنفسهم الامدادات بفضل تحالفاتهم ، فى حين أنهم (أى الجنويين) يجدون مشقة كبيرة فى استمالة بعض الحلفاء ، الذين هم أصلا حلفاء ضعاف ، لا جدوى منهم (١) . ومع ذلك عقدوا العزم على المضى فى الكفاح الى النهاية ، وبدأوا بمعاقبة البيزين لتخاذلهم ، فدمروا برجهم القديم (يقول البعض برجين) . وبعد هذا أعدوا عدتهم لمقاومة أسطول البنادقة الحربى المنتظر وصوله (٢) . ولكن خاب سعيهم ! ذلك لأن الأميرال لورنزوتيبولو Lorenzo Tiepolo أطلق سفنه بأقصى سرعة على سلسلة الميناء فحطمتها ، ودخل الميناء حيث تنتظره السفن الجنوية ، فاستولى عليها ، وأشعل النيران فيها ، ثم أنزل جنوده برا ، واستولى عنوة على الميناء المحصن الذى أقامه الجنويون أمام كنيسة القديس ساباس ، وأشعل فيه النار . وفى اليوم التالى واصل هجومه على الحى معززا ببنادقة عكا الذين أحضرهم البايلى ماركو جستنيانى ، واستولى على شارع مستوف كان الجنويون قد انتزعوه من البنادقة فى بداية الحرب (٣) . ولما سيطر على الحى الجنوى ، مد غزوه الى مون موزار Mont Musard (٤) ، أى على قسم كبير من المدينة . ويرجح أنه وجد فى صفوف أعدائه الكثير من سكان المدينة ، وأراد أن يعاقبهم . وحين وصل الى هناك توقف ومنح العدو هدنة لبضعة أيام . واستغل الأسطول الجنوى فترة الراحة هذه فاجتمع فى صور تحت امرة باسكوييتو ماللوني Pasquetto mallone وفى نهاية الهدنة ، طارد تيبولو الأسطول ، وهاجمه على مرأى من صور ، واستولى على سفينة القائد ، وثلاث سفن حربية ، وأصبح الأميرال الجنوى أسيره . وفى هذه الأثناء أغار البنادقة فى عكا على برج محصن يدافع عنه الجنويون ، واستولوا عليه (٥) .

وللتعويض عن هذه الهزائم ، عزم الجنويون على النضال ، وأطلقوا أسطولا قويا تحت امرة روسو ديلا توركا Rosso della Turca ، وأرسلت البندقية من ناحيتها تعزيزات كثيرة الى أسطولها . وأفضت بنا رواية هذه الأحداث الى عام ١٢٥٨ ، وكانت الحرب محتدمة منذ ثلاث سنوات ، وتهدد باتساع نطاقها

Annal. Jan. p. 240.

(١)

Ibid. p. 239; Dandolo, p. 365 et s.; Da Canale, p. 454, 456.

(٢)

Da Canale, l.c.; Dand. Annal Jan. p. 238.

(٣)

Da Canale, p. 456; Dandolo, p. 366.

(٤)

— كانت مون موزار ضاحية من ضواحي المدينة : انظر خريطة عكا فى مؤلف سانوتو ،

— les Chartes dans Pooli, Cod. dipl. I, 254, et dans Strehlke; Tab.

ord. teuton. p. 73, 83, 117; Contin. de Guill de Tyr, p. 438.

ed de la Vie de S. Loris ... dans les Rec. des hist. de France, XX, 68, 103.

Da Canale, p. 456-460; Dand p. 366.

(٥)

أكثر فأكثر . وقاست مدينة عكا أهوالا كبيرة . فالواقع ، أنه بالإضافة الى البيوت التي احترقت خارج الأحياء التجارية ، ركب المحاربون من خمسين الى ستين آلة حربية دمروا بها القسم الأكبر من الأبراج ، وعددا كبيرا من المنازل ، وبابل من القذائف الحجرية الضخمة . وقد قدر أنهم أهلكوا ما لا يقل عن ٢٠٠٠٠ نفس في المدينة (١) . وبدأ الرأي العام يشعر بالقلق ، وشاع الخوف من أن يغدر استمرار هذا الحال خطرا على وجود الجاليات المسيحية كلها في سوريا . وبهذا الشعور اتجه بعض الشخصيات الكبيرة في البلد ، من رجال الدين ، والعلمانيين الى البابا الكسندر الرابع ، والتمسوا منه أن يفرض وساطته لعقد الصلح (٢) . واستدعى الكسندر مندوبين عن الأمم المتحاربة الثلاث للاجتماع في فيتر ب Viterbe في ٣ من يولية ١٢٥٨ ، وحررت ثمة وثيقة يبدو أنها مقدمة لحل مناسب . وتعهد كل من الأمم المتعاقدة ، عن طريق مندوبها أن تسلم الى مندوب مفوض من البابا - الى أن يتيسر لهذا الأخير أن يجد الوسيلة الكفيلة بإزالة كل العقبات - الأبراج والقلاع التي تملكها في عكا ، دون استثناء ، وأن تنتظر قرار البابا ، وتقبله بامتثال مطلق (٣) (*) .

وبعد توقيع الاتفاقية مباشرة ، بعث البابا الى بيزا رئيس أساقفة سينا حاملا رسالة بابوية يناشد فيها السلطات أن توقف للتو الأعمال الحربية ضد الجنوبيين ، وأن تبلغ قناصلها وقادة أساطيلها ، وكل البيزيين المقيمين بسوريا ، عن طريق بعثتها القادمة في شهر أغسطس على أكثر تقدير ، وقف الأعمال الحربية ، ووصول قاصد رسولى عن قريب ، مكلف باعداد الشروط النهائية للصلح . وفى سبيل الاسراع فى تنفيذ هذه الأمور ، رجا البابا حكومة بيزا فى هذه المناسبة أن ترسل دون ابطاء تعليماتها الى عملائها فى سوريا بشأن المفاوضات التى سوف تبدأ هناك . واستلمت جنوا والبندقية رسائل مماثلة (٤) .

وطبقا لتعليمات البابا ، أرسل مبعوثان بندقيان على سفن جنوية ، ومبعوثان جنويان على سفن بندقية ، بمهمة اعلان الصلح . ولكن منذ بدء قيام الرحلة ، فى « زارا » تلقت السفن البندقية نبأ بأن الأحداث تتلاحق سريعا فى الشرق ، وأن كل شيء قد انتهى (٥) . وحاكم ما حدث : ففى حين كانت المفاوضات جارية فى أوروبا ، انتهز بنادقة عكا فرصة وصول جزء من امداداتهم فاستولوا على

Annal. Jan. p. 239; Da Canale, p. 462; Dandolo p. 366.

(١)

Annal. Jan. p. 239; Cont. de Guill. de Tyr, p. 635

(٢)

Annal. Jan p. 238.

(٣)

(*) فيتر ب Viterbe مدينة بايطاليا ، بلاثيوم - المبرج

Lib. jur. I, 1271 et ss. ; Annal Jan. I, c.; Da Canale, p. 476; Dandolo, p. 367

(٤)

Raynald, Annal eccles. XXII, 30 et s.; Dal Borgo, Dipl. pis, p. 184 et ss. ; voy. Posse, Analecta vaticana, p. 13.

(٥)

ما كان باقيا في أيدي الجنويين خارج حبيهم ، واحتلوا مون موزان ، وكان أسطولهم الكبير في حالة جيدة ، ويستطيع أن ينتظر بهدوء وصول أسطول روسو ديلا توركا الذي أبحر من صور في ٢٣ من يونية ١٢٥٨ ، واتجه الى عكا ، كما اتخذ فيليب دي مونفور الوجهة ذاتها عن طريق البر ومعه حاشية كبيرة من الفرسان (١) . وفي ٢٤ من يونية (٢) خرج الأسطول البندقي ، وعدته ٣٨ أو ٣٩ سفينة حربية تحت إمرة لورنزو فيتبولو ، واندريا زينو ، من ميناء عكا لملاقاة الجنويين . وكان البيزيون تحت قيادة الكونت جويوم (وليم) دو كابراريا Guillaume de Capraria (٣) ، وسار البروفانسيون تحت راية البندقية : وعلى هذا النحو كان الجنويون يواجهون قوات تفوقهم كثيرا . وبعد معركة ضارية ، فروا هاربين في غير انتظام ، تاركين في أيدي عدوهم أكثر من نصف سفنهم (٤) ، وفقدوا أكثر من ١٧٠٠ رجل ما بين قتييل وأسير (٥) . وكانت نكبتهم أشد لو لم تهب ريح ملائمة سهلت هروبهم .

وبينما كان الأسطول يقاتل بحرا ، صد بايل البندقية في عكا هجوما شنه الجنويون . وعندما شهد هؤلاء من فوق برجهم هزيمة أسطولهم ، أدركوا أن موقفهم غدا ميئوس منه ، خاصة وان حليفهم فيليب دو مونفور قد توقف ، وعاد في طريق صور (٦) . وعلى ذلك عزم الجنويون على التخلي تماما عن مستوطنهم في عكا (٧) وتحويله الى صور ومعه قنصلهم . ومع رحيلهم تركوا حبيهم والبرج المحصن الذي شيده على تل مونجوا ، تركوا كل ذلك للبنادقة والبيزين الذين دكوا البرج وهدموا المنازل (٨) ، ثم اقتسموا الموقع فيما بينهم على

(١) Annal Jan, p. 239; Da Canale p. 464-468, 472; Sanut. l.c. p. 221.

(٢) Chronique des Pisans, Murat l.c.p. p. 221; les Annales génoises;

Dandolo p. 361; Wilken (Kreuzz. VII, 397, not. 37); Dandolo, p. 251;

Da Canale, p. 527, 742; Flamin. Cornel. Eccl Venet. X, 69 et s.; XI, 399.

Chron. Pis. dans Murat l.c.

(٣)

(٤) كان الاسطول الجنوى يضم (بما فيه المدد القادم من صور) من ٤٤ الى ٤٨ سفينة

حربية ، استولى العدو على ٢٤ - ٢٦ منها ، انظر :

— Da Canale, p. 468, 470; Dand p. 366 et s. Sanut, p. 22; Annal. Jan, p. 240; Jac. de Voragine, dans Murat, IX, 149; Contin. de Guill. de Tyr, p. 557.

Contin. de Guill. de Tyr, op. cit : Sanuto, op. cit. ; Mart. da Canale, (٥)

— مارت . دا كانالي هو الذي يعطى أدق الأرقام .

Da Canale, 470, 472.

(٦)

Annal. Jan, p. 240; Dandolo, p. 367; Le contin. de Guill. de Tyr, (٧)

p. 443.

Contin. de Guill. de Tyr, p. 443 ; Annal Jan, p. 240 ; Cieogna, Inx. (٨) venez. I; 371-390, 251.

مايبدو (١) . ولما كان البنادقة والبيزيون منتصرين ، فانهم لم يشاءوا مع ذلك أن يحرّموا خصومهم حرمانا تاما من مزاولة التجارة في ميناء عكا ، على ألا ترفع أية سفينة جنوية علمها حين تدخل الميناء : ومن ثم يبدو أن الجنويين لم يكن في وسعهم أن يزوروا الميناء كثيرا .

ولم يترك انتصار البنادقة الحاسم للبابا أية فرصة للتدخل مؤقتا (٢) . حقا ، لقد أوقف البنادقة ارسال التعزيزات الى الشرق ، ولكنهم لم يفعلوا ذلك اكراما لخاطر البابا ، وانما لأنهم لم يعودوا في حاجة اليها : ومع ذلك فانهم بناء على طلب البابا ، أطلقوا سراح الجنويين الذين أسروا في موقعة عكا (٣) ، ولم يكونوا على استعداد للتفاوض أو تقديم أية تنازلات . ورغم كل شيء لم يعدل البابا عن ارسال مبعوث الى سوريا : ففي عام ١٢٥٩ تقدم توماس انيى دى لنتينو Thomas Agni de Lentino ، وهو راهب دومينيكانى ، يحمل لقب أسقف بيت لحم ، تقدم الى عكا بصفته هذه (٤) ، ولكنه صادف متاعب جمة كان لا بد له من التغلب عليها لكي يحقق مهمته السلمية . وأخيرا في شهر يناير عام ١٢٦١ نجح في استقدام الخصوم أمام مجلس مكون من الأعيان الكسبيين والعلمانيين في المملكة ، وكان أول المتحدثين مندوبو قنصلية جنوا في صور ، فناشدوا رسول البابا أن يسلم اليهم ، طبقا لتعليمات البابا الحصون والأبراج التي كانت لهم في اقليم سوريا ، واحتلها البنادقة والبيزيون . واستجاب الرسول البابوى لهذا الطلب ، وأرسل للحال الى يوحنا واندولو ، بايل البندقية ، ويوحنا درايريوس Yean Drapperius قنصل البيزيين دعوة للحضور أمامه وأمام الأعيان في ١٣ من يناير ، وفي ذات الوقت أنذرهم شفاها وكتابيا بأن يسلموا اليه في هذا التاريخ الأماكن المذكورة . واستجاب الموظفان لهذا الاستدعاء ، ولكن لم يوافق أى منهما على المطالب ، وراحا يسوفان منتحلين أوهى الأعذار (٥) . وبالأجمال ، فانا لا نعلم ما اذا أمكن عقد الصلح ، ونحن نشك في ذلك بالنظر الى سوء نوايا المنتصرين . وعلى أية حال لم يطل أمد الهدنة ، ذلك أن الجنويين لم يستسلموا لمصيرهم في سوريا ، ومن ثم تحالفوا مع ميشيل باليولوجس Michel Paléologue لاسقاط الأمبراطورية اللاتينية ، وكان هذا ضربة قاضية على سيادة البنادقة في القسطنطينية ،

Voy. Plus loin le traité de 1288.

Dandolo, I, c.

Dandolo, I.c. ; Da Canale, p. 474, 476.

Contin. de Guill de Tyr, p. 444 et s.; Taf. et Thom. III, 38; Paoli, (١)

Cod. dipl. I, 173 et ss.; Chartes de Notre de Notre-Dame de Josaphat; I.c p. 106 et ss.; Ducange, Familles d'Autremer, p. 371, 788; Mas-Latrie, Hist. de Chypre, I, 447.

Sauli, Colonia dei Genovesi in Galata, II, 190-204; Taf. et Thom. (٥)
III, 39-44.

وازدادت الاحقاد شدة بين الخصمين . ولم تعد سفن البنادقة والجنويين تتلاقى فى عرض البحر دون أن تتقاتل ، ولم تعد الأساطيل التجارية تجرؤ على الخروج من جنوا أو بيزا دون حراسة قوية ، والا وقعت فريسة لسفن العدو الحربية . وكان البنادقة يغيرون على الموانئ التى يرتادها الجنويون ويحاصرونها ويشعلون فيها الحرائق ، والعكس بالعكس .

ومنذ أن أضطر الجنويون الى الخروج من عكا ، جعلوا مركز قيادتهم فى صور ، وكان فيليب دو مونفور قد أبدى لهم الكثير من دلائل الصداقة ، وزاد من تقريبيهم الى شخصه ، وضمهم الى مدينته بمعاهدة تحالف هجومى ودفاعى ، وبمقتضى هذه الاتفاقية أصبحت صور ليس فقط مقرا لقناصلهم العموميين فى سوريا ، ولكن أيضا المرفأ الوحيد الذى يتزود بالبضائع عن طريق أساطيلهم التجارية فى سوريا . وقد سبق أن ذكرنا أن الأمير قد منحهم فى هذا الطرف توسعا كبيرا فى اختصاصات محاكمهم ، ولم يكن ذلك التوسع الا جزءا من المزايا التى منحها اياهم على سبيل المعاملة بالمثل : فهو لم يكتف بالتصديق على حقهم فى ثلث إيرادات الميناء ، وهو الحق الذى كانوا يتمتعون به منذ سنين عديدة ، ولكنه منحهم أيضا جزءا من الضرائب المفروضة على البضائع التى تمر بصور مرورا عابرا لتصدر الى الغرب ، وأعفى ربانة السفن والتجار الجنويين مستقبلا من كل ضريبة تستحق عند الوصول أو الرحيل ، وكل رسم انتاج على المبيعات والمشروبات ، ولم يكن عليهم أن يدفعوا سوى رسم قدره كاروبل ونصف عن كل دينار بيزنطى من قيمة البضائع التى يدخلونها فى حوانيتهم بصور ، أو يعيدون تصديرها عن طريق البر (١) . وفى هذه الظروف كانت صور المركز الرئيسى لتجارة الجنويين ، ومقر أمير متحد معهم بروابط وثيقة من الصداقة ، كانت هدفا ملائما لغارات أساطيل البندقية . وفى عام ١٢٦٤ استولى اندريه باروتشيوي André Barocio الأميرال البندقى على سفينة جنوية محملة قطن ، على رأى من صور ، وأراد الجنويون أن يخلصوا السفينة من قبضة البنادقة ، الا أن فيليب مونفور أنذاهم عن ذلك ، ووعدهم بتعويض يساوى ضعف ما فقدوه ، يأخذه من أملاك البندقية التى وضعها تحت الحراسة كما عرفنا . وردا على ذلك ، شرع باروتشيوي فى حصار المدينة بمعونة قوات أرسلها بنادقة عكا ، الا أن السكان ، يساندهم أشراف عكا ، دافعوا دفاعا شديدا لدرجة أن قرر العدو أنه من الأسلم له رفع الحصار (٢) . واستمر

(١) رأينا فيما سبق أن الدينار (البيزنطى - besant) ينقسم الى ٢٤ كاروبل (Caroubles)

ولزيد من التفاصيل عن النظام النقدي عند الدول الصليبية انظر البحث الذى أجراه :
— M. de Mas-Latrie : Notice sur les monnaies et les sceaux des rois de Chypre : Biblitt. de l'école des Chartes : Série I, V, p. 124.

Is Archiv de l'Or. lat. II, 2, p. 225-230.

(٢)

العداء بين صور والبندقية طوال حياة فيليب دو مونفور (١) . وقسما كبيرا من حياة يوحنا ابنه وخليفته (٢) . وواصل يوحنا هذا سياسة أبيه الخاصة باغتصاب أملاك البنادقة وحقوقهم ، وتمادى فى ذلك الى درجة أثارت حنق البنادقة ، الى أن حدث ذات يوم فى عام ١٢٧٣ حين كان فى عكا ، أن احتج البابل البندقي بيثرو زينو Pietro Zeno على وجوده فى المدينة ، وقام بعدة مساع حتى تمكن من أبعاده (٣) . وأخيرا تم الصلح فى عام ١٢٧٧ ، وأعاد سيد صور الى البنادقة نصيبهم من ثلث المدينة ، وبعمامة كل الأموال التى كانت تمتلكها الجالية والأفراد ملكية شرعية ، ووعد بترميم كنيسة سان مارك وبرج أجراسها على نفقته الخاصة ، وكذا رواق البنادقة ، وإعادة تشييد المباني التى تهدمت . كما تعهد بأن يدفع على أقساط سنوية اجمالى الإيرادات التى استلمها هو وأبوه منذ مصادرتها . وبالنسبة نفسها ، أعطى محاكم البنادقة القنصلية الاختصاص فى القضاء المدنى والجنايى دون قيد ، وصدق على الاعفاء من الضرائب على الأموال والبضائع . وضمانا لدوام السلام ، تم الاتفاق على ايداع كفالات كبيرة ، وتعيين قضاة عرفيين (محكمين) للفصل فى الخلافات التى قد تنشأ (٤) .

وفى حين كان البنادقة يعاملون مدينة صور على أنها عدوة لهم ، كانت عكا فى رأى الجنوبيين المركز العام لقيادة عدوهم . واذا سلمنا بالمعنى الذى يتجلى فى بعض عبارات المؤرخ العربى ابن الفرات (٥) ، فإن فيليب دى مونفور الجنوبيين قد تمادوا فى ابداء مشاعر الكراهية لتلك المدينة حتى انهم اتفقوا مع السلطان بيبرس على أن يشتركوا فى الاغارة عليها . ولكن حين وقف بيبرس تحت أسوار المدينة ، انتظر حضور حلفائه دون جدوى ، ومن ثم اضطر للعودة دون أن يفعل شيئا . وفى أعماق هذه القصة شئ من الحقيقة ، يشهد بذلك مصادره أخرى (٦) . وفى عام ١٢٦٣ عسكر بيبرس زمنا طويلا تحت أسوار المدينة ، وشنّت عساكره معركة دامية ضد السكان ؛ الا أن الحملة التى شنها السلطان وقتئذ كانت غايتها حصون مدينة صفد (٧) ، وليس عكا ؛ ومن ثم فانه مر فقط أمام عكا . ولما ابتعد عنها ، واصل طريقه الى صفد ، ولم يكن بذلك متقهقرا .

(١) Annal. Jan. p. 251, 260; Paoli I, 191, 168 et ss.

(٢)

— مات مقتولا فى عام ١٢٦٩ .

(٢) حكم من ١٢٧٠ الى ١٢٨٣ ، السنة التى توفى فيها :

— Sanut. p. 229; Mas-Latrie l.c. p. 472.

Contin. de Guill de Tyr, p. 464; Sanut. p. 225.

(٣)

Taf. et Thom. III, 150 et ss.; Dandolo, p. 381-393; Contin. de Guill. de Tyr, p. 478.

(٤)

Bibliothèque des croisades, par Michaud-Reinaud IV, 489, 499.

(٥)

Contin. de Guill. de Tyr, p. 446 et s; Makrisi, Hist. des sultans

(٦)

mamlouks, trad. par Quatremère I, 2, p. 27 et s.

Voy. la note de Weil, Gesch. d. Chalif. IV, 47.

(٧)

وتبعاً لذلك لا يكون من الصواب أن نسلم دون تمحيص بفكرة وجود اتفاق بينه وبين الجنويين وسيد صور . ولهذا التحفظ ما يبرره . لأن المؤلف الوحيد الذى أشار الى هذه الواقعة أثبتتها فى عصر بعيد عنها توفى عام ١٤٠٥) ، ثم اننا لا نملك النص الأصلي للتاريخ الذى كتبه . كذلك يقول السيد رينو M. Renaud ان الفقرة التى تقوم عليها تلك القصة كلها تتألف من عبارات شديدة الغموض (١) (*) .

ثم انه لا أهمية لكل ذلك ؛ فالثابت مع الأسف الشديد أن الجنويين مضوا بأنفسهم يغيرون على عكا فى وقت كان فيه السلطان يترقب فرصة ملائمة للاستيلاء على المدينة . فالواقع أنه حدث فى عام ١٢٦٧ أن ظهر الأميرال الجنوى كشييتو جريمالدى Lucchetto Grimaldi أمام المدينتى ، واستولى على برج موش Mouches (برج الذباب) القائم على البحر ، وسد مدخل الميناء ، وأجبر السفن التى كانت تريد الدخول أن تتجه الى صور ، ولم يترك سفينة تخرج من الميناء دون أن يطاردها ويقبض عليها ويحرقها . وبعد وقت ما ، انصرف هو نفسه الى صور ، وترك قسماً من أسطوله تحت امره باسكوييتو مالوفى Pasquetto Mallone الذى واصل الحصار الى أن اضطر الى الانسحاب أمام أسطول بندقى يقوده ياكويو داندولو ، ومارينو موروسيني ، ومضى ليلحق برئيسه فى صور (٢) .

وانتهى هذا الصراع الشرى بين البندقية وجنوا ، والذى كان شرا وبيلا على مدينتى صور وعكا فى عام ١٢٧٠ بعقد هدنة طويلة الأمد (عقدت أولاً لخمس سنوات ، ثم مونت سنتين) (٣) . وكان البابا كليمنت الرابع قد بدأ مساعى الصلح ، وحققها الملك القديس لريس (٤) . وفى غضون هذه الهدنة ، ان لم يكن قبلها (٥) استرد الجنويون على الأقل ملكيتهم لحيهم القديم فى عكا ، والذى احتله البنادقة . ومع ذلك فمن ١٢٧٢ الى ١٢٧٥ اتهموا بايل البندقية القائم بهذه المدينة بأنه لم يراع تماماً شروط الصلح ، وأنه ما زال يحتفظ ببعض المنازل التى كان لهم حق ملكيتها (٦) . ولكن البيزيين كانوا هم أيضاً ولم يزلوا يشغلون قسماً من الاقليم الجنوى ، وكان هذا حساباً خاصاً بينهم (وبين

(*) (يقصد بهذا المؤلف الوحيد ابن الفرات - المترجم)

(١) Wilken, Gesch. der kreuzz. VII, 463 et ss. ; M. de Mas-Latrie, (Histoire de Chypre, I, 396, 441 ; M. Röhrich, dans les Archiv, de l'Or. lat, II, p. 375.

Da Canale, p. 453-553 ; Dandolo, p. 374 ; Annal. Jan. p. 260 et s. ; Cotin. de Guill. de Tyr, p. 455 et s.; Sanuto, p. 223; Mas-Latrie (Hist. de Chypre, I, 396, 418).

Da Canale, p. 628, 630; Dandolo, p. 380, 389.

Wilken, op. cit. VII, 511.

Mas-Latrie (l.c. p. 422).

Da Canale, Nuova storia di Genova, II, 300; 111, 179.

(٣)

(٤)

(٥)

(٦)

الجنوبيين) ، ولم تلبث الفرصة أن سنحت لتسوية هذا الحساب . ففي عام ١٢٨٢ نشبت حرب جديدة بين جنوا وبيزا بشأن كورسيكا ، وتكبدت بيزا في موقعة ميلوزيا البحرية المشهورة (٦ من أغسطس ١٢٨٤) هزيمة ساحقة جعلتها قاب قوسين أو أدنى من الهلاك ، ودمرت الى الأبد قوتها . وامتدت آثار هذه الحرب الى عكا ، واستمرت ثمة بضع سنين بعد المعركة الفاصلة .

وفي عام ١٢٨٧ ، أغار الأميرال الجنوى رولاندو اسكيري Rolando Ascheri على اقليم البيزيين في عكا . الا أن هذه الاثارة لم يترتب عليها سوى حدوث بعض المناوشات (١) . وفي عام ١٢٨٨ اضطر البيزيون أخيرا ، وقد نفذت مواردهم أن يقبلوا عقد صلح مهين ، وتضمنت معاهدة الصلح بنودا هامة بخصوص مدينة عكا . كان البيزيون فيما مضى قد اشتركوا في هدم برج الجنويين ، ومن ثم اشترط صراحة في المعاهدة أنه يجب عليهم ، تكفيرا عن هذه الاساءة أن يهدموا بأيديهم البرج العالى الفاخر الذى شيده في حيهم لينافسوا به الجنويين ، والذى كان مصدرا للنزاع بين الأمتين : وكان عليهم أن يمتنعوا بتاتا عن بناء أى برج عادى أو حصين في حيهم ، أو شراء أى برج من أى شخص أو جالية . وكانوا قد احتلوا في عام ١٢٥٨ قسما من الحي الجنوى ، ذلك القسم الذى كان به البرج الذى هدموه ، وكانوا قد أقاموا به العديد من المباني ، من بينها سور ، فكان عليهم أن يتعهدوا بهدم هذه المباني في مهلة قدرها سنة ونصف ، وأن يردوا القسم الذى كانوا قد احتلوه في حي الجنويين الى ملاكه الأصليين بالحالة التى كان عليها قبلا في عام ١٢٥٨ ، والا يقيموا أى بناء في اقليم جنوى (٢) .

يمكن القول بأن الحرب التى بدأت بخصوص دير سان ساباس لم تنته الا بعقد هذا الصلح . نعم . انتهت هذه الحرب : الا أن العدو كان يدق على الأبواب ، وفات الاوان لجنى ثمار هذا الصلح . وكانت قيصرية ، وأرسوف (١٢٦٥) ، ويوبيه ، وأنطاكية ، وجبيل (١٢٦٨) قد وقعت في أيدي بيبرس سلطان مصر . أما لاوديكية التى استردها المسيحيون منذ قليل ، فقد أمست مهددة من جديد . وهناك قضى السلطان قلاوون خليفة بيبرس على سيادة المسيحيين باستيلائه على قلعة البحر : ولم يكن هذا الفتح سوى تحقيق لمشروع قديم يستهدف ارضاء تجار الاسكندرية الذين كانوا ينظرون بعين الحسد الى ازدهار تجارة هذه المدينة (٣) . وهندى نقطة هامة في تاريخ التجارة ؛ ولما كانت هذه المعلومة ثابتة في مصدر عربى ، فانها تستحق أن نتوقف عندها

Annal. Jan. p. 317.

Lib jur. II, 135-138; voy. aussi 116 et s.

Michaud-Reiaud, Biblioth, des crois. IV, 560 et s.

(١)

(٢)

(٣)

قليلا : ذلك أنها في الواقع تثبت أن لاوديكيا كانت على علاقات واسعة بالشرق ، عن طريق حلب ، وبلاد حوض الفرات ، وأن التجار الغربيين كانوا دائما يأتون إليها طلبا للتوابل وغيرها من السلع . وحتى تثار الى هذا الحد غير الاسكندرية كان لابد من أن تكون تلك المدينة (لاوديكيا) مركزا هاما لتجارة الجملة ؛ وهذى نقطة سوف نعود إليها في خصوص التجارة التى كانت تمارسها البندقية مع حلب ، وهى تجارة كان معظمها يمر بمدينة لاوديكيا .

وكان من شأن استيلاء المسلمين على هذه المدينة أن قضى على آخر أثر لامارة انطاكية القديمة . وما لبثت كونتية طرابلس أن لقيت المصير ذاته . وكان الكونت بوهموند الثامن قد توفى فى شهر أكتوبر ١٢٨٧ ولم يترك ولدا ، وطالب بتركته كل من أمه سيبيل Sybille ابنة أحد ملوك أرمينيا ، وأخته لوتشيا Lucie (١) المتزوجة من فارس فرنسى يدعى نارجو دو توسى Nargaud de Toucy : واعترف أهالى طرابلس بلوتشيا وريثة شرعية ، غير أنها كانت وقتئذ فى الغرب ، وقبل حضورها ، انقضى وقت كاف انقلبت فيه الأمور فى غير صالحها . ذلك أن بارتولوميو امبرياكو (٢) Bartolommeo Embriaco سيد جبيلة القائم بأعمال الحكومة بالنيابة ، كان قد دبر تحويل الكونتية لمصلحته ، فبدأ بالتضالغ مع أهالى طرابلس ، وشعر بضرورة عقد محادثات مع الخارج ، فسعى الى الحصول على مساندة قلاوون (٣) سلطان مصر من جهة ، وجمهورية جنوا (٤) من جهة أخرى ، وبذل لهما أجمل الوعود . فبالنسبة الى جنوا ، تعهد بين ما تعهده لها بأن يرد لها ثلث مدينة طرابلس ، الثلث الذى كان لها الحق فيه منذ بداية الغزو . وبالفعل بعث الجنويون الى طرابلس فى عام ١٢٨٨ الأميرال بنديتو زاكاريا مزودا بسلطات واسعة ، ومعه سفينتان حربيتان ، وضم اليه فى الطريق ثلاث سفن أخرى . وكانت الأميرة لوتشيا وقتئذ تحت أسوار طرابلس على رأس قوات كبيرة ، وكانت قد أتت معها من الغرب بخمس سفن حربية ، ضمت لها أربعا أخرى منذ وصولها الى سوريا ، منها واحدة فينيسية وواحدة جنوبية . وكانت المدينة توشك على الاستسلام ، الا أن وصول زاكاريا زود أنصار سيد جبيلة بعزم جديد ، فاضطرت لوتشيا أن تتفكر . ولم تتضمن المعاهدة المبرمة بين الأميرال وبين بارتولوميو كل الوعود التى قدمها الأخير ، ولكنه مع ذلك ضمن

(١) Lignages d'outremer, p. 447 ; Minieri Riccio, I grandi uffixi del regno di Sicilia p. 29.

(٢) Sanut, p. 229 ; Michaud-Reinaud, Biblioth. des crois, IV, 561 et s. Not. et extr. XI, 47; Weil, Gesch der Chalif. IV, 161; les Annal. Jan. p. 322.

(٣) Aboul Mahasin, dans Weil, op. cit., IV, 161 et s.

(٤) Annal. Jan. p. 322.

لجنوا توسعا في سلطتها وأملأها ، وكان أول نتائجها أن بعثت حكومة جنوا للتو الى طرابلس موظفا يحمل لقب بودستات (١) . وما لبث زاكاريا أن اعترف بأن بارتولوميو لم يكن في عزمه أن يوفى بتعهداته ، وهذا ما أكدته بنفسه ، وحملته خيبة الأمل على أن يتقرب من لوتشيا (١٢٨٩) ويجرى معها تسوية نهجها تفصيلها (٢) .

ولم تأت أية واحدة من هاتين المعاهدتين لجمهورية جنوا بالمكاسب التي كانت تنتظرها . ولم يمض على توقيعهما سوى وقت قصير حتى أقبل قلاوون ، وحاصر طرابلس ، ونسى الأميرال الجنوى كل المآسى التي كابدها في هذه الناحية ، وهرع الى نجدة الموقع ومعه البيزيون والبنادقة ، ولكنه لم يستطع أن يمنع سقوطه في أيدي المصريين (٢٧ أبريل ١٢٨٩) (٣) ، واكتفى بانقاذ السكان ومساعدتهم في الانتقال الى جزيرة قبرص . وكان أهالي طرابلس على وشك أن يتلقوا مددا آخر من جهة لم يكونوا يتوقعونها دون شك ، تلك هي مستوطنة حيفا الجنوبية التي جهزت ثلاث سفن حربية حين بلغها نبأ الخطر الذي يتهدد طرابلس ، وأرسلتها تحت امرة قنصلها باولينو دوريا Paolino Doria لنجدة مواطنيه ، ولكنه لسوء الحظ وصل متأخرا . وانا لنعلم من قبل تعلق هذه المستوطنات بوطنها الأصلي . وهذا مثال طيب لتعلقها بعضها ببعض (٤)

وأخيرا ، في ١٨ من مايو ١٢٩١ ، سقطت عكا الحصن الرئيسي للدول الصليبية ، وكانت مهمة الدفاع عنها موكولة أساسا لهيئات الفرسان الدينية ولكن كان ينقصهم شيئان : الاتحاد فيما بينهم ، وسلطة كافية لفرض الطاعة على الغير . وتسجل الوقائع في هذا الخصوص عدم التناسق بين البنادقة والبيزيين (٥) . على أن سكان الأحياء التجارية تحملوا بحماسة قوية كل أعباء الدفاع والخدمات الليلية (٦) . وقد أثنى البعض على شجاعة البيزيين وكفاءة آلائهم الحربية (٧) . ولم يقل المؤلفون الذين تركوا لنا قصة هذه الكارثة كلمة واحدة عن الجنويين ، والسبب على ما يبدو بوضوح أنهم منذ أن هاجروا الى صور لم يعودوا أبدا الى عكا في جموع كبيرة . وعندما اقتحم العدو المدينة كان

Ibid. p. 326.

Annales génoises, texte donné par Pertz, p. 322,323 et s.

(٣) بعد بضعة أيام لقيت نثنين وبثرون نفس الصير الذي لقيته العاصمة . انظر :

— Wilkeu, Gesch. der Kreuzz., VII, 706; Weil, Gesch. der Chalif., IV, 163.

Annal. Jank. p. 324.

Relation d'Assenius dans Murat., SS. XIII, 1183.

Le Magister Thadeus, de Naples, dans son : Historia de desolatione

et conculcatione civitatis Acconensis éd. Riant), Genevoo 1874, p. 27.

Amadi, dans Mas-Latrie, Hist de Chypre, I, 489.

المستوطنون الذين ينتمون الى الأمم التجارية أول من فروا ، وهرعوا الى السفن لينقذوا أرواحهم وأموالهم(١) . ولما لم تكن المدينة محاصرة من ناحية البحر ، فان الذين أعوزتهم الارادة أو القدرة على الاشتراك فى الدفاع ، وجدوا أمامهم متسعا من الوقت للفرار حاملين أمتعتهم الى قبرص أولا ، ومنها الى الغرب ، لذلك لم يجد العدو فى المدينة غنيمة ثمينة(٢) . على أن التجارة الغربية حين فقدت عكا ، فقدت بها سوقا فسيحة ، مزودة على الدوام بوفرة من السلع المطلوبة النادرة ، وذلك لأمد طويل ، لأن العدو دمر المدينة تدميرا . ومنذ هذه اللحظة كف المسيحيون فى المدن التى مازالت حرة فى مملكة بيت المقدس وكونتية طرابلس عن ابداء مقاومة لا جدوى منها ، ومن ثم جلوا عن صور ، وصيدا ، وبيروت ، وطرطوس ، وجبيل دون أية مقاومة .

وانتهى كل شيء بالنسبة الى الدول الصليبية ، وأمسى الدمار الذى كان يتهدها زمنا طويلا حقيقة واقعة . ولا مجال هنا للاستفاضة فى ذكر أسباب هذا الانهيار ، ولكننا نشير من بين هذه الأسباب الى النصيب من المسئولية الذى يقع دون شك على كاهل أفراد الجاليات التجارية ، وبخاصة الايطاليين . وقد أوضح ذلك جاك دو فيتري ، اذ كان على علم تام بشئون الأرض المقدسة فى القرن الثالث عشر : فهو يسلم بمزايا الايطاليين ، وبصيرتهم ، ويقظتهم ، ورعايتهم مصالح الدولة ، وصلابتهم فى الدفاع عن حقوقهم ومؤسساتهم ، وقناعتهم التى جعلتهم أكثر من سائر الأمم قادرين على مسايرة الحياة فى الشرق ، وهو يقدر الخدمات التى أسدوها للمسيحية فى سوريا ، بفضل تفوق بحريتهم العسكرية ، ونشاط بحريتهم التجارية التى تكفلت بالنصيب الأكبر من عمليات نقل الحجاج والمؤمن والبضائع ، ولكنه يستنكر أيضا تنافسهم الحاد فى مضمار التجارة ، وحبهم للكسب بدرجة الجشع ، الأمر الذى تسبب فى منازعات لا آخر لها ، وحروب أهلية يبتهج لها العدو وحده(٣) . وكثيرا ما بعث أهالى سوريا بشكاواهم الى الغرب ، ووصفوا منازعات الجاليات التجارية الايطالية بأنها شر لا بد أن يؤدى الى خراب المؤسسات المسيحية كلها ، وطالبوا باجبارهم على أن يعيشوا قبل كل شيء فى سلام ، حتى ولو تطلب ذلك حرمانهم من امتيازاتهم(٤) . وقد حمل بعض الحجاج شكاوى من هذا النوع الى فريزيه Frise . وبعد انقضاء زمن طويل على سقوط عكا ، وقف لودلف دى سوديم

Thadeus Neopolitans, l.c.

(١)

Wilken, VII, 748, 756, 774 not. 129.

(٢)

Jacq. de Vitry, dans Bongars, Gesta dei per Francos I, p. 1085 et s., 1089; le Tractatus de terra sancta, éd. Thomas, p. 15, 31.

(٣)

La Biblioth. de l'école des chartes, 4e série, T. IV, p. 288 et s., 290 et ss. ; le Mémoire d'Amaury de la Roche, dans Mas-Latrie, Hist. de Chypre, II, 72.

(٤)

Ludolphe de Sutheim فوق أطلال المدينة ، فلعن تفرق البيزيين ، والجنوبيين ، واللومبارديين ، تفرقا أدى الى ضياعهم (١) (*) . ومع ذلك ينبغي لنا ألا ننسى أنه اذا كانت الجاليات الايطالية مسئولة عن وقوع الكارثة ، فان جانباً أكبر من المسؤولية يقع على كاهل أولئك الذين كانت مهمتهم الخاصة هي الدفاع عن الأرض المقدسة ضد المسلمين ، وقصروا في أداء هذه المهمة ، ومنهم هيئات الفرسان ، بما كان يشيع فيهم من حسد وغيرة ، وكذا البارونات بعصيانهم .

ولم يتأخر العقاب ، وكان قاسياً ، ليس فقط على الأمراء والبارونات الذين جردوا من أراضيهم ، وعلى هيئات الفرسان الذين وقعت قصورهم الحصينة في أيدي العدو ، ولكن أيضاً على الأمم التجارية التي شاركت أحيائها الغنية التي تهدمت في مصير المدن التي نشأت فيها . ومع ذلك لم يقل المستقبل كلمته الأخيرة بشأن الجاليات التجارية في سوريا . فقد أقام الايطاليون في عهد الدول الصليبية علاقات مع دمشق وحلب ، على سبيل المثال ، علاقات لم تنقطع أبداً ، ولم تلبث بيروت أن احتلت مكانة هامة بين الأسواق المشتركة في تجارة الشرق والغرب ، وأصبحت من الموانئ التي يكثر تردد الأساطيل التجارية الايطالية عليها .

General Organization of the Alexandria Library (GOL)



فهرس

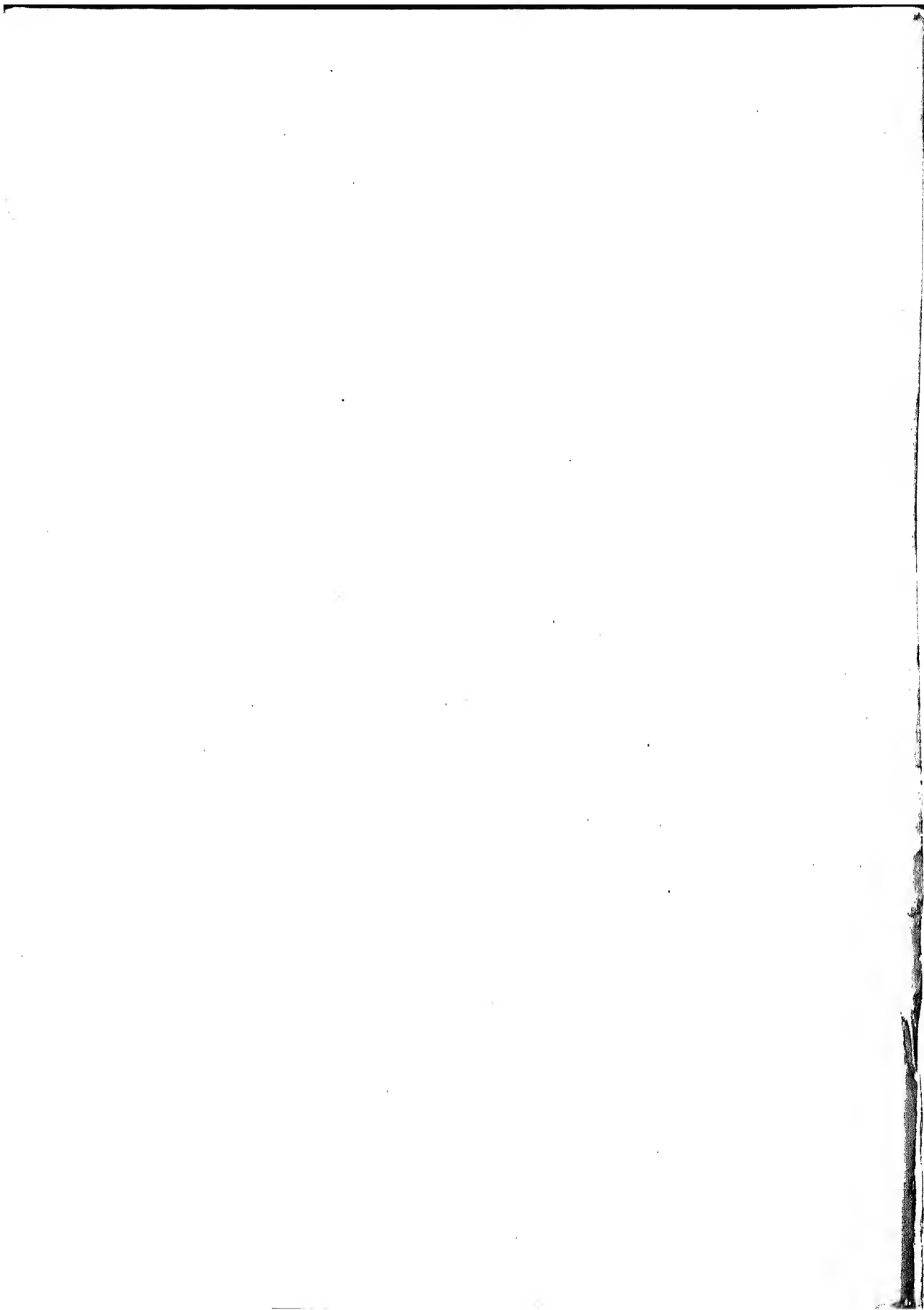
صفحة

٣	تقديم
٧	مقدمة المؤلف
	الحقبة الأولى : البدايات منذ الفتوحات الكبرى حتى
١١	الحروب الصليبية
١٣	الفصل الأول : عصر جو ستنيان وخلفائه
٤١	الفصل الثاني : ظهور محمد (صلعم) وبداية الحروب الصليبية
	الحقبة الثانية : انشاء مستوطنات تجارية على سواحل الليفانت
١٤٣	(شرقى البحر المتوسط)

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب

رقم الايداع بدار الكتب ٤٧١٧ / ١٩٨٥

ISBN × - ٠٦٨١ - ٠١ - ٩٧٧ -



عمل موسوعى موثق ومؤصل فى تاريخ الحضارة خلال
حقبة من تاريخنا ، وهى الحقبة التى تخللتها الحروب الصليبية
فى الشرق الأدنى ، ما بين القرنين التاسع والرابع عشر
الميلادى .

ويضم الكتاب بحوثا موثقة عن العلاقات الرسمية وغير
الرسمية بين دول البحر المتوسط - على شاطئيه الإسلامى
والمسيحى - شملت التاريخ والجغرافية والاقتصاد والتجارة
والسياسة والثقافة والاجتماع .

ويعد هذا الكتاب أثرا من آثار المعرفة والتحقيق المنهجى
الحديث للتراث الثقافى ، بجانب قيمته التاريخية والحضارية .